رسائل جامعية

١٥

الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم

د. محمد الأمين موسى أحمد

إشراف

البروفيسور علي محمد شمو

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة - ٢٠٠٣

عبدالرحمن الشهري

الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم

الاتصال غير اللفظي
في القـــرآن الكريم

د. محمـد الأمـين موسى أحمـد

اشـــراف

البروفيسور علي محمد شمو

اصدارات دائرة الثقافة والإعلام ، حكومة الشارقة ٢٠٠٢م

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدى دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة
الطبعة الأولى ٢٠٠٣م
الناشرون: دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة
ص. ب : ٥١١٩ الشارقة
هاتف: ٥٦٧١١١٦ ٠٠٩٧٦
برّاق ٥٦٦٢١٢٦ ٠٠٩٧٦

٢٢٥,٢	محمد الأمين موسى
م ١.١	الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم/ محمد الأمين موسى. - الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٣
	١١٢٠ ص : ٢٤ سم. - (سلسلة رسائل جامعية)
	١- القرآن - المجاز ٢- القرآن - ألفاظ
	٣- القرآن، بلاغة أ- العنوان ب- السلسلة

ISBN/ 9948-04-196-8
ISBN/ 9948-04-067-8

تمت الفهرسة بمعرفة مكتبة الشارقة

الإهداء

إلى أختي حنان

شكر وعرفان

أتقدم بجزيل الشكر وخالص امتناني لأستاذي الجليل محمد شمو، الذي وهب هذا البحث من فيض عبقريته الكثير، ومنحني من عطفه ورعايته كل جميل...

والشكر موصول لأستاذنا البروفسير عون الشريف قاسم، المنارة المعرفية الشامخة، لتشريفه لي بالمشاركة في تقويم هذه الرسالة واغنائها.

والشكر كل الشكر لأستاذي الدكتور فيصل محمود حسن، الذي يرجع له الفضل في توجيه هذه الرسالة، قبل أن أسجلها رسمياً بالكلية، والشكر له على ملاحظاته القيمة.

كما أتقدم بالشكر لإدارة كلية الإعلام بجامعة أم درمان الإسلامية على الخدمات الجليلة التي أسدتها لي.

ولكل من ساعدني في انجاز هذا البحث، التجلة والاحترام.

مقـــدمة

إن الحياة التي يعيشها الإنسان حافلة بالصعاب والتحديات، التي لابد من مواجهتها، إلى أن يأتيه اليقين فيفارق الحياة. وإذا نظرنا في جل هذه الصعاب والتحديات، نجدها نابعة من التواصل مع الذات ومع الآخرين. إنه لأمر يدعو إلى التأمل والتدبر أن يجد الإنسان نفسه بعد آلاف من السنين على ظهر البسيطة، مواجها بتحد عنيد يتمثل في الكيفية التي يجب أن يتواصل بها بفعالية واقتدار مع ذاته ومع بقية البشر، في الوقت الذي قطع فيه، هذا الإنسان أشواطا هائلة من التقدم في التفكير ومعالجة المسائل العملية التي تواجهه، مما مكنه من بذل جهود كبيرة في السيطرة على العديد من الظواهر والتهديدات النابعة من البيئة المحيطة، ودفع به الفضول والاجتهاد إلى ارتياد الفضاء البعيد.

يشكل الاتصال البشري عصب الحياة، ولا تستقيم من دونه، وقد تفقد معناها عندما يختل، وهذا ما يجعل منه تحديا مستمرا وهدفا صعب المنال،

منذ أن هبط سيدنا آدم عليه السلام إلى الأرض، إلى يومنا هذا. وعندما يعود بنا القرآن الكريم إلى تلك الأيام تجدنا نردد: «ما أشبه اليوم بالبارحة»: صعوبات في الاتصال وسوء فهم لعلاقات الأفراد فيما بينهم ولعلاقتهم بخالقهم؛ قد تتعدد الأشكال والأساليب وتبقى النتيجة واحدة.

لقد دفعني هذا الإحساس بأهمية الاتصال في حياة الإنسان، وتحديه المستمر للدماغ البشري، إلى الالتجاء للقرآن الكريم، باعتباره أعظم رسالة تواصلية تلقاها الإنسان، لتلمّس بعض الإجابات الشافية لبعض التساؤلات المؤرقة في علم الاتصال، متضمنة جل ما يتعلق بالتواصل عبر القنوات غير اللفظية التي تتساب منها حصة الأسد من الرسائل الاتصالية.

فالقرآن الكريم، أفضل مصدر لتلقي المعرفة، لمن آمن به وسعى لإدراك ما يتضمنه من علم لا يتسرب إليه الباطل أو الشك من بين يديه أو من خلفه. والقرآن هو الدليل الأسمى للإنسان في مسيرته الحياتية، الذي ينير له الطريق ويهديه إلى تحقيق إنسانيته الكاملة التي فطره الله عليها. وقد قال الله تعالى عن الفوائد المعرفية للقرآن الكريم، في الآية 38 من سورة الأنعام ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾. وقد حثنا رسولنا الكريم على طلب العلم والمعرفة من خلال القرآن الكريم؛ إذ روى الإمام البخاري «عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: خيركم من تعلم القرآن وعلّمَهُ». وفي رواية أخرى «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه» [1].

يكتسي القرآن الكريم أهميته من كونه كلام الله الخالق الذي له الأسماء والصفات الحسنى المطلقة، ومن بينها الإحاطة والعلم بكل شيء. وكل المساعي التي بذلها الإنسان منذ نزول القرآن الكريم إلى الآن، في دراسة هذا النص الإلهي المقدس، والاقتداء بما جاء فيه واستلهام المعارف الدنيوية، يبين بجلاء، إلى أي مدى يستطيع الإنسان أن ينهل العلم والهداية من هذا النبع الذي لا

ينضب. وإذا تمكن علماء المسلمين، بفضل إيمانهم ومثابرتهم ومنهجهم العلمي الرصين، من استنباط القوانين والنظريات والأحكام العلمية من القرآن الكريم، في مجالات عديدة، كالفلك والفيزياء والكيمياء والأحياء والطب والاقتصاد وعلم اللغة، فلا شك أن القرآن الكريم هو أفضل ما يعتمد عليه في تراكم المعرفة في العلوم الإنسانية، وفي مقدمتها علم الاتصال. إذ تساعدنا دراسة القرآن الكريم على فهم طبيعة الإنسان، وفهم الحياة وفهم الأشياء التي لا يمكن إدراكها بالحواس، كالروح والحياة والموت، وفهم ما ينتظر الإنسان في الحياة الآخرة. وهكذا نجد أن القرآن الكريم أحق بالدراسة من كل النصوص التي توفرت عبر تاريخ البشرية، لمصداقيته المطلقة، وحفظ الله له من كل تحريف أو تبديل.

كل هذا، دفعنا إلى عقد النية خالصة للسعي للتعرف إلى أبرز ما ورد في القرآن الكريم عن علم يعد من أحدث العلوم وأكثرها أهمية وارتباطا بحياة الإنسان، ألا وهو علم الاتصال غير اللفظي. وهو علم يهدف إلى إبراز الجوانب الخفية التي تكمل صورة الاتصال البشري. فإذا كان تطور اللغات اللفظية وتعددها عبر آلاف السنين، جعل البعض يعتبرها الوسيلة الوحيدة الأكثر رقيا للتواصل البشري، فإن اهتمامات الباحثين من مختلف التخصصات العلمية، بيّنت منذ منتصف القرن الماضي، أن اللغة غير اللفظية التي تنساب عبر قنوات عديدة، هي أكثر أهمية وفعالية في تحقيق التواصل البشري، مقارنة بنظيرتها اللفظية. كما تبين أن اللغة غير اللفظية أقدم وجودا وأكثر التصاقا بالإنسان منذ لحظات تكونه الأولى في رحم أمه إلى أن يفارق الحياة وهو في أرذل العمر؛ وهناك العديد من مفردات اللغة غير اللفظية وقواعدها التي توجد بالفطرة ولا تحتاج إلى تعلم، كما هو الشأن بالنسبة للغة اللفظية.

إن مصطلح «الاتصال غير اللفظي» ليس شائعا بين الناس، على الرغم من أنهم يمارسونه كما يمارسون عملية التنفس. والمؤسف أن غالبية الناس لا يدركون أهمية التواصل غير اللفظي في حياتهم اليومية، وهذا ما يفسر ويبرر سوء الفهم الكبير الذي يشوب عمليات الاتصال بين بني البشر، لدرجة تُحيّر الألباب. فعندما يقابل المرء أناسا من مختلف الشرائح العمرية والتعليمية، ويسألهم عن مدى معرفتهم لماهية الاتصال غير اللفظي، يجيب معظمهم بالنفي، وعندما يقال لهم إن الأمر يتعلق بنظرات العين وتعبيرات الوجه (كالابتسام والتكشير وغيرهما) والإيماءات التي تسيطر على سلوك اليدين وأوضاع الجسم (من استلقاء وجلوس ووقوف ومشي وجري..) واللمس والشم والذوق والمظهر.. إلى آخر قائمة القنوات الاتصالية غير اللفظية، حينئذ يبادر الجميع إلى استعراض خبراتهم الشخصية وخبرات غيرهم في مجال الاتصال غير اللفظي، ليتضح أن الأمر أكثر ألفة والتصاقا بحياة الناس، يمارسونه كل لحظة دون دراية علمية كافية، تمكنهم من تفادي الوقوع في الأخطاء وتجنب سوء الفهم، خاصة عند الاحتكاك بأفراد من ثقافات ومجتمعات أخرى متباينة.

من هنا نبع الدافع القوي لإنجاز هذه الدراسة التي اخترنا لها عنوان: «الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم» علّها تضيف لبنة في صرح علم الاتصال غير اللفظي الذي ازدهر في المجتمعات الغربية، خاصة الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا؛ ولتلفت النظر إلى ما تزخر به النصوص المؤسِّسة لديننا الإسلامي، من زخم علمي لا نظير له. وكان لابد من الاستئناس بالسنة النبوية الشريفة المتممة لكتاب الله، والتفاسير التي كرس لها علماء المسلمين حياتهم، سعيا وراء تبيان المقاصد الإلهية من كل كلمة وجملة وآية قرآنية قدر ما استطاعوا؛ وكذا الاستئناس بالقاموس اللغوي العربي الذي اعتمد اعتمادا

كبيرا على القرآن الكريم في إعطاء القيمة المعرفية العظيمة للغة العربية وإضفاء صفة الحيوية الدائمة عليها، بالرغم من تقاعس الناطقين بها وقعودهم عن مجاراة التطور العلمي الهائل الذي شهدته المجتمعات البشرية في العصور الحديثة.

أولاً: أهداف الدراسة وفوائدها:

تأمل هذه الدراسة في تحقيق العديد من الأهداف، من بينها:

1 - التعرف إلى مختلف قنوات الاتصال غير اللفظي من خلال النص القرآني، مع السعي إلى توسيع نطاق بعضها، وإغنائها بمفاهيم جديدة انفرد بها القرآن الكريم.

2 - إيراد معظم الآيات القرآنية التي تتحدث عن كل قناة اتصالية غير لفظية بعينها، ضمن دراسة مسحية شاملة، تحصر في كثير من الأحيان كل الآيات القرآنية التي تتطرق لموضوع بعينه؛ وتورد أمثلة كافية في أحيان أخرى.

3 - إنجاز دراسة - قد تكون رائدة - تؤصّل علم الاتصال غير اللفظي في كتاب الله، لتشكل لبنة في مشروع تأصيل علم الاتصال، الذي تزداد الحاجة إليه يوما بعد يوم.

4 - تبيان وتأكيد الأهمية التي يكتسبها الاتصال غير اللفظي ضمن الاتصال البشري. تلك الأهمية التي ثبتت من خلال الدراسات الحديثة التي لم تبحث بعد في النص القرآني.

وهكذا، نرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون لهذه الدراسة فوائد، وتخدم الإسلام والعلم. ومن بين الفوائد الموضوعية المأمول تحقيقها من هذه الدراسة:

1 - فتح المجال واسعا للاستفادة مما تضمنه القرآن الكريم من حقائق علمية لا يتسرب إليها الشك، حول الاتصال غير اللفظي؛ وتطبيق هذه الحقائق في مختلف مجالات الحياة..

2 - تزويد القارئ المسلم بالمداخل الرئيسة لعلم يعتبر من أحدث العلوم الإنسانية، وأكثرها التصاقا بحياة الإنسان اليومية. فقد تستطيع النتائج التي تتوصل إليها الدراسة أن تعرّف المسلم ببعض جوانب هويته وسلوكه التواصلي؛ كما تمكن غير المسلم من التعرف إلى السمات التواصلية العامة للمسلمين، عبر التاريخ.

3 - حثّ الباحثين على اقتحام هذا المجال البحثي، بإجراء المزيد من الدراسات المتعمقة حول الاتصال غير اللفظي من وجهة نظر إسلامية، بصفة خاصة، والسعي لتأصيل علم الاتصال بصفة عامة.

4 - تزويد المكتبة الإسلامية والعربية، بدراسة قد تملأ بعض الفراغ الحاصل في الدراسات الاتصالية والإعلامية.

5 - وآمل أن تكون هذه الدراسة، القنطرة التي يعبر منها المهتمون بالدراسات الإعلامية والاتصالية إلى شواطئ المهتمين بالدراسات الإسلامية، والعكس صحيح. خاصة ونحن في عصر تتعالى فيه الدعوات للانفتاح بين العلوم المختلفة والعودة إلى المعرفة الموسوعية التي اتسم بها العلماء في السابق. ذلك أن الحقيقة أبعد من أن ينالها من ينغلق على حدوده الضيقة.

أما الفوائد الذاتية التي تحققها هذه الدراسة، فهي كثيرة، أبرزها إتاحة الفرصة للباحث للتفاعل المتواصل مع القرآن الكريم، وليس هناك متعة تضاهي التعامل مع كلام الله والتأمل فيه. كما شكلت الدراسة، فرصة سانحة لكي يغني الباحث حصيلته المتواضعة من العلوم الاتصالية الحديثة، ببعض ما

يزخر به التراث الفكري الإسلامي من أحاديث شريفة وتفاسير قرآنية وسير ومؤلفات فقهية؛ مما يعزز الفهم السليم للاتصال البشري. ولابد من الإشارة إلى الرضا والطمأنينة التي لازمت الباحث أثناء إنجازه لهذه الدراسة، الأمر الذي ذلل له العديد من صعوبات البحث العلمي الذي لا يتأتى إلا بالمثابرة والمعاناة، فالحمد لله.

ثانياً: أسئلة الدراسة وفرضياتها:

يستطيع المرء أن يتوقع، من خلال قراءة عرضية للقرآن الكريم، أن دراسة متعمقة للاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، قد تجيب عن العديد من التساؤلات التي تندرج ضمن صميم علم الاتصال غير اللفظي، مثل:

1 - ما حجم تواجد الاتصال غير اللفظي ضمن النص القرآني؟ وكم هو عدد الآيات التي تتضمن إشارات للاتصال غير اللفظي، وما نصيب كل قناة غير لفظية على حدة؟

2 - هل للاتصال غير اللفظي أهمية تقترب من أو توازي الاتصال اللفظي، في القرآن الكريم؟

3 - ما الذي يميز الاتصال غير اللفظي المستنبط من النص القرآني، عن المستنبط من النصوص الأخرى؟

4 - أيمكن اعتبار القرآن الكريم، سجلا مؤرخا لظهور بعض السلوكات الاتصالية غير اللفظية، ولتطورها عبر الأجيال والثقافات؟

5 - إلى أي مدى يظهر الطابع العالمي/الفطري لبعض السلوكات غير اللفظية، استنادا إلى عالمية توجّه النص القرآني؟

6 – كيف يمكن التعامل مع السلوكات الاتصالية غير اللفظية، التي يذكر القرآن الكريم بأنها ستحدث في الحياة الآخرة؟ وهل يتم إدراكها من لدن الجميع، وفقا لطابع العالمية؟

7 – ألا يجوز لنا أن نعتبر القرآن الكريم – بألسنته المتعددة التي نزل بها، وبصياغته الفريدة والكيفية التي يتلقاه بها الإنسان ويبلّغه للآخرين عبر حاسة السمع والنطق – في مجمله رسالة اتصالية غير لفظية بالغة التأثير؟

وتكمن في الأسئلة التي أثرناها، العديد من الفرضيات التي يمكن صياغتها كما يلي:

1 – معظم آيات القرآن الكريم تتطرق، على الأقل، إلى قناة من قنوات الاتصال غير اللفظي.

2 – هناك تباين في أهمية قنوات الاتصال غير اللفظي، يمكن استشفافه من خلال حجم وعدد الآيات التي تتطرق لكل قناة؛ كما يمكن استشفافه من خلال الأثر الذي يتركه الاتصال عبر القناة غير اللفظية بغض النظر عن الحجم والعدد.

3 – باعتبار القرآن الكريم كلام الله، وهو الأصدق قولا من كل النصوص التي عرفها الإنسان، فهو قد يشكل أكبر دليل للتواصل غير اللفظي الفعّال.

4 – يقدم القرآن الكريم أدلة كافية عن الطبيعة الفطرية لبعض السلوكات الاتصالية غير اللفظية، وعن الطبيعة المكتسبة للبعض الآخر.

5 – هناك مفهوم خاص لإدراك الزمن يمكن استشفافه من القرآن الكريم، ينسجم مع نسبية الزمن كما أشارت إليها النظرية النسبية لإينشتاين.

6 – يعزز القرآن الكريم التوجه العلمي نحو عدم الفصل الواضح بين الاتصال اللفظي وغير اللفظي، خاصة أن القرآن الكريم ينبني على لغة لفظية

معجمية، تصف العديد من السلوكات والمظاهر غير اللفظية التي حدثت أو التي ستحدث.

ثالثاً: المنهج المتبع في إعداد الدراسة وتحريرها

اعتمدت الدراسة على المسح الشامل لجميع آيات القرآن الكريم، قصد استكشاف ما تتضمنه من إشارات للاتصال غير اللفظي، كما هو متعارف عليه في الأوساط العلمية التي تصنفه ضمن قنوات متمايزة وأحيانا متداخلة فيما بينها. وقد اتبعتُ ثلاث خطوات متتالية لاستخراج الآيات التي تندرج في صميم الدراسة، ومن ثم تصنيفها. إذ قمت في الخطوة الأولى، بقراءة المصحف من أوله إلى آخره، ودرجت أثناء قراءتي على تسجيل رقم كل آية يتبين لي من خلال سياقها الصريح، أنها تحتوي على إشارة لإحدى قنوات الاتصال غير اللفظي. وأعدت هذه الخطوة مرة ثانية، فكانت النتيجة حصرا أوليّا للآيات المطلوبة.

واستعنت في الخطوة الثانية، بـ «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» الذي وضعه محمد فؤاد عبد الباقي؛ والذي يصنف الآيات القرآنية حسب الألفاظ الواردة فيها مرتبة ترتيبا ألفبائيا. وبما أن هذا المعجم يورد جميع الألفاظ التي تشتق من أصل واحد، تحت سقف واحد، وبما أن اللفظ الواحد قد تكون له عدة دلالات ومعان متباينة وأحيانا متضادة، فكان لابد من التنبّه لعدم الأخذ بجميع ما ورد في المعجم، بل لابد من الرجوع لدلالة اللفظ في القاموس اللغوي العربي أو إلى أحد التفاسير، للتأكد من ملاءمة اللفظ لموضوع الدراسة. وقد ساعد هذا الإجراء على إضافة العديد من الآيات إلى التصنيف الذي قمت به في الخطوة الأولى، وإعادة ترتيب بعض الآيات بتحويلها من قناة اتصالية غير لفظية إلى قناة أخرى.

أما الخطوة الأخيرة، فقد تمت أثناء عملية التحرير الأولي للأطروحة. فقد تبين من خلال التفاسير المتعددة للآيات القرآنية ومن خلال النظر في قاموس «لسان العرب» الذي غالبا ما يسهب ويفصّل في معاني المفردات، أن هناك العديد من الآيات التي يجب إعادة ترتيبها. فعلى سبيل المثال، سبق أن صنّفت قوله تعالى في الآية 162 من سورة البقرة «خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون»، ضمن الاتصال بالعين، إذ قلت لنفسي ﴿ينظرون﴾ تندرج ضمن النظر؛ ولكن عند الرجوع إلى التفاسير والقاموس، تبين جليا أن هذه الآية أقرب إلى أن تعالج ضمن الفصل المتعلق بمفهوم الزمن، حيث إن ﴿ينظرون﴾ أقرب في مدلولها وسياق الآية إلى الانتظار (في الزمان والمكان)، وليس إلى النظر بالعين.

ونتيجة لهذه الخطوة الأخيرة، كان لابد من الاعتماد على الإحصاء البعدي للآيات التي تم الاعتماد عليها فعليا، في متن الدراسة، كحصيلة رقمية يمكن تقديمها، واعتبارها محاولة لحصر الآيات القرآنية التي تتطرق للاتصال غير اللفظي.

وهكذا، تضمنت هذه الدراسة 4480 آية قرآنية، مشكلة نسبة 72٪ من العدد الإجمالي لآيات المصحف الشريف (وعددها 6236 آية). وتتوزع هذه الآيات على 111 سورة من ضمن 114 سورة بنسبة 97٪. ولا شك أن هذه الأرقام والنسب تبين مدى تواجد الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، مما يعطينا الحق في الزعم بأهمية الاتصال غير اللفظي، قبل أن تثبت الدراسة ذلك.

وتفاديا للخروج عن صميم موضوع الدراسة، تعامل الباحث مع القراءات (الروايات) المتعددة للنص القرآني في الحدود الضيقة التي تخدم غرض الدراسة؛ وتعامل مع خمسة تفاسير مشهورة، بكيفية انتقائية، فلا يورد تفسير آية ما إلا إذا كان هذا التفسير مبينا ومعززا لسلوك غير لفظي أو ذاكرا لقناة

اتصالية غير لفظية؛ فقد حاولت جاهدا الا أنساق وراء إغراء المادة العلمية الغزيرة التي تقدمها التفاسير، فأخرج عن موضوع الدراسة، لذا سيجد القارئ العديد من نقط الحذف داخل الاقتباسات - حتى المطولة منها - مما يدل على أنني التزمت فقط بإيراد ما يخدم غرض الدراسة. وهكذا يجب ألا ينظر إلى هذه الدراسة كتفسير لكتاب الله، بل مستأنسة بالتفاسير وغيرها من المصادر في تبيان مدى تواجد الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم. ففي بعض الأحيان نجد أن آية ما قد فُسِّرت من لدن أربعة مفسرين، وكل التفاسير تكمل بعضها بعضاً، فيتم ذكر التفاسير الأربعة؛ وفي أحيان أخرى تكون دلالة الآية واضحة وانتماؤها للاتصال غير اللفظي لا جدال فيه، فيصبح عندها، تقديم أي تفسير، نافلة، وذلك تفاديا للتطويل. وقد تكون الأمثلة أكثر من اللازم، مما يحتم الاكتفاء بذكر بعض الأمثلة والإحالة الى بقية الآيات في القرآن الكريم أو في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مثال: «الأرض» التي ورد ذكرها في 461 موضعا بالقرآن الكريم.

وتعاملنا في مرحلة تحرير الدراسة، بدءا من الفصل الأول إلى الفصل الأخير، بكيفية شبه متماثلة، حتى يسهل على القارئ تتبع التحليل والإحالات المرجعية. فقد قمنا بوضع جميع الآيات القرآنية المقتبسة بالكامل بين المزدوجتين «...»؛ وفعلنا الأمر نفسه بالنسبة للاقتباسات من التفاسير القرآنية والقاموس اللغوي وبقية المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها. أما الآيات القرآنية المقتبسة جزئيا، فقد تم وضعها بين القوسين المزخرفين﴿ ... ﴾. وتم وضع الإحالات المرجعية والجمل أو الكلمات الاعتراضية التفسيرية بين القوسين (...). أما الإضافات التي تسد فراغا في النصوص المقتبسة - خاصة من «لسان العرب» و«تفسير الرازي»- والتي كان لابد منها حتى يستقيم سياق الحديث، وغالبا ما لا تتجاوز كلمة أو كلمتين،

فقد وضعناها بين القوسين المعقوفين [...]. وكان لابد من توضيح هذه الاستخدامات، حتى لا يلتبس الأمر على القارئ، خاصة أن الدراسة تحفل بالآلاف من الآيات القرآنية والمئات من الاقتباسات والإحالات المرجعية.

وتيسيرا للقراءة، فضلنا استخدام أسلوب وضع الإحالات المرجعية في متن الدراسة وليس في الهامش أو في نهاية المبحث أو الفصل، وذلك لكي يتمكن القارئ من التعرف مباشرة إلى مصدر الاقتباس دون عناء. كما يساعد هذا الأسلوب على التمييز بين ما هو مقتبس وبين آراء الباحث ومساهماته المعرفية في متن الدراسة. ومن السمات العملية لهذا الأسلوب، اختصار الإحالة المرجعية في عناصرها الأساسية الضرورية، ولمن أراد معرفة المزيد عن المصدر أو المرجع، عليه أن يراجع قائمة المصادر والمراجع المرتبة ترتيبا ألفبائيا. ويفيد في تحاشي الأخطاء الناتجة عن التضارب الذي يحصل في بعض الأحيان بين أرقام الإحالات والهوامش التابعة لها، بسبب بعض التغييرات المحدثة في تنسيق الصفحات وإخراجها. أما التفاسير القرآنية الخمسة التي تم الاعتماد عليها بكيفية رئيسة، فقد تمت الإحالة إليها وفقا للاختصارات التالية: ت: تفسير - الحرف الأول من اسم صاحب التفسير (ط: الطبري؛ ز: الزمخشري؛ ر: الرازي؛ ع: ابن عاشور؛ ص: الصابوني) - م: المجلد - ج: الجزء - ص: رقم الصفحة - ص ص: من الصفحة كذا إلى الصفحة كذا.

أما في الفصل التمهيدي فقد أوردنا الإحالات المرجعية بكيفية تقليدية، مرقمة في نهاية كل مبحث.

رابعاً: المصادر والمراجع

اعتمدت الدراسة على نسخة إلكترونية من المصحف الشريف، تفاديا

للوقوع في الأخطاء المطبعية، التي يصعب تفاديها في كم هائل من الآيات القرآنية. كما اعتمدت الدراسة على خمسة تفاسير قرآنية مشهورة، وهي: 1 - «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للإمام الطبري؛ 2 - «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل» للإمام الزمخشري؛ 3 - «التفسير الكبير ومفاتيح الغيب» للإمام الفخر الرازي؛ 4 - «التحرير والتنوير» لابن عاشور؛ 5 - و«صفوة التفاسير» لمحمد علي الصابوني.

ولكل واحد من هذه التفاسير ميزة، أهّلته لإغناء هذه الدراسة. فتفسير الطبري يعد من أشهر التفاسير القديمة، وقد قيل عنه: «يمتاز تفسير الطبري بطول النفس، وتعدد الروايات، واتساع المعلومات الشرعية واللغوية. لذلك كان هو المرجع الأول عند المفسرين في مختلف العصور» [(2)].

وبالرغم من تأثر الإمام الزمخشري بالمذهب الاعتزالي، إلا أن ثقافته اللغوية الواسعة، انعكست على تفسيره «فاعتنى بالدلالات المتنوعة للألفاظ واستعمالات العرب لها ومعانيها في القرآن. وتتبع كثيرا من الأوجه الممكنة من الإعراب، وبين كيف تتساوق مع معاني الآيات» [(3)].

أما تفسير الرازي، فهو أكثر التفاسير إفادة لهذه الدراسة، للمعرفة العميقة والموسوعية لصاحبه بمختلف العلوم الشرعية واللغوية والبحتة وعلى رأسها علم الفلك، مما أهّله لتقديم تفسير غني بالمعلومات وتعدد الآراء، كما تبين أن الإمام الرازي من أكثر المفسرين إدراكا للتواصل غير اللفظي ولأهميته ضمن الاتصال البشري، ويظهر هذا جليا في عدد الاستشهادات التي اقتبسناها من تفسيره.

ويمتاز تفسير ابن عاشور - العالم التونسي الأصولي المالكي الموسوعي الثقافة - والذي اعتمدنا عليه في مواقع كثيرة، بقيامه على ثلاث دعائم:

« – الدلالة القرآنية: لفظا وتركيبا ومعنى وحقيقة ومجازا.

– الربط اللغوي والبياني والانسجام بين اللفظ والمعنى داخل الآية الواحدة، وبين الآية وسوابقها ولواحقها ونظائرها وأشباهها في سور أخرى.

– إيضاح المعاني على أساس من الهدي القرآني الرامي قبل كل شيء إلى التأثير في القلب والعقل، والربط بين المفاهيم الدينية والمشاعر الإنسانية في الإيمان والاطمئنان والسلوك وفهم المقاصد الأساسية من القرآن الكريم.

إلى جانب هذه الدعائم المنهجية، نجد في هذا التفسير الإشارة الموجزة إلى الأحكام الفقهية والعقائد ومناقشة بعض المفسرين، ولا سيما فيما يرجع للدلالة القرآنية وأساليب البيان والإعجاز، وأساليب الاستدلال عند رجال المذاهب الكلامية والآراء الفقهية» [(4)].

وفي الأخير، هناك صفوة التفاسير، وهو تفسير موجز يعتمد على أمهات كتب التفسير، مثل: تفسير الطبري، والزمخشري، والقرطبي، وابن كثير، والرازي، وأبو حيان الأندلسي، والآلوسي، والخازن، والبيضاوي، والجلالين، وحاشية الصاوي، وحاشية الجمل، وحاشية الشيخ زاده، وغيرها من كتب الحديث، واللغة. ومن خلال هذا التفسير، نكون قد اعتمدنا على عدد كبير من التفاسير التي تخدم غرض دراستنا للاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم.

واستأنست الدراسة ببعض الأحاديث النبوية الشريفة المقتبسة من «مختصر صحيح البخاري» و«مختصر صحيح مسلم»، بالإضافة إلى بعض الأحاديث المقتبسة من «موسوعة الحديث الشريف» الإلكترونية التي أصدرتها شركة صخر لبرامج الحاسب سنة 1995. وتتضمن هذه الموسوعة تسعة كتب: صحيح البخاري – صحيح مسلم – سنن أبي داؤود – سنن الترمذي – مسند

الإمام أحمد - سنن الدارمي - سنن ابن ماجه - سنن النسائي - موطأ الإمام مالك. وجميع نصوص هذه الموسوعة مشكولة بالكامل، وهذا ما يميزها - في سياق الدراسة - عن مصادر الحديث المطبوعة التي اعتمدنا عليها.

واعتمدت الدراسة، اعتمادا كبيرا، على «لسان العرب» لابن منظور باعتباره أشهر القواميس اللغوية العربية وأكثرها استطرادا وإيرادا للأمثلة من القرآن الكريم والسنة النبوية والأشعار وآراء مشاهير اللغة العربية الذين سبقوه، وأمهات كتب اللغة. فقد استفادت الدراسة من إيراد ابن منظور لمختلف معاني المفردات، من حيث التركيب الصرفي والبلاغي واختلاف الاستخدام بين القبائل العربية والمدارس النحوية، إذ سهّل ذلك إمكانية انتقاء المعاني والدلالات المرتبطة بالاتصال غير اللفظي، والتي لا تتضارب مع سياق الآيات القرآنية. وكان لهذا القاموس الهامّ، الفضل الأكبر في التعرف إلى الجذور التاريخية لاستخدام بعض السلوكات الاتصالية غير اللفظية عند العرب، والعلاقة الوطيدة بين لغة القرآن واللغة العربية التي كانت سائدة عند نزول الوحي. وقد رافق معجم «كلمات القرآن: تفسير وبيان» لحسين محمد مخلوف، إنجاز الدراسة، خاصة عند التصنيف أو العودة السريعة للتعرف إلى المعنى العام لكلمة من الكلمات التي تحتاج إلى تفسير؛ فهو مختصر مفيد في اتخاذ الموقف الأوليّ من الكلمة، ويترك التوسع في المعاني والدلالات للقاموس وللتفاسير.

واستفادت الدراسة استفادة كبيرة من تطور تكنولوجيا الاتصال، في الحصول على كم هائل من المادة العلمية عبر شبكة الإنترنت. وتظهر هذه المادة، جلية، في الفصل التمهيدي. ذلك أن العديد من الباحثين المهتمين بالاتصال غير اللفظي، قد وضعوا بعض نتائج دراساتهم في الشبكة حتى تكون في متناول المستفيدين. ولولا شبكة الإنترنت، لاستحال التعرف إلى

العديد من الدراسات التي أنجزت في شتى أنحاء العالم، والحصول عليها. كما أن هناك العديد من الدراسات الهامة الي نشرت مباشرة في الإنترنت قبل إصدارها على الورق، ويتم تحديثها بكيفية مستمرة، وهذا يعطيها قيمة علمية كبيرة. لهذا أصبحت شبكة الإنترنت الآن، إحدى الركائز الأساسية في ممارسة البحث العلمي على الصعيد العالمي.

كما استعانت الدراسة ببعض الدراسات الحديثة عن الاتصال غير اللفظي، تلك التي تتضمن مواضيع مرتبطة به؛ بالإضافة إلى مصادر أخرى لها قيمتها العلمية والتاريخية، اهتمت بمواضيع تتدرج في صميم دراستنا، مثل: فتاوي ابن تيمية، وقصص الأنبياء لابن كثير، والسيرة النبوية لابن هشام، وإحياء علوم الدين للغزالي.

خامساً: تصميم الدراسة

لم تعتمد الدراسة على المنهج التقليدي في تقسيم البحوث العلمية إلى جزأين أو ثلاثة أجزاء، أو إلى أبواب داخلها فصول، بل حاولت الانسجام مع طبيعة الموضوع الذي يتضمن العديد من الفصول التي تتقارب في الأهمية، كما أن تصنيفها إلى مجموعات لا يفيد كثيرا على المستوى المنهجي. وهكذا جاءت الدراسة متضمنة لفصل تمهيدي لابد منه لتعريف القارئ بعلم الاتصال غير اللفظي، وأحد عشر فصلا. يضم كل فصل من هذه الفصول، قناة للاتصال غير اللفظي، والاستثناء الوحيد، كان في الفصل السادس الذي شمل حاستي الشم والذوق.

فقد حاولنا في الفصل التمهيدي، أن نقرّب القارئ من علم الاتصال غير اللفظي، الذي يعتبر من العلوم الإنسانية الحديثة، وذلك في ستة مباحث

متكاملة تبدأ بتعريف الاتصال غير اللفظي؛ ثم فسيولوجيا الاتصال غير اللفظي؛ والدراسة العلمية للاتصال غير اللفظي؛ وقنوات الاتصال غير اللفظي؛ ووظائف الاتصال غير اللفظي؛ وأخيرا، تطبيقات الاتصال غير اللفظي.

وجاءت فصول الدراسة، كما يلي:

الفصل الأول: الاتصال بالعين في القرآن الكريم، ويتضمن عشرة مباحث

الفصل الثاني: التعبيرات الوجهية، ويتضمن خمسة مباحث

الفصل الثالث: الإيماء، ويتضمن أربعة مباحث

الفصل الرابع: الهيئة وأوضاع الجسد، ويتضمن تسعة مباحث

الفصل الخامس: الاتصال عبر حاسة اللمس، ويتضمن ثلاثة مباحث

الفصل السادس: الشم والذوق، ويتضمن أربعة مباحث

الفصل السابع: المسافة والاتجاهات، ويتضمن أربعة مباحث

الفصل الثامن: المظهر، ويتضمن تسعة مباحث

الفصل التاسع: الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة، ويتضمن ستة مباحث

الفصل العاشر: ترتيب البيئة، ويتضمن تسعة مباحث

الفصل الحادي عشر: مفهوم الزمان، ويتضمن سبعة مباحث

وتتضمن الدراسة، بالإضافة إلى هذه الفصول، مقدمة وخاتمة.

الهـــوامـــش

(1) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري - مختصر صحيح البخاري، المسمى: التجريد الصريح، المشهور بـ «مختصر الزبيدي» - تحقيق: مصطفى ديب البغا - دمشق: اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة 1999، ص608.

(2) عبد القادر زمامة وعبد الوهاب التازي سعود وفاضل عبد النبي ومحمد الكتاني - معجم تفاسير القرآن الكريم - الرباط: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - 1997، ص453.

(3) المصدر نفسه، ص354.

(4) المصدر نفسه، ص ص124-125.

الفصل التمهيدي

التعريف بعلم الاتصال غير اللفظي

يشكل علم الاتصال غير اللفظي، أحد العلوم الإنسانية الحديثة، الذي برز كتتويج لاهتمام الباحثين وتعمقهم في دراسة الاتصال البشري. واستطاع هذا العلم الفتيّ، منذ منتصف القرن الماضي اجتذاب عدد كبير من الدارسين من مختلف التخصصات العلمية، وفي مقدمتها علم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا واللغة والفنون والتاريخ والسلوك الحيواني والكيمياء والأحياء والفيزياء والحاسوب، فضلا عن علم الاتصال.

إن ما يدفعنا إلى دراسة الاتصال غير اللفظي، هو تنامي الوعي بأهميته في مختلف أوجه الحياة. فالسلوك غير اللفظي ملازم للكائن البشري منذ أن ظهر على سطح البسيطة، وظل الوسيلة التواصلية الأهم، حتى مع تطور اللغات اللفظية. وفي عصرنا الحالي الذي يتسم بطابعه المديني المعقد، وتكدس البشر في حيز مكاني ضيق، لم يعد السلوك غير اللفظي ذاك السلوك الفطري الذي يمارس بكيفية تلقائية، بل أصبح يمارس بكيفية

ممنهجة ومدروسة قصد التواصل والتأثير في الآخرين، مما زاد في أهمية توظيف الحواس الخمس - وفي مقدمتها حاسة البصر - في عملية الاتصال.

سنسعى في هذا الفصل التمهيدي، إلى التعريف بعلم الاتصال غير اللفظي، حتى نتمكن من تتبع أهميته وإغنائه من خلال نص القرآن الكريم.

وهكذا ننطلق في المبحث الأول من محاولة تلمس التعريف الدقيق لمصطلح «الاتصال غير اللفظي»، كما يراه أبرز الدارسين.

والمبحث الثاني نتناول فيه الجوانب الفسيولوجية التي تحدد أعضاء الجسد الفاعلة في مجال التواصل غير اللفظي، الأمر الذي قد يساعد على تعميق معرفتنا به.

أما المبحث الثالث، فيهمّ التطور العلمي-المنهجي الذي واكب دراسة الاتصال غير اللفظي ومدى مساهمة دارسي الاتصال غير اللفظي، بدءاً من الرواد وصولا إلى المعاصرين، في جعله علما جديرا بالاحترام.

ويسعى المبحث الرابع إلى حصر قنوات الاتصال غير اللفظي، وتمظهراته من خلال أعضاء الجسد المختلفة والموجودات الأخرى.

أما موضوع المبحث الخامس فيتجلى في تبيان الوظائف التي يقوم بها السلوك غير اللفظي ضمن عملية الاتصال بمعناها الواسع.

وأخيرا، نتطرق لتطبيقات الاتصال غير اللفظي في مختلف الأنشطة الحياتية، مما يوضح بجلاء، مدى أهمية الاتصال غير اللفظي، ويبرر الدعوة إلى إيلاء المزيد من الجهد في دراسته وتوظيفه بكيفية علمية وفعالة.

المبحث الأول

ما المقصود بالاتصال غير اللفظي؟

تستدعي دراسة أي علم من العلوم، الانطلاق من التعاريف والمفاهيم العامة التي ينبني عليها ذاك العلم، مما يساعد على تداول المعرفة بين المهتمين وتمكينهم من التواصل مع الجمهور غير المختص. إلا أن تاريخ تطور العلم بيّن أن عدم التوصل إلى تعريف محدد أو رسم حدود واضحة لمجالات علم ما، لا يعيق الدارسين له ويقعدهم عن مواصلة البحث والإغناء وخلق التراكم المعرفي اللازم. وذلك ما فعله علماء الاتصال غير اللفظي، بعد قرابة نصف قرن من الاهتمام بعلم يعتبر من العلوم الحديثة. فهم حتى الآن يجدون صعوبة في تعريف الاتصال غير اللفظي لارتباطه الوثيق بالاتصال اللفظي.

إن الحديث عن الاتصال غير اللفظي يتسم بكونه سهلا ممتنعا. فمن السهل أن نُفْهِم الآخرين أن المقصود بالاتصال غير اللفظي هو استخدام نظرات العين وتعبيرات الوجه والإيماءات والحركات الجسدية والمظهر، في التواصل مع الآخرين؛ أي ضرب الأمثلة بتمظهرات الاتصال غير اللفظي.

إذا كانت التعريفات السابقة قد آثرت تعريف الاتصال غير اللفظي بتعداد قنواته، فهناك بعض التعريفات الأخرى التي شملت كل ما يمكن أن يندرج تحت الاتصال غير اللفظي، حتى يمكن القول إن اتساعها قد جعلها تبتعد عن التمييز الواضح بين الاتصال في مضمونه الشامل والاتصال غير اللفظي كأحد مظاهر الاتصال. فهناك اتجاه لتعريف الاتصال غير اللفظي على أساس أنه «أي منبه يصطدم بالإنسان، أو الحيوان، أو النبات، أو الآلة». فقطرات المطر، وأشعة الشمس، والتيار الكهربائي، كلها اتصال غير لفظي وفق هذا المفهوم [15]. ويرى فرانك دانص F. E. X. Dance عام 1967، أنه بالرغم من أن كل الأشياء لا تصنف كاتصال غير لفظي، إلا أنها في الواقع كذلك. ويعتقد أن ليس هناك اتصال إنساني يتفرد بكونه غير لفظي، باعتبار أن كل الرموز لفظية، ويمكن تعريف الاتصال الإنساني كإظهار للاستجابة من خلال الرموز اللفظية. ولا ينكر دانص أن الإنسان قد يقوم بسلوكات غير لفظية، لكن عندما تفسر تلك السلوكات بواسطة الكلمات، تصبح ظاهرة لفظية [16]. ويتضح أن هذا التعريف نقيض لسابقه. فإذا كان الأول يرى بأن كل شيء هو اتصال غير لفظي، فالثاني يرى كل شيء اتصالا لفظيا.

وقدم فيرناندو بوياتوس Fernando Poyatos عام 1983 [17]، تعريفا للاتصال غير اللفظي ضمن الأنظمة الحسية في ثقافة ما. فهو «إرسال الإشارات بكل أنظمة الإشارات الجسدية غير المعجمية، والاصطناعية، والبيئية غير المحسوسة، ضمن ثقافة ما». وهذا التعريف يستثني لغة الإشارات (لغة الصم البكم) Sign Language التي تشبه اللغة المألوفة كما ترد في المعاجم.

ولقد تجنب بعض الباحثين استخدام عبارة «اتصال غير لفظي» لكونها لا تصف وصفا دقيقا ما يندرج تحتها، فمثلا، يستبدل عالم النفس ألبرت مهرابيان Albert Mehrabian [18] عبارة الاتصال غير اللفظي بعبارة «الاتصال

الضمني» باعتبار أن الاتصال اللفظي الذي يخضع لقواعد لغوية محددة، هو اتصال صريح، بينما الاتصال الذي يفتقر - في معظم أجزائه - إلى مثل هذه القواعد، هو اتصال ضمني.

ومن أحدث تعريفات الاتصال غير اللفظي، ما قدمه ديفيد كيفينز David B. Givens مدير مركز الدراسات غير اللفظية (CNS)، ضمن محاولته الرائدة لإنشاء قاموس للاتصال غير اللفظي. إذ يعرِّف كيفينز الاتصال غير اللفظي بأنه: «أولاً: عملية إرسال واستقبال رسائل دون كلمات، وذلك بواسطة التعبيرات الوجهية والنظر، والإيماءات والهيئة، ونبرات الصوت. ثانيا: يتضمن، كذلك، عادات تهيئة النفس، ومَوْضَعة الجسد في الفضاء، وتصميم المنتجات الاستهلاكية (كالملابس، والمنتجات الغذائية والألوان الاصطناعية والذوق والعطور المصنّعة، وصور وسائل الإعلام والأشكال والرسوم الحاسوبية). كما تشمل الدلالات غير اللفظية كل الإشارات التعبيرية والرموز والدلالات (السمعية والبصرية واللمسية والكيماوية،..) المستخدمة في إرسال الرسائل واستقبالها، بمعزل عن لغة الإشارة (لغة الصم البكم) والكلام»[(19)].

على الرغم من أهمية هذا التعريف وسعيه لتطوير مفهوم الاتصال غير اللفظي ليشمل المنتجات الصناعية والتواصل عبر الحاسوب، إلا أنه بإمكاننا إبداء التساؤلات والملاحظات التالية:

أولا: كيف يمكن أن نتواصل تواصلا غير لفظي (Nonverbal) بواسطة نبرة الصوت دون أن نتكلم؟ فمن المعلوم أن السمات غير اللفظية للغة مرتبطة وجوديا بالكلام. ولابد من أن نتكلم حتى نتمكن من إيصال رسائل تواصلية إضافية من خلال نبرة الصوت وحِدّته وسرعة النطق.

ثانيا: لقد أغفل التعريف كيفية تعامل الجماعات البشرية مع الوقت ومفهومهم للزمن كشكل من أشكال التواصل غير اللفظي.

ثالثا: لم يبرز التعريف ترتيب البيئة كمصدر دائم للتواصل غير اللفظي. فالكون من حولنا يشكل مصدرا لا ينضب، للبيانات والمعلومات التي تجعلنا في تواصل دائم.

يعرِّف لوريل ج. دون Laurel J. Dunn، من قسم النفس بكلية ولاية ميسوري الغربية، الاتصال غير اللفظي، كالآتي: «الاتصال غير اللفظي، هو عبارة عن مرشَّح صامت، له تأثير واسع على محيطنا الاجتماعي. إنه يمدنا بأسلوب في نقل الرسائل الاتصالية دون استخدام اللغة اللفظية. وربما يقوم الاتصال غير اللفظي بتدعيم الاتصال اللفظي أو يسلب جزءا منه، وينظم العلاقات بالتأثير في تقديم التفاعل واستمراره»[20].

ينطلق هذا التعريف من اهتمامات علم النفس بالتعبير عن العواطف والانفعالات. فهناك اعتقاد بأن الرسائل العاطفية تتسرب عبر القنوات غير اللفظية كتعبيرات الوجه ونظرات العين، دون حاجة لاستخدام اللغة اللفظية. ولكن كما أشرنا سابقا، لا يمكن إغفال الرسائل الاتصالية التي تتسرب من الصوت الذي لا يمكن أن يتم الحديث في غيابه.

قدم الباحثان رونالد ب. أدلر Ronald B. Adler وجورج رودمان George Rodman عام 1988، تعريفا مقتضبا للاتصال غير اللفظي يبين الاستثناءات ولا يحصر كل ما يتضمنه المصطلح. فالاتصال غير اللفظي يشمل: «الرسائل الشفاهية وغير الشفاهية التي يتم التعبير عنها بوسائل غير لسانية (لغوية). ويقصي هذا التعريف لغة الإشارة واللغة المنطوقة والمكتوبة، بينما يتضمن الرسائل المنقولة عبر الرسائل الصوتية غير المتضمنة للغة، مثل الضحك»[21].

ومن بين التعريفات الحديثة التي تركز على رسائل الاتصال غير اللفظي وليس على المرسل أو المتلقي، نجد تعريف الباحثة بركون Burgoon، الذي قدمته عام 1994. إذ تعتبر الاتصال غير اللفظي «تلك السلوكات، غير

الكلمات في حد ذاتها، التي تشكل نظام الترميز الذي يتشارك به أفراد المجتمع، ويتم إرسال تلك السلوكات وتفسيرها بكيفية نمطية متعمده، وتستخدم بانتظام بين أفراد مجتمع يتحدث لغة مشتركة، ولهذه السلوكات تفسيرات متعارف عليها»[22].

ويعرِّف مالاندرو Malandro وباركر Barker (1989) الاتصال غير اللفظي بأنه: «العملية التي يُستخدم فيها السلوك غير اللفظي سواء بمفرده أو بارتباط مع السلوك اللفظي، في تبادل الرسائل وتفسيرها ضمن وضع أو سياق محددين»[23]. ولكن ما المقصود بـ «السلوك غير اللفظي؟» إن التعريف لا يجيب عن هذا التساؤل، فلابد من الاستعانة بتصنيف مالاندرو وزملائه لفئات الاتصال غير اللفظي، حتى نستشف تصورهم لحدود مجال الاتصال غير اللفظي. فقد قسموا فئات الاتصال غير اللفظي كما يلي:

1 - التعبير الوجهي وسلوك العين؛ 2 - حركة الجسد والإيماءات؛ 3 - السلوك اللمسي؛ 4 - سمات الصوت وجودته؛ 5 - الثقافة والزمن؛ 6 - البيئة؛ 7 - أنماط الجسد وأشكاله وأحجامه؛ 8- الملابس والمستلزمات الصناعية الشخصية[24].

لقد ذكر هاريسون Harrison عام 1972 [25] أربعة مقتربات مختلفة في نظرتها للاتصال غير اللفظي، ينطلق كل منها من خلفيته العلمية. المقترب الأول لأبرز رواد دراسة الاتصال غير اللفظي؛ الأنثروبولوجي بيردويسل الذي يرى ضرورة عدم استخدام عبارتي «اتصال» و«غير لفظي» في آن واحد. وذلك لأن الاتصال ظاهرة متعددة القنوات، تشمل النشاط غير اللفظي، لذلك فإن عبارة اتصال غير لفظي لا معنى لها. والمقترب الثاني، قدمه عالم النفس بول إيكمان؛ والذي يفرِّق بين السلوك غير اللفظي «الاتصالي» و«الإعلامي». فالسلوك الاتصالي ذو طابع قصدي، أما الإعلامي فيشمل النشاطات التي قد

تكون ذات معنى عند الملاحظ المتدرب، ولكن لم يكن الهدف منها هو الاتصال - من لدن المرسل. والمقترب الثالث ينطلق من علم السلوك الحيواني، قدمه الإيثولوجيان كريستوفر برانيكان Cristopher Brannigan وديفيد همفريز David Humphries عام 1971. إذ يريان أن فعل الاتصال يحدث في وقت يكون فيه فرد ما قادرا على تبديل السلوك المستقبلي لفرد آخر. وربما وضع هذا المقترب في حسبانه السلوك الحيواني. وقدم المقترب الأخير بول واتزلاويك Paul Watzlawick وزملاؤه عام 1967 من حقل الطب النفسي. فالاتصال - وفق هذا المقترب - هو كل سلوك يتم في وجود الآخرين. ويفرق واتزلاويك بين بعدي المضمون والعلاقة، وتوجد قنوات الاتصال غير اللفظي ضمن بعد العلاقة.

من خلال سردنا لأبرز محاولات تعريف مصطلح «الاتصال غير اللفظي»، اتضح صعوبة إيجاد تعريف واحد شامل يفي بأغراض الدارسين لهذا الحقل بمختلف مشاربهم. لذلك سنسعى لتبني تعريف قادر على تحقيق أغراض الدراسة التي نحن بصددها، على الأقل، آملين أن يكون من المرونة والدقة ليفي بأغراض دارسين آخرين للتواصل غير اللفظي.

وهكذا سننطلق من تعريف موسَّع يعتبر الاتصال غير اللفظي «هو الرسائل التواصلية الموجودة في الكون الذي نعيشه، ونتلقاها عبر حواسنا الخمس، ويتم تداولها عبر قنوات متعددة، وتشمل كل الرسائل التواصلية حتى تلك التي تتداخل مع اللغة اللفظية والتي تعتبر من ضمن بنيتها. وتتجلى رسائل الاتصال غير اللفظي عبر سلوك العين، وتعبيرات الوجه، والإيماءات، وحركات الجسد، وهيئة الجسد وأوضاعه، والشم، واللمس، والذوق، والمسافة، والمظهر، والمنتجات الصناعية، والصوت، والوقت ومفهوم الزمن، وترتيب البيئة الطبيعية والاصطناعية».

الهـــوامش

1 - Mark L. Knapp - Nonverbal Communication in Huan Interaction - New York: Holt, Richard and Winston Co. -1972 - p.3.

2 - Ibid. p.3.

3 - G. R. Harper, A. N. Wies, & Matarazzo - Nonvernal Communication: The State of the art - New York: Wiley - 1978 -

4 - Derek R. Lane - Function and Impact of Nonverbal Communication in a Computer Mediated Communication Context: An Investigation of Defining Issues - http://www.uky.edu/~drlane/techno/nvcmc.htm - 2000 - p.2.

5 - Arthur S. Reber - The Penguin Dictionaty of Psychology - London: Penguin Group - 1985 - p.478.

6 - Ibid. p.478.

7 - Ibid. p.478.

8 - Paul Ekman and Wallace V. Friesen - The Repertoire of Nonverbal Behavior: Categories, Origins, and Coding - Seiotica - 1969 -p.49.

9 - Adam Kendon - Nonveerbal Comunication, Interaction and Gesture - New York: Mounton Publishers - 1981 - p.3.

10 - Peter Lloyd, Andrew Mayes, ASR. Manstead, PR. Meudell, and PR. wagner - Introduction to Psychology: An Integrated Approach - London:Fontana Press - 1984 - p.574.

11 - Owen Hagie, Christine Saunders and David Dickson - Social Skills in Interpersonal

Communication - Worcester: Billings LTD - 1981 - pp.18-19.

12 - Judy Gahagan - Social Interaction and its Management - London and New York: Methuem - 1984 - p.65.

13 - Patricia Noller - Nonveerbal Comunication and Marital Interaction - New York: Pergamon Press - 1984 - p.2.

14 - Alastair Pennycook - Actions Speak Louder Than Words: Paralanguage Communication and Education - In: "Tesol Quarterly" (Volume 19, No.2) June 1985 - p.260.

15 - Randall P. Harrison - Nonverbal Behavior: An Approach to Human Communication - In: Richard W. Budd and Brent D. Ruben - Approaches to Human Communication - New Jersey: Spartan Books - 1972 - p.254.

16 - Knapp - op. cite - p.3.

17 - Fernando Poyatos - New Perspective in Nonveerbal Comunication: Studies in Cultural Inthropology, Social Psychology, Linguistics, Literature and Semiotics - Oxford: Pergamon Press - 1983 - p.69.

18 - Albert Mehrabian - Silent Messages - Belmant: Wadsworth, Inc - Second Edition, 1981 - p.3.

19 - David B. Givens - Nonverbal Communication - http://members.aol.com/ninverbal2/nvcom.htm - 2001. p.1.

20 - Laurel J. Dunn - Nonverbal Communication: Information Conveyed Through the Use of Body Language - http://crearinghouse.music.edu/manscripts/70.asp - 2000 - p.1.

21 - Ronald B. Adler and George Rodman - Understanding Human Communication - New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc. - Third Edition, 1988 - p.103.

22 - Lane - op. cite - 2000 - p.3.

23 - Dafydd Gibbon - Introduction to Nonverbal Communication - http://coral.lili.uni-bielefeld.de/classes/winter97/phonMM/phonmm/node38.html - 2000 - p.1.

24 - Ibid.

25 - Harrison - op. cite - pp.225,256.

المبحث الثاني

فسيولوجيا الاتصال غير اللفظي

بالرغم من الأشواط الكبيرة التي قطعها العلم من أجل فهم طبيعة الإنسان، فقد ظلت الجوانب المرتبطة بالتواصل محفوفة بقدر من الغموض، ذلك أن معرفتنا بالجزء الرئيس الذي يتحكم في التواصل ظلت محدودة وغير دقيقة في بعض الأحيان.

إن أهم عضو في جسم الإنسان هو الدماغ، دون منازع، فهو الذي يتحكم في كل عمليات التحكم والتواصل الداخلية والخارجية. لقد اعتبر العلماء، أن العقد الأخير من القرن العشرين، هو عقد الدماغ البشري وفك رموزه، مما قاد إلى عدة اكتشافات بالغة الأهمية حول مكونات الدماغ البشري وآليات عمله.

وقدانعكست هذه الاكتشافات إيجابا على فهمنا للاتصال غير اللفظي ومدى أهميته في حياتنا. ويمكننا الآن أن نعزو معظم السلوكات غير اللفظية لأنشطة بعض مكونات الدماغ، ونستطيع تفسير الاختلالات، وتطوير المهارات غير اللفظية بمعرفة وتتبع منابعها.

ولكي نكوّن فكرة أولية عن فسيولوجيا الاتصال غير اللفظي، علينا البدء بالأعضاء الجسدية التي تقوم بدور رئيس في هذا المجال، ولنبدأ بالدماغ البشري.

أولاً: الدماغ البشري:

وهو أحد أعضاء الجهاز العصبي المركزي الذي تكسوه الجمجمة، وهو يتكون من الوحدات والمراكز والدوائر العصبية، التي يعتقد العلماء أنها تشكلت لدى الجنس البشري في الفترة الممتدة بين أربعة ملايين سنة إلى 200 ألف سنة الماضية من التاريخ التطوري [1].

يزن دماغ الإنسان نحو ثلاثة أرطال ويحتوي على خلايا وسائل عصبية. وقد نما من الجزء القاعدي إلى المراكز العليا، حيث تطورت مراكزه الأرقى من الأجزاء الأقل تطورا والأقدم، ومن المعروف أن نمو الدماغ في الجنين يستعيد هذا المسار التطوري تقريبا [2].

خلال التطور الجنيني، ينقسم دماغ الإنسان إلى: الدماغ المؤخر Hindbrain، والدماغ الأوسط Midbrain، ومقدّم الدماغ Forebrain، وهذا الأخير ينقسم بدوره إلى:

- Telencephalon (الدماغ الانتهائي) ويتفرع منه الجهاز الحوفي Limbic System، وجذع الدماغ Basal Ganglia، وقشرة الدماغ Cerebral Cortex.

- Diencephalon (سرير الدماغ) وهو الجزء الخلفي من مقدم الدماغ، ويتفرع منه: المهاد Thalamus، وتحت المهاد Hypothalamus [3].

وتتكيف هذه الأجزاء لإدارة التواصل العاطفي، والتواصل اللغوي، والتخطيط المتعاقب Sequential Planning، وصنع الأدوات Tool-making والتفكير المنطقي [4].

إن أكثر أجزاء المخ بدائية، هو جذع الدماغ المحيط بقمة الحبل الشوكي، وظيفته تنظيم وظائف الحياة الأساسية، مثل التنفس والتمثيل الغذائي لأعضاء الجسم الأخرى، كما يتحكم في ردود الفعل والحركات النمطية[5].

نشأت مراكز العواطف من جذع الدماغ، ونشأ العقل المفكر، مع تطور هذه المراكز العاطفية لتكون القشرة الدماغية الجديدة Neocortex، وهي عبارة عن انتفاخ بصلي كبير مكون من لفائف نسيجية تشكل الطبقات العليا من الدماغ. وهذا يعني أن نشوء العقل العاطفي الانفعالي سابق للعقل المنطقي [6].

والقشرة الجديدة في دماغ الإنسان أكبر كثيرا من قشرة الدماغ في أي نوع من الكائنات الأخرى، وبالتالي أضافت للإنسان كل ما يميزه عن غيره. فالقشرة الجديدة تمثل مركز التفكير، فهي ترتب ما يأتيها من طريق الحواس وتفهمه. وهي تضيف للشعور التفكير في هذا الشعور نفسه، وتسمح للإنسان أن ينفعل بالأفكار والفن والرموز والخيال [7].

لقد مكنت القشرة الجديدة أفراد الجنس البشري من تحريك أصابعهم خلال خطوات متعاقبة ومعقدة عندما يقومون بعملية تصنيعية ما. ويعتقد العلماء - بفضل تكوُّن القشرة الجديدة - أن أفراد الجنس البشري استطاعوا قبل حوالي 200 ألف سنة تحريك أصابعهم وشفاههم وألسنتهم بكيفية متوازنة، فولدت اللغة [8].

ثانيا: الدماغ غير اللفظي:

يحصر العالم الأميركي ديفيد كفينز في قاموسه للاتصال غير اللفظي، الدماغ غير اللفظي (NVB) في الآتي:

1 - الدوائر والمراكز والوحدات التابعة للجهاز العصبي المركزي التي

تساهم في عملية إرسال الإشارات غير اللفظية، واستقبالها.

2 - تكون وحدات نصف الدماغ الأيمن لدى الأفراد المتيمّنين (*) (Right-Handed) أكثر تركيزا على الإشارات غير اللفظية، والنظرة الكلية (الشمولية) للأشياء والإدراك البصري للمكان (الفضاء)، والحدس، بينما يكون نصف الدماغ الأيسر أكثر تركيزا على ما هو لفظي وتحليلي وتعاقبي ومنطقي.

3 - كما يشمل؛ المراكز القديمة (كالنُويَّات) والدوائر القديمة في الجهاز العصبي للفقاريات والتي تستخدم للتواصل قبل مرحلة الكلام [9].

ثالثا: الدماغ المائي والنخاع الشوكي (Aquatic Brain and Spinal Cord):

تلك الأجزاء البدائية من دماغنا ونخاعنا الشوكي التي نجدها لدى الأسماك غير الفكّية. ويتضمن الخلايا العصبية (العصبونات) الموصّلة الموجودة بالنخاع الشوكي، والخلايا العصبية الحركية المستخدمة في اللمس والتحاشي والحركات السباحية الإيقاعية والمتذبذبة (التي أدت في الأخير إلى المشي).

ومعظم الإيماءات وأوضاع الجسد والاستجابات الجسدية الأساسية نابعة من الممرات البدائية في الدماغ المائي والنخاع الشوكي، بالإضافة إلى الشم والإثارة الكيماوية (مثل ارتفاع درجة الحرارة) [10].

رابعا: الدماغ البرمائي (Amphibian Brain):

من وجهة النظر التطورية، يُعتقد أن الدماغ البرمائي يتشكل من تلك

الأجزاء القديمة من الدماغ البشري التي تطورت أثناء الانتقال البرمائي من الماء إلى اليابسة في العصر الديفوني من الدهر القديم، وخاصة تلك الممرات البدائية التي أحدثت في البرمائيات للسمع والرؤية، والأوضاع الجسدية المتأثرة بالجاذبية الأرضية، في بيئة يابسة.

لقد نشأت بعض الإيماءات والأوضاع الجسدية (كالإجفال) في وحدات الدماغ البرمائي، وهي تقوم بدور رئيس في التعبير عن السيطرة والخضوع[11].

خامسا: دماغ الزواحف (Reptilian Brain):

ويتشكل من الأجزاء القديمة من دماغ الإنسان التي تطورت أثناء تكيُّف الزواحف للحياة على اليابسة، خاصة وحدات مقدم الدماغ التي أُحدثت لتمكين أجسام الزواحف من الحركة، وطقوس الزواج وإشارات التباهي، وتعززت القدرة على القيام بإيماءات وأوضاع جسدية تدل على السيطرة أو الخضوع (كتهيىء الأوصال للانحناء أو الوقوف باستقامة) [12].

سادسا: دماغ الثدييات (Mammalian Brain):

ويتضمن بعض أجزاء الدماغ البشري التي انبثقت أثناء تكيّف الثدييات على العيش ليلا أو نهارا، والتنافس مع الأعداء من الزواحف، خاصة تلك الأجزاء التي توجد في قلب الجهاز الحوفي التي تولِّد انفعالات الحذر الأبوي، لحماية الأبناء، واللعب والمناداة عبر الصوت [13].

وترى وجهة النظر التطورية، أن أسلافنا من الثدييات عهدوا بمستقبلهم التطوري إلى شكل متطور من أشكال الإثارة، الا وهو العاطفة، ذلك أن

الشبكة العصبية الخاصة بالعواطف والمشاعر والطباع، نشأت من البنية العصبية التي كانت مخصصة لحاسة الشم [14].

سابعا: دماغ الرئيسات (Primate Brain):

ويشمل مناطق الدماغ البشري المتخصصة التي نشأت أثناء تكيُّف الرئيسات للعيش نهارا، والعيش على الأشجار. ونجد على رأسها، وحدات مقدم الدماغ التي تتعامل مع الألوان، والتنسيق بين العين والكف، والتعرف إلى الوجوه، والتعلق (بالأغصان وغيرها)، والإبحار Navigation ثلاثي الأبعاد بواسطة النظر.

لقد شكل دماغ الرئيسات منعطفا رئيسا للاتصال غير اللفظي نحو التعقيد. فالكثير من الإشارات غير اللفظية، مثل: دلالة اللون، ونظرات العين، وإعلاء الحاجب، والتعبير الوجهي، تعتمد على دوائره العصبية [15].

ثامنا: الجهاز الحوفي (Limbic System):

يتضمن الجهاز الحوفي وحدات الدماغ وقنواته، المتعلقة بالعواطف والمشاعر والطباع[16]. ويعرِّف كويتون Couyton (1996) الجهاز الحوفي بأنه: «الدارات العصبية المتكاملة التي تتحكم في السلوك العاطفي والدوافع المحركة»[17]. ويعتقد سايتويك Cytowic (1999) أنه «اللب» العاطفي في الجهاز العصبي للإنسان[18].

الجهاز الحوفي عبارة عن الطبقات الرئيسة للعقل الانفعالي التي نشأت مع ظهور الثدييات، وهي الطبقات المتحلقة حول جذع المخ وتشبه عمامة صغيرة بأسفلها تجويف يستقر فيه الجذع. والجهاز الحوفي هو الذي يتحكم

فينا حين تسيطر علينا الشهوة أو الغضب، أو الوَله في الحب، أو التراجع خوفا. ومع تطوره، تحسنت وسيلتان قويتان: التعلم والذاكرة. وقد أتاحت هذه الخطوة الثورية المتقدمة للحيوان القدرة على أن يكون أكثر ذكاء في خياراته من أجل البقاء، وألا تكون ردود أفعاله آلية كما كانت من قبل [19].

ويتكون الجهاز الحوفي من «النتوء اللوزي» Amygdala، و«النواة المهادية الأمامية» Anterior Thalamic Nucleus، و«التلفيفة المطوقة» Cingulate Gyrus، و«القبوة» Fornix، و«قرن آمون» Hippocampus، و«تحت المهاد» Hypothalamus، و«الأجسام الحَلَمِيّة» Mammillary Bodies، و«حزمة مقدم الدماغ الوسطية» Medial Forebrain Bundle، و«الفصوص الأمامية» Prefrontal Lobes، و«النوى الحاجزة» Septal Nuclei، بالإضافة إلى مناطق وممرات أخرى في الدماغ[20].

فيما يتعلق بالسلوك غير اللفظي، نجد أن القسم المتعلق بالنتوء اللوزي في الجهاز الحوفي، يعزز التغذية والبحث عن الطعام، والغضب، والسلوك الدفاعي المرتبط بالحصول على الطعام. والقسم الحاجزي (Septal) يعزز المتعة الجنسية، والانتصاب، والتهييء Grooming، والمغازلة والسلوك الأمي[**] Maternal. بينما يعزز قسم المهاد اللعب والنطق والسلوك الأمي [21].

تاسعا: النتوء اللوزي (Amygdala):

وهو احد مكونات الجهاز الحوفي، الذي يستخدم في إنتاج الإشارات غير اللفظية المرتبطة بالغضب والتحاشي والمواقف الدفاعية والخوف، والاستجابة لتلك الإشارات [22].

يبدو النتوء اللوزي على شكل لوزة تتكون من تراكيب متداخلة تقع أعلى جذع المخ بالقرب من قاعدة الدائرة الحوفية. وفي المخ «أميجدالتان» كامنتان،

واحدة في كل جانب من جانبي المخ في اتجاه طرفي الجمجمة. وهذا النتوء اللوزي في مخ الإنسان أكبر نسبيا من نظيره في أقرب الثدييات منا في التطور ألا وهي الرئيسات [23].

و«الأميجدالا» هي الجزء المتخصص في الأمور العاطفية، فإذا انفصلت عن بقية أجزاء الدماغ تكون النتيجة عجزا هائلا عن تقدير أهمية الأحداث العاطفية، وهي الحالة التي يطلق عليها أحيانا «العمى الانفعالي Affective Blindness». ويؤدي هذا العجز إلى أن يفقد الإنسان القدرة على التواصل مع الآخرين، لأن النتوء اللوزي في الدماغ بمنزلة مخزن للذاكرة العاطفية، والحياة من دون وجوده، مجردة بلا أي دلالات شخصية، وقد تبين أن الحيوانات التي أزيل النتوء اللوزي من دماغها تفتقر إلى الإحساس بالخوف أو الغضب، وتفقد حافز التنافس أو التعاون، كما تفقد الإحساس بموقعها في نظام نوعها الاجتماعي [24].

يقوم النتوء اللوزي بدور في تركيب الدماغ، شبيه بفريق الإنذار الذي يقف أفراده في حال استعداد لإرسال نداءات الطوارئ، فعندما يرسل النتوء اللوزي إنذارا في حالة الخوف مثلا، فإنه يبعث برسائل عاجلة إلى معظم أجزاء الدماغ التي تثير إفرازات في الجسم عبارة عن هرمونات، وتجند مراكز الحركة - لكي تضرب أو تهرب - وتنشط الجهاز الدوري والعضلات، والقناة الهضمية. كما تبعث دوائر كهربية أخرى في «الأميجدالا» إشارة إفراز عاجلة إلى هرمون «النوربانيفرين Norepinephrine» لوضع مناطق المخ الرئيسة في حال استعداد بما فيها تلك المناطق التي تجعل الأحاسيس أكثر يقظة مما يؤثر في الدماغ ويدفعه إلى حافة الانفعال. ويبعث النتوء اللوزي بإشارات إضافية إلى جذع الدماغ فيستقر على الوجه تعبير الفزع، وتتجمد الحركات غير المتصلة بالعضلات، وتتسارع ضربات القلب، ويرتفع ضغط الدم، ويبطؤ

التنفس، وهناك إشارات أخرى تلفت الانتباه الشديد إلى مصدر الخوف، وتجهيز العضلات لرد الفعل وفقا لما يقتضيه الموقف [25].

يرجع الفضل في اكتشاف الدور الرئيس للنتوء اللوزي في العقل العاطفي، إلى عالم الأعصاب بمركز علوم الأعصاب بجامعة نيويورك جوزيف لو دو Joseph Le Doux. فقد توصل إلى أن الدماغ منح النتوء اللوزي مركزا متميزا «كحارس عاطفي» قادر على القيام بتجنيد وظائف الدماغ. وبيَّنت أبحاث لو دو أن الإشارات الحسية القادمة من العين والأذن، تسير أولا في الدماغ متجهة إلى المهاد، ثم تتجه عبر اتصال منفرد إلى النتوء اللوزي، وتخرج إشارات ثانية من المهاد لتستقر في القشرة الجديدة (أي العقل المفكر). يسمح هذا التفرع للنتوء اللوزي بأن يكون هو البادئ بالاستجابة، قبل استجابة القشرة الجديدة التي تفكر مليًا في المعلومات التي تصلها عبر مستويات عدة لدوائر المخ العصبية [26].

وعلى صعيد السلوك غير اللفظي، نجد الكثير من الإيماءات تعكس تهيّج «الأميجدالا». ففي اللقاءات المقلقة، ربما نقوم بكيفية لا شعورية بإيماءة تقاطع الذراعين (الدفاعية) ونميل بجسدنا بعيدا، وننزوي عمن يتسببون في إزعاجنا [27].

عاشرا: الدماغ والتعبير عن العواطف:

رأينا في استعراضنا لبعض أجزاء الدماغ، كيف أن الجهاز الحوفي بصفة عامة والنتوء اللوزي بصفة خاصة يشكل مركزا للتعبير عن العواطف، وذلك بحثّ كل أجزاء الجسم التي يفترض أن تشارك في التعبير عن العاطفة التي يقتضيها الموقف. فكيف يتم التعبير عن العواطف المختلفة؟ لقد حاول دانييل

جولمان Daniel Goleman الإجابة عن هذا السؤال، كما يلي:

1 - في حالة الغضب: يتدفق الدم إلى اليدين ليجعلهما قادرتين بصورة أسهل على القبض على السلاح أو ضرب عدو، وتتسارع ضربات القلب وتندفع دفعة من الهرمونات مثل هرمون «الأدرينالين» فيتولد كمّ من الطاقة القوية تكفي للقيام بعمل عنيف.

2 - وفي حالة الخوف: يندفع الدم إلى أكبر العضلات حجما، مثل عضلات الساقين، فيسهل الهرب، ويصبح الوجه شاحبا لأن الدم يهرب منه (يشعر الخائف بأن دمه يجري باردا في عروقه) ويتجمد الجسم في الوقت نفسه - ولو للحظة واحدة - ربما ليسمح له بوقت يستطيع فيه تقدير ما إذا كان الاختفاء هو رد الفعل الأفضل، وتثير دوائر المخ الكهربية مراكز الانفعالات في الدماغ، فتبعث فيضا من الهرمونات التي تجعل الجسم في حالة يقظة تامة تسمح له بأن يكون على حافة الاستعداد للقيام بفعل ما.

3 - أما في حالة السعادة: فيحدث نشاط متزايد في مركز المخ يثبط المشاعر السلبية، مع تنمية الطاقة المتزايدة المتاحة في هذا المركز، فضلا عن تهدئة كل ما يولد أفكارا مؤرقة. ولايحدث مع هذه التغيرات تحول فسيولوجي خاص يحول دون الهدوء الذي يجعل الجسم يُشفى سريعا من الإثارة البيولوجية الناتجة عن الانفعالات المزعجة. وهذه الحالة تحقق للجسم راحة عامة واستعدادا وحماسة للقيام بأي مهمة، وبذل أي جهد لتحقيق أهداف عظيمة ومتنوعة.

4 - وفي حالات الحب والمشاعر الدقيقة والإشباع الجنسي: فإنها جميعا تستتبع إثارة الجهاز العصبي الباراسمبثاوي، وهو النقيض الفسيولوجي لحشد الجسم في حالة الغضب أو الخوف (الضرب أو الهرب). أما النموذج الباراسمبثاوي الذي يطلق عليه الاستجابة المسترضية، فهو مجموعة من ردود

الفعل تشمل الجسم كله، وتولد حالة من الهدوء والرضا، وتسهل التعاون مع الآخرين.

5 – أما في حالة الدهشة: فترفع الحواجب لتسمح بنظرة شاملة أوسع، وتسمح بدخول مزيد من الضوء إلى الشبكية، وهذا يؤخر مزيدا من المعلومات حول ما حدث دون توقع، وحول آثار الدهشة.

6 – هناك تماثل في مختلف بقاع العالم في التعبير عن الاشمئزاز، فالرسالة التي تصل إلى الدماغ معبّرة عن شيء كريه الطعم أو الرائحة أو ما شابه ذلك، ينتج عنها تعبير وجهي يتمثل في تحوّر الشفة العليا إلى جانب من الفم، ويتجمد الأنف قليلا لغلق فتحتي الأنف ضد الرائحة الكريهة أو حين لفظ طعام فاسد.

7 – والحزن يؤدي إلى هبوط في الطاقة وفي الحماسة لممارسة الأنشطة الحياتية، وخاصة في مجالات اللهو والترويح عن النفس، فيما يعمق تراجع النشاط والشعور بالحزن الذي يقترب من الاكتئاب.. ويبطئ من عملية التمثيل الغذائي في الجسم [28].

الهـــوامــش

1 - David B. Givens - Human Brain -

http://members.aol.com/ninverbal3/human.htm - 2000 - p.1.

2 - دانييل جـولمان - الذكاء العاطفي - ترجمة ليلى الجبالي - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة «عالم المعرفة»، العدد 262، أكتوبر 2000 - ص26.

3 - Givens - Human Brain - op. cite - p.1.

4 - Ibid.

5 - جولمان - الذكاء العاطفي - مصدر سابق - ص26.

6 - المصدر نفسه - ص ص26-27.

7 - المصدر نفسه - ص28.

8 - Givens - Human Brain - op. cite - p.1.

(*) التيـمّن: الابتداء في الأفعال باليد اليمنى (لسان العرب لابن منظور، الجزء 13، ص 458.

9 - Givens - Nonverbal Brain -

http://members.aol.com/ninverbal2/nvbrain.htm - 2000 - p.1.

10 - Givens - Aquatic Brain & Spinal Cord -

http://members.aol.com/ninverbal2/aquatic.htm - 2000 - p.1.

11 - Givens - Amphibian Brain -

http://members.aol.com/ninverbal2/amphibia.htm - 2000 - p.1.

12 - Givens - Reptilian Brain -

http://members.aol.com/ninverbal3/reptile.htm - 2000 - p.1.

13 - Givens - Mammalian Brain -
http://members.aol.com/ninverbal3/mammal.htm - 2000 - p.1.
14 - Ibid.
15 - Givens - Primate Brain -
http://members.aol.com/ninverbal3/primate.htm - 2000 - p.1.
16 - Givens - Limbic System -
http://members.aol.com/ninverbal3/limbic.htm - 2000 - p.1.
17 - Arthur C. Guyton - Textbook of Medical Physiology - Philadelphia: W. B. Saunders - 9th Edition, 1996 - p.752 - In: Givens - Limbic System - op. cite - p.1.
18 - Richard E. Cytowic - The Man Who Tasted Shaped - New York: G. P. Putman's Sons - 1993 - In: Givens - Limbic System - op. cite - p.1.
19 - جولمان - الذكاء العاطفي - مصدر سابق - ص27.
20 - Givens - Limbic System - op. cite - p.1.
(**) السلوك الأمي هو السلوك الذي يميز الأم تجاه أبنائها عن بقية الأفراد.
21 - Ibid.
22 - Givens - Amygdala -
http://members.aol.com/ninverbal2/amygdala.htm#AMYGDALA - 2000 - p.1.
23 - جولمان - الذكاء العاطفي - مصدر سابق - ص32.
24 - جولمان - الذكاء العاطفي - مصدر سابق - ص ص32-33.
25 - المصدر نفسه - ص35.
26 - المصدر نفسه - ص36.
27 - Givens - Amygdala - op. cite - p.1.
28 - جولمان - الذكاء العاطفي - مصدر سابق - ص ص22-23.

المبحث الثالث

الدراسة العلمية للاتصال غير اللفظي

على الرغم من أن الدراسة العلمية للاتصال غير اللفظي بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر، فقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين ميلاد علم الاتصال غير اللفظي، وتراكم الدراسات المتعلقة به، وذلك بفضل الإسهامات المتميزة للدارسين الذين أتوا من مختلف التخصصات (بما يحملونه من منطلقات نظرية ومنهجية مختلفة ومتعددة). وقد دفع هذا التراكم كلاوس شيرر وبول اكمان إلى إعداد دليل مناهج دراسة السلوك غير اللفظي (Handbook of Methods in Nonverbal Behavior Research) عام 1982 (1).

إن تعقّد العملية التواصلية، خاصة في شقها غير اللفظي، أدى إلى الاستعانة بمعظم الإجراءات البحثية المتداولة في العلوم البحتة والعلوم الإنسانية، وتبين أن الدراسة العلمية للسلوك غير اللفظي تعتريها عدة صعوبات، منها:

1 - تتسم الرموز غير اللفظية بالغموض. إذ لا يوجد قاموس قادر على

تصنيفها بدقة، ودلالاتها متباينة وفقا للثقافة والسياق ودرجة التعمد في ترميزها.

2 – وتتسم بالاستمرارية. فمن الممكن التوقف عن الكلام ، لكن لا يمكن الامتناع عن التواصل غير اللفظي.

3 – الرموز غير اللفظية متعددة القنوات. إذ غالبا ما تعمل عدة قنوات غير لفظية بكيفية متزامنة ومتضافرة لإبلاغ رسالة معينة أو إبلاغ عدة رسائل مختلفة ومتعارضة في بعض الأحيان.

4 – كما ترتبط الرموز غير اللفظية ارتباطا وثيقا بالثقافة. فبالرغم من أن بعض السلوكات غير اللفظية ذات طابع عالمي (كبعض التعبيرات الوجهية)، إلا أنها لا تخلو من تأثير الثقافة المحلية والبيئة [2].

وعياً بهذه الصعوبات، تراكم لدى الباحثين كم هائل من الإجراءات والتقاليد البحثية، التي ترجع جذورها إلى عصور سابقة عندما كانت الخطابة أبرز مظهر للتواصل المتعمد الذي يرتكز إلى المهارات.

فوفقا لكيندون عام 1981، فإن الكتابات حول الخطابة في العصور القديمة والوسطى، قد ركّزت على السلوك الفعلي للخطيب أثناء إلقائه خطبته. وقد عرفت تلك الكتابات، أشكالا متعددة لإيماءات معينة، وأرفقتها بتعليمات لاستخدامها في خلق تأثيرات مدروسة على الجمهور. وقد اعتبر فرانسيس بيكون عام 1605 الإيماءات كوسيلة اتصال تعمل بتنسيق مع اللغة اللفظية والمكتوبة. فقد اقترح أنه « .. مثلما يتحدث اللسان للأذن، تتحدث اليد للعين». وأوضح الدارسون، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أن التعبير العاطفي والإيماء – أي ما يسمى باللغتين الطبيعيتين – هما الأساس للاتصال الرمزي اللغوي الأكثر تهذيبا واصطناعا [3].

وقد سبق أبو عثمان الجاحظ فرانسيس بيكون إلى الاهتمام بالاتصال غير اللفظي، ليس فقط كملاحظ عابر، بل كعالم مجرب رائد لا تقل مساهماته عن مساهمات علماء الاتصال المتأخرين بدءاً من شارلس دارون. فقد أدلى الجاحظ بالعديد من الملاحظات النظرية العلمية في السلوك الاتصالي غير اللفظي الذي يمارسه أبناء جيله، الأمر الذي يدعو للاعجاب بنفاذ بصيرته وسعة علمه، خاصة عندما يناقش بعض القضايا التي ما زالت تثار ضمن علم الاتصال غير اللفظي، مثل مدى التواصل غير اللفظي مقارنة بالتواصل اللفظي، ومدى عالمية بعض السلوكات غير اللفظية، وأهمية الإيماء أثناء الخطابة وغيرها (4).

ويؤرخ بعض الباحثين لبداية الدراسة المنتظمة للاتصال غير اللفظي، بكتاب شارلس داروِن الذي نشره عام 1872 بعنوان «التعبير عن العاطفة عند الإنسان والحيوانات» (The Expression of Emotion in Man and Animals)، والذي درس فيه السلوك الوجهي كتعبير عصبي-عضلي عن العاطفة. وهذا السلوك يعكس آثار الماضي ويعبر عن حالة عاطفية داخلية للإنسان أو الحيوان (5).

لقد كان كتاب دارون رائدا على المستويين النظري والمنهجي. فعلى المستوى النظري، قدم دارون مسألتين مازالتا تثيران الجدل في حقل الاتصال غير اللفظي المعاصر، وهما:

1 - مسألة اعتبار السلوك غير اللفظي فطرياً أو مكتسباً.

فبالرغم من عدم نكران دارون لتأثير التعلم الاجتماعي، إلا أنه مقتنع بأن التعبيرات الوجهية تتحدد وفق أسس بيولوجية، أي إنها فطرية. وهذا الاقتناع أثّر في اختيارات دارون لمناهج وأساليب جمع الأدلة لتدعيم اقتراحاته، وقد اختار المنهج المقارن. فقد قارن بين السلوكات التعبيرية لدى مجموعة من

الحيوانات ومن بينها الإنسان. والمقارنة قائمة على الملاحظة المنتظمة الدقيقة واللصيقة لسلوك الكائن في أوضاع مختلفة. والوصف الدقيق لكل دقيقة من التغيرات الملاحظة في الفعل أو المظهر.

لقد قام دارون بملاحظة نماذج السلوك في حالات عدة مستخدما الرسوم التوضيحية وآخذا الصور الفوتوغرافية للحصول على صورة أيقونية دائمة عن السلوك الذي يدرسه.

بالإضافة إلى ذلك، قام دارون بإرسال لائحة من الأسئلة لـ 36 شخصا في دول أخرى يسألهم فيها عن كيفية أدائهم لبعض التعبيرات الوجهية، مثل: «أيتم التعبير عن الدَهَش (الذهول) برفع العينين والفم؟».

2 - المسألة الثانية - وهي مرتبطة بالأولى - الاستخدام التواصلي للإشارات التعبيرية. لقد كان دارون رائدا في التحليل الوظيفي للسلوك الذي اتبعه علماء الإيثولوجيا.

لقد أدرك دارون حقيقة أن بعض السلوكات غير اللفظية، خاصة الإيماءات الرامزة، تؤدي - في المقام الأول - وظيفة تواصلية، وتستخدم بكيفية «اختيارية وواعية» ضمن نظام ثقافي مشترك، وذلك بالرغم من اقتناعه بأن لبعض الإيماءات أصولاً فطرية مستقلة.

ويعتبر دارون أول من استخدم أسلوب «تقديرات الملاحظين Observers' Judgement» في دراسة التعبيرات الوجهية. وقد أصبح هذا الأسلوب من أشهر الأساليب المستخدمة في دراسة السلوك غير اللفظي [(6)].

وبرز - بعد دارون - في أواخر القرن التاسع عشر علماء النفس الأنثروبولوجيين الألمان الذين اهتموا بالدراسة المقارنة للفروق والتشابهات العرقية والثقافية في أنظمة الاتصال كاللغة والإيماءات وتعبيرات الوجه.

وقد ترسخت بعض التقاليد العلمية في بداية القرن العشرين، عندما احتل علم النفس التعبيري مكانا بارزا ضمن دراسة علم النفس بألمانيا، وسرعان ما انتشر في أقطار أخرى.

ويتمثل اعتقاد تلك التقاليد في الافتراض بأن الفروق الفردية بين الأشخاص تضفي عليهم نمطا خاصا من الحركات التعبيرية، التي تؤثر بكيفية متماثلة على كل مظاهر النشاط الحركي، كالحركات الوجهية والجسدية، وفعل الكتابة والنطق [7]. لقد اتبعت بعض الدراسات في تلك الفترة مناهج تجريبية كمية، فقد قام بعض الدارسين بتسجيل ملاحظات ووصف دقيقين للظواهر غير اللفظية. وكثيرا ما استخدموا المنهج الاستقرائي، بالإضافة إلى ذلك قام الباحثون الألمان بتقديم منهج لتعيين (Sampling) السلوك المنتظم، للحصول على عينات سلوك مختلف من أفراد مختلفين، وأحيانا في أوقات مختلفة. ونجد في تلك التقاليد البحثية أولى المحاولات الرصينة لاستخدام القياس الكمي والتحليل الإحصائي [8].

وفي الثلاثينات من القرن الماضي ازداد الاهتمام بدراسة الاتصال غير اللفظي. وهكذا اهتم بليك Blake عام 1933، وكذلك آلبورت Alport وفيرنون Vernon في العام نفسه، بدراسة السلوك التعبيري [9]. وربما كان فرويد أول من درس الاتصال غير اللفظي دراسة منتظمة عام 1938، عندما ركز على المعنى الخفي للسلوكات العرضية Accidental Behaviors.

مع بروز النازية، تورط بعض علماء النفس الألمان في التمييز العرقي، القائل بسمو الجنس الآري وسعوا لإيجاد البراهين في أنماط السلوك التعبيري. وجاء الرد من عالم الاجتماع الشاب - آنذاك - ديفيد إيفرون David Efron من جامعة كولومبيا، الذي أنجز دراسة نشرت عام 1941، تعد من أبرز الدراسات في تاريخ دراسة الاتصال غير اللفظي على المستويين النظري والمنهجي.

فقد استخدم إيفرون الملاحظة الطبيعية وبعض الاستقراءات التجريبية في دراسته لإيماءات المهاجرين اليهود والإيطاليين بمدينة نيويورك. وهو من أوائل من استخدموا الأشرطة السينمائية لتسجيل السلوك غير اللفظي، واستعان بمناهج التحليل إطارا بإطار (Frame-by-frame) واستخدم الرسوم لتجسيد أبرز مظاهر أنماط الحركة. كما أدرك إيفرون أن التصنيف الوظيفي لأنماط الحركات، عنصر مهم في تحليل الحركة الجسدية باعتبارها عنصرا من عناصر أنظمة التعبير والاتصال. بالإضافة إلى ذلك، استعان إيفرون بالملاحظين لتحديد الكيفية التي ترمّز بها بعض الإيماءات [10].

ونجد من بين الرواد في هذا المجال، عالم الأنثروبولوجيا الأميركي ري بيردويسل Ray Birdwistell، الذي ترك بصماته على المستويين المفاهيمي والمنهجي. لقد تأثر بيردويسل بأعمال بعض علماء اللسانيات البنيوية (خاصة هاريس وبلومفيلد وتراجر وسميث)، وطبّق طريقتهم في التفكير والمنهج في تحليله للسلوك الحركي. وانطلق من الافتراض القائل أن حركة الإنسان تنتظم ضمن قواعد يشبه تصميمها تصميم اللغة [11]، وهَدَف بيردويسل من نظام تحليله إلى التأكيد بأن جميع حركات الجسد ذات معنى وليس فيها ما هو عرضي [12]. قام بيردويسل عام 1952 بوضع الأسس لعلم الحركة «Kinesics» قياسا على علم الأصوات Phonetics. اعتمد بيردويسل في تحليله على التقنيات السينمائية في تسجيل الأشرطة وتحليلها إطارا بإطار، كما طور نظام تسجيل يعتبر من أوائل المحاولات لإيجاد سجل رمزي للسلوك غير اللفظي.

من بين المساعي الجديرة بالذكر، التي بذلها الباحثون لتطوير دراسة الاتصال غير اللفظي، الاهتمام الكبير الذي أولاه الأطباء النفسانيون وعلماء النفس السريري للسلوك غير اللفظي. فبالرغم من أن اهتمامهم انصب – في المقام الأول – على المرضى العقليين، إلا أنهم أرسوا بعض مبادئ دراسة السلوك غير اللفظي.

ومن بين الأساليب المميزة في دراسة الاتصال غير اللفظي، نجد أسلوب «التاريخ الطبيعي» الذي يشكل نقطة التقاء الأفكار الواردة من حقول الأنثروبولوجيا واللسانيات البنيوية ونظرية المعلومات والطب النفسي. وقد اقترن هذا المقترب بأسماء باتسون وبيردويسل وبروست وفروم-ريتشمان وهوكيت وماكوين. لقد اهتموا بالتحليل البنيوي لأنماط الاتصال بين المرضى والمعالجين، مستخدمين تقنيات الترميز الصوتية والحركية [13].

أسلوب آخر ذو علاقة بالعلاج النفسي، هو أسلوب التحليل النفسي. فقد علق فرويد ومعاصروه على حقيقة أن السلوك غير اللفظي قد يكشف عن العمليات اللاشعورية التي لم يعبر عنها لفظيا. وقد قام الأطباء النفسيون بمراقبة حركة الجسد والنطق، من خلال الملاحظة السريرية والأشرطة المصورة والتحليل الدقيق والتصنيف الوظيفي للسلوك، قصد تقدير القيمة التشخيصية للسلوك غير اللفظي للمشاعر غير المصرح بها لفظيا [14].

ولعل من أبرز مَن ساهموا في تطوير دراسة الاتصال غير اللفظي، عالم النفس الأميركي الشهير بول اكمان – وزميله والاس فريزن – الذي اهتم في البداية بطبيعة التعبير العاطفي والمظاهر السيمائية للسلوك غير اللفظي. وقد طور تطبيقا نظريا يتضمن خمسة أنماط من السلوك غير اللفظي، يقوم على الفروق في الأصول والاستخدام والترميز. ويرجع له الفضل، مع زميله فريزن، في تطوير «نظام ترميز السلوك الوجهي» (Facial Action Coding System = FACS) الذي أصبح معيارا في دراسة التعبيرات الوجهية [15].

وعلى صعيد آخر، كان للتقاليد البحثية لعلماء السلوك الحيواني (الإيثولوجي) تأثير كبير على تطور دراسة الاتصال غير اللفظي، خاصة بعد أن خصص فرع لدراسة السلوك البشري. ومن أبرز علماء السلوك الحيواني نجد الألماني إيبل-إيبسفيلدت. لقد طور علماء السلوك الحيواني تقنيات

لتحليل السلاسل المتعاقبة ومجموعات السلوك. ونجد تأثيرات المقترب الذي اعتمده علماء السلوك الحيواني، واضحة في دراسة مراحل النمو والتفاعل بين الأم والرضيع.

بالإضافة إلى ما سبق، يمكن الإشارة إلى مساهمة العلماء الذين طوروا تقنيات تحليل المحادثات، وأغلبهم ينتمي إلى الدراسات الاجتماعية والإثنية (مثل جوفمان Goffman، وجارفينكل Garfinkel، وشيجلوف Schegloff). وقد انصب اهتمامهم على القواعد التي تحكم تفاعلنا مع الآخرين والدور الذي يقوم به كل من السلوكين اللفظي وغير اللفظي [16].

لقد أوضح دونكان Starkely Dunkan عام 1969، أن البحث في مجال الاتصال غير اللفظي اتبع استراتيجيتين مختلفتين: أولا، المقترب البنيوي؛ وثانيا، مقترب المتغير الخارجي. فالمقترب الأول يسعى للنظر في بنية السلوك غير اللفظي أو القوانين التي تحكمه، على افتراض أن الرموز غير اللفظية تشابه اللغة، لذلك فإن المناهج التي أثمرت في الدراسات اللسانية، تصلح لدراسة الرموز غير اللفظية. ويسعى المقترب الثاني، لعزل السلوكات غير اللفظية المطلوبة، ثم اختبار علاقاتها مع المتغيرات الأخرى، مثل: الشخصية، أو الحالة العاطفية للمبحوث، أو الوضع التفاعلي، أو الأحكام التي يطلقها المبحوث [17].

وأفرز هذان الأسلوبان تقليدين في دراسة الاتصال غير اللفظي. الأول أنثروبولوجي-لساني، ويمثله بيردويسل؛ والثاني سيكولوجي، ويمثله بول إكمان.

وتمييز آخر بين المقتربين يتمثل في المنهجية المتّبعة. فمقترب المتغير الخارجي، أو السيكولوجي يميل إلى المعالجة الإحصائية والتجريبية، بينما يميل المقترب الأنثروبولوجي إلى الاعتماد على المنهجيات اللسانية أو المقترب التاريخي.

وهناك مقترب آخر يحتل مركزا وسطا بين المقتربين السابقين، تبناه علماء النفس الاجتماعيون، مثل هوارد روزنفيلد Haward Rosenfeld عامي 1966و1967، وآلبرت مهرابيان عام 1972.

ويميل هذا المقترب إلى دراسة الاتصال غير اللفظي في وضع تفاعلي، مع الاعتماد على معالجة تجريبية، كتهيىء المبحوث للسلوك بطريقة معينة، وملاحظة تأثيرات هذا السلوك على المبحوثين الآخرين [18].

واعتمدت بعض الدراسات البنيوية منهج الملاحظة غير الرسمية. من خلال الدراسات الميدانية وتحليل كتب آداب السلوك، مثل دراسة كوفمان عام 1963، لكشف القوانين الخفية التي تحكم الاتصال غير اللفظي [19].

والمقترب الرابع الذي دخل ميدان البحث في الاتصال غير اللفظي، هو المقترب الإيثولوجي، وذلك عندما اتجه علماء السلوك الحيواني إلى دراسة الاتصال غير اللفظي عند الإنسان. فقد قام بعض الباحثين أمثال برانيكان Brannigan وزميله همفريز Humphries عام 1971، وكرانت E. C. Grant عام 1969، بملاحظة السلوك غير اللفظي في أوضاع طبيعية، مثل ملاحظة لعب الأطفال في المدارس. ويصنف الإيثولوجيون نماذج السلوك وفقاً للسلوكات:

1 - ذات التتابع نفسه؛ 2 - الوظيفة؛

3 - الحالة؛ 4 - والسبب نفسه[20].

ويميل معظم الباحثين في ميدان الاتصال غير اللفظي، إلى اتباع المنهج التجريبي بحكم انتمائهم إلى تخصصات علم النفس المختلفة، وذلك لكون المنهج التجريبي من أكثر المناهج اقترابا من الصفة العلمية. وهناك أنواع مختلفة من التجارب المتبعة في دراسة الاتصال غير اللفظي [21] وهي:

أولا: التجارب الميدانية: حيث يقوم أشخاص مدربون بالاقتراب من أحد

الأفـراد العـوام الـذي يكون مـتـمـشـيـا، أو جـالسـا في مكان عـام. ويتـصـرف الشـخص المتدرب وفـقـا لإجـراء مـعـيـاري، ويتم تسـجـيل سلوك الفـرد أو ملاحظته. ويتم التباين التجريبي عن طريق تغيير سلوك المدرب أو مظهره، أو تغيير الوضع الاتصالي.

ثانيا: التجارب المختبرية التي تعيد أوضاع الحياة الواقعية: وذلك بدعوة الأفـراد إلى المختبر للمشـاركة فـي التجـربة. ويطلب منهم أن يشـتـركـوا في استجواب أو نقاش، أو أوضاع مجتمعية أخرى، تكون موضوعاتها معروفة لديهم، وذلك للحصول على استجابات طبيعية، ويتم تسجيل الوضع الاتصالي وتحليله فيما بعد.

ثالثا: التجارب المختبرية التي يطلب فيها من الفرد القيام بدور محدد: فـقـد يطلب من الفـرد تخيُّل نفـسـه في وضع اجـتـمـاعي مـعين، والقـيـام باستجابات على هذا الأساس. أو أن تعرض عليه صور فوتوغرافية أو شريط فيديو ويطلب منه التعـرف إلى الحالات العـاطفـيـة التي تتـضـمنهـا المادة المعـروضـة، أو التـعـرف إلى السلوكـات غـيـر اللفظيـة. وفي هذا النوع من الدراسـات لابد من ملاحظة أن المتلقي للمنبهات قد يكون أكثر وعيا بها من الشخص القائم بالتنبيه، وذلك لأن معظم السلوكات غير اللفظية ذات طبيعة لاشعورية [22].

وبالرغم من ذلك، فهناك بعض الانتقادات التي توجه للدراسات التجريبية المختبرية بالخصوص، الأمر الذي ينتج عنه معاملة الناس كأفراد سلبيين يتصرفون مثل الآلات أو الحيوانات التي تُدَرّس في المختبر. كما أن الباحثين قد يؤثرون في استجابات الأفراد. ولا تمكّن التجارب من معرفة القوانين أو الأنظمة التي تشابه النحو في اللغات. ولكن الوعي بهذه الصعوبات قد يجعل كثيرا من الباحثين يتفادونها بحسن تصميم تجاربهم [23].

وأوضح ناثان Nathan عام 1986 أن معظم دارسي الاتصال غير اللفظي اتبعوا أحد المقتربين التاليين: التصنيف السلوكي، الذي يسعى لتصنيف السلوك غير اللفظي ضمن فئات تشمل القنوات غير اللفظية المختلفة (اللمس، المسافة، المظهر، الحركة الجسدية، سلوك العين،...)؛ والتحليل الوظيفي، الذي يسعى لدراسة الوظائف التي يقوم بها السلوك غير اللفظي[24].

نظريات الاتصال غير اللفظي:

الدراسة العلمية المنتظمة لأي فرع من فروع المعرفة، غالبا ما تقود إلى تبني نظرية ما تحدد للدارس المنطلقات والمنهج الذي يجب اتباعه للوصول إلى الأسئلة المطروحة والفرضيات. ولم يشذ علم الاتصال غير اللفظي عن هذا المنحى، وفيما يلي بعض نظريات الاتصال غير اللفظي.

أولا: نظرية التوازن:

قدّم أركايل Argyle ودين Dean عام 1965 طريقة نظرية في دراسة السلوك غير اللفظي أسمياها: «نظرية التوازن». تفترض هذه النظرية، أنه في كل تفاعل ما، يتم تحديد معدل من المودة بين الأفراد. ويتم التعبير عن هذه المودة عبر استخدام المسافة ونظرات العين والابتسام، والإيماءات اللفظية وغير اللفظية. وبمجرد ما يتم الوصول إلى المعدل، تتولد قوة للمحافظة عليه.

اتضح فيما بعد، أن نموذج التوازن غير دقيق، فطور باترسون عام 1976 «نموذج الإثارة» حيث التغيير في سلوك أحد الطرفين يؤدي إلى إثارة الطرف الآخر[25].

ثانيا: نظرية مهرابيان Albert Mehrabian:

قدم عالم النفس ألبرت مهرابيان في بداية السبعينات أول نظرية تبين مدى أهمية السلوك غير اللفظي في مجمل عملية التواصل. فقد وجد أن 7٪ من السلوك الاتصالي يأخذ شكلا لفظيا، و38٪ ذا طابع صوتي، و55٪ من السلوك الاتصالي يتم عبر الوجه. وإذا أضفنا السلوك الصوتي إلى السلوك الوجهي، نحصل على 93٪ من السلوك الاتصالي غير اللفظي، مقابل 7٪ للسلوك اللفظي. ومن هنا تبرز أهمية التواصل غير اللفظي.

تعرضت نظرية مهرابيان لانتقادات مست الجانب المنهجي منها. ففي مقالة لديفيد لاباكو David Lapakko من جامعة منيسوتا، نشرت بدورية التعليم والتواصل (Communication-Education Journal)، قُدِّمت انتقادات مست، أولا: شروط تنفيذ التجربة التي قام بها مهرابيان، من حيث محدودية حجم العينة (37 فردا، كلهم إناث، متقاربات في السن والتعليم)؛ ثانيا: التحكم الواضح في العنصر اللفظي والاكتفاء بلفظ «ربما»؛ ثالثا: افتقار الدراسة للصحة الداخلية. إذ افتقرت للتفاعل مع الآخرين، وافتقرت للسياق، وافتقرت للغة المعقدة؛ وأخيرا: لم تجر أي دراسة منفردة لمقارنة المكونات الثلاثة في آن واحد[26].

ثالثا: نموذج الانتهاكات غير اللفظية المتوقعة:

اقترح الدكتور جودي بورجون Judee Burgoon من جامعة أريزونا بالولايات المتحدة الأميركية، نظرية الانتهاكات القائمة على مكونين: المسافة والحركة. وتتضمن هذه النظرية المسافة التي تفصل بين الأفراد والمسافة الخصوصية التي يجب المحافظة عليها، وما يحدث عندما تتقاطع الحدود. كما أن القائم

بالاتصال، أو المنتهك، له قدر من القوة سواء في الوضع الحالي أو المستقبلي، يؤثر في تفسيره لأفعاله.

المكون الثاني هو الحركات، وتتضمن الحركات الجسدية الواعية وغير الواعية التي يقوم بها القائم بالاتصال، والكيفية التي تفسر بها تلك الحركات. وهناك أمور كثيرة يمكن أن تؤثر في المعنى الذي يعزوه الفرد للحركات غير اللفظية، ومن بينها الثقافة [27].

رابعا: نظرية التفاعلية الرمزية:

صاحبها هربرت بلومر Herbert Blummer من جامعة كاليفورنيا بيركلي، وأسسها على أفكار عالم الاجتماع جورج هربرت ميد.

تهتم هذه النظرية بإحساس الفرد بذاته، وكيف يصل إلى التعريف المحدد باستخدام الروابط بين المعنى واللغة والفكر. إذ تحدد لنا هذه من نكون ومن الذين يتعرفون إلينا [28].

خامسا: نظرية الإدارة المتناسقة للمعنى:

تعالج هذه النظرية الاتصال غير اللفظي من وجهة نظر البنية أو التركيبة الاجتماعية. وتقوم على أن كل شخص يشكل لنفسه حقيقة ما ويديرها. وتستخدم النظرية مصطلحي التماثل والتناسق لاسترداد المعنى والمحافظة على أهميته في حياتنا [29].

الهـــوامــش

1 - Klaus R. Scherer and Paul Ekman - Handbook of Methods in Nonverbal Behavior Research - (Eds) - London: Cambridge University Press, 1982.

2 - Donnell King - Nonverbal Communication - http://www2.pstcc.cc.tn.us/~dking/nvcom.htm - 1997 - pp.1-2.

3 - Richard M. Rozelle, Danial Druckman, and James C. Baxter - Nonverbal Behavior in Perspective - In: Raymond Williams (Eds) - Contact Human Communication and its History - London: Thomas and Hudson LTD., 1981, P.P.59-60

4- للتعرف إلى المزيد من مساهمات الجاحظ في مجال الاتصال غير اللفظي، راجع : محمد الأمين موسى – الاتصال غير اللفظي – الرباط: 1996

5 - Ibid. p.13.

6 - Scherer and Ekman - op. cite - pp.1-3.

7 - Ibid. p.3.

8 - Ibid. p.3.

9 - Druckman, Rozelle, and Baxter - op. cite - p.13

10 - Scherer and Ekman - op. cite - pp.3-4.

11 - Ibid. p.4.

12 - Givens - Kinesics - http://members.aol.com/doder1/kinesics1.htm - 2000.

13 - Scherer and Ekman - op. cite - p.5.

14 - Ibid. p.5.

15 - Ekman and Friesen - Measuring Facial Movement with the Facial Action Coding System - In: Scherer and Ekman - op. cite - pp.178-211.

16 - Scherer and Ekman - op. cite - p.7.

17 - Harrison - Nonverbal Behavior: An Approach to Human Communication - op. cite - p.259.

18 - Ibid. p.259.

19 - Michael Argyle - Non-verbal Communication in Human Social INteraction - In: Hedy Brown and Richard Stevens (Eds.) - Social Behavior and Experience: Multiple Perspective - Mill Road: The Open University Pess, 1983 - pp.446-447.

20 - Harrison - op. cite - p.260.

21 - Argyle - op. cite - pp.247-248.

22 - Poyatos - New Perspective for an Integrative Research of Nonverbal Systems - In: Mary Richie Key (Ed.) - Nonverbal Communication Today: Current Research - Berlin: Walter de Gruter and Co., 1982 - p.12

23 - Argyle - Bodily Communication - London: Methum Co., LTD, 1975 - pp.12-13.

24 - Joyce Menges - Feeling Between the Lines - http://www.december.com/cmc/mag/1996/mength.html

25 - Ted Helm - An Overviev of Nonverbal Communication in Impersonal Relationships - http://hamp.hahmshire.edu/~enhF94/kinesics.html - 2001 - p.4.

26 - Research on the Relative Importance of NVC - http://uts.cc.utexas.edu/~adgrad/importance.html - 2000.

27 - Nonverbal Expectancy Violations Model - http://uts.cc.utexas.edu/~adgrad/nvevm.html - 2000.

28 - Other Components of NVC Theory - http://uts.cc.utexas.edu/~adgrad/othercomponents.html - 2000.

29 - Ibid.

المبحث الرابع

قنوات الاتصال غير اللفظي

نقصد بقنوات الاتصال غير اللفظي، أعضاء الجسد التي يتم عبرها التعبير عن الرسائل الاتصالية غير اللفظية، بالإضافة إلى البيئة التي نعيش فيها أو تحيط بنا، وكيفية تعاملنا مع الوقت ومفهومنا للزمن.

لقد انعكست التعريفات المتعددة للاتصال غير اللفظي، التي تبناها الدارسون، على تصنيفهم لقنوات الاتصال غير اللفظي. وهناك عامل آخر يتمثل في الخلفية المعرفية التي ينطلق منها الدارسون، ومدى انغماسهم في دراسة هذا الفرع العلمي الجديد.

على الرغم من إدراك الرواد الأوائل لدراسة الاتصال غير اللفظي، لميزات هذا الأخير مقارنة بالاتصال اللفظي (اللغة)، إلا أنهم لم يدركوا مكونات هذا المجال البحثي الجديد. وبتعبير أدق، فهم لم يتعاملوا معه كفرع علمي قائم بذاته، بل كأحد المكونات الجديدة لمجالات اهتمامهم.

فقد درس تشارلس دارون (1872) تعبيرات الوجه، ضمن اهتمامه

بالبيولوجيا التطورية، بينما اهتم ديفيد إيفرون عام 1941، بالإيماءات من وجهة نظر اجتماعية/إثنية. وفي أواخر الخمسينات، تدعم علم الاتصال غير اللفظي بمجهودات اثنين من أبرز علماء الأنثروبولوجيا الأميركيين، وهما بيردويسل الذي وضع الأسس للدراسة العلمية لحركات الجسد على غرار المجهودات التي قام بها نعوم تشومسكي في مجال اللغة (اللسانيات التوليدية)، وأسماه «علم الحركة» Kinesics، وقد شمل بذلك جزءا كبيرا من السلوك غير اللفظي؛ والأنثروبولوجي الشهير إدوارد هول Edward T. Hall الذي تخصص في دراسة استخدام الشعوب للمسافة والمجال، ومفهوم الزمن، ابتداء من عام 1959 عندما أصدر كتابه «اللغة الصامتة The Silent Language».

وابتداء من منتصف الستينات شكلت مجهودات عالمي النفس بول اكمان وزميله ولاس فريزن، إضافة بارزة لدراسة الاتصال غير اللفظي. إذ قاما عام 1969 بتصنيف السلوك غير اللفظي ضمن خمس مجموعات:

- المجموعة الأولى: الإيماءات الرامزة Emblems:

وهي الأفعال غير اللفظية التي يمكن ترجمتها لفظيا ولها تعريف معجمي غالبا ما يتكون من كلمة أو كلمتين أو جملة. ويمكن ترميز هذه الإيماءات بمختلف أجزاء الجسد الخارجية، خاصة بواسطة اليدين والوجه.

- المجموعة الثانية: الموضحات Illustrators:

وهي الحركات الجسدية التي ترتبط مباشرة بالحديث من أجل توضيحه.

- المجموعة الثالثة: مُبديات الشعور Affect Displays:

وهي السلوكات غير اللفظية التي يتم عبرها إبداء المشاعر بكيفية فعالة، وأبرزها حركات العضلات الوجهية التي ارتبطت بالمشاعر الأولية (كالحزن والفرح والغضب..).

- المجموعة الرابعة: المنظمات Regulators:

وهي الأفعال التي تحافظ على طبيعة الأخذ والرد في المحادثة (التحدث-الاستماع)، وتنظمها. بينما يمكنها أن تخبر المتحدث بضرورة الاستمرار في الحديث أو الإعادة، أو الإسراع، يمكن أن تخبر المستمع بضرورة إبداء اهتمام خاص لما يقال، أو الانتظار لفترة أطول قبل الأخذ بزمام المبادرة.

- المجموعة الخامسة: المكيِّفات Adaptors:

وهي حركات تهدف إلى إرضاء الحاجات الجسدية، أو لأداء أفعال جسدية أو التحكم في العواطف، أي تساعد على تكيُّف الفرد مع الوضع الذي يوجد فيه[1].

في بداية السبعينات، بدأ الباحثون الذين كرسوا جهودهم لدراسة الاتصال غير اللفظي يتطرقون لمعظم قنوات الاتصال غير اللفظي، كما نعرفها اليوم. فقد صنف عالم النفس البريطاني مايكل أركايل عام 1972 السلوك الاجتماعي (غير اللفظي) ضمن عشر قنوات:

1 - الاحتكاك الجسدي؛ 2 - المسافة؛ 3 - التوجّه Orientation (الجهة التي يتموقع فيها الآخر سواء في اليمين أو اليسار)؛ 4 - هيئة الجسد (جلوس - وقوف - اتكاء...)؛ 5 - الإيماءات؛ 6 - حركات الرأس (إيماء - انحناء - تنكيس...)؛ 7 - التعبيرات الوجهية؛ 8 - حركات العين؛ 9 - المظهر؛ 10 - المظاهر غير اللسانية للكلام[2].

وفي عام 1975، قام أركايل بتقسيم القنوات العشر لتشمل مظاهر فرعية، مثل تقسيم حركات العين إلى التحديق/النظر أثناء الاستماع، والنظر أثناء الحديث، والتحديق المتبادل، وطول النظرات العَجْلى Glances، ومقدار

فتح العين، واتساع إنسان العين (البؤبؤ) [3].

أما راندال هاريسون (1972)، فقد صنف الرموز غير اللفظية ضمن أربع مجموعات كبرى:

- المجموعة الأولى: رموز الأداء: وتنبع من الأفعال الجسدية كالتعبيرات الوجهية وحركات العين، والإيماءات، وهيئة الجسد، والملامسة، والشم، بالإضافة إلى الأصوات التي مصدرها الجسد (كالأنين، والضحك، والشخير..).

- المجموعة الثانية: الرموز الاصطناعية: وتتمثل في التعامل مع مستحضرات التجميل، والملابس، والأثاث، والمواضيع الفنية، والمعمار وما شابهها.

- المجموعة الثالثة: الرموز غير المباشرة: وهي تنتج عن دخول الإنسان كعنصر مبدع مما ينتج عنه توليفات ذات دلالة جديدة، كأن يقوم المخرج بانتقاء اللقطات أو الألوان المناسبة والمزج بينها.

- المجموعة الرابعة: الرموز السياقية: وهي الرموز غير اللفظية الناتجة عن التعامل مع الوقت والفضاء [4].

ويرى مارك ناب Mark Knapp وجيرالد ميلر Gerald Miller (1972)، أن الأبعاد غير اللفظية للتواصل البشري تنقسم إلى:

1 - حركة الجسد أو السلوك الحركي: وتشمل الإيماءات، وحركات الجسد (الأعضاء، الكفين، الرأس، القدم والرجلين)؛ التعبيرات الوجهية، وسلوك العين، والهيئة.

2 - السمات الجسدية: وتتضمن شكل الجسد، والجاذبية العامة، ورائحة الجسد أو التنفس، والطول، والوزن، والشعر، ولون البشرة.

3 – السلوك اللمسي: ويشمل الملامسة، والضرب، والتحية والوداع، والحمل والإمساك، وغيرها من السلوك الذي لايتم إلا عبر اللمس.

4 – الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة Paralanguage: وتشمل الصوت (مثل مدى الطبقة الصوتية)، والخصائص الصوتية (كالضحك، والبكاء، والصفير...)، والمؤهلات الصوتية (كقوة الصوت وارتفاع طبقته ومداه)، والفواصل الصوتية.

5 – «البروكسيميا» Proxemics: وتعني استخدام الإنسان وإدراكه للمسافة أو الفضاء الاجتماعي والشخصي.

6 – المصنوعات Artifacts: وتشمل الأمور التي نضيفها للجسد قصد تجميله (كالعطور، والملابس، والشّعر المستعار، والنظارات، وأحمر الشفاه،...).

7 – العناصر البيئية: وتضم العناصر اللصيقة بالعلاقات البشرية دون أن تكون جزءاً مباشراً فيها، كالأثاث، والنمط المعماري، والتزيين الداخلي، وشروط الإضاءة، والروائح والألوان، ودرجة الحرارة، والأصوات الصاخبة والموسيقى، وغيرها، التي تتواجد أثناء حدوث التفاعل [(5)].

نلاحظ من خلال الأمثلة الأربعة السابقة، أن السبعينات عرفت تطورا ملحوظا في دراسة الاتصال غير اللفظي، وتوسيع مكوناته، إذ لم يعد يقتصر على الجسد البشري، بل تعداه إلى النتاج والإنتاج الإبداعيين للإنسان، وإلى البيئة.

اعتبر باترسون (1983) أن عبارة «سلوك غير لفظي» تتضمن – بالإضافة إلى المظاهر غير اللفظية للغة – ما يلي:

1 – المسافة التي تفصل بين الأفراد؛ 2 – اتجاه التحديق؛ 3 – اللمس؛ 4 – ميل الجسد؛ 5 – توجّه الجسد؛ 6 – التعبيرات الوجهية؛ 7 – الهيئة؛ 8 –

الإيماءات؛ 9 – حركات اليد؛ 10 – حركات الرجل أو القدم؛ 11 – سلوك التهيؤ والاستعداد؛ 12 – ملامسة الجسد والأشياء (حك الجلد، تقديم الملابس، اللهو بالمفاتيح والأشياء،...)؛ 13 – اتساع إنسان العين وانقباضه؛ 14 – التوقف أثناء الكلام؛ 15 – المقاطعة أثناء الكلام؛ 16 – مدة الحديث [6].

واستعرض رونالد أدلر وجورج رودمان في كتابهما «فهم الاتصال البشري Understanding Human Communication»، الاتصال غير اللفظي، ضمن الأنماط التالية:

أولا: الهيئة (مع التركيز على الجلوس).

ثانيا: الإيماءات: بمختلف أنواعها (الرامزة، والموضحة، والموجهة،...).

ثالثا: الوجه والعينان.

رابعا: الصوت: متضمنا المظاهر غير اللفظية للغة.

خامسا: اللمس.

سادسا: الملابس.

سابعا: علم المسافة Proxemics (حسب مفهوم إدوارد هول).

ثامنا: الإقليمية: بمعنى الفضاء الشخصي الذي لا ينبغي اقتحامه من لدن الغرباء.

تاسعا: البيئة: الاصطناعية والطبيعية [7].

وإذا انتقلنا إلى الاهتمامات الحديثة (تسعينات القرن العشرين وبداية القرن الحالي)، نجد توسعا ملحوظا في دراسة الاتصال غير اللفظي، على الرغم من اختلاف الباحثين في الاهتمام بالقنوات غير اللفظية.

ففي الطبعة الثالثة من كتابهما «السلوك غير اللفظي في العلاقات بين

الأشـخـاص «Nonverbal Behavior in Interpersonal Relations» الصـادر عن دار «Allyn Bacon» عام 1997، صنفت فيرجينيا ريشموند Virginia P. Richmond وجـيـمس مـاكّروسـكي James C. McCroskey، السلوك غيـر اللفظي ضـمن المجموعات التالية:

1 – المظهر الجسدي؛ 2 – الإيماء والحركة؛ 3 – الوجه وسلوك العـين؛ 4 – السلوك الصوتي؛

5 – المسافة الإقليمية؛ 6 – اللمس؛ 7 – البيئة؛ 8 – الشم؛ 9 – الزمن؛ 10 – الفورية [8].

بينما اختصر ديل ليزرس Dale Leathers في كتابه «الاتصال غير اللفظي الناجح: الأسس والتطبيقات Successful Nonverbal Communication: Principles and Applications» قنوات الاتصـال غـيـر اللفظي في سـبع مجموعات:

1 – التعبيرات الوجهية؛ 2 – سلوك العين؛ 3 – التواصل الجسدي؛ 4 – التواصل عبر المسافة؛ 5 – التواصل اللمسي؛ 6 – المظهر الشخصي؛ 7 – الاتصال الصوتي/اللفظي [9].

واستعرضت سيمون كاپّر Simon Capper من «كلية النساء سوزوجامين» بهيروشيما، في مقال لها حول الاتصال غير اللفظي وتعليم اللغة الأجنبية، استعرضت قنوات الاتصال غير اللفظي، كالتالي:

1 – الإيماءة؛ 2 – حركات الرأس؛ 3 – التعبير الوجهي؛ 4 – نظرة العين وتحديقها؛ 5 – علم الحركة ولغة الجسد؛ 6 – المسافة؛ 7 – اللمس؛ 8 – الصمت والتنفس والمظاهر غير اللفظية للغة [10].

اقترح ڤيكي ريتز Vicki Ritts وجيمس شتاين James R. Stien على

المدرسين سبعة مجالات رئيسة لاستكشاف السلوك غير اللفظي، هي:

1 - الاتصال بالعين؛ 2 - التعبيرات الوجهية؛ 3 - الإيماءات؛
4 - هيئة الجسد وتوجهه؛ 5 - المسافة؛ 6 - المظاهر غير اللفظية للغة؛
7 - الفكاهة [11].

ومن بين التطبيقات الحديثة والشاملة، ما تبناه الباحث جون ماسترسن John T. Masterson في دراسته عن الاتصال غير اللفظي في الواقع الافتراضي القائم على النص (1997). يذكر ماسترسن تسعة أشكال للاتصال غير اللفظي، وهي:

1 - المظهر الجسدي وما يترتبط به من ملابس ومصنوعات أخرى كالأحذية والاكسسوارات.

2 - الحركة Kinesics وتضم جميع الحركات التي يقوم بها الجسد، أي لغة الجسد.

3 - السلوك الوجهي Occulesics ويشمل التعبيرات الوجهية ونظرات العين.

4 - السلوك الصوتي Vocalics ويشمل الأصوات والمظاهر غير اللفظية للغة.

5 - المسافة Proxemics وتتضمن استخدام الفرد للمسافة والإقليمية.

6 - السلوك اللمسي Haptics.

7 - تفصيلات البيئة Environmental Details، ومن بينها ترتيب البيئة الاصطناعية ومكونات البيئة الطبيعية كالحرارة والضوء والألوان..

8 - السلوك الشمي Olfactics ويشمل كل ما يدركه الفرد من الروائح.

9 - الزمن Chronemics، أي إدراك الفرد للوقت وكيفية التعامل معه [12].

من خلال استعراضنا لبعض جهود الدارسين منذ أواخر القرن التاسع عشر، يتضح أن إدراك الباحثين لمكونات الاتصال غير اللفظي، قد تطور مع مرور الوقت ليشمل معظم مظاهر الاتصال. ويكاد الاتصال غير اللفظي أن يتضمن جل مظاهر الحياة.

وبما أن الحصر الشامل للقنوات غير اللفظية، لا يخرج عما استعرضناه، فسوف نستقي تصنيفنا للقنوات غير اللفظية مما أورده كل باحث منفردا لنخرج بحصيلة نأمل أن تكون شاملة لأبرز قنوات الاتصال غير اللفظي، مع توسيعنا لبعض القنوات لتتضمن جل السلوكات غير اللفظية ذات الارتباط.

هكذا ارتأينا أن نقسم قنوات الاتصال غير اللفظي، كالآتي: 1 - الاتصال بالعين؛ 2 - التعبيرات الوجهية؛ 3 - الإيماء؛ 4 - الهيئة؛ 5 - اللمس؛ 6 - الشم والذوق؛ 7 - المسافة؛ 8 - المظهر؛ 9 - الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة؛ 10 - ترتيب البيئة؛ 11-الزمن؛ 12 - السلوك غير اللفظي المزيج.

أولا: الاتصال بالعين: ويشمل السلوك الروتيني الذي تقوم به العين عندما تُفتَح، والإيماءات التي تُرَمَّز عبر العين، والنظرات المتعمدة، والنظرات العجلى، وإطالة النظر أو تحاشيه، وفقدان القدرة على الإبصار، وسلوك الرمشين أثناء النظر، ورقرقة العين بالدموع، والدلالة المجازية الرمزية للعين وسلوكها. وبصفة عامة، كل الرسائل التواصلية التي يتم تلقيها أو إرسالها من منطقة العين.

ثانيا: ثانيا التعبيرات الوجهية: هي الرسائل التواصلية المستقاة من الوجه، وعلى رأسها التعبيرات العاطفية كالفرح والحزن والغضب والاشمئزاز

والاندهاش والخوف والخجل، الابتسام والضحك (على الصعيد التعبيري العضلي وليس الصوتي)، والحياد العاطفي، بالإضافة إلى الدلالة المجازية والرمزية للوجه باعتباره مختزلا للجوهر.

ثالثا: الإيماء: ونعني به الإيماءات بمختلف أشكالها كما صنفها اكمان وفريزن (الرامزة، والموضِّحة، والمنظِّمة، والمكيِّفة، ومبديات الشعور)، وكل ما يتعلق باليد والكف باعتبارهما أبرز الأعضاء في مجال الإيماء، ويندرج ضمن هذه القناة كل السلوكات الرمزية التي تسعى إلى الإبهار وتقديم العظة للآخرين.

رابعا: الهيئة: يقتصر جل الباحثين دراسة الهيئة على كيفية الجلوس والوجهة التي يتخذها الجالس. وسنقوم في هذه الدراسة بتوسيع هذا المفهوم ليشمل: الجلوس والمشي والجري والاتكاء والاستلقاء والرقاد والنوم والهرولة والخُرور والسجود والركوع. وكل هذه الأوضاع لها دلالات تواصلية تنم عن المنزلة الاجتماعية والحالة العاطفية والصحية.

خامسا: اللمس: يشمل السلوك اللمسي الذي يقوم به الفرد، أو الأشياء التي تحتك بجسده أو التي تترك أثرا على بشرته، أو تخترق بشرته لتؤثر في حالته الجسدية الداخلية كارتفاع الحرارة وانخفاضها من جراء أشعة الشمس أو النار أو الريح أو البرد والجليد، والاستخدام المجازي للمس بمعنى الإصابة.

سادسا: الشم والذوق: جَمْعنا لحاستي الشم والذوق في فئة واحدة ناتج عن الارتباط الوثيق بينهما. إذ غالبا ما يكوِّن المتلقي صورة ذهنية تربط بين رائحة الطعام وطعمه، كما أن بعض الرسائل الشمِّية التي يتلقاها الفرد تنبئه الكثير عن المذاق فيقبل على مصدر الرائحة أو يتجنبه. وعند الحديث عن الذوق بمعنى الإحساس، نجد أن هناك علاقة ارتباط بينه وبين اللمس، خاصة عند الإحساس (أو تذوق) بالألم عبر الجلد.

سابعا: المسافة: والمقصود بها المسافة التي تفصل بين الأفراد ودلالتها التواصلية، وكذا المسافة التي تفصل بين الفرد والأشياء من حوله. وتتضاف إليها «الإقليمية» وهي الحد الأدنى من المساحة المحيطة بالفرد أو الجماعة، والتي يعتبر اقتحامها من لدن الآخرين نوعا من التحدي والتعدي، أو دلالة على العلاقة الخصوصية التي تجيز هذا الاقتحام. وتهتم دراسة المسافة بالمسافات الكونية الشاسعة وتأثيرها في إدراك المتلقي، في مقابل المسافات المتناهية في الصغر. وأخيرا يمكن أن تهتم دراسة المسافة بالاتجاهات الستة (الشمال، الجنوب، الشرق، الغرب، الأعلى/فوق، والأسفل/تحت).

ثامنا: المظهر: ويشمل المظهر الجسدي، المتمثل في الجسم الطويل أو القصير أو المتوسط، والبدين أو النحيف أو العضلي، والأنثوي والذكوري، ولون البشرة ولون الشّعر وكثافته وطوله ولون العينين، وشكل الوجه (دائري أو مثلث أو مستطيل)، ونعومة البشرة والتجاعيد والندوب التي تعتريها. كما يشمل المظهر، الملابس بألوانها وأشكالها المختلفة، والإكسسوارات والمحاولات التجميلية للجسد، والأحذية والمصنوعات التي ترافق الجسد وتعطيه قيمة إضافية، بالإضافة إلى الدلالات التي تستخدم كامتداد للأعضاء الجسدية كوسائل النقل والكاميرات والنظارات الطبية، وغيرها من مكونات البيئة الاصطناعية التي تكمل المظهر كالمنزل والمكتب. ويشمل المظهر، الدواب التي يستخدمها الإنسان أو يمتطيها، والحيوانات الأليفة التي يربيها، والصور والرسوم التي تضفي قيمة عليه. فضلا عن كون جميع مظاهر الهيئة والتعبيرات الوجهية يمكن إدراجها ضمن المظهر بالإضافة إلى العطور التي تستخدم كتعبير عن المظهر.

تاسعا: الصوت والصمت والمظاهر غير اللفظية للغة: من أمثلة الصوت يمكن ذكر الضجيج والضوضاء، والأصوات الصادرة عن الطبيعة كالرعد

والزلزال، والرياح والأعاصير، وخرير المياه، والصفير، وأصوات الحيوانات؛ والأصوات الصادرة عن الإنسان كالشخير والأنين والشهيق والزفير والصراخ والبكاء والنحيب والعويل والغناء والدندنة والموسيقى والإيقاع والضحك والقهقهة والزمجرة والتجشؤ والتأوّه والتصفيق والطقطقة واحتكاك بعض أجزاء الجسد فيما بينها أو بأشياء خارجية. والصمت قد يكون مطبقا أو ما يتخلل الحديث، أو ذلك الناتج عن العجز عن النطق أو السماع.

أما المظاهر غير اللفظية المصاحبة للغة، فقد حصرها مايكل أركايل في:

1 - نغمة الصوت؛ 2 - نمط الصوت واللهجة؛ 3 - الأشكال النطقية وثيقة الارتباط بالحديث (كالطبقة والتشديد والتوقيت وعلو الصوت وانخفاضه والسرعة وجودة الصوت)؛ 4 - الصمت والتوقف أثناء الحديث[13].

واقترح دروكمان وروزيل وباكستر التصنيف الآتي:

1 - صفات الصوت: كالطبقة والارتفاع والشدة ومدى الصوت.

2 - الصفات المخلة بالحديث، كالتمتمة والسهو والتكرار وملء الفراغات (باستخدام «آ» والتكرار المسترسل غير اللازم)، والأصوات المتنافرة.

3 - الأبعاد الزمنية، مثل: مدة النطق، وتأخر زمن رد الفعل، ونسبة الاعتراضات أثناء الحديث.

4 - مقاييس الإنتاجية اللفظية، مثل معدل الحديث والكمية اللفظية (الوقت المستغرق في الكلام وعدد الكلمات وعدد وحدات العبارات).

5 - الصمت ويشمل اللجلجة في النطق، والوقفات الخالية من النطق.

6 - منظمات المحادثة، مثل: تغيرات نغمة الصوت، وانحدار الصوت وتصاعده[14].

عاشرا: ترتيب البيئة: يشمل ترتيب البيئة مستويات عدة: المستوى الأول يتضمن السياق المادي الذي تجري فيه عملية الاتصال، أي مكونات الفضاء الطبيعية والاصطناعية التي تؤثر في مجرى التواصل (سواء كان ذاتيا أو شخصيا أو جماهيريا)، مثل أشعة الشمس والأمطار والسُحُب (التي يُستَظَل بها) والحرارة والبرد والجليد والبَرَد والنسيم والضباب والدغاش والريح والإعصار وتلوث الهواء، بالإضافة إلى الموجودات الطبيعية كالحيوانات والنباتات والمياه والجمادات الأخرى. وتتجلى بعض المكونات الاصطناعية في المنازل والمكاتب وأثاثها وتزيينها الداخلي ودرجة الإضاءة وتكييف الهواء.

والمستوى الثاني، يضم ترتيب البيئة الكونية. كترتيب الموجودات على سطح الأرض وباطنها والهواء والسحاب والأمطار والبرق، وترتيب الأجرام السماوية من أقمار وكواكب وكويكبات وشهب ونيازك ومذنبات ونجوم ومجرات...

والمستوى الثالث، يتمثل في ترتيب البيئة الغيبية، مثل بعض المعجزات التي وردت في القصص القرآني ووصف ما يحدث في القبر والسماوات السبع وسدرة المنتهى والعرش ويوم القيامة والحشر والصراط المستقيم والجنة والأعراف والنار.

الحادي عشر: الزمن: تهتم دراسة الزمن، كقناة للاتصال غير اللفظي، بوحدات الوقت (المتناهية الصغر كالفيمتو ثانية والنانوثانية والصغيرة المدركة كالثانية والدقيقة، والمتوسطة كالساعة واليوم والأسبوع والشهر والسنة، والوحدات الطويلة كالقرن، والمطلقة المتناهية في الكبر كالأبد والخلود). وتهتم بنسبية الوقت عندما يتغير إدراك الوحدة الزمنية حسب الحالة التي يعيشها المتلقي. واختلاف الوحدات الزمنية باختلاف البيئة. بالإضافة إلى دلالة الألفاظ اللغوية التي تدل على الوقت والانتظار.

الثاني عشر: السلوك غير اللفظي المزيج: ويتضمن السلوكات أو الأوضاع غير اللفظية التي تنتج عن تضافر أكثر من قناة غير لفظية واحدة، لتعطينا رسالة تواصلية ذات دلالة بليغة تكشف عن أهمية التواصل غير اللفظي. وهذا النوع من السلوك، هو السائد في الحياة الواقعية، إذ يندر أن نلتجئ إلى التواصل غير اللفظي الفعال دون توظيف قنوات تواصلية متعددة ومتزامنة.

الهـــوامـش

1 - Ekman and Friesen - The Repertoire of Nonverbal Behavior... - op. cite - pp.63-92.

2 - Argyle - The Psychology of Interpersonal Behavior - Harmondsworth: Penguin Books, 1972 - pp.37-44.

3 - Michael Argyle - Bodily Comunication - London: Methuem Co., LTD, 1975.

4 - Miles L. Patterson - Nonverbal Behavior: A Functional Perspective - New York: Spring Verlag, 1983, p.3.

5 - Harrison - Nonverbal Behavior... - op cite - p.257.

6 -Mark L. Knapp and Gerald R. Miller - Handbook of Interpersonal Communication - Beverly Hills: Sage Publications, Inc., 1985.

7 - Ronald B. Adler and George Rodman - Understanding Human Communication - New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc. - Third Edition, 1988 - pp. 112-126.

8 - Virginia P. Richmond and James C. McCrosky - Nonverbal Behavior in Interpersonal Relations - Third Edition, Allyn & Bacon, 1995.

9 - Dale Leathers - Successful Nonverbal Communication: Principles and Applications - Allyn & Bacon, 1997.

10 - Simon Capper - Nonverbal Communication and the Second Language :earner: Some Pedagogic Considerations - http://langue.hyper.chubu.ac.jp/jalt/pub/tlt/00/ay/capper.html - 2000 - pp.2-6.

11 - Vicki Ritts and James R. Stien

12- John T. Masterson - Nonverbal Comunication in Text Based Virtual Realitied -

13 - Argyle - Bodily Communication - op. cite - p.345; Argyle - Verbal and Nonverbal Communication - In: John Corner and Jermy Hawthorn (Ed.) - Communication Studies: An Introductory Reader - London: Edward Arnold (Publishers) - 1980 - p.57; and Argyle - The Psychology of Interpersonal Behavior - Harmondsworth: Penguin Books LTD, 1983 - pp.40-41.

14 - Daniel Druckman, Richard M. Rozelle and James C. Baxter - Nonverbal Communication: Survey, Theory, and Research - (Sage Library of Social Research, Volume139) - London: Sage Publications, Inc., 1982 - pp.43-44.

المبحث الخامس

وظائف الاتصال غير اللفظي

على الرغم من أن اهتمام العلماء بوظائف السلوك غير اللفظي في حياة البشر، لم يرق إلى المجهودات التي قام بها العلماء والفلاسفة قصد تحديد وظائف اللغة، فقد تبين أن السلوك غير اللفظي يقوم بدور فاعل وحاسم في الكثير من اللحظات التواصلية التي تتخلل حياة الأفراد ضمن بيئة محددة.

ووفقا للمكانة الرئيسة التي يحتلها كل ما هو غير لفظي في سياق عملية الاتصال، تبرز الوظائف المتعددة التي يقوم بها السلوك غير اللفظي، وتتصدر بعض القنوات غير اللفظية الفعل التواصلي وتنفرد به حتى تتطابق وظائف تلك القنوات مع وظيفة العملية التواصلية ككل.

لقد تحدث العالمان بول اكمان ولاس فريزن عن وظائف الاتصال غير اللفظي [1]، ضمن مساعيهما للمشاركة في وضع اللبنات الأولى لعلم الاتصال غير اللفظي ابتداء من منتصف ستينات القرن الماضي. فضمن جهودهما لمعرفة استخدامات السلوك غير اللفظي، تحدثا عن ثلاث وظائف: الوظيفة الإخبارية

Informative؛ والوظيفة التواصلية Communicative؛ والوظيفة التفاعلية Interactive. وهما يعطيان مدلولات خاصة لتلك المصطلحات الثلاثة.

فالوظيفة الإخبارية للسلوك غير اللفظي، تشمل الأفعال التي لها معنى مشترك لدى المتلقين، دون أن يكون هناك تعمد وراء نقل هذا الفعل للمعلومات. ومصطلح إخباري في هذا السياق يهتم فقط بعملية التلقي. وإذا كان المعنى الذي يفهم من الفعل ذا طابع «خصوصي» Idiosyncratic أكثر منه مشتركاً، لا يمكن اعتبار الفعل غير اللفظي إخبارياً.

والوظيفة التواصلية، تتضمن الأفعال التي يتعمد المرسل - بكيفية واضحة وواعية - أن ينقل رسالة معينة للمتلقي. والأفعال التي تؤدي الوظيفة التواصلية - حسب اصطلاح اكمان وفريزن - ترتبط بالمرسل وقد لا يكون لها معنى مشترك، مما قد يؤدي إلى عدم فهمها من لدن المتلقي.

أما الوظيفة التفاعلية، فتشمل الأفعال غير اللفظية التي تصدر من شخص في وضع تفاعلي، فتؤثر في السلوك التفاعلي لشخص آخر. وإذا كان التأثير التفاعلي متبادلاً بين المرسل والمتلقي، يأخذ طابعا إخباريا-تفاعليا، علما أنه ليس كل الأفعال الإخبارية تفاعلية.

يولي اكمان وفريزن أهمية كبيرة للتداخلات بين الوظائف الثلاث، لينتج عنها بعض الأفعال غير اللفظية ذات الطابع الإخباري-التفاعلي، أو الإخباري-التواصلي، أو التواصلي-التفاعلي.

لقد أدى تراكم الدراسات حول الاتصال غير اللفظي في سبعينات القرن العشرين إلى وضوح الرؤية وإدراك المزيد من الوظائف التي يؤديها السلوك غير اللفظي في حياة الكائن البشري بصفة خاصة، والكائنات الحية الأخرى بصفة عامة.

ذكر مارك ناب عام 1972، ست وظائف للاتصال غير اللفظي [2]:

1 - التكرار Repeating: عندما يردد السلوك غير اللفظي، ما قيل لفظيا، ويحدث هذا عادة باستخدام إيماءات اليد الموضحة أو المرجعية [3].

2 - المناقضة Contradicting: إذ يتناقض السلوك غير اللفظي مع ما يقوله الشخص، خاصة عندما يجبر الإنسان على التعبير عن حالة عاطفية يشعر بها فعلا. ومن الأمثلة البارزة أن يقرّ المرء برضاه، قولا، بينما تعبيراته الوجهية تقول العكس. وتكمن أهمية هذه الوظيفة في كونها تعتبر المقياس الفعال - في كثير من الأحيان - لمدى الصدق أو الكذب. فبينما يسهل التحكم في التعبيرات اللفظية، يصعب التحكم في مثيلاتها غير اللفظية.

3 - الإبدال (الإحلال) Substituting: تقوم بعض السلوكات غير اللفظية - كالإيماءات الرامزة - مقام الحديث، خاصة في الظروف التي يتعذر فيها الكلام، أو في حالات توافق الأفراد على مدلول سلوك غير لفظي محدد وشيوعه.

4 - التكميل Complementing: يستطيع السلوك غير اللفظي تعديل الحديث أو إكماله قصد مواءمته للسياق العام وتحقيق الفعالية التواصلية.

5 - التوكيد Accenting: يتم توكيد الحديث - خاصة من لدن المتلقي - بأصوات الهمهمة وإيماءات الرأس واليدين التي تدل على الموافقة، أو بتغيير الهيئة الفجائي دلالة على الانتباه والحماس لما يقال.

6 - الرباط والتنظيم Relating and Regulating: يستخدم الاتصال غير اللفظي لتنظيم «التدفق التواصلي» - حسب تعبير ناب - بين المتفاعلين. وتستدعي هذه الوظيفة تنظيم الربط، بين الأطراف خشية انقطاع حبل التواصل.

وينطلق راندال هاريســون (عــام 1972) [4] مما توصل إليــه علمــاء الأنثروبولوجيا والنفس والسلوك الحيواني، حيث اتضح أن الاتصال غير اللفظي سابق للاتصال اللفظي في نشوء الكائن البشري. إذ نتعلم بدءا أن نتواصل بكيفية غير لفظية، وتبقى الأنماط الاتصالية الأولى التي تعلمناها ملازمة لنا في مسيرة الحياة مع تعديلات طفيفة عندما نبدأ باكتساب اللغة.

انطلاقا مما سبق، يحدد هاريسون ثلاث وظائف عامة للسلوك غير اللفظي:

أولا: تعريف النظام الاتصالي وتبيان شروطه وحدوده. وهذه الوظيفة تتمثل بوضوح في المكونات البيئية الطبيعية والاصطناعية التي يجري فيها الاتصال، ضمن بعدي الزمان والمكان.

ثانيا: المساعدة على تنظيم عملية الاتصال، على صعيد تراتب المنزلة (الاجتماعية) التي تحدد مَنْ له الحق في الحديث أولا أو تاليا. بالإضافة إلى تزويد المشاركين في عملية الاتصال بتغذية راجعة.

ثالثا: إيصال المضمون التواصلي، عندما يكون السلوك غير اللفظي أقدر على إيصال المعنى.

ومن أبرز الباحثين الذين اهتموا بدراسة الاتصال غير اللفظي، ومن ثم بوظائفه، نجد عالم النفس الاجتماعي، البريطاني مايكل أركايل، الذي صنف وظائف الاتصال غير اللفظي ضمن ثلاث مجموعات رئيسة [5]:

أولا: إدارة الوضع الاجتماعي الحالي، عبر:

1 - التعبير عن الاتجاهات (المواقف) الشخصية: فالناس يعبرون عن مواقفهم تجاه الآخرين من خلال هيئتهم (عند الجلوس والوقوف،..)، وتعبيراتهم الوجهية، ونبرة الصوت، ومظهرهم العام، ونظراتهم.

2 – التعبير عن الحالة العاطفية: إذ تكشف الوجوه حالات الفرح والحزن والغضب واليأس والاشمئزاز والاندهاش، والحالات العاطفية الأخرى، وتقوم بقية القنوات غير اللفظية – كالإيماءات ونظرات العين – بدور مماثل.

3 – إبراز الذات: ويستطيع القائم بالاتصال – باستخدامه للقنوات غير اللفظية – التعبير عن طبقته الاجتماعية، ومكانته ومهنته وسماته الشخصية (الرجولية أو الأنثوية).

ثانيا: دعم الاتصال اللفظي، وذلك عن طريق:

1 – تكملة معاني الألفاظ: بواسطة صفات الصوت المختلفة (الطبقة، التشديد، النغمة)، والإيماءات (الموضحة والمكملة).

2 – ضبط التزامن وتنظيم المحادثة: عندما يتحادث شخصان أو أكثر، فلابد من تنظيم التفاعل بين المتحدث والمستمع. فعندما يختم المتحدث كلامه، تكون هناك إشارات تجعل المستمع يأخذ بزمام الحديث، مثل: تغيير اتجاه النظر، وتَبَدُّل طبقة الصوت ونبرته، والاتكاء إلى الخلف.

3 – الحصول على التغذية الراجعة: يحتاج المتحدث – أثناء حديثه – إلى معرفة استجابات المستمعين، وعلى ضوء تلك الاستجابات يمكنه تعديل رسالته حتى يحقق التأثير المطلوب. وخير وسيلة لذلك، هي سلوكات المستمعين غير اللفظية المتزامنة التي تعبر عن مدى اهتمامهم بالحديث، وذلك لتشجيع المتحدث على الاستمرار.

ثالثا: الإحلال محل الحديث: عندما يصبح الحديث مستحيلا، يتم اللجوء إلى لغة الإيماءات. وهناك الكثير من الأوضاع الاتصالية التي تستدعي عدم الحديث، مثل: التواصل بين الصحافيين والطاقم التقني داخل استوديوهات الإذاعة والتلفزة؛ وكذلك استحالة الحديث تحت الماء بالنسبة للغواصين؛ أو

صعوبة سماع الصوت في الأجواء الصاخبة. كما أن أهمية الاتصال غير اللفظي تكمن في كونه لغة الصم البكم، التي تحل محل اللغة اللفظية إحلالا كاملا.

وقبل أن يورد أركايل هذه الوظائف، حاول عام 1975 أن يقدم تبريرات لاستخدام البشر للاتصال غير اللفظي ، وحصرها في خمسة تبريرات (6):

أولا : نقص الترميز اللفظي في بعض المجالات: فمثلا، هناك كلمات قليلة تجسد الأشكال (الهندسية)، لذلك فإن إيماءات اليدين أكثر فعالية في تجسيد الأشكال من الكلمات. كما أن السلوكات غير اللفظية أكثر فعالية في التعبير عن الشخصية Personality.

ثانيا : إن الرموز غير اللفظية أكثر قوة: لأن إدراكها يتم مباشرة، وتكون الاستجابات غير اللفظية أكثر فورية.

ثالثا : يصعب التحكم في الرموز غير اللفظية، لذا غالبا ما تكون عفوية، مما يكسبها مصداقية أكثر من الرموز اللفظية.

رابعا : يتسبب تركيز الانتباه في بعض الرموز اللفظية أو جعلها أكثر صراحة، في قدر من الإزعاج والإخلال بالنظام، لذا تتم الاستعاضة بالرموز غير اللفظية في إيصال المضمون بكيفية ضمنية.

خامسا : تعتبر القدرة على استخدام قناة ثانية إلى جانب اللغة أمرا مفيدا، خاصة إذا كانت هذه القناة تحمل قدرا كبيرا من المعلومات التي تدعم اللغة، لكن التعبير عنها بالرموز اللفظية أمر مربك وغير ملائم.

لقد سعى عالم النفس أوين هارجي Owen Hargie وزملاؤه إلى جمع أكبر قدر من الوظائف التي يؤديها السلوك غير اللفظي ضمن عملية الاتصال (7):

1 – الإحلال محل الحديث؛ 2 – تكملة الحديث؛ 3 – مخالفة الحديث؛ 4 – تدعيم الحديث؛ 5 – تأكيد بعض أجزاء الحديث؛

6 - تنظيم الاتصال بين المتحدث والمستمع؛ 7 - الحصول على تغذية راجعة؛ 8 - تحديد العلاقات بين الأفراد بكيفية ضمنية؛ 9 - المساعدة على تحديد نماذج السلوك المقبولة في مختلف الأوضاع الاجتماعية.

ويلاحظ أن جلّ هذه الوظائف تركز على التواصل البينشخصي [*] في وضع المحادثة، دون إبراز الوظائف الأخرى التي يؤديها السلوك غير اللفظي في الأوضاع التواصلية الأخرى، خاصة في المستويين الذاتي والجماهيري.

ذكر باترسون Patterson عام 1990 [8]، سبع وظائف للاتصال غير اللفظي:

1 - التزويد بالمعلومات: يستخدم الاتصال غير اللفظي لتقديم معلومات عن الحالة التي يعيشها الأفراد بدواخلهم في حضرة الآخرين، بالإضافة إلى دلالات عن المنزلة الاجتماعية.

2 - تنظيم التفاعل أثناء المحادثة عبر الصوت والإيماءات والتعبيرات الوجهية.

3 - التعبير عن المودة: يزداد تبادل النظرات عندما تصبح العلاقات حميمة، وتتقلص المسافة التي تفصل بين المتفاعلين، ويزداد معدل اللمس.

4 - السيطرة الاجتماعية: وتتم عبر الإيماءات والتعبيرات الوجهية الهادفة إلى الحصول على النتيجة المبتغاة. كما يستطيع المتحادثان، من خلال بعض اللمسات أو النظرات، التعبير عن سيطرتهم أو خضوعهم.

5 - إبراز الهوية: ويتم عبر السلوكات غير اللفظية التي يقوم بها المتفاعلون لإيصال رسالة ما إلى طرف ثالث تعبر عن هويتهما أو العلاقة التي تجمع بينهما (كالزواج أو الصداقة).

6 - إدارة العواطف: استخدام السلوكات غير اللفظية لزيادة أو تقليص الشعور بعاطفة ما.

7 - تسهيل الخدمات والمهمات: عندما تقتضي مهنة معينة - كمهنة الطب - القيام بسلوكات غير لفظية - وأبرزها اللمس - دون حرج بينما يصعب القيام بها خارج الإطار المهني.

ومن بين المحاولات الحديثة لدراسة وظائف الاتصال غير اللفظي، نجد كتاب بيتر أندرسون Peter A. Anderson: «الاتصال غير اللفظي: الأشكال والوظائف» الصادر عام 1999 [9]. إذ تطرق في القسم الثاني إلى وظائف الاتصال غير اللفظي ضمن البعدين الشخصي والبينشخصي، فيما يتعلق بالعاطفة والإجهاد، والفورية والعلاقات الحميمة. بينما اهتم القسم الثالث بوظائف الاتصال غير اللفظي في البعد العام فيما يتعلق بالتأثير والاستمالة والخداع والقوة.

وأخيرا، نتطرق للوظائف الخمس التي ذكرتها سيمون كايّر في مقالها عن الاتصال غير اللفظي ودراسة اللغة الأجنبية، سابق الذكر [10]:

أولا: الوظيفة التنظيمية أثناء المحادثة.

ثانيا: الوظيفة البينشخصية. وتقوم بالتعبير عن الاتجاهات والعواطف في العلاقات بين الأفراد.

ثالثا: الوظيفة الرمزية، وتتجسد في استخدام الإيماءات الرامزة لحمل معاني محددة.

رابعا: الوظيفة التوضيحية، ممثلة في الإيماءات الموضحة وبعض الحركات الجسدية التي تساعد على توضيح الكلام.

خامسا: الوظيفة التكيفية: وتبرز من خلال السلوكات غير اللفظية اللاشعورية التي تهدف إلى تكييف الفرد مع الوضع الذي تتم فيه عملية الاتصال، مثل مداعبة الشعر أو اللعب بقلم أثناء التفاعل مع الآخرين.

الهـــوامـش

1 - Ekman and Friesen - The Repertoire of Nonverbal Behavior... - op. cite - pp.53-58.

2 - Knapp - Nonverbal Communication in Huan Interaction - op. cite - pp.9-12.

3 - Albert Mehrabian - Silent Messages - Belmant: Wadsworth, Inc., Second Edition, 1981 - pp.85-86.

4 - Harrison - Nonverbal Behavior... - op cite - p.258.

5 - Michael Argyle - Verbal and Non-verbal Communication - op. cite - pp.59-61; Argyle - The Psychology of Interpersonal Behavior - Harmondsworth: Penguin Books LTD, New Edition, 1983 - pp.455-461.

6 - Argyle - Bodily Comunication - op. cite - pp.361-364.

7 - Owen Gargie, Christine Saunders, and David Dickson - Social Skills in Interpersonal Communication - Wocester: Billings LTD, 1981 - pp.19-23.

(*) درجت سابقاً – على غرار الكثير من الباحثين – على استخدام مصطلح الاتصال الشخصي، مقابل التعبير Inter Personal Communication في الأدبيات الصادرة باللغة اللانجليزية، بينما المصطلح الأقرب إلى الصواب هو «الاتصال البينشخصي»؛ كما استخدمت مصطلح «الاتصال الذاتي» مقابل Intrapersonal Communication أما في سياقنا الحالي فإن أندرسون يستخدم Personal بمعنى «شخصي» (ذاتي) Intrapersonal.

8 - M. L. Petterson - Functions of Non-verbal Behavior in Social Interaction - 1990 - In: Masterson - op. cite - pp.75-90.

9 - Peter A. Andersen - Nonverbal Communication: Forms and Functions - Mayfield Publishing Co., 1999 - http://acjournal.org/holdings/vol3/lss3/reviews6.html - 2000 - p.1.

10 - Capper - op. cite - p.2.

المبحث السادس

تطبيقات الاتصال غير اللفظي؟

إن الوظائف المتعددة التي يقوم بها الاتصال غير اللفظي - كما رأينا في المبحث السابق - تحيلنا إلى عدد لا حصر له من المجالات والتطبيقات والمنتجات التي تستفيد من السلوك غير اللفظي. وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن السلوك غير اللفظي حاضر في جميع مظاهر الحياة، بدءاً بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان وحياته النفسية والاجتماعية والأنشطة التي يقوم بها والمنتجات التي يصنعها.

وبالرغم من ذلك، فإن تنامي الوعي بأهمية الاتصال غير اللفظي في الحياة، جاء متأخرا. ومازالت الكثير من المجالات لم تفطن لهذه الأهمية، خاصة في المجتمعات السائرة في طريق النمو التي تتخلف كثيرا في مجال الدراسات المتعلقة بالتواصل غير اللفظي.

وهكذا يسهل إيراد الأمثلة لتطبيقات الاتصال غير اللفظي في تحسين فهم الإنسان لذاته، وممارسة الشعائر الدينية، وفي العلاقات العاطفية

والاجتماعية، والتكيّف مع البيئة، وفي مجال الصناعات المختلفة، والتعليم، والصحة-الطب، والسياسة والحكم، والسياحة، والاقتصاد والأعمال والإدارة، والرياضة.. وكل ما يخطر على البال من نشاط إنساني. وفيما يلي بعض الأمثلة لتطبيقات الاتصال غير اللفظي.

أولا: السياسة:

لعل السياسة، وما يرتبط بها من قيادة وسلطة وحكم، من أكبر المستفيدين من توظيف السلوك والمظاهر غير اللفظية لتحقيق الأهداف المرسومة سلفا. فقد رصد مايكل أركايل عام 1975 [1] مجموعة من السلوكات التي تمارس من خلال التظاهرات السلمية لمنظمات المجتمع المدني أو تلك التي تنظمها السلطات لإبراز القوة.

وتشمل الرموز غير اللفظية في التظاهرات السلمية: 1 - حضور أعداد غفيرة من الأفراد؛ 2 - السير في موكب بأياد متشابكة؛ 3 - استخدام قبضة اليد (دلالة على القوة)، أو الإيماء برفع الوسطى والسبابة مفتوحتين دلالة على النصر، أو تحايا أخرى؛ 4 - الهتاف، وترديد الأناشيد؛ 5 - حمل الشعلات أو الشموع في الظلام.

والهدف من هذه السلوكات هو إظهار القوة وخلق نوع من الحماس المشترك بين أفراد التظاهرة.

أما التظاهرات التي تنظمها السلطات لإظهار القوة، فيمكن أن تشمل: 1 - التظاهر لإحياء ذكرى معينة (كالأعياد الوطنية)؛ 2 - التصميمات الفنية على الأفلام والتزيينات

والتماثيل والطقوس والبذلات الرسمية؛ 3 - سرد القصص والتاريخ؛ 4 - ممارسة الشعائر والطقوس؛ 5 - التظاهرات الجماهيرية التي تتخللها الاستعراضات والخطابة والموسيقى.

واهتم الدارسون بأهمية الاتصال غير اللفظي في المفاوضات السياسية. فقد بينت دراسة حول تقنيات التفاوض والاتصال غير اللفظي [2]، أن المفاوضين الجيدين هم اتصاليون جيدون. وتستدعي التقنيات الدقيقة للتفاوض تحكما كبيرا في السلوك غير اللفظي، بدءاً بالمظهر الذي يبدو عليه فريق التفاوض، والتموضع على طاولة الحوار/التفاوض، والتحكم في تعبيرات الوجه ونظرات العين خشية إبداء الإحساس الانهزامي. بالإضافة إلى الظرف الزمكاني الذي تُجرى فيه المفاوضات، من حيث اختيار الوقت الملائم وترتيبات وتزيينات مكان المفاوضات وعلى رأسها تصميم طاولة المفاوضات (مستديرة أو مستطيلة) والكراسي ومدى توفيرها للراحة، والمسافات التي تفصل بين المتفاوضين، والتسهيلات البصرية التي يمكن تقديمها لتمكين المتفاوضين من الرؤية الواضحة للشروحات والأدلة.

ومن أكثر الأمور التي يجب الانتباه لها في التفاوض، الفروق الثقافية في دلالة بعض السلوكات غير اللفظية التي يمكن أن تؤدي إلى سوء الفهم، ومن ثم فشل المفاوضات [3]. كما بيّن دروكمان Drukman عام 1982 [4] الدور الرئيس للاتصال غير اللفظي في تصنيف الأفراد المخادعين والمتملقين على الصعيد الدولي (خاصة أثناء التفاوض).

وأوضحت بعض الدراسات أهمية الاتصال غير اللفظي في القيادة الاجتماعية، عندما يطمح بعض الأفراد في أن يصبحوا قادة رأي [5]. وذلك عبر الخطابة وتحسين المظهر، وإبداء قدر من الحميمية في التواصل مع المواطنين..

ثانيا: التعليم:

يعتبر التعليم من أسمى المهام التي تقوم بها العملية التواصلية. فهو يمكّن البشر من تناقل معارفهم المتراكمة والتفكير بها وتعديلها وتطويرها. وقد استفاد المجال التعليمي كثيرا من تطبيقات الاتصال غير اللفظي. فعمليات الاتصال بين المعلم أو الأستاذ، والتلاميذ أو الطلاب، غنية بالرموز غير اللفظية، كتقبُّل الأفكار وفهمها من لدن الأستاذ أو الطالب، والتشجيع والنقد، والصمت، وطرح الأسئلة. كما أن القنوات غير اللفظية تعتبر مصدرا غنيا للرموز العاطفية التي تخبر بنوعية العلاقات بين الطلاب، أو بين الأستاذ والطالب.

وقد أورد مارك ناب عام 1972 (6) أمثلة لبعض السلوكات غير اللفظية داخل الفصل:

1 - الإيماء بيد ملحاحة من طالب يصرّ على معرفته الإجابة الصحيحة.

2 - الطالب المتأكد من عدم معرفته الإجابة، ويحاول تجنب نظرات المدرس.

3 - تأثير مظهر الطالب على تفاعله مع المدرس.

4 - استخدام التعبيرات الوجهية وإيماءات اليد، ونبرة الصوت، لتحقيق الانضباط داخل المدارس الابتدائية.

5 - المدرس الذي يطلب من الطلاب توجيه أسئلتهم وانتقاداتهم، بينما تظهر عدم مبالاته من خلال سلوكاته غير اللفظية.

6 - الرسائل التواصلية المستقاة من تغيّب الطلاب عن الفصل.

7 - يظهر اهتمام المدرس بطلبته من خلال إجلاسهم داخل الفصل ومن

خلال مراقبته لهم أثناء الامتحانات.

8 - الأساليب العديدة التي يلجأ إليها الطلاب للإيهام بالدراسة أو الاستماع، بينما يغالبون النعاس أو يغطون في نوم عميق.

9 - المدرس الذي يعلن استعداده لإعطاء الوقت الكافي لتساؤلات واستفسارات الطلاب، بينما يبيّن تململه، ونظراته المترددة في الساعة، خلاف ذلك.

10 - تأثير تصميم الفصل وتزيينه وترتيب أثاثه (لون الحائط، المسافة بين المقاعد، النوافذ..) على مشاركة الطلاب داخل الفصل.

11 - المدرسون الذين يسعون للحصول على تغذية راجعة تمكنهم من تحديد مدى استيعاب الطلاب.

لقد أولى الباحثون اهتماما خاصا للسلوك غير اللفظي المميز لكل جماعة لغوية، وأهمية ذلك في تدريس اللغة للأجانب. فمن ناحية، يمكن توظيف السلوك غير اللفظي الخاص باللغة المدروسة في تعليم الطلاب النطق السليم، والإيماءات الموضحة والرامزة التي تعمق فهم الطلاب للغة الأجنبية. ومن ناحية أخرى، يستطيع المدرس أن يوظف بعض القنوات غير اللفظية، مثل: إيماءات اليدين والرأس، وحركة العين أو الجسم بأكمله، في تسهيل التواصل مع الطلاب، وخاصة في بداية دراستهم للغة [7]. وقد تم توظيف إمكانيات الفيديو والفيديو التفاعلي في تقديم ممارسة اللغة من لدن متحدثيها كلغة أم في أوضاع طبيعية أو اصطناعية [8].

ثالثا: الاقتصاد والأعمال:

يكتسي التواصل غير اللفظي أهمية بالغة في مجالات الاقتصاد والأعمال،

كالتسويق والحصول على وظيفة، أو التفاوض لعقد صفقات استثمارية.

فقد أوضح روبرت برينر Robert C. Brenner عام 1998 في كتابه: «لغة الجسد في مجال الأعمال: كيف تبيع مستخدما جسدك»، أهمية الانتباه للسلوكات غير اللفظية أثناء القيام بعمليات التسويق. فعملية إتمام الصفقة مع الزبون ترتبط ارتباطا وثيقا بالإشارات الصامتة التي تصدر منك أثناء اللقاء الأول، ذلك أن الانطباع الحاسم يتشكل في الثواني العشر الأولى [9]. وينصح برينر بضرورة الوعي بلغة الجسد الذي يتوفر على أكثر من 700 ألف حركة مختلفة، تشكل الإيماءات والأوضاع الجسدية، فضلا عن المظهر العام الذي يخبر عن بعض السمات الشخصية والمنزلة الاجتماعية [10].

وقدم روبي ميلر كابلان Robbie Miller Kaplan عام 1999، ثماني نصائح لمن يرغب في الحصول على انطباع حسن من لدن الزبن أو الزملاء أو المستهلكين أو المديرين، أو في مقابلة من أجل الحصول على وظيفة.

1 – لن تجد فرصة ثانية لترك انطباع حسن، لذا ادخل واثقا وحافظ على هيئة جيدة.

2 – الابتسامة والإيماءات التي تنم عن الصداقة والدفء، تساعد على تعزيز الجو الملائم.

3 – مدّ يدك وصافح بثبات، وتجنب المصافحة الضعيفة والمضطربة.

4 – حافظ على تواصل جيد.

5 – اسع للجلوس قريبا من الطرف الآخر، وإذا كنت أمام طاولة اجتماعات فلا تتصدر الجلوس (الكرسي المخصص للرئيس) إن لم تكن مَن سيرأس الاجتماع.

6 – تحدث بوضوح وتحكم في طبقة صوتك (بتغييرها من وقت لآخر).

7 – استخدم إيماءات اليدين التي تجعلك أكثر تعبيرا وحيوية، وتجنب ليّ يديك المتشابكتين وطرطقة أصابعك.

8 – ارتدِ زيا ملائما لمن ستلتقيهم [11].

وبرهنت الابتسامة عن فعاليتها في مجال إرضاء الزبائن خاصة في الخدمات الفندقية والسياحية والبنكية. وهناك تجربة رائدة لسلسلة المتاجر الأميركية الشهيرة (Safeway) التي تتبع سياسة «الكل مبتسما»، على الرغم من بعض المضايقات التي تواجه بعض العاملات من لدن الزبائن الذكور [12].

وبيّنت الدكتورة جو-إلان ديميتريس Jo-Ellan Dimitrius في كتابها «قراءة الناس» بالاشتراك مع مارك مازاريلا Mark Mazzarella، أهمية أن يتمكن المرء من قراءة السلوك غير اللفظي للآخرين، خاصة في المعاينات المرتبطة بالتوظيف، وقدمت دليلا يتكون من خمسة أحرف استهلالية يساعد المرء على قراءة الآخرين: S.P.E.E.D؛ حيث S (Scan) تعني ضرورة القيام بمسح شامل لمعرفة ما يقوله الآخر؛ وP (Pare) تهذيب البيانات والسمات المحصلة من عملية المسح للحصول على النموذج المعروف؛ ثم E الأولى (Enlarge) وتعني القيام مجددا بتوسيع الانطباعات المحصلة؛ وE الثانية (Evaluate) تعني تقييم النموذج الكلي؛ وأخيرا D (Decide) اتخاذ القرار بناء على التقييم النهائي لملاحظاتك على النماذج الفردية [13].

ومن أبرز تطبيقات الاتصال غير اللفظي في الاقتصاد، استخدام الرموز غير اللفظية في صناعة الإعلان. إذ يعتمد الإعلان على الإقناع عن طريق «التوريط» العاطفي للمستهلك وتعاطفه مع المنتوج [14]. وقد ذكر بوك Buck عام 1988 ثلاثة أساليب يلجأ إليها الإعلان ليقنع المستهلك بكيفية غير لفظية:

أولا: تغيير صورة المنتوج (بتقديم صورة مثلى).

ثانيا: ربط المنتوج بإرضاء حاجيات المستهلك.

ثالثا: اقتراح تغييرات في العادات الاستهلاكية [15].

وبصفة عامة، هناك تطبيقات واسعة للاتصال غير اللفظي في الأنشطة الاقتصادية، سواء في الصناعة أو الإدارة أو التجارة أو الخدمات المرتبطة بالمستهلكين، مما يستدعي الإلمام بأبرز الرموز التي تصدر عن القنوات غير اللفظية المختلفة، والتدرُّب على استغلالها بكيفية راشدة لتحقيق أقصى منفعة ممكنة [16].

رابعـا: الدرامـا:

استفادت المجالات الدرامية من تطبيقات الاتصال غير اللفظي، سواء على مستوى الأداء أو الكتابة الدرامية والإخراج. فقد وظّف المسرحيون الموسيقى والمؤثرات الصوتية بمختلف أنواعها، والصمت، والحركات (الإيماءات، ورفع الستارة وجرها، والرقص، والتمثيل بالحركات Mime)، والتشخيص، والمكياج والاكسسوارات والملابس، واستخدام الضوء واللون، والتضاد أو التجاور، والمسافة. كما استفاد المسرحيون من التقنية الرمزية في تجسيد الدراما التعبيرية، أو السريالية أو العبثية [17].

وقد بيّن جلين ويلسون Glenn D. Wilson في كتابه: «سيكولوجية فنون الأداء» عام 1994 [18] أهمية استخدام الاتصال غير اللفظي وتجسيد الشخصيات الدرامية من خلال الحركات والانفعالات الدقيقة التي تميز الشخصية المؤداة. فعلى سبيل المثال، يتم تجسيد الوجه الغاضب بتكشيرة عميقة وفم مضغوط بإحكام ومزاج شاحب، كما يتم دفع الرأس للأمام كما لو

أنها توشك أن تنطح الخصم.

ويعبَّر عن الخوف أو الصدمة بتجميد الحركة والصمت؛ وفتح العينين بشكل واسع ومتيقظ أو نشط، مع تحريك الرأس من جانب لآخر؛ توتر عضلات الجسم (استعدادا للهرب)؛ التنفس الواضح؛ والبحث عن التلامس الجسدي أو التقارب مع الآخرين أو مع الأشياء [19].

أما الهم أو القلق، فيتم تجسيده عبر الحركات العصبية: كالخطو جيئة وذهابا؛ والهرش في الرأس؛ وطقطقة الأصابع؛ وضغط أو عصر اليدين [20].

وقد اقترح عالم النفس بلوخ Bloch وزملاؤه عام 1987 [21] نسقا خاصا لتدريب الممثلين، يقوم على «المحاكاة الباردة» للغة الجسد الخاصة بانفعالات عدة، من خلال ثلاث مجموعات من الرموز غير اللفظية، وهي: وضع الجسد، وتعبير الوجه، وأنماط التنفس. وقد تم تحديد ستة انفعالات أساسية، وهي: السعادة والحزن والخوف والغضب والإثارة الجنسية ورقة المشاعر. وبعد التدرّب على الانفعالات الأساسية، يستطيع الممثل المزج بينها لكي يحصل على انفعالات مختلفة، كالمزج بين الابتهاج والغضب للحصول على: الفخر؛ أو المزج بين الغضب والخوف والإثارة الجنسية، للحصول على: الغيرة.

واستفاد التصوير السينمائي والتلفزيوني من القواعد غير اللفظية التي تحكم العلاقات داخل المجتمع، في اختيار اللقطات المناسبة، وحركة الكاميرا أو الشخصيات أو الأشياء، والتركيز على الديكور الذي يشكل المشهد المصور، وبتعبير أشمل، التركيز على البيئة الطبيعية والاصطناعية التي يتم فيها التصوير، خاصة من لدن المخرجين الذين يركزون على اللغة البصرية على حساب اللغة اللفظية.

أما على مستوى الكتابة الدرامية، فإن توظيف الكاتب للسلوكات غير اللفظية لشخصياته (الدرامية) يبين مدى مهاراته في الكتابة، وفهمه للسلوك الاجتماعي، ويساعد على تحليل العمل الدرامي [22]. ويستطيع الكاتب الملم بخبايا التواصل غير اللفظي، أن يقدم توصيفا دقيقا للسمات النفسية للشخصيات وتأثيرات البيئة والزمن عليهم.

خامسا: الواقع الافتراضي:

عندما ظهر أول حاسوب للوجود قبيل منتصف القرن الماضي، لم يكن يرجى منه سوى القيام بعمليات حسابية توفر على الدماغ البشري الجهد والوقت، ثم تطورت وظيفة الحاسوب لتشمل معالجة البيانات وتخزينها، ليصل في نهاية القرن العشرين إلى أخطر وأهم وظيفة يمكن للحاسوب القيام بها، الا وهي الوظيفة التواصلية. ومن هنا ظهرت ألعاب الحاسوب، وشبكة الإنترنت، وما يتعلق بهما من مفاهيم جديدة وعوالم جديدة. ويعتبر الواقع الافتراضي - الذي يحاكي الواقع الفعلي - أبرز مظاهر ثورة الحاسوب.

إلا أن البيئة الافتراضية التي يسعى مبرمجو الحاسوب لتوفيرها، تختلف عن البيئة التي تم توفيرها عبر تقنيات السينما والإذاعة والتلفزة. إذ يكمن الفرق في كون البيئة الافتراضية يتم تشكيلها بالاستعانة بالكتابة البرمجية التي تستخدم منطقا تصف من خلاله السلوكات والعلاقات باستخدام اللغة المكتوبة، ومن هنا برز تعبيرا «الواقع الافتراضي القائم على النص» «Text-based Virtual Reality» و«الاستخدام متعدد الأبعاد للإنترنت Internet Multi-user Dimensions».

وبعد ظهور الإنترنت في بداية تسعينات القرن العشرين، أولى الباحثون

أهمية لكيفية تجسيد التواصل غير اللفظي في الواقع الافتراضي، طالما أنه اكتسى أهمية بالغة في الواقع الفعلي.

ومن بين الدراسات الرائدة في هذا المجال، دراسة جون ماسترسون عام 1997، التي تطرقت للاتصال غير اللفظي في واقع افتراضي قائم على النص. إذ سعى لمعرفة الفروق في أشكال (قنوات) ووظائف الاتصال غير اللفظي بين الواقع الفعلي والواقع الافتراضي، وتوصل إلى النتائج التالية[23]:

أولا: هناك دعم في الواقع الافتراضي لبعض المظاهر الصوتية، وإدراك ملاءمة السلوك اللمسي بالإضافة إلى معظم الوظائف غير اللفظية.

ثانيا: مدى التشديد الصوتي (واستخدام النبرة والمدى..) تقلص بسبب نقص البيانات اللازمة، وساهمت الطبيعة القصدية للتواصل الافتراضي في غياب الأولوية التي يحظى بها التعبير الوجهي ونظرات العين في التواصل المواجهي (وجها لوجه).

ثالثا: تم التخلي عن وظيفة تنظيم التواصل للضرورة، إذ إن الطبيعة التعاقبية لأوامر النص المؤسِس للواقع الافتراضي تختلف عن الواقع التزامني. كما أن الأشكال غير اللفظية المتعلقة بالمسافة والشم وعلم الحركة وترتيب البيئة تم استخدامها بكيفية هامشية، والتعامل مع الزمن - متضمنا التوقف أثناء المحادثة - تم بكيفية مختلفة تماما عن الواقع الفعلي. وأخيرا، لم تبرز وظيفة «إدارة العواطف» نسبة لطبيعة التفاعل في الواقع الافتراضي.

وتبين من دراسة أجراها انجليكا دو أنطون Angélica de Antonio وجوستافو كارازوني Gustavo Carrazoni وكوادالوبي أكوادوا Guadalupe Aguado وخافيير سيجوفيا Javier Segovia من جامعة البوليتكنيك بمدريد[24] بعنوان «الاتصال غير اللفظي والتفاعل الممكن تصديقه في البيئات

الافتراضية»، بينوا أنه مازال هناك فرق شاسع بين الواقع الفعلي والواقع الافتراضي. ذلك أن الشخصيات المجسمة (Avatars) في الواقع الافتراضي تفتقر إلى العاطفة. إذ غالبا ما يقتصر التفاعل على وسيلتي الكتابة والقراءة. ويرون الحل في تكثيف تجسيد السلوك غير اللفظي في الواقع حتى يضفي قدرا مناسبا من الواقعية الفعلية على البيئة الافتراضية.

لقد تكاثرت - في السنوات الأخيرة - الدراسات التي تهتم بالتواصل غير اللفظي في الواقع الافتراضي. ونذكر من ضمنها دراسة توريس J. Torres ومارتن A. Martin وسيجوفيا J. Segovia حول مظهر الشخصيات المجسمة في البيئة الافتراضية، التي بيّنت أن الواقع الافتراضي يتيح إمكانات غير محدودة - إلا بحدود الإبداع - لتشكيل المظهر واختيار الملابس، فضلا عن الإمكانات المالية [25].

واهتمت دراسات عديدة [26] بالمسافة وترتيب الفضاء في الواقع الافتراضي، ومدى تأثير الإبحار والتجول في البيئة الافتراضية على إحساسنا الزمكاني في الواقع الفعلي.

سادسا: تطبيقات أخرى:

من بين أبرز تطبيقات الاتصال غير اللفظي، استخدام السلوك غير اللفظي في مجال الطب. فبالنسبة للأفراد الذين يجدون صعوبة في التعبير عن الأعراض المرضية، يصبح السلوك غير اللفظي خير دليل للتشخيص. فعلى سبيل المثال، قد يشير الوجع الشامل الذي ينتج عنه نشاط زائد فيتسبب في الاهتزاز أو التحريك المفاجئ للرأس، إلى عدة أمراض من بينها الالتهاب المفصلي، أو مرض القلب، أو الإمساك، أو الفتق أو التهاب الرئة؛

وقد تشير صعوبات التنفس إلى داء الربو. وهناك الكثير من السلوكات غير اللفظية، مثل: الجلوس المفاجئ، ووضع الأصابع على الفم، والحكة، تشير إلى أمراض معينة [27]، مما يبين أهمية السلوك غير اللفظي في المجال الطبي.

وأوضحت مساهمات علماء الطب النفسي، مدى أهمية الاتصال غير اللفظي في تشخيص الأمراض النفسية، وفي التعرف إلى بعض العقد النفسية، كالنرجسية [28]. كما ثبتت فعالية الاتصال غير اللفظي في تدريب المصابين بالأمراض العقلية على المهارات الاجتماعية. إذ اتبع بعض الباحثين ثلاث طرق في تدريب هؤلاء المرضى:

1 - قيام المتدربين بأدوار في الأوضاع الصعبة متبوعين بشريط فيديو.

2 - التدرب على التعبير عن الاتجاهات والعواطف باستخدام اللغة غير اللفظية.

3 - تدريب المرضى في مجموعات، مع إتاحة قدر من المنافسة، للتغلب على بعض الاخفاقات غير اللفظية [29].

وتعتبر الرموز غير اللفظية ضرورة حيوية للأفراد الصم البكم الذين يستخدمونها كلغة أولى للتواصل فيما بينهم ومع الآخرين. وقد طورت بعض المجتمعات لغة الصم البكم، حتى أصبحت تشابه اللغة اللفظية من حيث فعاليتها التواصلية، وخير مثال: لغة الإشارة الأميركية (ASL) التي وجدت اهتماما كبيرا من لدن الباحثين [30].

ويمكن القول إجمالا، إن تطبيقات الاتصال غير اللفظية، أصبحت تشمل جميع الأنشطة الحياتية. فقد أصبح مفهوم الاتصال غير اللفظي يتماهى مع المفهوم الشامل للاتصال، مما يفتح آفاقا غير محدودة للمزيد من الأبحاث والدراسات.

الهـــوامـش

1 - Argyle - Bodily Communication - op. cite - pp.196-197.

2 - Negotiation Teqniques: Nonverbal Communication - http://www>acq.osd.mil/dp/cpf/pgv1_0/pgv5c5.html - p.5.

3 - للمزيد من التعرف إلى أهمية السلوك غير اللفظي في عملية التفاوض راجع كتاب: حسن محمد وجيه - مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة «عالم المعرفة» - العدد 190، أكتوبر 1994، خاصة الفصول: السابع، والتاسع، والثاني عشر، والثالث عشر، والسادس عشر، والسابع عشر.

4 - Daniel Drukman, Richard M. Rozelle, and James C. Baxter - Nonverbal Communication: Survey, Theory, and Research - (Sage Library of Social Research, Volume139) - Beverly Hills: Sage Publications, Inc., 1982 - p81.

5 - Glendon Schubert - Nonverbal Communication as Political Behavior - In: Mary RichieKey (Ed.) - Nonverbal Communication Today: Current Research - Berlin: Walter de Gruter and Co., 1982 - p.84.

6 - Knapp - Nonverbal Communication in Huan Interaction - op. cite - pp.14-15.

7 - Argyle - Bodily Communication - op. cite - pp.367.

8 - Carolyn Fidelman - Extending the Language Curriculum with Anabling Technologies: Nonverbal Communication and Interactive Video - http://face-to-face.org/article1/calico1.htm

9 - Robert C. Brenner - Body Language in Business: How to Sell Using Your Body - 1999 - p.2.

10 - Ibid. p.2.

11 - Robbie Miller Kaplan - Eights tips for using Nonverbal Communication to Make a Positive Impression - http://www.job-resources.com/0005tim.htm - 2000.

12 - G. Jay Christensen - Nonverbal Communication Helps us Live - http://www.csun.edu/~vcecn006/nonver.htm - 1998 - p.3.

13 - Ibid. p.2-3.

14 - Mehrabian - op. cite - p.150.

15 - Ross Buck - Nonverbal Communication: Spontaneous and Symbolc Aspects - In: "American Behavioral Scientist" (Volume31, No.3, January/February 1988) - pp.343-349.

16 - Online Women Business Center - Marketing YourSelf: Non-Verbal Communication - http://www.onlinembc.org/DOCS/market/mk_appear_nonverbal.html - 1997.

17 - Argyle - Bodily Communication - op. cite - pp.202-205.

18 - جلين ويلسون - سيكولوجية فنون الأداء - (ترجمة شاكر عبد الحميد) - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة «عالم المعرفة» - العدد 258، يونيو 2000 - ص ص 167-168.

19 - المصدر نفسه - ص169.

20 - المصدر نفسه - ص169.

21 - S. Bloch, P. Orthous, and H. G. Santibanez - Effector Patterns of Basic Emotions: A Psycolophysiological Method for Training Actors - Jouran of Social and Biological Structure, 10 - 1987 - In:

المصدر السابق - ص196.

22 - Reba Gostand - Vernal and Non-verbal Communication: Drama and Translation - In: Ortum Zuber (Ed.) - The Language of Theatre: Problems in the Translation and Transposition of Drama - Oxford: Pergamon Press, 1980 - p.2.

23 - Masterson - op. cite - p.

24 - Angélica de Antonio, Gustavo Carrazoni, Guadalupe Aguado, and Javier Segova - Nonverbal Communication and Believable Interaction in Virtual Environments - http://

www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/interactive/nonverbal.html - 2000.

25 - J. Torres, A. Martin, and J. Segovia - AFation Market For Avatars - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/parea/fation.html - 2000.

26 - See: 1 - Patrizia Marti and U. Siena - An Experiential Modality of Exploring Physical and Virtual Spaces - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/expmodality.html - 2000; 2 - Steve Benford, Chris Brown, and Boriana Koleva - Mixed Reality Boundaries for Virtual Performane - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/interactive/mreality.html - 2000; 3 - Wolgang Strauss, Monika Fleischmann, Jasminko Novak, and Mette Thomsen - Towards Extended Performance: Reconsidering the Concept of a Multi User Environment - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/interactive/extperformance.html - 2000; 4 - Mattias Forsberg, Kristina Hook, and Martin Svensson - Design Principle for Social Navigation Tools - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/socialnavi.html - 2000; 5 - Kristina Hook, and Martin Svensson - Evaluating Adaptive Navigation Support - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/adaptiveeval.html - 2000; 6 - David Benyon - Beyond Navigation as Metaphor - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/metaphor.html - 2000; 7 - Rod McCall and David Benyon - A software Tool for Evaluating Navigation - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/softtool.html - 2000.

27 - Nonverbal Patients - http://www.ddhealthinfo.org/ggrc/doc2.asp?parentID=3199 - 2000 - pp.1-3.

28 - Fernando Poyatos - New Perspectives in Nonverbal Communication: Studies in Cultural Anthropology, Social Psychology , Linguistics, Literature, and Semantics - Oxford: Pergamon Press, 1983 - p.278.

29 - Jorge Luis Maldano - Narcissim and Unconcious Communication - In: "International Journal of Psycho-analysis" (Volume68, No.37), 1987.

30 - Argyle - Bodily Communication - op. cite - pp.369-370.

الفصــل الأول

الاتصال بالعين في القرآن الكريم

من السهل أن نصنف العين، على المستوى الفسيولوجي، كعضو من أعضاء الجسم يقوم بوظيفة في غاية الأهمية، ألا وهي الإبصار. ولكن عندما ننظر إلى العين من وجهة النظر التواصلية، نجدها جزءاً يختزل الكل. أي إن العين أكثر من مجرد عضو لحاسة البصر، إذ يعتقد الناس أن لها تأثيراً قوياً في الآخرين وكأنها سلاح فتاك عندما تشهر نظراتها الغاضبة أو المفعمة بالحيوية والدلال، فكما قال الشاعر العربي:

لدغتْ عينكِ قلبي   إنما عينك عقرب (لغة العيون، ص11)

وعندما ينعم الله على العين بالجمال - كما أنعم على عينيّ المغنية عنان جارية الناطفي - تصبح خطرا داهما لكل من يواجهها وينظر إليها! قالت عنان تحذّر من عينيها:

الكفر والسحر في عيني إذا نظرتْ   فاغرب بعينيك يا مغرور عن عيني

فإن لي سيف لحظٍ لست أغمده   من صنعة الله لا من صنعة القين

(لغة العيون، ص12)

وإذا ابتعدنا عن مبالغة الشعر، نجد أن ملاحظات الباحثين والخبرة العامة للإنسان العادي تتفقان على أن العين هي الوسيلة الأولى - من حيث الأهمية - للحصول على المعلومات، لكل من لم يحرم من حاسة البصر، سواء من خلال المشاهدة أو القراءة، لذا فهي تستحق لقب «بوابة الروح» التي يطل منها الكائن الحي على الموجودات من حوله.

ويتضح من خلال هذه الدراسة مدى التناسب الواضح بين أهمية السلوك العيني ضمن الاتصال البشري، وتواجد هذا السلوك في القرآن الكريم. إذ يجد الدارس كمّا وافرا من الآيات القرآنية التي للاتصال بالعين؛ ويجد تقديرا خاصا للعين عندما ترد ضمن صفات الخالق عز وجل، وعندما يصبح النظر إليه تعالى علوا كبيرا، أعزّ ما يُطلب.

نتطرق في هذه الدراسة للاتصال بواسطة العين كما ورد في القرآن الكريم، ضمن عشرة مباحث. إذ نتطرق في المبحث الأول للفظة «عين» كما وردت في المعجم اللغوي ودلالاتها في سياق الآيات القرآنية، ومن بينها كونها عضوا جسديا يقوم بوظيفة الإحساس البصري، أولا، وبوظيفة جمالية، ثانيا.

ويهتم المبحث الثاني بصفة «البصير» التي هي إحدى صفات الله سبحانه وتعالى ودلالاتها الحقيقية والمجازية، كما وردت في القرآن. أما المبحث الثالث، فنخصصه لعلم الغيب الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بقدرة الخالق على التواصل المطلق، فهو يدرك ما ظهر وما خفي. ويشير علم الغيب، عندما يقرن بالإنسان، بعدم القدرة على الإدراك البصري للموجودات، إما بسبب اختفائها عن الأنظار أو بسبب تواجدها في الماضي أو في المستقبل.

ويتطرق المبحث الرابع لمفهوم «الشهادة» الذي ينبع من المشاهدة والإدراك البصري، ومن ثم القدرة على عكس صورة شبيهة بما تمت مشاهدته.

ويهتم المبحث الخامس بالبصر باعتباره أحد الحواس الخمس التي يستخدمها الإنسان، وما يواكبه من عملية إبصار كما وردت في التعبير القرآني، والمراد بالأبصار - في صيغة الجمع، ودلالة تقديم السمع على البصر في السياق القرآني.

ونخصص المبحث السادس للنظر، باعتباره سلوكا تقوم به العين، مع التركيز على الدلالة اللغوية للنظر والفرق بينه وبين الرؤية، التي نتطرق إليها بتوسع في المبحث السابع، خاصة أنها احتلت المركز الأول من حيث الآيات التي أشارت إليها. فالرؤية هي سلوك العين الذي يؤدي إلى الإبصار أي تحقق الإدراك البصري.

وتركز الدراسة في المبحث الثامن، على السلوكات التي تهدف إلى تحاشي النظر إلى الآخر أو إلى الأشياء، تعبيرا عن موقف ما. ويشار إلى هذه السلوكات في القرآن الكريم بمصطلحي «الإعراض» و«التولي»، بالإضافة إلى مصطلحات أخرى كالصد والنبذ ولي الرأس والصدف والانقلاب.

أما في المبحث التاسع، فنقوم بجمع 35 مصطلحا وردت في القرآن لها علاقة وطيدة بالاتصال غير اللفظي عبر العين. وتتضاف هذه المصطلحات/المفاهيم إلى ما ورد في المباحث السابقة، لتشكل شبه موسوعة أو معجم للاتصال بالعين. وهذا ما يعكس مدى غنى النص القرآني الملفوظ/المكتوب وتشبّعه بالدلالات غير اللفظية بصفة عامة، والمتعلقة بالعين بصفة خاصة.

وفي الأخير، نتطرق للعمى الذي يعني العجز عن القيام بعملية الإدراك البصري، إما بسبب خلل وظيفي في العين، أو بسبب «غشاوة» حجبتها عن الرؤية أو بسبب حالة نفسية، حالت دون قيام الدماغ بدوره السليم في معالجة البيانات الواردة عبر العين. كما نتطرق لاستخدام العمى/الإعماء وسيلة للعقاب والحرمان من أهم قناة للتواصل غير اللفظي.

المبحث الأول

العين في القرآن الكريم

حظيت العين باهتمام البشرية في مختلف الأزمنة والحضارات، ولم يقتصر الاهتمام بها على كونها أبرز عضو جسدي للإدراك الحسي، بل اعتبرت «البوابة» التي تطل منها الروح. وإذا بحثنا في الحضارة العربية، نجد أن العين تخطّت مجرد كونها عضوا من أعضاء الجسد لتصبح رمزا للكثير من مكونات الحياة.

وقد خصص المعجم اللغوي «لسان العرب» لابن منظور تسع صفحات لكلمة «عين»، وأورد لها أكثر من ثلاثين معنى، نذكر منها أن: العين هي حاسة البصر والرؤية؛ وهي الجاسوس؛ والنظر؛ والعين الذي يبعث للاستطلاع؛ والديدبان؛ والعين ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري؛ وهي مطر أيام لا يُقْلِع؛ والعين الشمس؛ والعين المال والنقد والدينار والذهب؛ والعين هي الحقيقة والجوهر (ابن منظور، م13، ص ص301-309).

ونزل القرآن الكريم، ليزكي المكانة الرفيعة التي تحتلها العين كأداة

للتواصل، ويؤكد رمزيتها. فقد ورد لفظ «عين» ومشتقاته في ثلاث وستين آية، وبمعان مختلفة.

قال تعالى في الآية 37 من سورة هود: ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾؛ وفي الآية 39 من سورة طه: ﴿وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾؛ وفي الآية 27 من سورة المؤمنون: ﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ أي اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا (ت. ص، ج2، ص14)؛ وقال تعالى في الآية 48 من سورة الطور: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾؛ وفي الآية 14 من سورة القمر: «تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر». وبالرغم من أن عين الله لا تفسر بأكثر من ظاهرها، ولا يسع أحدا أن يقول كيف هي أو ما صفاتها (ابن منظور، م13، ص301)، إلا أن الآيات الخمس تبين الحظوة التي منحها الله للعين لتكون أبرز وسيلة للمراقبة والتواصل، وذلك ما نلمسه في سياق الآية 61 من سورة الأنبياء «قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون»، والآية السابعة من سورة التكاثر: «ثم لترونها عين اليقين».

وقد وردت آيات عديدة، تبين الوظيفة التواصلية للعين المتمثلة في الإدراك البصري. إذ قال تعالى في الآية 13 من سورة آل عمران: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين﴾ وقد فسر ابن عاشور قوله تعالى ﴿رأي العين﴾ بالرؤية الحقيقية، مبينا نسبية الإدراك البصري عندما يرتبط بحالة نفسية غير طبيعية، كحالة الخوف أو الإحباط أو الحماس الذي يبثه الله في نفوس المشاهدين. يقول ابن عاشور:

«الرؤية هنا بصرية لقوله: ﴿رأي العين﴾. والظاهر أن الكفار رأوا المسلمين يوم بدر عند اللقاء والتلاحم مثلي عددهم، فوقع الرعب في قلوبهم فانهزموا. فهذه الرؤية جعلت آية لمن رأوها وتحقّقوا بعد الهزيمة أنهم كانوا

واهمين فيما رأوه ليكون ذلك أشد حسرة لهم، وتكون هذه الرؤية غير الرؤية المذكورة في الأنفال [44] بقوله: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ فإن تلك يناسب أن تكون وقعت قبل التلاحم، حتى يستخف المشركون بالمسلمين، فلا يأخذوا أهبتهم للقائهم، فلما لاقوهم رأوهم مثلي عددهم فدخلهم الرعب والهزيمة، وتحققوا من قلة المسلمين بعد انكشاف الملحمة فقد كانت إراءة القلة وإراءة الكثرة سببي نصر للمسلمين بعجيب صنع الله تعالى. وجوّز أن يكون المسلمون رأوا المشركين مثلي عدد المؤمنين، وكان المشركون ثلاثة أمثالهم، فقلّلهم الله في أعين لأنهم لو رأوهم ثلاثة أضعافهم لخافوا الهزيمة، وتكون هذه الإراءة المذكورة في سورة الأنفال [44]: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا﴾». (ت. ع، ج3 ص36)

وتتأكد والوظيفة الإبصارية للعين في سياق الآيات التالية: قال تعالى في الآيتين 179 و195 من سورة الأعراف: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها﴾؛ ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها﴾.

وقد كرّم الله الإنسان - وبعض مخلوقاته الأخرى ومنها الجن كما ورد في الآية 179 من سورة الأعراف - بمنحه العين المبصرة قبل أن يمكنه من التواصل عبر الكلام. إذ قال تعالى في سورة البلد: «ألم نجعل له عينين»؛ فالاتصال عبر حاسة البصر يبدأ منذ الأيام الأولى لقدوم المولود إلى العالم، بينما يتأخر الاتصال اللفظي إلى ما بعد انقضاء السنة الأولى.

وضمن وظيفتها التواصلية، تقوم العين بالتعبير عن العواطف والمشاعر الإنسانية، كما ورد في الآيات التالية:

قال تعالى في الآية 83 من سورة المائدة: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى

الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾. فالعين تعبر عن الشعور بالتقوى والوجل من خلال الدموع. وفي الآية 92 من سورة التوبة، تعبر الدموع عن مشاعر الحزن: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون﴾. وفي السياق نفسه، وردت الآية 84 من سورة يوسف، لتبين مدى تأثير التعبير القوي عن الحزن بالدموع على العين، الذي قد يفقدها القدرة على الإبصار: «وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم»

وفي المقابل، نجد أن السعادة والطمأنينة تظهرها العين القريرة، التي إن أدمعت، فدمعتها باردة تعبيرا عن الفرح والسرور، كما قال تعالى في الآية 26 من سورة مريم: ﴿فكلي واشربي وقري عينا﴾؛ وفي الآية 40 من سورة طه: ﴿إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾؛ والآية 74 من سورة الفرقان: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 9 و13 من سورة القصص: ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك﴾، ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن﴾. وفي الآية 51 من سورة الأحزاب ورد تعبير ﴿تقر أعينهن﴾ مرتبطا بالرضا وعدم الحزن: «﴿تُرجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾.

وورد تعبير «قرة أعين» في الآية 17 من سورة السجدة بمعنى النعيم الذي يعد به عباده في الجنة، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (ت. ص، ج2، ص504): «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون».

بالإضافة إلى كون العين تستخدم كوسيلة للتواصل البصري، فإنها تقوم بأدوار أخرى، غير روتينية تضفي عليها مزيدا من الأهمية مقارنة ببقية أعضاء الجسد. وقد وردت في القرآن الكريم بعض الآيات التي تبين تلك الأدوار. يقول تعالى في الآية 71 من سورة الزخرف: ﴿فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾. فالعين تصبح قناة لتحقيق المتعة، لأن ما يوجد بالجنة لم تعتده العين ولم تر مثله.

ويبين لنا القرآن الكريم وظيفة أخرى للعين عندما ينظر الإنسان بكيفية متعمدة معبرا عن رغبته فيما ينظر إليه من خلال الآية 88 من سورة الحجر، إذ قال تعالى: «لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين»؛ والآية 131 من سورة طه: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا﴾. والنهي في أول الآيتين، يؤكد أن العين تقوم بسلوك يجب تحاشيه.

إن تعبير «لا تمدن عينيك» أي أعرض وولّى، ورد له نقيض وهو «لا تعد عيناك» أي أقبل. وذلك في قوله تعالى في الآية 28 من سورة الكهف: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾.

وتتجلى الأهمية التواصلية للعين - من خلال القرآن الكريم - في قدرتها على التعبير عن بعض السلوكات المحمّلة بالدلالات والمعاني والمؤثرة في الأحداث.

فالإيهام الإدراكي قد يتم عن طريق العين، عندما يكون إدراكنا للأشياء لا يتناسب مع حقيقتها، كأن يبدو القليل كثيرا والصغير كبيرا أو العكس. يقول تعالى في الآية 44 من سورة الأنفال: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم

قليلا ويقللكم في أعينهم﴾. وتبين لنا الآية أن ظاهرة الإيهام الإدراكي التي أوضحتها الدراسات النفسية وأوضحها عالم النفس الأميركي وليم جيمس (ظاهرة السراب، ورؤية الأشياء والأشخاص في الصحراء التي تبدو كبيرة من بعيد ويتضاءل حجمها كلما اقترينا منها..)، هذه الظاهرة تنطبق على الفرد الذي يتأثر باستعداده النفسي والبدني في اللحظة التي يتم فيها الإدراك، لكن يصعب أن تنطبق على المجموعة إلا بفعل فاعل، وهذا ما يؤكده الضمير في قوله «وإذ يريكموهم». ويتضح هذا المعنى في الآية 116 من سورة الأعراف: «قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم» إذ لم يكتف السحرة بإيهام الناس، بل أشاعوا فيهم الخوف والرهبة من هول ما رأوا من سحر يبدو كأنه الحقيقة.

ونستطيع التعبير عن بعض مشاعرنا تجاه الآخرين من خلال نظرات العين. وقد ذكر القرآن قدرتنا على التعبير عن احتقارنا وازدرائنا للآخرين، إذ قال تعالى في الآية 31 من سورة هود: ﴿لا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين﴾. والعين خير معبر عن الخوف الذي يتجسد في اتساع البؤبؤ (إنسان العين)، وحركاتها السريعة. وتبين الآية 19 من سورة الأحزاب كيف أن عين الخائف تدور كالذي يوشك على الموت: ﴿أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير﴾.

بالإضافة إلى الدلالة الوظيفية للعين والدلالة التواصلية، نجد للعين دلالة جمالية. فقد وُصِف الجمال الأنثوي في الجنة بصفتين من صفات العين: الحَوَرُ أي أن يشتد بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها ويبيضّ ما حواليها (ابن منظور، ج4 ص219)؛ والعِين أي العيون الواسعة.

وقد ذكرت الحور العين في ثلاثة مواضع: في الآية 54 من سورة الدخان «كذلك وزوجناهم بحور عين»؛ والآية 20 من سورة الطور «متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين»؛ والآية 22 من سورة الواقعة «وحور عين».

ومن أهم الصفات التي نعت بها الله سبحانه وتعالى إناث الجنة – بالإضافة إلى جمال عيونهن – كونهن عفيفات قاصرات الطرف لا ينظرن إلا إلى أزواجهن (وسنرى لاحقا كيف أمر الله المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا من أبصارهم). قال تعالى في الآية 48 من سورة الصافات: «وعندهم قاصرات الطرف عين» فللمرء أن يتخيل مدى الجمال الكامن في عين حوراء واسعة وبالرغم من ذلك عفيفة ليست في متناول إلا من يستحقها.

أما العين باعتبارها مجرد عضو من أعضاء الجسد – دون إشارة لوظيفتها – فقد وردت في آية القصاص، الآية 45 من سورة المائدة: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين﴾.

ذكرنا سابقا، أن العرب تطلق لفظة عين على ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري، ولهذا المدلول طبيعة أيقونية أكثر منها اعتباطية، باعتبار أن هناك بعض أوجه الشبه بين العين – عضو الإبصار – والعين الينبوع. وقد ورد مدلول العين-الينبوع في القرآن في 25 آية. ويتراوح الأمر بين المعنى المباشر كما في الآية 60 من سورة المائدة: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾؛ أو في الآية 12 من سورة الغاشية «فيها عين جارية»، إلى المعنى المجازي كما ورد في الآية 86 من سورة الكهف: ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ وقد فسر تعبير ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ بأنه – والضمير راجع لذي القرنين – وجد الشمس تغرب في ماء وطين – حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة – فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض (ت. ص، ج2 ص204).

وقال تعالى في الآية 12 من سورة سبأ: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر﴾ أي أذبنا له النحاس حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض (ت. ص، ج2 ص548).

وورد تعبير «معين» بمعنى العين الجارية البادية للأنظار، مرتين مقترنا بخمر الجنة كما في قوله تعالى في الآية 45 من سورة الصافات: «يطاف عليهم بكأس من معين»، ومرتين مقترنا بالماء كما في قوله تعالى في الآية 50 من سورة المؤمنون: «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين».

وبصفة عامة، نجد معظم الآيات التي ورد فيها لفظ العين بمعنى الينبوع، تتحدث عن بيئة الجنة باعتبار العيون التي يتدفق منها الماء العذب والعسل والخمر هي جزء من الثواب الذي أعده الله لعباده الصالحين.

نستخلص من دراستنا للعين في القرآن الكريم، أنها وردت ضمن المدلولات التالية:

1 - عين الله، وهو البصير الذي يحيط بكل شيء علما.

2 - العين باعتبارها أفضل وسيلة للمراقبة.

3 - العين وسيلة للتواصل عبر قيامها بوظيفة الإدراك البصري.

4 - العين وسيلة للتعبير عن العواطف والمشاعر الإنسانية (كالخوف والحزن والسعادة والطمأنينة والازدراء).

5 - ووردت العين مجسدة للنعيم الذي وعد الله به عباده في الجنة

6 - العين باعتبارها وسيلة لتحقيق المتعة.

7 - العين كوسيلة لارتكاب المعاصي، لذلك دُعِي إلى الحد من نشاطها في بعض الأحيان.

8 - وفي المقابل، تم الحثّ على أن تمارس العين نشاطها في المواقف الإيجابية.

9 - بعض الجوانب المعقدة في طبيعة عمل العين، كالإيهام الإدراكي.

10 - الدلالة الجمالية لشكل للعين.

11 - الدلالة الجمالية لسلوك العين.

12 - العين باعتبارها مجرد عضو من أعضاء الجسد.

13 - العين بمعنى الينبوع.

المبحث الثاني

البصـــــير

«البصير» هو أحد أسماء الله الحسنى. والبصر صفة من صفاته تعالى. قال ابن الأثير في شرح البصير: «هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير جارحة، والبصر عبارة في حقه عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات». (ابن منظور، ج4 ص64)

وقال الإمام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» في الركن المتعلق بصفات الله تعالى: «إنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على صخرة صماء. وكيف لا يكون سميعا بصيرا والسمع والبصر كمال لا محالة وليس بنقص؟». (الغزالي، ج1ص130)

لقد اختلف علماء المسلمين في تحديد صفات الخالق ونعتها، وهل هي حقيقية أم مجازية. وتراوحت المواقف بين المشبهة الذين يعتقدون في وجود صفات حقيقية للخالق تشبه صفات مخلوقاته، والسنيين السلفيين الذين يعتقدون في

وجود صفات حقيقية للخالق لا تشبه صفات المخلوقات، وبعض المتكلمين - كالجهمية وبعض المعتزلة والخوارج - الذين يقرون بوجود صفات مجازية.

ونتفق في رأينا مع شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الذي خصص أكثر من ألف ومائتي صفحة ضمن مجموعة فتاويه للحديث عن أسماء الله وصفاته. وهو يأخذ برأي السلف في إثبات الصفات على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها. لقد أورد ابن تيمية رأي أبي سليمان الخطابي في رسالته: «الغنية عن الكلام وأهله»، حيث قال: «.. إذا كان معلوما أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف.

فإذا قلنا يد وسمع، وبصر وما أشبهها فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه؛ ولسنا نقول: أن معنى اليد القوى أو النعمة، ولا معنى السمع والبصر العلم؛ ولا نقول إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار، التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها؛ ووجب نفي التشبيه عنها، لأن الله ليس كمثله شيء؛ وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات». (ابن تيمية، ج5 ص ص 58-59)

ويخلص ابن تيمية إلى أن «مذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف، ولا تعطيل؛ ولا تكييف ولا تمثيل. فلا يجوز نفي صفات الله التي وصف بها نفسه؛ ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين؛ بل هو سبحانه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله». (ابن تيمية، ج5 ص195) ويضيف: «إن الله حي حقيقة، عليم حقيقة، قدير حقيقة، سميع حقيقة، بصير حقيقة، مريد حقيقة، متكلم حقيقة». (ابن تيمية، ج5 ص196)

وترتبط صفة «البصير» بكون الله عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات.

لقد وصف الله تعالى ذاته بالبصير في 41 موضعا في القرآن الكريم. وتختلف الدلالات حسب سياق الآية واقتران صفة البصير بصفة أخرى من صفاته تعالى. إذ نجد صفة البصير في التعابير القرآنية التالية:

﴿الله بصير بما يعملون﴾ - ﴿الله بما تعملون بصير﴾ - ﴿الله بصير بالعباد﴾ - ﴿إن الله كان سميعا بصيرا﴾ - ﴿كان الله سميعا بصيرا﴾ - ﴿إنه هو السميع البصير﴾ - ﴿كفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾ - ﴿إنك كنت بنا بصيرا﴾ - ﴿إنه بكل شيء بصير﴾

ورد في سورة البقرة خمس آيات يتضمّنّ صفة البصير بمعنى المدرك - بصريا - لكل ما يفعله البشر. وجاء التعبير في صيغتين مع تقديم أو تأخير: «الله بصير بما يعملون» أو «الله بما تعملون بصير». وقد فسر التعبيران بكون الله رقيب على عباده ومطلع على أعمالهم (ت. ص، ج1 ص ص80و87). قال تعالى في الآية 96 من سورة البقرة: «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون»؛ وفي الآية 110: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير».

كما ورد هذان التعبيران في 13 آية من بقية سور القرآن بالصيغة نفسها (أي بصير بما يعملون، أو بما تعملون بصير)، ما عدا الآية 39 من سورة الأنفال: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير» إذ تنسب العبارة للغائب (وقاتلوهم).

يقول الطبري في تفسير الآية 96 من سورة البقرة: «يعني جل ثناؤه بقوله:

﴿والله بصير بما يعملون﴾، والله ذو إبصار بما يعملون، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، بل هو بجميعها محيط، ولها حافظ ذاكر، حتى يذيقهم بها العقاب جزاءَها. وأصل ﴿بصير﴾ «مبصر» - من قول القائل: «أبصرت فأنا مبصر»، ولكن صرف إلى «فعيل»، كما صرف «مسمع» إلى «سميع». (ت. ط، ج1 ص476)

أما الرازي فله تفسير آخر، إذ يقول: «وأما قوله تعالى ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فاعلم أن البصر قد يراد به العلم يقال إن لفلان بصرا بهذا الأمر، أي معرفة، وقد يراد به أنه على صفة لو وجدت المبصرات لأبصرها وكلا الوصفين يصحان عليه سبحانه إلا أن من قال: إن في الأعمال ما لا يصح أن يرى حمل هذا البصر على العلم لا محالة والله أعلم». (ت. ر، ج2 ص ص210-211)

وفسّر الزمخشري عبارة ﴿والله بما يعملون بصير﴾ في الآية 110 من سورة البقرة، بأن الله «عالم لا يضيع عنده عمل عامل». (ت. ز، ج1 ص176)

ويتفق تفسير الزمخشري مع تفسير ابن عاشور الذي يقول: «البصير هنا بمعنى العليم كما في قول علقمة الفحل:

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيب

وهو خبر مستعمل في التهديد والتوبيخ لأن القدير إذا علم بما يجترحه الذي يعصيه وأعلمه بأنه علم منه ذلك علم أن العقاب نازل به لا محال». (ت. ع، ج1 ص601)

أما عبارة «الله بصير بالعباد»، فقد وردت في الآية 15 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: «قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله

بصير بالعباد»؛ وفي الآية 20 من السورة ذاتها، وفي الآية 44 من سورة غافر، كما وردت بصيغة أخرى في الآية 45 من سورة فاطر، إذ قال تعالى: «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا».

يفسر الطبري قوله تعالى ﴿والله بصير بالعباد﴾ في الآية 15 من سورة آل عمران: «يعني بذلك: والله ذو بصر بالذي يتقيه من عباده فيخافه، فيطيعه». (ت. ط، ج3 ص207)

ويقول الرازي: ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي عالم بمصالحهم. (ت. ر، ج4 ص217)

الزمخشري: ﴿والله بصير بالعباد﴾ بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم، فلذلك أعد لهم الجنات (ت. ز، ج1ص338).

ويرى ابن عاشور أن: جملة ﴿والله بصير بالعباد﴾ اعتراض لبيان الوعد أي إنه عليم بالذين اتقوا ومراتب تقواهم، فهو يجازيهم، ولتضمّن بصير معنى عليم عدي بالباء. وإظهار اسم الجلالة في قوله ﴿والله بصير بالعباد﴾ لقصد استقلال الجملة لتكون كالمَثَل. (ت. ع، ج3 ص42)

كما وصف الله تعالى ذاته بأنه سميع بصير في عشر آيات، بدءا من الآية 58 من سورة النساء، إذ قال تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا».

وفي تعبير آخر، تضمنت الآية الأولى من سورة الإسراء، قوله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير».

وقد أورد بعض المفسرين في معنى قوله تعالى:﴿ إنه هو السميع البصير ﴾، أن الله بصير بأفعال الإنسان ومحيط بها، على وجه العموم، إن خص بعض المفسرين النبي صلى الله عليه وسلم. (ت. ط، ج8 ص17)، (ت. ر، ج5 ص147)، (ت. ز، ج2ص623)، (ت. ع، ج4 ص164؛ ج14 ص18-19)

ورد اسما الله الخبير والبصير مقترنين في خمس آيات ثلاث في سورة الإسراء (الآيات 17 و30 و96) وفاطر 31 والشورى 27.

يقول تعالى في الآية 17 من سورة الإسراء: «وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا» وفي الآية 30: «إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا».

يفسر الطبري قوله تعالى: ﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ بالآية 30 من سورة الإسراء، بأن ربك ذو خبرة بعباده، وهو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم، «فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك... فنحن أعلم بمصالح العباد منك، ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم». (ت. ط، ج8ص72)

أما الرازي فيرى أن قوله تعالى: ﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾، يعني أنه تعالى عالم بأن مصلحة كل إنسان ألا يعطيه إلا ذلك القدر.. (ت. ر، ج10 ص198)

وفسرّ الزمخشري قوله تعالى ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ بالآية 17 من سورة الإسراء، أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير، وأنه عالم ومعاقب عليها. (ت. ز، ج2ص630)

ويرى ابن عاشور أن وصفي ﴿ خبيرا بصيرا ﴾ في الآية 17 من سورة الإسراء، وردا كناية عن عدم إفلات شيء من الذنوب المرئية والمعلومة من الضمائر، أي الأعمال والنوايا (ت. ع، ج14ص47). وفي الآية 30 من سورة

الإسراء، فسر ﴿خبيرا بصيرا) باعتبارهما من أسماء الله الحسنى. فالخبير: العالم بالأخبار. والبصير: العالم بالمبصرات. ويقول ابن عاشور إن هذين الاسمين الجليلين يرجعان إلى معنى بعض تعلق العلم الإلهي. (ت. ع، ج14 ص70)

ووردت صفة البصير منفردة في أربع آيات، كقوله تعالى في الآية 35 من سورة طه: «إنك كنت بنا بصيرا»، وكذا في الفرقان 20 والملك 19 والانشقاق 15.

يفسر الطبري قوله تعالى ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ في الآية 19 من سورة الملك، بأن الله بكل شيء ذو بصر وخبرة، لا يدخل تدبيره خلل، ولا يُرى في خلقه تفاوت. (ت. ط، ج12 ص170)

ويقول الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿إنه بكل شيء بصير﴾: «فيه وجهان: الوجه الأول، المراد من البصير، كونه عالما بالأشياء الدقيقة، كما يقال: فلان بصر في هذا الأمر، أي حذق. والوجه الثاني، أن نجري اللفظ على ظاهره، فنقول إنه تعالى شيء، والله بكل شيء بصير، فيكون رائيا لنفسه ولجميع الموجودات...». (ت. ر، ج15 ص72)

أما لدى الزمخشري ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ أي «يعلم كيف يخلق ويدبر العجائب.» (ت. ز، ج4 ص569)

ويقول ابن عاشور: «البصير: العليم، مشتق من البصيرة، فهو هنا غير الوصف الذي هو من الأسماء الحسنى في نحو: السميع البصير، وإنما هو هنا من باب قولهم: فلان بصير بالأمور. وقوله تعالى: ﴿إن الله بصير بالعباد﴾، فهو خبر لا وصف ولا منزل منزلة الاسم». (ت. ع، ج29 ص38)

ويتضح من استعراضنا لورود لفظة البصير في القرآن الكريم، وتفسيراتها المتعددة لدى المفسرين، أن هناك شبه إجماع على أن «بصير» تعني عليم أو

عالم، ولكنها قطعا لا تحل محلهما. فقد وصف الله تعالى ذاته بأنه العليم السميع والبصير والخبير. ونستنتج من ذلك أن العلم يتحقق عبر السمع والإسماع والبصر والإبصار والإخبار. وأن الله وصف نفسه بكمال صفة الإبصار التي لا تشبه الإبصار لدى مخلوقاته، وهي صفة من أهم الصفات الي تتحقق بها المعرفة والعلم والإحاطة.

المبحث الثالث

علم الغيب

الغيب هو ما لا يمكن إدراكه بالحواس المعروفة. يقول ابن منظور إن الغيب كل ما غاب عنك. أي إن الغيب لا يعني العدم، وإنما عجزنا عن إدراك المدركات إما بسبب حدوثها في الماضي ولا يوجد دليل مادي أو خبري عنها، وإما بسبب حدوثها في المستقبل، أو في الحاضر ولكن لا سبيل لإدراكها. ويهمنا في هذا المقام، الغيب الذي لا تدركه الأبصار.

يذكر ابن منظور في «لسان العرب» من بين تعريفات «الغيب»: «والغيب أيضا ما غاب عن العيون، وإن كان مُحَصَّلا في القلوب. ويقال: سمعت صوتا من وراء الغيب أي من موضع لا أراه. وقد تكرر في الحديث ذكر الغيب، وهو ما غاب عن العيون، سواء كان محصلا في القلوب، أو غير محصل». (ابن منظور، ج1، ص654)

وقد تحدث القرآن الكريم عن الغيب - ضمن هذا المفهوم - في مواضع عديدة. وورد في 59 آية، شملت 35 سورة من سور القرآن. وقد تم التعبير عن

مفهوم الغيب باستخدام لفظ «الغيب»، أو باستخدام ألفاظ وتعابير أخرى.

وتكمن الدلالة العامة المستقاة من الحديث عن الغيب والعلم به في القرآن، في أن القدرة على إدراك الغيب من الصفات الإلهية التي تدل على الكمال، وأن العجز عن إدراك الغيب من صفات المخلوقات التي تتسم بالنقص. وذلك ما سيتضح من خلال استعراضنا لبعض الآيات التي عبرت عن الغيب بصيغ مختلفة.

نجد أول تعبير عن الغيب في الآية 33 من سورة البقرة، إذ يقول تعالى: «قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون»

يلاحظ أن هذه الآية اشتملت على الغيب في أبعاده الثلاثة:

- حدثتنا عن الماضي الذي لم نعاصره ولا نتوفر على معلومات عنه، من خلال قصة سيدنا آدم مع الملائكة.

- وذكر الله تعالى لعلمه بغيب السماوات.. ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

- وذكره تعالى لاطلاعه على كل ما يبدر منا سرا وعلانية.

يفسر الطبري قوله تعالى: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾ في الآية 33 من سورة البقرة، كما يلي: الغيب هو ما غاب عن أبصارهم (أي الملائكة) فلم يعاينوه. وقوله تعالى: ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾، أي أعلم - مع علمي غيب السماوات والأرض - ما تظهرون بألسنتكم، وما كنتم تخفونه في أنفسكم، فلا يخفى عليّ شيء، سواءٌ عندي سرائركم وعلانيتكم. (ت. ط، ج1ص ص259-260)

ويقول الرازي في الآية سالفة الذكر: «المراد من هذا الغيب أنه تعالى كان عالما بأحوال آدم عليه السلام قبل أن يخلقه، وهذا يدل على أنه سبحانه

وتعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها ...». (ت. ر، ج1 ص229)

أما في تفسيره لقوله تعالى ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾، فيقول المقصود: «إني أعلم ما لا تعلمون من الأمور الغائبة والأسرار الخفية التي يظن في الظاهر أنه لا مصلحة فيها ولكني لعلمي بالأسرار المغيبة أعلم أن المصلحة في خلقها». (ت. ر، ج1 ص ص229-230)

لقد اشتمل القرآن الكريم على تعابير عديدة تدل على علم الله سبحانه وتعالى بالغيب، يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا - علم الله بغيب السماوات والأرض، كما في الآية 33 من سورة البقرة ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾؛ والآية الخامسة من سورة آل عمران «إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء»؛ وفي الآية 29 من سورة آل عمران ﴿يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾؛ وفي الآية 77 من سورة النحل ﴿ولله غيب السماوات والأرض﴾؛ وفي الآية 26 من سورة الكهف ﴿قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض﴾؛ وفي الآية 65 من سورة النمل ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾؛ وفي الآية 38 من سورة فاطر ﴿إن الله عالم غيب السماوات والأرض﴾؛ وفي الآية 18 من سورة الحجرات ﴿إن الله يعلم غيب السماوات والأرض﴾؛ وفي الآية الرابعة من سورة الحديد ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾؛ وفي الآية السابعة من سورة المجادلة ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾، وفي الآية الرابعة من سورة التغابن ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾.

ثانيا - إدراكه تعالى للسر والعلن، كما في الآية 33 من سورة البقرة ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾؛ و الآية 77 من سورة البقرة «ولا يعلمون

أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون»؛ وفي الآية 29 من سورة آل عمران ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾؛ وفي الآية 78 من سورة التوبة ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾؛ وفي الآية الخامسة من سورة هود ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾؛ والآية 74 من سورة النمل «وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون»؛ والآية 69 من سورة القصص «وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون»؛ وفي الآية الأولى من سورة الممتحنة ﴿أنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾؛ وفي الآية الرابعة من سورة التغابن ﴿يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾، والآية 13 من سورة الملك «وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور».

ثالثا - الحديث عن الغيب بصيغة مطلقة، كما في الآية 44 من سورة آل عمران ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ (الغيب في الماضي)؛ وفي الآية 179 من سورة آل عمران ﴿ما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾؛ والآية 109 من سورة المائدة «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب»؛ وفي الآية 116 من سورة المائدة ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾؛ وفي الآية 50 من سورة الأنعام ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾؛ وفي الآية 73 من سورة الأنعام ﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾، وفي الآية 78 من سورة التوبة ﴿وأن الله علام الغيوب﴾؛ وفي الآية 94 من سورة التوبة ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾؛ وفي الآية 105 من سورة التوبة ﴿ستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾؛ وفي الآية 31 من سورة هود ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾؛ والآية التاسعة من سورة الرعد ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾؛ وفي الآية 22 من سورة الكهف ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما

بالغيب﴾؛ وفي الآية 61 من سورة مريم ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾، والآية 78 من سورة مريم «أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا»؛ والآية 92 من سورة المؤمنون ﴿عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾؛ والآية السادسة من سورة السجدة «ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم»؛ والآية 48 من سورة سبأ «قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب»؛ وفي الآية 46 من سورة الزمر ﴿عالم الغيب والشهادة﴾؛ والآية 35 من سورة النجم «أعنده علم الغيب فهو يرى»؛ وفي الآية 25 من سورة الحديد ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾؛ والآية 22 من سورة الحشر «هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم»؛ وفي الآية الثامنة من سورة الجمعة ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾؛ والآية 18 من سورة التغابن «عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم»؛ والآية 26 من سورة الجن «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا».

رابعا - العلم بما في الصدور (حاضرا)، كما في الآية 119 من سورة آل عمران: ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾؛ وورد المعنى نفسه - مع اختلافات طفيفة في التعبير - في المائدة 7 وفي الأنفال 43 وهود 5 ولقمان 23 وفاطر 38 والزمر 7 والشورى 24 والحديد 6 والتغابن 4 والملك 13، وفي الآية 154 من سورة آل عمران ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾، وفي الآية 116 من سورة المائدة ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾، وفي الآية العاشرة من سورة العنكبوت ﴿أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾، وفي الآية 19 من سورة غافر

﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

خامسا - وردت كلمة الغيب في الآية 34 من سورة النساء بمعنى الغياب ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾. وقد فسرت عبارة ﴿حافظات للغيب﴾ بمعنى حافظات لأنفسهن عند غيبة أزواجهن عنهن، في فروجهن وأموالهم، وللواجب عليهن من حق الله في ذلك وغيره. (ت. ط، ج4 ص62)

سادسا - الغيب بمعنى عدم الرؤية لما هو كائن في الحاضر أو في المستقبل، كما ورد في الآية 18 من سورة فاطر ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي الذين يخافون عقاب يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك (ت. ط، ج10 ص405)، وفي الآية 11 من سورة يس ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾، والآية 33 من سورة ق ﴿من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾، والآية 12 من سورة الملك ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾.

سابعا - كما يمكن الإشارة إلى بعض الآيات التي ورد فيها مفهوم علم الغيب من خلال السياق العام، ضمن قدرته تعالى على العلم المطلق والإحاطة بكل بشيء، كما في الآية الثامنة من سورة فاطر ﴿الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾، وفي الآية السابعة من سورة المجادلة ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾، والآية 18 من سورة الحشر «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون»، والآية الثالثة من سورة التحريم «وإذ أسر النبي إلى

بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير».

وهكذا نرى بأن علم الغيب، سواء في بعده البصري أو الزمني، مرتبط بالخالق جل شأنه. فهو علام الغيوب، وهو القادر على إطلاع بعض عباده على جزء من الغيب. وغالبا ما يرتبط علم الغيب بمفهوم الشهادة الذي سنتطرق في الفقرة اللاحقة، لعلاقته بالتواصل البصري.

المبحث الرابع

الشهـــــــادة

لقد ورد الأصل اللغوي «شهد» في القرآن الكريم، بصيغ صرفية ونحوية متعددة، نحصرها فيما يلي:

شهداءكم - تشهدون - شهداء - شهادة - شهيدا - شهد - استشهدوا - شهيدين - الشهداء - الشهادة - اشهدوا - شهيد - الشاهدين - شهدوا - يشهد - يشهدون - أشهد - شاهدين - شهودا - الأشهاد - أشهدتهم - شهادات - شهادتهم - يشهده - شاهد - مشهود - شهود.

وعلى المستوى الدلالي يمكن اختزال هذه الصيغ في: شهد وشهيد وشهادة.

وفي «لسان العرب» يشرح ابن منظور معنى «شهد» في قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾، بقوله: «قال أبو عبيدة: معنى شهد الله قضى الله أنه لا إله إلا هو، وحقيقته عَلِمَ الله وبيّن لأن الشاهد هو العالم الذي يبين ما علمه، فالله قد دل على توحيده بجميع ما خلق، فبين أنه لا يقدر أحد أن ينشىء شيئا واحدا مما أنشأ، وشهدت الملائكة لما عاينت من عظيم قدرته،

وشهد أولو العلم بما ثبت عندهم وتبين من خلقه الذي لا يقدر عليه غيره. وقال أبو العباس: شهد الله، بيّن الله وأظهر. وشهد الشاهد عند الحاكم أي بيّن ما يعلمه وأظهره...». (ابن منظور، ج3 ص239)

ويضيف: «شهد فلان على فلان بحق، فهو شاهد وشهيد... والمشاهدة: المعاينة. وشهده شهودا أي حضره، فهو شاهد. وقوم شهود أي حضور». (ابن منظور، ج3 ص 239)

والشهيد من أسماء الله الحسنى. وهو الذي لا يغيب عن علمه شيء. والشهيد: الحاضر «وفعيل من أبنية المبالغة في فاعل فإذا اعتبر العلم مطلقا، فهو العليم، وإذا أضيف إلى الأمور الباطنة، فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة، فهو الشهيد». (ابن منظور، ج3 ص ص 238-239)

والشهادة خبر قاطع وأصلها، الإخبار بما يشاهَد. (ابن منظور، ج3 ص ص 239-240)

لقد وردت مفردات الشهادة في 107 آيات من آيات القرآن الكريم، لتبين أن الشهادة مبنية - إلى حد كبير - على السلوك البصري، ويأتي من بعده السلوك السمعي. وهكذا نجد أن علم الاتصال غير اللفظي يمكنه أن يستقي من القرآن الكريم بعدا جديدا فيما يتعلق بالسلوك البصري. فالمفردات المرتبطة بالشهادة تدلنا على سلوك بصري يقوم على الملاحظة واختزان المعلومات وتقديمها فيما بعد بصدق وأمانة حتى يكتسي صاحبها صفة الشاهد أو الشهيد. وتقديم الشهادة بالمعنى الاصطلاحي في القرآن الكريم، يعني تقديم الدليل المعترف به. وهذا الدليل لا يقدمه كل من يستطيع الرؤية أو السماع، بل لابد من توفر بعض الشروط.

ويمكن إجمال أصناف الشهادة - كما وردت في القرآن - في الآتي:

أولا: الشهادة المرتبطة بالله عز وجل

لقد وصف الله سبحانه وتعالى ذاته بالقدرة على فعل المشاهدة وبأنه الشهيد، وهو عالم الشهادة. وقد وردت عدة آيات في هذا المعنى.

يقول تعالى في الآية 204 من سورة البقرة: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام»؛ وقال في الآية 18 من سورة آل عمران: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾؛ وفي الآية 166 من سورة النساء ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾.

وقال تعالى في الآية 98 من سورة آل عمران: «قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون»؛ وفي الآية 33 من سورة النساء ﴿إن الله كان على كل شيء شهيدا﴾؛ وفي الآية 79 من سورة النساء ﴿كفى بالله شهيدا﴾، وفي الآية 19 من سورة الأنعام ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾؛ وقد أجمل تعالى ذلك في الآية 61 من سورة يونس، إذ قال: «وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين».

ويقول تعالى في الآية 73 من سورة الأنعام ﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾؛ وفي الآيتين 94 و105 من سورة التوبة: ﴿عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾؛ والآية 92 من سورة المؤمنون: «عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون».

ثانيا: شهادة الرسل والأنبياء والملائكة

يقول تعالى في الآية 143 من سورة البقرة ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا

لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾؛ وفي الآية 52 من سورة آل عمران أشهد الحواريون سيدنا عيسى على إسلامهم: «فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون»؛ وفي الآية 81 من سورة آل عمران أشهد الله الأنبياء على أممهم: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين».

ويقول سيدنا هود عليه السلام، كما ورد في الآية 54 من سورة هود: إني أُشْهِد الله على نفسي، وأشهدكم أيضا، أيها القوم، أني بريء مما تشركون في عبادة الله من آلهتكم وأوثانكم من دونه (ت. ط، ج7ص58): «إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون»؛ وورد معنى إشهاد الله مرة أخرى في الآية 52 من سورة العنكبوت ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض﴾؛ والآية الثامنة من سورة الأحقاف: «أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم».

وتوضح الآية 41 من سورة النساء أن كل رسول يشهد يوم القيامة على أمته بأنه قد أبلغهم ما أرسله الله به إليهم (ت. ط، ج4ص95): «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا».

وقال تعالى في الآية 18 من سورة آل عمران ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة﴾؛ وفي الآية 166 من سورة النساء ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾؛ والآية 69 من سورة الزمر: «وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون»؛ والآية 21 من سورة ق: «وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد».

ثالثا: الشهادة والناس

وردت آيات عديدة تشير إلى فعل المشاهدة وارتباطه ببعض الأقوام والأمم وعموم الناس.

إذ قال تعالى في الآية 23 من سورة البقرة مخاطبا عامة الناس: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين»؛ والآية 172 من سورة الأعراف: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين»؛ وقال مخاطبا بني إسرائيل في الآية 84 من سورة البقرة: «وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون»؛ وفي الآية 113 من سورة البقرة، ذكر الله الحواريين إذ: «قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين»؛ وخاطب تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم في الآية 143 من سورة البقرة ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء﴾؛ وفي الآية 130 من سورة الأنعام، تشمل الشهادة الجن والإنس كافة: «يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين»؛ وفي الآية الثانية من سورة النور التي تتناول حدّ الزنى، تجسيد لفعل الشهادة بمعنى المشاهدة والفرجة: «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين».

رابعا: الشهادة والشهود

قد تضمنت الآية 282 من سورة البقرة - أطول آية في القرآن الكريم - معظم

مفردات الشهادة بمعناها الاصطلاحي في المعاملات الاقتصادية. إذ قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم». فالشاهد أو الشهيد الذي تتحدث عنه هذه الآية، والذي يجمع - لغويا - في شهداء أو شاهدين أو شهود، شخص تتوفر فيه شروط الأهلية، والحضور الذي يؤهله للحكي عما رأى وسمع.

وتندرج الآية 283 من سورة البقرة، كذلك، ضمن الشهادة في المعاملات الاقتصادية: «وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم»؛ وكذا الآية السادسة من سورة النساء التي تتحدث عن أموال اليتامى: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا﴾.

وتتحدث الآية 106 من سورة المائدة عن دور الشهادة في تنظيم العلاقات الأسرية: «يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم

لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين»؛ وكذا الآية الثانية من سورة الطلاق: ﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله﴾.

خامسا: دور الشهادة في الحدود الشرعية

لقد وردت عدة آيات في سورة النور تتحدث عن حد الزنى ودور الشهود في إثباته، وهو دور يختلف عما رأيناه في المعاملات الاقتصادية والعلاقات الأسرية. إذ تستوجب الشهادة في حالة الزنى مشاهدة أربعة ممن تقبل شهادتهم لفعل الزنى. إذ قال تعالى في الآية الرابعة من سورة النور: «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون»؛ والآية السادسة: «والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين»؛ والآية الثامنة: «ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين»؛ والآية 13: «لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون».

سادسا: شهادة الجوارح

ذكر الله سبحانه وتعالى في بعض آيات سورة فصلت، أن بعض جوارح الإنسان تشهد عليه يوم القيامة. إذ قال تعالى في الآيات 20 و21 و22 : «حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون».

المبحث الخامس

البصر والأبصار والإبصار

يتضح من دراستنا للاتصال بالعين في القرآن الكريم، أن علم الاتصال غير اللفظي يمكنه أن يغتني بالمزيد من المفاهيم والمصطلحات التي تعبر عن مختلف السلوكات الاتصالية، والدلالات المجازية التي تبين مدى الأهمية التي يحتلها الاتصال بالعين ضمن مجمل عملية الاتصال.

ومن بين هذه المفاهيم والمصطلحات، نجد البَصَر الذي يتم عبر قناة العين. والبَصَرُ في اللغة العربية قد يعني العين إلا أنه مذكر، وقيل البَصَرُ: حاسة الرؤية. والبَصَرُ حِسُّ العين والجمع أبصار. وبَصُرَ به وأبْصَرَهُ وتَبَصَّرَهُ: نظر إليه هل يبصره. وبَصُرَ: صار مبصرا، وأبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه. وأبْصَرْتُ الشيء: رأيته. (ابن منظور، ج4، ص64) والبَصَرُ يعني العلم. وبَصُرْتُ بالشيء: علمته. والبصير: العالِم. ورجل بصير بالعلم: عالم به. (ابن منظور، ج4، ص65) ويقول الزمخشري في الكشاف: «البصر نور العين وهو ما يبصر به الرائي ويدرك المرئيات. كما أن البصيرة نور القلب، وهو ما به

يستبصر ويتأمل. وكأنهما جوهران لطيفان خلقهما الله فيهما آلتان للإبصار والاستبصار». (ت. ز، ج1 ص61)

قدّم الله سبحانه وتعالى السمع على البصر عند ورودهما معا في القرآن الكريم. ويقول ابن عاشور في هذا الشأن: «وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة». (ت. ع، ج1 ص254)

ونعتقد أن سبب التقديم لا يرجع إلى الأفضلية (والله أعلم)، بدليل أن المعلومات التي يتلقاها الإنسان (وجميع الكائنات التي تتوفر على أداة للإدراك البصري) عبر البصر، أكبر بكثير من تلك التي يتلقاها عبر السمع، بل ربما يرجع الأمر إلى سبق السمع للبصر على المستوى الوظيفي. إذ تبين، على مستوى البناء التشريحي، أن أعضاء السمع والبصر تتشكل لدى الجنين في فترة متقاربة (22-23 يوما)، وقد يتأخر ظهور حويصلة السمع قليلا عن حويصلة البصر. (عبد الرحمن، 2000) أما وظيفيا فقد أوضحت بعض الدراسات العلمية أن السمع يبدأ من أربعة أشهر ونصف الشهر، وترجح دراسات أخرى أنه يحدث في الشهور الأخيرة أو بالتحديد في الأسابيع الستة الأخيرة من الحمل، بينما يظل البصر قاصرا من الناحية الوظيفية إلى ما بعد الولادة ولا يكتمل نضجه قبل مرور الأشهر الستة من عمر الرضيع. (عبد الرحمن، 2000)

إضافة إلى ما رأيناه سابقا، من أن الله عز وجل وصف ذاته بأنه البصير في 41 آية في القرآن، فقد ورد في 83 آية قرآنية «مصطلحات بصرية»

ترتبط بالإنسان والمخلوقات الأخرى، بعضها حقيقي والبعض الآخر مجازي. ونجد ضمن هذه الآيات العديد من الظواهر الاتصالية والقضايا التي شغلت بال الباحثين في سلوك العين، باعتبارها من أهم قنوات الاتصال غير اللفظي وأكبر معبر للبيانات والمعلومات المستقاة من البيئة المحيطة.

فقد ورد في الآية السابعة من سورة البقرة والآية 23 من سورة الجاثية، إشارة إلى ظاهرة نفسية-فسيولوجية يتعرض لها الإدراك البصري، عندما يرى الإنسان ولا يبصر، أي يكون إدراكه للمنبهات البصرية شبه منعدم وكأنه أعمى، أو يعجز عن إدراك القدر الكافي من البيانات والمعلومات التي تمكنه من فهم الأشياء واتخاذ القرار المناسب. وترجع هذه الظاهرة إلى كون العين غالبا ما تتعرض لعوامل داخلية (نفسية وفسيولوجية) وخارجية (تشويش بيئي)، تحول دون رؤيتها للكثير من التفاصيل.

قال تعالى في الآية السابعة من سورة البقرة ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾، وفي الآية 23 من سورة الجاثية ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾. وقد اتفق معظم المفسرين على ارتباط الغشاوة بالعين، فتجعلها لا تبصر بوضوح، واتفقوا على أن عبارتيّ: ﴿ على أبصارهم غشاوة ﴾، و﴿ جعل على بصره غشاوة ﴾، مجازيتان وليستا حقيقيتين. ولكن هذا لا ينفي كون الغشاوة المذكورة قد تحرم أعين الكفار من رؤية الكثير من التفاصيل الكونية التي تجعلهم يتعرفون إلى عظمة الخالق فيؤمنون به.

والغشاوة في كلام العرب تعني الغطاء، ومنه قول الحرث بن خالد بن العاص:

تَبِعْتُكَ إذ عيني عليها غِشَاوةٌ فلما انْجَلَتْ قَطعْتُ نفسي الُومُهَا (ت. ط، ج1ص ص147-148)

ويقول الفخر الرازي في تفسيره: «أما الغشاوة فحقيقتها الغطاء المانع من الإبصار ومعلوم من حال الكفار خلاف ذلك فلابد من حمله على المجاز، وهو تشبيه حالهم بحال من لا ينتفع ببصره في باب الهداية». (ت. ر، ج1ص58)

وعلى المستوى اللغوي، يرى الزمخشري، أن التغشية وردت على سبيل المجاز بكلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. «أما الاستعارة فأن تجعل.. أبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطي عليها وحجبت، وحيل بينها وبين الإدراك. وأما التمثيل فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية». (ت. ز، ج1 ص57)

وتتجسد ظاهرة «الغشاوة» أو عدم الإدراك البصري - على الرغم من قدرة العين على الرؤية - في الآية 198 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: «وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون»؛ وكذا في الآية 43 من سورة يونس: «ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون»؛ والآية 20 من سورة هود: «أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون»؛ والآية 108 من سورة النحل: «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون». وفي الآية 15 من سورة الحجر وصف دقيق للحالة التي يكون فيها الكفار من سوء إدراك بصري لآيات الله في خلقه التي تحث على الإيمان: «لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون».

وقد وصف تعالى من لا يستغل حاسة بصره في إدراك عظمة الله بالغافل وشبهه بالأنعام. إذ قال تعالى في الآية 179 من سورة الأعراف: «ولقد ذرأنا

لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون».

تعتبر القدرة على الإبصار من أبرز النعم التي وهبها الله للإنسان. ولا يمكن تصور التقدم الهائل الذي حققه الإنسان، في غياب حاسة البصر التي تعاظمت أهميتها لتتفوق على بقية الحواس.

ووردت آيات عديدة تبين إنعام الله على عباده بمنحهم حاسة البصر منذ أن أنشأهم. إذ قال تعالى في الآية 78 من سورة النحل: «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»؛ والآية 78 من سورة المؤمنون: «وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون»؛ والآية التاسعة من سورة السجدة: «ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون»؛ وفي الآية 26 من سورة الأحقاف ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا﴾؛ والآية 23 من سورة الملك: «قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون»؛ والآية الثانية من سورة الإنسان: «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا».

ولا يقتصر البصر على إدراك المدركات، بل يرتقي لمرتبة العلم. والإبصار قد يعني إعمال العقل وترجيح الصواب، كما يتبين في الآية 13 من سورة آل عمران: ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾؛ وفي الآية 104 من سورة الأنعام: «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ»؛ والآية 201 من سورة الأعراف: «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون»؛ والآية 96 من سورة طه: «قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي» والآية الثالثة من سورة الأنبياء: «لاهية قلوبهم وأسروا

النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون»؛ والآية 44 من سورة النور: «يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار»؛ والآية 54 من سورة النمل: «ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون»؛ والآية 72 من سورة القصص: «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون»؛ والآية 27 من سورة السجدة: «أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون»؛ والآية 45 من سورة ص: «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار»؛ والآية 51 من سورة الزخرف: «ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون»؛ والآية 21 من سورة الذاريات: «وفي أنفسكم أفلا تبصرون»؛ وفي الآية الثانية من سورة الحشر ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

وتتجلى أهمية البصر في الإقرار باعتبار فقد البصر نقصا يستوجب التمييز. فقد رفع الله التكليف عن الأعمى في بعض المعاملات ﴿ليس على الأعمى حرج﴾، واتخذ الفارق بين الأعمى والبصير مثالا واضحا يضرب للفرق بين الكفر والإيمان. قال تعالى في الآية 24 من سورة هود: «مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون»؛ وفي الآية 16 من سورة الرعد ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾؛ والآية 19 من سورة فاطر: «وما يستوي الأعمى والبصير»؛ والآية 58 من سورة غافر: «وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون».

وإذا كان العجز عن الإبصار نقصا في حق الإنسان/العبد، فمن باب أولى أن يشكل نقصا لا يجوز وجوده لدى المعبود. قال تعالى في قصة سيدنا

إبراهيم عليه السلام وهو يحاور أبيه، في الآية 42 من سورة مريم: «إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا».

لقد استطرد الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾، مبينا أن سيدنا إبراهيم وصف الأوثان بثلاث صفات كل واحدة منها قادحة في الإلهية: لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئا. وما يترتب عن انعدام السمع والبصر :

– أنها (أي الأوثان) إذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميز من يطيعها عمن يعصيها فأي فائدة في عبادتها؛

– وإذا لم تسمع دعاء الداعي فأي منفعة في عبادتها، إذا كانت لا تبصر بتقرب من يتقرب إليها فأي منفعة في ذلك التقرب؛

– أن السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريا عن كل ذلك، والإنسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالأفضل عبادة الأخس. (ت. ر، ج21م11ص225)

ولتأكيد أهمية البصر لدى الإنسان، فقد جعل الله تعالى فقدانه أحد أشكال العذاب الذي يلحقه ببعض عباده. قال تعالى في الآية 125 من سورة طه: «قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا»؛ وفي الآية التاسعة من سورة يس: «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»؛ والآية 66 من سورة يس: «ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون»؛ والآية 23 من سورة محمد: «أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم».

وفي السياق نفسه، قال تعالى في الآية 17 من سورة البقرة: «مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات

لا يبصرون»؛ والآية 20 من سورة البقرة: «يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير».

ولعل من أبرز ما يبين مدى أهمية السلوك البصري في حياة الإنسان، ما ورد في الآية 31 من سورة النور التي تنهى عن النظر المتعمد الذي يؤدي إلى إدراك بيانات ومعلومات منهيّ عنها، وكل سلوك بصري يؤدي إلى معصية. إذ قال تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾. وفي الحديث الشريف، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والجلوس في الطرقات. قالوا: يارسول الله ما لنا بُدٌّ من مجالسنا، نتحدث فيها؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حقه؟ قال: غضٌّ البصر، وكف الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». (المنذري، ص421)

اشتمل القرآن الكريم على آيات تصف البصر باعتباره سلوكا إدراكيا طبيعيا. ففي سورة يوسف، قال تعالى في الآية 93: «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين»؛ والآية 96: «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون». إذ استعادت عينا سيدنا يعقوب عليه السلام قدرتيهما الطبيعيتين على الرؤية. وقال تعالى في الآيتين 175 و179 من سورة الصافات: «وأبصرهم فسوف يبصرون» «وأبصر فسوف يبصرون»؛ وفي الآية 15 من سورة الطور: «أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون»؛ والآية 85 من سورة الواقعة: «ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون»؛ والآية الخامسة من سورة القلم: «فستبصر ويبصرون»؛ والآيتين 38 و39 من سورة الحاقة: «فلا أقسم بما تبصرون. وما لا تبصرون»؛ والآية 11 من سورة المعارج: «يبصرونهم يود المجرم

لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه».

وتضمن القرآن الكريم بعض الآيات التي تبين السلوك البصري ذا الطابع التواصلي الفعال. إذ يصبح السلوك البصري المتعمد أو غير المتعمد مصدرا للمعلومات ودليلا على المواقف والاتجاهات التي يتخذها المبصر والحالة النفسية والفسيولوجية التي يكون فيها. قال تعالى في الآية 47 من سورة الأعراف: «وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين». فعبارة إذا صرفت أبصارهم، توحي بسلوك بصري، ليس فقط مجرد نظر عابر، وإنما يحمل دلالات يشرحها قوله تعالى ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾.

وقد وردت آيات تبين مدى أهمية البصر في عملية الاتصال، سنتطرق لها بالتفصيل عند الحديث عن سلوك العين. قال تعالى في الآية 110 من سورة الأنعام: «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون»؛ كما تتبين أهميته في الآيات: 42 من سورة إبراهيم، و77 من سورة النحل، و37 و43 من سورة النور، و63 من سورة ص، و17 من سورة النجم، و7 و50 من سورة القمر، والآيتين الثالثة والرابعة من سورة الملك، و43 و51 من سورة القلم، و44 من سورة المعارج، والآية السابعة من سورة القيامة، والآية التاسعة من سورة النازعات.

ويخبرنا القرآن عن سلوك بصري لا مثيل له في واقع حياتنا التي نعيشها، إلا من وجهة النظر غير اللفظية. ذلك أن بصر الإنسان يشهد عليه يوم القيامة إذ قال تعالى في الآيتين 20 و22 من سورة فصلت: «حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون» «وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون».

فسر الإمام الرازي الكيفية التي تشهد بها الأبصار بقوله: «اختلف الناس في كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال: أحدها، أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه؛ والثاني، أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني كما خلق الكلام في الشجرة؛ والثالث، أن تظهر تلك الأعضاء أحوالا تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان، وتلك الأمارات تسمى شهادات». (ت. ر، ج27م 14ص ص116-117) وفي السياق نفسه، فسر الطبري والرازي قوله تعالى: «بل الإنسان على نفسه بصيرة» على أن نفس الإنسان أو جوارحه تشهد عليه يوم القيامة. (ت. ط، ج12 ص336) (ت. ر، ج30 م15 ص ص222-223).

ومهما كان الحال، سواء أنطق الله البصر فجعله يتكلم، أو جعله يعبر بلغة بصرية، فهذا يبين مدى أهمية البصر في حياة الناس لدرجة تجعله يصبح شاهدا على أفعالهم.

تحدث القرآن عن الشرط الفيزيائي الواجب توفره لكي تتم عملية الإبصار، ألا وهو توفر الضوء، وذلك بطريقة غير مباشرة من خلال وصف النهار بأنه مبصر، أي ملائم لعملية الإبصار. قال تعالى في الآية 67 من يونس: «هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون»؛ وفي الآية 12 من سورة الإسراء ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾؛ وفي الآية 86 من سورة النمل ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾؛ وفي الآية 61 من سورة غافر ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾.

المبحث السادس

النـــــــــظـر

النظر سلوك اتصالي مرتبط بالعين، وهو أحد المصطلحات التي تحفل بها اللغة العربية والقرآن الكريم، والتي تبين مدى أهمية الاتصال بالعين في حياة الإنسان عامة، والعربي خاصة، وقد عاش سابقا في بيئة تتيح إمكانات هائلة للتواصل بالعين، نعني بها بيئة الصحراء.

يقدم المعجم اللغوي العربي معاني عديدة ومتباينة لمفردة «نظر»، ورد معظمها في القرآن الكريم. إذ نجد في «لسان العرب» أن «النَظَر: حِسٌّ العين... ويقول الجوهري: النَظَرُ: تأمل الشيء بالعين، وكذلك النَظَران». (ابن منظور، ج5 ص215) وتشير العرب إلى النظر بالعين باتباع فعل «نظر» بحرف الجر «إلى»، فـ«إذا قلت نظرت إليه لم يكن إلا بالعين، وإذا قلت نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكرا فيه وتدبرا بالقلب». (ابن منظور، ج5 ص216) «والنَظَرُ: الفكر في الشيء تقدّره وتقيسه منك». (ابن منظور، ج5ص217) «ونَظَرَ إليك الجبل: قابلك. وإذا أخذت في طريق كذا فنظر إليك الجبل فخذ

عن يمينه أو يساره.. وقالوا: أنظرني أي اصغ إليّ؛ ومنه قوله عز وجل: قولوا انظُرنا واسمعوا. والنظرة: الرحمة. وقوله تعالى: ولا ينظر إليهم يوم القيامة؛ أي لا يرحمهم. وفي الحديث: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم؛ قال ابن الأثير: معنى النظر هنا الإحسان والرحمة والعطف لأن النظر في الشاهد دليل المحبة، وترك النظر دليل البغض والكراهية.. والنظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام، وما كان بالبصائر كان للمعاني». (ابن منظور، ج5 ص218) «والنَظِيرُ: المِثْلُ، وقيل: المثل في كل شيء. وفلان نظيرك أي مثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواء». (ابن منظور، ج5 ص219)

لم ترد في القرآن الكريم سوى ثلاث آيات تتحدث عن نظر الله سبحانه وتعالى إلى عباده، بينما وردت آيات كثيرة عن إبصاره ورؤيته. إذ قال تعالى في الآية 77 من سورة آل عمران: «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»؛ وقال تعالى في الآية 129 من سورة الأعراف: «قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون»؛ وفي الآية 14 من سورة يونس: «ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون».

لقد اتفق بعض المفسرين على أن قوله ﴿لا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ تعبير مجازي عن غضبه تعالى وسخطه على بعض أهل الكتاب. وهذا دليل قوي على أهمية التحكم في النظر في التعبير عن المواقف، إذ إن تأثير الامتناع عن النظر لا يقل شأنا عن تأثير النظر، إذا أردنا التعبير عن مواقفنا الإيجابية والسلبية تجاه الآخرين.

يقول الطبري في تفسيره ﴿ولا ينظر إليهم﴾: «ولا يعطف عليهم بخير،

مقتا من الله لهم، كقول القائل لآخر: «انظُر إليَّ نَظر الله إليك»، بمعنى تعطّف عليّ تعطّف الله عليك بخير ورحمة، وكما يقال للرجل: «لا سمع الله لك دعاءك»، يراد: لا استجاب الله لك، والله لا يخفى عليه خافية». (ت. ط، ج3ص319)

ويفسر الرازي قوله ﴿ولا ينظر إليهم﴾: «المراد أنه لا ينظر إليهم بالإحسان، يقال فلان لا ينظر إلى فلان، والمراد به نفي الاعتداد به وترك الإحسان إليه، والسبب لهذا المجاز أن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاد نظره إليه مرة بعد أخرى، فلهذا السبب صار نظر الله عبارة عن الاعتداد والإحسان، وإن لم يكن ثم نظر، ولا يجوز أن يكون المراد من هذا النظر الرؤية، لأنه تعالى يراهم كما يرى غيرهم، ولا يجوز أن يكون المراد من النظر تقليب الحدقة (حدقة العين) إلى جانب المرئي التماسا لرؤيته لأن هذا من صفات الأجسام، وتعالى إلهنا عن أن يكون جسما». (ت. ر، ج8 م4 ص ص117-118).

وفي الحديث الشريف، روى الترمذي: «حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ غَيْلانَ حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ أَنْبَأَنَا شُعْبَةُ قَالَ أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ مُدْرِكٍ قَال سَمِعْتُ أَبَا زُرْعَةَ بْنَ عَمْرِو بْن جَرِير يُحَدِّثُ عَنْ خَرَشَةَ بْن الحُرِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ثَلاثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قُلْنَا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا فَقَالَ الْمَنَّانُ وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الْكَاذِبِ قَالَ وَفِي الْبَاب عَنْ ابْن مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي أُمَامَةَ بْن ثَعْلَبَةَ وَعِمْرَانَ بْن حُصَيْنٍ وَمَعْقِلِ بْن يَسَار قَالَ أَبو عِيسَى حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ». (ش. صخر،1997) وفي السياق نفسه، روى الإمام مالك في الموطأ: «حَدَّثَنِي عَنْ مَالك عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن دِينَار عَنْ عَبْدِ اللَّه بْن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الَّذِي يَجُرُّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (ش. صخر، 1997)

أما قوله تعالى في الآية 129 من سورة الأعراف ﴿فينظر كيف تعملون﴾ أو الآية 14 من سورة يونس ﴿لننظر كيف تعملون﴾، فقد اتفق بعض المفسرين على تفسير النظر بمعنى الرؤية الفعلية، دون إثبات للكيفية. قال الزمخشري: «فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم». (ت. ز، ج2 ص138)

وتضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تذكر حدوث النظر بمفهومه العام والسائد، ألا وهو السلوك الحسي للعين. إذ تحدث القرآن عن بعض الأقوام والأفراد الذين شاهدوا بأعينهم أمورا محددة. قال تعالى في الآية 50 من سورة البقرة: «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون» فقد شاءت الحكمة الإلهية أن يغرق فرعون وأتباعه في حضور بني إسرائيل، لتكون أعينهم أكبر شاهد على عملية الإغراق وأكبر مصدر للمعلومات عن المعجزة الإلهية. ويفسر الرازي قوله تعالى ﴿وأنتم تنظرون﴾ بأن فيه عدة وجوه:

أولها، أنكم ترون التطام أمواج البحر بفرعون وقومه؛

ثانيها، أن قوم موسى عليه السلام سألوه أن يريهم الله تعالى حالهم فسأل ربه أن يريهم إياهم فلفظهم البحر.. فنظروا إليهم طافين؛

ثالثها، أن المراد وأنتم بالقرب منهم حيث تواجهونهم وتقابلونهم وإن كانوا لا يرونهم بأبصارهم، قال الفراء وهو مثل قولك «لقد ضربتك وأهلك ينظرون إليك فما أغاثوك» تقول ذلك إذا قرب أهله منه وإن كانوا لا يرونه ومعناه راجع إلى العلم. (ت. ر، ج2 ص78)

وقال تعالى في الآية 55 من سورة البقرة: « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون»؛ وفي الآية 143 من سورة آل عمران: «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم

تنظرون»؛ والآية السادسة من سورة الأنفال: «يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون»؛ وقال تعالى في الآية 127 من سورة التوبة: «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون»؛ وفي الآية 43 من سورة يونس: «ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون»؛ والآية 15 من سورة الحج: «من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ»؛ وقال تعالى في الآية 44 من سورة الذاريات: «فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون»؛ وفي الآية 40 من سورة النبأ: إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا».

وتبين الآية 259 من سورة البقرة إلى أي مدى يمكن الاعتماد على النظر كوسيلة للمعرفة، تزود صاحبها بالمعلومات المقنعة وتساعده على تكوين الاتجاهات واتخاذ المواقف. إذ قال تعالى: «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير».

يقدم القرآن الكريم لكل دارس للتواصل غير اللفظي عبر قناة العين، مادة غنية، عندما يصف سبحانه وتعالى بعض المواقف والأحداث التي ترتكز في المقام الأول إلى السلوك البصري، وذلك ما يعزز النظريات التي تعطي أولوية وأهمية أكبر للسلوك غير اللفظي على السلوك اللفظي كمّا وكيفا.

وفي هذا السياق نذكر قوله تعالى في الآية 19 من سورة الكهف ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه

وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا ﴾؛ والآية 97 من سورة طه: «قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا»؛ وقوله تعالى في الآيتين 28 و41 من سورة النمل: «اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون» «قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون»؛ والآية 19 من سورة الصافات: «فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون» ؛ وقال تعالى في الآية 68 من سورة الزمر: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾؛ وفي الآية السادسة من سورة ق: «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج».

وتأكيدا لأهمية النظر في التواصل البشري، فقد وردت بعض الآيات التي تقتصر فقط على نظرات العين باعتبارها وسيلة كافية لتحقيق الغرض من التواصل. قال تعالى في الآية 88 من سورة الصافات «فنظر نظرة في النجوم»؛ وفي الآية 84 من سورة الواقعة: «وأنتم حينئذ تنظرون»؛ والآية 21 من سورة المدثر: «ثم نظر»؛ وقال تعالى في الآيتين 23 و35 من سورة المطففين - حيث تكررت العبارة: «على الأرائك ينظرون».

وتتضمن لغة القرآن الكريم كلمة «نظر» بمعنى تفكّر وتدبّر الأمر. وهذا المعنى ينبع من عمق سلوك العين التي تزوّد الدماغ بأكبر قدر من البيانات والمعلومات التي تستخدم في تشكيل الأفكار والمعتقدات وتساعد على التأمل. وهناك آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى. وقد وردت 38 آية في هذا السياق 95٪ منها (36 من أصل 38) تكون فيها الدعوة للنظر متبوعة بصيغة التساؤل، أي إن النظر المتأمل هو الوسيلة المثلى للإجابة عن التساول. ونجد أن 79٪ من الآيات (30 من أصل 38) تعتبر أن النظر سيجيب عن الكيفية (مستخدمة صيغة «أنظر كيف») وهي من التساؤلات العميقة.

فقد دعا الله سبحانه وتعالى خلقه للسير في الأرض والنظر والتأمل فيما حدث ويحدث على سطحها. إذ قال تعالى في الآية 137 من سورة آل عمران: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين». والدعوة إلى السير في الأرض والنظر فيها نظر تأمُّل وتفكُّر وردت كذلك، في الآية 11 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: «قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين»؛ وفي الآية 109 من سورة يوسف: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾؛ والآية 36 من سورة النحل ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾؛ وقال تعالى في الآية 69 من سورة النمل: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين»؛ وفي الآية 20 من سورة العنكبوت ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾؛ والآية التاسعة من سورة الروم ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 42 من سورة الروم ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾؛ وفي الآية 44 من سورة فاطر ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾؛ والآية 21 من سورة غافر ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 82 من سورة غافر ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة محمد ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم﴾.

ويلاحظ في هذه الآيات، دعوتها للنظر والتأمل فيما حدث في الماضي، من خلال جمل تستخدم كلمات: «أنظر» أو «أنظروا» - كيف - كان - عاقبة. والنظر المتأمِّل في الماضي لا يمكن أن يتم إلا من خلال الاطلاع على آثار الماضي، أو التعرُّف إليها من خلال التوثيق إذا توفرت التكنولوجيا اللازمة، أو

من خلال القصص التي تسرد أحداث الماضي. ولا شك في أن النظر يفيد في إجراء المقارنات بين الماضي والحاضر وصولا إلى التشابهات والاختلافات ومن ثمّ استخلاص العبرة.

ووردت في القرآن الكريم بعض الآيات التي تدعو إلى النظر فعليا، لموجودات بعينها، نظرا فاحصا للتعرف إلى عظمة الخالق والحصول على المعرفة واستخلاص العبرة. فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وهو القائل ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. وفي هذا الصدد وردت الآية 99 من سورة الأنعام: «وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون»؛ وفي الآية 101 من سورة يونس: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾؛ والآية 50 من سورة الروم: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾؛ وقال تعالى في النظر في أمر الخلق في الآية 24 من سورة عبس: «فلينظر الإنسان إلى طعامه»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الطارق: «فلينظر الإنسان مم خلق»؛ والآية 17 من سورة الغاشية: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت».

بالإضافة إلى التأمل فيما جرى في الأرض والتأمل في الخلق بصفة عامة، وردت آيات عديدة تدعو للنظر المتأمِّل في أحداث وفي أشخاص بعينهم، كما جاء في الآية 75 من سورة المائدة، إذ قال تعالى: «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون»؛ وكذا قوله تعالى عن قوم لوط عليه السلام في الآية 84 من سورة الأعراف: «وأمطرنا عليهم مطرا

فانظر كيف كان عاقبة المجرمين»؛ وقوله تعالى عن قوم فرعون في الآية 103 من سورة الأعراف: «ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين» والآية 40 من سورة القصص: «فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين»؛ وقوم نوح عليه السلام في الآية 73 من سورة يونس: «فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين»؛ وقوم موسى عليه السلام في الآية 14 من سورة النمل: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين»؛ وقوم صالح عليه السلام في الآية 51 من سورة النمل: «فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين».

وتضمنت آيات النظر التأملي، الحديث عن الحاضر الذي يتيح إمكانية المشاهدة والمواكبة للأحداث والشخصيات المذكورة. ونقول الحاضر باعتبار أن فعل الأمر «انظر» غالبا ما يتوجه لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الذي عاصر المشركين وشاهد الكثير من أفعالهم ومواقفهم، كما يتوجه الأمر إلى من عاصروه أو لكل إنسان. قال تعالى في الآيات 24 و46 و65 من سورة الأنعام: «انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون»، ﴿انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾، ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾؛ وقال تعالى في الآية 86 من سورة الأعراف: ﴿انظروا كيف كان عاقبة المُفسدين﴾؛ وفي الآية 39 من سورة يونس: ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾.

ورد في القرآن الكريم إشارة إلى النظر التأملي ضمن سياق تواصلي محدد. ونجد ذلك في قصة سيدنا سليمان عليه السلام، والحوار الذي دار بين الملكة بلقيس وقومها، وفي الحوار بين سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا

إسماعيل عليهما السلام. إذ قال تعالى في الآية 27 من سورة النمل: «قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين» وقال في الآيتين 33 و35 من سورة النمل «قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين» «وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون»؛ وقال تعالى في الآية 102 من سورة الصافات: «﴿ فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾. وتختلف هذه الآيات عن سابقاتها في كونها لا تدعونا إلى النظر والتأمل فيما جرى لمن سبقونا، وإنما تبين لنا أن من سبقونا استعانوا بالنظر التأملي في بعض السياقات التواصلية اليومية التي قد لا تختلف عن السياقات التواصلية السائدة في مختلف الأزمان.

ونشير أخيرا إلى بعض الآيات التي تدعو للنظر والتأمل وأخذ العبرة من الماضي بصفة عامة، فيكون النظر بمثابة إعمال للعقل وتحكيم للضمير، وليس فقط مجرد سلوك بصري تقوم به العين. قال تعالى في الآية 21 من سورة الإسراء: ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾؛ وقال تعالى في الآية 48 من سورة الإسراء و9 من سورة الفرقان: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾؛ وفي الآية 73 من سورة الصافات: «فانظر كيف كان عاقبة المنذرين»؛ وقال تعالى في الآية 25 من سورة الزخرف: «فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين»؛ وفي الآية 18 من سورة الحشر: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾.

والنظر كما ورد في القرآن الكريم، لا يقتصر فقط على القيام بالوظيفة التواصلية، وإنما كذلك، وسيلة لتحقيق المتعة البصرية والتذوق الفني والجمالي. قال تعالى في الآية 69 من سورة البقرة عن سيكولوجية الإدراك البصري للألوان: «قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين»؛ وقال في الآيتين 108 من سورة الأعراف

و33 من سورة الشعراء: «ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين»؛ وقال تعالى في جماليات الإدراك البصري للكون، في الآية 16 من سورة الحجر: «ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين».

وأما قوله تعالى في الآيتين 22 و23 من سورة القيامة: «وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة»، فقد أجمع الطبري والرازي وابن عاشور على الأخذ بتفسير السلف السنيين الذين يثبتون رؤية أهل الجنة لربهم رؤية عين. وقد أورد الطبري حديث ابن عمر إذ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة، لمن ينظُرُ في مُلْكه ألفي سنة، قال: وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه الله كل يوم مرتين، قال: ثم تلا ﴿وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾ قال: بالبياض والصفاء، قال: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ قال: تنظر كل يوم في وجه الله عز وجل». (ت. ط، ج 12 ص344) وأورد ابن عاشور حديث البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة «أن أناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تُضارُّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوا؟ قلنا: لا، قال: فإنكم لا تُضارُّون في رؤية ربكم إلا كما تُضارُّون في رؤيتهما». (ت. ع، ج29 ص327)

وللمعتزلة رأي في النظر إلى الله، قدّمه الرازي في تفسيره، يستحق الاطلاع عليه بالتفصيل. إذ يرى المعتزلة أن النظر لا يدل على رؤية الله تعالى. يقول الرازي:

«قالوا النظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسما للرؤية، بل لمقدمة الرؤية وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته، ونظر العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة، وكالإصغاء بالنسبة إلى السماع، فكما أن نظر القلب مقدمة للمعرفة، والإصغاء مقدمة للسماع، فكذا نظر العين مقدمة للرؤية، قالوا والذي يدل على أن النظر ليس اسما للرؤية وجوه: الأول، قوله تعالى ﴿وتراهم

ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أثبت النظر حال عدم الرؤية، فدل على أن النظر غير الرؤية؛ والثاني، أن النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية، يقال: نظر إليه شزرا ونظر غضبان، ونظر راضياً، وكل ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدل على هذه الأحوال، ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك، فلا يقال رآه شزرا، ورآه رؤية غضبان، أو رؤية راض؛ الثالث؛ يقال أنظر إليه حتى تراه، ونظرت إليه فرأيته، وهذا يفيد كون الرؤية غاية النظر، وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية؛ والرابع، يقال دور فلان متناظرة، أي متقابلة، فمسمى النظر حاصل ههنا، ومسمى الرؤية غير حاصل؛ والخامس، قول الشاعر:

وجوه ناظـرات يوم بدر   إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

أثبت النظر المقرون بحرف (إلى) مع أن الرؤية ما كانت حاصلة؛ والسادس، احتج أبو علي الفارسي على أن النظر ليس عبارة عن الرؤية، التي هي إدراك البصر، بل عبارة عن تقليب الحدقة نحو الجهة التي فيها الشيء الذي يراد رؤيته، لقول الشاعر:

فيا ميّ هل يجـازى بكائي بمثله   مرارا وأنفـاسي إلـيك زوافـر

واني متى أشرف على الجانب الذي   به أنت من بين الجـوانب ناظر

قال: فلو كان النظر عبارة عن الرؤية لما طلب الجزاء عليه، لأن المحب لم يطلب الثواب على رؤية المحبوب، فإن ذلك من أعظم مطالبه، قال: ويدل على ذلك أيضا قول الآخر:

ونظـرة ذي شجن وامق   إذا ما الركائب جـاوزن ميلا

والمراد منه تقليب الحدقة نحو الجانب الذي فيه المحبوب، فعلمنا بهذه الوجوه أن النظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسما للرؤية؛ والسابع، أن قوله ﴿إلى ربها ناظرة﴾ معناه أنها تنظر إلى ربها خاصة ولا تنظر إلى غيره، وهذا

معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله ﴿إلى ربك يومئذ المستقر..﴾ كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في موقف القيامة، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون... فلما دلت الآية على أن النظر ليس إلا إلى الله، ودل العقل على أنهم يرون غير الله، علمنا أن المراد من النظر إلى الله ليس هو الرؤية؛ الثامن، قال تعالى ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ ولو قال لا يراهم كفى، فلما نفى النظر، ولم ينف الرؤية دل على المغايرة، فثبت بهذه الوجوه، أن النظر المذكور في هذه الآية ليس هو الرؤية». (ت. ر، ج15ص ص227-228)

وعلى الرغم من أن البراهين التي ساقها المعتزلة تتوافق مع ما سنرى من آيات ورد فيها النظر باعتباره سلوكا إيمائيا تقوم به حدقة العين بصفة خاصة، إلا أن مسألة النظر إلى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لا يمكن التعامل معها إلا من قبيل المتشابهات، والله قادر على كل شيء، والله أعلم.

وإذا كان النظر إلى الله سبحانه وتعالى جائز في الآخرة، فإنه غير جائز في الدنيا، كما تؤكد ذلك قصة سيدنا موسى عليه السلام. إذ قال تعالى في الآية 143 من سورة الأعراف: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين».

وصف القرآن الكريم ثلاثة أوضاع تواصلية تبين أن النظر سلوك اتصالي تتميز به العين وتتفوق به على بقية قنوات الاتصال غير اللفظي.

ففي الآية 198 من سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾. وبالرغم من أن تفاسير القرآن ترجح أن المقصود بقوله ﴿ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ هم آلهة المشركين لأن الكثير من الأصنام

نحتت على هيئة وجوه بها أعين تحدق إلى الواقف أمامها، إلا أن هذه الحالة يمكن حدوثها في الحياة بين بني البشر. فقد ينظر المرء تجاه شخص أو شيء ما دون أن يركز انتباهه البصري.

وفي الآية 45 من سورة الشورى تبيان لقدرة العين على التعبير عن الحالة العاطفية عند الإحساس بالذل. إذ قال تعالى عن المشركين: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي﴾.

قدم الرازي وصفا دقيقا لهذا الذل المتجسد عبر النظر، فقال: «﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة كما ترى الذي يتيقن أن يقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه كما يفعل في نظره إلى المحبوبات، فإن قيل أليس أنه تعالى قال في صفة الكفار إنهم يحشرون عميا فكيف قال ههنا إنهم ينظرون من طرف خفي؟ قلنا لعلهم يكونون في الابتداء هكذا، ثم يجعلون عميا أو لعل هذا في قوم، وذلك في قوم آخرين». (ت. ر، ج14 ص183)

أما الآية 19 من سورة الأحزاب والآية 20 من سورة محمد، فقد أشارتا إلى قدرة العين على التعبير عن الخوف. إذ قال تعالى في سورة الأحزاب:﴿أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾؛ وقال في سورة محمد: «ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم».

وهكذا يخبرنا القرآن الكريم، أن العين من أبرز قنوات الاتصال غير اللفظي التي يمكن خلالها التعبير عن عواطف ومشاعر الفرح والحزن والخوف، فضلا عن دورها البارز في الحصول على البيانات والمعلومات.

المبحث السابع

الرؤيـــــــــة

بدراستنا للرؤية في القرآن الكريم، نكون قد تعمقنا أكثر في دراستنا للاتصال غير اللفظي عبر العين. لقد رأينا أن العين تبصر وتنظر، وعندما تقوم بذلك، فهي - في الغالب - ترى. والفعل «رأى» هو الأكثر ارتباطا بالعين، بل هو الأكثر تعبيرا عن حيوية العين ونشاطها، لذا يكثر استخدامه في اللغة.

فقد خصّ المعجم اللغوي «لسان العرب» للجذر اللغوي «رأى» 14 صفحة يشير معظمها إلى العلاقة بالعين. فالرُّؤْيَةُ النظر بالعين والقلب.. وتقول العرب عند الاستخبار عن حال المخاطَب: أرَأيْتَكَ نفْسَكَ، أي ما حالك ما أمرُك. والرُّؤْيا ما يراه المرء في منامه، وتكون أحيانا في اليقظة. ويقال: جعلتُ الشيء رَأْيَ عَيْنِك وبمَرْآى منك أي حذاءك ومقابلَك بحيث تراه. وتراءَى القوم: رأى بعضهم بعضا، ورأى المكان المكان: قابله حتى كأنه يراه. ورأيت زيدا حليما: عَلِمْتُه، وهو على المثل برؤية العين. وأَلَمْ تر إلى الذين.. معناه ألم تعلم أي ألَمْ ينتهِ علمُك إلى هؤلاء. وألم تر إلى فلان ، وألم تر إلى كذا: هي

كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء وعند تنبيه المخاطَب. وارْتَأيْنا في الأمر وتَراءَينا: نظرناه. والترائي: تفاعل من الرؤية. يقال: تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضا (قال تعالى في الآية 61 من سورة الشعراء: فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون). وتراءى لي الشيء أي ظهر حتى رأيته. والمُرائي: الذي يُري الناس أنه يفعل ولا يفعل بالنية. وأرَى الله بفلان أي أرَى به ما يَشْمَتُ به عدُوُّه. وأرِني الشيء: عاطِنِيه (أعطني إياه). (ابن منظور، ج14 ص ص291-304)

وأورد ابن منظور الأبيات الشعرية التالية، التي تبين المعاني المتعددة لكلمة «ترى»:

أمـــا ترني رجـــلا كـــمـــا ترى

احـــمِلُ فـــوقي بِزَّتي كـــمـــا ترى

على قَلُوص صـــعـــبـــة كـــمـــا ترى

اخـــافُ أن تَطْرَحَني كـــمـــا ترى

فـــمـــا ترى فـيـــمـــا ترى كـمـــا ترى

ومعناها: أما تراني رجلا كرؤيتك أحمل فوقي بزتي كمرْئيِّك على قلوص صعبة كعِلْمِكَ أخاف أن تطرحني كمَعْلُومك فما ترى فيما ترى كمُعْتَقَدِك، فتكون ما ترى مرة رؤية العين، ومرة مَرْئِيًا، ومرة عِلْما، ومرة مَعْلوما، ومرة مُعْتَقَدا. (ابن منظور، ج14 ص ص300-301)

وقد ذكر الله جل شأنه في كتابه العزيز أنه يرى في ثماني آيات. إذ قال في الآية 144 من سورة البقرة: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾؛ وقال في الآية 94 من سورة الأنعام: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم﴾ والآية 94 من

سورة التوبة: ﴿قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله﴾؛ وفي الآية 105 من سورة التوبة: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾؛ وقال تعالى في الآية 46 من سورة طه: «قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى»؛ والآية 218 من سورة الشعراء: «الذي يراك حين تقوم»؛ والآية السابعة من سورة المعارج: «ونراه قريبا»؛ وقال تعالى في الآية السابعة من سورة البلد: «أيحسب أن لم يره أحد» والتساؤل وارد في حق الإنسان الذي يقول ﴿أهلكت مالا لبدا﴾ أي «أيظن أن الله تعالى ما رأى ذلك منه، فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق، بل رآه وعلم منه خلاف ما قال». (ت. ر، ج31 م16 ص184)؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة العلق: «ألم يعلم بأن الله يرى».

وتتفق جميع هذه الآيات في إثبات الرؤية الفعلية للخالق جل شأنه، دون ذكر للكيفية التي تتم بها الرؤية. إذ يلاحظ أن جميع الآيات المذكورة لم يرد فيها مع الرؤية وسيلة تتحقق عبرها تلك الرؤية، لذا لم يستطرد المفسرون في تبيان أوجهها واتفقوا على أنه عندما يقول تعالى: ﴿قد نرى.. وسيرى الله.. إنني معكما أسمع وأرى.. ونراه قريبا..﴾ فالمقصود هو الرؤية الأهلية التي هي صفة يتحقق بها العلم والإحاطة بكل شيء وعلم الغيب.

ورد في القرآن الكريم 32 آية تذكر كيف يُري الله عباده الأشياء. وتكون الإراءة إما بصرية عينية بأن يجعل الله الأشياء والأمور تبدو بارزة حتى تُرى من لدن الآخرين، وإما رؤية بالقلب بمعنى العلم والإعلام. ففي الآية 128 من سورة البقرة، فُسِّر قوله تعالى ﴿وأرنا مناسكنا﴾ على وجهين: الأول، علّمنا شرائع حجنا (أو ذبحنا أو عبادتك) (في حال قراءة «أَرْنا» ساكنة الراء)؛ والثاني، أظهرها لأعيننا حتى نراها. (ت. ر، ج2 ص69) (ت. ط، ج1 ص ص604-605)

وتشير معاني معظم الآيات التي تضمنت مفهوم الإراءة، إلى كون هذه الأخيرة فعلية تحدث بالعين، كما أن المعاني المجازية كذلك، لها ارتباط وثيق بالرؤية الفعلية. وقد وردت صيغ الإراءة في الآيات 73 من سورة البقرة و13 و81 من سورة غافر، في قوله تعالى: ﴿يريكم آياته﴾؛ والآية 128 من سورة البقرة: ﴿وأرنا مناسكنا﴾؛ والآية 167 من سورة البقرة: ﴿يريهم الله أعمالهم﴾؛ والآية 260 من سورة البقرة: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾؛ والآية 152 من سورة آل عمران: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾؛ والآية 105 من سورة النساء: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾؛ والآية 75 من سورة الأنعام: ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾؛ والآية 27 من سورة الأعراف: ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾؛ والآية 143 من سورة الأعراف: ﴿قال رب أرني أنظر إليك﴾؛ والآية 145 من سورة الأعراف: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾؛ والآية 43 من سورة الأنفال: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر﴾؛ والآية 44 من سورة الأنفال: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم﴾؛ والآية 46 من سورة يونس والآية 40 من سورة الرعد: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾؛ والآية 12 من سورة الرعد: ﴿هو الذي يريكم البرق﴾.

وقال تعالى في الآية الأولى من سورة الإسراء: ﴿لنريه من آياتنا﴾؛ وفي الآية 60 من سورة الإسراء: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾؛ والآية 23 من سورة طه: «لنريك من آياتنا الكبرى»؛ وقال تعالى في الآية 37 من سورة الأنبياء: ﴿سأريكم آياتي﴾؛ وفي الآية 93 من سورة المؤمنون: «قل رب إما تريني ما يوعدون»؛ والآية 95 من سورة المؤمنون: «وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون»؛ وقال تعالى في الآية 93 من سورة النمل: ﴿سيريكم آياته﴾؛ وفي

الآية السادسة من سورة القصص: «ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون»؛ والآية 24 من سورة الروم: ﴿يريكم البرق﴾؛ وقال تعالى في الآية 77 سورة غافر: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾؛ وفي الآية 29 من سورة فصلت: «وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين»؛ والآية 53 من سورة فصلت: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾؛ وقال تعالى في الآية 42 من سورة الزخرف: ﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾؛ وفي الآية 48 من سورة الزخرف: ﴿وما نريهم من آية﴾؛ والآية 30 من سورة محمد: ﴿ولو نشاء لأريناكهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 20 من سورة النازعات: «فأراه الآية الكبرى»؛ وفي الآية السادسة من سورة الزلزلة: «يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم».

وقد وردت الإراءة من لدن العباد في الآية 11 من سورة لقمان، إذ قال تعالى: «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين». والإراءة في هذا السياق من قبيل التهكم والتعجيز. ذلك أن «صوغ التعجيز من مادة الرؤية البصرية أشد في التعجيز لاقتضائها الاقتناع منهم (المشركين) بأن يحضروا شيئا فيدّعوا أن آلهتهم خلقته». (ت. ع، ج21ص94) وكذا قوله تعالى في الآية 27 من سورة سبأ: «قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم».

نجد في القرآن الكريم إشارة إلى مسألة في غاية الأهمية تتمثل في تمييز الإنسان بين التواصل السمعي والتواصل البصري، واعتبار الأخير أعلى درجة ووسيلة حاسمة للوصول إلى اليقين. فكما رأينا سابقا، أن كليم الله سيدنا موسى عليه السلام ﴿قال رب أرني أنظر إليك﴾. وإن لم تكن الرغبة في رؤية الخالق، في هذا المقام، بحثا عن اليقين الذي هو متحقق، فهي محاولة للبحث عن تشريف لم يحظ به أحد من قبل.

أما أهل الكتاب الذين اشترطوا رؤية الله عيانا مقابل إيمانهم، فبالرغم من كونهم يبحثون عن وسيلة تعجيزية، ودعوتهم تتم عن جهل وضلال كبيرين، ولكنها تبين أن الإنسان - الذي قال فيه سبحانه وتعالى ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾ - يعتقد أن الرؤية الفعلية تبدد الشك وتقرب المرء من الحقيقة.

فقد قال تعالى في الآية 55 من سورة البقرة: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة﴾؛ وقال في الآية 153 من سورة النساء: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 21 من سورة الفرقان: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾.

وينبئنا القرآن الكريم أن الدعوة إلى رؤية الله جلّ شأنه في الدنيا، لم تمر دون عقاب رادع لمن كانت تحركهم نوايا الشرك. وخرّ سيدنا موسى صعقا لما تجلّى ربه للجبل وجعله دكا. والعبرة أن الإنسان لا يقوى على تحمل هذه الرؤية. فإذا كانت معلومات الإنسان المتواضعة تقدر احتواء الكون على «مائة مليار مجرة، وفي كل منها مائة مليار نجم (كنجمنا الشمس) في المعدل، وهكذا يوجد في كل المجرات عدد من النجوم يبلغ تقريبا عشرة مليارات تريليون (الرقم واحد أمامه 22 صفرا)» (ساغان،1993، ص23)، ويعجز الإنسان عن رؤية أجزاء شاسعة في «النقطة الزرقاء الباهتة» - كما سماها عالم الفلك كارل ساغان - ضمن هذا الكون الا وهي كوكب الأرض، بعينه المجردة، فكيف لهذا الإنسان أن يفكر في رؤية الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون؟!

ونجد في القرآن دليلا آخر على أهمية التواصل البصري في تحديد علاقة الإنسان بربه، من خلال محاولات سيدنا إبراهيم عليه السلام الأولى

للاهتداء إلى ربه، وقد اعتمد فيها على قناة العين لتزوده بالمعلومات اللازمة. فقد أورد لنا القرآن الكريم قصته في الآيات 76 و77 و78 من سورة الأنعام. إذ قال تعالى: «فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون».

هناك أمثلة عديدة في القرآن الكريم تكون فيها الرؤية بالعين عاملا حاسما على المستوى التواصلي. أي إن عملية الرؤية هي العنصر الرئيس في السياق التواصلي. وفي مقدمتها، نجد بعض الآيات التي تشير إلى حدوث الرؤية الفعلية وتؤكدها بذكر أداة الرؤية (العين) أو ذكر سلوكات أخرى تتحقق بها الرؤية (كالنظر).

قال تعالى في الآية 13 من سورة آل عمران: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين﴾؛ وفي الآية 83 من سورة المائدة: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾؛ وقال في الآية 98 من سورة الأعراف: «وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون»؛ وفي الآية 68 من سورة الأنعام: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾؛ والآية 127 من سورة التوبة: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾؛ وقال تعالى في الآية 35 من سورة يوسف: «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين»؛ وفي الآية 40 من سورة النمل: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني﴾؛ وفي الآية 20 من سورة محمد:

﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾.

وفي قصة قابيل وهابيل، كان للتواصل عبر العين دور حاسم في تعلم كيفية دفن الموتى. إذ قال تعالى: ﴿فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه﴾.

وتأكيدا لأهمية الرؤية في التواصل البشري، وردت عدة آيات ترتبط العبرة فيها بحدوث الرؤية الفعلية.

قال تعالى في الآية 143 من سورة آل عمران: «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون»؛ وفي الآية 61 من سورة النساء: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا»؛ وقال تعالى في الآية 26 من سورة مريم: ﴿فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا﴾؛ وفي الآية 36 من سورة الأنبياء: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا﴾؛ والآية 41 من سورة الفرقان: «وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا»؛ وقال تعالى في الآية 51 من سورة الروم: «ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون»؛ وفي الآية 22 من سورة الأحزاب: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾؛ والآية 14 من سورة الصافات: «وإذا رأوا آية يستسخرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 84 و85 من سورة غافر: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾، ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾؛ وفي الآية 39 من سورة فصلت: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾؛ والآية 24 من سورة الأحقاف: ﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا﴾؛ وقال تعالى في الآية 29 من سورة الفتح: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم

تراهم ركعا سجدا ﴾؛ والآية 44 من سورة الطور: «وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم»؛ والآية الثانية من سورة القمر: «وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر»؛ وقال تعالى في الآية 20 من سورة الحديد: ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ﴾؛ وقال تعالى في الآية 21 من سورة الحشر: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾؛ وفي الآية 11 من سورة الجمعة: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما ﴾؛ والآية الرابعة من سورة المنافقون: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ﴾؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة المنافقون: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون ﴾؛ وفي الآية السابعة من سورة الحاقة: «سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية»؛ والآية 32 من سورة المطففين: «وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون»؛ والآية الثانية من سورة النصر: «ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا».

ونستشف حدوث الرؤية الفعلية من خلال سياق الآيات التالية:

قال تعالى في الآية 27 من سورة الأعراف: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾؛ وفي الآية 70 من سورة هود: ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾؛ والآيات 24 و28 و31 من سورة يوسف: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾، ﴿ فلما رأى قميصه قُدّ من دبر قال إنه من كيدكن ﴾، «﴿لما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج

عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن﴾؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة طه: ﴿إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا﴾؛ وفي الآيتين 10 و44 من سورة النمل: ﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب﴾، ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها﴾؛ والآية 31 من سورة القصص: ﴿وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب﴾؛ والآية 23 من سورة التكوير: «ولقد رآه بالأفق المبين».

وورد في القرآن الكريم إشارات لبعض الأحداث والخوارق (الآيات) التي تم إدراكها بصريا من لدن الكفار، ولم يعتبروا بها، فرأوا العذاب حقيقة وأحسوا به. قال تعالى في الآية 25 من سورة الأنعام: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾؛ وفي الآية 146 من سورة الأعراف تكرر فعل الرؤية ثلاث مرات: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا﴾؛ وقال تعالى في الآية 88 من سورة يونس: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾؛ وفي الآية 97 من سورة يونس: «ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم»؛ والآية 201 من سورة الشعراء: «لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم».

يحدثنا القرآن عن جانب آخر من جوانب الرؤية الفعلية التي ستتم في الآخرة. وتكمن أهمية الحديث عن الرؤية في الآخرة، في أن هذه الأخيرة توفر مجالا للتواصل يشمل الجنس البشري كله منذ أن خلقه الله إلى يوم البعث. ويكون يوم الحساب التجمع البشري الأكبر على الإطلاق. لذا فإن التواصل غير اللفظي الذي يخبرنا القرآن الكريم بحتمية حدوثه في الدار الآخرة، قد يفيدنا كثيرا في فهم التواصل البشري غير اللفظي في حياتنا الدنيا.

وفي هذا المقام، تتحدث 16 آية عن رؤية الكفار والمشركين للعذاب في الآخرة رؤية فعلية. يقول تعالى في الآية 165 من سورة البقرة: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾؛ والآية 166 من سورة البقرة: «إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب»؛ وفي الآية 54 من سورة يونس: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾؛ والآية 49 من سورة إبراهيم: «وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد»؛ وقال تعالى في الآية 85 من سورة النحل: ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب﴾؛ وفي الآية الثانية من سورة الحج: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾؛ والآية 42 من سورة الفرقان: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾؛ وقال تعالى في الآية 64 من سورة القصص: «وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون»؛ وفي الآية 58 من سورة الزمر: «أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرّة فأكون من المحسنين»؛ والآية 44 من سورة الشورى: ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾؛ وقال تعالى في الآية 35 من سورة الأحقاف: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾؛ وفي الآية 26 من سورة القلم: «فلما رأوها قالوا إنا لضالون»؛ والآية 24 من سورة الجن: «حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا»؛ وقال تعالى في الآية 27 من سورة الملك: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾؛ وفي الآية 46 من سورة النازعات: «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها»؛ وفي الآيتين السادسة والسابعة من سورة التكاثر: «لترون الجحيم. ثم لترونها عين اليقين».

ويصف القرآن الكريم بيئات ومواقف وأحداث مختلفة في الآخرة يتم

إدراكها بالرؤية البصرية، لما تزخر به من رموز ودلالات بصرية غنية. فهناك أحوال الناس يوم القيامة، والجنة والنار والملائكة والعرش، تحفل بالكثير مما يُرى ويلفت الأنظار.

قال تعالى في الآيتين 27 و30 من سورة الأنعام: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا﴾. إذ يبدو لنا أن التعبير ﴿ولو ترى﴾ يحمل في طياته الكثير مما يستحق المشاهدة. فلحظة الوقوف أمام الله، ولحظة الوقوف على النار، لا شك سيكون فيها الكفار في أسوأ حال.

وتبين لنا الآيات التالية المزيد من حال الكفار في الدار الآخرة، والتي تُدْرَك بالعين:

قال تعالى في الآية 86 من سورة النحل: «وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون»؛ وفي الآيتين 49 و53 من سورة الكهف: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾، ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ والآية 75 مريم: ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا﴾؛ والآيتان 31 و33 من سورة سبأ تُصَوِّران مشهد الجدل الذي لا طائل منه: «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين»، ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾؛ والآية 55 من سورة الصافات: «فاطلع فرآه في سواء الجحيم»؛ وقال تعالى في الآية 28 من سورة الجاثية: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾.

وتتضمن الآية 12 من سورة السجدة مشهدا بصريا غنيا بالدلالات العاطفية التي تنم عن الذل والهوان: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا﴾؛ وفي الآية 51 من سورة سبأ مشهد الخوف: «ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب»؛ وتتوالى مشاهد التعبيرات العاطفية في الآية 60 من سورة الزمر: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين»؛ وفي الآيتين 22 و45 من سورة الشورى ﴿ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم﴾، ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي﴾.

أما المؤمنون والمؤمنات، فأحوالهم تختلف تماما، وحافلة بما يسر النظر. إذ قال تعالى في الآية 12 من سورة الحديد: «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم»؛ وفي الآيتين 19 و20 من سورة الإنسان: «ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا».

وقال تعالى في مجمل الرؤية يوم الحساب في الآيتين السابعة والثامنة من سورة الزلزلة: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره».

وقال تعالى عن رؤية الملائكة في الآخرة، في الآية 22 من سورة الفرقان: ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾؛ وقال تعالى في الآية 75 من سورة الزمر: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق﴾.

وخص الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم برؤية سيدنا جبريل عليه السلام، كما ورد في سورة النجم إذ قال تعالى في الآيات 11 و12

و13: «ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى». وقال تعالى في الآية 18: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى»، إذ اعتبر بعض المفسرين أن جبريل عليه السلام من ضمن الآيات الكبرى المذكورة في الآية. (ت. ص، ج3 ص274)

وورد فعل الرؤية في صيغة المضارعة (ترى) في بعض الآيات ليدل على إمكانية المشاهدة الفعلية بالعين، لأن الموجودات والسلوكات التي ترد في سياق الآيات قابلة للمشاهدة. ويُلاحظ أن الخطاب غالبا ما يتوجه إلى الرسول ﷺ بصفة خاصة (فترى-وترى-ولو ترى)، والإنسان بصفة عامة (وترى-ترى). وكأن صيغة المخاطبة تقول: إذا أتيحت لك إمكانية الرؤية فسوف تشاهد الكثير مما يفيدك معرفيا. ونستنتج من هذه الصيغة في المخاطبة أن للرؤية البصرية فوائد جمة قد تغني عن أي وسيلة أخرى للحصول على المعرفة.

يقول تعالى في 12 آية، بدءا بالآيات 52 و62 و80 من سورة المائدة: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾، ﴿وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت﴾، ﴿ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا﴾؛ وقال تعالى في الآية 93 من سورة الأنعام: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم﴾؛ وفي الآية 50 من سورة الأنفال: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾؛ والآية 14 من سورة النحل: ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 17 و47 من سورة الكهف: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه﴾، «ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الحج: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من

كل زوج بهيج﴾؛ والآية 88 من سورة النمل: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾؛ وقال تعالى في الآية 48 من سورة الروم: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله﴾؛ وفي الآية 12 من سورة فاطر: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر﴾.

وفي صيغة المخاطبة «أرأيت» - التي لها معنيان عند العرب: هل رأيت، أو: أخبرني - وردت 32 آية (أرأيتكم - أرأيتم - أرأيتك - أرأيت - أفرأيتم - أفرأيت).

فقد ورد في الآيات 40 و47 من سورة الأنعام قوله تعالى ﴿قل أرأيتكم﴾؛ وفي الآية 46 من سورة الأنعام، والآيتين 50 و59 من سورة يونس، والآيات 28 و63 و88 من سورة هود، والآيتين 71 و72 من سورة القصص، والآية 40 من سورة فاطر، والآية 52 من سورة الزمر، والآيتين 4 و10 من سورة الأحقاف، والآيتين 28 و30 من سورة الملك، قوله تعالى ﴿قل أرأيتم﴾ بمعنى: أخبروني

وورد قوله تعالى ﴿أرأيتك﴾ بمعنى: هل رأيت، في الآية 62 من سورة الإسراء. وفي المعنى ذاته ورد قوله تعالى ﴿أرأيت﴾ في الآية 63 من سورة الكهف، والآية 43 من سورة الفرقان، والآيات 9 و11 و13 من سورة العلق، والآية الأولى من سورة الماعون. وكذا قوله تعالى ﴿أفرأيتم﴾ في الآية 75 من سورة الشعراء، والآية 38 من سورة الزمر، والآية 19 من سورة النجم، والآيات 58 و63 و68 و71 من سورة الواقعة. وأخيرا، قوله ﴿أفرأيت﴾ في الآية 77 من سورة مريم، والآية 205 من سورة الشعراء، والآية 23 من سورة الجاثية، والآية 33 من سورة النجم.

هناك إشارات كثيرة للعلاقة بين الرؤية والعلم في القرآن الكريم. فقد

وردت صيغتا المخاطبة: ألم/أولم تر (للمفرد) وألم/أولم يروا/تروا (للجمع) بمعنى ألم تعلم/ألم تعلموا؛ وكثيرا ما تتبع بحرف الجر (إلى) لتعني ألم ينته علمك إلى... وثمة 50 آية متضمنة للصيغ المذكورة.

إذ ورد قوله تعالى ﴿ألم تر..﴾ في الآيتين 19 و24 من سورة إبراهيم، والآية 83 من سورة مريم، والآية 30 من سورة الأنبياء، والآيات 18 و63 و65 من سورة الحج، والآيتين 41 و43 من سورة النور، والآية 225 من سورة الشعراء، والآيتين 29 و31 من سورة لقمان، والآية 27 من سورة فاطر، والآية 21 من سورة الزمر، والآية السابعة من سورة المجادلة، والآية السادسة من سورة الفجر، والآية الأولى من سورة الفيل. وقال تعالى في الآية 77 من سورة يس: «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين».

ونجد قوله تعالى ﴿ألم تر إلى..﴾ في الآيتين 243 و258 من سورة البقرة، والآية 23 من سورة آل عمران، والآيات 51 و60 و77 من سورة النساء، والآية 28 من سورة إبراهيم، والآية 45 من سورة الفرقان، والآية 69 من سورة غافر، والآيتين 8 و14 من سورة المجادلة، والآية 11 من سورة الحشر.

أما في صيغة الجمع، فقد ورد قوله تعالى ﴿ألم يروا﴾ في الآية السادسة من سورة الأنعام، والآية 148 من سورة الأعراف، والآية 79 من سورة النحل، والآية 86 من سورة النمل، والآية 31 من سورة يس، وفي الآية 20 من سورة لقمان ورد قوله تعالى ﴿ألم تروا﴾، وكذا في الآية 15 من سورة نوح. وورد قوله تعالى ﴿أو لم يروا﴾ في الآية 41 من سورة الرعد، والآية 48 من سورة النحل، والآية 99 من سورة الإسراء، والآية السابعة من سورة الشعراء، والآيتين 19 و67 من سورة العنكبوت، والآية 37 من سورة الروم، والآية 27 من سورة السجدة، والآية 71 من سورة يس، والآية 15 من سورة فصلت، والآية 33 من سورة الأحقاف، والآية 19 من سورة الملك، وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة

سبأ: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾.

كما وردت الرؤية في صيغة المخاطبة للجمع: ﴿ترون﴾ للإخبار؛ وفي صيغة المغايبة للجمع: ﴿يرون﴾ بمعنى التقريع. (ت. ر، ج8 ص238) قال تعالى في الآية 126 من سورة التوبة: «أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون»؛ وفي الآية 59 من سورة يوسف: «ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين»؛ وكذا في الآية 89 من سورة طه؛ وفي الآية 44 من سورة الأنبياء؛ والآية 40 من سورة الفرقان.

ويبين لنا القرآن الكريم وجها آخر لاستخدامات الرؤية. وذلك عند الاستخدام المجازي للرؤية للتعبير عن الاعتقاد وتكوين الرأي. فالقول: «إني أرى». بمعنى: «إني اعتقد.. أو أظن». ورد في عشر آيات. إذ قال تعالى في الآية 74 من سورة الأنعام: «وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين»؛ وقال تعالى في الآيتين 60 و66 من سورة الأعراف: «قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين». «قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين». ووردت الرؤية بمعنى الاعتقاد في سورة هود ضمن الآيات 27 و29 و84 و91. وكذا في الآيتين 30 و78 من سورة يوسف. وقال تعالى في الآية 23 من سورة الأحقاف: «قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون»؛ وقال تعالى في الآية السادسة من سورة المعارج: «إنهم يرونه بعيدا».

وتحدث القرآن الكريم عن حالات انتفاء الرؤية، إما بسبب كون الإنسان لا يستطيع - ضمن حدود إمكانياته البصرية - رؤية المُدرَك إلا في حالات تجسيدية معينة، ونجد ذلك في حالة الملائكة على سبيل المثال، عندما يتمثلون على هيئة كائنات مرئية ؛ أو بسبب انتفاء وجود المُدرَكات.

قــال تعــالـى عن الملائكة في الآية 48 من ســورة الأنفــال: ﴿فلمــا تراءت الفئتـان نكص على عقبيـه وقـال إني بريء منكم إني أرى مـا لا ترون﴾؛ وفي الآيتين 26 و40 من ســورة التــوبة: ﴿وأنزل جنودا لم تـروها﴾، ﴿فــأنزل الله سكينتـه عليـه وأيده بجنود لم تروها﴾؛ والآية التـاسـعـة مـن سورة الأحـزاب: ﴿فـأرسلنا عليهم ريحـا وجنودا لم تروها﴾. وبيّن سبـحـانه وتعـالى كيف تبدو السمـاء فوقنا من دون عـمـد، خـلافـا لما نتوقـع رؤيته، وذلك في الآية الثانية من سورة الرعد، إذ قـال: ﴿الله الذي رفـع السـمـاوات بغيـر عـمـد ترونهـا﴾؛ وفي الآية العـاشرة من سـورة لقمـان: ﴿خلق السـمـاوات بغيـر عـمـد ترونهـا﴾. وقال كذلك في انتفـاء الرؤية في الآية 107 من سـورة طه: «لا ترى فـيـهـا عـوجـا ولا أمتـا» لأنها مستوية تمـامـا؛ وفي الآية 20 من سورة النـمل: «وتفقـد الطير فقال مـا لي لا أرى الهدهد أم كـان من الغائبـين» فقـد كان الهـدهـد غـائبـا؛ وفي الآية 62 من سـورة ص: «وقـالوا مـا لنـا لا نرى رجـالا كنـا نعـدهـم من الأشـرار»؛ وقـال تعالى في الآية 25 من سورة الأحـقاف: ﴿تدمر كل شـيء بأمر ربها فـأصبـحوا لا يرى إلا مسـاكنهم﴾؛ وفي الآية الثـامنة مـن سورة الحـاقـة: «فهل ترى لهم من باقيــة»؛ وفي الآية 13 من سورة الإنسـان: «متكئين فـيـهـا على الأرائك لا يرون فيها شمسـا ولا زمهريرا».

وتصف الآية 40 من سـورة النور تعذّر الرؤيـة بسـبب الإظلام الشـديد: ﴿أو كظلمـات في بحـر لجي يغشـاه موج من فوقـه مـوج من فـوقـه سـحـاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾.

ونجد في القرآن الكريم إشارة إلى شكل مهم من أشكال السلوك البصري، ألا وهو الرؤية أثناء النوم. أي مـا يُدعى في اللغـة العـربيـة والقـرآن: «الرؤيا»، وفي علم النفس: «الأحـلام». وقـد ثبـتت علمـيـا، العـلاقـة الوطيـدة بين الرؤية (سلوك للعين في حالة اليقظة) والرؤيا (سلوك تشارك فيه العين أثناء النوم).

فقد اكتشف العلماء أن الحلم تصاحبه حركات سريعة صادرة عن العينين في المحاجر تحت الجفون. (أسرار النوم، ص71)

وبيّنت دراسات أجراها الباحثون الأميركيون هول وفان دي كاسل وسنايدر «أنه ما من حلم على التقريب إلا ويظهر فيه شخص آخر غير صاحب الحلم من الأشخاص المألوفين. وفي ثلث الأحلام تقريبا يكون هؤلاء الأشخاص أو صاحب الحلم نفسه نشطا على نحو أو آخر، فهو إما أن يتحدث إلى غيره أو يستمع إليه أو ينظر إليه. وفي ثلث آخر من الأحلام تجد الناس في الأحلام وهي تتحرك». (بوربلي،1992، ص74) لذلك عندما يقول الحالم أو صاحب الرؤيا: ﴿إني رأيت..﴾ فهذا يعني أن عينيه كانتا تعملان فعلا، بكيفية ما.

ونستشف من القرآن الكريم بعض السمات العامة للحلم/الرؤيا مثل الطابع الرمزي، وكذا الجانب الانعكاسي للواقع، عندما تتطابق الرؤيا مع الواقع الآني أو المستقبلي. ففي سورة يوسف يبرز الطابع الرمزي للحلم في الآيتين الرابعة والخامسة. قال تعالى: «إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين»؛ وفي الآية 36: «ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين»؛ والآية 43: «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون». أما الرؤيا التي تماثل الواقع، فنجدها في قصة سيدنا إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل عليهما السلام. إذ قال تعالى في الآيتين 102 و105 من سورة الصافات: ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام اني أذبحك﴾، «قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين». وتحققت الرؤيا

للرسول ﷺ كما ورد في الآية 60 من سورة الإسراء: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾؛ والآية 27 من سورة الفتح: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾.

وهناك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تتطرق للرؤيا، وتبين أهميتها التواصلية بما تحمله من حقائق يتم التوصل إليها بواسطة التأويل والتفسير.

فقد روى ابن ماجه في سننه أربعة أحاديث عن الرؤيا: «حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ حَدَّثَنِي إِسْحَقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»؛ «حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فِي الْيَقَظَةِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ عَلَى صُورَتِي»؛ في رواية الدارمي: «أَخْبَرَنَا أَبُو نُعَيْمٍ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ مِثْلِي».

وروى ابن ماجه: «حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا هَوْذَةُ بْنُ خَلِيفَةَ حَدَّثَنَا عَوْفٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الرُّؤْيَا ثلاث فَبُشْرَى مِنَ اللَّهِ وَحَدِيثُ النَّفْسِ وَتَخْوِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا تُعْجِبُهُ فَلْيَقُصَّ إِنْ شَاءَ وَإِنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلا يَقُصَّهُ عَلَى أَحَدٍ وَلْيَقُمْ يُصَلِّي»؛ «حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمْزَةَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبِيدَةَ حَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ مُسْلِمُ بْنُ مِشْكَمٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ

اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ قَـالَ إِنَّ الرُّؤْيَا ثلاث مِنْهَـا أَهَاوِيلُ مِنَ الشَّـيْطَانِ لِيَحْزُنَ بِهَا ابْنَ آدَمَ وَمِنْهَا مَا يَهُمُّ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقظَتِهِ فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ وَمِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ قَالَ قُلْتُ لَهُ أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَعَمْ أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». (ش. صخر، 1997)

ونشير أخيرا، إلى بعض الآيات التي ورد فيها الحديث عن الرؤية الفعلية أو المجازية، في صيغ لم تتكرر كثيرا، مثلما شاهدنا سابقا.

فقد قال تعالى في الآية 149 من سورة الأعراف: ﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا﴾. فقوله ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ بمعنى «تبينوا ضلالهم تبيينا كأنهم أبصروه بعيونهم». (ت. ر، ج8 ص10)

وفي الآية 39 من سورة الكهف: «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا» إن ترن: أي إن كنت تراني أو تعتبرني أقل منك مالا وولدا. فالموقف التقييمي المتخذ في هذه الآية مبني على المظهر المرئي المتكون من الممتلكات كالجنان والأموال والأولاد، وكلها أمور مرئية. وقال تعالى في الآية 92 من سورة طه: «قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا» فعبارة ﴿إذ رأيتهم ضلوا﴾ يمكن حملها على الرؤية الحقيقية، أو على المجاز، أي بعدما تبين لك ضلالهم أو بعدما اتضح ضلالهم وانكشف.

قال تعالى في الآية 12 من سورة الفرقان عن نار السعير: «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا». وقد اعتبر الرازي الرؤية الواردة في هذه الآية رؤية فعلية وأورد تأويلات المعتزلة، إذ قال: «يجب إجراؤه على الظاهر، لأنه لا امتناع في أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار، أما المعتزلة فقد احتاجوا إلى التأويل وذكروا فيه وجوها (أحدها) قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر.. ويقال دور فلان متناظرة

أي متقابلة». ويدعم تأويل المعتزلة هذا، ما ورد في الآية 36 من سورة النازعات، إذ قال تعالى : «وبرزت الجحيم لمن يرى». والتأويل الثاني «أن النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم (وثالثها) قال الجبائي: إن الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار، لأن الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار، فهو كقوله (واسأل القرية) أراد أهلها». (ت. ر، ج12ص ص56–57)

ووردت الرؤية بمعنى العلم في الآية السادسة من سورة سبأ: «ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد».

ونجد في الآية 29 من سورة غافر، الرؤية مقترنة بالرأي: «يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد». ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي لا أشير إليكم برأي سوى ما ذكرته. (ت. ر، ج14 ص ص60-61)

قال تعالى في الآية 35 من سورة النجم: «أعنده علم الغيب فهو يرى». فُسِّر قوله ﴿فهو يرى﴾ أي فهو يشاهد أمور الغيب ويراها رؤية بصرية، فلا يكون علمه علما نظريا بل علما بصريا. (ت. ر، ج15ص13) (ت. ع، ج27ص130) وفي الآية 40 شكل آخر للرؤية، إذ قال تعالى: «وأن سعيه سوف يرى» والحديث هنا عن الإنسان المؤمن، ذلك أن الله يريه أعماله الصالحة ليفرح بها. والمعنى الأقرب إلى الفهم العام، أن الله يجعل أعمال الإنسان مرئية من لدن هذا الأخير ومن لدن غيره.

وفي الآية السابعة من سورة العلق تعبير مكثّف عن رؤية الإنسان لذاته. إذ قال تعالى في الآيتين السادسة والسابعة: «إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى»، أي إذا رأى نفسه مغتنيا. والغنى المادي تدركه العين.

المبحث الثامن

الإعراض والتولّي

إن مفهومي الإعراض والتولي يعتبران من أهم المفاهيم التي وردت في القرآن، والتي لها ارتباط وثيق بالتواصل عبر العين. وعلى الصعيد اللغوي، نجد في المعجم اللغوي «لسان العرب» أن «الإعراض عن الشيء: الصدّ عنه. وأعرض عنه: صدّ» (ابن منظور، ج7 ص182). و«أعرض عن الشيء: إذا ولاه ظهره». (ابن منظور، ج7ص176). أما عن مفهوم التولّي، فنجد أن «وَلّى الشيء وتولّى: أدبر. وولّى عنه: أعرض عنه أو نأى.. والتولية تكون انصرافا، وقال أبو معاذ النحوي: قد تكون التولية بمعنى التولي. يقال ولّيْتُ وتَوَلَّيْتُ بمعنى واحد». (ابن منظور، ج15 ص414). و«تولى عنه: أعرض وولّى هاربا أي أدبر.. وقد ولّى الشيء وتَوَلّى إذا ذهب هاربا ومدبرا، وتولى عنه إذا أعرض، والتّوَلّي يكون بمعنى الإعراض ويكون بمعنى الاتّباع؛ قال تعالى: وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم؛ أي إن تُعْرِضوا عن الإسلام. وقوله تعالى: ومن يتولهم منكم فإنه منهم؛ معناه من يتبعهم وينصرهم». (ابن منظور، ج15 ص415)

ويندرج ضمن مفهومي الإعراض والتولي - ويبدو أن لهما معنى مشتركاً كما تبين في القاموس - ما يعرف في الدراسات الحديثة عن سلوك العين بـ «تحاشي النظر». فقد أجريت عدة دراسات عن ميل بعض الأفراد المصابين بمرض انفصام الشخصية، إلى تحاشي النظر إلى الغير، واتضح أنهم غالبا ما يتحاشون النظر إلى الناس، أي إنهم يتحاشون الدخول في تواصل مع الآخرين. (Argyle: 1975, p239)

ويكون الإعراض أو التولي بتحاشي النظر أو بالإدبار أو صرف الانتباه - داخليا - فلا يتلقى الفرد المنبهات من حوله، أو بالابتعاد أو المغادرة بكيفية ليست مثيرة للانتباه أو بكيفية لافتة للنظر كالهروب. وهنا، غالبا ما يعبر هذا السلوك عن موقف ما يدل على الرفض أو عدم الاقتناع.

لقد اشتمل القرآن الكريم على العديد من الآيات التي تتضمن مفهوم الإعراض أو التولي، بلغ عددها 74 آية، بعضها يذكر الإعراض وبعضها يذكر التولّي والبعض الآخر يجمع بينهما. وهناك بعض الآيات التي تتحدث عن الصدّ أو النكوص أو النبذ أو الانقلاب، للتعبير عن المفهوم ذاته.

1 - الإعراض

أمر الله تعالى رسوله الكريم بالإعراض عن المشركين والمنافقين، ليس فقط بتحاشي النظر إليهم وإنما كذلك بالابتعاد عنهم. فالإعراض بهذا المعنى قد يكون دعوة لتحاشي التواصل بصفة عامة، أو التواصل في حدود ضيقة تسمح بإيصال الرسائل الإقناعية أو التعايش والتساكن.

قال تعالى في الآية 63 من سورة النساء: «أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا»؛ وفي الآية 81

من سورة النساء: ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيَّتَ طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 42 من سورة المائدة: ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا﴾؛ وفي الآية 68 من سورة الأنعام دعوة صريحة للإعراض بمعناه التواصلي غير اللفظي العميق، لأنه سيترك أثرا بليغا في الطرف الآخر قد يدعوه إلى تبديل مضمون العملية الاتصالية أو تعديله على الأقل. قال تعالى: «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين»؛ وقال تعالى في الآية 106 من سورة الأنعام: «اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين»؛ وفي الآية 199 من سورة الأعراف: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»؛ والآية 95 من سورة التوبة: ﴿فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾؛ وقال تعالى في الآية 94 من سورة الحجر: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»؛ وفي الآية 28 من سورة الإسراء: «وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا»؛ والآية 30 من سورة السجدة: «فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون».

وأمر الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام بالإعراض. إذ دعاه في الآية 76 من سورة هود، قائلا: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾. وفي قصة سيدنا يوسف عليه السلام، يطلب عزيز مصر من سيدنا يوسف كتمان الأمر. يقول تعالى على لسان العزيز، في الآية 29: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز على أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، لإعراضهم عن اللغو، إذ قال تعالى في الآية 55 من سورة القصص: «وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا

لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين».

نلاحظ في جميع الآيات السابقة أمراً بالإعراض، سواء بتحاشي النظر أو بالابتعاد أو بكتمان السر، مما يؤكد أن الإعراض قد يكون ميكانيزما تواصليا فعالا يهدف إلى إنهاء عملية الاتصال مع الآخرين أو تقليصها إلى حدودها الدنيا. والنتيجة التي يمكن التوصل إليها: أن الإعراض سلوك إيجابي ومحبذ.

وفي المقابل، وردت مجموعة من الآيات التي تشير إلى إعراض المشركين والمنافقين عن اتباع الطريق القويم المؤدي إلى الإيمان، وهم بذلك، يقومون بسلوك سلبي.

فقد وردت آيات تبين إعراض المشركين عن الآيات والبراهين التي تبين عظمة الخالق، تفاديا منهم للتعرض للقدرة الإقناعية الفائقة لتلك البراهين والمعجزات. قال تعالى في الآية الرابعة من سورة الأنعام: «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين»؛ وفي الآية 105 من سورة يوسف: «وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»؛ والآية 81 من سورة الحجر: «وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين»؛ وقال تعالى في الآية 57 من سورة الكهف: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه﴾؛ وفي الآية 46 من سورة يس: «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين»؛ وقال تعالى في الآية 48 من سورة الشورى: ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ﴾؛ وفي الآية الثانية من سورة القمر: «وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر».

وذكر الله الذين يعرضون عن سماع القرآن الكريم، إذ قال تعالى في الآيتين 100 و124 من سورة طه: «من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا»، «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى»؛ وقال تعالى في الآية 42 من سورة الأنبياء: «قل من يكلؤكم بالليل

والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الشعراء: «وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين»؛ والآية 22 من سورة السجدة: «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون»؛ وقال تعالى في الآية 68 من سورة ص: «أنتم عنه معرضون» (أي القرآن)؛ وقال تعالى عن القرآن الكريم في الآيتين الثالثة والرابعة من سورة فصلت: «كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون. بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون»؛ وفي الآية الثالثة من سورة الأحقاف: ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾؛ وقال في الآية 17 من سورة الجن: ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا﴾.

وثَمَّ وعيد لمن يعرض عن الإيمان بالله، بعذاب أليم. قال تعالى في الآية 16 من سورة سبأ عن قوم سبأ: ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾؛ وفي الآية 13 من سورة فصلت عن قريش: «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود».

ومن أهم ما ورد في شأن الإعراض في القرآن الكريم، ما ورد في بعض الآيات من أن الإنسان بطبعه، يميل إلى الإعراض إذا لم يكن في حاجة لغيره، ويُقْبِل عندما تشتد حاجته لغيره (وكأنها ظاهرة سلوكية اشتراطية حسب نظرية عالم النفس السلوكي بافلول القائمة على الارتباط بين المثير والاستجابة، والتي نلتمسها في المقولة العربية: جوِّع كلبك يتبعك). قال تعالى في الآية 83 من سورة الإسراء: «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا»؛ وفي الآية 51 من سورة فصلت: «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض».

ويعتبر ما ورد في الآية 35 من سورة الأنعام، دليلا شافيا على الأثر السلبي الذي يتركه المُعْرِض على المُعْرَض عنه (المتلقي). إذ ذكر الله سبحانه

وتعالى الأثر السيئ الذي تركه إعراض المشركين في نفسية الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: «وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين».

وقد وردت أربع آيات يشرن إلى حدوث الإعراض في حالات محددة، سواء في العلاقات الأسرية أو في المعاملات. ففي الآية 128 من سورة النساء، حديث عن إعراض الزوج: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما﴾؛ وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة التحريم: ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض﴾.

وورد في الآية 135 من سورة النساء نهي عن الإعراض عن الإدلاء بالشهادة، إذ قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا»؛ وذكر تعالى المعرضين عن المثول والاحتكام، في الآية 48 من سورة النور: «وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون».

2 - التولي

لم يوجه الله سبحانه وتعالى أمره للرسول صلى الله عليه وسلم بالتولّي عن المشركين، إلا في آيات قليلة (ثلاث آيات) مقارنة بالدعوة للإعراض. قال تعالى في الآيتين 174 و178 من سورة الصافات: «فتول عنهم حتى حين»، «وتول عنهم حتى حين» ونستشف التولي في هاتين الآيتين من خلال السياق

العام فقد فسرتا بمعنى اترك مقاتلتهم إلى حين (ت. ر، ج26 م13ص173) ففي ترك المقاتلة تحاشٍ للمواجهة ومن ثم تحاشي للنظر المواجهي. وقال تعالى في الآية 54 من سورة الذاريات: «فتول عنهم فما أنت بملوم».

ويحدثنا القرآن الكريم عن بعض الأنبياء والرسل الذين تولوا عن أقوامهم بعدما يئسوا من دعوتهم لاتباع الحق. فها هو سيدنا صالح عليه السلام يتولى عن قومه بعد أن لم يتبعوا ما يدعوهم إليه، إذ قال تعالى في الآية 79 من سورة الأعراف: «فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين»؛ وكذا فعل نبي الله شعيب عليه السلام مع قومه، في الآية 93 من سورة الأعراف: «فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين»؛ وتولى نبي الله يعقوب عليه السلام عن أبنائه، كما ورد في الآية 84 من سورة يوسف: ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف﴾. وتُبْرِز لنا الآية العاشرة من سورة النمل والآية 31 من سورة القصص، كيف ولّى سيدنا موسى عليه السلام بكيفية صريحة، ليس بسبب موقف تواصلي معين، وإنما بسبب الخوف: «وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون»، «وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين».

وذكر القرآن الكريم بعض الأقوام التي ولّت عن اتباع الرسل الذين جاءوهم بالحق، وعلى رأس هؤلاء الأقوام، نجد بني إسرائيل، إذ قال فيهم الله سبحانه وتعالى في الآية 64 من سورة البقرة: «ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين»؛ وقال في الآية 246 من سورة البقرة: «ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتار ألا تقاتلوا

قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين»؛ وذكر تعالى في الآية 137 من سورة البقرة أهل الكتاب: «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم»؛ وقال تعالى عن المشركين بصفة عامة في الآية 40 من سورة الأنفال: «وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير»؛ وعن كفار قريش في الآية 14 من سورة الدخان: «ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون»؛ وذكّرهم بما حاق بالأمم السابقة التي كفرت كقوم عاد وثمود في الآية السادسة من سورة التغابن: «ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد».

وذكر الله تعالى في سورتي القيامة والليل مصير الكافر يكذب بالدين ويتولى عن اتباع الرسول، إذ قال في الآية 32 من سورة القيامة: «ولكن كذب وتولى» (وقد نزلت في أبي جهل)؛ وفي الآية 16 من سورة الليل: «الذي كذب وتولى».

وقال تعالى في الذين يتولون بسبب بخلهم. قال تعالى في الآية 24 من سورة الحديد: «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد». وحذّر الله عباده من مغبّة التولي عن طاعة الله ورسوله، إذ قال في الآية السادسة من سورة الممتحنة: «لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد»؛ وفي الآية 12 من سورة التغابن: «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين».

ولعل أشهر آية وردت في القرآن الكريم وتعبر عن أهمية التواصل غير اللفظي، هي الآية الأولى من سورة عبس، إذ قال تعالى: «عبس وتولى». فهي تتضمن رسالة غير لفظية بنسبة مائة في المائة، ونزلت عتابا للرسول ﷺ

على سلوك غير لفظي بدر منه عندما عبس في وجه عبد الله بن أم مكتوم، وتولى عنه، أي أشاح بنظره بعيدا عنه وأقبل نحو بعض صناديد قريش مفضلا التواصل معهم قصد هدايتهم وإدخالهم في الإسلام. وهكذا يتضح أن هذه الآية تقدم لنا شكلا من أشكال التولي، قائم على تفضيل النظر نحو أشخاص معينين وصرف النظر عن آخرين، دلالة على أهمية السلوك العيني في التواصل.

وفي الآية 92 من سورة التوبة، شكل آخر من أشكال التولي، ناتج عن الاضطرار أو اليأس الذي يجعل الاستمرار في العملية التواصلية لا جدوى منها، ومن ثم تفضيل المغادرة والابتعاد. إذ قال تعالى عن البكّائين (وهم سبعة من الأنصار) الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه (ت. ص، ج1ص555): «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون».

ونشير أخيرا إلى الآية 28 من سورة النمل التي تحكي قصة سيدنا سليمان عليه السلام، إذ قال: «اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون». فقد أمر سيدنا سليمان الهدهد أن يحمل رسالة إلى بلقيس ملكة سبأ وجندها، ويجتبئ في مكان قريب في انتظار الجواب. فالتولي هنا بمعنى الاستتار بأن لا يكون مرئيا من لدن الآخرين بينما في استطاعته رؤيتهم، أو لا يكون مرئيا ولا يقدر على رؤية الآخرين. إذن هناك علاقة وطيدة بين الاختباء/التولي وإمكانية الرؤية.

3 - الإعراض والتولي

ورد ذكر الإعراض والتولي مجتمعين في خمس آيات. أربع منها تصفهما

باعتبارهما سلوكين متعاقبين أو متلازمين أو أن أحدهما يؤكد الآخر أو ينتج عنه. ونجد في تلك الآيات الأربع أن التولي دائما يسبق الإعراض في الذكر. وغالبا ما يبدو التولّي كفعل/سلوك والإعراض كنعت/صفة. فقد اتفق الزمخشري صاحب «الكشاف» وابن عاشور في تفسيره أن الإعراض في قوله ﴿ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾ أي وأنتم قوم عادتكم الإعراض. (ت. ز، ج1 ص160) (ت. ع، ج1 ص566).

قال تعالى في الآية 83 من سورة البقرة: «وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون»؛ وقال في الآية 23 من سورة آل عمران: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون»؛ وفي الآية 23 من سورة الأنفال: «ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون»؛ والآية 76 من سورة التوبة: «فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون».

وفي الآية 29 من سورة النجم، قال تعالى لرسوله الكريم: «فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا». فسر ابن عاشور هذه الآية بقوله: «بعد أن وصف مداركهم الباطلة وضلالهم فرّع عليه أمرَ نبيه ﷺ بالإعراض عنهم ذلك لأن ما تقدم من وصف ضلالهم كان نتيجة إعراضهم عن ذكر الله وهو التولّي عن الذكر فحق أن يكون جزاؤهم عن ذلك الإعراض إعراضا عنهم فإن الإعراض والتولي مترادفان أو متقاربان... والإعراض والتولي كلاهما مستعمل هنا في مجازه؛ فأما الإعراض فهو مستعار لترك المجادلة أو لترك الاهتمام بسلامتهم من العذاب وغضب الله، وأما التولي فهو مستعار لعدم الاستماع أو لعدم الامتثال». (ت. ع، ج27ص ص120-121)

واستطرد ابن عاشور في تفسير معنى الإعراض والتولي قائلا:

«وحقيقة الإعراض: لفت الوجه عن الشيء لأنه مشتق من العارض وهو صفحة الخد لأن الكاره لشيء يصرف عنه وجهه.

وحقيقة التولي: الإدبار والانصراف، وإعراض النبي ﷺ عنهم المأمور به مراد به عدم الاهتمام بنجاتهم لأنهم لم يقبلوا الإرشاد وإلا فإن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور بإدامة دعوتهم للإيمان... ومن لم يسبق منه إعراض من المشركين فإنهم يسمعون ما أنذر به المعرضون ويتأملون فيما تصفهم به آيات القرآن». (ت. ع، ج27ص121)

4 - أشكال أخرى للإعراض والتولي

بالإضافة إلى ما ورد من الآيات السابقة التي تشتمل على إما لفظ الإعراض أو التولي أو الاثنين معا، تضمن القرآن تسع آيات يحملن مفهوم الإعراض/التولي مع الاختلاف اللفظي.

فقد قال الله تعالى في الآية 101 من سورة البقرة: «ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون». فقد أعرض أهل الكتاب (اليهود) عن كتاب الله (التوراة) لاحتواه الدليل على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وورد في ست آيات ذكر الصدّ بمعنى الإعراض. إذ قال تعالى في الآية 99 من سورة آل عمران: «قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون»؛ وقال في الآية 61 من سورة النساء: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا»؛ وفي الآية 45 من سورة الأعراف: «الذين

يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون»؛ وقال تعالى في الآية 88 من سورة النحل: «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون»؛ وفي الآية 37 من سورة غافر: «أسباب السماوات فأطَّلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب».

وقال تعالى في الآية 157 من سورة الأنعام: «أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون». وصدف عنها: أعرض عنها.

ووصف الله سبحانه وتعالى في الآية الخامسة من سورة «المنافقون» كيفية الإعراض وصفا مفصلا يستشف منه أن الإعراض سلوك بصري ذو طابع إيمائي (لووا رؤوسهم) وقد تلازمه هيئة تعبر عن شعور داخلي بعلو المنزلة الاجتماعية أو التفوق بصفة عامة. قال تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون».

ونستشف الإعراض والتولي في الآيتين: 11 من سورة الحج و66 من سورة «المؤمنون»، من خلال السلوك الحركي الذي يتمثل في الإشاحة بالوجه أو الابتعاد، الذي يحول دون التواصل عبر قناة العين. قال تعالى في الآية 11 من سورة الحج: «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين»، وفي الآية 66 من سورة «المؤمنون»: «قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون».

المبحث التاسع

سلوك العين والسياق التواصلي

تفيد دراستنا - حتى الآن - للاتصال غير اللفظي عبر قناة العين في القرآن الكريم، بأن هذا الأخير مصدر مهم وغني بالمصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالسلوك البصري. الأمر الذي يؤكد أن الاتصال عبر العين يعد من أهم أشكال التواصل البشري. ومن أجل الاطلاع على مختلف أنواع السلوكات التواصلية المرتبطة بالعين والتي تم توصيفها في القرآن الكريم، نستعرض بعض المفاهيم والأوصاف الخاصة بسلوك العين، والسياق التواصلي الذي تتم فيه عملية الإبصار، علما بأن بعض المفاهيم قد وردت في سياق حديثنا السابق عن العين والبصر والنظر والرؤية والإعراض والتولي...

1 - الإحساس/الرؤية

ورد مفهوم الإحساس في الآية 98 من سورة مريم والآية 12 من سورة الأنبياء، بمعنى الرؤية (الإحساس البصري) الفعلية أي المشاهدة بالعين. قال

تعالى في سورة مريم: «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا»؛ وفي سورة الأنبياء: «فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون».

2 - ارتداد الطرف

أي النظر بكيفية طبيعية (بما يستلزم من حركة العينين والرمشين والحاجبين واتساع حدقة العين وانقباظها)، وعدم ارتداد الطرف يعني دوام الشخوص. قال تعالى في الآية 43 من سورة إبراهيم: «مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء».

ويرى ابن عاشور أن «ارتداد الطرف حقيقته: رجوع تحديق العين من جهة منظورة تَحُول عنها لحظة. وعبر عنه بالارتداد لأنهم يعبرون عن النظر بإرسال الطرف وإرسال النظر فكان الارتداد استعارة مبنية على ذلك». (ت. ع، ج19ص264). ويضيف الرازي معتمدا على الفهم الذي ساد عصره لعملية الرؤية على المستوى الفسيولوجي: «الطرف تحريك الأجفان عند النظر، فإذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد إلى المرئي، وإذا أغمضت الجفن فقد يتوهم أن ذلك النور ارتد إلى العين، فهذا هو المراد من ارتداد الطرف». (ت. ر، ج24م12ص199)

بناء على ما تقدم يتضح أن المقصود من قوله تعالى في الآية 40 من سورة النمل: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أي أنا آتيك به قبل أن ترمش (ومعلوم أن عملية الرمش تتم في جزء من الثانية).

3 - إرجاع البصر وانقلابه وخسوؤه وانحساره

أربعة مفاهيم بصرية وردت في الآيتين الثالثة والرابعة من سورة الملك.

قال تعالى: «الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير». فإرجاع البصر يعني إعادة النظر والرؤية، أي النظر مرة ثانية، وهو سلوك يهدف إلى التحقق من المرئيات بتلقى المزيد من البيانات التي قد لا تتوفر من النظرة الأولى، كما أنه دليل على الاهتمام.

وانقلاب البصر: رجوعه. وبما أننا لا يمكن أن نشبه البصر بمن يذهب ويرجع/يعود، فالمقصود هو اللحظة التي تؤدي فيها عملية الإبصار إلى تلقي بيانات ومعلومات ضافية مما لا يستدعى المزيد من النظرات.

يتحول البصر في مرحلة الانقلاب - ضمن سياق الآيتين السابقتين - من أداة إدراكية إلى أداة تعبيرية، عندما يبدو خاسئا أي صاغرا وخائبا، فالمعلومات المحصّلة كافية للإحساس بالخيبة. ونتيجة لهذه الخيبة يبدو البصر حسيرا، أي كليلا من جراء قوة التأمل والتحديق مع التكرير، فلا يجد ما أُغْري بالحرص على رؤيته بعد أن أدام التأمل والفحص. (ابن منظور ج1 ص65؛ ج4 ص187) (ت. ع، ج29 ص19)

4 - ازدراء العين

نظرها بكيفية تنم عن التحقير وتقليل الشأن. كأن ينظر المرء من أعلى إلى أسفل ليدلّل على وضاعة المَرْئي أو ينظر من التفاتة بطيئة مع تعبير وجهي يدل على الاشمئزاز. قال تعالى في الآية 31 من سورة هود: ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين﴾.

5 - الإزلاق بالبصر

وهو النظر الحاد الذي ينضح بغضا. وهو من التعابير الفريدة المفعمة بالبلاغة التي وردت في القرآن الكريم والتي تؤكد التأثير القوي للتواصل بالعين. ومعلوم أن العرب يعتبرون أن نظر العيون قد يقتل كما قال جرير:

إن العيون التي في طرفها حور　　　قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

ويقولون: نظر فلان إليّ نظرا كاد يأكلني وكاد يصرعني.

قال تعالى في الآية 51 من سورة القلم: «وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا» أي «أن الكفار من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم إليك نظر البغضاء أن يصرعوك.. وبعض المفسرين يذهب إلى أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن المعين». (ابن منظور، ج10 ص145)

6 - الاستئناس

آنس الشيء - كما وردت في المعجم اللغوي «لسان العرب» - تعني أحسّه. وآنس الشخص واستأنسه: رآه وأبصره ونظر إليه. ومنه قول الأعرابي:

بعَيْني لم تَستَأْنِسا يومَ غُبْرَةٍ　　　ولم تَردا جــوَّ العِــراقِ فَثَرْدَم

(ابن منظور، ج6 ص15)

قال تعالى في الآية السادسة من سورة النساء: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة طه: ﴿إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس﴾؛ وقال تعالى في الآية السابعة من سورة النمل: ﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر﴾؛ وفي

الآية 29 من سورة القصص: ﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا﴾.

7 - الاطـــلاع

وهو العلم بواسطة الرؤية. فلكي نطّلع على الشيء يجب أن نراه. وقد وردت إشارات في خمس آيات إلى هذا المعنى. إذ قال تعالى في الآية 13 من سورة المائدة: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا﴾؛ وفي الآية 38 من سورة القصص: «وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين»؛ وقال تعالى في الآيتين 54 و55 من سورة الصافات: «قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم»؛ وقال في الآية السابعة من سورة الهمزة: «التي تطّلع على الأفئدة».

8 - الإقـــبال

هو أن يصبح الشخص قبالة الآخر ويقترب منه حتى يتمكن من رؤيته، وهو من بين الأوضاع التي تساعد على تحقيق الرؤية. فالمقبل يتوفر لديه مدى واسع للرؤية الشاملة (البانوراميـة). قال تعالى في الآية 50 من سورة الصافات: «فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون»؛ وفي الآية 25 من سورة الطور: «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون»؛ والآية 30 من سورة القلم: «فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون».

9 - الالتفــات

يعني صـرف الوجـه - ومن ثم النظر - عن شيء مـا أو إليـه. و (الالتفـات إلى..) يكون دلالة على الاهتمام، و (الالتفات عن..) يدل على عدم الاهتمام أو التفـادي. قال تعـالى في الآية 78 من سـورة يونس: ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عمـا وجدنا عليه آباءنا﴾؛ وفي الآية 81 من سـورة هود: ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فـأسـر بـأهلك بقطع من الليل ولا يلتـفت منكم أحـد﴾؛ والآية 65 من سـورة الحـجـر: «فـأسـر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون».

10 - البَدْوُ - الإخفــاء

بدو الشيء ظهوره ليصبح مرئيا؛ والإخفاء يعني الإظهار كما يعني الكتمان وهو من الأضداد: «خفا الشيء خَفْواً: ظهر. خفى الشيء خَفْيا وخُفِيّا: أظهره واستخرجه.. وقرئ قوله تعالى: إن الساعة آتية أكاد أخفيها، أي أظهرها.. وخفيت الشيء أَخفيه: كتمته. وخفيته أيضا: أظهرته، وهو من الأضداد». (ابن منظور، ج14ص234) وقد وردت آيات عديدة تشير إلى البدو والإخفاء بمعنى الكتمان أو عدم الإظهار.

قال تعالى في الآية 271 من سورة البقرة: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾؛ وفي الآيتين 29 و118 من سورة آل عمران: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾، ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾؛ وفي الآيتين 108 و149 من سورة النساء: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾، «إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا»؛ وقال تعالى في الآيتين

28 و91 من سورة الأنعام: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾، ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا﴾؛ والآية 20 من سورة الأعراف: ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما﴾؛ والآية 121 من سورة طه: ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما﴾؛ وقال تعالى في الآية 47 و48 من سورة الزمر: «ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»، «وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون»؛ وكذا في الآية 33 من سورة الجاثية؛ والآية 18 من سورة الحاقة: «يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية».

وورد قوله تعالى ﴿أكاد أخفيها﴾ بمعنى أكاد أظهرها في الآية 15 من سورة طه، إذ قال: «إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى».

11 - برق البصر

ورد هذا التعبير الفريد في الآية السابعة من سورة القيامة، إذ قال تعالى: «فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر».

يقدم الإمام الرازي تفسيرا ضافيا لمعنى برق البصر فيقول: «قرئ ﴿برق﴾ بكسر الراء وفتحها، قال الأخفش المكسورة في كلامهم أكثر والمفتوحة لغة أيضا، قال الزجاج برِق بصره بكسر الراء يبرق برقا إذا تحير، والأصل فيه أن يكثر الإنسان إلى لمعان البرق، فيؤثر ذلك في ناظره، ثم يستعمل ذلك في كل حيرة، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق، كما قالوا قمر بصره إذا فسد من النظر إلى القمر، ثم استعير في الحيرة... وأما برَق بفتح

الراء، فهو من البريق، أي لمع من شدة شخوصه، وقرأ أبو السموأل بلق بمعنى انفتح». (ت. ر، ج30 م15 ص220)

وذكر الرازي اختلاف المفسرين في الوقت والمكان الذي تحدث فيه هذه الحالة: «قيل عند الموت، وقيل عند البعث وقيل عند رؤية جهنم، فمن قال إن هذا يكون عند الموت، قال إن البصر يبرق على معنى يشخص عند معاينة أسباب الموت والملائكة، كما يوّجد ذلك في كل واحد إذا قرب موته..». (ت. ر، ج30 م15 ص220)

12 - البـــــروز

يعني الظهور وتمكين الآخرين من الرؤية. فالرؤية الطبيعية تعتمد على انعكاس الضوء، والذي بدوره يتطلب أن يكون الجسم المرئي بارزا حتى يصل شعاع الضوء - الأصلي أو المنعكس - منه إلى عين الرائي. وقد وردت آيات عديدة تشير إلى بروز الأشياء والأشخاص مما يساعد على رؤيتهم من لدن الآخرين.

قال تعالى في الآية 250 من سورة البقرة: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده﴾؛ وفي الآية 154 من سورة آل عمران: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾؛ والآية 81 من سورة النساء: ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 21 و48 من سورة إبراهيم: ﴿وبرزوا لله جميعا﴾، «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار»؛ وفي الاية 47 من سورة الكهف: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾؛ وقال تعالى في آية 91 من سورة الشعراء: «وبرزت الجحيم للغاوين»؛ وفي الآية 16 من سورة غافر: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾؛ والآية 36 من سورة النازعات: «وبرزت الجحيم لمن يرى».

13 - تقلب الأبصـــار

أي اضطرابها عن مواضعها من الخوف والوجل. وفسر البعض أن أبصار الناس يوم القيامة، تنقلب من أي ناحية يؤمر بهم، أمن ناحية اليمين أم من ناحية الشمال؟ ومن أي ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الأيمان أم من قبل الشمائل؟ بصفة عامة يكون تقلب الأبصار دليلا على الحيرة وبحثا عما يبدد الشك والخوف.

قال تعالى في الآية 110 من سورة الأنعام: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون»؛ وقال في الآية 37 من سورة النور: «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار».

14 - تقلب الوجـــه

النظر المتعدد نحو جهة أو عدة جهات بحثا عن شيء ما دلالة على الانتظار والترقب. قال تعالى في الآية 144 من سورة البقرة: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾؛ وفي الآيتين 218 و219 من سورة الشعراء: «الذي يراك حين تقوم. وتقلبك في الساجدين».

15 - التــــواري

الاختفاء عن الأنظار. قال تعالى في الآيتين 58 و59 من سورة النحل: ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به﴾؛ وقال في الآية 32 من سورة ص: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب».

16 - الحَجْــبُ

الستر والحيلولة دون الرؤية بوضع حاجز. وهو وسيلة وقائية تهدف إلى حرمان الآخرين من الرؤية ومن ثم الاطلاع على ما يجب إخفاؤه. وقد وردت بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى معنى الحجب.

قال تعالى في الآية 46 من سورة الأعراف: ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾؛ وفي الآية 45 من سورة الإسراء: «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا»؛ والآية 17 من سورة مريم: «فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا»؛ وقال تعالى في الآية 53 من سورة الأحزاب: ﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾؛ والآية 32 من سورة ص: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب»؛ وفي الآية الخامسة من سورة فصلت: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾؛ وقال تعالى في الآية 51 من سورة الشورى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب﴾؛ والآية 15 من سورة المطففين: «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون».

17 - الحضــور - الغــياب

الحضور والغياب نقيضان، ينتج عن الأول إمكانية المشاهدة والرؤية وينتج عن الثاني انعدام الرؤية أو تعذرها. وقد وردت آيات عديدة يتبين منها العلاقة بين الحضور-الغياب والرؤية.

قال تعالى في الآية 282 من سورة البقرة: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾؛ وفي الآية 30 من سورة آل

عمران:﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محصرا﴾؛ والآية الثامنة من سورة النساء: ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾؛ وقال تعالى في الآية السابعة من سورة الأعراف: «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين»؛ وفي الآية 163 من سورة الأعراف: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة﴾؛ وفي الآية 49 من سورة الكهف: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾؛ والآية 68 من سورة مريم: «فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا»؛ وقال تعالى في الآية 98 من سورة «المؤمنون»: «وأعوذ بك رب أن يحضرون»؛ وفي الآيتين 20 و75 من سورة النمل: «وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين»، «وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين»؛ والآية 61 من سورة القصص: ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 32 و53 من سورة يس: «وإن كل لما جميع لدينا محضرون»، «إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون»؛ وفي الآيات 57 و127 و158 من سورة الصافات: «ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين»، «فكذبوه فإنهم لمحضرون»، «وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون»؛ وفي الآية 29 من سورة الأحقاف: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾؛ والآية 28 من سورة القمر: «ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر»؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة التكوير: «علمت نفس ما أحضرت»؛ والآية 16 من سورة الانفطار: «وما هم عنها بغائبين».

18 - خشــوع البصر

قال ابن منظور صاحب «لسان العرب» في مادة «خشع»:

«خشَع يَخْشَعُ خُشوعا واخْتَشَع وتَخَشَّعَ: رمى بصره نحو الأرض وغَضَّه.. وقوم خُشَّع: مُتَخَشِّعُون. وخشع بصرُه: انكسر، ولا يقال اختشع؛ قال ذو الرمة:

تَجَلَّى السُّرى عن كل خِرْقٍ كأنه صفيحةُ سيفٍ، طَرْفُه غيرُ خاشع».

(ابن منظور، ج8 ص71)

وقد ورد خشوع البصر في أربع آيات، بدءاً بالآية السابعة من سورة القمر، إذ قال تعالى: «خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر»؛ وقال تعالى في الآية 43 من سورة القلم: ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾؛ وكذا في الآية 44 من سورة المعارج؛ وقال تعالى في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة النازعات: «قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة».

ويعتبر خشوع البصر من المظاهر السلوكية المهمة في التواصل غير اللفظي بالعين. فهو يعطي مؤشرات قوية عن الحالة البدنية والعاطفية التي يوجد فيها الشخص الناظر. وهو سلوك دفاعي يلجأ إليه الشخص أثناء تعرضه للتقريع واللوم، ووسيلة فعالة في التعبير عن الخجل والاحتشام والخشوع. وخشوع البصر من بين آداب الصلاة. روى الإمام مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لينتهينّ أقوام عن رفع أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء، أو لتُخْطَفَنَّ أبصارُهم». (المنذري، ص112)

19 - دوران العين

قال تعالى في الآية 19 من سورة الأحزاب: ﴿أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾. يقول ابن عاشور: «معنى ﴿تدور

أعينهم﴾ أنها تضطرب في أجفانها كحركة الجسم الدائرة من سرعة تتقلها محملقة إلى الجهات المحيطة». (ت. ع، ج21ص219)

إن دوران العين حالة سلوكية تحدث عند الخوف المرتبط باليأس، فتدور العين – مع فتح كامل للجفنين – وتفقد تركيزها وقدرتها على الرؤية الواضحة.

20 - الرقابـــة

الرقابة تدل على المعاينة والمشاهدة والرقيب هو الشاهد الذي يرى بعينيه. قال تعالى في الآية الأولى من سورة النساء: ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾؛ وفي الآية 117 من سورة المائدة: ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾؛ وقال تعالى في الآية 52 من سورة الأحزاب: «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا»؛ والآية 18 من سورة ص: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد».

21 - زيغ البصر

أن يميل عن سننه وينحرف «فلا يرى ما يتوجه إليه، أو أن يريد التوجه إلى صوب فيقع إلى صوب آخر من شدة الرعب والانذعار». (ت. ع، ج21 ص204).

قال تعالى في الآية العاشرة من سورة الأحزاب: «إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا»؛ وفي الآية 63 من سورة ص: «أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار»؛ والآية 17 من سورة النجم: «ما زاغ البصر وما طغى».

22 - سُكْـرُ البصـر

قال تعالى في الآية 15 من سورة الحجر: «لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون». يقدم الفخر الرازي تفسيرا ضافيا لهذه الآية يبين لنا المقصود من سكر البصر، إذ يقول:

«قرأ ابن كثير ﴿سكرت﴾ بالتخفيف، والباقون مشددة الكاف قال الواحدي سكرت غشيت وسددت بالسحر هذا قول أهل اللغة قالوا: وأصله من السكر وهو سد الشق لئلا ينفجر الماء، فكأن هذه الأبصار منعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجري، والتشديد يوجب زيادة وتكثيرا، وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مأخوذ من سكر الشراب يعني أن الأبصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثلما يقع بالرجل السكران من تغير العقل، فإذا كان هذا معنى التخفيف فسكرت بالتشديد يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد مرة بعد أخرى، وقال أبو عبيدة ﴿سكرت أبصارنا﴾ أي غشيت أبصارنا فوجب سكونها وبطلانها، وعلى هذا القول أصله من السكون يقال: سكرت الريح سكرا إذا سكنت وسكر الحر يسكر وليلة ساكرة لا ريح فيها وقال أوس:

جذلت على ليلة ساهرة   فليست بطلق ولا ساكرة

ويقال: سكرت عينه سكرا إذا تحيرت وسكنت عن النظر وعلى هذا المعنى: سكرت أبصارنا. أي سكنت عن النظر وهذا القول اختيار الزجاج. وقال أبو علي الفارسي: سكرت صارت بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الأشياء على حقائقها، وكان معنى السكر قطع الشيء عن سننه الجارية، فمن ذلك تسكير الماء وهو رده عن سننه في الجريان، والسكر في الشراب هو أن ينقطع عما كان عليه من المضاء في حال الصحو فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه في الصحو». (ت. ر، ج19 م10 ص176)

23 - شخوص البصر

يقال: شخص بصر الرجل إذا بقيت عينه مفتوحة لا يطرفها، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة وسقوط القوة (ت. ر، ج19 م10 ص149). وقد ورد شخوص البصر في آيتين من القرآن الكريم. إذ قال تعالى في الآية 42 سورة إبراهيم: «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار»؛ وفي الآية 97 من سورة الأنبياء: ﴿واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾.

24 - صرف البصر

أي توجيهه نحو شيء أو شخص ما. قال تعالى في الآية 47 من سورة الأعراف: «وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين».

25 - الصَّغار

وهو الذل والضيم الذي يبدو على الهيئة بصفة عامة وفي النظر بصفة خاصة. قال تعالى في الآية 124 من سورة الأنعام: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾؛ وقال في الآيتين 13 و119 من سورة الأعراف: «قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين». «فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين»؛ وفي الآية 29 من سورة التوبة: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»؛ وقال تعالى في الآية 32 من سورة يوسف: ﴿ولئن لم يفعل

ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾؛ والآية 37 من سورة النمل: «ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون».

26 - غض البصر

هو صرف المرء بصره عن التحديق وتثبيت النظر. ويكون من الحياء أو المذلة. قال تعالى في الآيتين 30 و31 من سورة النور: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾.

يفسر ابن عاشور غض البصر الذي ورد في الآيتين بقوله: «لما كان الغض التام لا يمكن جيء في الآية بحرف ﴿من﴾ الذي هو للتبعيض إيماء إلى ذلك إذ من المفهوم أن المأمور بالغض فيه هو ما لا يليق تحديق النظر إليه». (ت.ع، ج18 ص163)

واستطرد الفخر الرازي في ورود (من)، قائلا: «قال الأكثرون من ههنا للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل، وجوز الأخفش أن تكون مزيدة، ونظيره ﴿ما لكم من إله غيره﴾... وأباه سيبويه... ومنهم من قال ﴿يغضوا من أبصارهم﴾ أي ينقصوا من نظرهم، فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض ممنوع عنه، وعلى هذا ﴿من﴾ ليست بزائدة ولا هي للتبعيض بل هي من صلة الغض يقال غضضت من فلان إذا نقصت من قدره». (ت. ر، ج23 م12 ص203)

27 - الغفلة والتغافل

وهو التَّركُ والسهو. وفي حالة النظر، يكون بفقدان العينين لتركيزهما

وانتباههما. وقد وردت آيات عديدة تشير إلى الغفلة والتغافل الفعلي أو المجازي. إذ قال تعالى في الآيات 74 و85 و140 و144 و149 من سورة البقرة والآية 99 من سورة آل عمران: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾، ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾؛ وقال تعالى في الآية 102 من سورة النساء: ﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾؛ وفي الآيتين 131 و156 من سورة الأنعام: «ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون»، «أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين»؛ وقال تعالى في الآيتين 136 و146 من سورة الأعراف: ﴿وكانوا عنها غافلين﴾، وفي الآيات و172 و179 و205 : ﴿شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾، «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون»، «واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين»؛ وقال تعالى في الآيات 7و29 و92 من سورة يونس: ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾، «فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين»، ﴿إن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾.

وقال تعالى في الآية 123 من سورة هود: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾؛ وفي الآيتين 3 و13 من سورة يوسف: «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين»، ﴿أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾؛ وفي الآية 42 من سورة إبراهيم: ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون﴾؛ وقال تعالى في الآية 108 من سورة النحل: «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون»؛ والآية 39 من سورة مريم: ﴿وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 1 و97 من سورة الأنبياء: «اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون»،

«واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين»؛ وفي الآية 17 من سورة المؤمنون: ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾؛ والآية 23 من سورة النور: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ وقال تعالى في الآية 93 من سورة النمل: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾؛ وفي الآية 15 من سورة القصص: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾؛ وقال تعالى في الآية السابعة من سورة الروم: ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾؛ وفي الآية السادسة من سورة يس: «لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون»؛ والآية الخامسة من سورة الأحقاف: ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾؛ وقال تعالى في الآية 22 من سورة ق: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك﴾.

28 - الغمــــز

الغمز: الإشارة بالعين والحاجب والجفن (ابن منظور، ج5 ص388) وهو سلوك إيمائي رامز تقوم به العين لتوصيل رسالة كاملة لا تحتاج إلى الكلام. وقد ورد الغمز في الآية 30 من سورة المطففين في وصف سلوكات المشركين تجاه المؤمنين: «وإذا مروا بهم يتغامزون». وقد ورد التغامز على صيغة التفاعل، مما يدل على أنه سلوك متبادل بين المشركين يستخدمون فيه إشارات متداولة ومفهومة من لدنهم.

29 - قصــر الطــرف

قصر الطرف: كفّ النظر واقتصاره على شخص أو شيء محددين. قال تعالى في الآية 48 من سورة الصافات: «وعندهم قاصرات الطرف عين»؛ وفي الآية 52

من سورة ص: «وعندهم قاصرات الطرف أتراب»؛ والآية 56 من سورة الرحمن: «فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان». وحور الجنة قاصرات الطرف هن اللائي لا ينظرن إلا إلى أزواجهن دلالة على العفة والحياء.

30 - ليُّ الرأس

وهو سلوك إيمائي يستخدم عند الإعراض وتجنب النظر للآخرين. وقد ورد في الآية الخامسة من سورة «المنافقون»، إذ قال تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون». ويتبين ومن خلال ترتيب الألفاظ في الآية، أن ليَّ الرأس يكون الخطوة الأولى في عملية الإعراض والصد، فيُتْبَع بالابتعاد الذي يحمل في طياته الاستكبار.

31 - لمح البصر

أي اختلاس النظر. واللمحة: النظرة العاجلة. ويشبه العرب لمح البصر بلمع البرق. ولمحه وألمحه والتمحه إذا أبصره بنظر خفيف. (ابن منظور، ج2 ص584) ولمح البصر ذو ارتباط بارتداد الطرف الذي تحدثنا عنه سابقا. فارتداد الطرف هو سلوك يتم أثناء لمحنا للأشياء. وقد وردت آية واحدة تشير إلى لمح البصر. قال تعالى في الآية 50 من سورة القمر: «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر».

فسر الإمام الرازي المراد من تشبيه إرادة الله في الخلق بلمح البصر، وأرجع ذلك لاحتمالين: «أولهما.. أن النظر بالعين أسرع حركة توجد في الإنسان لأن العين فيها أمور تعين على سرعة الحزكة.. وثانيهما، اللمح بالبصر معناه البرق يخطف بالبصر ويمر به سريعا والباء حينئذ للإلصاق لا للاستعانة كقوله مررت

به وذلك في غاية السرعة، وقوله ﴿بالبصر﴾ فيه فائدة وهي غاية السرعة فإنه لو قال كلمح البرق حين برق ويبتدئ حركته من مكان وينتهي إلى مكان آخر في أقل زمان يفرض لصح، لكن مع هذا فالقدر الذي مروره يكون بالبصر أقل من الذي يكون من مبتداه إلى منتهاه، فقال ﴿كلمح﴾ لا كما قيل من المبدأ إلى المنتهى بل القدر الذي يمر بالبصر وهو غاية القلة ونهاية السرعة». (ت. ر، ج15 ص78) ولعل كلام الرازي الأخير يعني به أن لمح البصر يتم بسرعة الضوء وهي أكبر سرعة يعرفها الإنسان إلى الآن.

32 - مد العـــين

أُستعير المدّ هنا إلى التحديق بالنظر والطموح به تشبيها له بمد اليد للمتناول. (ت. ع، ج13ص65) ويكون المرء مادا عينيه إلى شيء إذا أدام النظر، وإدامة النظر إلى الشيء تدل على استحسانه وتمنيه. (ت. ر، ج19م10ص220) قال تعالى في الآيتين 88 من سورة الحجر وفي الآية 131 من سورة طه: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم﴾.

33 - النبــــذ

يفيد الترك والإعراض والرمي وراء الظهر بسبب الاستغناء وقلة الالتفات.

قال تعالى في الآيتين 100 و101 من سورة البقرة: «أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون»؛ وفي الآية 187 من سورة آل عمران: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون»؛

والآية 58 من سورة الأنفال: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين»؛ وقال تعالى في الآيتين 16 و22 من سورة مريم: «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا»، «فحملته فانتبذت به مكانا قصيا»؛ وفي الآية 96 من سورة طه: ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها﴾؛ والآية 40 من سورة القصص: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾؛ وقال تعالى في الآية 145 من سورة الصافات: «فنبذناه بالعراء وهو سقيم»؛ وفي الآية 40 من سورة الذاريات: «فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم»؛ والآية 49 من سورة القلم: «لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم»؛ والآية الرابعة من سورة الهمزة: «كلا لينبذن في الحطمة».

34 - النعـــاس

النعاس: الوسن. وهو مرحلة تسبق النوم تذبل فيها العينان، ويكاد الجفنان أن يطبقا. قال تعالى في الآية 154 من سورة آل عمران: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم﴾؛ وفي الآية 11 من سورة الأنفال: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾.

35 - اليقظـة - الرقـــاد

هما متضادان. الأول يعني الصحو والثاني النوم. والعلامة البارزة لليقظة: العينان المفتوحتان، والعلامة البارزة للرقاد: العينان المغمضتان. وقد ورد ذكر اليقظة والرقاد في الآية 18 من سورة الكهف إذ قال تعالى: ﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود﴾. قيل إن أعينهم كانت مفتوحة لذا يحسبهم من يراهم أنهم في حالة يقظة.

المبحث العاشر

العمى

إذا كان العمى هو المقابل السلبي للتواصل البصري، وهو إحدى الحالات التي قد تفقد فيها العين القدرة على الرؤية بصفة دائمة، فإن ذكره في القرآن يكتسي أهمية قصوى في معرفة المكانة الرفيعة التي يحتلها الاتصال بالعين ضمن مجمل التواصل البشري. إذ يكفي أن العمى يحرم الإنسان من إدراك معظم الدلالات التي بثها الخالق في كونه الواسع الذي يعج بالمدركات البصرية التي لا حصر لها. فضلا عن كونه يصعِّب حياة الإنسان ويحد من حركته ويحرمه من الفعالية الكاملة لبعض قنوات التواصل غير اللفظي التي تعمل بتنسيق مع قناة العين (كالإيماء وبعض أوضاع الجسم والمظهر).

لقد تضمن القرآن الكريم 30 آية يشير بعضها إلى العمى بمعناه الحقيقي، والبعض الآخر يستعير لفظ العمى للتعبير عن حالات ومفاهيم تلتقي مع المعنى السلبي للعمى المتمثل في العجز عن أمور كثيرة يحتاجها العقل اللبيب.

ذكر الله العمى الفعلي في كتابه العزيز في ثلاث آيات. إذ قال تعالى في الآيتين: 61 من سورة النور و17 من سورة الفتح: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾؛

وقال تعالى في الآية الثانية من سورة عبس: «عبس وتولى. أن جاءه الأعمى». ولكل آية من الآيات الثلاث مناسبة مختلفة وقصة مختلفة تبين الإشكالية التواصلية التي يتسبب فيها العمى على الصعيد الفردي والمجتمعي.

ففي سورة النور، ذكر المفسرون أن الآية 61 أُنزلت ترخيصا للمسلمين في الأكل مع العميان والعرجان والمرضى، من أجل أنهم كانوا يحظرون الأكل مع هؤلاء الأصناف الثلاثة، فالله سبحانه وتعالى رفع ذلك الحظر والحرج. وقد أرجع بعض المفسرين سبب تحرج المسلمين في الأكل مع الأعمى - بصفة خاصة - لأنه لا يبصر الطعام الجيد فلا يأخذه، أو أنه هو من ترك مواكلة الأصحاء لاعتقاده - بحكم كونه لا يرى الطعام - ربما أخذ الأجود وترك الأردأ. (ت. ط، ج9 ص351) (ت. ر، ج12 ص36).

ونستشف في هذه الآية مدى المعاناة الاجتماعية - والتي تنعكس على الجانب النفسي - التي قد يلاقيها الأعمى بسبب فقدان البصر. وهذه المعاناة قد تتبلور في التمييز السلبي الذي يجعل من الأعمى عالة على المجتمع، لذا نبه الإسلام إلى سلبيات مثل هذا التمييز.

أما سياق الآية 17 من سورة الفتح، فهو يتحدث عن مدى قدرة فاقد البصر على القتال، الذي يحتاج - بالإضافة إلى القوة البدنية - إلى القدرة على المناورة البصرية التي تساعد على إصابة الهدف والكر والفر الأمر الذي لا يتوفر لدى الأعمى، لذا ساق الله تعالى العذر للأعمى وأعفاه عن الخروج للقتال لأسباب عضوية بحتة وهذا العذر ينبغي للمجتمع أن يأخذ به في جميع الأنشطة التي تحتاج إلى الإدراك البصري. إذن أهمية فقدان البصر تمثلت في إعفاء الأعمى من فريضة الجهاد بخوض المعارك.

وتبين لنا الآية الثانية من سورة عبس مدى الرعاية التي يجب أن تعطى للمعاقين حتى لا يحسوا بالدونية، لأن الله قد يمنحهم ما يعوضون به النقص العضوي.

تحدث القرآن الكريم عن العمى الفعلي (فقدان القدرة على الإبصار) في الآخرة، باعتباره شكلا من أشكال العقاب الذي يلحقه الله بعباده الضالين. قال تعالى في الآية 97 من سورة الإسراء: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا﴾. «أي يُحشرون حال كونهم عميا وبكما وصما يعني فاقدي الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ثم يردُّ الله إليهم أسماعهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم». (ت. ص، ج2 ص98)

وفي سورة طه دليل واضح على معاقبة الله تعالى عباده الضالين بإفقادهم حاسة البصر في الآخرة ليتفاقم عذابهم. قال تعالى في الآيتين 124 و125: «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا». وكذا الآية 23 من سورة محمد، إذ قال تعالى: «أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم».

إن أهمية العمى - كما ورد في القرآن - تكمن في استخدامه كمشبّه به سلبي اقترن بالكفر والضلال. وتتجلى أهميته في كونه دليلا على أن الكفر والضلال ناتج عن أزمة في التواصل. فالكافر عاجز عن إدراك عظمة الخالق بينما الدلائل في نفسه ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ تحيط به من كل جانب، وكأنه أعمى عاجز عن إدراك المبصرات. فقد وردت آيات عديدة يشبّه الله تعالى فيها المشرك والكافر والضال والمنافق بالأعمى والأصم والأبكم، ليس على المستوى العضوي، وإنما على المستوى الوظيفي. أي إن الإشكالية ليست في فقدان البصر، وإنما فيما يترتب عليه ذلك من حرمان معرفي، لذا شبههم بفاقد البصر العاجز عن معرفة الأشياء والتفكر فيها واستيعابها، على الرغم من توفرهم على كامل الأعضاء الحسية التي تعمل دون أن تحقق الغاية المرجوة منها. والآية 46 من سورة الحج تبين هذه الإشكالية، إذ قال تعالى:

«أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

ولكي يبين الله قوة التشبيه، وردت بعض الآيات في صيغة تساؤلية تأكيدية لتثبيت الفرق بين الأعمى والبصير اللذين لا يتساويان على الصعيد الإدراكي. قال تعالى في الآية 50 من سورة الأنعام: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾؛ وفي الآية 24 من سورة هود: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا﴾؛ والآية 16 من سورة الرعد: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾؛ وقال تعالى في الآية 19 من سورة فاطر: «وما يستوي الأعمى والبصير»؛ وقال في الآية 58 من سورة غافر: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾.

وصف الله المشركين والكفار والضالين بالعمى في الآيتين 18 و171 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «صم بكم عمي فهم لا يرجعون»، «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون»؛ وقال تعالى في الآية 64 من سورة الأعراف: «فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين»؛ وفي الآية 72 من سورة الإسراء: «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا» أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير، فهو في الآخرة أشد عمىً وأشد ضلالا عن طريق السعادة والنجاة. (ت. ص، ج2ص170) وقال تعالى في الآية 73 من سورة الفرقان: «والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخرُّوا عليها صما وعميانا»؛ وقال في الآية 66 من سورة النمل: «بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون».

ونستشف من الآيات التالية إلى أي مدى يكون الضلال شبيها بالعمى:

قال تعالى في الآية 81 من سورة النمل: ﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾؛ وقال مثلها في الآية 53 من سورة الروم: ﴿وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 40 من سورة الزخرف: «أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين».

ويتبين من خلال الآية 71 من سورة المائدة المغزى التواصلي في تشبيه الكفر والعصيان بالعمى الوظيفي أي عدم القدرة على الإدراك والاستيعاب والتفكّر في المدركات البصرية. قال تعالى: ﴿وحسبوا الا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا ﴾؛ ونجد في الآيات التالية المزيد من التأكيد على أن العمى هو خير نعت للحالة التواصلية مع الخالق التي ينتج عنها سلوك يتمثل في الكفر والضلال والمعصية بمختلف أشكالها. قال تعالى في الآية 104 من سورة الأنعام: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾؛ وفي الآية 43 من سورة يونس: «ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون»؛ وقال تعالى في الآية 19 من سورة الرعد:﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾؛ وفي الآية 17 من سورة فصلت: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾.

ونختم حديثنا عن مفهوم العمى في القرآن الكريم بالتطرق لثلاث آيات تضمنت الأولى والثانية العمى بمعنى الالتباس والاشتباه، وتضمنت الثالثة العمى بمعنى عدم الاهتداء.

قال تعالى في الآية 28 من سورة هود: «قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون».

يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية:

«﴿فعميت عليكم﴾ أي صارت مظنة مشتبهة ملتبسة في عقولكم.. والمراد أني لا أقدر على ذلك البتة... وحاصل الكلام أنهم لما قالوا ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ ذكر نوح عليه السلام أن ذلك بسبب أن الحجة عميت عليكم واشتبهت، فأما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم في الدليل لظهر المقصود، وتبين أن الله تعالى آتانا عليكم فضلا عظيما». (ت. ر، ج17 م9 ص222)

ويستطرد الرازي قائلا: «قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿فعُمّيت عليكم﴾ بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله، بمعنى ألبست وشبهت والباقون بفتح العين مخففة الميم، أي التبست واشتبهت. وأعلم أن الشيء إذا بقي مجهولا محضا أشبه المعمى، لأن العلم نور البصيرة الباطنة. والأبصار نور البصر الظاهر. فحسن جعل كل واحد منها مجازا عن الآخر وتحقيقه أن البينة توصف بالأبصار. قال تعالى ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ وكذلك توصف بالمعمى، قال تعالى (فعميت عليهم الأنباء﴾ وقال في هذه الآية (فعميت عليكم﴾». (ت. ر، ج17م9ص222) وفي معنى مشابه، وردت الآية 66 من سورة القصص، إذ قال تعالى: «فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون».

وقال تعالى في الآية 44 من سورة فصلت: ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾. يقول الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿وهو عليهم عمى﴾: «هذا القرآن على قلوب المكذبين به عمًى عنه، فلا يبصرون حججه عليهم، وما فيه من مواعظ». (ت. ط، ج11ص119) ويستطرد ابن عاشور: «العمى: عدم البصر وهو مستعار هنا لضد الاهتداء

فمقابلته بالهدى فيها محسِّن الطِّباق. والإسناد إلى القرآن على هذا الوجه في معاد الضمير بأنه عليهم عمًى من الإسناد المجازي لأن عنادهم في قبوله كان سببا لضلالهم فكان القرآن سَبَبَ سببٍ.. وإنما علق العمى بالكون على ذواتهم لأنه لما كان عمى مجازيا تعين أن مصيبته على أنفسهم كلها لا على أبصارهم خاصة فإن عمى البصائر أشد من عمى الأبصار». (ت. ع، ج25ص78)

الفصل الثاني

التعبيرات الوجهية

لقد حظيت التعبيرات الوجهية بأكبر قدر من الدراسة العلمية المنهجة، مقارنة ببقية قنوات الاتصال غير اللفظي. كما أن دراسة التعبيرات الوجهية من لدن العلماء، سبقت غيرها، إذ تعود أول دراسة علمية للتعبيرات الوجهية إلى العام 1872 مع العالم البريطاني شارلس دارون، ووصلت ذروتها مع بول إكمان وزملائه بدءا من منتصف ستينات القرن الماضي.

ويعود الاهتمام بدراسة الرسائل الاتصالية الصادرة من منطقة الوجه، إلى كون هذه المنطقة تشتمل على أبرز قنوات الاتصال بشقيه اللفظي وغير اللفظي. إذ يكفي أن يتضمن الوجه الفم باعتباره المعبر الرئيس للغة اللفظية؛ والعينين وما يلازمهما من حاسة البصر التي يتلقى الإنسان من خلالها كما هائلا من البيانات والمعلومات. بالإضافة إلى ذلك، يمثل الوجه الواجهة التواصلية الأولى التي يعبّر بها الإنسان عن وجوده، قبل أن يستخدم القنوات الأخرى. فعندما يرغب الإنسان في التعبير عن اختفائه أو غيابه الجسدي أو

المعنوي، فإنه يبدأ بإخفاء وجهه سعيا منه لإخفاء هويته عن الآخرين.

ونستشف أهمية التعبيرات الوجهية ضمن الاتصال البشري، في القرآن الكريم، من خلال الآيات التي بالرغم من عددها القليل نسبيا، إلا أنها في غاية الأهمية وتضيف الكثير لعلم الاتصال غير اللفظي.

إذ نجد في القرآن الكريم بعض القضايا التي شغلت بال البحوث العلمية الحديثة، كالنقاش الدائر حول مدى عالمية التعبيرات الوجهية، وهل هي فطرية أم مكتسبة؛ وقدرة الوجه على التعبير عن العواطف المختلفة؛ وإلى أي مدى يمكن الأخذ بالرسائل الاتصالية الناتجة عن التعبيرات الوجهية، ومدى مسؤولية من يصدر هذه الرسائل، الأمر الذي قد يعرضه للمحاسبة.

يتضمن هذا الفصل أربعة مباحث، متكاملة فيما بينها. إذ يتطرق المبحث الأول للوجه البشري كما ورد في القرآن الكريم، والمقصود بوجه الله.

أما المبحث الثاني، فيهتم بملامح الوجه التي تشكل مصدرا دائما للرسائل الاتصالية، بغض النظر عن قيام صاحب الوجه بسلوك تعبيري، وبهذا تقترب ملامح الوجه من الاتصال بالمظهر الذي سندرسه في الفصل الثامن.

ونخصص المبحث الثالث للتعبيرات الوجهية التي تصدر عن الوجه، باستخدام الـ20 ألف عضلة المتواجدة به، في إرسال كم هائل من الرسائل الاتصالية. وقد تم إحصاء 13 تعبيرا وجهيا ورد ذكره في القرآن الكريم.

ويتطرق المبحث الأخير لعلاقة الوجه بالتعبير عن العواطف البشرية الرئيسة كالحزن والخوف والفرح والغضب والاشمئزاز.

المبحث الأول

الوجـــــه

يتضمن الوجه أهم ثلاث قنوات اتصال يمتلكها الكائن البشري، الا وهي الفم (الكلام) والعينان (الإبصار) والأنف (الشم)، وينضاف إلى هذه القنوات الثلاث، جلد الوجه (اللمس). وهو - بذلك - يستحق أن يكون الواجهة التي يطل الإنسان من خلالها على العالم من حوله. والوجه أبرز معبّر عن هوية الإنسان لما يحمل من ملامح تميز الفرد عن غيره من الأفراد. وقد خصّه الخالق جل شأنه بالتمييز يوم القيامة بين أصحاب الجنة (يوم تبيضّ وجوه/وجوه يومئذ ناضرة) وأصحاب النار (يوم تسودّ وجوه/وجوه يومئذ باسرة).

والوجه في اللغة العربية هو المحيّا. ووجه كل شيء: مستقبله أي المكان الذي يقْبِل ويطل منه على الآخرين، لذا غالبا ما يناط به - أي الوجه - مهمة التعبير عن الكائن الذي يمثله. هكذا نجد أن وجه الإنسان هو خير معبر عن العواطف والانفعالات التي تجيش بداخله، بالإضافة إلى الحالة الصحية التي تعتريه.

أما في القرآن الكريم، فقد ورد الوجه بمعانيه المتعددة، الحقيقي منها والمجازي، والوجه كقناة للتعبير عن العواطف والانفعالات، ووردت عدة آيات تشير إلى عواطف وانفعالات يقوم الوجه بدور رئيس في التعبير عنها، وإن لم يُذْكَر صراحة، فضلا عن البعد الاتصالي للملامح التي تبدو على الوجه وتَسِمه وتميّزه عن غيره من الوجوه، وسنتطرق إلى هذه الأمور في المباحث اللاحقة.

وإبرازا للمكانة الرفيعة التي يحتلها الوجه، فقد نسب الله سبحانه وتعالى صفة الوجه إلى ذاته. إذ وردت 11 آية تشير إلى وجه الله.

قال تعالى في الآيتين 115 و272 من سورة البقرة: «ولله المشرق والمغرب فأين ما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم»، «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون»؛ وفي الآية 52 من سورة الأنعام: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين»؛ والآية 22 من سورة الرعد: «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار»؛ وقال تعالى في الآية 28 من سورة الكهف: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا»؛ وفي الآية 88 من سورة القصص: «ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون»؛ وفي الآيتين 38 و39 من سورة الروم: «فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون. وما آتيتم من ربا ليربو في أموال

الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون»؛ وقال تعالى في الآية 27 من سورة الرحمن: «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»؛ وفي الآية التاسعة من سورة الإنسان: «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا»؛ والآية 20 من سورة الليل: «إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى».

وقد اختلف المفسرون في المراد بقوله ﴿وجه الله﴾. إذ أوّل بعضهم قوله ﴿فثم وجه الله﴾: «فثم قِبْلَة الله، يعني بذلك وجهه الذي وجههم إليه.. وقال آخرون: فثم الله تبارك وتعالى.. وقال آخرون: فثم تدركون بالتوجه إليه رضا الله الذي له الوجه الكريم.. وقال آخرون عني بـ «الوجه» ذا الوجه. وقال قائلو هذه المقالة: وجه الله صفة له». (ت. ط، ج1 ص553)

ونفى الرازي التجسيم قائلا: «لو كان الله تعالى جسما وله وجه جسماني لكان وجهه مختصا بجانب معين وجهة معينة». (ت. ر، ج4م2ص24) ورأى الحل في تأويل قوله تعالى ﴿وجه الله﴾: فقدم أربعة تأويلات: «الأول، أن إضافة وجه الله كإضافة بيت الله وناقة الله، والمراد منها الإضافة بالخلق والإيجاد على سبيل التشريف، فقوله: ﴿فثمّ وجه الله﴾ أي: فثم وجهه الذي وجهكم إليه لأن المشرق والمغرب له بوجهيهما، والمقصود من القِبلة إنما يكون قبلة لنصبه تعالى إياها فأي وجه من وجوه العالم المضاف إليه بالخلق والإيجاد نصبه وعينه فهو قبلة؛ الثاني، أن يكون المراد من الوجه القصد والنية.. ونظيره قوله تعالى ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾؛ والثالث، أن يكون المراد منه فثم مرضاة الله، ونظيره قوله تعالى ﴿إنما يطعمكم لوجه الله﴾ يعني لرضوان الله، وقوله ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ يعني ما كان لرضا الله، ووجه الاستعارة أن من أراد الذهاب إلى إنسان فإنه لا يزال يقرب من وجهه وقدامه، فكذلك من يطلب مرضاة أحد

فإنه لا يزال يقرب من مرضاته.. والرابع، أن الوجه صلة كقوله ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ ويقول الناس هذا وجه الأمر لا يريدون به شيئا آخر غيره إنما يريدون به أنه من ههنا ينبغي أن يقصد هذا الأمر». (ت. ر، ج4 م2 ص ص24-25)

وأبرز الإمام الرازي الحكمة في قوله تعالى ﴿ويبقى وجه ربك﴾ في الآية 27 من سورة الرحمن، قائلا:

«.. ما السبب في حسن إطلاق لفظ الوجه على الذات؟ نقول إنه مأخوذ من عرف الناس، فإن الوجه يستعمل في العرف لحقيقة الإنسان، الا ترى أن الإنسان إذا رأى وجه غيره يقول رأيته، وإذا رأى غير الوجه من اليد والرجل مثلا لا يقول رأيته، وذلك لأن اطلاع الإنسان على حقائق الأشياء في أكثر الأمر يحصل بالحس، فإن الإنسان إذا رأى شيئا علم منه ما لم يكن يعلم حال غيبته، لأن الحس لا يتعلق بجميع المرئي وإنما يتعلق ببعضه، ثم إن الحس يدرك والحدس يحكم فإذا رأى شيئا بحسه يحكم عليه بأمر بحدسه، لكن الإنسان اجتمع في وجهه أعضاء كثيرة كل واحد يدل على أمر، فإذا رأى الإنسان وجه الإنسان حكم عليه بأحكام ما كان يحكم بها لولا رؤيته وجهه، فكان أدل على حقيقة الإنسان وأحكامه من غيره، فاستعمل الوجه في الحقيقة في الإنسان ثم نقل إلى غيره من الأجسام، ثم نقل إلى ما ليس بجسم، يقال في الكلام هذا وجه حسن وهذا وجه ضعيف، وقول من قال إن الوجه من المواجهة كما هو المسطور في البعض من الكتب الفقهية فليس بشيء إذ الأمر على العكس، لأن الفعل من المصدر والمصدر من الاسم الأصلي وإن كان بالنقل، فالوجه أول ما وضع للعضو ثم استعمل واشتق منه غيره، ويعرف ذلك العارف بالتصريف البارع في الأدب». (ت. ر، ج 29م 15ص107)

ويتجلى لنا من خلال هذا الاقتباس، مدى إلمام الإمام الرازي وخبرته

الحياتية، بالأهمية التواصلية للوجه باعتباره أحد قنوات الاتصال غير اللفظي.

وكما رأينا في حديثنا عن نسبة الإبصار إلى الذات الإلهية، فإن السلفيين يثبتون لله صفة الوجه أخذا بظاهر الآيات دون الخوض في إثبات الكيفية والشكل. فالله قادر على كل شيء، والله أعلم. (ابن تيمية، ج5ص74)

إن الوجه هو أحد المناطق المميزة في جسد الإنسان، وغالبا ما يتم إبرازه لاحتوائه على القنوات التواصلية الأهم. وقد وردت مجموعة من الآيات القرآنية التي تشير إلى الوجه بهذا المعنى الحقيقي، نذكر منها الآية 144 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون». وهنا إشارة للوجه باعتباره قناة للتواصل تقوم بدور التلقي والبحث عن المعرفة. فتقلب الوجه في السماء يهدف للبحث عن المزيد من المعلومات التي تزيل الغموض والحيرة.

وتذكر الآية السادسة من سورة المائدة مجموعة من مناطق الجسد يجب غسلها وتطهيرها قبل الإقدام على الصلاة، وفي مقدمتها الوجه الذي يستقبل به المصلي القبلة ومن ثم ربه، لذا فالوجه أولى بالطهارة. إذ قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون».

وفي قصة سيدنا يوسف عليه السلام، ذُكر الوجه باعتباره البوابة التي يطل منها سيدنا يعقوب عليه السلام بكامل قواه الحسية والمعنوية على العالم من جديد، بعد أن يُلْقى قميص يوسف على وجهه. قال تعالى في الآيتين 93 و96 من سورة يوسف: «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين»، «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون»؛ وتضمنت الآية 29 من سورة الذاريات إشارة إلى سلوك إيمائي بلطم الوجه تعبيرا عن التعجُّب، إذ قال تعالى : «فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم». ولازال هذا السلوك الإيمائي مستخدما في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، وغالبا ما يكون مصحوبا بعبارات تفيد معنى «يا ويلي» و«يا ثبوري» (*).

ووذكر الله سبحانه وتعالى في عشر آيات مجموعة من أشكال العذاب التي تلحق بالكفار في الآخرة، مسلطة على الوجوه.

قال تعالى في الآية 50 من سورة الأنفال: «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق» وضرب الوجوه الوارد هنا هو ضرب فعلي على الوجوه لإلحاق أكبر قدر من الألم والعذاب لما يتضمنه الوجه من أعضاء حساسة. وورد مثله في الآية 27 من سورة محمد: «فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم»؛ وقال تعالى في الآية 50 من سورة إبراهيم: «سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار»؛ وفي الآية 97 من سورة الإسراء: «ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا»؛ والآية 29 من سورة الكهف: «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس

الشراب وساءت مرتفقا»؛ وقال تعالى في الآية 39 من سورة الأنبياء: «لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون»، وفي الآية 34 من سورة الفرقان: «الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا»، والآية 90 من سورة النمل: «ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون»؛ وقال تعالى في الآية 66 من سورة الأحزاب: «يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا»؛ وفي الآية 48 من سورة القمر: «يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر».

وذكر تعالى الوجه كناية عن النفس بأكملها. إذ قال تعالى في الآية 112 من سورة البقرة: «بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»؛ وفي الآية 20 من سورة آل عمران: «فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد»؛ والآية 125 من سورة النساء: «ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا»؛ وقال تعالى في الآية 79 من سورة الأنعام: «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين»؛ والآية 22 من سورة لقمان: «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور».

يقول الفخر الرازي في تفسير الآية 112 من سورة البقرة: «.. فأما معنى ﴿من أسلم وجهه لله﴾ فهو إسلام النفس لطاعة الله، وإنما خص الوجه بالذكر لوجوه (أحدها) لأنه أشرف الأعضاء من حيث إنه معدن الحواس والفكر والتخيل، فإذ تواضع الأشرف كان غيره أولى (وثانيها) أن الوجه قد

يكنى به عن النفس ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾، ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ (وثالثها) أن أعظم العبادات السجدة وهي إنما تحصل بالوجه فلا جرم خص الوجه بالذكر، ولهذا قال زيد بن عمرو بن نفيل:

واسلمت وجهي لمن اسلمت
له الأرض تحمل صخرا ثقالا
واسلمت وجهي لمن أسلمت
له المزن تحمل عذبا زلالا

فيكون المرء واهبا نفسه لهذا الأمر بإذلالها، وذكر الوجه وأراد به نفس الشيء، وذلك لا يكون إلا بالانقياد والخضوع وإذلال النفس في طاعته وتجنب معاصيه». (ت. ر، ج4 م2 ص5)

ذكر الله تعالى في سورتي البقرة والأعراف العلاقة بين الوجه واستقبال الاتجاهات المختلفة، والتي يطلق عليها اسم الوجهة. يقول ابن منظور في معنى «الوجهة»: «جهة الأمر وجَهَتُه ووُجْهَتُهُ: وَجْهُهُ.. والجهةُ والوجْهَةُ جميعا: الموضع الذي تَتَوَجَّهُ إليه وتقصده... والوُجهة: القِبْلَة وشِبْهها في كل وجهة أي في كل وجه استقبلته وأخذت فيه». (ابن منظور، ج13 ص556)

قال تعالى في الآيات 148 و149 و150 و177 من سورة البقرة: «ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير. ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون. ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون»، «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر

من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون»؛ وقال تعالى في الآية 29 من سورة الأعراف: «قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون».

وفي سورتي يونس والروم كنى الله سبحانه وتعالى عن التركيز في العبادة بإقامة الوجه. إذ قال تعالى في الآية 105 من سورة يونس: «وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين»؛ وفي الآيتين 30 و43 من سورة الروم: «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»، «فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون».

يقدم لنا الإمام الرازي تفسيرا رائعا لقوله ﴿أقم وجهك للدين﴾، ينسجم تماما مع النظرة العلمية الحديثة للتواصل غير اللفظي. يقول الرازي:

«إقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين، لأن من يريد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء، فإنه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير، لأنه لو صرفه عنه، ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة، وإذا بطلت تلك المقابلة فقد اختل الإبصار، فلهذا السبب حسن جعل إقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين». (ت. ر، ج 17م9 ص180)

وهكذا نكتشف أن الإمام الرازي قد سبق باحثي الاتصال غير اللفظي في القرن العشرين بعدة قرون، في تبيان أهمية النظر في الاتصال المواجهي (وجهاً لوجه). فقد أوضحت دراسات آدم كيندون (Adam KENDON) في

1963 و1972 و1973 و1977 و1990، أن نظرات العين - ومن ثم الوجهة التي ينظر إليها المستمع - تعين المتحدث على إدارة التفاعل في وضع مواجهي. فالمستمع الذي يركز نظره تجاه المتحدث (أي يقيم وجهه في مقابلته، حسب تعبير الرازي) يعبر - بذلك - عن مدى اهتمامه ومتابعته لما يقال. (Kendon,1990)

ونستشف من هذه الآيات ومن بعض الأحاديث النبوية التي وردت في آداب الصلاة، فضلا عن الآيات التي تتحدث عن علاقة القرب/البعد المكاني بين العبد وربه، أن الإنسان يجب أن ينظر إلى علاقته بربه، على أنها علاقة تواصل تنطبق عليها شروط التواصل في وضع مواجهي، من حيث الآداب التي يجب مراعاتها عند الاستماع أو التحدث مع العلم أنها علاقة لا تتسم بالندية وتنتفي فيها المشابهة، كما تنتفي فيها الرؤية المتبادلة التي تطغى على الاتصال المواجهي.

وفي ارتباط بموضوع الاتصال المواجهي، نجد قوله تعالى في الآية التاسعة من سورة يوسف، على لسان أخوة سيدنا يوسف عليه السلام، عندما شعروا بالاهتمام الخاص الذي يوليه ليوسف: «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين». إذ نستشف من قوله ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ وكأن سيدنا يعقوب عليه السلام، يبدي اهتماما خاصا بتوجيه نظره لابنه يوسف أكثر من بقية إخوته، وهذا سلوك تواصلي يقوم به الفرد تجاه الآخرين تعبيرا عن نوعية العلاقة التي تربطه بهم. وغياب سيدنا يوسف يفسح المجال أمام إخوته ليتركز اهتمام أبيهم عليهم، ومن هنا أتت فكرة تخلصهم من يوسف.

قال تعالى في الآية 11 من سورة الحج: «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر

الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين». وقوله ﴿انقلب على وجهه﴾ تعبير عن الارتداد وتبديل الرأي، وفسره البعض على حقيقته أي «سقط وانكب على وجهه». (ت. ع، ج17 ص155) وقد يكون هذا السلوك متعارفاً عليه، مثله كمثل السلوكات الإيمائية الأخرى كاللطم وعض الأنامل. ومن بين ما ذكر الطبري في أسباب نزول هذه الآية، قوله:

«حُدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: ثنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآية. كان ناس من قبائل العرب، وممن حول المدينة من القرى كانوا يقولون: نأتي محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فننظر في شأنه، فإن صادفنا خيرا ثبتنا معه، وإلا لحقنا بمنازلنا وأهلينا، وكانوا يأتونه فيقولون: نحن على دينك، فإن أصابوا معيشة، ونَتَجوا خيلهم، وولدت نساؤهم الغلمان اطمأنوا وقالوا: هذا دين صدق، وإن تأخر عنهم الرزق، وأزلقت خيولهم، وولدت نساؤهم البنات، قالوا: هذا دين سوء، فانقلبوا على وجوههم». (ت. ط، ج9 ص116)

وللفخر الرازي تفسير خاص للآية 24 من سورة الزمر، إذ قال تعالى: «أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون»، يبين من خلاله أهمية الوجه ضمن جسد الإنسان وقيمته التواصلية.

يقول الرازي في قوله تعالى ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾: «تقريره أن أشرف الأعضاء هو الوجه لأنه محل الحسن والصباحة، وهو أيضا صومعة الحواس، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه، وأثر السعادة والشقاوة لا يظهر إلا في الوجه... ويقال لمقدم القوم يا وجه العرب، ويقال للطريق الدال على كنه حال الشيء وجه كذا هو كذا، فثبت بما ذكرنا أن أشرف الأعضاء هو الوجه، فإذا وقع الإنسان في نوع

من أنواع العذاب فإنه يجعل يده وقاية لوجهه وفداء له. وإذا عرفت هذا فنقول: إذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ما سوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء». (ت. ر، ج26 م13 ص275)

وهناك إشارة في القرآن الكريم لدور الوجه في تشكيل الهيئة التي يمشي بها الإنسان. فتنكيس الرأس يفقد الوجه قدرته على أن يكون واجهة للجسد يطل منها على العالم، أما إذا وصل الأمر لدرجة أن يسقط المرء على وجهه، فهذا دليل واضح عن العجز. قال تعالى في الآية 22 من سورة الملك: «أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم».

وفُسر التساؤل الوارد في الآية بـ «هل من يمشي منكسا رأسه، لا يرى طريقه فهو يخبط خبط عشواء، مثل الأعمى الذي يتعثر كل ساعة فيخرّ لوجهه، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة؟... هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر كالأعمى الماشي على غير هدى وبصيرة، لا يهتدى إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه، والمؤمن كالرجل السوي الصحيح البصر، الماشي على الطريق المستقيم آمن من الخبط والعثار، هذا مثلهما في الدنيا، وكذلك يكون حالهما في الآخرة، المؤمن يحشر يمشي سويا على صراط مستقيم، والكافر يحشر يمشي على وجهه». (ت. ص، ج3 ص420)

وذكر الطبري حديث قتادة عن قوله تعالى ﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه﴾: «حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة ﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه﴾ قال: هو الكافر يعمل بمعصية الله، فيحشره الله يوم القيامة على وجهه. قال معمر: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم

على وجوههم». (ت. ط، ج12 ص172)

ونذكر في الختام، بعض معاني لفظة (وجه) في اللغة العربية والقرآن الكريم. قال تعالى في الآية 72 من سورة آل عمران: «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون». فوجه النهار: أوله. وهذا ينسجم مع المعنى العام للوجه كواجهة تطل منها الأشياء على الخارج.

وقال تعالى في الآية 108 من سورة المائدة: «ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين». يقول الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾: «يقول: هذا الفعل، إذا فعلته بهم، أقرب أن يصدقوا في إيمانهم، ولا يكتموا، ويقروا بالحق ولا يخونوا». (ت. ط، ج5 ص123) أي إن القيام بالشهادة على وجهها يعني: الإدلاء بشهادة صدق لا بشهادة زور. والوجه كناية عن الحقيقة والصدق.

(*) ويقابلها في الدارجة السودانية عبارة: «سَجَمي!»، وفي الدارجة المصرية: «يا لَهْوي!».

المبحث الثاني

ملامـــح الوجـــه

يرتكز الاتصال غير اللفظي عبر الوجه إلى الاتصال البصري، خاصة فيما يتعلق بالتلقي. فملامح الوجه وتعبيراته المتنوعة لا يمكن إدراكها إلا برؤيتها في المقام الأول، وتأتي بعد ذلك إمكانية ضعيفة لتحسسها عبر اللمس.

والمقصود بملامح الوجه، السمات (التقاطيع) والتغيّرات والألوان التي تنطبع عليه فتغير من مظهره الطبيعي المحايد، فتصبح الملامح - ضمن هذا المفهوم - رسائل تواصلية في حد ذاتها تخبر من يراها عن صاحب الوجه. وهكذا، تُؤخذ ملامح الوجه كأول مقياس للجَمال والقبح البشريين. فهناك الوجه الصبوح - باسم الثغر - المشرق - مورّد الخدين - بازر الجبهة - مفلّج الأسنان - الذي تزيّنه شامة.. إلخ النعوت الجمالية التي تضفى على الوجوه؛ مقابل الوجه العبوس - البشع - غير متناسق التقاطيع...

وقد تضمن القرآن الكريم بعض الآيات التي تصف ملامح وجوه الناس المتأثرة ببعض السلوكات التعبدية كالسجود أثناء الصلاة والإكثار منه، وملامح

الوجوه في بعض المواقف المختلفة، وكذا في الآخرة، مع التمييز بين وجوه أصحاب الجنة ووجوه أصحاب النار.

فقد تحدث القرآن الكريم عن السيما التي تميز الناس بعضهم عن بعض في ست آيات. والسيما والسيميا في اللغة، هي العلامة التي يُعرف بها الشيء، وأصلها من السمة التي هي العلامة. وهي مشتقة من سام الذي هو مقلوب وسم، وأصلها وِسْمَى. (ت. ر، ج7 م4 ص88) (ت. ع، ج2 ص544)

قال تعالى في الآية 273 من سورة البقرة: «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم». فسّر الإمام الرازي قوله تعالى ﴿تعرفهم بسيماهم﴾، بقوله:

«قال قوم: السيما الارتفاع لأنها علامة وضعت للظهور، قال مجاهد ﴿سيماهم﴾ التخشع والتواضع، قال الربيع والسديّ: أثر الجهد في الفقر والحاجة وقال الضحاك صفرة ألوانهم من الجوع وقال ابن زيد رثاثة ثيابهم والجوع خفي. وعندي أن كل ذلك فيه نظر لأن كل ما ذكروه علامات دالة على حصول الفقر وذلك يناقضه قوله ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ بل المراد شيء آخر هو أن لعباد الله المخلصين هيبة ووقعا في قلوب الخلق، كل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم وذلك إدراكات روحانية، لا علات جسمانية، ألا ترى أن الأسد إذ مر هابته سائر السباع بطباعها لا بالتجربة.. والبازي إذا طار تهرب منه الطيور الضعيفة، وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية، فكذا ههنا، ومن هذا الباب آثار الخضوع في الصلاة، كما قال تعالى ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ وأيضا ظهور آثار الفكر، روى أنهم كانوا يقومون الليل للتهجد ويحتطبون بالنهار للتعفف». (ت. ر، ج7 م4 ص88)
ورأي الرازي هذا ينسجم مع الاعتقاد السائد بأن وجوه عباد الله الصالحين

يشع منها نور التقوى مما يكسبهم الاحترام والوقار.

وفي سورة الأعراف حديث عن سيما أصحاب الجنة وأصحاب النار يتعرف إليها أصحاب الأعراف (وهي مكان بين الجنة والنار). وقد حددت سمة كلا الفريقين في آيات أخرى. قال تعالى في الآيتين 46 و48 : «وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون»، «ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون».

وذكر الله تعالى في سورة الفتح إحدى سمات أصحاب رسول الله التي قد توجد في كل مؤمن يكثر من السجود لله. إذ قال في الآية 29: «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما».

وقد استطرد ابن عاشور في معنى قوله ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾، ذاكرا اختلاف المفسرين، حيث قال:

«اختلف في المراد من السيما التي وصفت بأنها ﴿من أثر السجود﴾ على ثلاثة أنحاء الأول: أنها محسوس للسجود، والثاني أنها من الأثر النفسي للسجود، الثالث أنها أثر يظهر على وجوههم يوم القيامة. فبالأول فسر مالك بن أنس وعكرمة وأبو العالية قال مالك: السيما هي ما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود مثلما تعلق بجبهة النبي صلى الله عليه وسلم من أثر الطين والماء لما وكَف المسجد صبيحة إحدى وعشرين من رمضان. وقال السعيد وعكرمة: الأثر كالغدة يكون في جبهة الرجل.

وليس المراد أنهم يتكلفون حدوث ذلك في وجوههم ولكنه يحصل من غير قصد بسبب تكرر مباشرة الجبهة للأرض وبشرات الناس مختلفة في التأثر بذلك فلا حرج على من حصل له ذلك إذا لم يتكلفه ولم يقصد به رياء..

وإلى النحو الثاني فسر الأعمش والحسن وعطاء والربيع ومجاهد عن ابن عباس وابن جزّي والضحاك. فقال الأعمش: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وقريب منه عطاء والربيع بن سليمان. وقال ابن عباس: هو حسن السمت. وقال مجاهد: هو نور من الخضوع والتواضع. وقال الحسن والضحاك: بياض وصفرة وتهيج يعتري الوجوه من السهر. وإلى النحو الثالث فسر سعيد بن جبير أيضا والزهري وابن عباس في رواية العوفي والحسن أيضا وخالد الحنفي وعطية وشهر بن حوشب: أنها سيما تكون لهم يوم القيامة، وقالوا: هي بياض يكون في الوجه يوم القيامة كالقمر ليلة البدر يجعله الله كرامة لهم. وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله في قوله تعالى: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾: النور يوم القيامة، قيل وسنده حسن وهو لا يقتضي تعطيل بقية الاحتمالات إذ كل ذلك من السيما المحمودة ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أعلاها». (ت. ع، ج26 ص ص173-174)

وفي سورتي محمد والرحمن ذكر الله تعالى السمات التي تميز المنافقين الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسمات التي تميز المجرمين يوم القيامة. قال تعالى في الآية 30 من سورة محمد: «ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم»؛ وقال في الآية 41 من سورة الرحمن: «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام».

وتطرق القرآن إلى مسألة مهمة تتعلق بدلالة اللون الذي يكسو الوجوه. فهل هناك دلالة نفسية عاطفية لتغير لون الوجه؟ وبمعنى آخر، هل

الانفعالات الداخلية تنعكس على لون بشرة الوجه حتى تصبح واضحة للعيان؟ لقد حمل القرآن ردا بالإيجاب على هذين التساؤلين، فيما يتعلق بالإنسان في حياته الدنيا، وأضاف القرآن فأخبرنا بحال الإنسان في حياته الآخرة وانعكاس المآل الذي سيلقاه (الجنة أو النار) على وجهه. فإن كان من أصحاب الجنة ابيضّ وجهه وإن كان من أصحاب النار اسودّ وجهه.

قال تعالى في الآيتين 106 و107 من سورة آل عمران: «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون»؛ وقال تعالى في الآية 60 من سورة الزمر: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين».

لقد اختلف المفسرون في المراد من قوله (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾، فهل البياض والسواد حقيقة أم مجاز؟ وقد أورد الرازي الرأيين المختلفين، قائلا:

«للمفسرين قولان (أحدهما) أن البياض مجاز عن الفرح والسرور، والسواد عن الغم، وهذا مجاز مستعمل... يقال: لفلان عندي يد بيضاء، أي جلية سارة... وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه: ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل وعند التهنئة بالسرور يقولون: الحمد لله الذي بيض وجهك.. فعلى هذا معنى الآية إن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم..

والقول الثاني: إن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة».

(ت. ر، ج8 م4 ص ص186-187) ومعلوم أن تفاصيل الأمور التي تحدث في الآخرة يصعب الحسم فيها لأنها لا تتشابه مع الأمور التي تحدث في الدنيا، على هذا الأساس قد يجعل الله البياض والسواد ملمحا بارزا في الوجوه وليس فقط مجرد أثر لتعبير عاطفي عن حالة معينة كما يرجع الذين يحملون البياض والسواد على المجاز.

أما في الحياة الدنيا، فقد قال تعالى في الآية 58 من سورة النحل مبينا أحوال المشركين: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم»؛ وفي الآية 17 من سورة الزخرف: «وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم».

يعتبر الإمام الرازي الاسوداد الوارد في الآيتين السابقتين، ظاهرة نفسية/فسيولوجية، ولكنه يقدم لها تفسيرا لا يتماشى مع التفسير العلمي، في وقتنا الراهن، لأثر الغم والحزن على لون بشرة الوجه. يقول الرازي:

«أما قوله ﴿ظل وجهه مسودا﴾ فالمعنى أنه يصير متغيرا تغير مغتم، ويقال لمن لقي مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا، وأقول إنما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم، وذلك لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه من داخل القلب، ووصل إلى الأطراف، ولاسيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد، وإذا وصل الروح إلى ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار، وأما إذا قوي غم الإنسان واحتقن الروح في باطن القلب ولم يبق منه أثر قوي في ظاهر الوجه، فلا جرم يربد الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية والكثافة، فثبت أن من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه، ومن لوازم الغم كمودة الوجه وغبرته وسواده، فلهذا السبب جعل بياض الوجه وإشراقه كناية عن الفرح، وغبرته وكمودته وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية، ولهذا المعنى قال ﴿ظل وجهه مسودا وهو كظيم﴾ أي ممتلئ غما

وحزنا». (ت. ر، ج20م10ص ص57-58) وربما يستقيم تفسير الإمام الرازي لهذه الظاهرة، إذا أخذنا بالنشاط الفسيولوجي للجسم في حالات الفرح والحزن، عندما يصدر الدماغ أوامره للقلب بضخّ المزيد من الدماء في الوجه في حالة الفرح والسرور فيتورد ويشرق، ونلاحظ في ازدياد نبضات القلب في حالة الفرح؛ بينما تنخفض النبضات في حالة الحزن والغم ليصل حد أدنى من الدماء إلى الوجه فتبدو الأوردة وكأنها خالية فتضفي مظهرا باهتا بائسا على الوجه.

إضافة إلى ما يميز وجوه الناس في الآخرة من بياض وسواد، تحدث القرآن الكريم عن أثر المصير الذي سيؤول إليه أصحاب الجنة وأصحاب النار، على ملامح وجوههم. فقد وصف تعالى وجوه أصحاب الجنة بأنها ناضرة حسنة من أثر النعمة والفرح، ويتأتى ذلك من أثر الانفعالات التي تتم عن السعادة على الوجه. ووصف وجوههم بأنها مسفرة أي ذات إسفار وهو النور والضياء، فوجوههم متهللة فرحا وعليها أثر النعيم. وهي وجوه ضاحكة مستبشرة أي فرحة مسرورة. وتتسم وجوه أصحاب الجنة بنضرة النعيم التي تكسوها وتتمثل في ملامح البهجة والسرور. ووصفت وجوه أصحاب الجنة بأنها ناعمة مفعمة بالنعومة واللين والترف والراحة.

بينما وصفت وجوه أصحاب النار بأنها باسرة أي كالحة من تيقن العذاب، وهي مكسوة بالغبار والقترة وهو دخان يغشى الوجه من الكرب والغم. ووصفت وجوههم بأنه خاشعة ذليلة، وناصبة أي تعبة.

وقد وردت هذه الأوصاف في الآيتين 26 و27 من سورة يونس: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك

أصحاب النار هم فيها خالدون»؛ والآية 104 من سورة «المؤمنون»: «تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون»؛ وقال تعالى في الآيات 22 و23 و24 و25 من سورة القيامة: «وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة»؛ وقال في الآية 11 من سورة الإنسان: «فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا»؛ وفي الآيات 38 و39 و40 و41 و42 من سورة عبس: «وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة. ووجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قترة. أولئك هم الكفرة الفجرة»؛ وقال تعالى في الآية 24 من سورة المطففين: «تعرف في وجوههم نضرة النعيم»؛ وفي الآيات 2 و3 و4 و8 و9 من سورة الغاشية: «وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية»، «وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية».

ونعت الله سبحانه وتعالى الحزن والكآبة التي تظهر على الوجوه بالسوء، أي بجعل المساءة عليها، إذ إن الحزن والغم غالبا ما يترك آثارا سلبية على الوجه، بعكس الفرح والسرور. قال تعالى في الآية السابعة من سورة الإسراء: «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا»؛ وقال في الآية 27 من سورة الملك: «فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون».

وقال تعالى في الآية 111 من سورة طه، عن حال الوجوه التي يبدو أصحابها أذلاء كأنهم أسرى: «وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما». يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿وعنت الوجوه﴾: «العناء: الذلة، وأصله الأسر، والعاني: الأسير. ولما كان الأسير ترهقه ذلة في وجهه أسند العناء إلى الوجوه على سبيل المجاز العقلي». (ت. ع، ج16 ص185)

وقال تعالى في الآية 72 من سورة الحج: «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات

تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير». وقد أعطى المفسرون عدة تفسيرات للمنكر الذي يبدو على الوجوه، يمكن إجمالها في الآتي:

1 - تتبين في الوجوه ما ينكره أهل الإيمان بالله من تغيرها.

2 - المنكر هو الفظيع من التجهم والبسور.

3 - الغيظ والغضب.

4 - الكراهية للقرآن.

5 - التجبر والترفع.

6 - الإنكار بالعبوس والكراهة. (ت. ط. ج9 ص188) (ت. ز، ج3 ص166) (ت. ر، ج 32م 12ص ص67-68) (ت. ع، ج17 ص241) (ت. ص، ج2 ص299)

ومن بين الملامح التي تبدو - مؤقتا - على الوجه، ظاهرة النعاس التي تسبق النوم. والنعاس يترافق مع الطمأنينة والأمن لأن حالة الغم والقلق تطرد من صاحبها النعاس. قال تعالى في الآية 154 من سورة آل عمران: «ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور»؛ ومثله في الآية 11 من سورة الأنفال: «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام». والنعاس يبدو جليا في ملامح الوجه

بتراخي عضلات الوجه وذبول العينين وانخفاض الجفنين حتى يكادا أن ينطبقا، وسكون الرمشين وقلة السيطرة على حركة الرأس.

والملمح الأخير الذي يمكن ذكره في هذا المقام، هو أثر عمى العينين على الوجه. إذ إن العمى يؤثر في حركات بعض عضلات الوجه التي ترافق حركة العينين والتي تجسد تعبيرات كرد فعل لما تراه العين، ويؤثر العمى على حركة الحاجبين والجبين والفم والالتفات. وقد جعل الله العمى الذي يلحقه ببعض عباده بطمس العينين: قال تعالى في الآية 66 من سورة يس: «ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون»؛ وفي الآية 37 من سورة القمر: «ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر».

المبحث الثالث

التعبيرات الوجهية

تكمن أهمية الوجه، باعتباره قناة للتواصل غير اللفظي، في التعبيرات - وتنتج عن نشاط عضلات الوجه - التي يكون مسرحا لها. لذا حظيت التعبيرات الوجهية باهتمام الباحثين في مجال الاتصال ابتداء من شارلس دارون عام1872 ، عندما سعى لمقارنة التعبيرات الوجهية الأساسية لدى الإنسان والحيوانات، ليستنتج طابعها الفطري.

ويتضح من خلال الدراسات الحديثة المتعلقة بالتعبيرات الوجهية والقضايا التي تناولتها، أن القرآن الكريم اشتمل على العديد من الآيات التي تذكر بعض التعبيرات الوجهية التي تصنف بأنها فطرية وتوجد لدى معظم بني البشر. فقد تضمن كتاب الله آيات عن التعبير عن السعادة (الاستبشار، المرح، السرور، الضحك) والخوف (الرهبة، الفزع، البهت والصعق)، والحزن (البكاء، الغم) والغضب (الغيظ، العبوس).

ويستفاد من دراستنا للتعبيرات الوجهية في القرآن الكريم، أن ورود مثل هذه

السلوكات غير اللفظية ضمن نص مقدس يخاطب الإنسان بغض النظر عن حدود الزمان والمكان، كل ذلك يضفي على هذه التعبيرات طابعا عالميا فطريا يؤكد ما ذهبت إليه الدراسات الحديثة. ويبرز الطابع العالمي للتعبيرات الوجهية عندما يذكرها القرآن في بيئة الآخرة (قيام الساعة والحشر والجنة والنار).

ولكي نتعرف إلى التعبيرات الوجهية في القرآن الكريم - دون الخوض في الحديث عن العواطف الإنسانية التي وردت في العديد من الآيات والتي أرجأنا تناولها إلى المبحث القادم - ارتأينا أن نصنفها إلى الآيات التي تحدثت عن: الاستبشار والسرور والضحك-البكاء والرهبة والفزع والبهت والصعق والغم والغيظ والعبوس وكتمان الانفعال وإظهاره، إضافة إلى تعبيرات أخرى تنم عن الحزن واليأس كالدموع.

1 - الاستبشـار

وهو السرور الحاصل بالبشارة. أي الفرحة التي تغمر الإنسان من جراء تلقي أخبار سارة، تبث نشاطا عاما في سائر أجزاء الجسد فيعم التفاؤل ويتقلص الإحساس بالألم والجوع، ويظهر أثر ذلك جليا على الوجه فتنفرج أساريره ويبتسم وتلمع العينان. قال تعالى في الآيتين 170 و171 من سورة آل عمران: «فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين»؛ وقال تعالى في الآية 124 من سورة التوبة: «وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون»؛ وفي الآية 67 من سورة الحجر: «وجاء أهل المدينة يستبشرون»؛ وفي الآيتين 38 و39 من سورة عبس: «وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة».

2 - المــرح والســرور

المرح فرْط النشـاط من الفـرح والازدهـاء ويظهـر ذلك في المشـي تبـخـتـرا واختيالا، ويظهـر في تعبيرات الوجه الفرحة، والسـرور مـرادف للفـرح بمعناه الشامل الذي يتجلى في تعبيرات الوجه وحركة الجسم والصوت.

قـال تعـالى في الآية 18 من سـورة لقـمـان: «ولا تصـعـر خـدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور»؛ وقال في الآية 31 من سورة المطففين: «وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين» وهو من فَكِه من باب فـرح إذا مزَح وتحدث فأضحك. (ت. ع، ج30 ص189)؛ وقال تعـالى في الآيتين 9 و13 من سورة الانشقاق: «وينقلب إلى أهله مسرورا»، «إنه كان في أهله مسرورا».

3 - الضحــك - البكــاء

همـا سلوكـان يعـبـران عن عـواطـف وانفـعـالات مـتـعـددة ومـتـنـاقـضـة، يستخدمهما جميع البشـر عبـر مختلف الأمكنة والأزمنة. يتركز الضـحك في منطقة الفم حيث ينفرج – في غالب الأحيـان – فيؤثر في عضلات الخدين، بينما يتوزع البكاء بين منطقة العينين والفم. وبالرغم من كون الضـحك غالبا ما يستخدم للتعبير عن الفرح، فقد يستخدم في بعض الأحيـان للتعبيـر عن التهكم والسخرية أو الحزن (شـر البلية ما يضـحك)؛ ولا يقـتصـر البكاء على التـعـبيـر عن الحزن والإحسـاس بالألم، بل قد يكون دلالة على شـدة الفـرح (دموع الفرح). ومعـروف أن الضحك والبكاء قد يستخدمـان كسلوك تعبيري تمويهي لا يحـركه إحسـاس أو انفعـال داخلي حقيقي، كمـا فعل إخوة سـيدنا يوسف عليه السلام، عندما ﴿ جاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾. وفيما يلي الآيات التي ذكرت الضحك والبكاء:

قال تعالى في الآية 82 من سورة التوبة: «فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون»؛ وفي الآية 71 من سورة هود: «وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب»؛ والآية 16 من سورة يوسف: «وجاءوا أباهم عشاء يبكون»؛ وقال تعالى في الآية 58 من سورة مريم: «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجدا وبكيا»؛ وفي الآية 110 من سورة «المؤمنون»: «فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون»؛ والآية 19 من سورة النمل: «فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين»؛ والآية 47 من سورة الزخرف: «فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون»؛ والآية 29 من سورة الدخان: «فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين»؛ وقال تعالى في الآيتين 43 و60 من سورة النجم: «وأنه هو أضحك وأبكى»، «وتضحكون ولا تبكون»؛ وفي الآيتين 38 و39 من سورة عبس: «وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة»؛ وقال تعالى في الآيتين 29 و34 من سورة المطففين: «إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون»، «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون».

وتتبين أهمية الضحك، كسلوك عاطفي يعبر عن المواقف والاتجاهات، من الحديث النبوي الشريف الذي ورد في قصة المعراج، كما ورد في السيرة النبوية لابن هشام:

«قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم عمّن حدّثه عن رسول الله ﷺ، أنه قال: تلقّتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا، فلم يلقني مَلَك إلا ضاحكا مستبشرا، يقول خيرا ويدعو به، حتى لقيني مَلَك من الملائكة، فقال مثلما

قالوا، ودعا بمثل ما دَعَوْا به، إلا أنه لم يضحك، ولم أرَ منه من البِشْر مثل ما رأيت من غيره، فقلت لجبريل: يا جبريل من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك (إليّ)، ولم أرَ منه من البِشر مثل الذي رأيت منهم؟ قال: فقال لي جبريل: أما إنه لو ضحك إلى أحد كان قبلك، أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك، لَضَحِك إليك، ولكنه لا يضحك، هذا مالك خازن النار». (ابن هشام، ج2ص17)

4 - التبسـم

ورد في المعجم اللغوي «لسان العرب» تحت مادة «بسم»: «بَسَمَ يَبْسِم بَسْما وابتسم وتَبَسَّم: وهو أقلُّ الضحك وأحسنه.. قال الزجاج: التبسّم أكثر ضحك الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام. وقال الليث: بَسَم يبسم بسما إذا فتح شفتيه كالمكاشر.. وفي صفته ﷺ: أنه كان جل ضحكه التبسّم. وابتسم السحاب عن البرق: انْكَلَّ عنه». (ابن منظور، ج12 ص50)

لم يرد التبسم إلا في الآية 19 من سورة النمل، إذ قال تعالى: «فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين». ويعتبر التبسم من التعبيرات الوجهية المهمة التي توظف بكيفية فعالة في المجتمعات المدنية التي تتسم بالتعقيد والتحكم في المشاعر من حيث الإظهار أو الإخفاء أو إظهار ما يناقضها.

5 - الرهـب

الخوف والترهب: التخويف بالتوعّد. ويتم التعبير عنه من خلال الوجه

بارتسام ملامح مخيفة وتكشير الأنياب وفتح الفم أو صرّه وتحريك الحاجبين عن موقعيهما، بالإضافة إلى استخدام الصوت والهيئة والحركة.

قال تعالى في الآية 116 من سورة الأعراف: «قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم»؛ وفي الآية 60 من سورة الأنفال: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون»؛ والآية 51 من سورة النحل: «وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون»؛ وقال تعالى في الآية 90 من سورة الأنبياء: «فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين»؛ وفي الآية 32 من سورة القصص: «اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين»؛ والآية 13 من سورة الحشر: «لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون».

6 - الروع والفزع والرعب

مترادفات تدل على الخوف. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا شَمِط الإنسان في عارضيه فذلك الرّوْعُ». (الشمط: الخلط، وكأنه أراد الإنذار بالموت) (ابن منظور، ج8 ص135) وينضاف إلى الروع والفزع والرعب، الذُّعر.

قال تعالى في الآية 74 من سورة هود: «فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط»؛ وقال في الآيتين 87 و89 من سورة

النمل: «ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين»، «من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون»؛ وقال تعالى في الآية 18 سورة الكهف: «وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا»؛ وفي الآيتين 23 و51 من سورة سبأ: «ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير»، «ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب»؛ والآية 22 من سورة ص: «إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط».

7 - البهت والصعق

البهت – في اللغة – الأخذ بغتة. وهو الحيرة الناتجة عن المفاجأة والمباغتة. ويتم بسكون الجسد وتسمره لبعض الوقت، ويرتسم في الوجه بتعبيرات الاندهاش المتمثلة في فتح الفم على شكل دائرة ورفع الحاجبين وشحوب الوجه لأن الدم يتباطأ في اندفاعه نحو الوجه. والصعق حالة أشد من البهت قد تؤدي إلى الإغماء. وصعق الإنسان إذا «غُشِيَ عليه وذهب عقله». (ابن منظور، ج10ص198)

قال تعالى في الآية 258 من سورة البقرة: «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين»؛ وقال تعالى في الآية 143 من سورة الأعراف: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك

قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين»؛ وفي الآية 40 من سورة الأنبياء: «بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون»؛ والآية 45 من سورة الطور: «فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون».

8 - الغم

من بين معاني الغم: الكرب والهم. وهو شكل من أشكال التعبير عن الحزن يتبدّى في الوجه. ومنه قول الخنساء:

وذي كُرْبَةٍ ابنُ عمروٍ خِنَاقَه وَغُمَّتَهُ عن وجهه فَتَجَلَّتِ (ت. ط، ج6 ص585)

وفي هذا المعنى وردت الآيتان 153 و154 من سورة آل عمران. إذ قال تعالى: «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فاثابكم غما بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون»، ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم﴾؛ وقال تعالى في الآية 71 من سورة يونس: «واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون» كما فسرت هذه الآية أخذا بالمعنى الآخر للغم، ألا وهو الستر؛ وقال تعالى في الآية 40 من سورة طه: «إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى»؛ وفي الآية 88 من

سورة الأنبياء: «فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين»؛ والآية 22 من سورة الحج: «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق».

9 - الغيـــظ

«الغيظ: الغضب، وقيل: غضب كامن للعاجز، وقيل: هو أشد من الغضب، وقيل: هو سَوْرَتُه وأوله». (ابن منظور، ج7 ص450) وهو انفعال داخلي وخير منفذ للتعبير عنه هو الوجه، سواء بالعبوس أو البكاء أو الضحك. وهو من التعبيرات المزيجة التي تضم الغضب والحزن. ويمارس بكثرة في المجتمعات البشرية في الأوضاع التنافسية وفي الصراعات، وغالبا ما يسعى الإنسان إلى إخفائه لأنه يدل على الضعف وقلة الحيلة.

قال تعالى في الآيتين 119 و134 من سورة آل عمران: «ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور»، «الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»؛ وقال في الآيتين 15 و20 من سورة التوبة: «ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم»، «ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين»؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة الحج: «من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ»، وفي الآية 55 من سورة الشعراء: «وإنهم لنا

لغائظون»؛ والآية 25 من سورة الأحزاب: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا».

10 - العـــبوس

وهو من أشهر التعبيرات الوجهية التي تدل على الغضب. ويكثر استخدامه عند البشر وبعض الحيوانات الرئيسة. والعبوس سلوك فطري ذو طابع عالمي ينذر بالغضب والخطر. يقول ابن منظور في لسان العرب: «عَبَسَ يَعْبِسُ عَبْسًا وعَبَّسَ: قَطَّبَ ما بين عينيه... وعَبَّسَ تَعْبِيسا، فهو مُعَبِّسٌ وعبَّسٌ إذا كَرَّه وجهه، شُدِّدَ للمبالغة، فإن كَشَرَ عن أسنانه فهو كالح، وقيل عَبَّسَ كَلَحَ... والعابس: الكريه المَلْقَى الجَهْمُ المُحَيَّا. والتعبُّس: التجهُّم». (ابن منظور، ج6 ص129)

وقد ورد العبوس في آيتين من القرآن الكريم: الآية 22 من سورة المدثر، إذ قال تعالى: «ثم عبس وبسر»؛ والآية الأولى من سورة عبس، إذ قال تعالى: «عبس وتولى». والملاحظ أن هاتين الآيتين تعتبران من الآيات القصيرة والمركزة. فهما تشتملان على كلمتين – دون حساب الضمائر – وحرفي عطف (ثم، الواو)، لذا يمكن اعتبارهما من الآيات الأكثر تمثيلا للاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم. ويمكننا اعتبار سورة عبس السورة الأهم في القرآن التي تدلّ على أهمية الاتصال غير اللفظي في حياة الناس والتي لا تقل عن أهمية الاتصال اللفظي.

يقول ابن عاشور في بداية تفسيره لهذه الآية: «افتتاح هذه السورة بفعلين محتملين لضمير لا معاد له في الكلام تشويق لما سيورد بعدهما، والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم، فأما الضمائر فيبين إبهامها قوله: ﴿فأنت له تصدى﴾[عبس: 6] وأما الحادث فيتبين من ذكر الأعمى ومَن استغنى.

وهذا الحادث سبب نزول هذه الآيات من أولها إلى قوله: ﴿بررة﴾[عبس: 16]. وهو ما رواه مالك في «الموطأ» مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: أنزلت ﴿عبس وتولى﴾ في ابن أم مكتوم جاء إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا محمد استدنني، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل النبي ﷺ يعرض عنه (أي عن ابن أم مكتوم) ويُقبل على الآخر، ويقول: يا أبا فلان هل ترى بما أقول بأسا فيقول: «لا والدِّماء ما أرى بما تقول بأسا»، فأنزلت: ﴿عبس وتولى﴾». (ت. ع، ج30 ص91)

11 - الكظم وكتمان الانفعال أوإظهاره (الصبر-الجزع)

الكظم يعني الإمساك. وكظم الرجل غيظه إذا اجترعه. وكظمه يَكْظِمه كَظْما: رده وحبسه. (ابن منظور، ج12ص519) و«كظم الغيظ إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها، قال المبرّد: فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء، ولا شك أن أقوى القوى تأثيرا على النفس القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها، مع الامتلاء منها، دلّ ذلك على عزيمة راسخة في النفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة». (ت. ع، ج3ص222)

قال تعالى في الآية 134 من سورة آل عمران: «الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»؛ وفي الآية 84 من سورة يوسف: «وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم»؛ والآية 58 من سورة النحل: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم»؛ وقال تعالى في الآية 18 من سورة غافر: «وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع»؛ وفي الآية 17 من سورة الزخرف: «وإذا بشر أحدهم

بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم»؛ والآية 48 من سورة القلم: «فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم».

ونستشف كتمان الانفعال في الآية 77 من سورة يوسف، إذ قال تعالى: «قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون». يقول ابن عاشور في تفسير قوله ﴿فأسرها يوسف﴾: «يجوز أن يعود الضمير البارز إلى جملة ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ على تأويل ذلك القول بمعنى المقالة.. ويكون معنى أسرها في نفسه أنه تحملها ولم يظهر غضبا منها، وأعرض عن زجرهم وعقابهم مع أنها طعن فيه وكذب عليه». (ت. ع، ج12ص101) أي كظم الغيظ بصمته وتفاديه التعبيرات الوجهية التي تدل على الغضب؛ وقال تعالى في الآية 33 من سورة سبأ: «وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون»

أما إظهار الانفعال فنلمسه في الجزع الذي هو ضد الصبر. قال تعالى في الآية 21 من سورة إبراهيم: «وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص»؛ وفي الآية 20 من سورة المعارج: «إذا مسه الشر جزوعا».

12 - الدمـــع

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية 83 من سورة المائدة إحدى علامات

البكاء، الذي كما قلنا من بين أشكال التعبير عن الحزن والإحساس بالألم، ألا وهي الدموع التي تسيل لعدة أسباب، من بينها التقوى. قال تعالى: «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين».

13 - التنكيس

تنكيس رأس ليس فقط مجرد هيئة يتخذها الرأس، بل كذلك، سلوك يترك آثارا واضحة على التعبيرات الوجهية، كأن تذبل العينان ويغطيهما الجفنان، وترتخي الشفة السفلى.

وفي هذا المعنى، قال تعالى في الآية 12 من سورة السجدة تعبير عن الحزن والهم بتنكيس الرأس، إذ قال تعالى : «ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون».

المبحث الرابع

الوجه والتعبير عن العواطف

نتطرق في هذا المبحث لأبرز العواطف الرئيسة التي يعبر عنها الإنسان في حياته، بغض النظر عن تأثيرات الزمان والمكان والثقافة. فالحزن والخوف والفرح والغضب والاشمئزاز، كلها عواطف تلازم الإنسان منذ أن خلقه الله. وبالرغم من تأثير التطورات التي عرفتها الحضارات الإنسانية على أسلوب الإنسان في التعبير عن هذه العواطف، إلا أن التعبيرات العاطفية حافظت على شكلها العام، على الصعيد الجسدي.

وقد اشتهر الوجه - أكثر من غيره من أعضاء الجسم - بقدرته على التعبير عن العواطف الرئيسة، وذلك لقربه من الدماغ الذي يضم مراكز التحكم في العواطف وفي نشاط الجسم بأكمله. لذا أدرجنا الآيات القرآنية التي تشير إلى العواطف الرئيسة ضمن هذا المبحث على الرغم من أنها لا تشير إلى علاقة ارتباط مباشر بالوجه، لاعتقادنا بأن الوجه هو الواجهة الأبرز التي تطل منها هذه العواطف. فهو، بالإضافة إلى العضلات المستخدمة في تشكيل التعبيرات، والتي يبلغ عددها 20 ألف عضلة، يحتوي الوجه على

العينين وهما فاعلتان في التعبيرات العاطفية، فضلا عن الفم الذي يخرج منه الصوت الذي غالبا ما يتضمن حمولة عاطفية، والأنف الذي يحدث تغيير طفيف على شكله من جراء انكماش العضلات المحيطة به عند التعبير عن الاشمئزاز أو عند البكاء والنحيب .

هكذا نورد الآيات التي تشير إلى الحزن والخوف والعلاقة بين الخوف والحزن والفرح والغضب والاشمئزاز.

1 - الحــــزن

الحُزْن والحَزَن: نقيض الفرح، وهو خلاف السرور. (ابن منظور، ج13 ص111)

وقد بلغ عدد الآيات التي ذكرت الحزن دون أن ترفقه بالخوف 24 آية، بدءا من سورة آل عمران. إذ قال تعالى في الآيات 139 و153 و176: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»، «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون»، «ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم»؛ وقال تعالى في الآية 41 من سورة المائدة: ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾؛ وفي الآية 33 من سورة الأنعام: «قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون».

وقال تعالى في الآيتين 40 و92 من سورة التوبة: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها﴾، «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض

من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون»؛ وقال في الآية 65 من سورة يونس: «ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم».

وقال تعالى في الآيتين 84 و86 من سورة يوسف: «وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم»، «قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون»؛ وفي الآية 88 من سورة الحجر: «لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين»؛ والآية 127 من سورة النحل: «واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون»؛ والآية 24 من سورة مريم: «فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا».

وقال تعالى في الآية 40 من سورة طه: ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾؛ وفي الآية 103 من سورة الأنبياء: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾؛ وقال تعالى في الآية 70 من سورة النمل: ﴿ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون»؛ وفي الآيتين 8 و13 من سورة القصص: «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا﴾، ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن﴾؛ وفي الآية 23 من سورة لقمان: ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾؛ والآية 61 من سورة الزمر: «وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون».

وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة المجادلة: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا﴾؛ وفي الآية 51 من سورة الأحزاب: «ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما»؛ والآية 34 من سورة فاطر: «وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور»؛ والآية 76 من سورة يس: «فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون».

2 - الخـــوف

«الخوف: الفزع.. [قال] ابن سيده: وخَوَّف الرجلَ جعل الناسَ يخافونه. وفي التنزيل العزيز: إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه أي يجعلكم تخافون أولياءه». (ابن منظور، ج9 ص99) وللخوف معان أخرى، نذكر منها: «حكى اللحياني: خَوِّفنا أي رَقِّقْ لنا القرآن والحديث حتى نخاف. والخوف: القتل. والخوف: القتال، وبه فسر اللحياني قوله تعالى: ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع، وبذلك فسر قوله أيضا: وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به. والخوف: العِلْم، وبه فسر اللحياني قوله تعالى: فمن خاف من موص جنفا أو إثما وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا». (ابن منظور، ج9 ص100)

والخوف هو العاطفة التي ورد ذكرها في القرآن أكثر من غيرها. إذ تمت الإشارة إليها في 41 آية، فضلا عن الآيات التي جمعتها مع عاطفة الحزن.

ففي سورة البقرة، قال تعالى في الآيات 114 و155 و182 و229 و239: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾، «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين»، ﴿فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾، ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾، «فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون»؛ وقال تعالى في الآية 175 من سورة آل عمران: «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين»؛ وفي الآية 128 من سورة النساء: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما﴾.

وقال تعالى في الآيات 9 و56 و83 و205 من سورة الأعراف: «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا»، «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين»، ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾، ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 70 و103 من سورة هود: «فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط»، ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾؛ والآية 13 من سورة يوسف: «قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون».

وقال تعالى في الآية 12 و13 من سورة الرعد: «هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال»؛ وفي الآية 14 من سورة إبراهيم: «ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد»؛ والآية 47 من سورة النحل: «أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم»؛ وقال تعالى في الآيتين 59 و60 من سورة الإسراء: «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا. وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا»؛ والآية الخامسة من سورة مريم «وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا».

وقال تعالى في الآيات 21 و46 و67 و68 و77 من سورة طه: «قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى»، «قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى»، «فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى»، «ولقد أوحينا إلى موسى

أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى»؛ وقال تعالى في الآية 55 من سورة النور: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾؛ وفي الآية 21 من سورة الشعراء: «ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين»؛ والآية العاشرة من سورة النمل: «وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون».

وقال تعالى في الآيات 18 و21 و25 و31 من سورة القصص: ﴿فأصبح في المدينة خائفا يترقب﴾، «فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين»، ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾، «وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين»؛ وقال تعالى في الآيتين 24 و28 من سورة الروم: ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا﴾، ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾.

وقال تعالى في الآية 16 من سورة السجدة: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون»؛ وفي الآيتين 16 و36 من سورة الزمر: «لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون»، «أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد»؛ والآية 28 من سورة الذاريات: «فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم»؛ وقال تعالى في الآية 46 من سورة الرحمن: «ولمن خاف مقام ربه جنتان»؛ وفي الآية 40 من سورة النازعات: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى».

3 - العلاقة بين الخوف والحزن

ورد ذكر الخوف مقترنا بالحزن في 15 آية كلها تنفي عن المؤمنين التعرض للخوف والحزن في الحياة الدنيا عندما يفرّج الله على عباده الكرب؛ وكذا في الآخرة وذلك بإدخالهم الجنة. ويلاحظ أن الخوف يرد في جميع هذه الآيات متقدما على الحزن، وهذا يتبين من واقع الحال، إذ نجد أن الخوف عاطفة قائمة على انفعال آني وعندما يترسخ هذا الانفعال ويتكرر قد يتحول إلى عاطفة الحزن. وقد أوضح بعض علماء الاتصال غير اللفظي الذين اهتموا بالتعبيرات الوجهية، ومنهم سكلوسبرج (SCHLOSBERG)، أن الخوف والحزن يتم التعبير عنهما في الوجه بطريقة متشابهة. (موسى،1996، ص33)

وقد تشابهت العبارات القرآنية التي جمعت بين الخوف والحزن، فأخذت الصيغ التالية: ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، ﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾، ﴿لا تخافي ولا تحزني﴾، ﴿لا تخف ولا تحزن﴾، ﴿ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾.

وكمثال لرأي المفسرين في تفسير قوله تعالى ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، نورد ما قاله الإمام الفخر الرازي في تفسيره للآية 38 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

يقول الرازي: «.. أنه تعالى بيّن أن من اتبع هداه بحقه علما وعملا بالإقدام على ما يلزم والإحجام عما يحرم فإنه يصير إلى حال لا خوف فيها ولا حزن وهذه الجملة مع اختصارها تجمع شيئا كثيرا من المعاني... وجمع قوله ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ جميع ما أعد الله تعالى لأوليائه لأن زوال الخوف يتضمن السلامة من جميع الآفات وزوال الحزن يقتضي الوصول إلى كل اللذات والمرادات وقدم عدم الخوف على عدم الحزن لأن

زوال ما لا ينبغي مقدم على طلب ما ينبغي». (ت. ر، ج3م 2ص ص 29-30)

وقد ورد قوله تعالى ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ في الآيات 38 و62 و262 و277 من سورة البقرة؛ والآية 170 من سورة آل عمران؛ وفي الآية 69 من سورة المائدة؛ والآية 48 من سورة الأنعام؛ والآية 35 من سورة الأعراف؛ والآية 62 من سورة يونس؛ والآية 13 من سورة الأحقاف. وورد قوله تعالى ﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ في الآية 49 من سورة الأعراف. وقوله ﴿لا تخافي ولا تحزني﴾ في الآية السابعة من سورة القصص. وورد قوله ﴿لا تخف ولا تحزن﴾ في الآية 33 سورة العنكبوت. وقوله ﴿ ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾ في الآية 30 من سورة فصلت. وقوله ﴿لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ في الآية 68 من سورة الزخرف.

4 - الفــرح

يقول ابن منظور في «لسان العرب» عن الفرح:

«الفرح: نقيض الحزن؛ وقال ثعلب: هو أن يجد في قلبه خِفَّة.. والفرح أيضا: البَطَر. وقوله تعالى: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين؛ قال الزجاج: معناه، والله أعلم: لا تفرح بكثرة المال في الدنيا لأن الذي يفرح بالمال يصرفه في غير أمر الآخرة؛ وقيل: لا تفرح لا تَأْشَرْ، والمعنيان متقاربان لأنه إذا سُرّ ربما أَشِرَ.. والفُرْحة والفَرْحة: المَسَرّة.. وفي حديث التوبة: لَلّهُ أشدُّ فرحا بتوبة عبده؛ والفرح ههنا وفي أمثاله كناية عن الرضا وسرعة القبول وحسن الجزاء لتعذر إطلاق ظاهر الفرح على الله تعالى». (ابن منظور، ج2ص541)

ذكر سبحانه وتعالى عاطفة الفرح في عشرين آية، ضمن سياقات مختلفة. إذ قال تعالى في الآيتين 120 و188 من سورة آل عمران: «إن تمسسكم حسنة

تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط»، «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم»؛ وفي الآية 44 من سورة الأنعام: «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون»؛ وقال تعالى في الآيتين 50 و81 من سورة التوبة: «إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون»، «فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون».

وقال تعالى في الآيتين 22 و58 من سورة يونس: «هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين»، «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون»؛ وفي الآية العاشرة من سورة هود: «ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور».

وفي الآيتين 26 و36 من سورة الرعد، يقول تعالى: «الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع»، «والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب»؛ والآية 53 من سورة المؤمنون: «فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون»؛ والآية 36 من سورة النمل: «فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون».

وقال تعالى في الآية 76 من سورة القصص: «إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين»؛ وفي الآيات 4 و32 و36 من سورة الروم: «في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون»، «من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون»، «وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون»؛ وقال تعالى في الآيتين 75 و83 من سورة غافر: «ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون»، «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون»؛ وفي الآية 48 من سورة الشورى: «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور»؛ والآية 23 من سورة الحديد: «لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور».

5 - الغضب

الغضب نقيض الرضا. وهو عاطفة انفعالية مرتبطة بالقوة والعنف وتوتر عضلات الوجه ولمعان العينين وكأنما يتطاير منهما الشرر، ويواكبه حركات يغلب عليها طابع العصبية، وضربات سريعة للقلب وسرعة في الحديث. وفي المعجم اللغوي: «غَضِب عليه غَضَبا ومَغْضَبَةً، وأغْضَبْتُه أنا فتغضّب. وغَضِبَ له: غَضِبَ على غيره من أجله، وذلك إذا كان حيا، فإن كان ميتا قلت: غَضِب به.. قال ابن عرفة: الغضب، من المخلوقين، شيء يُداخل قلوبهم؛ ومنه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير حق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق؛ وأما غضب الله فهو إنكاره على من عصاه، فيعاقبه.. وامرأة غَضُوب

أي عبوس». (ابن منظور، ج1ص ص648-649)

ورد ذكر الغضب في القرآن الكريم في صيغتي المجاز والحقيقة. فقد أشارت بعض الآيات إلى غضب الله الذي يلحقه بعباده، أي إرادة الانتقام لديه. وهنا لا يمكن أن نوجد علاقة بين عاطفة الغضب والوجه. وورد الغضب بمعناه الحقيقي منسوبا إلى سيدنا موسى عليه السلام ، ومنسوبا للناس بصفه عامة.

ذُكر غضب الله في الآيتين 61 و90 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين»؛ وقال تعالى في الآية 112 من سورة آل عمران: «ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»؛ والآية 93 من سورة النساء: «ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما»؛ وقال تعالى في الآية 60 من سورة المائدة: «قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل».

وورد الغضب بمعناه الحقيقي كعاطفة تصدر من بني البشر، في الآيتين 150 و154 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى : «ولما رجع موسى إلى قومه

غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين»، «ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون»؛ وفي الآية 86 من سورة طه: «فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي»؛ وقال تعالى في الآية 37 من سورة الشورى: «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون».

6 - الاشمئزاز

لقد وردت الإشارة إلى الاشمئزاز في آية واحدة، هي الآية 45 من سورة الزمر، إذ قال تعالى: «وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون». قال الزمخشري في تفسير الكشاف، موضحا المقصود من الاستبشار والاشمئزاز في الآية: «أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر آلهتهم حين قرأ ﴿والنجم﴾ عند باب الكعبة، فسجدوا معه لفرحهم، ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز؛ إذ كل واحد منهما غاية في بابه؛ لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل. والاشمئزاز: أن يمتلئ غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه». (ت. ز، ج4 ص127)

وجاء في «لسان العرب» تحت مادة «شمز»: «الشَّمْزُ: التَّقَبُّض. اشمأزَّ اشمئزازا: انقبض واجتمع بعضه إلى بعض؛ وقال أبو زيد: ذُعِر من الشيء وهو المذعور. والشمز: نفور النفس من الشيء تكرهه. وقال الزجاج في قوله تعالى: وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ معناه

نفـرت، وكـان المشـركـون إذا قـيـل لا إله إلا الله نفـروا من هـذا. وقـال ابن الأعـرابي: اشـمـأزت: اقـشـعـرت. وقال قـتـادة: اشـمـأزت: اسـتكبـرت وكفـرت ونفـرت. وفي الحديث: فَسَيَلِيكُمْ أمراء تقـشـعـر مـنهم الجلود وتشـمـئـز منهم القلوب أي تنقبض وتجتمع». (ابن منظور، ج5 ص ص362-363)

الفصل الثالث

الإيمـــــــاء

أول ما يتبادر إلى ذهن الإنسان العادي، من الاتصال غير اللفظي بصفة عامة، ولغة الجسد بصفة خاصة، الاتصال الإيمائي. ذلك أن الإيماءات - بمختلف أشكالها - شائعة في جل المجتمعات البشرية، وهي مرتبطة بالقدرة على الحركة والفعل في المقام الأول. ويخبرنا القرآن الكريم، أن الإنسان مارس لغة الإيماء قبل أن يهبط إلى الأرض، وأورث هذا السلوك الاتصالي إلى ذريته التي تفرعت إلى شعوب وقبائل وأمم وحضارات.

ولا تخلو آثار الحضارات الإنسانية القديمة في الكهوف الإفريقية وحضارات ما بين النهرين والحضارات التي قامت على ضفتي النيل والحضارات الصينية القديمة، من تجسيد لسلوك إيمائي مارسه الإنسان قصد التواصل مع غيره من بني البشر ومع بقية الكائنات الحية ومع بيئته المحيطة. كما بيّن العديد من الباحثين في تاريخ السلوك الإيمائي في القارة الأوروبية، استخدام الإيماءات في الحضارة اليونانية القديمة والحضارة

الرومانية وجل الحضارات التي تعاقبت على المجتمعات الأوروبية مرورا بالأندلس وعصر النهضة. (Bremmer&Roodenburg,1991)

إن لغة الإيماء - أو كما تسمى لغة الإشارة - تكتسي أهمية بالغة عندما يرد ذكرها في القرآن الكريم، باعتباره كلام الله وتتجسد فيه الحقيقة المطلقة، وهو يخبرنا عن الماضي السحيق ويرشدنا لمعرفة الحاضر وينبئنا عن المستقبل والغيب. ومن هنا تنبع القيمة الإيجابية التي تضيفها دراسة الإيماء في القرآن الكريم للدراسات الحديثة التي تهتم بالسلوك الإيمائي البشري.

وقد حاولنا في هذه الدراسة التطرق للإيماء انطلاقا من الاهتمام بالأداة الفعالة الأولى في ترميز السلوك الإيمائي، نعني بها اليد، وكيف ورد ذكرها في القرآن الكريم، وذلك في المبحث الأول. ثم انتقلنا في المبحث الثاني للتعرف إلى الإيماءات - كما تعرّفها وتصنفها الدراسات الحديثة - وتبيان مواضع ورودها في السياق القرآني، ودلالاتها التواصلية كما فهمها المفسرون. ثم تطرقنا في المبحث الثالث لشكل من أشكال السلوك الإيمائي الخاص، والذي يرتبط ارتباطا وثيقا بعبادة الخالق في مختلف الأديان، بصفة عامة، وبعبادته في الدين الإسلامي، بصفة خاصة. وهذا السلوك هو ما يطلق عليه: «التسبيح» الذي يتخذ أشكالا متعددة، من أبرزها الإيماء بأصابع الكفين.

أما المبحث الأخير، فخصصناه لأنواع التحايا التي ورد ذكرها في القرآن، باعتبارها ضرورة تواصلية يومية يمارسها الإنسان إثباتا لصفته الاجتماعية التي تستدعي منه الحفاظ على حد أدنى من التواصل مع أفراد المجتمع المحيطين به.

المبحث الأول

البعد التواصلي لليد

إن دراستنا لليد ضمن الفصل المتعلق بالإيماء، ينبع من كونها أبرز أعضاء الجسد البشري التي يتسم نشاطها بالطابع الإيمائي، بل أكثر من ذلك فإن كل ما تقوم به اليد من سلوك حركي يمكن اعتباره شكلا من أشكال الإيماء. ومن هذا المنطلق نجد أن الأهمية التواصلية للسلوك الإيمائي، تستمد من اليد. فهي أداة الفعل الأولى التي يستخدمها الإنسان، وهي الأداة الأبرز لتجسيد القوة. وعلى الصعيد اللغوي فاليد ترمز للقوة والقدرة. كما أنها - مثلها مثل الوجه والعين - قد ترمز إلى الذات. كل ذلك أهّل اليد لأن تستخدم استخداما مجازيا، الأمر الذي نجد له أمثلة متعددة في القرآن الكريم.

وقد تضمن القرآن الكريم بعض الآيات التي تنسب اليد إلى الله سبحانه وتعالى، الأمر الذي يفيدنا في فهم البعد التواصلي لليد، ويضفي عليها قيمة رمزية كبيرة.

قال تعالى في الآية 26 من سورة آل عمران: «قل اللهم مالك الملك تؤتي

الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير»؛ وفي الآية 64 من سورة المائدة: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾؛ والآية 57 من سورة الأعراف: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾؛ وقال تعالى في الآية 88 من سورة «المؤمنون»: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾؛ وفي الآية 48 من سورة الفرقان: ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾؛ والآية 63 من سورة النمل: ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 71 و83 من سورة يس: «أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون»، «فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون»؛ وقال تعالى في الآية 75 من سورة ص: «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين»؛ وفي الآية العاشرة من سورة الفتح: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 29 من سورة الحديد: «لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

ولكي نتبين دلالات نسبة اليد إلى الخالق جل شأنه، يمكن أن نتتبع ما أورده الإمام الفخر الرازي في تفسيره لقوله تعالى ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾ وقوله ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ في الآية 64 من سورة المائدة.

يقول الرازي شارحا معنى غل اليد وبسطها:

«غلُّ اليد وبسطها مجاز مشهور عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ قالوا: والسبب فيه أن

اليد آلة لأكثر الأعمال لا سيما لدفع المال ولإنفاقه، فأطلقوا اسم السبب على المسبب. وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والبنان والكف والأنامل. فقيل للجواد: فياض الكف مبسوط اليد، وبسط البنان تفرُّد الأنامل. ويقال للبخيل: كز الأصابع مقبوض الكف جعد الأنامل». (ت. ر.ج12 م6 ص44)

وبعد أن بيّن المراد من قوله تعالى على لسان اليهود ﴿يد الله مغلولة﴾ وقوله ﴿غلت أيديهم﴾، انتقل إلى الحديث عن يد الله كما وردت في القرآن الكريم:

«واعلم أن الكلام في هذه الآية من المهمات، فإن الآيات الكثيرة من القرآن ناطقة بإثبات اليد، فتارة المذكور هو اليد من غير بيان العدد. قال تعالى ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ وتارة بإثبات اليدين لله تعالى: منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى لإبليس الملعون (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) وتارة بإثبات الأيدي. قال تعالى ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما﴾ (ت. ر.ج12م6ص45)

وقد دحض الرازي قول المجسمة في يد الله بأنها عضو جسماني، قائلا: «واعلم أن الكلام في إبطال هذا القول مبني على أنه ليس بجسم، والدليل عليه أن الجسم لا ينفك عن الحركة والكون، وهما محدثان، وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث، ولأن كل جسم فهو متناه في المقدار، وكل ما كان متناهيا في المقدار فهو محدث، ولأن كل جسم فهو مؤلف من الأجزاء، وكل ما كان كذلك كان قابلا للتركيب والانحلال، وكل ما كان كذلك افتقر إلى ما يركبه ويؤلفه، وكل ما كان كذلك فهو محدث، فثبت بهذه الوجوه أنه يمتنع كونه تعالى جسما، فيمتنع أن تكون يده عضوا جسمانيا». (ت. ر. ج12 م6 ص45)

ونتفق مع رأي الإمام الرازي في هذا الموضوع، إذ يقول: «إذا عرفت هذا فنقول: اليد في حق الله يمتنع أن تكون بمعنى الجارحة، وأما سائر المعاني فكلها حاصلة. وههنا قول آخر، وهو أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله زعم

في بعض أقواله أن اليد صفة قائمة بذات الله تعالى، وهي صفة سوى القدرة من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء قال: والذي يدل عليه أنه تعالى جعل وقوع خلق آدم بيديه علة ولكرامة آدم واصطفائه، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لامتنع كونه علة الاصطفاء، لأن ذلك حاصل في جميع المخلوقات، فلابد من إثبات صفة أخرى وراء القدرة يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء، وأكثر العلماء زعموا أن اليد في حق الله تعالى عبارة عن القدرة وعن النعمة». ﴿ت. ر. ج 12م6 ص46)

ورد ذكر اليد كعضو من الأعضاء في بعض الآيات التي تحدثت عن إقامة الحدود، وبالأخص حد السرقة الذي يجيز قطع اليد عقابا على ما تقوم به من أفعال. إذ قال تعالى في الآيتين 33 و38 من سورة المائدة: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾، ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله﴾.

وذكر تقطيع اليد كذلك، في تهديد فرعون للسحرة، في الآية 124 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى على لسان فرعون: «لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين»؛ وفي الآية 71 من سورة طه: ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾؛ والآية 49 من سورة الشعراء: «قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين»

وفي الآية الرابعة من سورة القيامة ذكر للبنان الذي هو أحد مكونات اليد، ويقوم بدور فاعل في الإمساك بالأشياء والإيماء. قال تعالى: «بلى قادرين على أن نسوي بنانه».

وقال تعالى في الآية 24 من سورة النور: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون»؛ والآية 65 من سورة يس: «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون». أي إن الله يكسب جوارح (أيدي وأرجل) المنافقين والمشركين القدرة على الكلام لتشهد على أصحابها يوم القيامة.

وقد روى مسلم في صحيحه عن أنس قال رسول الله ﷺ: «يخاطب العبد ربّه: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، فيُخْتم على فيه. فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يخلّى بينه وبين الكلام فيقول: بعدا لكنّ وسُحقا فعنكُنّ كنتُ أناضل». (ت. ع، ج22 ص256)

وعلى الرغم من أن جل المفسرين المتقدمين، أجمعوا على أن تلك الجوارح ستكون قادرة على الكلام الملفوظ، والله سبحانه تعالى قادر على ذلك، يمكن القول إنه قد يكون المقصود استخدام الأيدي والأرجل للغة الإيماء لإيصال المعلومات. فقد أثبتت هذه اللغة في حياتنا الدنيا قدرتها على إيصال المعنى دون حاجة إلى كلام ملفوظ، مما يضفي قدرا كبيرا من الأهمية على الاتصال غير اللفظي عبر الإيماءات. والله أعلم.

وذكر الله سبحانه وتعالى اليد باعتبارها أداة مختصة في بعض الأفعال التي يقوم بها الإنسان، كقوله في الآية 79 من سورة البقرة: «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون»؛ وقوله تعالى في الآية الثانية من سورة الحشر: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

وقال تعالى في الآية الأولى من سورة المسد: «تبت يدا أبي لهب وتب».

ويروى في سبب نزول هذه الآية «أن أبا لهب لما قال للنبي: «تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا» أخذ بيده حجرا ليرميه به». (ت. ع، ج30 ص526)

وقال تعالى في الآية 15 من سورة عبس: «بأيدي سفرة».

وقد أورد ابن عاشور ثلاثة وجوه في تفسير المقصود بالسفرة الذين نسبت إليهم الأيدي:

«تأتي وجوه مناسبة في معنى ﴿سفرة﴾، فالمناسب للوجه الأول: أن يكون السفرة كتاب القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ، أو أن يكون المراد قراء القرآن، وبه فسر قتادة وقال: هم بالنبطية القراء، وقال غيرهم: الوراقون باللغة العبرانية.. والمناسب للوجه الثاني: أن يكون محمله الرسل. والمناسب للوجه الثالث: أن يكون محمله الملائكة لأنهم سفراء بين الله ورسله. والمراد بأيديهم: حفظهم إياه إلى تبليغه، فمثل حال الملائكة بحال السفراء الذين يحملون بأيديهم الألوك والعهود. وإما أن يراد: الرسل الذين كانت بأيديهم كتبهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام. وإما أن يراد كتّاب الوحي مثل عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعمر وعثمان وعلي وعامر بن فهيرة». (ت. ع، ج30 ص104)

إن القدرات السلوكية التي أودعها الله في اليد، أهّلتها لكي تكون مصدرا للعديد من الكنايات والاستعارات اللغوية ذات الطابع التمثيلي. فعندما تستعار اليد للتعبير عن فكرة أو مفهوم ما، غالبا ما نجد علاقة وطيدة بين تلك الفكرة أو المفهوم وما تستطيع اليد القيام به.

فقد ذكر القرآن اليد للتعبير عن كل أفعال الإنسان، خاصة ما ارتكب من معاصٍ. وذلك بذكر الله سبحانه وتعالى لما قدمت الأيدي وما فعلت وما كسبت، للتدليل على المعنى نفسه.

قال تعالى في الآية 95 من سورة البقرة: ﴿ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم﴾؛ وفي الآية 62 من سورة النساء: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾؛ والآية 51 من سورة الأنفال: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾؛ والآية العاشرة من سورة الحج: ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾؛ وقال تعالى في الآية 47 من سورة القصص: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾؛ وفي الآية 36 من سورة الروم: «وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون»؛ والآية 35 من سورة يس: «ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 30 و48 من سورة الشورى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾، ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾؛ وفي الآية السابعة من سورة الجمعة: ﴿ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم﴾؛ والآية 40 من سورة النبأ: «إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا».

واستخدمت اليد مجازا عن الذات. إذ قال تعالى في الآية 195 من سورة البقرة: «وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين».

وبما أن اليد هي الأداة المثلى للمقاتلة، كما ورد في الآية 52 من سورة التوبة: ﴿نحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾، فقد ذكر الله تعالى كفّ الأيدي بمعنى وقف القتال.

قال تعالى في الآيتين 77 و91 من سورة النساء: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾، ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ وقال تعالى في الآيتين 20 و24 من سورة الفتح: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم﴾، ﴿وهو الذي كف

أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾.

رأينا ضمن حديثنا عن الآية 64 من سورة المائدة، أن غلّ اليد يستخدم مجازا للتعبير عن البخل. وقد ورد هذا المعنى، كذلك في الآية 29 من سورة الإسراء، إذ قال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾؛ وفي الآية 67 من سورة التوبة ذكر لقبض اليد دلالة على عدم الإنفاق سواء بسبب البخل أو بانعدام الرغبة في القيام بذلك. قال تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم﴾. وفي الآية 29 من سورة التوبة، استخدام لعبارة ﴿عن يد﴾ للتدليل على الانقياد والانصياع. قال تعالى: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون».

قال تعالى في الآية 149 من سورة الأعراف: «ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين». يقول ابن عاشور في المراد من قوله ﴿سقط في أيديهم﴾:

«﴿سُقط في أيديهم﴾ مبني للمجهول، كلمة أجراها القرآن مجرى المثل إذا أُنظمت على إيجاز بديع وكناية واستعارة، فإن اليد تستعار للقوة والنصرة إذ بها يُضرب بالسيف والرمح، ولذلك حين يدعون على أنفسهم بالسوء يقولون: «شَلّتْ من يديّ الأنامل»، وهي آلة القدرة... ويقال ما لي بذلك يدٌ، أو ما لي بذلك يَدانِ أي لا أستطيعه، والمرء إذا حصل له شلل في عضد ولم يستطع تحريكه يحسن أن يقال: سقط في يده ساقط، أي نزل به نازل.

ولما كان ذكر فاعل السقوط المجهول لا يزيد على كونه مشتقا من فعله، ساغ أن يُبنى فعله للمجهول فمعنى «سُقط في أيديهم» سَقط في يده ساقِط فأبطل حركة يده، إذ المقصود أن حركة يده تعطلت بسبب غير معلوم، إلا بأنه

شيء دخل في يده فصيّرها عاجزة عن العمل وذلك كناية عن كونه قد فجأه ما أوجب حيرته في أمره، كما يقال: فُت في ساعده.

وقد استعمل في الآية في معنى الندم وتبيُّن الخطأ لهم، فهو تمثيل لحالهم بحال من سُقط في يده حين العمل». (ت. ع، ج8 ص294)

ويستخدم لفظا الأيد والأيدي في القرآن وفي اللغة العربية بمعنى القوة، كما في قوله تعالى في الآيتين 17 و45 من سورة ص: «اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب»، «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار».

وقد ميز القرآن الكريم بين اليدين، إذ أضفى قيمة إيجابية على اليد اليمنى. ومن ضمن الآداب الإسلامية، وجوب الأكل باليد اليمنى، والحلف في المحاكم الإسلامية يكون برفع اليد اليمنى، كما أن التمييز بين اليد اليمنى واليد اليسرى، سيكون إجراء للتمييز بين أصحاب الجنة وأصحاب النار يوم القيامة.

قال تعالى في الآية 89 من سورة المائدة: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون»؛ وقال تعالى في الآية 71 من سورة الإسراء: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا﴾؛ وفي الاية 67 من سورة الزمر ذِكر لليمين كناية عن القدرة لأن اليد اليمنى أقدر على العمل من اليد اليسرى عند معظم الناس: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾؛ والآية 12 من سورة الحديد: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾؛ وقال في الآيتين 19 و25 من سورة الحاقة: «فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه»، «وأما من

أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه»؛ وفي الآية 39 من سورة المدثر: «إلا أصحاب اليمين»؛ وقال تعالى في الآيتين السابعة والعاشرة من سورة الانشقاق: «فأما من أوتي كتابه بيمينه»، «وأما من أوتي كتابه وراء ظهره» (أي بيده اليسرى وراء ظهره)؛ وفي الآية 19 من سورة البلد: «والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة» (أي الذين يتلقون كتبهم باليد الشمال).

تضمن القرآن الكريم 32 آية بها تعبير يجمع كلمتي: «بين» و«يد» وأحيانا تتضاف إليهما كلمة «خلف»، في صيغ متعددة ومعان مختلفة يغلب عليها الطابع المجازي. ويمكن إجمال تلك المعاني في الآتي:

1 - ورد تعبير (بين يدي) بمعنى قبل أو ماسبق، وهناك من أضفى عليه معنى المعاصرة؛ وتعبير (خلف) بمعنى من بعد أو اللاحق.

قال تعالى في الآيات 66 و97 و255 من سورة البقرة: ﴿فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها﴾، ﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه﴾، ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾؛ وفي الآيتين 3 و50 من سورة آل عمران: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه﴾، ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة﴾؛ وورد مثلهما في الآيتين 46 و48 من سورة المائدة؛ وقال تعالى في الآية 92 من سورة الأنعام: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه﴾؛ والآية 37 من سورة يونس: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه﴾؛ وقال تعالى في الآية 111 من سورة يوسف: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه﴾؛ والآية 76 من سورة الحج: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 31 و46 من سورة سبأ: ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾، ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾؛ والآية 31 من سورة فاطر: ﴿والذي

أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه﴾؛ والآية 45 من سورة يس: «وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون»؛ وقال تعالى في الآية 25 من سورة فصلت: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾؛ وفي الآيتين 21 و30 من سورة الأحقاف: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾، ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه﴾؛ وورد في الآيتين 12 و13 من سورة المجادلة عبارة: ﴿بين يدي نجواكم﴾ بمعنى قبلها؛ وقال تعالى في الآية السادسة من سورة الصف: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة﴾.

2 - بين يديه بمعنى أمامه:

قال تعالى في الآية 11 من سورة الرعد: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾؛ وفي الآية 12 من سورة الحديد: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾؛ والآية 27 من سورة الجن: «إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا».

3 - بين الأيدي وما خلفها بمعنى الإحاطة من كل الجهات:

قال تعالى في الآية 64 من سورة مريم: «وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا»؛ وفي الآية 28 من سورة الأنبياء: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾؛ والآية التاسعة من سورة سبأ: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة فصلت: ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن

خلفهم﴾. أي حين جاءتهم الرسل من كل جوانبهم، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة، وأعملوا فيهم كل حيلة. (ت. ص، ج3 ص118)؛ وفي الآية 42 من سورة فصلت: «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»؛ والآية الثامنة من سورة التحريم: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾.

4 - بين يديه بمعنى تحت إمرته:

قال تعالى في الآية 12 من سورة سبأ عن سيدنا سليمان: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾.

5 - توظيف المعنى الحقيقي لعبارة ﴿يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ كناية عن اللقيط، كما في قوله تعالى في الآية 12 من سورة الممتحنة: «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم»

6 - قال تعالى في الآية الأولى من سورة الحجرات: «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم». يفسر الإمام الرازي قوله تعالى ﴿بين يدي الله ورسوله﴾، قائلا: «أي بحضرتهما لأن ما بحضرة الإنسان فهو بين يديه وهو ناظر إليه وهو نصب عينيه». (ت. ر.ج 28 م14 ص112)

المبحث الثاني

الإيمــــاءات

تعتبر الإيماءات أكثر أشكال الاتصال غير اللفظي تطابقا مع مفهوم «اللغة غير اللفظية» التي تقابل «اللغة اللفظية». فهي تستطيع في بعض أشكالها، أن تحل - تماما - محل الكلام، فيطلق عليها «الإيماءات الرامزة». وبفضل الإيماءات، أصبح الاتصال غير اللفظي أكثر تطورا ومحاكاة للغة اللفظية. إذ أصبح يخضع لمناهج مشابهة لمناهج الدراسات اللغوية، من أجل وضع النحو الذي يضبط تركيب الجمل المشكلة للرسائل غير اللفظية، وكذا تجميع المعجم اللغوي غير اللفظي مجاراة للمعجم اللغوي اللفظي. وقد أدى ذلك إلى الوصول إلى ضبط لغة الإشارة (لغة الصم البكم) التي تتوفر على الشروط اللازمة لأي لغة حتى تقوم بدورها التواصلي. وخير مثال على ذلك، لغة الإشارة الأميركية (American Sign Language).

لقد تعددت محاولات الباحثين لتعريف الإيماءة (أنظر، موسى، 1996، ص87)، لكنها اتفقت على أن الإيماء سلوك حركي يقوم به الجسد. وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نعتبر الإيماء سلوكاً حركياً تقوم به بعض أعضاء الجسد -

خاصة الأطراف - منفردة أو مجتمعة، أو يقوم به الجسد بأكمله، وينتج عنه رسالة تواصلية ما. وهذا السلوك قد يكون متعمدا أو غير متعمد، ويستهدف جسد القائم بالسلوك وأجساد الآخرين، كما يستهدف الأشياء في البيئة المحيطة. وفي حالاته الخاصة التي تتسم بطابعها التواصلي المتعمد، يأخذ السلوك الإيمائي شكلاً تعبيرياً يستند إلى حركات ورموز يتفق على مدلولها القائم بالاتصال والمتلقي. وأبرز أعضاء الجسد التي تقوم بالإيماء: اليد والرأس والرجل والعين والجذع.

ووفقا لهذا التعريف، سنتطرق للسلوك الإيمائي، كما ورد في القرآن الكريم، أخذا في الاعتبار القيد الذي يتمثل في ضرورة توفر عنصر الحركة، والذي يحدّ من تواجد الإيماء ضمن النصوص المكتوبة، إلا في حالات الوصف التي تشير إلى حدوث الإيماء. وهكذا نجد أن القرآن الكريم تضمن بعض أشكال السلوك الإيمائي، كالإيماءات الرامزة والمكيِّفة والموضِّحة، وخلا من الإيماءات المنظِّمة لارتباطها الوثيق بالكلام.

1 - الإيماءات المكيفة

يعرِّف عالم الاتصال غير اللفظي مارك ناب (Mark L. Knapp) الإيماءات المكيِّفة أو المعدِّلة Adaptors بأنها عبارة عن جهود تكيّفية يبذلها الطفل لتلبية رغباته، أو لأداء الأفعال المختلفة، أو لاستخدام العواطف، أو لتطوير الاتصال الاجتماعي. وتسمى هذه الإيماءات بالمكيّفة لأنها تتطور مع تطور الطفولة. وغالبا ما تكون الإيماءات المكيفة مؤشرا عن حالة القلق، وتحدث بكيفية لاشعورية. (Knapp:1972 ,p6) وتنقسم الإيماءات المكيفة إلى: أ - الإيماءات المكيفة للذات، ب - الإيماءات المكيفة للآخرين، ج - الإيماءات المكيفة للأشياء.

أ - الإيماءات المكيفة للذات:

هي الإيماءات التي تقوم فيها بعض أجزاء الجسد بملامسة أعضاء أخرى. بعضها سلوك طبيعي مواكب للسلوك اللمسي الذي ينشأ مع المولود، والبعض الآخر يتعلمه الطفل فيصبح جزءا من سلوكه. ويهدف تعلم بعض الإيماءات المكيفة للذات إلى تسهيل أو إعاقة المنبهات الحسية التي يتلقاها الجسد أو يرسلها عبر قنوات السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس.

لقد اشتمل القرآن الكريم على بعض الآيات التي تشير إلى سلوك إيمائي ينسجم مع تعريف الإيماءات المكيفة للذات. فقد ورد في سورتي البقرة ونوح إشارة إلى إيماءة وضع الإصبع على الأذن تفاديا للأصوات المرتفعة المخيفة كصوت الرعد.

قال تعالى في الآية 19 من سورة البقرة: «أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين»؛ وقال في الآية السابعة من سورة نوح: ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم﴾.

نستشف من هاتين الآيتين مغزى تواصليا في غاية الأهمية. ففي الآية الأولى وضع المنافقون أصابعهم في آذانهم كرد فعل طبيعي يقوم به الجسد لحماية العضو الذي يتعرض للخطر، لأن الأصوات المرتفعة التي يفوق ترددها قدرة طبلة الأذن على التحمل (تقترب من 20 ألف اهتزازة في الثانية. وبمجرد ما تفوق شدة الصوت 500 اهتزازة، فإنها تصبح مخيفة تستدعي حماية الأذن من آثارها)، قد تؤدي إلى تمزيقها، كما أن الإنسان غالبا ما يرى في الرعد والبرق نذيرا بالموت. أما في الآية الثانية فقد وضع قوم سيدنا نوح أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا دعوته فتؤثر فيهم، وقد عُرفوا بشدة كفرهم وعنادهم، وهذه الإيماءة استخدموها - وقد يكونون روادا في ذلك -

كأحد الأدلة على هذا الكفر والعناد.

والسلوك الإيمائي المشابه لوضع الإصبع على الأذن مع اختلاف في المدلول، هو السلوك المصاحب لأداء الأذان، فالمؤذن غالبا ما يضع إصبعيه (السبابتين) في أذنيه أو كفيه بجوار أذنيه أثناء صياحه وكأنه يريد أن يوجه صوته فيبلغ أقصى مدى ممكن، والسلوك ذاته يقوم به بعض المقرئين الذي يرتلون القرآن ويجوّدونه.

قال تعالى في الآية 44 من سورة الأعراف: «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين».

ويذكر لنا القرآن الكريم إيماءة أخرى قام بها قوم نوح وقلدهم فيها قوم عاد وثمود والذين جاءوا من بعدهم، ألا وهي وضع الكف على الفم عند كثرة الضحك. إذ قال تعالى في الآية التاسعة من سورة إبراهيم: «ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب». وتستخدم هذه الإيماءة حتى في مختلف المجتمعات لتفادي الضحك المسترسل المجلجل الذي قد يسبب إزعاجا، وتدخل ضمن قواعد آداب السلوك (الإتيكيت)، أما قوم نوح فكان ضحكهم ساخرا، وربما أرادوا بها أن يضعوا حدا للضحك الزائد الذي يتسبب في آلام للبطن والحنجرة.

وتستخدم إيماءة تغطية الفم، كذلك، لمداراة الكذب عند الأطفال والراشدبن. وقد رصدها الباحث الاسترالي ألن بيز قائلا:

«إذا كذب طفل عمره خمس سنوات على أحد والديه فإن الفم سيغطى

بإحدى اليدين أو كلتيهما بشكل متعمد مباشرة بعد الكذب. إن إيماءة تغطية الفم تنبه الوالدين إلى الكذبة وتبقى هذه الإيماءة تستعمل على مدى الحياة وعادة بتغيير السرعة التي تحدث بها فقط. فعندما يكذب المراهق فإن اليد توضع على الفم كما في حالة الطفل ذي الخمس سنوات ولكن بدلا من وضع اليدين كليا فوق الفم، فإن الأصابع تتحرك ببطء حوله. إن إيماءة تغطية الفم تصبح مطورة أكثر في سن الشباب، فعندما يكذب الكبير فإن دماغه يأمر يده أن تغطي فمه في محاولة لإخفاء الكلمات الخادعة المضللة، تماما كما يفعل طفل الخمس سنوات والمراهق ولكن في اللحظة الأخيرة يتم سحب اليد بعيدا عن الوجه، وإيماءة لمس الأنف هي النتيجة». (بيز، 1992، ص15)

وتبين لنا الآية 44 من سورة الأعراف، وملاحظات ألن بيز أن إيماءة تغطية الفم من الإيماءات القديمة وذات الصبغة العالمية، خاصة على مستوى شكل أدائها؛ أما مدلولها فقد تغير أو تعددت مدلولاتها مع مرور الوقت واختلاف الثقافات.

ومن بين الإيماءات المكيفة للذات ما ورد في الآية السادسة من سورة المائدة حول قواعد الوضوء والغسل والتيمم، حيث يتم غسل بعض أجزاء الجسد ومسح أجزاء أخرى، وكل ذلك يتم بواسطة الكفين.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾.

وصف لنا المولى عز وجل في كتابه سلوكين إيمائيين ملازمين للإنسان منذ القدم قبل أن يستخدم الأدوات والأواني، ولا زالا يمارسان من لدن الإنسان في بعض الأحيان والأمكنة. ونعني بهما: الأكل باليد وشرب الماء

بالكف. وقد وردت الإشارة إلى إيماءة الأكل بكيفية سلبية أي إن من ذكروا لم يستطيعوا القيام بها؛ بينما ذكرت إيماءة الشرب مرة بكيفية إيجابية وتارة بكيفية سلبية.

ففي قصة سيدنا لوط عليه السلام، ذكر لنا الله سبحانه وتعالى الملائكة الذين مروا بسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وكيف استضافهم وقدم لهم الأكل فلم يأكلوا. قال تعالى في الآيتين 69 و70 من سورة هود: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط». ونستفيد من إنكار سيدنا إبراهيم وتوجسه من عدم مد ضيوفه أيديهم لتناول الطعام، أنهم عجزوا أو امتنعوا عن القيام بسلوك طبيعي ومتوقع، الأمر الذي دفعهم إلى طمأنته وتوضيح الأمر.

وفي الآية 249 من سورة البقرة، قال تعالى: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة الرعد: «له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال». يقول أبو السعود في تفسير هذه الآية: «شبه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلا بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه وليس الماء ببالغ فمه أبدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه». (أبو السعود 102/3 في صفوة، ج2 ص77)

وأبلغ مثال للإيماءات المكيفة للذات التي تتخطى احتكاك أعضاء الجسد بعضها ببعض إلى تقطيع الجسد باستخدام آلة، ما ورد في قصة سيدنا

يوسف عليه السلام عن النسوة اللائي بَهَرهُنّ بطلّته.

قال تعالى في الآيتين 31 و50 من سورة يوسف: ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن﴾، ﴿وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾.

ووصف لنا الله سبحانه وتعالى سلوكا إيمائيا قامت به بلقيس ملكة سبأ عند قدومها لسيدنا سليمان عليه السلام. إذ حسبت أرضية صرح سيدنا سليمان ماء، فرفعت طرف ثوبها الأسفل حتى لا يبتل، فانكشف ساقاها. وقد بيّن هذا السلوك عن مدى انبهار بلقيس بما رأت. قال تعالى في الآية 44 من سورة النمل: ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير﴾.

وقوله تعالى في الآية 40 من سورة النور: «أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور»، فيه ذكر لسلوك اليد عندما تقترب من العينين لتُرى وتُدرك.

ب - الإيماءات المكيفة للآخرين

وهي الإيماءات المؤدية إلى ملامسة الآخرين والاحتكاك بهم. ومن أمثلتها الحركات اللازمة لمناولة الآخرين أو الأخذ منهم، والحركات المرتبطة بالهجوم على الآخرين أو حماية الذات منهم، والحركات الضرورية لتوطيد الإعجاب والمودة، أو حركات الانسحاب والفرار، والحركات الضرورية للمعاشرة الجنسية.

نجد في القرآن الكريم أمثلة عديدة لهذا النوع من الإيماءات. فهناك إشارات لمدّ اليد من أجل قتل الآخرين وردت في سور المائدة والأنعام والممتحنة:

إذ قال تعالى في الآيتين 11 و28 من سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾، ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾؛ وقال تعالى في الآية 93 من سورة الأنعام:﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم ﴾؛ وفي الآية الثانية من سورة الممتحنة: «إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون».

وتشتهر إيماءة بسط اليد في حلبات الملاكمة والرياضات القتالية قبيل بدء النزال، عندما يستعد كلا الطرفين بملامسة يدي بعضهما بأكفّ مفتوحة أو مضمومة.

ومن بين الإيماءات المتعلقة بضرب الآخرين، نجد في الآية 12 من سورة الأنفال، قوله تعالى : «إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان». إذ إن ضرب الأعناق يؤدي إلى الموت وضرب الأصابع يعطل المحارب ويشل قدرته على القتال. وأخبرنا القرآن الكريم في الآية 27 من سورة محمد، أن الملائكة سيضربون المنافقين على وجوههم وأدبارهم في الدار الآخرة. قال تعالى: «فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم».

ومثال آخر لإيماءات الضرب، اللكمة التي وجهها سيدنا موسى عليه السلام للقبطي فأردته قتيلا. قال تعالى في الآية 15 من سورة القصص: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه﴾.

وفي وصفه لطباع سيدنا موسى عليه السلام، ذكر لنا القرآن الكريم كيف أن سيدنا موسى جرّ أخاه هارون من شعره تأنيبا له. وهو سلوك إيمائي تأنيبي يقوم به الإنسان الذي هو في منزلة عليا (كالأم والأب والأخ الأكبر) بشدّ الشعر أو الأذن قصد الإيلام دون الإيذاء. قال تعالى في الآية 150 من سورة الأعراف: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾؛ وقال تعالى في الآية 94 من سورة طه: «قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي».

إيماءة أخرى تتمثل في دفع الآخرين أو إلقائهم، وردت في قصة سيدنا يوسف عليه السلام عندما ألقاه إخوته في البئر. قال تعالى في الآية العاشرة من سورة يوسف: «قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين».

جـ - الإيماءات المكيفة للأشياء

وتشمل جميع حركات اليد والرجل التي تهدف إلى لمس الأشياء أو قبضها، أو رفعها أو دفعها. وتشمل الأشياء التي تتحرك برفقة اليد أو الرجل. وتشمل، في مفهومها الواسع، كل احتكاك الجسد بالبيئة المحيطة به، لذا يصعب حصرها. وتتميز بكون تعلمها يتم متأخرا مقارنة بالإيماءات المكيفة للذات وللآخرين.

وقد وردت أمثلة عديدة للإيماءات المكيفة للأشياء. ففي الآية 60 من سورة البقرة ذِكر لعيون موسى الاثنتي عشرة وكيفية تفجّرها. قال تعالى: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا

عشرة عينا﴾. وفي الآية 44 من سورة آل عمران، ذكر الله تعالى القرعة التي تمت لاختيار من يكفل مريم عليها السلام، وذلك بإلقاء السهام: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾؛ وذكر القرآن الكريم في الآيتين 17 و18 من سورة طه، وظائف إيمائية أخرى تقوم بها عصا سيدنا موسى عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى. قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾.

وقال تعالى في الآية 22 من سورة الأعراف: ﴿فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾. يقول ابن عاشور في توضيح معنى الخصف: «حقيقته تقوية الطبقة من النعل بطبقة أخرى لتشتد، ويستعمل مجازا مرسلا في مطلق التقوية للخِرقة والثوب، ومنه ثوب خصيف أي مخصوف أي غليظ النسج لا يشف عما تحته، فمعنى يخصفان يضعان على عوراتهما الورق بعضه على بعض كفعل الخاصف، وضعا ملزقا متمكنا». (ت. ع، ج8 ص50)

وفي الآية السابعة من سورة الأنعام ذكر لإيماءة لمس الأشياء. قال تعالى: «ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين».

ونجد في سور يونس وطه والشعراء والنمل والقصص، مجموعة من الآيات التي تذكر قصة التحدي التي دارت بين سيدنا موسى عليه السلام مع السحرة في حضرة فرعون وقومه، وقد ألقى السحرة حبالهم وألقى سيدنا موسى عصاه فصارت حية.

قال تعالى في الآية 80 من سورة يونس: «فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون»؛ وقال في الآيات 19 و20 و66 من سورة طه: «قال ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هي حية تسعى»، «قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم

يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى»؛ وفي الآيات 32 و43 و44 و45 من سورة الشعراء: «فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين»، «قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون. فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون. فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون»؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة النمل: ﴿وألق عصاك﴾؛ والآية 31 من سورة القصص: ﴿وأن ألق عصاك﴾.

وفي الآية 44 من سورة ص ذكر لإيماءتين إحداهما مكيفة للأشياء والأخرى مكيفة للآخرين، إذ قال تعالى: «وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب».

وذكر لنا الله سبحانه وتعالى في الآية 42 من سورة الزمر حالة الإمساك ونقيضها الإرسال، وهما من صفات اليد التي تمسك بالأشياء أو تطلقها، ولكن دون ذكر للكيفية لأن الممسك هو الله عز وجل. قال تعالى : «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون».

وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة الفيل: «ترميهم بحجارة من سجيل». وهو سلوك إيمائي من نوع خاص لأن الحدث لم يتكرر، ومن يقوم برمي الحجارة، ليس ببشر، كما أن مفعول تلك الحجارة غير عادي.

2 - الإيماءات الرامزة

تعتبر الإيماءات الرامزة من أهم أشكال الإيماءات التي يقوم بها الجسد البشري، وذلك لنجاعتها في المهمة التواصلية التي تؤديها. نجاعة تقارب نجاعة الكلمات والجمل في اللغة اللفظية. وتُعرَّف بكونها: الإيماءات التي لها

ترجمة لفظية مباشرة أو تعريف قاموسي - غالبا ما يتكون من كلمة أو عبارة، وهناك اتفاق كبير بين أفراد الثقافة الواحدة على مدلولها. وتستخدم الإيماءاتْ الرامزة بكيفية شعورية بغرض أن يتلقاها الآخر ويفهمها، ويتحمل القائم بالاتصال تبعاتها، تماما مثل الكلمات.

لقد تضمن القرآن الكريم الإشارة إلى العديد من الإيماءات الرامزة، ولعل أبرزها ما ورد في قصة سيدنا زكريا عليه السلام عندما دعا ربه أن يرزقه بغلام فطُلب منه ألا يكلم الناس ثلاثة أيام، بل يتواصل معهم بواسطة الإيماء، مما يؤكد أن الإيماءات يمكنها أن تحل محل الكلام تماما، ليس فقط لذوي الإعاقة (الصم البكم)، وإنما للأسوياء حسيا.

قال تعالى في الآية 41 من سورة آل عمران: «قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار»؛ وقال في الآية العاشرة من سورة مريم: «قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا». ونستخلص من قوله تعالى ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ﴾ أن الإيماء الرامز هو شكل من أشكال الكلام، وهذه الآية تمنحه القوة التواصلية نفسها التي تتوفر عليها اللغة اللفظية.

وقال تعالى في الآية 29 من سورة مريم: «فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا». ويتضح من صيغة التساؤل المطروح في هذه الآية، أن مريم العذراء عليها السلام رمّزت إيماءة بمعنى: وجهوا كلامكم إليه (أي لابنها). وقد سبق هذه الآية قوله تعالى في الآيات 26 و27 و28: «فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا. فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا». وبصيامها عن الكلام، تكون قد لجأت للغة الإشارة، كما فعل سيدنا زكريا عليه السلام.

وتحدثت بعض الآيات القرآنية عن شكل من أشكال الطلب والدعاء الذي غالبا ما يتم عبر رفع اليدين نحو السماء وكفّيهما مفتوحتين وباطنهما نحو الوجه. وهذا هو الوضع الذي غالبا ما يتم في حالات التوسل والتضرع لله سبحانه وتعالى طلبا في رحمته وغفرانه. وهذا السلوك الإيمائي الذي غالبا ما يكون مرفوقا بالدعاء، يدركه الناظر من بعيد ويفهم طبيعته.

وهكذا، فقد ورد ذكر التضرع في الآيتين 42 و43 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: «ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون»؛ وقال تعالى في الآية 94 من سورة الأعراف: «وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون»؛ وتشير الآية 32 من سورة لقمان إلى نوع من الدعاء الذي يشبه التضرع: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين﴾.

وورد في السيرة النبوية الشريفة، أن النبي ﷺ استخدم لغة الإيماء عند دعائه لأسامة بن زيد رضي الله عنه، فقد كان وقتها النبي ﷺ لا يقوى على الكلام من شدة المرض:

«قال ابن إسحاق: وحدثني سعيد بن عبيد بن السبّاق، عن محمد بن أسامة، عن أبيه أسامة بن زيد، قال: لما ثَقُل رسول الله ﷺ هبطتُ وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ، وقد أُصْمِتَ فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليّ، فأعرف أنه يدعو لي». (ابن هشام، ج4 ص ص308-309)

وذكر لنا القرآن الكريم آية من آيات الله التسع التي منحها سيدنا موسى عليه السلام، ألا وهي إدخاله ليده في جيبه فتخرج بيضاء. إذ يمكن اعتبار هذا السلوك إيماءة رامزة خاصة لا يمكن تعلمها أو تداولها من لدن الغير، إلا

أن فكرتها كثيرا ما استخدمها الناس من بعد. فكل من يبحث عن إيماءة رامزة مميزة يسعى إلى ابتكار سلوك خاص فيصبح ضمن الهوية. كما فعل هتلر برفعه ليده. وكذا إيماءات التحايا التي تختلف من شعب لآخر، وإيماءات التحايا العسكرية.

لقد وردت قصة اليد البيضاء في الآية 108 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: «ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين»؛ وقال في الآية 22 من سورة طه: «واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى»؛ والآية 33 من سورة الشعراء: «ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين»؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة النمل: «وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين»؛ وفي الآية 32 من سورة القصص: «اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين».

ومن بين الإيماءات الرامزة المشهورة التي مازالت تستخدم بكثرة في وقتنا الحالي، إيماءة التعبير عن الاستغراب والتعجب المصحوب بالحسرة أحيانا، والتي ترمّز بتقليب الكفين. أي بتبادل ضرب باطن الكفين إحداهما للأخرى، بحيث تكون الأولى في الأسفل والثانية في الأعلى في وضع متشابك والأصابع شبه معقوفة، وينتج عن ذلك صوت.

أخبرنا القرآن الكريم بحدوث هذه الإيماءة في الآية 42 من سورة الكهف، إذ قال تعالى: «وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا». ومن خلال ترتيب الجمل في هذه الآية، نجد أن رد الفعل الإيمائي سبق رد الفعل اللفظي، أي إن هذه الإيماءة كانت الأقرب والأنسب للتعبير عن الحالة النفسية التي حلتّ بالمشرك.

إيماءة رامــزة أخـرى مــرتبطة بالكف وردت في سـورة الفـتح، وتتـعلق بالمصافحة أو وضع اليد فوق يد الطرف الآخر بحيث تكون الكف مفتوحة وباطنها يتجه نحو الأسفل. وقد يكون هذا ما حدث فعلا في بيعة الرضوان. قال تعالى في الآية العاشرة: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾. وقد فسّر الزمخشري قوله تعالى ﴿يد الله فوق أيديهم﴾، بقوله: «يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين: هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما». (ت. ز، ج4 ص326) وتستخدم هذه الإيماءة في وقتنا الراهن بكثرة عند عقد القران، في بعض المجتمعات العربية، وخصوصا في المجتمع المصري. ونجدها بصورة أوضح في بعض مباريات كرة القدم، عندما يجتمع اللاعبون قبيل انطلاق المباراة في شكل دائري ويضعون أيديهم فوق بعضها بعضاً، دلالة على المؤازرة والمبايعة والتعاهد على النصر.

ووردت في الآية 31 من سورة النور إشارة إلى إيماءة ترمّز بالرِجْل، وذلك بإلباس الرِجْل حليا والمشي بكيفية تجعل الحلي يصدر صوتا فيلفت أنظار الآخرين. قال تعالى في الآية التي تتحدث عن احتشام المرأة: ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾. وقد قال ابن عباس وقتادة في سبب نزول هذه الآية: «كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها». (ت. ر.ج23 م12 ص210)

وقال تعالى في الآية 42 من سورة ص لسيدنا أيوب عليه السلام: «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب». أي «قلنا له اضرب برجلك الأرض فضربها فنبعت له عين ماء صافية». (ص. ت، ج3 ص38)

ولعل أشهر إيماءة رامزة وردت في القرآن، هي إيماءة عض الأنامل من الغيظ والحسرة والندامة. وهي من الإيماءات المشهورة عالميا. وترمّز بوضع السبابة ممدودة أفقيا بين الفكين، وعضّها. وتعتمد على العض لأنه آخر وسيلة يمكن اللجوء إليها للدفاع عن النفس، أي إنها وسيلة المغلوب على أمره العاجز عن معاقبة الآخرين، فيفرّغ غضبه وغيظه بعض إصبعه، أو يشعر الإنسان بأنه اقترف ذنبا وعليه أن يعاقب نفسه بالعض. ويصاحب الإيماءة تعبير وجهي غاضب أو حزين. وبالإضافة إلى الغيظ والندم، تستخدم هذه الإيماءة للتعبير عن التأنيب والخوف من الخطر والتهديد. (موسى1996، ص168)

قال تعالى في الآية 119 من سورة آل عمران: «ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور»؛ وقال تعالى في الآية 27 من سورة الفرقان: «ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا». إن ورود إيماءة عض الأنامل في سورة آل عمران دليل على قدمها، وورودها في سورة الفرقان دليل قاطع على عالميتها طالما أنها تخبر عن حال بعض الناس في الآخرة، الذين يلجأون إليها للتعبير عن ندمهم وقلة حيلتهم، بغض النظر عن خلفياتهم الثقافية والعرقية التي انحدروا منها في الحياة الدنيا.

والإيماءة الرامزة الأخيرة التي سنتطرق إليها في هذا المقام تتعلق بإيماءة لطم الوجه – من لدن النساء خاصة – تعبيرا عن التعجب. إذ قال تعالى في الآية 29 من سورة الذاريات: «فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم». وترمّز هذه الإيماءة، في الغالب، بلطم الخدين بباطن الكفين لطما خفيفا وإظهار تعبيرات وجهية تدل على الاندهاش، وذلك تعبيرا عن

التعجب. وقد روى الإمام الطبري طريقة أخرى لترميز هذه الإيماءة، في خضم توضيحه للكيفية التي لطمت بها زوجة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وجهها. قال الطبري: «ثنا مهران، عن سفيان ﴿فصكت وجهها﴾ وضعت يدها على وجهها تعجبا، والصك عند العرب: هو الضرب. وقد قيل: إن صكها وجهها، أن جمعت أصابعها، فضربت بها جبهتها». (ت. ط، ج11 ص464)

3 - إيماءات الرأس والعينين

إن إيماءات الرأس لا تختلف من حيث أشكالها عن إيماءات اليدين، ففيها ما هو رامز أو مكيّف أو موضّح للحديث أو منظِّم له. ولم ترد في القرآن الكريم سوى آيات قليلة تشير إلى إيماءات رامزة بالرأس أو العينين، نذكر منها أربع آيات للإيماء بالرأس؛ وآية واحدة للإيماء بالعينين.

ففي الآية 43 من سورة إبراهيم، ورد ذكر إيماءة رفع الرأس إلى أعلى أثناء السير ليس تكبرا كما هو معتاد، بل تعبيرا عن الذل. إذ قال تعالى: «مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء». يقول الإمام الرازي في تفسيرِ هذه الآية:

«في تفسير الإهطاع أقوال أربعة: القول الأول: قال أبو عبيدة: هو الإسراع. يقال: أهطع البعير في سيره واستهطع إذا أسرع، وعلى هذا الوجه فالمعنى: أن الغالب من حال من يبقى بصره شاخصا من شدة الخوف أن يبقى واقفا، فبيّن الله تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد، فإنهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين، أي مسرعين نحو ذلك البلاء. القول الثاني: في الإهطاع قال أحمد بن يحيى: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع. والقول

الثالث: المهطع الساكت. والقول الرابع: قال الليث: يقال للرجل إذا قر وذل: أهطع». (ت. ر.ج19 م10 ص149)

ويقول في تفسير قوله تعالى ﴿مقنعي رؤوسهم﴾: «الإقناع رفع الرأس والنظر في ذل وخشوع، فقوله ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ أي رافعي رؤوسهم والمعنى أن المعتاد فيمن يشاهد البلاء أنه يطرق رأسه عنه لكي لا يراه، فبين تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد وأنهم يرفعون رؤوسهم». (ت. ر.ج19 م10 ص149) ويلاحظ هذا السلوك في بعض حالات الاختلال العقلي.

وتحدثنا الآية 51 من سورة الإسراء عن إحدى أشهر إيماءات الرأس، وهي إيماءة تحريك الرأس تعبيرا عن القبول أو الرفض. إذ يتم تحريك الرأس من أعلى إلى أسفل أو إلى اليمين وإلى اليسار. وتعتبر هذه الإيماءة من الإيماءات الشائعة وذات دلالات متناقضة باختلاف المجتمعات. فبينما نجد في بعض المجتمعات أن تحريك الرأس من أعلى إلى أسفل (Head nod) يعني القبول أو الإيجاب أو «نعم»؛ ومن أسفل إلى أعلى (Head toss) يعني الرفض؛ وتحريكه نحو اليمين ونحو الشمال (Head shake) يعني الرفض أو السلب أو «لا» كذلك. نجد في مجتمعات أخرى العكس تماما. وبالرغم من أن دراسة موريس Desmond Morris وزملائه سنة 1979، بينت أن إيماءة الرأس منعدمة في شمال أوروبا وشبه الجزيرة الإيبيرية وتونس، نادرة في شمال إيطاليا وجزيرة ساردينيا، وتستخدم بكثرة في جنوب إيطاليا وجزيرة مالطا واليونان وتركيا (Morris,1979,p164)، بالرغم من أن هذه النتائج التي اقتصرت على جزء محدد من العالم، فإن ورود هذه الإيماءة في القرآن الكريم، يؤرّخ لوجودها في شبه الجزيرة العربية، ويكسبها طابعا عالميا.

قال تعالى: «أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن

يكون قريبا». وتسمى هذه الإيماءة في اللغة العربية «إنغاض الرأس». وقد بيّنها الفخر الرازي في تفسيره: «قال الفراء يقال: أنغض فلان رأسه إنغاضا إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل وسمي الظليم نغضا لأنه يحرك رأسه، وقال أبو الهيثم: يقال للرجل إذا أخبر بشيء فحرك رأسه إنكارا له قد أنغض رأسه فقوله ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾ يعني يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد». (ت. ر.ج20 م10 ص229)

وفي سورتي الشعراء والسجدة إشارة إلى تنكيس الرأس تعبيرا عن الخضوع والذل. إذ قال تعالى في الآية الرابعة من سورة الشعراء: «إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين». وقد اختلف المفسرون في المراد بالأعناق. فمنهم من أخذ بظاهر اللفظ أي جمع عنق وهو عضو الجسد الذي يقع بين الرأس والكتفين؛ وقال البعض الأعناق: هم الكبراء من الناس؛ وبعض آخر يرى بأن الأعناق هم الجماعات. ويرى الإمام الطبري: أن «أولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بما قال أهل التأويل في ذلك أن تكون الأعناق هي أعناق الرجال، وأن يكون معنى الكلام: فظلت أعناقهم ذليلة للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء». (ت. ط، ج9 ص ص432-433)

وقال تعالى في الآية 12 من سورة السجدة: «ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون». وقد اتفق بعض المفسرين على أن تنكيس الرؤوس دليل على الإحساس بالذل والحزن والاستحياء.

لقد وردت إيماءة الغمز بالعينين والحاجبين في الآيتين: الأولى من سورة الهمزة. إذ قال تعالى: «ويل لكل همزة لمزة»، والآية 58 من سورة التوبة: «ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون».

اختلف المفسرون في معنى الهمز واللمز. وقد أورد بعض هذه الاختلافات، الإمام الفخر الرازي في تفسيره: «أحدها، قال ابن عباس: الهمزة المغتاب، واللمزة العياب؛ وثانيها، قال أبو زيد: الهمزة باليد واللمزة باللسان؛ وثالثها، قال أبو العالية: الهمزة بالمواجهة واللمزة بظهر الغيب؛ ورابعها، الهمزة جهرا واللمزة سرا بالحاجب والعين؛ وخامسها، الهمزة واللمزة الذي يلقب الناس بما يكرهون... وسادسها، قال الحسن، الهمزة الذي يهمز جليسه يكسر عليه عينه واللمزة الذي يذكر أخاه بالسوء ويعيبه...

واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب، ثم هذا على قسمين فإنه إما أن يكون بالجد كما يكون عند الحسد والحقد، وإما أن يكون بالهزل كما يكون عند السخرية والإضحاك، وكل واحد من القسمين، إما أن يكون في أمر يتعلق بالدين، وهو ما يتعلق بالصورة أو المشي، أو الجلوس وأنواعه كثيرة وهي غير مضبوطة، ثم إظهار العيب في هذه الأقسام الأربعة قد يكون لحاضر، وقد يكون لغائب، وعلى التقديرين فقد يكون باللفظ، وقد يكون بإشارة الرأس والعين وغيرهما». (ت. ر.ج32م 16 ص ص92-93) ويتبين من هذا التفسير إلمام الرازي الواسع بلغة الجسد بصفة عامة، والإيماءات بصفة خاصة.

ويقول ابن عاشور: «همزة: وصف مشتق من الهمز. وهو أن يعيب أحد أحدا بالإشارة بالعين أو بالشدق أو بالرأس بحضرته أو عند توليه... ولمزة: وصف مشتق من اللمز وهو المواجعة بالعيب». (ت. ع، ج30 ص472)

المبحث الثالث

التسبيح

أقرب ما يتبادر إلى الذهن في مدلول التسبيح، هو قول: سبحان الله. أي إن التسبيح قول في المقام الأول، ولكن مع ذلك، فهو فعل يسعى به العبد لتمجيد الخالق. فالصلاة بمجملها تسبيح والركوع تسبيح والسجود تسبيح. كما أن جميع مخلوقات الله تسبّح بحمده بطرق مختلفة لا يعلم أكثرها إلا الله.

إن ما دفعني إلى تصنيف التسبيح ضمن باب الإيماء، هو أحد أشكال أدائه التي تتم باستخدام السُّبْحَة وهي «الخَرَزات التي يَعُدّ المُسَبِّح بها تسبيحه» (ابن منظور، ج2 ص473)، لأن السبحة التي تتضمن 99 أو مائة خرزة تستخدم وسيلة للعد، بتحريك خرزاتها بواسطة الأصابع أثناء قول «سبحان الله» أو «الحمد الله» أو «الله أكبر» أو أي أذكار أخرى، مما يضفي عليها طابعا إيمائيا يدركه الناظر فيعلم طبيعة العمل الذي يقوم به المُسبِّح. وفي حالة عدم التوفّر على سُبحة، غالبا ما يلجأ المُسبِّح إلى استخدام أصابع كفيه، وذلك بلمسها بمقدم الإبهام (ويندرج هذا السلوك ضمن الإيماءات المكيفة للذات، كما رأينا

في حديثنا في المبحث السابق عن الإيماء، بينما يندرج استخدام السبحة ضمن الإيماءات المكيفة للأشياء).

وللتسبيح فضل كبير في غفران الذنوب، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه في باب الصلاة: «عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: من سبّح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. غُفِرتْ خطاياه، وإن كانت مثل زَبَد البحر». (المنذري،2000، ص105)

وروى الإمام الدارمي في سننه: «أَخْبَرَنَا عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ كَثِيرِ بْنِ أَفْلَحَ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ أُمِرْنَا أَنْ نُسَبِّحَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وثلاثين وَنَحْمَدَهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنُكَبِّرَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ فَأُتِيَ رَجُلٌ أَوْ أُرِيَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ أَمَرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُسَبِّحُوا اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدُوا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتُكَبِّرُوا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَاجْعَلُوهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ وَاجْعَلُوا مَعَهَا التَّهْلِيلَ فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ افْعَلُوهَا». (ش. صخر، 1997)

وقد أجمل الإمام الرازي في تفسيره، معاني التسبيح كما وردت في القرآن الكريم في التنزيه، حيث أورد ثمانية أمثلة، وفي التعجب، حيث أورد 15 مثالا. (ت. ر.ج2 م1 ص ص188-189).

أحصينا في هذه الدراسة 38 آية قرآنية تشير إلى أفعال التسبيح (ويغلب عليها أفعال الأمر خاصة فيما يتعلق بالبشر وعلى راسهم الأنبياء والرسل) التي تحيلنا إلى الكيفية التي تتم بها عملية التسبيح، مما يمكننا من أن ننعتها بالسلوك الإيمائي. وفي هذا الصدد، يمكن تقسيم عملية التسبيح وفقا لنوعية المسبحين. فبالرغم من أن هناك العديد من الآيات التي تشير إلى

قيام جميع المخلوقات بعملية التسبيح، إلا أننا نجد آيات أخرى تخص كائنات معينة بالتسبيح. فبالإضافة إلى تسبيح كل ما في السموات والأرض، ذكر الله تعالى تسبيح الملائكة، وتسبيح الأنبياء والرسل، وتسبيح الناس، وتسبيح بعض الموجودات الأخرى كالشجر والرعد والجبال وغيرها.

1 - تسبيح كل المخلوقات

قال تعالى في الآية 44 من سورة الإسراء: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾؛ وفي الآية 41 من سورة النور: «ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون»؛ والآية الأولى من سورة الحديد: «سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم»؛ وقال تعالى في الآية 24 من سورة الحشر: «هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم»؛ وفي الآية الأولى من سورة الصف: «سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم»؛ والآية الأولى من سورة الجمعة: «يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم»؛ والآية الأولى من سورة التغابن: ﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾.

2 - تسبيح الملائكة

قال تعالى في الآية 30 من سورة البقرة: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾؛ وفي الآية 206 من سورة الأعراف: «إن الذين عند ربك لا

يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون»؛ والآية 13 من سورة الرعد: ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾؛ وقال تعالى في الآية 20 من سورة الأنبياء: «يسبحون الليل والنهار لا يفترون»؛ وفي الآية 166 من سورة الصافات: «وإنا لنحن المسبحون»؛ والآية 75 من سورة الزمر: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾؛ والآية السابعة من سورة غافر: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 38 من سورة فصلت: «فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الشورى: ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾.

3 - تسبيح الأنبياء والرسل

قال تعالى في الآية 41 من سورة آل عمران عن قصة سيدنا زكريا عليه السلام: «قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار»؛ وقال تعالى للرسول ﷺ في الآية 98 من سورة الحجر : «فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين»؛ والآية 130 من سورة طه: «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى»، والآية 58 من سورة الفرقان: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده﴾، والآية 55 من سورة غافر: «فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار»، والآيتين 39 و40 من سورة ق: «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود»، والآيتين 48 و49 من سورة الطور: «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم»، وقال تعالى

لرسوله الكريم في الآيات 74 و96 من سورة الواقعة و52 من سورة الحاقة: «فسبح باسم ربك العظيم»، وفي الآية 26 من سورة الإنسان: «ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا»، والآية الأولى من سورة الأعلى: «سبح اسم ربك الأعلى»، والآية الثالثة من سورة النصر: «فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا»؛ وقال تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: «كي نسبحك كثيرا»؛ وقال تعالى عن نبي الله يونس عليه السلام في الآيتين 143 و144 من سورة الصافات: «فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون»؛ وقال تعالى عن نبي الله داود عليه السلام في الآية 18 من سورة ص: «إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق».

4 - تسبيح عامة الناس (المؤمنين)

قال تعالى في الآية 36 من سورة النور: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال»؛ وفي الآية 15 من سورة السجدة: «إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون»؛ وقال تعالى في الآية 42 من سورة الأحزاب: «وسبحوه بكرة وأصيلا»؛ وفي الآية التاسعة من سورة الفتح: «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا»؛ والآية 28 من سورة القلم: «قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون».

5 - تسبيح الكائنات الأخرى

كما رأينا في الآية 41 من سورة النور، والآية 13 من سورة الرعد، والآية 18 من سورة ص، فإن الطير والرعد والجبال، كلها تسبح بحمد ربها، دون أن ندري كيفية هذا التسبيح.

المبحث الرابع

التحـــــية

تعتبر التحية - عند الاستقبال أو التوديع - أحد أبرز مكونات الاتصال البشري. وبالرغم من أن التحية لا تقتصر على بني البشر، إذ نجدها لدى الكثير من الكائنات الحية وعلى رأسها الرئيسات، إلا أن الإنسان يوليها اهتماما خاصا ويضفي عليها طابعا رمزيا يحظى بقدر كبير من الثبات والاستمرارية. ولعل التحية من أكثر أشكال التواصل التي تتعدد بتعدد الثقافات والمجتمعات. ومن بين الأشياء التي يسعى إليها الزائر لبلد ما، معرفة الكيفية التي تؤدى بها التحية، لأنها مفتاح التواصل والقبول. وفي كثير من المجتمعات، يُفَسَّر عدم إلقاء التحية وكأنه تعبير عن العدائية أو عدم الاهتمام.

لذلك نجد أن الدين الإسلامي أولى اهتماما كبيرا لإلقاء التحية من حيث التشجيع على إلقائها ومن حيث تطوير صيغتها حتى تصبح أكثر دلالة على المستوى التواصلي. فقد حث الرسول ﷺ المسلمين على إلقاء التحية.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم ست. قيل ما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه». وفي رواية أخرى: قال رسول الله ﷺ: «خمس تجب للمسلم على أخيه: رد السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتّباع الجنائز». كما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يسلّم الراكب على الماشي والماشي على القاعد، والقليل على الكثير». (المنذري ص ص420–421)

وروى الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن رجلا سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام، على من تعرف، وعلى من لم تعرف». (صحيح البخاري، ص673)

وروى الإمام مالك: «حَدَّثَنِي عَنْ مَالِك عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُهَاجِرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ». (ش. صخر،1997)

يتضح من الأحاديث النبوية التي أوردناها، (وكما سنرى في الآيات التي سترد) أن التحية في الإسلام تعتمد – في المقام الأول على القول وليس على الفعل. فقد ذكر الفخر الرازي الكيفية التي كانت تؤدى بها التحية في مختلف الديانات، قائلا: «قالوا: تحية النصارى وضع اليد على الفم، وتحية اليهود بعضهم لبعض الإشارة بالأصابع، وتحية المجوس الانحناء، وتحية العرب بعضهم لبعض أن يقولوا: حياك الله، وللملوك أن يقولوا: أنعم صباحا، وتحية المسلمين بعضهم لبعض أن يقولوا: السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته». (ت. ر.ج10 م5 ص218)

وكون تحية الإسلام تعتمد على قول «السلام»، لا ينفي مصاحبة هذا القول بسلوك إيمائي. فقد كانت المصافحة عند السلام من عادة الرسول ﷺ. إذ قال عليه الصلاة والسلام: «إذا تصافح المسلمان تحاتت ذنوبهما كما يتحات ورق الشجر». (ت. ر.ج10 م5 ص220) والمصافحة غالبا ما تتم بواسطة اليدين عند تشابك الكفين وقد يرافق ذلك الضغط على الكف الأخرى وهز اليد للتشديد على الترحيب. وفي معجم لسان العرب: «المصافحة: الأخذ باليد، والتصافح مثله. والرجل يصافح الرجل إذا وضع صُفح كفه في صُفح كفه، وصُفْحا كفيهما: وجهاهما». (ابن منظور، ج2 ص514)

إن التحية من أبرز آداب الإسلام. وإلقاء التحية سنة وردها واجب. إذ قال تعالى في الآية 86 من سورة النساء: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾، وقيل في ردها بأحسن منها أن يزيد الراد على ملقي التحية حتى يصل مداها بقوله: «والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته».

كما وردت الدعوة إلى التحية بصيغتها الإسلامية في الآية 94 من سورة النساء، إذ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾؛ وقال تعالى في الآية 54 من سورة الأنعام: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم أن يلقي السلام على من اصطفى من عباده، في الآية 59 من سورة النمل، إذ قال تعالى: «قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون».

وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام على رسوله الكريم. إذ قال تعالى في الآية 56 من سورة الأحزاب: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما».

ومن بين أشكال إلقاء التحية، الاستئذان قبل الدخول على الآخرين في منازلهم أو خلوتهم. قال تعالى في الآيات 27 و58 و59 و61 من سورة النور: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون»، «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم. وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم»، ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾.

ونستشف الطبيعة الإيمائية للاستئذان من الحديث النبوي الشريف الذي رواه البخاري «عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتيت النبي ﷺ في دَيْن كان على أبي، فدققت الباب، فقال: (من ذا). فقلت: أنا، فقال: (أنا أنا). كأنه كَرِهَها». (البخاري، 1999، ص674)

وقد حيّا الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنبياءه ورسله نوحاً ويحيى وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس، وسلّم على جميع المرسلين.

قال تعالى في الآية 48 من سورة هود: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة مريم: «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا»؛ وفي الآيات 79 و109 و120 و130 و181: «سلام على نوح في العالمين»، «سلام على إبراهيم»، «سلام على موسى وهارون»، «سلام على إلياسين»، «وسلام على المرسلين». وقال تعالى على لسان سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام في الآية 33 من سورة

مريم: «والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا».

ووعد المولى عز وجل أهل الجنة بأن لهم سلام كريم من ربهم الرحيم. إذ قال تعالى في الآية 58 من سورة يس: «سلام قولا من رب رحيم».

والسلام، هو كذلك تحية الملائكة. قال تعالى في الآية 69 من سورة هود: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام﴾؛ وفي الآية 24 من سورة الرعد: «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»؛ والآية 52 من سورة الحجر: ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ﴾؛ وقال تعالى في الآية 32 من سورة النحل: «الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون»؛ وفي الآية 62 من سورة مريم: ﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ﴾؛ والآية 75 من سورة الفرقان: «أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما»؛ والآية 73 من سورة الزمر: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين»؛ والآية 25 من سورة الذاريات: «إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون»؛ وقال تعالى في الآيتين الرابعة والخامسة من سورة القدر: «تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر. سلام هي حتى مطلع الفجر».

يبين لنا القرآن الكريم أن «السلام» هو تحية المسلمين في الحياة الدنيا، وتحية كل المؤمنين الذين يجازيهم الله بالجنة من أتباع سيدنا محمد ومن سبقوه من الرسل، أي إن السلام هو التحية العالمية في الدار الآخرة.

قال تعالى في الآية 46 من سورة الأعراف: ﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم﴾؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة يونس: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام﴾؛ والآية 23 من سورة إبراهيم: ﴿ تحيتهم

فيها سلام﴾؛ والآية 44 من سورة الأحزاب: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 26 و91 من سورة الواقعة: «إلا قيلا سلاما سلاما»، «فسلام لك من أصحاب اليمين».

ووعد الله الذين يحيون رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير تحية الإسلام عامدين إلى إظهار النفاق والفتنة، وعدهم بجهنم. إذ قال تعالى في الآية الثامنة من سورة المجادلة: ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيّك به الله﴾.

وقد اتفق بعض المفسرين ومن بينهم الإمام الطبري والرازي والزمخشري والصابوني في أن التحية التي كانوا يحيون بها الرسول صلى الله عليه وسلم هي «السام عليكم» بدلا من «السلام عليكم» أي يريدون الموت. روى الإمام الطبري عدة أحاديث تذكر هذه التحية المحرّفة، نذكر منها قوله: «.. عن عائشة قالت: كان اليهود يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: السام عليكم، فيقول: عليكم. قالت عائشة: السام عليكم وغضب الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله لا يحب الفاحش والمتفحِّش، قالت: إنهم يقولون: السام عليكم، قال: إني أقول: عليكم». (ت. ط، ج12 ص15)

إن عدم إلقاء التحية وعدم الترحيب بالآخرين دليل على اتخاذ موقف سلبي تجاههم، ويحمل في طياته الكثير من الغضب والتوعّد. وتبين لنا الآيتان 59 و60 من سورة ص، أن تحية أصحاب النار هي: «لا مرحبا». قال تعالى «هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار. قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار».

وفي تفسيره لهاتين الآيتين، يقول الإمام الرازي: «.. قيل إن قوله ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم، وقوله ﴿لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار﴾ كلام الرؤساء... وقوله تعالى ﴿لا مرحبا بهم﴾ دعاء منهم على أتباعهم، يقول الرجل لمن يدعو له مرحبا أي أتيت رحبا في

البلاد لا ضيقا أو رحبت بلادك رحبا، ثم يدخل عليه كلمة لا في دعاء السوء. وقوله ﴿بهم﴾ بيان للمدعو عليهم أنهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ (الأعراف: 38) قالوا أي الأتباع ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم﴾ يريدون أن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به». (ت. ر. ج26 م 13 ص223)

الفصل الرابع

الهيئة وأوضاع الجسم

يدرس الباحثون الأوضاع التي يتخذها جسم الإنسان منذ ولادته إلى أن يموت، ضمن ما يعرف بـ «الهيئة» ويقابلها في اللغة الإنجليزية مصطلح Posture. وإن كانت ترجمة المصطلح الإنجليزي إلى العربية غير دقيقة، باعتبار أن كلمة «هيئة» في اللغة العربية غالبا ما تعني مظهر (Appearance)، كما أن بعض القواميس العربية ـ الإنجليزية تترجم Posture إلى: «وقفة؛ جِلسة؛ وضْعة» (المورد، ص712) أي إنها تترجم المصطلح إلى بعض محتوياته. وقد سعينا لترويج مصطلح «هيئة» مقابل Posture فس دراستنا السابقة للاتصال غير اللفظي (موسى، 1996)، وارتأتينا في هذه الدراسة، أن نزيد من توضيحه بإضافة عبارة «أوضاع الجسم» إليه حتى يفهم المتلقي المقصود من هذا المصطلح.

ويلاحظ في العديد من الدراسات الحديثة التي اهتمت بالهيئة وأوضاع الجسم، أنها اقتصرت على الأوضاع الجسدية المألوفة كالاستلقاء والجلوس

والوقوف والمشي والجري - مع تركيز خاص على الجلوس والوقوف - دون الاهتمام بالأوضاع الأخرى التي قد يتخذها جسم الإنسان، أو تتخذها المخلوقات الأخرى. وهي أوضاع قد تثري معرفتنا بطبيعة الحياة التي نعيشها، وطبيعة الكون الذي يضمنا.

ومن خلال دراستنا للهيئة وأوضاع الجسم، كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، نستطيع أن نوسّع المفهوم الذي يشير إليه هذا المصطلح، ومن ثم يمكن أن نعيد تعريفه بناء على العديد من الأوضاع غير المألوفة، والتي أخبرنا بها القرآن الكريم.

وهكذا، يمكننا أن نعرف الهيئة بأنها: الأوضاع المختلفة التي قد يتخذها الكائن في حالات الحركة أو حالات السكون، وفقا لطبيعة تكوينه الجسدي سواء كان صلبا أو سائلا أو غازيا، وسواء كان شفافا أو معتما، ومدى المرونة التي تَسِم الارتباط بين جزيئاته. وتستطيع الأجسام المختلفة أن تتخذ العشرات من الأوضاع الجسدية، كالاستلقاء والاتكاء والجلوس والسجود والركوع والانحناء والوقوف والمشي والجري والسباحة والطيران والصعود والهبوط والقفز والدوران والانفجار والانكماش.. وغيرها من الأوضاع التي نشاهدها لدى المخلوقات. فضلا عن الهيئة والأوضاع التي لا يمكن توصيفها لأنها خارجة عن نطاق الإدراك البشري، وهي التي اقترنت بصفات الله سبحانه وتعالى.

وضمن هذا التعريف الشامل، وجدنا أن القرآن الكريم قد تضمن كما هائلا من المادة العلمية التي تفيد الباحثين في الهيئة وأوضاع الجسم، وقد استعرضناها في تسعة مباحث.

ففي المبحث الأول، تطرقنا لوضع القيام أو الوقوف، كما يعرفه العرب، وكما ورد في القرآن الكريم، واستعرضنا بعض المهام التي يؤديها وضع القيام

عندما يتخذه شخص معين في حضور الآخرين.

وتضمن المبحث الثاني هيئة الجلوس ، وفوائدها للجسم، ودلالاتها التواصلية السلبية، عندما تعني التكاسل والتخلف عن الركب.

أما المبحث الثالث، فقد خصصناه للاستلقاء والنوم الذي يدل على السكون وقلة الحركة والبحث عن الراحة أو عدم تأهّل الجسم للقيام بالأنشطة التي تتطلب حركة وتنقّلا عبر الأمكنة.

وتضمن المبحث الرابع هيئة المشي أو السير - كما يكثر ذكره في القرآن - وارتباطه بالتنقل والتجوال، والمنافع التي تنتج عنه.

وكان البحث الخامس من نصيب الجري الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركة والسرعة والقوة والخوف.

وتطرقنا في المبحث السادس للصلاة التي يتم فيها توظيف وضعي الوقوف والجلوس، وينتج عنها أوضاع جديدة ذات دلالات تواصلية قوية كالركوع والسجود والاصطفاف والوقوف دون التفات والجلوس وفقاً لنمط محدد.

وتضمن المبحث السابع وضعي الهبوط والصعود، المرتبطين بطبيعة التكوين الجسدي للهابط أو الصاعد.

وخصصنا المبحث الثامن للبعث والحشر باعتبارهما حدثين مرتبطين بالحياة الآخرة، ويتضمنان أوضاعا جسدية غير مألوفة في الحياة الدنيا.

أما المبحث الأخير، فقد أجملنا فيه بقية الأوضاع الجسدية التي تضمنها القرآن الكريم، والتي تكمل الأوضاع الواردة في المباحث السابقة. وقد بلغ عدد هذه الأوضاع 110 أوضاع جسدية. ولا شك أن هذه الأوضاع ستكون مادة دسمة لباحثي الاتصال غير اللفظي عبر الهيئة.

المبحث الأول

القيام (أوالوقوف)

القيام أو الوقوف هو أحد أوضاع الجسد التي ميز الله بها الكائن البشري. ويتمثل الوضع المثالي للقيام في انتصاب الجسم مرتكزا على القدمين الثابتتين مع استقامة الرجلين والظهر والعنق.

إن للقيام أبعاداً تواصلية عديدة. فهو يعطي مؤشرا عن الحالة الصحية للفرد ، على الأقل، فيما يتعلق بقدرة رجليه وقدميه على حمل بقية الجسد. كما يُبْرِز المظهر العام للجسم (القوام) فيما يتعلق بتناسق الأعضاء، وإظهار الطول أو القصر، والنحول والبدانة، وتكوّر العضلات أو ارتخائها. وتحمل الأوضاع التي تتخذها القدمان واليدان والظهر والصدر والعنق والرأس، أثناء الوقوف، رسائل اتصالية غنية تنبئ بالحالات الفسيولوجية والعاطفية والنفسية للفرد، وتنبئ عن مواقفه تجاه الآخرين وتجاه الأشياء.

وقد حمّل العرب لفظة (القيام) ومشتقاته مدلولات متعددة مشتقة من السلوك الذي وصفناه. ففي معجم لسان العرب نجد أن:

«القيام: نقيض الجلوس.. ومعنى القيام العزم.. كقول النابغة الذبياني:

نُبِّئت حِصنا وحيًا من بني اسد   قاموا فقالوا: حِمانا غير مَقرُوب

ومنه قوله تعالى وإنه لما قام عبد الله يدعوه؛ أي لما عزم. وقوله تعالى: إذا قاموا فقالوا ربُّنا رب السماوات والأرض؛ أي عزموا فقالوا، قال: وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح؛ ومنه قوله تعالى: الرجال قوامون على النساء، وقوله تعالى: إلا ما دمت عليه قائما؛ أي ملازما محافظا. ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات. يقال للماشي: قف لي أي تحبَّس مكانك حتى آتيك، وكذلك قُمْ لي بمعنى قف لي، وعليه فسروا قوله سبحانه: وإذا أظلم عليهم قاموا؛ قال أهل اللغة والتفسير: قاموا هنا بمعنى وقفوا وثبتوا في مكانهم غير متقدمين ولا متأخرين، ومنه التوقف في الأمر وهو الوقوف عنده من غير مجاوزة له... والاستقامة: الاعتدال، يقال: استقام له الأمر. وقوله تعالى: فاستقيموا إليه أي في التوجه إليه دون الآلهة. وقام الشيء واستقام: اعتدل واستوى.. ورجل قويم وقوّام: حسن القامة، وجمعها قِوام. وقَوام الرجل: قامته وحسن طوله.. والقوام حسن الطول. يقال: هو حسن القامة والقومية والقِمّة.. وقِوام الأمر، بالكسر: نظامه وعِماده... وأمة قائمة أي متمسكة بدينها». (ابن منظور، ج12 ص ص496-501)

يتضح من خلال بعض المعاني التي أوردناها للفظ «القيام» في اللغة العربية، أن سلوك القيام أو الوقوف، يؤدي وظائف وأدوارا متعددة في حياة الإنسان. فبالإضافة إلى الوظيفة الحياتية التي تساعد الجسم على الانتصاب واتخاذ وضع مؤثر في أداء بعض مكونات الجسد كنبض القلب والدورة الدموية، والعضلات والعظام.. وكذا الوظائف التواصلية حيث التعبير عن حالة الجسد، هناك وظيفة إخبارية تتمثل في وصف أوضاع الجسم – ومن بينها القيام – كشكل من أشكال الإخبار عن أمور حدثت في الماضي أو

ستحدث في المستقبل (مما يندرج ضمن علم الغيب). وقد ورد في القرآن الكريم استخدام لهذه الوظيفة في قصص الأمم السالفة، وعند الإخبار عن حال بعض الناس (أصحاب النار) يوم البعث وفي الدار الآخرة.

لقد أورد الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز نبأ سارة بنت آزر زوج سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في الآية 71 من سورة هود، إذ قال تعالى: «وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» فقد كانت «قائمة من وراء الستر تستمع إلى الرسل.. وقيل: كانت قائمة تخدم الأضياف وإبراهيم عليه السلام جالس معهم». (ت. ر.ج18 م9 ص26) فوصفها بأنها كانت قائمة فضحكت يقرّب المتلقي من المشهد ويجعله يتخيل الحالة ويعايشها فتترك فيه أثرا.

وفي الآية 14 من سورة الكهف، ذكر لأهل الكهف وتحديهم لملك الروم، إذ قال تعالى: ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض﴾. يقول ابن عاشور في تفسير معنى القيام الوارد في هذه الآية: «القيام يحتمل أن يكون حقيقيا، بأن وقفوا بين يدي ملك الروم المشرك، أو وقفوا في مجامع قومهم خطباء معلنين فساد عقيدة الشرك. ويحتمل أن يكون القيام مستعارا للإقدام والجَسْر على عمل عظيم، وللاهتمام بالعمل أو القول، تشبيها للاهتمام بقيام الشخص من قعود للإقبال على عمل ما». (ت. ع، ج15 ص29) ونستخلص من جميع احتمالات الوقوف الواردة في هذه الآية، أن القيام أحد السلوكات التعبيرية المستخدمة في حضرة من هم أعلى منزلة، وهو فعّال عند الإقدام على أمر مهم.

وقال تعالى في الآية 45 من سورة الذاريات عن قوم سيدنا صالح عليه السلام، وما حاق بهم من عذاب أعجزهم عن الوقوف من أجل الهرب: «فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين».

ووصف الله سبحانه وتعالى حال المرابين عند بعثهم من قبورهم يوم القيامة. إذ قال تعالى في الآية 275 من سورة البقرة: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾. فحالة القيام هاته، حالة غير سوية تفتقر إلى الثبات والاستقامة وهي أشبه بحالة المجنون الذي لا يستقر أو السكران الذين يقف مترنحا.

وفي الآية 68 من سورة الزمر تصوير لحالة الدهشة والذهول التي تصيب جميع المخلوقات بعد النفخة الثانية في الصور.. فالكل يقف في انتظار مصيره. قال تعالى: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون».

وقال تعالى في الآية 27 من سورة الأنعام: «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين». وقد أورد الرازي في تفسيره لهذه الآية:

«قال الزجاج: ومعنى ﴿وقفوا على النار﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: الأول: يجوز أن يكون قد وقفوا عندها وهم يعاينونها فهم موقوفون على أن يدخلوا النار. والثاني: يجوز أن يكونوا وقفوا عليها وهي تحتهم، بمعنى أنهم وقفوا فوق النار على الصراط، وهو جسر فوق جهنم. والثالث: معناه عرفوا حقيقتها تعريفا من قولك وقفت فلانا على كلام فلان؛ أي علمته معناه وعرفته. وفيه وجه رابع. وهو أنهم يكونون في جوف النار، وتكون النار محيطة بهم، ويكونون غائصين فيها.. ». (ت. ر.ج 12م 6ص201)

ويعتبر القيام دليلا على حياة الكثير من الكائنات، ومن بينها النباتات، خاصة الأشجار التي تنتصب قائمة وإفقادها هذا الوضع، غالبا ما يعني سقوطها أو قطعها ومن ثم إفقادها الحياة. وفي الآية الخامسة من سورة

الحشر، إشارة لهذا المعنى. قال تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾.

إذا كان وقوف الشخص منتصبا، يحيلنا إلى عدة دلالات من بينها حالته الصحية، فإن ارتكاز الشخص إلى شيء أو إلى شخص آخر يسنده، قد يُفَسّر بضعف الحالة الصحية وعدم القدرة على الوقوف أو السعي لتدعيم الرِجْلين لتحملا بقية الجسد دون بذل مجهود كبير، وهذا ما يفعله من يتخذ عصا يتوكأ عليها عند وقوفه وأثناء سيره كما فعل سيدنا موسى عليه السلام بعصاه. إذ قال تعالى في الآية 18 من سورة طه: «قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى».

إن القيام والوقوف بين يدي الآخرين يعدّ من أبرز علامات التعبير عن الاحترام. ويتجلى هذا الاحترام عندما يكون الشخص جالسا فيهب واقفا عند ظهور من هو أعلى منزلة أو ذو سلطة وقوة تجعله مهابا، أو ظهور من يستحق التقدير والاحترام (فالناس يقفون لحظة دخول القاضي قاعة المحكمة). وكل المخلوقات تقف إجلالا لخالقها، سواء في الحياة الدنيا عند القيام بطقوس التعبد، أو في الحياة الآخرة ليتلقوا حسابهم.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن وقوف الملائكة وعلى رأسهم سيدنا جبريل عليه السلام والناس، يوم القيامة أمام الله مالك الملك. إذ قال تعالى في الآية 38 من سورة النبأ: «يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا»؛ وقال تعالى في الآية السادسة من سورة المطففين: «يوم يقوم الناس لرب العالمين». فالوقوف في هاتين الآيتين وما يستلزمه من علامات الاحترام كالصمت والانتباه، دليل واضح على مغزاه التعبيري والتواصلي الذي يجعله بديلا كافيا عن وسائل الاتصال الأخرى اللفظية وغير اللفظية.

ويعتبر القيام من بين أوضاع الجسد التي يتخذها الإنسان في دعائه ومناجاته لخالقه. فالصلاة تشتمل على القيام في أغلب المدة الزمنية التي تستغرقها، وكذا الحج (في الطواف والسعي وتقبيل الحجر الأسود ورمي الجمرات والوقوف بجبل عرفة) وحالات الدعاء الأخرى التي يلجأ إليها الإنسان عندما يصيبه مكروه.

قال تعالى في الآية 191 من سورة آل عمران: ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾؛ وقال في الآية 12 من سورة يونس: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما﴾.

وتبدو علاقة القيام بالتعبد جليّة في سورة المزمل التي ذُكِر فيها قيام الرسول ﷺ، الليل تأدية للصلاة. قال تعالى في الآية الثانية آمرا رسوله الكريم بالإكثار من الصلاة أثناء الليل: «قم الليل إلا قليلا»، وفي الآية 20 ذِكْر لقيام الرسول وبعض صحابه: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾. وقال تعالى في الآية 218 من سورة الشعراء: «الذي يراك حين تقوم» أي يراك حين تكون وحدك تقوم من فراشك أو مجلسك، أو حين تقوم إلى الصلاة. (ت. ص، ج2 ص397)

إن دلالة القيام الفعلي المألوفة لدى الناس، جعلتهم يسقطونها على بعض المفاهيم التي تتناسب معها. وهكذا نجد العديد من المعاني المجازية للقيام. فالقيام قد يعني العزم والشروع في إنجاز الأعمال التي تتطلب الحركة والجد والاجتهاد.

قال تعالى في الآية 46 من سورة سبأ على لسان رسوله الكريم ناصحا المشركين: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾. وقال تعالى في الآية 19 من سورة الجن عن الرسول ﷺ: «وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا»؛ وأمره في الآية الثانية من سورة

المدثر: «قم فأنذر».

وكما رأينا سابقا، فإن القيام يعني الملازمة والمحافظة. والقيام هو الوضع الجسدي الذي يتبادر للذهن عند الحديث عن الحارس الذي يعسّ. والقيام هو الوضع المعبر عن الاستعداد والتأهب تجاه المعتدي. وفي هذا المعنى وردت الآية 75 من سورة آل عمران. إذ قال تعالى: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما﴾.

وقال تعالى في الآية 97 من سورة المائدة: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس﴾ أي جعل الكعبة المشرفة وهي البيت المحرم صلاحا ومعاشا للناس لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سبب لانتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم. (ت. ص، ج1 ص367)

وورد في سورة المائدة القيام مقام بمعنى الإحلال محل، وكأن القيام دليل على التواجد طالما أن الشخص القائد يبدو جليا للناظرين فيتحققون من وجوده. قال تعالى في الآية 107 من سورة المائدة: ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما﴾.

المبحث الثاني

الجــــلوس

ورد في المعجم اللغوي لسان العرب في مادة «جلس»، أن «الجلوس: القعود. جَلَسَ يَجْلِسُ جُلوسا، فهو جالس من قوم جلوس وجُلاَّس، وأجلسه غيره. والجِلْسَة: الهيئة التي تَجْلِس عليها، بالكسر.. وفي الصحاح: الجِلْسة الحال التي يكون عليها الجالس، وهو حسن الجِلْسة. والمجْلَسُ، بفتح اللام، المصدر، والمجْلِسُ: موضع الجلوس». (ابن منظور، ج6 ص39)

أما في القرآن الكريم، فإن الكلمة الأكثر تعبيرا عن فعل الجلوس والأكثر ترداداً، هي «القعود. إذ يكثر في القرآن الكريم استخدام لفظ «قعود» ومشتقاته، حيث ورد في 20 آية، بينما ورد لفظ «الجلوس» ومشتقاته في آية واحدة فقط.

ويعتبر الجلوس من أوضاع الجسم الفنية بمحتواها التواصلي. فالجلوس يعني طلب الراحة الجسدية، حيث تقل الحاجة للطاقة المستخدمة في الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، لذا نجد أن الإنسان ينجز الكثير من الأعمال -

خاصة تلك التي تحتاج إلى التفكير وصفاء الذهن - وهو جالس. كما أن الجلوس دليل على الاستقرار والطمأنينة وألفة المكان. وقد يكون الجلوس دليلا على العجز والكسل، وعدم الرغبة في المخاطرة.

إلا أن أبرز ما يميز وضع الجلوس أو القعود، هو كونه مؤشرا عن علوّ المنزلة الاجتماعية مقارنة بالوقوف. ففي حضرة الآخرين، غالبا ما يكون الجالس أعلى منزلة من الواقف، أو - على الأقل - أوفر حظا. وبالإضافة إلى ذلك، يستطيع الشخص أن يعبر عن مختلف الحالات العاطفية والانفعالية التي يمر بها، من خلال الأوضاع المتعددة التي يمكن أن يتخذها أثناء جلوسه، كالتعبير عن القلق بتحريك الأطراف، أو الزهو والافتخار بوضع رِجل فوق رِجل، أو الراحة والسعادة بالاتكاء، أو الحزن والانطواء بالانكباب (الانحناء إلى الأمام)، أو الخوف والحذر بانكماش الأطراف، أو الاسترخاء أو العياء والتعب بارتخاء عضلات الجسد وتشتت الأطراف.

ونستشف أهمية الجلوس كسلوك مرتبط بعلو المنزلة في اقترانه المجازي بالذات الإلهية والذي تم التعبير عنه في القرآن الكريم بلفظ «الاستواء» على العرش. والاستواء على العرش من الصفات الإلهية التي يعجز الإنسان عن إدراكها وتفسيرها، وهو لا يمكن أن يندرج ضمن فهمنا وتصورنا للهيئة التي ترتبط ارتباط وثيقا بالحيز والمكان. فقد ورد ذكر الكرسي والعرش والاستواء دون تفصيل، قصد إفهام المتلقين للنص القرآني، عظمة الخالق جل شأنه، وذلك تمثيلا لما ألفوه في حياتهم عند ملوكهم الذين يتخذون لهم عروشا وكراسي يجلسون عليها.

وقد ورد ذكر العرش والكرسي والاستواء الذي يتقاطع مع الجلوس في إحدى مدلولاته، في 14 آية، بدءا من الآيتين 29 و255 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء

فسواهن سبع سماوات﴾ (علما أن الاستواء في هذه الآية أقرب إلى معنى الصعود وليس الجلوس)، ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾؛ وقال تعالى في الآية 54 من سورة الأعراف: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾؛ وفي الآية الثالثة من سورة يونس: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾؛ والآية السابعة من سورة هود: ﴿وكان عرشه على الماء﴾؛ وقال تعالى في الآية الثانية من سورة الرعد: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش﴾؛ وفي الآية الخامسة من سورة طه: «الرحمن على العرش استوى»؛ والآية 22 من سورة الأنبياء: ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾.

وقال تعالى في الآيتين 59 من سورة الفرقان والرابعة من سورة السجدة: ﴿الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾؛ والآية 75 من سورة الزمر: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 7 و15 من سورة غافر: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا﴾، ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾؛ وفي الآية الرابعة من سورة الحديد: ﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾؛ والآية 17 من سورة الحاقة: «والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية».

وقد أسهب العلماء والمفسرون في تناول الاستواء على العرش لنفي وقوعه على سبيل الحقيقة. فعلى سبيل المثال أورد الإمام الرازي 16 حجة في تفسيره لقوله ﴿ثم استوى على العرش﴾ في الآية 54 من سورة الأعراف، نقتطف منها قوله:

«أول الآية إشارة إلى ذكر ما يدل على الوجود والقدرة والعلم، وآخرها يدل أيضا على هذا المطلوب، وإذا كان الأمر كذلك فقوله ﴿ثم استوى على العرش﴾ وجب أن يكون أيضا دليلا على كمال القدرة والعلم، لأنه لو لم يدل عليه بل كان المراد كونه مستقرا على العرش كان ذلك كلاما أجنبيا عما قبله وعما بعده، فإن كونه مستقرا على العرش لا يمكن جعله دليلا على كماله في القدرة والحكمة وليس من دلائل إثبات الصفات والذات ولا من صفات المدح والثناء، لأنه تعالى قادر على أن يجلس جميع أعداد البق والبعوض على العرش وعلى ما فوق العرش، فثبت أن كونه جالسا على العرش ليس من دلائل إثبات الصفات والذات ولا من صفات المدح والثناء، فلو كان المراد من قوله ﴿ثم استوى على العرش﴾ كونه جالسا على العرش لكان ذلك كلاما أجنبيا عما قبله وعما بعده، وهذا يوجب نهاية الركاكة، فثبت أن المراد منه ليس ذلك بل المراد منه كمال قدرته في تدابير الملك والملكوت». (ت. ر.ج14 م7 ص120)

وذكر الرازي رأي القفال، واتفق معه، في تأويل قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾: «قال (العرش) في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملوك، ثم جعل العرش كناية عن نفس الملك، يقال: ثل عرشه، أي انتفض ملكه وفسد. وإذا استقام له ملكه واطرد أمره وحكمه قالوا: استوى على عرشه، واستقر على سرير ملكه، هذا ما قاله القفال. وأقول: إن الذي قاله حق وصدق وصواب.. ثم قال القفال رحمه الله تعالى: والله تعالى لما دل على ذاته وعلى صفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم ورؤسائهم استقر في قلوبهم عظمة الله وكمال جلاله، إلا أن كل ذلك مشروط بنفي التشبيه.. والدليل على أن هذا هو المراد قوله في سورة يونس ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾ فقوله ﴿يدبر الأمر) جرى مجرى التفسير لقوله ﴿استوى على العرش)». (ت. ر.ج14م7ص ص121-122)

وقد ورد ذكر العرش الملكي في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، إذ قال تعالى في الآية المائة من سورة يوسف: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا﴾. أما كرسي الملك فورد مقترنا بسيدنا سليمان عليه السلام. إذ قال تعالى في الآية 34 من سورة ص: «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب».

وورد الاستواء بمعنى الاعتلاء والاستقرار، وكذلك بإحدى مدلولاته السائدة، أي الاكتمال والجاهزية.

قال تعالى في الآيتين 27 و28 من سورة المؤمنون: «فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون. فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين»؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة القصص: «ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين»؛ وقال تعالى في الآيتين 12 و13 من سورة الزخرف: «والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين». وقال تعالى عن سيدنا جبريل عليه السلام في الآية السادسة من سورة النجم: «ذو مرة فاستوى» أي ذو حصافة في عقله ورأيه ومتانة في دينه فاستقام على صورة نفسه الحقيقية التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي». (ت. ز، ج4 ص ص408 -409)

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، الجلوس باعتباره أحد أوضاع الجسد التي يلجأ فيها العبد إلى ربه بالدعاء والذكر. فقد ورد في سور آل عمران والنساء ويونس، ذكر ثلاثة أوضاع: القيام والقعود والاضطجاع. قال

تعالى في الآية 191 من سورة آل عمران: ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾؛ وفي الآية 103 من سورة النساء: ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم﴾؛ والآية 12 من سورة يونس: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما﴾.

ومن أهم ما يميز الجلوس باعتباره سلوكا غير لفظي، استخدامه كموقف سلبي تجاه القيام بالأنشطة التي تحتاج إلى بذل الجهد والمخاطرة. وقد اعتبر العرب القعود والتخلف - خاصة في لحظة القتال - عن الركب من الخصال السيئة التي تحط من رجولة المرء. ويعتبر النقاد أن بيت الشعر الذي هجا فيه الفرزدق الزبرقان ووصفه فيه بالقعود، أروع بيت في الهجاء، عندما قال الفرزدق:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقد اعتبر القرآن الكريم القاعدين المتخلفين عن القتال منافقين. إذ قال تعالى في الآية 168 من سورة آل عمران: «الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين»؛ وقال في الآية 95 من سورة النساء: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما»؛ وفي الآية 24 من سورة المائدة: «قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون».

ونهى الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن الجلوس مع المنافقين الذين يستهزئون بالآيات القرآنية، لأن الجلوس معهم دليل ضمني على الاستعداد لتلقي سلوكهم المعادي للدين، ودليل على التكاسل في الدفاع عن الدين

الإسلامي. فالقعود ضمن هذا السياق، يعتبر سلوكا سلبيا. قال تعالى في الآية 140 من سورة النساء: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم﴾؛ وقال في الآية 68 من سورة الأنعام: «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين».

وقال تعالى في الآية 86 من سورة الأعراف على لسان نبيه شعيب وهو ينصح قومه: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾. يقول الصابوني في صفوة التفاسير: «أي لا تجلسوا بكل طريق تخوّفون من آمن بالقتل. قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه.. على نحو ما كانت تفعله قريش مع الرسول ﷺ». (ت. ص، ج1 ص458)

وذكر سبحانه وتعالى في سورة البروج قصة أصحاب الأخدود إذ قال في الآيات الرابعة والخامسة والسادسة: «قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود». وقد فُسّر قوله تعالى ﴿إذ هم عليها قعود﴾ بإرجاع الضمير إلى أعوان الملك الذين كانوا جالسين حول الأخدود لمشاهدة الذين يحترقون داخله، ويكون حرف الجر (على) للاستعلاء المجازي لأنهم لا يقعدون فوق النار ولكن حولها، وبذلك يصبح قعودهم، سلوكا سلبيا كمن يقعد ويحجم عن إغاثة الآخرين. «أو يعود الضمير إلى المؤمنين المعذبين في الأخدود، فالقعود حقيقة و (على) للاستعلاء الحقيقي، أي قاعدون على النار بأن كانوا يحرقونهم مربوطين بهيئة القعود لأن ذلك أشد تعذيبا وتمثيلا، أي بعد أن يقعدوهم في الأخاديد يوقدون النار فيها وذلك أروع وأطول تعذيبا». (ت. ع ج30 ص217)

ويكتسي الجلوس أهميته التواصلية عندما يعتبر دليلا على العزم والتمكّن والاستعداد للقيام بالمهام الكبرى. كما قال إبليس اللعين إثر ما حل به بعد رفضه السجود لسيدنا آدم عليه السلام. قال تعالى في الآية 16 من سورة الأعراف: «قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم». وأخبرنا تعالى عن الجن الذين كانوا يسترقون السمع. إذ قال تعالى في الآية التاسعة من سورة الجن: ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾. ووصف الله سبحانه وتعالى هيئة الملكين المكلفين بتسجيل الحسنات والسيئات، وهي هيئة جلوس. إذ قال تعالى في الآية 17 من سورة ق: «إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد».

وقد يكون الجلوس تعبيرا عن الحالة العاطفية التي يشعر بها الإنسان. وقد وردت في القرآن الكريم إشارة للجلوس عندما يشعر المرء بالذل والحسرة وفقدان الأمل والحيلة. فالإنسان الذي يشعر بالانكسار والمذلة يجلس منطويا على نفسه، شابكا يديه على صدره أو واضعا كفه اليمنى على كتفه الأيسر وكفه اليسرى على كتفه الأيمن، فتبدو حالته للناظر كمن لا حول له ولا قوة. وقد حذر الله سبحانه وتعالى الإنسان من الإتيان بأعمال توصله إلى هذه الحالة المزرية. إذ قال تعالى في الآيتين 22 و29 من سورة الإسراء: «لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموما مخذولا»، «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا».

أما الخوف والفزع فيتم التعبير عنه بواسطة الجثو وهو الجلوس على الركبتين، الذي يعتبر شكلا من أشكال التعذيب والإخضاع. قال تعالى في الآيتين 68 و72 من سورة مريم: «فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا»، «ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا»؛ وقال في الآية 28 من سورة الجاثية: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾. أي «وترى أيها المخاطب

كل أمة من الأمم جالسة على الركب من شدة الهول والفزع، كما يجثو الخصوم بين يدي الحاكم بهيئة الخائف الذليل. قال ابن كثير: وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا على ركبته». (ت. ص، ج3 ص188)

ويتم التعبير عن الرضا عن النفس والسعادة والسرور باتخاذ جلسة خاصة تتسم بالتوازن العضلي بين الشد والارتخاء، تدعى «الاتكاء» عندما يتكئ الإنسان على ظهره أو يستند إلى جانبه الأيمن أو الأيسر، تعبيرا عن الاستقرار وانتفاء ما يزعج. وقد ذُكِر التجسيد الفعلي لأهمية الاتكاء في تحقيق الراحة الجسدية، في قصة سيدنا يوسف عليه السلام عندما هيّأت امرأة العزيز لصديقاتها جلسة مريحة يتكئن فيها. قال تعالى في الآية 31 من سورة يوسف: ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ﴾. وقد أورد ابن عاشور في تفسيره للمتكأ في هذه الآية، قوله:

«المتكأ: محل الاتكاء. والاتكاء: جلسة قريبة من الاضطجاع على الجنب مع انتصاب قليل في النصب الأعلى. وإنما يكون الاتكاء إذا أريد إطالة المكث والاستراحة، أي أحضرت لهن نمارق يتكئن عليها لتناول الطعام. وكان أهل الترف يأكلون متكئين كما كانت عادة الرومان، ولم تزل أسرّة اتكائهم موجودة في ديار الآثار. وقال النبي ﷺ: «أما أنا فلا آكل متكئاً». (ت. ع، ج12 ص55)

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أحوال أهل الجنة، وذكر بأن أجسامهم غالبا ما تتخذ وضع الاتكاء لأنهم في قمة الراحة والسعادة.

قال تعالى في الآية 56 من سورة يس: «هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون»؛ وفي الآية 51 من سورة ص: «متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب»؛ والآية 34 من سورة الزخرف: «ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون»؛ والآية 20 من سورة الطور: «متكئين على سرر مصفوفة

وزوجناهم بحور عين»؛ وقال تعالى في الآيتين 54 و76 من سورة الرحمن: «متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان»، «متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان»؛ وفي الآية 16 من سورة الواقعة: «متكئين عليها متقابلين»؛ والآية 13 من سورة الإنسان: «متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا»؛ وقال تعالى في الآيات 22 و23 و34 و35 من سورة المطففين: «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون»، «إن الأبرار لفي نعيم. على الأرائك ينظرون».

وقال تعالى في الآيتين 54 و55 من سورة القمر واصفا أحوال أصحاب الجنة ومجلسهم: «إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر» يقول ابن عاشور في تفسير قوله ﴿مقعد صدق﴾: «مقعد صدق، أي مقعد كامل في جنسه مرضيّ للمستقر فيه فلا يكون فيه استفزاز ولا زوال... والمعنى: هم في مقعد يشتمل على كل ما يحمده القاعد فيه». (ت. ع. ج27 ص ص212-213)

ومن بين معاني الجلوس، الارتباط بالمكان سواء بالالتصاق أو العجز عن التحرّك والتنقل بسبب الوهن، وقد عبر القرآن الكريم عن الحالتين بلفظ «القواعد». إذ قال تعالى في الآية 127 من سورة البقرة: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾؛ وفي الآية 26 من سورة النحل: ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 60 من سورة النور: ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾.

في الآية 121 من سورة آل عمران ذكر للمقاعد بمعنى الأماكن. إذ قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: «وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم».

وورد ذكر أماكن الجلوس في الآية 11 من سورة المجادلة، في دعوة إلى جعلها رحبة غير متزاحمة الأمر الذي له دلالة تواصلية هامة - وسوف نتطرق للإفساح في المجالس عند حديثنا عن المسافة وتدبير المجال. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾.

المبحث الثالث

الاستلقاء والنوم

يعتبر الاستلقاء، الذي غالبا ما يرتبط بالنوم، من أضعف الأوضاع الجسدية من حيث النشاط التواصلي، ومع ذلك فإن حالة الجسد التي تتسم ببعض السكون وقلة الحركة، قد تكون لها دلالات تواصلية قوية فتنبئ عن الحالة الصحية للفرد أو حالة التعب والأرق أو الكسل التي تعتريه. وقد يعني الاستغراق في النوم الشعور بالطمأنينة وراحة البال أو المرور بحالة البطالة التي ينتفي معها أي دافع للنشاط والحركة.

كما أن وضع الاستلقاء والنوم، نادرا ما يُشاهد على نطاق واسع - إذا استثنينا أماكن الاستشفاء - لأنه غالبا ما يتم في الأماكن الخصوصية (كالمنازل) ويكثر في أوقات بعينها، يخلد فيها معظم الناس للراحة، أي أغلب أوقات الليل.

إن الشخص المستلقي أو الراقد يبعث رسالة تواصلية واضحة لمن حوله مفادها: أريد أن ارتاح! أو أنا متعب او أنا في قمة الراحة! كما أنه يبعث

برسالة أمان للآخرين، لأن هذا الوضع يتنافى مع القيام بالأعمال العدوانية.

وهذا الوضع الجسدي، عندما يلازمه النوم، يكون أقرب إلى حالة التوقف عن التواصل، مقارنة بالأوضاع الجسدية الأخرى، ونعني حالة الموت. ففي النوم يقل نشاط معظم أعضاء الجسم فيقل الطلب على الطاقة بسبب قلة الحركة، ويقل معدل التنفس، فضلا عن التوقف شبه التام عن التواصل اللفظي (إلا في بعض حالات الحلم والهلوسة). وفي المقابل، يتيح هذا الوضع، مجالا واسعا لنوع آخر من التواصل، وهو الحلم الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بنشاط الشخص أثناء يقظته.

لقد تضمن القرآن الكريم عددا محدودا من الآيات التي تشير إلى وضع الاستلقاء والنوم، لا يتجاوز عددها 23 آية.

فكما ذكرنا في المبحثين السابقين، وردت في سورتي آل عمران ويونس إشارة إلى التجاء الإنسان إلى دعاء ربه ومناجاته في أوضاع الجسد الثلاثة المعروفة: القيام والقعود والاستلقاء.

قال تعالى في الآية 191 من سورة آل عمران: ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾؛ وفي الآية 12 من سورة يونس: ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ﴾.

لقد ورد الاستلقاء في الآية الأولى ﴿ على جنوبهم) ثالثا في الترتيب، ذلك لأنه يتم ضمن سياق عادي يكون فيه المرء في كامل صحته، فيستلقي طلبا للراحة. بينما ورد ترتيب الاستلقاء معكوسا في الآية الثانية. فقد سبق وضع الجلوس والقيام، لأن سياق الآية يتحدث عن وضع غير عادي، أي في حالة المرض ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾. ونخلص إلى أن الآيتين تبينان تراتب الأوضاع الجسدية في حالتي الصحة والمرض. وهذا التراتب قد ينعكس على

الجانب التواصلي عند الإخلال به، خاصة عندما يكون الشخص في حضرة من هو أعلى منزلة منه، ويكون في حالة صحية جيدة، فيفضل الاستلقاء أو الجلوس على القيام، فيعبر بذلك عن عدم احترامه للآخرين وتمرده عليهم. بينما، في المقابل، يمكن تفسير ما يبذله المريض من جهد للجلوس أو القيام، كشكل من أشكال المبالغة في إظهار الاحترام والتقدير.

ويكتسي النوم طابعه السلبي في حالات الخطر التي يتعرض لها الإنسان فلا يستطيع الهرب ومن ثم النجاة. فبما أن النوم يعطل بعض قنوات الإحساس كالرؤية والسمع، فقد يداهم الخطر الشخص دون أن يتمكن دماغه من إصدار أوامره بإفراز هرمون الأدرينالين وضخ الدم نحو الأعضاء التي تساعد على الفرار (الأطراف) في الوقت المناسب. أو يداهم الشخص خطر أثناء نومه فلا يستطيع رده لأنه غافل وغارق في نومه. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية 19 من سورة القلم قصة أهل البستان عندما أرسل الله نارا فأحرقت بستانهم بينما كانوا نائمين. قال تعالى: «فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون».

تكثر حالات الاستلقاء والنوم لدى معظم الكائنات الحية على وجه الأرض - ومن بينها بنو البشر - أثناء الليل. فقد بين الله سبحانه وتعالى في العديد من الآيات القرآنية أنه جعل الليل للسكن والراحة، لذا نجد أن الساعات البيولوجية للأجساد غالبا ما تتكيف على الحاجة إلى النوم أثناء الليل، لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين مدى اشتغال بعض عباده بالذكر والتعبد والتقرب إليه، ذكر أنهم يقومون بذلك، في الوقت الذي يخلد فيه معظم الناس إلى الراحة والنوم. إذ قال تعالى في الآية 16 من سورة السجدة: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون».

كمـا أن هنـاك دوافع عملية كانعدام الإضـاءة الطبيعيـة (ضـوء الشـمس) وانخفاض درجات الحرارة، تساعد على الخلود إلى الراحة.

وقد ورد ذكر عـلاقة الليل بالراحـة والنوم، وعـلاقة النهـار بالنشاط والعمل في ثماني آيات قرآنية.

إذ قال تعالى في الآية 13 من سورة الأنعـام: «وله ما سكن في الليل والنهار وهو السـميع العليم»؛ وفي الآية 67 من سـورة يونس: «هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهـار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون»؛ وقال تعالى في الآية 47 من سـورة الفـرقـان: «وهـو الذي جـعل لكم الـليل لبـاسـا والنـوم سبـاتا وجعل النهار نشورا»؛ وفي الآية 73 من سورة القصص: «ومن رحـمته جعل لكم الليل والنهـار لتـسكنوا فيـه ولتبـتغـوا من فضله ولـعلكم تشكرون»؛ والآية 23 من سورة الروم: ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار﴾؛ وقال تعالى في الآية 61 من سورة غـافـر: ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيـه والنـهار مبـصـرا﴾؛ وفي الآية 17 من سورة الذاريات: «كانوا قليلا من الليل ما يهجعون».

وفي الآية 60 من سـورة الأنعـام تشـبيـه للنوم بالموت: ﴿وهـو الذي يتـوفـاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾. وقد ورد معنى قوله تعـالى ﴿وهو الذي يتوفـاكم بالليل﴾ في الآية 42 من سورة الـزمر: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليهـا الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مـسمى﴾. قـال ابن عبـاس فـي تفسـير هذه الآية الأخيـرة: «إن أرواح الأحيـاء والأمـوات تلتقي في المنام، فتتعـارف مـا شـاء الله لهـا، فـإذا أرادت الرجـوع إلى أجـسـادهـا، أمـسك الله أرواح الأمـوات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسـادهـا». (ت. ص، ج3 ص82)

إن الفـارق بين النوم والموت قد يكون ضئيـلا، لا يتعدى لحظة خـروج الروح من الجسد. وكثيرا ما يتفـاجأ الناس بنائم وقد صعدت روحـه إلى بارئها. وقد

ذكر الله جل شأنه في كتابه العزيز أخبار بعض الأقوام الذين أُخذت أرواحهم في لحظات ارتجفوا فيها، فأصبحوا جثثاً هامدة.

قال تعالى في الآيتين 78 و91 من سورة الأعراف عن قوم سيدنا صالح عليه السلام، وعن قوم سيدنا شعيب عليه السلام: «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين»؛ وكذا في الآيتين 67 و 94 من سورة هود: «وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين»، «ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين»؛ والآية 37 من سورة العنكبوت: «فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين».

فسّر الإمام الرازي قوله تعالى ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ بقوله: «قال أبو عبيدة: الجثوم للناس والطير، بمنزلة البروك للإبل، فجثوم الطير ووقوعه لاطئا بالأرض في حال سكونه بالليل، والمعنى: أنهم أصبحوا جاثمين خامدين لا يتحركون موتى، يقال: الناس جُثم، أي قعود لا حراك بهم ولا يحسون بشيء ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها، وهي البهيمة التي تربط لترمى، فثبت أن الجثوم عبارة عن السكون والخمود». (ت. ر ج14 م7 ص173)
وجاء في «لسان العرب» لابن منظور: «جثم الإنسان والطائر والنعامة والخِشْف والأرنب واليربوع يجثِم ويَجْثُم جَثْما وجُثوما، فهو جاثِم: لزم مكانه فلم يبرح أي تلبّد بالأرض، وقيل: هو أن يقع على صدره.. يقال: رجل جُثَمة وجَثّامة للنؤوم الذي لا يسافر.. وقوله تعالى: فأصبحوا في ديارهم جاثمين؛ أي أجسادا ملقاة في الأرض؛ وقال أبو العباس: أي أصابهم البلاء فبركوا فيها، والجاثم: البارك على رجليه كما يجثم الطير.. [قال] الأصمعي: جثمت وجثوت واحد». (ابن منظور، ج12 ص ص82-83)

والنوم نعمة من نعم الله على عباده. فبه يتخلص الجسد من العياء والتعب

الذي تراكم أثناء اليوم، وترتاح بعض أعضاء الجسد التي يكثر تحركها خلال اليقظة، ويتجدد النشاط لتبدأ دورة العمل والإنجاز من جديد، وهو فوق ذلك دليل على الإحساس بالأمن والطمأنينة. قال تعالى في الآية 11 من سورة الأنفال: «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام». وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة النبأ: «وجعلنا نومكم سباتا».

وعلى الرغم من أن الحركة تقل في وضع الجسم أثناء النوم، إلا أن الحركة ضرورية على المستوى التواصلي، للتفريق بين النائم والميت. فمن المألوف، أن يتقلب النائم في فراشه من وقت لآخر، أو يصدر أصواتا كالشهيق والزفير والشخير، أو التحدث والتلفظ ببعض الكلام والعبارات غير المترابطة أثناء الحلم. ومن المألوف كذلك، أن يغمض النائم عينيه، إلا في بعض الحالات عند الأطفال، أو رمش العينين أثناء الحلم عند الراشدين. وقد بين الله سبحانه وتعالى هذه الحالة في قصة أهل الكهف. إذ قال تعالى في الآية 18 من سورة الكهف: ﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾.

وقد يكون النوم وسيلة للتواصل الذاتي عبر الحلم أو الرؤيا التي تنبئ بالمستقبل. وعند الرسل والأنبياء، فإن الرؤيا تكون صادقة (كما رأى سيدنا يوسف في منامه من سجدوا له). قال تعالى في الآية 43 من سورة الأنفال مخاطبا رسوله الكريم: «إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور».

المبحث الرابع

المشي

تحدثنا في المباحث الثلاثة السابقة عن أوضاع جسدية تتسم بقلة الحركة، وانعدام التحرك من مكان إلى آخر، مما يضفي أهمية تواصلية للارتباط بالمكان والتكيّف عليه. وفي هذا المبحث، نتطرق لوضع جسدي يعتمد، في المقام الأول، على الحركة والتحرّك أو الانتقال من نقطة إلى أخرى بسرعة ضئيلة نسبيا. إنه المشي أو السير. والمشي هو محصلة الوقوف مضافا إليه تحرك القدمين واليدين بكيفية متتابعة وفقا لإيقاع شبه منتظم، مما ينتج عنه تغيير الموقع باستمرار.

إن المشي سلوك ضروري لاستمرارية الحياة، وهو يعكس النشاط البشري من أجل تأمين مستلزمات الحياة البيولوجية والنفسية، وهذا يضفي عليه طابعا مألوفا لا يلفت الأنظار، إلا في حالات الرغبة في التعرف إلى النتائج التي يفضي إليها: كأن يتتبع المراقب سير أحد الأشخاص لمعرفة الجهة التي يقصدها. ولكن ذلك لا يمنع كون المشي سلوكا تواصليا ينبئ عن المظهر

الجسدي العام، وعن الحالة الصحية، وعما يشغل البال عندما يمشي الشخص مسرعا أو مبطئا. ويظهر المشي بعض الرسائل التواصلية عن المكانة الاجتماعية وطابع الشخصية (الكارزما). ويمكن استخدامه من أجل لفت أنظار الجنس الآخر قصد المغازلة. ويستخدم المشي كوسيلة للتعبير عن الانضباط (كما تفعل القوات النظامية)، أو التعبير عن الاحترام عندما يترافق مع التعبيرات الوجهية ونظرات العين الملائمة، أو التعبير عن الإحساس بالذل والمهانة عندما تصحبه طأطأة الرأس، أو التعبير عن التكبر والافتخار، عندما يمشي الشخص مختالا مرحا، أو التعبير عن السعادة والفرح عندما يتسم المشي بالحيوية وتصاحبه تعبيرات وجهية فرحة والتفات يعزز هذا الشعور.

ويمكن اعتبار المشي وسيلة للتعرف إلى هوية الأشخاص. فهو سلوك شخصي مميز للفرد يتشكل من عدة اعتبارات عضوية وفسيولوجية وتربوية، فتكون النتيجة: لكل فرد مشيته الخاصة به التي تميزه عن بقية الأفراد، لا يمكن تغييرها إلا بسلوك متعمد وتداريب على التحكم في أطوال الرجلين وحركات اليدين ووضع الكتفين وتوجّه الرأس (Orientation).

تضمن القرآن الكريم، العديد من الآيات القرآنية التي تطرقت للمشي باعتباره سلوكا طبيعيا، ووسيلة معرفية تساعد الإنسان - بتنقله عبر الأمكنة - على الاطلاع على ما خلق الله في أرضه، فيزداد إيمانا بقدرة الخالق. وأشارت بعض الآيات إلى الجانب التواصلي للمشي. وأشارت آيات أخرى إلى بعض أنواع المشي باعتبارها طقوسا تعبدية.

فلقد ورد ذكر المشي باعتباره سلوكا طبيعيا يمارسه الإنسان بدءا من مرور حوالي سنتين من عمره إلى أن يصبح عاجزا عن الوقوف والحركة بسبب الإعاقة أو المرض أو الوصول لأرذل العمر. أي إن المشي دليل على النشاط اليومي الذي يقوم به الإنسان لأجل قضاء أشغاله وتوفير احتياجاته. ونجد

هذا المعنى في 15 آية قرآنية:

قال تعالى في الآية 20 من سورة البقرة: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾؛ وفي الآية 239 من سورة البقرة: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانا﴾ أي فإذا كنتم في خوف من عدو أو غيره فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب. (ت. ص، ج1 ص154) وقال تعالى في الآية 122 من سورة الأنعام: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾؛ والآية 195 من سورة الأعراف: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾؛ والآية 95 من سورة الإسراء: «قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا»؛ وقال تعالى في الآيتين 40 و128 من سورة طه: ﴿إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله﴾، ﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾؛ وفي الآية 45 من سورة النور: ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 7 و20 من سورة الفرقان: ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾، ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾؛ وقال تعالى في الآية 26 من سورة السجدة: ﴿أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ وقال تعالى في الآية 18 من سورة سبأ: «وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين»؛ وفي الآية السادسة من سورة ص: ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾؛ والآية 28 من سورة الحديد: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به﴾؛ والآية 15 من سورة الملك: ﴿هو الذي

جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها ﴾.

وفي الآية 11 من سورة القلم تحذير من طاعة كل من يمشي بالنميمة بين الناس وينقل حديثهم ليوقع بينهم. وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بالمشّاء اي الذي يكثر المشي. قال تعالى: «هماز مشاء بنميم».

إن المشي هو أكثر أوضاع الجسد ملاءمة للسياحة والسير في الأرض للتمتع بما تحفل فوقها من طبيعة وكائنات حية وما أنجزته الحضارات البشرية. إن السرعة التي يتحرك بها من يمشي على قدميه أو الراكب على دابة، تسير بسرعة مقاربة لسرعة مشيته، تلائم الرؤية الواضحة التي تمكّن الشخص من إدراك ما يحيط به. وفي الآيات التالية دعوة من الخالق عز وجل للإنسان لكي يسير في الأرض ليتأمل نفسه ويتأمل البيئة المحيطة به، وما لحق بالحضارات البشرية السالفة.

قال تعالى في الآية 137 من سورة آل عمران: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»؛ وفي الآية 11 من سورة الأنعام: «قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين»؛ والآية 109 من سورة يوسف: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 36 من سورة النحل: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾؛ وفي الآية 46 من سورة الحج: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾؛ وفي الآية 69 من سورة النمل: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين»؛ والآية 20 من سورة العنكبوت: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 9 و42 من سورة الروم: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها﴾، «قل سيروا في الأرض

فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين»؛ وفي الآية 44 من سورة فاطر: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 21 و82 من سورة غافر: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض﴾، ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة محمد: «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها».

يعتبر المشي من بين أبرز أوضاع الجسد التي يمكن استخدامها للتعبير عن الافتخار والتكبّر. فالشخص الذي يتبختر يعطي الانطباع وكأنه يملك الأرض، أي إنه يتعامى عن إدراك حجمه الحقيقي، ويتجاهل حقيقة الضعف البشري. وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن هذا النوع من المشي، فالله لا يحب المتكبرين. قال تعالى في الآية 36 من سورة النساء: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 37 و38 من سورة الإسراء: «ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا. كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها»؛ وقال في الآيتين 18 و19 من سورة لقمان: «ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» أي أعدل في مشيك «حتى يكون مشيا بين مشيين: لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثوب الشطار». (ت. ز، ج3 ص482)

وقد فسّر ابن عاشور الآية 37 من سورة الإسراء بقوله: «المرح - بفتح الميم وفتح الراء -: شدة ازدهاء المرء وفرحه بحاله في عظمة الرزق. و﴿مرحا﴾ مصدر وقع حالا من ضمير ﴿تمش﴾. ومجيء المصدر حالا كمجيئه صفة يرد

منه المبالغة في الاتصاف. وتأويله باسم الفاعل، أي لا تمش مارحا، أي مشية المارح، وهي المشية الدالة على كبرياء الماشي بتمايل وتبختر. ويجوز أن يكون ﴿مرحا﴾ مفعولا مطلقا مبينا لفعل ﴿تمش﴾ لأن للمشي أنواعا، منها: ما يدل على أن صاحبه ذو مرح. فإسناد المرح إلى المشي مجاز عقلي. والمشي مرحا أن يكون في المشي شدة وطّء على الأرض وتطاول في بدن الماشي.

وجملة ﴿إنك لن تخرق الأرض﴾ استئناف ناشئ عن النهي بتوجيه خطاب ثان في هذاالمعنى على سبيل التهكم، أي إنك أيها الماشي مرحا لا تخرق بمشيك أديم الأرض، ولا تبلغ بتطاولك في مشيك طول الجبال، فماذا يغريك بهذه المشية..

والمقصود من التهكم التشنيع بهذا الفعل. فدل على أن المنهي عنه حرام لأنه فساد في خلق صاحبه وسوء في نيته وإهانة للناس بإظهار الشفوف عليهم وإرهابهم بقوته. وعن عمر بن الخطاب: أنه رأى غلاما يتبختر في مشيته فقال له: «إن البخترة مشية تُكرَه إلا في سبيل الله» يعني لأنها يرهب بها العدو إظهارا للقوة على أعداء الدين في الجهاد». (ت. ع، ج14 ص ص83-84)

وقد بين الله تعالى في الآية 63 من سورة الفرقان الكيفية التي تكون عليها مشية عباده الصالحين المتواضعين: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ أي «إن مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع، ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا، ولا يتبخترون لأجل الخيلاء». (ت. ر. ج24 م12 ص108)

ويوضّح لنا القرآن الكريم في قصة سيدنا موسى عليه السلام، كيف يمكن التعبير عن الحياء والخجل من خلال المشية، خاصة لدى النساء، وهو أمر مستحب. قال تعالى في الآية 25 من سورة القصص: ﴿فجاءته إحداهما

تمشي على استحياء﴾ أي «جاءته حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها». (ت. ص، ج2 ص431)

ورد في الآية 22 من سورة الملك تشبيه للكافر بمن يمشي ورأسه محنيّاً نحو الأرض وكأنه يجر صاحبه للوقوع على وجهه، وتشبيه للمؤمن بمن يمشي مستقيماً. قال تعالى: «أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم».

ويرى ابن عاشور في هذا التشبيه: «أن التمثيل جرى على تشبيه حال الكافر والمؤمن بحالة مشي إنسان مختلفة وعلى تشبيه الدين بالطريق المسلوكة كما يقتضيه قوله: ﴿على صراط مستقيم﴾ فلابد من اعتبار مشي المكب على وجهه مشيا على صراط معوجّ، وتعين أن يكون في قوله: ﴿مكبا على وجهه﴾ استعارة أخرى بتشبيه حال السالك صراطا معوجا في تأمله وترسّمه آثار السير في الطريق غير المستقيم خشية أن يضل فيه، بحال المكب على وجهه يتوسم حال الطريق وقرينة ذلك مقابلته بقوله: ﴿سويا﴾ المشعر بأن ﴿مكبا﴾ أطلق على غير السوي وهو المنحني المطأطئ يتوسم الآثار اللائحة من آثار السائرين لعله يعرف الطريق الموصلة إلى المقصود». (ت. ع. ج29 ص42)

وفي الآية السادسة من سورة الأنفال، تشبيه لحال الذين يخشون الخروج للقتال في سبيل الله كمن يُساق ويُجر إلى الموت، فلن تكون مشيته مستقيمة، ولا تتحرك رجله إلا كارهة، وهذا الوضع شائع في حياة الناس يبدو على من يساق إلى معتقل أو إلى إعدام أو أي مكان يحفّه الخطر. إذ قال تعالى : «يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون».

وقد ورد ذكر المشي السريع في الآية 47 من سورة التوبة، إذ نعت – كما تفعل العرب – بـ «الإيضاع». قال تعالى: «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين».

وقد فسّر ابن هشام في «السيرة النبوية» قوله تعالى ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾، قائلا:

«أوضعوا خلالكم: ساروا بين أضعافكم، فالإيضاع: ضرب من السير أسرع من المشي، قال الأجدع بن مالك الهمداني:

يصطاد الوحَدَ المُدِلّ بشأوه بِشَريج بين الشَّدِّ والإيضاع» (ابن هشام، ج4ص203)

وتوسّع الرازي في تفسير الإيضاع، قائلا:

«من المفاسد الناشئة من خروجهم (أي المنافقين) قوله تعالى ﴿ ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ وفي الإيضاع قولان نقلهما الواحدي. القول الأول: وهو قول أكثر أهل اللغة، أن الإيضاع حمل البعير على العدو، ولا يجوز أن يقال: أوضع الرجل إذا سار بنفسه سيرا حثيثا، يقال: وضع البعير إذا عدا وأوضعه الراكب إذا حمله عليه. قال الفراء: العرب تقول: وضعت الناقة، وأوضع الراكب، وربما قالوا للراكب وضع. والقول الثاني: وهو قول الأخفش وأبي عبيد إنه يجوز أن يقال: أوضع الرجل إذا سار بنفسه سيرا حثيثا من غير أن يراد أنه وضع ناقته، وروى أبو عبيد أن النبي ﷺ، أفاض من عرفة وعليه السكينة وأوضع في وادي محسر. وقال لبيد

أرانا مضعين لحكم غيب ونسخوا بالطعام وبالشراب

أراد مسرعين، ولا يجوز أن يكون يريد موضعين البل لأنه لم يرد السير في الطريق، وقال عمر بن أبي ربيعة:

تبا لهن بالعدوان لما عرفنني وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا

قال الواحدي: والآية تشهد لقول الأخفش وأبي عبيد.

واعلم أن على القولين: فالمراد من الآية السعي بين المسلمين بالتضريب والنمائم، فإن اعتبرنا القول الأول كان المعنى: ولأوضعوا ركائبهم بينكم، والمراد الإسراع بالنمائم، لأن الراكب أسرع من الماشي، وإن اعتبرنا القول الثاني كان المراد أنهم يسرعون في هذا التضريب». (ت. ر. ج16 م 8 ص ص 83-84)

وتضمن القرآن الكريم ذكرا للمشي البطيء الذي يميز العديد من الكائنات الحية - ومن بينها الإنسان - التي يطلق عليها اسم الدواب. وفي اللغة: «دبّ.. يدبّ دبّا ودبيبا: مشى على هينته.. ودبّ الشيخ أي مشى مشيا رويدا.. ودبّ القوم إلى العدو دبيبا إذا مشوا على هينتهم، ولم يسرعوا.. والدابّة اسم لما دب من الحيوان». (ابن منظور، ج1 ص369)

قال تعالى في الآية العاشرة من سورة لقمان: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة﴾؛ وفي الآية 14 من سورة سبأ: ﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض﴾؛ والآية 29 من سورة الشورى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة﴾.

وتحدثت سبع آيات عن السُّرى. وهو السير ليلا، يلجأ إليه الناس لفوائده التي تتمثل في تفادي حرارة شمس النهار أو قصد التخفّي من الآخرين.

قال تعالى في الآية 81 من سورة هود: ﴿قالوا يا لوط إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة الرعد: «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار»؛ والآية 65 من سورة الحجر: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾؛ وقال تعالى في الآية 77 من سورة طه: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾؛ وفي الآية 52 من سورة الشعراء: «وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون»؛ والآية 29 من سورة الشعراء: «فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم

تصطلون»؛ والآية 23 من سورة الدخان: «فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون».

لقد ورد ذكر المشي في القرآن الكريم باعتباره طقسا من الطقوس التعبدية، يرتبط بفريضة الحج وزيارة البيت الحرام، ويطلق عليه «الطواف». ويقال في اللغة العربية: «طاف بالقوم وعليهم طوفا وطوفانا ومطافا وأطاف: استدار وجاء من نواحيه. وأطاف فلان بالأمر إذا أحاط به.. وقيل طاف به حام حوله.. وطاف بالبيت وأطاف عليه: دار حوله». (ابن منظور، ج9 ص225)

قال تعالى في الآيتين 125 و158 من سورة البقرة: «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود»، ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ وقال تعالى في الآيتين 26 و29 من سورة الحج: «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود»، «ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق».

وذكر الله تعالى في كتابه العزيز الطواف بمعناه الشامل أي المشي والدوران حول الناس والأشياء، في وصفه لأحوال أصحاب الجنة الذين يطوف عليهم ولدان يخدمونهم ويقدمون لهم الشراب وكل ما تشتهيه الأنفس.

قال تعالى في الآية 45 من سورة الصافات: «يطاف عليهم بكأس من معين»؛ وفي الآية 71 من سورة الزخرف: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾؛ والآية 24 من سورة الطور: «ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون»؛ وقال تعالى في الآية 44 من سورة الرحمن: «يطوفون بينها وبين حميم آن»؛ وفي الآيتين 17 من سورة الواقعة و19 من سورة الإنسان: «يطوف عليهم ولدان مخلدون»؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة الإنسان: «ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا».

المبحث الخامس

الجـــــــري

يكتسي الجري أهميته التواصلية من كونه سلوكا لافتا للأنظار. فالملاحِظ لشخص يجري، غالبا ما يستنتج أن هناك أمرا مهما دفع ذلك الشخص للقيام بمجهود عضلي إضافي من أجل زيادة سرعة تحركه. فالجري سلوك حركي يعتمد على التسارع لبلوغ مكان ما في أقرب وقت ممكن، ولا يمكن القيام به إلا ببذل جهد كبير واستهلاك قدر زائد من الطاقة، والرفع من أداء بعض أجزاء الجسم كالأطراف والقلب والرئتين، لذا تبقى آثاره لفترة محدودة بعد التوقف عن الحركة، مثل تصبب العرق وسرعة ضربات القلب وسرعة الشهيق والزفير بصوت مرتفع. والخلاصة: إن للجري دلائل جسدية مرئية ومسموعة ذات طابع تواصلي.

وبالرغم من أن الجري سلوك يمكن ممارسته بكيفية إرادية في أغلب الرياضات البدنية، إلا أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بعاطفة الخوف. أي إن معظم الحيوانات – وعلى رأسها الإنسان – لا تلجأ إلى الجري إلا في حالات

التعرض للخطر ومن ثم الخوف أو في حالات تخويف الآخرين. فأدمغتنا تكيّفت على إعطاء الأوامر لإفراز هرمون الأدرينالين في الدم فتتسارع دقات القلب ويضخ الدم تجاه الأطراف لتتمكن من الهرب، عندما نتعرض لخطر مفاجئ. وعندما يكون الجري نتيجة للإحساس بالخوف، يُنعت بالهرب أو الفرار وهي نعوت سلبية تحط من قيمة المنعوت، وتؤثر في مواقف الآخرين تجاهه ونظرتهم واحترامهم إليه. أما عندما يرتبط الجري بالسرعة والقوة ولا يكون الدافع إليه الخوف، يصبح مصدرا للبطولة والتفوق.

تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى الجري كما يمارسه بنو البشر، أي التحرك برجلين مسرعتين، أو كما تفعل ذوات الأربع التي تجري مرتكزة إلى أربع أرجل مثلما تفعل الخيول. وورد ذكر الجري كحركة سريعة لا تعتمد على الأرجل كما في جريان المياه والسفن والرياح والشمس والقمر والكواكب والنجوم.

لقد ورد في الذكر الحكيم إشارات إلى أن الجري وسيلة ناجعة للتعبير عن الخوف وطلب النجاة، لأن عامل السرعة حاسم في الابتعاد عن الخطر، خاصة عند التعرض لخطر الموت. فهناك الإدبار والفرار والهرب والركض والهرع والاستباق.

أولا - تولي الدبر

ورد ذكر تولي الدبر بسبب الخوف في ثماني آيات. فمن يولي دبره للآخرين يكون في وضع ملائم للانطلاق السريع، ويساعد هذا الوضع على امتصاص الصدمات التي تخفّ بفعل الحركة في الاتجاه نفسه.

قال تعالى في الآية 111 من سورة آل عمران: «لن يضروكم إلا أذى وإن

يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون»؛ وفي الآيتين 15 و16 من سورة الأنفال: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير»؛ وقال تعالى في الآية 75 من سورة التوبة: «لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون»؛ وفي الآية العاشرة من سورة النمل: «وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون»؛ والآية 31 من سورة القصص: ﴿وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب﴾؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة الأحزاب: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار﴾؛ وفي الآية 45 من سورة القمر: «سيهزم الجمع ويولون الدبر».

ثانيا - الفرار

وهو الهرب طلبا للنجاة دون تريث أو قصد جهة معينة، فهو رد فعل مباشر صادر عن مركز العواطف بالدماغ (الأميجدالا، أنظر المبحث الثاني من الفصل التمهيدي). وقد ورد الفرار في القرآن الكريم مقترنا بالتعرض للخطر الشديد، كما في الآية 16 من سورة الأحزاب: «قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا»؛ والآيات 50 و51 و52 من سورة المدثر: «كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة. بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة»؛ والآية العاشرة من سورة القيامة: «يقول الإنسان يومئذ أين المفر»؛ والآيات 34 و35 و36 من سورة عبس: «يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه».

وقوله تعالى في الآية 50 من سورة الذاريات: «ففروا إلى الله إني لكم منه

نذير مبين». يقول الإمام الرازي في تفسير قوله ﴿ ففروا إلى الله ﴾: «.. قوله تعالى ﴿ ففروا ﴾ ينبئ عن سرعة الإهلاك كأنه يقول الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع، فافزعوا إلى الله سريعا وفروا». (ت. ر. ج 28 م14 ص229) وقال تعالى في الآية السادسة من سورة نوح على لسان سيدنا نوح عليه السلام: «فلم يزدهم دعائي إلا فرارا» والفرار مستعار لقوة الإعراض، أي فلم يزدهم دعائي قربا من الهدى لكن زادهم فرارا. (ت. ع، ج 29 ص180)

ثالثا - الهرب

قال تعالى في الآية 12 من سورة الجن: «وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا» أي لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء. وثمة تفسير آخر: أي لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمرا، ولن نعجزه هربا إن طلبنا. (ت. ر.ج. 30م 15 ص160)

رابعا - الركض

قال تعالى في الآيتين 12 و13 من سورة الأنبياء محدثا عن بعض أهل القرى الذين ألحق بهم العذاب: «فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون» أي «فلما رأوا عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله إذا هم يهربون منهزمين.. تقول لهم الملائكة استهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من السرور ولين العيش». (ت. ص، ج2 ص257)

خامسا - الهرع

وهو سرعة العَدْو. وجاء في لسان العرب لابن منظور: «اسْتُهْرِعَت الإبل: أسرعت إلى الحوض. وأُهْرِعَ الرجل: خفّ وأُرْعِد من سرعة أو خوف أو حرص أو غضب أو حُمّى.. قال أبو العباس: الإهراع إسراع في طمأنينة، ثم قيل له: إسراع في فزع، فقال: نعم. وقال الكسائي: الإهراع إسراع في رِعْدَة». (ابن منظور، م8 ص369)

قال تعالى في الآية 78 من سورة هود: ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾؛ وقال في الآية 70 من سورة الصافات: «فهم على آثارهم يهرعون».

سادسا - الاستباق

الاستباق هو الجري على الأرجل رفقة الآخرين قصد التنافس وتحقيق السبق، وهي الحالة المألوفة في المنافسات الرياضية. أو يكون في حالة شخصين أحدهما هارب والآخر يجري وراءه قصد اللحاق به. والحالتان وردتا في سورة يوسف. إذ قال تعالى في الآيتين 17 و25: ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا﴾، ﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب﴾.

إن الجري مرتبط بالحركة السريعة. لذا نجد في بعض الأحيان الاستعاضة بلفظ السرعة والإسراع، دون الحاجة إلى ذكر الجري، كما ورد في قوله تعالى في الآية 44 من سورة ق: «يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير». أي «يوم تنشق الأرض عنهم فيخرجون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب استجابة لنداء المنادي». (ت. ص، ج3 ص248).

وذكر الله سبحانه وتعالى في الآية 31 من سورة ص الخيل التي تتسم

بسرعة جريها. إذ قال تعالى: «إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد». يقول الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿الصافنات الجياد﴾: «الصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين (أولهما) الصافنات، قال صاحب الصحاح: الصافن الذي يصفن قدميه.. (والصفة الثانية) للخيل في هذه الآية الجياد، قال المبرد: الجياد جمع جواد وهو الشديد الجري، كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل، فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها. أما حال وقوفها فوصفها بالصفون، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة، يعني أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها على أحسن الأشكال، فإذا جرت كانت سراعا في جريها، فإذا طَلبت لحقت، وإذا طُلبت لم تُلحق». (ت. ر.ج. 26 م13 ص205)

ارتبط لفظ الجري في القرآن الكريم، والذي يحيل إلى الحركة المسرعة المؤدية إلى التنقل من مكان إلى آخر، ارتبط بالأنهار التي توجد بالجنة. إذ نجد عبارة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ في 36 آية قرآنية.

يقول الإمام الطبري في تفسيره لهذه العبارة:

«الجنات: جمع جنة، والجنة البستان. وإنما عنى جلّ ذكره بذكر الجنة: ما في الجنة من أشجارها وثمارها وغرسها، دون أرضها - ولذلك قال عز ذكره: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾. لأنه معلوم أنه إنما أراد جل ثناؤه الخبر عن ماء أنهارها أنه جارٍ تحت أشجارها وغروسها وثمارها، لا أنه جارٍ تحت أرضها. لأن الماء إذا كان جاريا تحت الأرض، فلا حظ فيها لعيون من فوقها إلا بكشف الساتر بينها وبينه. على أن الذي توصف به أنهار الجنة، أنها جارية في غير أخاديد». (ت. ط، ج1 ص205)

ورد قوله تعالى ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ و﴿جنة من نخيل

وأعناب تجري من تحتها الأنهار﴾ في الآيتين 25 و266 من سورة البقرة؛ ووردت العبارة الأولى في الآيات 15 و136 و195 من سورة آل عمران؛ وفي الآيتين 13 و122 من سورة النساء؛ والآيتين 85 و119 من سورة المائدة، وورد في الآية السادسة من سورة الأنعام قوله تعالى ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 43 من سورة الأعراف: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار﴾؛ كما نجد قوله ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ في الآيات 72 و89 و100 من سورة التوبة؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة يونس: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم»؛ وفي الآية 35 من سورة الرعد: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار﴾؛ وقال تعالى في الآية 23 من سورة إبراهيم: «وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام»؛ وفي الآية 31 من سورة النحل: ﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار﴾؛ وفي الآية 31 من سورة الكهف: ﴿جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار﴾؛ ومثله في الآية 76 من سورة طه؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة الحج: «جنات تجري من تحتها الأنهار﴾؛ وفي الآية 20 من سورة الزمر: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار﴾؛ والآية 51 من سورة الزخرف: «ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون»؛ وورد قوله تعالى ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ في الآية 12 من سورة محمد وفي الآيتين 5 و17 من سورة الفتح؛ وقال تعالى في الآية 50 من سورة الرحمن: «فيهما عينان تجريان»؛ وورد قوله تعالى ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ في الآيات: 12 من سورة الحديد و22 من سورة المجادلة

و12 من سورة الصف والتاسعة من سورة التغابن و11 من سورة الطلاق والثامنة من سورة التحريم و11 من سورة البروج؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة الغاشية: «فيها عين جارية»؛ وفي الآية الثامنة من سورة البينة: ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار﴾.

كما ارتبط لفظ الجري في القرآن الكريم بإبحار السفن. إذ اقترن ذكر الفلك (السفن) بالجري في البحر، في تسع آيات.

قال تعالى في الآية 164 من سورة البقرة: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾؛ وقال تعالى في الآية 22 من سورة يونس: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان﴾؛ وفي الآية 42 من سورة هود ذكر لسفينة سيدنا نوح عليه السلام: «وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين»؛ وقال تعالى في الآية 32 من سورة إبراهيم: ﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾؛ وفي الآية 65 من سورة الحج: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره﴾؛ وفي الآية 31 من سورة لقمان: ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته﴾؛ وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة الذاريات: «فالجاريات يسرا» والمقصود بالجاريات «السفن التي تجري على وجه الماء جريا سهلا بيسر وهي تحمل ذرية بني آدم». (ت. ص، ج3ص251)؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة القمر: «تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر»؛ وفي الاية 12 من سورة الجاثية: «الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»؛ والآية 11 من سورة الحاقة: «إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية».

ووصفت حركة الريح بالجري، لأن الهواء يتحرك بسرعة كبيرة تخلف طاقة يمكنها أن تؤثر فيما تصطدم به. قال تعالى في الآية 81 من سورة الأنبياء: ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾؛ وفي الآية 36 من سورة ص: «فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب».

وذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن الكون يتحرك وكل ما فيه يجري بإذنه. وقد أدرك الإنسان بواسطة العلم هذه الحقيقة الإلهية، عندما تبين لعلماء الفلك والفضاء أن الشمس ومجموعة الكواكب التي تدور حولها وأقمارها، كل ذلك يتحرك وكل النجوم في مجرتنا «درب التبانة» تتحرك، والمجرات بدورها تتحرك. وهي حقيقة أوردها القرآن الكريم قبل 14 قرنا.

قال تعالى في الآية 29 من سورة لقمان: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾؛ وفي الآية 13 من سورة فاطر: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 38 و40 من سورة يس: «والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم»، «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الزمر: «خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار».

وأقسم سبحانه وتعالى بالنجوم التي تجري. إذ قال في الآيتين 15 و16 من سورة التكوير: «فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس» والمراد بقوله تعالى ﴿الجوار الكنس﴾: النجوم «التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها كما تستتر الظباء في كناسها- مغاراتها». (ت. ص، ج3 ص525)

المبحث السادس

الصـــــــلاة

إن الصـلاة عـمـاد الدين الإسـلامي. وهي ركن من أهم أركـانه، تجـمـع بين الأقوال والأفعال. وتعتبر الصلاة أهم طقس تعبدي يندر أن يخلو منه دين سواء كان دينا سمـاويا أو غيـره من الأديان التي يتـخـذها البـشـر. وتكتسي الصـلاة أهميتها من تواترها وملازمتها للحياة اليومية. ففي ديننا الإسـلامي الحنيف الصـلاة واجبـة خـمس مـرات في اليوم، يتسم أداؤها بالمرونة الكافيـة التي لا تترك مجالا للاعتذار عنها أو تركها بسبب صعوبات قد تعترض القيام بها.

وتتسـحب أهمية الصـلاة على مختلف أوجه الحياة في المجتمع، فبالرغم من أن تأديتهـا لا تتـقيـد بمكان مـحـدد، إلا أنه من أجل القيـام بهـا بكيـفيـة جمـاعيـة - وهو أمر مـحبب - تخـصص لهـا أطهـر الأمـاكن وأجـملها.. إنهـا المساجد: بيوت الله.

وبما أن ما يهمنا في الصلاة - في هذا المقام - هو الجـانب الفعلي فيها، أي الجـانب الحركي والأدائي، لذا فـهي ذات طبيـعـة بالغـة الأهمـيـة لدراسـة

الهيئة وأوضاع الجسد. إذ تضفي الصلاة على دراسة الهيئة قيمة عملية كبيرة، وقيمة تواصلية بين العبد وخالقه، وبين الناس عندما يبدون الاحترام للمصلي أثناء تأدية الصلاة، كما أن الصلاة سلوك إيمائي نمطي يدركه الملاحظ فيفهم الكثير من تفاصيله عند الأخذ في الاعتبار بعض التفاصيل المرتبطة بالزمان والمكان. والصلاة تضفي هويّة على من يمارسها؛ فعندما نشاهد شخصا يصلي - صلاة المسلمين - نصنّفه بأنه ينتمي لأمة الإسلام، ومن ثم نسقط عليه العديد من القيم والسلوكات التي تميز هذه الأمة.

1 - وجوب الصلاة

لقد تضمن القرآن الكريم، العديد من الآيات التي يأمر فيها الله سبحانه وتعالى عباده بإقامة الصلاة. ولفظ «الإقامة» الوارد في العديد من الآيات القرآنية، يؤكد أهمية الجانب الفعلي/السلوكي في الصلاة.

لقد تضمنت سورة البقرة خمس آيات يشرن إلى وجوب الصلاة. قال تعالى في الآية 45: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»، وفي الآية 83: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة﴾، والآية 110: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، والآية 153: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾، والآية 238: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين».

وقال تعالى في الآية 103 من سورة النساء: ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾؛ وفي الآية 72 من سورة الأنعام: ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه﴾؛ وقال تعالى في الآية 87

من سورة يونس: «وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين»؛ وفي الآية 114 من سورة هود: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل﴾؛ وفي الآية 31 من سورة إبراهيم: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 78 و79 من سورة الإسراء: «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا».

وقال تعالى في الآية 31 من سورة مريم على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا﴾؛ وفي الآية 132 من سورة طه: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾. إن قوله تعالى في الآية الأخيرة ﴿واصطبر عليها﴾ يدل على أن الصلاة عمل يحتاج إلى جهد وإلى صبر ومثابرة، لأنها تتردد بعد كل عدد قليل من الساعات وتلازم الإنسان منذ صغره إلى نهاية عمره. فإذا علمنا أن الجانب الفعلي هو الأصعب مقارنة بالأقوال التي تتضمنها الصلاة، نجد أن المدخل الرئيس الذي يسلكه الشيطان الرجيم لمنع الإنسان من أداء الصلاة، هو تعجيزه وحثه على التأجيل وتضخيم الجهد الذي يحتاجه لتأديتها.

وقال تعالى في الآية 14 من سورة طه: «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري»؛ وفي الآية 78 من سورة الحج: ﴿فأقيموا الصلاة﴾؛ والآية 56 من سورة النور: ﴿وأقيموا الصلاة﴾؛ وقال تعالى في الآية 45 من سورة العنكبوت آمرا رسوله الكريم بإقامة الصلاة ومبينا فوائدها: ﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾؛ والآية 31 من سورة الروم: ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة﴾؛ وقال تعالى على لسان لقمان الحكيم عليه السلام: ﴿يا بني أقم الصلاة﴾»؛ وقال تعالى

لأمهات المؤمنين نساء النبي ﷺ في الآية 33 من سورة الأحزاب: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة﴾؛ وفي الآية 13 من سورة المجادلة: ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة﴾؛ والآية التاسعة من سورة الجمعة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾؛ وقال تعالى في الآية 20 من سورة المزمل: ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة﴾؛ وفي الآية السابعة من آية الشرح: «فإذا فرغت فانصب»؛ وقال تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة الكوثر: «إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر».

2 - فضل الصلاة

أثنى الله تعالى في كتابه العزيز على المصلين، وبيّن أن المداومة عليها من تمام العبادة.

إذ قال تعالى في الآية الثالثة من سورة البقرة: «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون»؛ وفي الآية 177 من سورة البقرة: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة﴾؛ والآية 277 من سورة البقرة: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

وقال تعالى في الآية 162 من سورة النساء: «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون

الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما»؛ وقال تعالى في الآيتين 92 و162 من سورة الأنعام: ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾، «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»؛ وفي الآية 170 من سورة الأعراف: «والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنّا لا نضيع أجر المصلحين»؛ والآية الثالثة من سورة الأنفال: «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون»؛ وقال تعالى في الآيتين 18 و71 من سورة التوبة: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة﴾، ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة﴾؛ وفي الآية 22 من سورة الرعد: «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار».

وقال تعالى في الآيتين 35 و41 من سورة الحج: «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون»، ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة﴾؛ وقال تعالى في الآيتين الثانية والتاسعة من سورة «المؤمنون»: «الذين هم في صلاتهم خاشعون»، «والذين هم على صلواتهم يحافظون»؛ وفي الآية 37 من سورة النور: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة﴾؛ وقال تعالى في الآيتين الثالثة من سورة النمل والرابعة من سورة لقمان: «الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون»؛ وفي الآيتين 18 و29 من سورة فاطر: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾، «إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور»؛ والآية 38 من سورة الشورى: ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾ وقال تعالى في الآيات 22 و23 و34 من سورة المعارج: «إلا المصلين.

الذين هم على صلاتهم دائمون»، «والذين هم على صلاتهم يحافظون»؛ وقال تعالى في الآيتين 14 و15 من سورة الأعلى: «قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى».

3 - كيفية أداء الصلاة

يؤكد القرآن الكريم على الجانب الفعلي في الصلاة. فقد وردت بعض الآيات التي تؤكد إقامة الصلاة بما تتضمنه من أقوال وأفعال محددة ومعلومة.

قال تعالى في الآية 77 من سورة النساء: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة﴾؛ وفي الآية 12 من سورة المائدة: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة﴾؛ والآية 5 و11 من سورة التوبة: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة﴾؛ وفي الآيتين 37 و40 من سورة إبراهيم: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة﴾، ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي﴾؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة البينة: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة﴾؛ والآية 73 من سورة الأنبياء: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة﴾.

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم تضمن العديد من الآيات التي تشير إلى الركوع والسجود - وهما من أبرز الأفعال التي تُؤدى في الصلاة - إلا أن القرآن الكريم لم يشتمل على الكيفية التي تتم بها الصلاة على وجه التفصيل. وذلك ما نجده في السنة النبوية الشريفة التي تعتبر ثاني مصدر للتشريع

الديني. فقد أورد أئمة الحديث بعض الأحاديث التي تبين الأفعال المصاحبة للصلاة.

فقد أورد الإمام مسلم، في باب رفع اليدين في الصلاة، «عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام للصلاة رفع يديه حتى تكونا حَذْوَ منكبيه ثم كبّر، فإذا أراد أن يركع فعل مثل ذلك، وإذا رفع من الركوع فعل مثل ذلك، ولا يفعلُه حين يرفع رأسه من السجود». (المنذري،2000، ص93)

وروى مسلم في باب: ما يفتتح به الصلاة ويختم، «عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وكان إذا ركع لم يُشْخِص رأسَه ولم يُصَوِّبْهُ ولكن بين ذلك، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستويَ قائما، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجُدْ حتى يستويَ جالسا، وكان يقولُ في كل ركعتين التّحيّة، وكان يفرُشُ رِجْلَهُ اليسرى وينصِب رجله اليمنى، وكان ينهي عن عُقبَة الشيطان، وينهي أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السّبُعِ، وكان يختم الصلاة بالتسليم». (المنذري، 2000، ص93)

وفي باب: ائتمام المأموم بالإمام، روى مسلم «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سقط النبي ﷺ عن فَرسٍ فجُحِشَ شِقُّه الأيمن فدخلنا عليه نعوده، فحضرت الصلاة، فصلى بنا قاعدا فصلينا وراءه قعودا، فلما قضى الصلاة قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده فقولوا: ربنا ولك الحمد، وإذا صلى قاعدا فصلوا قعودا أجمعين». (المنذري، 2000، ص94)

وروى الإمام مسلم في باب: وضع اليدين إحداهما على الأخرى في الصلاة، «عن وائل بن حُجْر رضي الله عنه: أنه رأى النبي ﷺ رفع يديه حين دخل في الصلاة كبّر - وصف همّام حيال أذنيه - ثم التحف بثوبه، ثم وضع

يده اليمنى على اليسرى، فلما أراد أن يركع أخرج يديه من الثوب ثم رفعهما، ثم كبّر فركع، فلما قال: سمع الله لمن حمده رفع يديه، فلما سجد سجد بين كفيه». (المنذري،2000، ص94)

وأورد الإمام البخاري في صحيحه في كتاب صفة الصلاة، «عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، فسلّم على النبي صلى الله عليه وسلم فردّ، وقال: ارجع فصلِ فإنك لم تصل. فرجع يصلي كما صلى، ثم جاء، فسلم على النبي ﷺ، فقال: ارجع فصلِ فإنك لم تصل. ثلاثا، فقال: والذي بعثك بالحق، ما أُحْسِن غيره، فعلمني؟ فقال: إذا قمت إلى الصلاة فكبّر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم اجلس حتى تطمئن جالسا، وافعل ذلك في صلاتك كلها». (البخاري،1999، ص ص135-136)

وروي «عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: صليت إلى جنب أبي، فَطَبَّقْتُ بين كَفَّيَّ، ثم وضعتهما بين فَخِذَيَّ، فنهاني أبي وقال، كنّا نفعله فنُهينا عنه، وأمرنا أن نضع أيدينا على الركب. (البخاري، 1999، ص139)

و«عن البَرَاء رضي الله عنه قال: كان ركوع النبي ﷺ وسجوده، وبين السجدتين، وإذا رفع من الركوع، ما خلا القيام والقعود، قريبا من السواء». (البخاري، 1999، ص139)

وروى الإمام البخاري «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة - وأشار بيده على أنفه - واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، ولا نَكْفِت (نكف) الثياب والشَّعَرَ». (البخاري،1999، ص143)

وعن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قال: اعتدلوا في السجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب». (البخاري،1999، ص143)

وروي «عن أبي حميد الساعد رضي الله عنه قال: أنا كنت أحفظكم لصلاة رسول الله ﷺ، رأيته إذا كبّر جعل يديه حذاء منكبيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه، ثم هصر ظهره، فإذا رفع رأسه استوى، حتى يعود كل فقار مكانه، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما، واستقبل بأطراف رجليه القبلة، فإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى، ونصب اليمنى، وإذا جلس في الركعة الآخرة، قدّم رجله اليسرى، ونصب الأخرى، وقعد على مَقْعَدَتِهِ». (البخاري،1999، ص144)

وروى الإمام أحمد في مسنده: « .. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي يَلْتَفِتُ يَمِينًا وَشِمَالا وَلاَ يَلْوِي عُنُقَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ قَالَ الطَّالَقَانِيُّ حَدَّثَنِي ثَوْرٌ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِثْلَهُ»؛ « .. عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ قَالَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَامِرِ ابْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُسَلِّمُ عَنْ يَمِينِهِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ خَدِّهِ وَعَنْ يَسَارِهِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ خَدِّهِ»؛ « .. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَائِمًا ثُمَّ يَقْعُدُ ثُمَّ يَقُومُ فَيَخْطُبُ». (ش. صخر،1997)

4 - الركوع

كما تبين من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي اقتبسناها من صحيحي الإمامين مسلم والبخاري، فإن أفعال الصلاة تستند إلى ثلاثة أوضاع جسدية، هي: القيام والركوع والسجود.

والركوع هو حركة انحناء الظهر ليستقر في وضع أفقي مشكلا مع أسفل الجسم - ابتداء من الخصر إلى أسفل القدمين - زاوية قائمة. وهو وضع جسدي يدل على إبداء الاحترام للآخر، وتتخذه بعض الشعوب الآسيوية كشكل من أشكال التحية (مع اختلاف أن الراكع في الصلاة، يسند باطن كفيه إلى ركبتيه، بينما قد يضع المحيي باطن كفيه على بطنه).

لقد تضمن القرآن الكريم بعض الآيات التي تشير إلى الركوع مقترنا بأداء الصلاة. قال تعالى في الآيتين 43 و125 من سورة البقرة: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين»؛ ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾؛ وقال تعالى في الآية 43 من سورة آل عمران: «يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين»؛ وفي الآية 55 من سورة المائدة: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون»؛ والآية 112 من سورة التوبة: ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 26 و77 من سورة الحج: «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود»، ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا﴾؛ وفي الآية 29 من سورة الفتح: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا﴾؛ والآية 48 من سورة المرسلات: «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون».

5 - السجود

يعتبر السجود أكثر الأوضاع الجسدية تعبيرا عن التواضع والرغبة في الطاعة والاعتراف بعلو منزلة مَنْ يُسجد له. وعندما يسجد الإنسان لغيره فهو يبين صراحة، أقصى درجات احترامه وضعفه تجاه الآخر، لذا نادرا ما

يسجد الإنسان طوعا دون أن يؤمر لأن السجود يجرح نرجسيته وغروره. وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ارتباط أولى حالات العصيان لأمره بالسجود، عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم، فعصى إبليس اللعين الأمر.

وقد بيّن رسول الله ﷺ فضل السجود كوسيلة للتقرب إلى الله جل وعلا. فقد روى أبو داود في سننه: « .. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». (ش. صخر، 1997)

وروى النسائي في سننه: «أَخْبَرَنَا أَبُو عَمَّارٍ الْحُسَيْنُ بْنُ حُرَيْثٍ قَالَ أَنْبَأَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ قَالَ حَدَّثَنِي الْوَلِيدُ بْنُ هِشَامٍ الْمُعَيْطِيُّ قَالَ حَدَّثَنِي مَعْدَانُ بْنُ طَلْحَةَ الْيَعْمُرِيُّ قَالَ لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَنْفَعُنِي أَوْ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ فَسَكَتَ عَنِّي مَلِيًّا ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ عَلَيْكَ بِالسُّجُودِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلا رَفَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً قَالَ مَعْدَانُ ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَسَأَلْتُهُ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ ثَوْبَانَ فَقَالَ لِي عَلَيْكَ بِالسُّجُودِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً». (ش. صخر، 1997)

قال تعالى في الآية 34 من سورة البقرة: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين»؛ وفي الآيتين 11 و12 من سورة الأعراف: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»؛ ووردت القصة كاملة في سورتي الحجر وص. إذ قال تعالى في الآيات 28-33 من سورة الحجر: «وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا

إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون»؛ وقال تعالى في الآية 61 من سورة الإسراء: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا»؛ وفي الآية 50 من سورة الكهف: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس﴾؛ والآية 116 من سورة طه: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى»؛ وقال تعالى في الآيات 71-75 من سورة ص: «إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين».

والسجود هو الشكل السائد لعبادة الرحمن تمارسه جميع مخلوقاته بدءا من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والإنسان وكل ما في السماوات والأرض.

قال تعالى في الآية 206 من سورة الأعراف: «إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون»؛ وفي الآية 15 من سورة الرعد: «ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال»؛ وقال تعالى في الآيتين 48 و49 من سورة النحل: «أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون. ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون»؛ وفي الآيتين 107 و109 من سورة الإسراء: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا﴾، «ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا»؛ وقال تعالى في الآية 18 من سورة الحج: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم

والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس﴾؛ وفي الآية 15 من سورة السجدة: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا﴾؛ والآية السادسة من سورة الرحمن: «والنجم والشجر يسجدان».

إن الكائن البشري عبر رحلته على ظهر البسيطة، كثيرا ما كان يتنقل بين الضلالة والهدى. فعبد الكثير من الأشياء التي ألِفها في بيئته ظنا منه أنها الخالق أو قد تقربه من الخالق. وقام الرسل الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى بدور بارز في هداية الناس وتوجيههم لعبادة خالقهم الله سبحانه وتعالى. وقد وردت في القرآن الكريم إشارات عن بعض الأقوام الذين عبدوا الشمس والقمر وسجدوا لهما. قال تعالى في الآيتين 24 و25 من سورة النمل عن بلقيس ملكة سبأ وقومها: «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون»؛ وقال تعالى في الآية 37 من سورة فصلت: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن﴾.

وقد بين الله سبحانه وتعالى في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع سحرة فرعون، كيف يكون السجود وسيلة للتعبير عن الاعتراف بعلو المنزلة. إذ قال تعالى في الآية 120 من سورة الأعراف: «وألقي السحرة ساجدين»؛ وفي الآية 70 من سورة طه: «فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى»؛ والآية 46 من سورة الشعراء: «فألقي السحرة ساجدين». وشكل السجود أبرز علامة في رؤية سيدنا يوسف عليه السلام، عندما رأى في منامه أن إخوته وأبويه (وقيل أباه وخالته) سجدوا له. قال تعالى في الآية الرابعة من سورة يوسف: «إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين»؛ وصدقت الرؤيا. قال تعالى في

الآية المائة: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا﴾.

وورد في القرآن الكريم بعض الإشارات لحالات الامتناع عن السجود لله سبحانه وتعالى من لدن عباده الذين آثروا الشرك به. فقد ذكر الله سبحانه وتعالى في سورتي النساء والأعراف خبر بني إسرائيل إذ أمرهم الله بأن يدخلوا باب بيت المقدس ساجدين خشوعا لله، فعوض أن يفعلوا ذلك، دخلوا يزحفون على أدبارهم سخرية واستهزاء بأوامر الله. (ت. ص، ج1ص ص316 و477). قال تعالى في الآية 154 من سورة النساء: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا﴾؛ وفي الآية 161 من سورة الأعراف: ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا﴾. وقال تعالى في الآية 60 من سورة الفرقان: «وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا»؛ والآية 21 من سورة الانشقاق: «وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون».

وتضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تقرن بين السجود والصلاة:

قال تعالى في الآية 125 من سورة البقرة: «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود»؛ وفي الآيتين 43 و113 من سورة آل عمران: «يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين»، «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون»؛ وقال تعالى في الآية 102 من سورة النساء: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم﴾؛ وفي الآية 98 من سورة الحجر: «فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين»؛ والآية 64 من سورة الفرقان: «والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما»؛ والآية 219 من سورة الشعراء: «وتقلبك في الساجدين»؛ وقال تعالى

في الآية التاسعة من سورة الزمر: ﴿أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة﴾؛ وفي الآية 29 من سورة الفتح: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾؛ والآية 40 من سورة ق: «ومن الليل فسبحه وأدبار السجود»؛ والآية 62 من سورة النجم: «فاسجدوا لله واعبدوا»؛ وقال تعالى في الآيتين 42 و43 من سورة القلم: «يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون»؛ وفي الآية 26 من سورة الإنسان: «ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا»؛ والآية 19 من سورة العلق: «كلا لا تطعه واسجد واقترب».

6 - التهاون في الصلاة

نعت الله سبحانه وتعالى الذين يتهاونون في أداء الصلاة بالمنافقين. فالصلاة يمكن اعتبارها كمقياس جيّد لمدى الالتزام الديني، لأنها تتطلب مجهودا بدنيا، وقدرا من الإيمان والخشوع والمثابرة. كما أن الصلاة سلوك ظاهري لا يمكن إخفاؤه لارتباطه بأوقات محددة تستدعي ترك العمل مؤقتا لتأديته، وللصلاة أماكن عامة (المساجد) تتميز بهندستها ومعمارها، تقام فيها جماعة. أي إن الصلاة من أهم المظاهر التي تميز المجتمع الملتزم دينيا.

قال تعالى في الآية 142 من سورة النساء: «إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا»؛ وفي الآية 58 من سورة المائدة: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا﴾؛ وقال تعالى في الآية 35 من سورة الأنفال: ﴿وما كان صلاتهم

عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾؛ وفي الآية 54 من سورة التوبة: «وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون».

وقد توعد الله الذين لم يؤدوا صلاتهم والمتهاونين. إذ قال تعالى عن أصحاب سقر في الآية 43 من سورة المدثر: «قالوا لم نك من المصلين»؛ وقال تعالى في الآية 31 من سورة القيامة: «فلا صدق ولا صلى»؛ وفي الآيتين الرابعة والخامسة من سورة الماعون: «فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون»؛ وقال تعالى في الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة العلق: «أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى».

المبحث السابع

الهــبوط والصعـود

نتطرق في هذا المبحث لمفهومين لهما علاقة بهيئة الجسد أثناء الحركة والانتقال من مكان إلى آخر. وهما: الهبوط والصعود. إذ يرتبط مفهوم الهبوط أو النزول، بالانتقال من مكان أعلى إلى مكان أسفل، مع افتراض أن هناك جاذبية نحو المكان الأسفل تساعد الجسم الهابط أو النازل وتقلل من حاجته للجهد الحركي، وتحتاج هذه العملية إلى التحكم فيها قصد تفادي الارتطام بمكان الهبوط. أما الصعود، فهو عكس الهبوط، يشير إلى بذل الجهد الكافي للإفلات من جاذبية مكان الإقلاع، وبذل المزيد من الجهد والطاقة للارتقاء قصد الوصول إلى المكان الذي يفترض أن يكون في الأعلى. وإذا أخذنا بالمفاهيم الفضائية الكونية، سنجد أن التمييز بين الأعلى والأسفل لا معنى له، طالما أن السطح الذي نوجد فيه يتحرك باستمرار ويدور حول نفسه.

لقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى الهبوط والهويّ (أو الهويان) والسقوط والنزول، والصعود والعُروج والنفاذ.. وكل هذه الأوضاع لا ندري فيها ماهية الهيئة التي تكون عليها الأجساد. إذ تتحدث

الآيات أحيانا عن هبوط الإنسان دون أن ندري على أي هيئة يهبط. فهل يتخذ أثناء هبوطه وضع الجالس أو الواقف أو الراقد أو المتدحرج؟ وأحيانا أخرى، يرد الحديث عن الملائكة وهي أجسام نورانية لايعرف هيئتها إلا الله ومن أكرم من عباده، كما رأى نبينا الكريم محمد ﷺ سيدنا جبريل عليه السلام، في سورة النجم، إذ قال تعالى: «علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى». وورد في بعض الآيات إشارة إلى نزول السكينة وهي من الأمور المعنوية التي لا تتجسّد. لكل ذلك، لابد من أن نتعامل مع الأوضاع الجسدية، في هذه المفاهيم المذكورة على سبيل المجاز أو اعتبارها من الأمور التي لا يمكن التحقق منها، ونستطيع بذلك أن نستوعب الكثير من الأشياء والأحداث التي ذُكِرت في القرآن وتستعصي على إدراكنا المحدود، مثل هبوط أبينا آدم عليه السلام وإبليس اللعين من الجنة إلى الأرض، والإسراء والمعراج، ونزول مائدة سيدنا عيسى عليه السلام.

1 - الهبــــوط

ورد الهبوط بمعنى النزول من الجنة التي في السماء إلى الأرض، في قصة سيدنا آدم عليه السلام وإبليس، في خمس آيات بسور البقرة والأعراف وطه.

إذ قال تعالى في الآية 36 و38 من سورة البقرة: «فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين»، ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 13 و24 من سورة الأعراف: «قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها

فاخرج إنك من الصاغرين»، ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر﴾؛ وفي الآية 123 من سورة طه: ﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو﴾.

وفي الآية 48 من سورة هود، ذكر لهبوط (نزول) سيدنا نوح من السفينة بعد انتهاء الطوفان: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا﴾.

وقال تعالى في الآية 31 من سورة الحج واصفا حال المشركين: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾. يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية:

«يجوز في هذا التشبيه أن يكون مركبا ومفرقا، فإن كان مركبا فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة من خرّ من السماء فاختطفته الطير فصيرته مزعا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، وشبه الأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة». (ت. ز، ج3 ص ص151-152)

وورد الهبوط بمعنى السقوط، إذ قال تعالى في الآية 74 من سورة البقرة: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾. وقال تعالى في الآية 44 من سورة الطور: «وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم».

وقال تعالى في الآية الأولى من سورة النجم: «والنجم إذا هوى». فسر ابن عاشور هذه الآية بقوله: «الهُويّ: السقوط، أطلق هنا على غروب الكوكب،

استعير الهُويُّ إلى اقتراب اختفائه ويجوز أن يراد بالهويّ: سقوط الشهاب حين يلوح للناظر أنه يجري في أديم السماء، فهو هويّ حقيقي فيكون قد استعمل في حقيقته ومجازه..

ومناسبة القسم بـ﴿النجم إذا هوى﴾، أن الكلام مسوق لإثبات أن القرآن وحي من الله منزل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هويّه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازلة من محل رفعة معنوية، شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسفله وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس، أو الإشارة إلى مشابهة حالة نزول جبريل من السماوات بحالة نزول النجم من أعلى مكانه إلى أسفله، أو بانقضاض الشهاب تشبيه محسوس بمحسوس». (ت. ع، ج27 ص99)

2 - النـــزول

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز تنزيله لملائكته من السماء إلى الأرض، دون ذكر لهيئة النزول وكيفيته. إذ قال تعالى في الآية 124 من سورة آل عمران: «إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين»؛ وفي الآية 111 من سورة الأنعام: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾؛ والآية الثامنة من سورة الحجر: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾؛ وقال تعالى في الآية 24 من سورة المؤمنون: ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾؛ وفي الآية 25 من سورة الفرقان: «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا»؛ والآية 193 من سورة الشعراء: «نزل به الروح الأمين» أي القرآن الكريم «نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام». (ت. ص، ج2ص395)؛ وقال تعالى في الآيتين 14 و30 من سورة فصلت: ﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل

ملائكة ﴾، ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ﴾؛ وفي الآية 28 من سورة يس: «وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين»؛ وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة النازعات: «والسابحات سبحا». يقول الصابوني في صفوة التفاسير: «أي وأقسم بالملائكة التي تنزل بأمر الله ووحيه من السماء كالذي يسبح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمر الله». (ت. ص، ج3 ص513) وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة القدر: «تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر».

وتضمنت سورة المائدة ذكراً لإنزال المائدة على قوم سيدنا عيسى عليه السلام من السماء، إذ قال تعالى في الآيتين 112 و114: «إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين»، «قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين».

وأنزل الله القرآن الكريم، كما ورد في الآيات التالية:

قال تعالى في الآيتين 24 و102 من سورة النحل: «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين»، ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾؛ وفي الآية 93 من سورة الإسراء: ﴿ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه﴾؛ وقال تعالى في الآية الثانية من سورة السجدة: «تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين»؛ والآية الثانية من سورة محمد: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد﴾.

كما أنزل الله على عباده الطمأنينة والسكينة وقد شرحها ابن عاشور في إطار تفسيره للآية 248 من سورة البقرة، بقوله: «السكينة فعلية بمعنى الاطمئنان والهدوء، وفي حديث السعي إلى الصلاة «عليكم بالسكينة».. وورد في حديث أسيد بن حضير إطلاق السكينة على شيء شبه الغمام ينزل من

السمـاء عند قـراءة القـرآن، فلعلهـا مـلائكة يسـمـون بالسكينة». (ت. ع، ج2 ص470).

قـال تعالـى في الآية 154 من سـورة آل عـمـران: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم﴾؛ وفي الآيتين 26 و40 من سورة التوبة: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسـوله وعلى المؤمنين﴾، ﴿فـأنزل الله سكينته عليـه﴾ وقـال تعالـى في الآيات 4 و18 و26 من سـورة الفـتح: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾، «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشـجـرة فعلم مـا في قلوبهم فـأنزل السكينة عليهـم وأثابهم فـتحـا قـريبـا»، ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾.

3 - الصعــود

إن الصعود والعُروج والنفاذ، مصطلحـات تشترك في معنى واحد يقابل معنى الهبوط والنزول. فقد يكون الصعود أو العروج هو طريق العودة بعد الهبوط أو النزول، وقد يتخذ الجسم فيه الهيئة نفسها أو يتخذ هيئة تتلاءم مع الجهد المبذول.

قال تعالى في الآية 153 من سورة آل عمران: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحـد﴾؛ وفي الآية 125 من سـورة الأنعـام: ﴿فـمن يرد الله أن يهـديه يشـرح صدره للإسـلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السمـاء﴾؛ والآية العاشرة من سورة فاطر: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾.

وقـال تعـالـى في الآية 17 من سـورة المدثر: «سـأرهقــه صـعـودا». ويدور الحديث هنا عن الصعود بمعنى التسلق الذي يتم في اتجاه معاكس للجاذبية

الأرضية، ويحتاج إلى طاقة وجهد كبيرين. وجاء في تفسير هذه الآية: «أي سأكلفه وألجئه إلى عذاب صعب شاق لا يطاق، تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد في الجبل. قال القرطبي: ﴿صعودا﴾ صخرة ملساء يكلف صعودها، فإذا صار في أعلاها حدر في جهنم، فيهوي ألف عام قبل أن يبلغ قرارها. وفي الحديث: الصعود جبل من نار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا، ثم يهوي فيه كذلك أبدا». (ت. ص، ج3 ص476)

وورد ذكر العروج إلى السماء في الآية 14 من سورة الحجر، إذ قال تعالى: «ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون»؛ والآية الخامسة من سورة السجدة: «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون»؛ وقال تعالى في الآية الثانية من سورة سبأ: «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور»؛ والآية الرابعة من سورة المعارج: «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة».

ووردت الإشارة إلى النفاذ في الآية 33 من سورة الرحمن، إذ قال تعالى: «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان». والنفاذ هو جواز شيء عن شيء وخروجه عنه، والمعنى: «هذه السماوات والأرض أمامكم فإن استطعتم فاخرجوا من جهة منها فرارا من موقفكم هذا، وذلك أن تعدد الأمكنة يسهل الهروب من إحدى جهاتها». (ت. ع، ج27 ص241)

المبحث الثامن

البعث والحشر

يندرج حديثنا عن البعث والحشر ضمن أوضاع جسدية تتسم بالتركيب - أي قد تشارك فيها أوضاع الوقوف والجلوس والمشي والرقاد، كما رأينا في مبحث الصلاة - والخصوصية، لارتباطها بالحياة الأخرى التي تبتدئ بالبعث ثم الحشر يوم القيامة.

فإذا نظرنا في المعجم اللغوي «لسان العرب» لابن منظور، نجد في مادة «بعث»، ما يلي:

«البعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإرسال، كقوله تعالى: ثم بعثنا من بعدهم موسى؛ معناه أرسلنا. والبعث إثارة بارك أو قاعد، تقول: بعثت البعير فانبعث أي أَثَرْتُه فثار. والبعث أيضا الإحياء من الله للموتى؛ ومنه قوله تعالى: ثم بعثناكم من بعد موتكم؛ أي أحييناكم. وبَعَثَ الموتى: نشرهم ليوم البعث». (ابن منظور، ج2ص117)

وتقول العرب: «بعثه من نومه بعثا، فانبعث: أيقظه وأهَبَّه. وفي الحديث:

أتاني الليلة آتيان فابتعثاني؛ أي أيقظاني من نومي. وتأويل البعث: إزالة ما كان يحبسه عن التصرف والانبعاث». (ابن منظور، ج2ص117)

وإذا بحثنا في الأوضاع الجسدية التي يمكن أن ترافق حالة البعث، نجدها قد تبتدئ من دبيب الحركة في الجسد المستلقي، ومن ثم الجلوس التام أو المرور بوضع الجلوس دون البقاء فيه، ثم الارتكاز على الأطراف قصد الوقوف، ومن ثم المشي أو الجري، وينطبق هذا الوصف على حالة اليقظة من النوم. أما بعث الله مخلوقاته بعد مماتهم، فهذا لا تُعرف كيفيته، لأنه يتضمن إعادة تشكل الأجساد وإعادة الروح إليها، لتتمكن من اتخاذ وضع حركي معين.

أما الحشر، فقد ورد فيه: «حشرهم يحشُرُهم ويحشِرُهم حشرا: جمعهم؛ ومنه يوم المحشر. والحشر: جمع الناس يوم القيامة. والحشر: حشر يوم القيامة. والمحشَر: المجمع الذي يحشر إليه القوم، وكذلك إذا حشروا إلى بلد أو معسكر أو نحوه». (ابن منظور، ج4ص190)

ولكي يتم الحشر بتجميع الناس في مكان محدد، عليهم أن يَرِدوا إلى المحشر زحفا أو مشيا أو جريا أو متدحرجين أو راكبين أو طائرين تحملهم الريح.. وقد يبدو أهل المحشر واقفين أو جالسين أو متحركين/محجولين في مساحة محدودة.. أي إن الحشر لابد وأن يتضمن أوضاعا جسدية.

1 - البعـث

ورد ذكر البعث بمعنى إحياء الموتى في الدنيا قبل الآخرة، في القصص التي تخبر عن بعض الأقوام أو الأفراد الذين أماتهم الله ثم أحياهم آية لهم ولغيرهم. وكذا في كيفية خلق الإنسان وتشكُّله حتى يخرج من بطن أمه.

قال تعالى في الآية 56 من سورة البقرة في خبر بني إسرائيل وسيدنا

موسى عليه السلام، عندما أماتهم يوماً وليلةً ثم أحياهم: «ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 259 و260 من سورة البقرة: «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم».

وذكر الله تعالى خلقه للكائنات الحية، إذ قال في الآية 95 من سورة الأنعام: ﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي﴾؛ وفي الآية 31 من سورة يونس: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾.

وقال تعالى عن أهل الكهف في الآيتين 12 و19 من سورة الكهف: «ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا»، ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾.

وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة الحج: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾؛ وفي الآية 19 من سورة الروم: «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون».

وتضمنت 30 آية قرآنية إشارات واضحة للبعث يوم القيامة، حيث ينهض - بعد النفخة الثانية في الصور - من كانوا في القبور، ومن ماتوا بعد النفخة الأولى في الصور.

قال تعالى في الآيات 29 و36 من سورة الأنعام: «وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين»، «إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون»؛ وفي الآية 14 من سورة الأعراف: «قال أنظرني إلى يوم يبعثون»؛ والآية 36 من سورة الحجر: «قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون»؛ وقال تعالى في الآيات 21 و84 و89 من سورة النحل: «أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون»، ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا﴾، ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم﴾؛ وفي الآيتين 49 و98 من سورة الإسراء: «وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا»، «ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا»؛ وفي الآيتين 15 و33 من سورة مريم: «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا»، «والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا»؛ والآية السابعة من سورة الحج: «وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور»؛ وقال تعالى في الآيات 16 و37 و82 و100 من سورة «المؤمنون»: «ثم إنكم يوم القيامة تبعثون»، «إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين»، «قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون»، ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾.

وقال تعالى في الآية 87 من سورة الشعراء: «ولا تخزني يوم يبعثون»؛ وفي الآية 65 من سورة النمل: ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾؛ والآية 56 من سورة الروم: «وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون»؛ وقال تعالى في الآية 28 من سورة

لقمان: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾؛ وفي الآية 52 من سورة يس: ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾؛ وفي الآية 16 من سورة الصافات: «أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون»؛ والآية 79 من سورة ص: «قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون»؛ والآية 47 من سورة الواقعة: «وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون»؛ وقال تعالى في الآيتين 6 و18 من سورة المجادلة: ﴿يوم يبعثهم الله جميعا﴾؛ وفي الآية السابعة من سورة التغابن: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن﴾؛ وقال تعالى في الآية السابعة من سورة الجن: «وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا»؛ وفي الآية الرابعة من سورة المطففين: «ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون».

إن علامة البعث، هي النفخ في الصور، الذي ورد ذكره في سور الكهف وطه والنمل ويس والنبأ. إذ قال تعالى في الآية 99 من سورة الكهف: ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾؛ وفي الآية 102 من سورة طه: «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا»؛ والآية 87 من سورة النمل: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 51 و53 من سورة يس: «ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون»، «إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون»؛ والآية 18 من سورة النبأ: «يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا».

ومن مظاهر البعث يوم القيامة، خروج الناس من قبورهم. قال تعالى في الآية 25 من سورة الأعراف: «قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون» (والضمير في ﴿فيها﴾ يعود إلى الأرض)؛ وفي الآية 66 من سورة مريم: «ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا»؛ والآية 55 من سورة طه: «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى»؛ وقال تعالى في الآية 25

من سورة الروم: «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون»؛ وفي الآية السابعة من سورة القمر: «خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر»؛ والآية 43 من سورة المعارج: «يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون»؛ وقال تعالى في الآية 18 من سورة نوح: «ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا».

وذكر الله تعالى في كتابه العزيز في سورتي الانفطار والعاديات أن هيئة خروج الناس من قبورهم يوم القيامة تتم ببعثرة القبور وخروج ما بداخلها. قال تعالى في الآية الرابعة من سورة الانفطار: «وإذا القبور بعثرت»؛ وفي الآية التاسعة من سورة العاديات: «أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور».

مظهر آخر من مظاهر البعث، يتمثل في النشر أي الإحياء. ففي المعجم اللغوي لسان العرب: «نشر الله الميت ينشره نشرا ونشورا وأنشره: أحياه.. وأنشر الله الموتى فنشروا هم إذا حَيُوا وأنشرهم الله أي أحياهم.. وقال الزجاج: يقال نشرهم الله أي بعثهم». (ابن منظور، ج5 ص206)

قال تعالى في الآية 21 من سورة الأنبياء: «أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون»؛ وفي الآيتين 3 و40 من سورة الفرقان: ﴿ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا﴾، ﴿كانوا لا يرجون نشورا﴾؛ وفي الآية 20 من سورة الروم: «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون»؛ والآية التاسعة من سورة فاطر: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور»؛ وقال تعالى في الآية 11 من سورة الزخرف: «والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون»؛ وفي الآية 35 من سورة الدخان: «إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين»؛ والآية 15 من سورة الملك: «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور»؛ والآية 22 من سورة عبس: «ثم إذا شاء أنشره».

وفي الآيات التالية نستشف بعض المظاهر التي سيبدو عليها يوم البعث:

قال تعالى في الآيتين 31 و40 من سورة الأنعام: ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾، ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة﴾؛ وفي الآية 87 من سورة الكهف: «قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا»؛ والآية 90 من سورة مريم: «تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا»؛ وقال تعالى في الآية 50 من سورة الشعراء: «قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون»؛ وفي الآية 21 من سورة العنكبوت: «يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون»؛ والآية 26 من سورة الجاثية: «قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

2 - الحشر

تضمن القرآن الكريم 29 آية تشير إلى حشر الله لعباده يوم القيامة قصد محاسبتهم على ما فعلوه في حياتهم الدنيا لينال كلٌّ جزاءه.

قال تعالى في الآية 203 من سورة البقرة: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾؛ وفي الآية 158 من سورة آل عمران: «ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون»؛ والآية 172 من سورة النساء: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾؛ وقال تعالى في الآيات 22 و128 من سورة الأنعام: ﴿ويوم نحشرهم جميعا﴾، وفي الآية 51 ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾؛ وفي الآية 24 من سورة الأنفال: ﴿وأنه إليه تحشرون﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 28 و45 من سورة يونس: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم

نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾، ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾؛ وفي الآية 25 من سورة الحجر: ﴿وإن ربك هو يحشرهم﴾؛ والآية 97 من سورة الإسراء: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما﴾؛ والآية 47 من سورة الكهف: «ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا».

وقال تعالى في الآيتين 68 و85 من سورة مريم: ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين﴾، «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا»؛ وفي الآيات 59 و102 و124 و125 من سورة طه: «قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى»، «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا»، «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا»؛ وقال تعالى في الآية 79 من سورة «المؤمنون»: «وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون»؛ وفي الآيتين 17 و34 من سورة الفرقان: ﴿ويوم يحشرهم﴾، ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾؛ والآية 83 من سورة النمل: ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا﴾، وقال تعالى في الآية 40 من سورة سبأ: ﴿ويوم يحشرهم جميعا﴾؛ وفي الآية 22 من سورة الصافات: «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون»؛ والآية السادسة من سورة الأحقاف: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة المجادلة: ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾؛ وفي الآية الثانية من سورة الحشر: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾؛ والآية 24 من سورة الملك: «قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون»؛ والآية الخامسة من سورة التكوير: «وإذا الوحوش حشرت».

إن الحشر الذي ورد في الآيات السابقة، غالبا ما يشير إلى اللحظات التي تعقب البعث واللحظات التي تتزامن مع الحساب، أما في الآيات الأربع التالية، فإن الحشر يحيل إلى الهيئة التي يكون عليها الكفار عند إدخالهم إلى النار.

قال تعالى في الاية 12 من سورة آل عمران: «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد»؛ وفي الآيتين 36 و50 من سورة الأنفال: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾، «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق»؛ والآية 19 من سورة فصلت: «ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون».

إن المعنى الرئيس لمصطلح الحشر - كما رأينا سابقا - هو جمع الناس في مكان محدد، قصد الاتصال المباشر معهم، والمكان الأكثر بروزا في ارتباطه بمفهوم الحشر هو الذي ستدور فيه أحداث يوم القيامة والحساب. وهكذا، فقد ورد في بعض الآيات تعبير: «جمع الناس» يوم القيامة مرادفا لحشرهم.

قال تعالى في الآيتين 9 و25 من سورة آل عمران: ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾، «فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»؛ وفي الآية 87 من سورة النساء: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾؛ والآية 109 من سورة المائدة: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة الأنعام: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾؛ وفي الآية 29 من سورة الشورى: «ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير»؛ والآية 50 من سورة الواقعة: «لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم».

وقد وردت خمس آيات يشرن إلى الحشر بمفهومه الدنيوي، أي جمع الناس لأمر هام. إذ قال تعالى في الآية 173 من سورة آل عمران: ﴿الذين

قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾؛ وفي الآيتين 36 و53 من سورة الشعراء، ذكر الله تعالى قصة سيدنا موسى عليه السلام وأخيه هارون مع فرعون، عندما نصحه قومه بأن يحشد السحرة لتحدي سيدنا موسى: «قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين»، «فأرسل فرعون في المدائن حاشرين»؛ وقال تعالى عن فرعون في الآيتين 23 و24 من سورة النازعات: «فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى»؛ وقال تعالى في الآية 17 من سورة النمل، عن سيدنا سليمان عليه السلام، وما آتاه الله من ملك وما سخر له من مخلوقات: «وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون».

ونستشف من الآيات التالية بعض مظاهر الحشر وما يرافقه من ترتيبات وهول لا قِبَل للإنسان به في حياته الدنيا.

قال تعالى في الآية 30 من سورة الأنعام: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾؛ وفي الآية 103 من سورة هود: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود»؛ وقال تعالى في الآيتين 48 و49 من سورة إبراهيم: «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار. وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد»؛ وفي الآيتين 108 و111 من سورة طه: ﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له﴾، ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾؛ وقال تعالى في الآية الثانية من سورة الحج: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾؛ والآية 32 من سورة يس: «وإن كل لما جميع لدينا محضرون»؛ وفي الآية 44 من سورة المعارج: «خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون»؛ والآية السادسة من سورة الزلزلة: «يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم».

وقد تحدث الإمام الغزالي عن الهيئة التي يكون عليها الملائكة والناس في أرض المحشر، قائلا:

«والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها.. واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة. قال رسول الله ﷺ : «يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان».. فأعظم بيوم تتكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات. كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: ركبانا ومشاة وعلى وجوههم، فقال رجل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم». (الغزالي، ج4 ص546)

المبحث التاسع

الوضـــع والحـــركة والهيئـــة

نقدم في هذا المبحث دليلا بارزا، على أن القرآن الكريم حافل بالمادة التي يمكنها أن تغني دراسة الهيئة وأوضاع الجسد. إذ بالإضافة إلى ما تطرقنا إليه في المباحث السابقة من أوضاع جسدية تقليدية كالقيام والجلوس والمشي والجري والاستلقاء، فضلا عن الأوضاع غير التقليدية كالصعود والهبوط والبعث والحشر، نورد في هذا المبحث 110 مصطلحات تتضمن معظم الأوضاع الجسدية والهيئات التي تبدو عليها الكائنات المحيطة بنا.

ويتضح من خلال التعابير القرآنية الواردة في هذا المبحث، أن الأوضاع الجسدية التقليدية، يمكن أن تتم في مستويات متعددة، وفقا للبيئة المحيطة ووفقا للبعدين الزماني والمكاني التي تحدث فيهما. ونستشف من أغلب المصطلحات الواردة إحالة إلى وضع جسدي تقليدي واحد أو أكثر. كما أن هناك بعض مظاهر الهيئة التي تبدو عليها كائنات كالجبال والبحار والريح والسحاب وغيرها، يمكن استعارتها من لدن الإنسان، ويمكن توظيفها في

العديد من المنتجات الصناعية. فعلى سبيل المثال، نجد في بعض برمجيات معالجة الصور بالحاسوب (مثل فوتوشوب من شركة أدوبي) فلتراً مستمداً من حركة الريح يضفي على الصورة أثرا وكأنها تعرضت لريح عاصفة..

لقد تم ترتيب هذه المصطلحات التي تكمّل دراستنا للهيئة وأوضاع الجسد، وفقا للألفبائية العربية، وتم توضيح معاني بعضها باقتضاب، استنادا إلى المعجم اللغوي الشهير «لسان العرب» لابن منظور، كما تمت الاستعانة بـ «كلمات القرآن: تفسير وبيان» لحسنين محمد مخلوف.

1 - اتخاذ السبيل

يحيل إلى الانتقال من مكان إلى آخر على متن ناقلة أو مشيا على الأقدام. قال تعالى في الآية 61 من سورة الكهف: «فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا»؛ وفي الآية 27 من سورة الفرقان: «ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا».

2 - اشتداد الريح

قال تعالى في الآية 18 من سورة إبراهيم: «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد».

3 - الإبطاء

تقليل سرعة التحرك تعبيرا عن عدم الرغبة في المواصلة. قال تعالى في

الآية 72 من سورة النساء: «وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا».

4 - الإتيـــان

الحضور أو الإحضار مشيا أو جريا أو طيرانا أو على ظهر ناقل.

قال تعالى في الآية 189 من سورة البقرة: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾؛ كما ورد ذكر الإتيان في الآيات 214 و248 من سورة البقرة، وفي الآيتين 52 و54 من سورة المائدة، والآيات 4 و34 و35 و46 و47 و130 و158 من سورة الأنعام، والآيات 17 و35 و70 و97 و106 و112 و132 و138 و163 و169 و190 و203 من سورة الأعراف، وفي الآية 92 من سورة التوبة، والآية 39 من سورة هود، والآية 66 من سورة يوسف، وفي الآيتين 17 و44 من سورة إبراهيم، والآية 33 من سورة النحل، والآية 77 من سورة الكهف، وفي الآيتين 27 و38 من سورة مريم، والآيات 11 و20 و47 و74 و75 من سورة طه، والآية 61 من سورة الأنبياء، والآية 27 من سورة الحج، والآية 49 من سورة النور، والآية 40 من سورة الفرقان، والآية 16 من سورة الشعراء، وفي الآيات 18 و38 و39 و40 من سورة النمل، والآية 20 من سورة الأحزاب، وفي الآية 21 من سورة ص، والآية السادسة من سورة التغابن.

5 - الأخـذ بالنـواصي والأقـدام

المسك من مقدمة الشعر والقدمين.

قال تعالى في الآية 41 من سورة الرحمن: «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام».

6 - الارتــــداد

الرجوع. وفي حالة المشي يعني العودة على الطريق نفسها التي سلكت عند القدوم.

قال تعالى في الآية 64 من سورة الكهف: «قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا»؛ وفي الآية 25 من سورة محمد: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى﴾.

7 - الإرســــال

ويعني بعث شخص ما إلى مكان معين فيصبح متواجدا به. وينطبق هذا المصطلح على الرسل.

قال تعالى في الآية 80 من سورة النساء: ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾؛ وورد هذا المصطلح في الآية 48 من سورة الأنعام، والآيات 77 و94 و105 و111 و133 من سورة الأعراف، والآية 74 من سورة يونس، والآية 81 من سورة هود، وفي الآية 12 من سورة يوسف، والآية 69 من سورة الإسراء، والآية 134 من سورة طه، والآية 37 من سورة الفرقان، وفي الآيات 13 و17 و21 من سورة الشعراء، والآية 35 من سورة النمل، وفي الآيتين 34 و59 من سورة القصص، والآية 40 من سورة العنكبوت، والآية 46 من سورة الروم، والآية 16 من سورة سبأ، والآية 21 من سورة الحديد، والآية 20 من سورة المجادلة، والآية السادسة من سورة الحشر.

8 - الاستباق

ورد في الآيتين 17 و25 من سورة يوسف؛ وورد في الآية 66 من سورة يس،

إذ قال تعالى: «ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون».

9 - الاستكانة والتضرع

الاستكانة تعني الخضوع وإظهار المسكنة، والتضرع يعني التذلل لله تعالى بالدعاء. ويقوم الوضع الجسدي بدور مهم في ذلك.

قال تعالى في الآية 76 من سورة «المؤمنون»: «ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون».

10 - الاستواء

الاستقرار. قال تعالى في الآية 44 من سورة هود: «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين».

11 - الإسراء

السير ليلا. قال تعالى في الآية الأولى من سورة الإسراء: ﴿سبحان الذي اسرى بعبده ليلا﴾؛ وفي الآية الرابعة من سورة الفجر: «والليل إذا يسر».

12 - الاصطفاف

سلوك تنظيمي يضفي هالة على الأفراد أو الأشياء، خاصة عند الوقوف

أو السير. قال تعالى في الآية 48 من سورة الكهف: ﴿وعرضوا على ربك صفا﴾؛ وفي الآية 64 من سورة طه: «﴿أجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا﴾؛ والآية الرابعة من سورة الصف: «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص».

13 - الإفاضة

النزول. قال تعالى في الآية 199 من سورة البقرة: «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم».

14 - الإقبال

القدوم مواجهة، حيث تلتقي نظرات القادم ومن يستقبله.

قال تعالى في الآيتين 71 و82 من سورة يوسف: «قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون»، «واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون»؛ كما ورد في الآيات 27 و50 و94 من سورة الصافات، والآية 29 من سورة الذاريات، والآية 25 من سورة الطور، والآية 30 من سورة القلم.

15 - الاقتحام

الدخول عنوة. قال تعالى في الآية 59 من سورة ص: «هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار»، وفي الآية 11 من سورة البلد: «فلا اقتحم العقبة».

16 - الالتفـــاف

ورد مقترنا بالأرجل حيث تلتف الساقان فيما بينهما فلا يستطيع المرء المشي.

قال تعالى في الآية 29 من سورة القيامة: «والتفت الساق بالساق».

17 - الالتقـــاء

الاصطدام أو الالتحام مواجهة. قال تعالى في الآية 166 من سورة آل عمران: «وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين»؛ كما ورد الالتقاء في الآية 45 من سورة الأنفال، والآية الرابعة من سورة محمد، والآية 17 من سورة ق، والآية 12 من سورة القمر.

18 - الإلقـــاء

الرمي (الهيئة التي يكون عليها الإنسان عندما يَرْمي بشيء أو يُرمى).

قال تعالى في الآية العاشرة من سورة يوسف: ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب﴾؛ وورد ذكر إلقاء الكفار في النار في الآية 13 من سورة الفرقان، وفي الآية السابعة من سورة القصص، والآية 97 من سورة الصافات، وفي الآيتين 24 و26 من سورة ق، والآية السابعة من سورة الملك.

19 - الانتشـــار

التفرق في مختلف اتجاهات.

قال تعالى في الآية 20 من سورة الروم: «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم

إذا أنتم بشر تنتشرون»؛ وفي الآية 53 من سورة الأحزاب: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾.

20 - الانطلاق

بداية التحرك (من أجل المشي أو الجري أو الطيران).

قال تعالى في الآية 74 من سورة الكهف: ﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا»؛ وفي الآية 23 من سورة القلم: «فانطلقوا وهم يتخافتون»؛ والآيتين 29 و30 من سورة المرسلات: «انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب».

21 - الانفضاض

التفرق والنفور. قال تعالى في الآية 159 من سورة آل عمران: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾؛ وفي الآية السابعة من سورة «المنافقون»: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾.

22 - الانقلاب

الارتداد والرجوع، وقد يفيد عكس الإقبال.

قال تعالى في الآية 143 من سورة البقرة: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾؛ كما ورد في الآيات

127 و144 و149 و174 من سورة آل عمران، وفي الآية 21 من سورة المائدة، وفي الآيتين 119 و125 من سورة الأعراف، والآية 95 من سورة التوبة، والآية 62 من سورة يوسف، وفي الآية 227 من سورة الشعراء، والآية 14 من سورة الزخرف، والآية 12 من سورة الفتح، والآية 31 من سورة المطففين، والآية التاسعة من سورة الانشقاق.

23 - الأوي

الاحتضان أو الخلود إلى.. أو الاستقرار بمكان ما.

قال تعالى في الآيات 26 و72 و74 من سورة الأنفال: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم﴾، ﴿والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾، ﴿والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا﴾؛ وورد في الآيتين 43 و80 من سورة هود، وفي الآيتين 69 و99 من سورة يوسف، والآيات 10 و16 و63 من سورة الكهف، والآية 50 من سورة المؤمنون، والآية 51 من سورة الأحزاب، وفي الآية 13 من سورة المعارج، والآية السادسة من سورة الضحى.

24 - البرح

المغادرة. قال تعالى في الآية 80 من سورة يوسف: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي﴾؛ وفي الآية 60 من سورة الكهف: «وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا»؛ والآية 91 من سورة طه: «قالوا لن نبرح عليه

عاكفين حتى يرجع إلينا موسى».

25 - البـــروز

الظهور في هيئة لافتة للنظر. قال تعالى في الآية 250 من سورة البقرة: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده﴾؛ وفي الآية 154 من سورة آل عمران: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾؛ وفي الآية 81 من سورة النساء : ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾؛ وفي الآية 16 من سورة غافر: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾.

26 - البعـــث

الإرسال. قال تعالى في الآية 129 من سورة البقرة: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك﴾؛ ونجد البعث، كذلك في الآيات 213 و246 و264 من سورة البقرة، والآية 164 من سورة آل عمران، والآية 35 من سورة النساء، وفي الآية 65 من سورة الأنعام، وفي الآيتين 103 و167 من سورة الأعراف، والآية 75 من سورة يونس، وفي الآيات 5 و15 و94 من سورة الإسراء، وفي الآيتين 41 و51 من سورة الفرقان، والآية 34 من سورة غافر، وفي الآية الثانية من سورة الجمعة، والآية 12 من سورة الشمس.

27 - التبـــوع

قال تعالى في الآية 20 من سورة آل عمران: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾؛ كما ورد في الآية 27 من سورة النساء، والآية 49 من

سورة المائدة، وفي الآيتين 106 و142 من سورة الأنعام، وفي الآيات 157 و158 و176 و193 من سورة الأعراف؛ وقال تعالى في الآية 90 من سورة يونس: «وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين»؛ والآية 65 من سورة الحجر، وفي الآيتين 66 و70 من سورة الكهف، والآية 78 من سورة طه، وفي الآيتين 60 و215 من سورة الشعراء، والآية 15 من سورة الشورى، والآية 23 من سورة الدخان، والآية 15 من سورة الفتح.

28 - التخلف

عدم السير مع الركب. قال تعالى في الآيات 87 و93 و120 من سورة التوبة: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾، ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾، ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾.

29 - التسلل

الدخول أو الخروج خفية. ويتم التسلل، في معناه العام، بالسير على أطراف أصابع القدمين حتى لا تحدث صوتا. قال تعالى في الآية 63 من سورة النور: ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا﴾.

30 - التغشية

التغطية. قال تعالى في الآية 32 من سورة لقمان: ﴿وإذا غشيهم موج

كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين﴾. ويتطلب مثل هذا الوضع من المرء أن ينكمش على ذاته قصد تغطية الأعضاء الحساسة في جسده، كالرأس الذي يُحْمى باليدين، والبطن والصدر ويحميان بالرجْلين.

31 - التفجـــير

قال تعالى في الآية 60 من سورة البقرة: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾؛ وكذا في الآيتين 90 و91 من سورة الإسراء، وفي الآية 33 من سورة الكهف، والآية 34 من سورة يس، وفي الآية السادسة من سورة الإنسان، والآية الثالثة من سورة الانفطار.

32 - التفقـــد

ويتم بتجوال النظر أو التجوال مشيا أو جريا.

قال تعالى في الآية 20 من سورة النمل: «وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين».

33 - التـــولي والإعـــراض

قال تعالى في الآية 64 من سورة البقرة: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾، وكذا في الآيات 115 و137 و144 و149 و150 و205 من سورة البقرة؛ وقال تعالى في الآية 23 من سورة آل عمران: ﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾، وكما ورد التولي في الآيات 32 و63 و64 و82 و155 من سورة آل عمران؛ ونجد

الإعــراض والتــولـي في الآيـات 63 و80 و81 و89 و100 و115 و135 مـن ســـورة النسـاء، وفي الآيات 43 و49 و56 و92 من سـورة المائدة، والآيات 4 و35 و68 من سـورة الأنعـام، وفـي الآيتين و79 و93 من سـورة الأعـراف، والآيات 20 و23 و40 من ســورة الأنفـال، وفـي الآيات 3 و25 و50 و74 و76 و92 و95 و129 من سـورة التوبة، والآية 72 من سورة يونس، وفي الآيات 3 و52 و57 من سورة هود، وفي الآيتين 84 و105 من سورة يوسـف، وفي الآية 82 من سورة النحل، وفي الآيتين 46 و83 من سورة الإسراء، والآية 57 من سورة الكهف، وفي الآيتين 48 و60 من سورة طه، والآيتين 57 و109 من سـورة الأنبيـاء، وفي الآيتين 47 و54 من سورة النور، والآية 80 من ســورة النـمل، وفي الآيـتين 24 و55 من ســورة القــصص، والآية 52 من سورة الروم، والآية السابعة من سورة لقمان، والآية 22 من سورة السـجـدة، والآيـة 46 من ســورة يس، وفـي الآيـات 90 و174 و178 مـن ســـورة الصـافـات، والآيـة 68 من سـورة ص، والآية 33 من سـورة غـافـر، والآية 51 من سـورة فصلت، وفي الآية 14 من سـورة الدخـان، والآية 29 من سورة الأحقـاف، وفي الآيتين 22 و38 من سـورة مـحـمـد، وفـي الآيتين 16 و22 من سـورة الفـتح، والآيتين 39 و54 من ســورة الـذاريات، وفـي الآيـتين 29 و33 من ســورة النـجم، والآية السـادسـة من سورة القـمـر، والآية 24 من سـورة الحـديد، وفي الآية 14 من سورة المجادلة، والآية السادسة من سورة الممتحنة، وفي الآية الخامسة من سـورة «المنافـقـون»، والآية السـادسـة من سـورة التـغـابن، والآية 12 من سـورة التغـابن، والآية 17 من سـورة الجن، وفي الآيات 23 و33 و49 من سـورة المدثر، وفي الآية 32 من سـورة القـيـامـة، والآية 22 من ســورة النازعـات، وفي الآية الأولى من سورة عبس، والآية 23 من سورة الغاشية، والآية 16 من سورة الليل، والآية 13 من سـورة العلق.

34 - الثبــــات

من بين معانيه الاستقرار والوقوف في المكان وعدم التزحزح عنه.

قـال تعـالى في الآية 147 من سـورة آل عـمـران: ﴿ربنا اغـفـر لنا ذنوبنا وإسـرافنا في أمـرنا وثبت أقـدامنا﴾؛ كمـا ورد الثبـات في الآية 71 من سـورة النساء، والآية 12 من سورة الأنفال، وفي الآية 39 من سورة الرعد، والآية 27 من سورة إبراهيم، والآية 74 من سورة الإسراء، والآية السابعة من سورة محمد.

35 - الثـــواء

طول المقـام. قـال تعـالى في الآية 45 من سـورة القـصص: «ولكنا أنشـأنا قـرونا فتطاول عليهم العمـر ومـا كنت ثاويا في أهل مـدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين».

36 - الجعل تحت الأقـــدام

الدوس. قال تعـالى في الآية 29 من سـورة فصلت: «وقـال الذين كفـروا ربنا أرنا الذين أضـلانا من الجـن والإنس نجـعلهـمـا تحت أقـدامنا ليكونا من الأسفلين».

37 - الجـــمع

الحشد. قال تعالى في الآيتين 38 و61 من سورة الشعراء: «فـجمع السحرة لميقات يوم معلوم»، ﴿فلمـا تراءى الجمـعـان﴾؛ وقـال تعـالى في الآية 26 من سورة سبأ: ﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾.

38 - الجــوب

الخـرق والنحت. قـال تعـالى فـي الآية التاسـعة من سـورة الفـجـر: «وثمـود الذين جابوا الصخر بالواد».

39 - الحطــام

الحـالة التي يصـيـر إليـهـا الجـسم بعـد أن يفـقـد ترابط أجـزائه. والحطام مرتبط بالتدمير والخراب ونتيجة حتمية لهما.

قال تعالى في الآية 20 من سورة الحديد: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخـر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما﴾.

40 - الحمــل

وضع ثقل ما على الجسد (على اليدين أو الكتفين أو الرأس) أو داخله.

قال تعـالى في الآية 146 من سورة الأنـعام: ﴿وعلى الذين هـادوا حـرمنـا كل ذي ظفر ومن البقـر والغنم حرمنا عليهم شحـومهما إلا ما حـملت ظهورهما﴾؛ وفي الآية 36 من سـورة يوسف: ﴿وقـال الآخــر إني أراني أحـمل فـوق رأسي خبـزا تأكل الطير منه﴾؛ وقال تعـالى في الآية الثامنة من سـورة الرعد: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾؛ كما وردت معاني الحمل في الآيتين 7 و25 من سـورة النحل، وفي الآيتين 3 و70 من سورة الإسـراء، والآيتين 22 و58 من سورة مريم، وفي الآية 22 من سـورة «المؤمنون»، وفـي الآيتين 13 و60 من ســورة العنكبـوت، والآية 14 من سـورة لقـمـان، وفي الآية 72 من سـورة الأحـزاب، والآية 11 من

سورة فاطر، وفي الآية 41 من سورة يس، والآية 80 من سورة غافر، وفي الآية 15 من سورة الأحقاف، والآية 13 من سورة القمر، والآية الخامسة من سورة الجمعة، وفي الآيتين الرابعة والسادسة من سورة الطلاق، وفي الآية الرابعة من سورة المسد.

41 - الخــروج

قال تعالى في الآية 84 من سورة البقرة: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾، وورد الخروج في الآيات 85 و149 و150 و191 و243 من سورة البقرة، وفي الآيتين 66 و75 من سورة النساء، وفي الآيات 22 و37 و61 من سورة المائدة، وفي الآيات 18 و57 و82 و88 و110 و123 من سورة الأعراف، والآية الخامسة من سورة الأنفال، وفي الآيتين 13 و83 من سورة التوبة، والآية 31 من سورة يوسف، وفي الآيتين 5 و13 من سورة إبراهيم، والآية 34 من سورة الحجر، والآية 69 من سورة النحل، وفي الآيتين 13 و76 من سورة الإسراء، والآية 11 من سورة مريم، وفي الآيات 57 و63 و117 من سورة طه، وفي الآيتين 22 و40 من سورة الحج، والآية 107 من سورة «المؤمنون»، وفي الآيتين 40 و53 من سورة النور، والآيتين 35 و57 من سورة الشعراء، والآيتين 37 و56 من سورة النمل، وفي الآيتين 21 و79 من سورة القصص، والآية 27 من سورة السجدة، والآية 77 من سورة ص، وفي الآية 47 من سورة فصلت، والآية 35 من سورة الجاثية، والآية 17 من سورة الأحقاف، وفي الآية 16 من سورة محمد، والآية الخامسة من سورة الحجرات، والآية 35 من سورة الذاريات، وفي الآيات 8 و11 و12 من سورة الحشر، والآيات الأولى والثامنة والتاسعة من سورة الممتحنة، والآية الثامنة من سورة «المنافقون»، والآية الأولى من سورة الطلاق.

42 - الدخـــول

قـال تعـالـى في الآية 58 من سـورة البـقـرة: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القـرية فكلوا منهـا حيث شئتم رغدا وادخلوا البـاب سجـدا﴾، وكذا في الآية 114 من سورة البـقـرة، وفي الآيات 37 و97 و142 و185 من سورة آل عـمـران، والآية 23 من سـورة النسـاء، وفي الآيات 21 و22 و23 و24 من سـورة المائدة، وفي الآيات 38 و40 و49 من سـورة الأعـراف، والآية 99 من سـورة التـوبة، وفي الآيات 67 و68 و69 و88 و99 من سورة يوسف، والآية 23 من سورة الرعد، وفي الآيتين 46 و52 من سـورة الحـجـر، والآية 29 من سـورة النحل، وفي الآيتين 35 و39 من سـورة الكهف، والآيات 27 و28 و29 و61 من سـورة النور، وفي الآيتين 34 و44 من سورة النمل، والآية 15 من سورة القـصص، وفي الآيتين 14 و53 من سـورة الأحزاب، والآية 22 من سورة ص، وفي الآيتين 72 و73 من سورة الزمـر، وفي الآيتين 60 و76 من سورة غـافر، والآية 27 من سورة الفتح، والآية 25 من سورة الذاريات، وفي الآية العـاشـرة من سورة التحـريم، والآية 38 من سـورة المعـارج، وفي الآيتين 25 و28 من سورة نوح، والآية الثانية من سورة النصـر.

43 - الذل

يقصد به، في هذا السـيـاق، الانصيـاع والانقيـاد؛ والإذلال: جعل الشـخص على هيئة ذليلة تتناقض مع الهيئة التي يتخذها الإنسان عند إحساسه بالزهو والفخر

قال تعالى في الآية 71 من سورة البقرة: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها﴾؛ وقال تعالى في الآية 26 من سورة آل عمـران: ﴿قل اللهم مـالك الملك تؤتـي الملك من تشـاء وتنزع الملك

ممن تشـاء وتعـز من تشـاء وتذل من تشـاء ﴾؛ وورد ذكـر الذل فـي الآيتين 112 و123 من سـورة آل عـمـران، وفي الآية 152 من سـورة الأعـراف، والآية 26 من سـورة الأنفـال، وفي الآية 26 من سـورة يونس، والآية من سـورة الإسـراء، وفي الآية 45 من سورة الشورى، والآية 14 من سورة الإنسـان.

44 - الذهــاب

قال تعـالى في الآية 13 من سورة يوسف: «قـال إني ليحـزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون»، وكذلك في الآيات 15 و87 و93 من سـورة يوسـف، وفي الآية 17 من سـورة الرعـد، والآية 63 من سـورة الإسـراء، وفي الآيات 24 و42 و43 و63 و97 من سـورة طه، والآية 87 من سـورة الأنبيـاء، والآية 62 من سورة النور، وفي الآية 36 من سورة الفرقان، والآية 15 من سورة الشـعـراء، وفي الآية 28 من سـورة النـمل، والآية 20 من سـورة الأحـزاب، وفي الآية 33 من سـورة القيامـة، والآية 17 من سورة النـازعات، والآية 26 من سـورة التكوير.

45 - الرجــف

الاهتـزاز. قـال تعـالى في الآية 14 من سـورة المزمل: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾.

46 - الرجــوع

قـال تعـالى في الآية 46 من سـورة البـقـرة: «الذين يظنون أنهم مـلاقو ربهم وأنهم إليـه راجـعـون»؛ وقـال تعـالى فـي الآيتين 150 و174 من سـورة الأعـراف:

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم﴾، «وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون»؛ كما ورد الرجوع في الآيتين 94 و122 من سورة التوبة، والآيتين 63 و81 من سورة يوسف، وفي الآية 86 من سورة طه، والآية 12 من سورة السجدة، والآية 13 من سورة الأحزاب، والآية 31 من سورة سبأ، وفي الآيتين 50 و67 من سورة يس، والآية 13 من سورة الحديد.

47 - الرسو

الثبات، والرواسي: الثوابت الرواسخ.

قال تعالى في الآية 15 من سورة النحل: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾؛ وفي الآية 31 من سورة الأنبياء: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾.

48 - الركوب

قال تعالى في الآية 41 من سورة هود: ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها﴾؛ وقال تعالى في الآية الثامنة من سورة النحل: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾؛ وورد الركوب في الآية 65 من سورة العنكبوت، وفي الآيتين 42 و72 من سورة يس، والآية 19 من سورة الانشقاق.

49 - السَّبْح

الجري والدوران. قال تعالى في الآية 33 من سورة الأنبياء: «وهو الذي

خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون»؛ وفي الآية 40 من سورة يس: «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون».

50 - السحب

الجرّ. قال تعالى في الآية 48 من سورة القمر: «يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر».

51 - السرح

السوم والغدو (التجول بحثا عن الرزق).

قال تعالى في الآية السادسة من سورة النحل: «ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون».

52 - السروب

الخروج والذهاب. قال تعالى في الآية العاشرة من سورة الرعد: «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار».

53 - السعي

«السعي: عَدْوٌ دون الشّدّ.. وفي الحديث: إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تَسْعَوْنَ ولكن ائتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلّوا وما فاتكم فأتموا؛ فالسعي هنا العَدْو. سعى إذا عدا، وسعى إذا مشى وسعى إذا عَمِل،

وسعى إذا قصد، وإذا كان بمعنى المضيِّ عُدِّي بإلى، وإذا كان بمعنى العمل عدي باللام». (ابن منظور، ج14 ص385)

قال تعالى في الآيتين 33 و64 من سورة المائدة: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾، ﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين﴾؛ وورد ذكر السعي في الآية 19 من سورة الإسراء، والآية 66 من سورة طه، وفي الآية 20 من سورة القصص، والآية 22 من سورة النازعات، وفي الآية الثامنة من سورة عبس، والآية الرابعة من سورة الليل.

54 - السفع

الجذب والأخذ والقبض. قال تعالى في الآية 15 من سورة العلق: «كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية».

55 - السقوط

قال تعالى في الآية 59 من سورة الأنعام: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾؛ وفي الآية 149 من سورة الأعراف: ﴿ولما سقط في أيديهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 187 من سورة الشعراء: «فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين»؛ وفي الآية التاسعة من سورة سبأ: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء﴾.

56 - السـكن

الهدوء والاستقرار بعد الحركة، والثبات، والطمأنينة.

قـال تعـالى فـي الآية 80 من سـورة النحل: ﴿والله جـعل لكم من بيـوتكم سكنا﴾؛ وفي الآية 45 من سـورة الفـرقـان: ﴿ألم تـر إلـى ربك كيف مـد الظل ولو شاء لجعله ساكنا﴾؛ وقال تعالى في الآية 21 من سورة الروم: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفـسكم أزواجـا لتـسكنوا إليـهـا﴾ وفي الآية 33 من سـورة الشورى: ﴿إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره﴾.

57 - السَـلْك

الإدخال. قال تعالى في الآية 12 من سورة الحجر: «كذلك نسلكه في قلوب المجـرمين»؛ وقـال تعـالى في الآية 69 من سـورة النحل: ﴿ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾؛ وورد ذكر السّلْك في الآية 27 من سورة المؤمنون، وفي الآية 53 من سـورة طه، والآية 200 من سـورة الشـعـراء، والآية 32 من سـورة القـصص، وفي الآية 21 من سورة الزمر، والآية 32 من سورة الحاقة، والآية 20 من سورة نوح، وفي الآيتين 17 و27 من سورة الجن، والآية 42 من سورة المدثر.

58 - السَّـوْق

قال تعالى في الآية 57 من سورة الأعراف: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحـمتـه حتى إذا أقلت سـحـابا ثقالا سـقناه لبلد ميت﴾؛ وفي الآية السادسة من سورة الأنفال: «يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون»؛ والآية 86 من سـورة مـريم: «ونسـوق المجـرمين إلى

جهنم وردا»؛ وورد مصطلح السّوْق في الآية 27 من سورة السجدة، والآية التاسعة من سورة فاطر، وفي الآيتين 71 و73 من سورة الزمر، والآية 21 من سورة ق، والآية 30 من سورة القيامة.

59 - السياحة

قال تعالى في الآية الثانية من سورة التوبة: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾.

60 - السير

(بمعنى التحرك ضمن حركة كوكب الأرض ودورانه).

قال تعالى في الآية العاشرة من سورة الطور: «وتسير الجبال سيرا»؛ وفي الآية 20 من سورة النبأ: «وسيرت الجبال فكانت سرابا»؛ وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة التكوير: «وإذا الجبال سيرت».

61 - الصد

قال تعالى في الآية 217 من سورة البقرة: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله﴾. وورد الصد في الآية الثالثة من سورة آل عمران؛ و في الآيات 55 و61 و160 و167 من سورة النساء؛ وفي الآيتين 5 و91 من سورة المائدة؛ وفي الآية 86 من سورة الأعراف؛ وفي الآيات 34 و36 و47 من سورة الأنفال؛ وفي الآيتين 9 و34 من سورة التوبة؛ والآية 19 من سورة هود؛ والآية 33 من سورة الرعد؛ في الآيتين الثالثة والعاشرة من سورة إبراهيم؛

وفي الآيتين 88 و94 من سورة النحل؛ وفي الآية 16 من سورة طه؛ والآية 25 من سورة الحج؛ وفي الآيتين 24 و43 من سورة النمل؛ وفي الآية 87 من سورة القصص؛ والآية 38 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 32 و43 من سورة سبأ؛ وفي الآية 37 من سورة غافر؛ وفي الآيات 37 و57 و62 من سورة الزخرف؛ وفي الآيات 1 و32 و34 من سورة محمد؛ وفي الآية 16 من سورة المجادلة؛ وفي الآيتين الثانية والخامسة من سورة «المنافقون».

62 - الصدع

الشق أو التفرق. قال تعالى في الآية 43 من سورة الروم: «فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون»؛ وفي الآية 19 من سورة الواقعة: «لا يصدعون عنها ولا ينزفون»؛ والآية 21 من سورة الحشر: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة الطارق: «والأرض ذات الصدع».

63 - الصرع

الطرح بالأرض. قال تعالى في الآية السابعة من سورة الحاقة: «سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية».

64 - الصغار

ضد الكبر. قال تعالى في الآية 29 من سورة التوبة: «قاتلوا الذين لا

يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»؛ وفي الآية 32 من سورة يوسف: «قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين».

65 - الصف أو الصواف

الإبل الصواف أي القائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن.

قال تعالى في الآية 36 من سورة الحج: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾.

66 - الصلب

مشتق من صليب النصارى، وهو الهيئة التي تثبّت فيها الأطراف (اليدان والرجلان) مفرودتين مشدودتين فتبدوان، مع الجزع، كشكل الصليب.

قال تعالى في الآية 124 من سورة الأعراف: «لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين»؛ كما ورد الصلب في الآية 41 من سورة يوسف، وفي الآية 71 من سورة طه، والآية 49 من سورة الشعراء.

67 - الضرب

السير. قال تعالى في الآية 156 من سورة آل عمران: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 94 و101 من سورة

النسـاء: ﴿يا أيهـا الذين آمنـوا إذا ضـربتم في سبـيل الله فتـبينوا ﴾، ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾؛ وقال تعالى في الآية 106 من سـورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصيـة اثنان ذوا عدل منكم أو آخـران من غيـركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾.

68 - الطــرح

الإلقـاء. قـال تعالى في الآية التاسـعة من سـورة يوسـف: ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا﴾.

69 - الطــي

قـال تعـالى فـي الآية 104 من سـورة الأنبـيـاء: ﴿يوم نطـوي السـمـاء كطي السجل للكتب﴾؛ وفي الآية 67 من سـورة الـزمـر: ﴿ومـا قـدروا الله حق قـدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾.

70 - العـــارض

البادي. قال تعالى في الآية 24 من سورة الأحقاف: «فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم».

71 - العكــف

الإقامة. قال تعالى في الآية 91 من سورة طه: «قالوا لن نبرح عليه عاكفين

حتى يرجع إلينا موسى»؛ وفي الآية 52 من سورة الأنبياء: «إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون».

72 - الغـدو والـرواح

الغدو السير من الصباح إلى الظهر، والرواح السير من الظهر إلى الغروب.

قال تعالى في الآية 12 من سورة سبأ: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر﴾.

73 - الغـــرق

قال تعالى في الآية 50 من سورة البقرة: «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون»؛ وورد ذكر الغرق في الآية 136 من سورة الأعراف، وفي الآية 54 من سورة الأنفال، والآية 73 من سورة يونس، وفي الآيتين 37 و43 من سورة هود، والآية 103 من سورة الإسراء، والآية 71 من سورة الكهف، والآية 77 من سورة الأنبياء، والآية 37 من سورة الفرقان، وفي الآيتين 66 و120 من سورة الشعراء، والآية 43 من سورة يس، وفي الآية 82 من سورة الصافات، والآية 55 من سورة الزخرف، والآية 24 من سورة الدخان، والآية الأولى من سورة النازعات.

74 - الغـــل

وجمعه أغلال، وهو جامِعة (كالطوق) توضع في العنق أو اليد، فتجعل المرء أسيرا، لا يقوى على الحركة بحرية تامة.

قال تعالى في الآية الخامسة من سورة الرعد: ﴿ولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾؛ وفي الآية 33 من سورة سبأ: ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾؛ وقال تعالى في الآية الثامنة من سورة يس: «إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون»؛ وفي الآية 71 من سورة غافر: «إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون»؛ والآية 30 من سورة الحاقة: «خذوه فغلوه».

75 - القـــذف

الرمي. قال تعالى في الآيتين 39 و87 من سورة طه: ﴿أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم﴾، ﴿ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها﴾؛ وفي الآية 18 من سورة الأنبياء: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾؛ والآية 26 من سورة الأحزاب: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 48 و53 من سورة سبأ: «قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب»، «وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد»؛ وفي الآية الثامنة من سورة الصافات: «لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب»؛ والآية الثانية من سورة الحشر: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾.

76 - القـــران

الشد والربط (باستخدام الحبال والسلاسل والأصفاد).

قال تعالى في الآية 49 من سورة إبراهيم: «وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد»؛ وفي الآية 13 من سورة الفرقان: «وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا»؛ والآية 38 من سورة ص: «وآخرين مقرنين في الأصفاد».

77 - **القعــود** (الجلوس مقرونا بالتخلف أو بالحسرة).

قـال تعـالى فـي الآيتين 121 و168 من سـورة آل عـمـران: ﴿وإذ غـدوت من أهلك تبوّئ المؤمنين مـقـاعـد للقـتـال﴾، ﴿الذين قـالـوا لإخوانهم وقـعـدوا لو أطاعـونا مـا قـتلوا﴾؛ وقـال تعـالى في 95 من سـورة النسـاء : ﴿لا يسـتـوي القـاعـدون من المؤمنين﴾؛ وفي الآية 81 من سـورة التـوبة: ﴿فـرح المخلفـون بمقعدهم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 22 و29 من سورة الإسراء: «لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا»، «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا»؛ وقال تعالى في الآية 60 من سورة النور: ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾.

78 - **القنــــوت**

الطاعـة والانقـيـاد. قـال تعـالى في الآيتين 116 و238 من سـورة البـقـرة: «وقـالوا اتـخـذ الله ولدا سـبـحـانه بل له مـا في السـمـاوات والأرض كل له قانتون»، «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قـانتين»؛ وورد ذكر القنوت في الآيتين 17 و43 من سـورة آل عمـران، وفي الآية 34 من سـورة النساء، والآية 120 من سورة النحل، والآية 26 من سورة الروم، وفي الآيتين 31 و35 من سـورة الأحـزاب، والآية التـاسـعـة من سورة الزمـر، والآيتين 5 و12 من سورة التحريم.

79 - **اللــبث**

البقاء والمكث. قـال تعالى في الآية 259 من سورة البقـرة: ﴿أو كالذي مـر

على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام﴾؛ كما ورد ذكر اللبث في الآيتين 16 و45 من سورة يونس، وفي الآية 69 من سورة هود، وفي الآية 42 من سورة يوسف، وفي الآيتين 52 و76 من سورة الإسراء، وفي الآيات 12 و19 و25 و26 من سورة الكهف، وفي الآيات 40 و103 و104 من سورة طه، وفي الآيات 112 و113 و114 من سورة «المؤمنون»، والآية 18 من سورة الشعراء، والآية 14 من سورة العنكبوت، وفي الآيتين 55 و55 من سورة الروم، والآية 14 من سورة الأحزاب، والآية 14 من سورة سبأ، والآية 37 من سورة الصافات، والآية 35 من سورة الأحقاف، والآية 23 من سورة النبأ، والآية 46 من سورة النازعات.

80 - اللحاق

الإدراك (ويفهم منه السير المتسارع قصد إدراك من سبق في المسير).

قال تعالى في الآية 170 من سورة آل عمران: «فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

81 - المجيء

قال تعالى في الآية 101 من سورة البقرة: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 62 و90 من سورة النساء: «فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا»، ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت

صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾؛ وورد المجيء في الآيتين 42 و61 من سورة المائدة، وفي الآيات 25 و34 و54 و94 و157 و160 من سورة الأنعام، والآيات 53 و63 و69 و70 و101 و106 و113 و126 و131 و143 من سورة الأعراف، وفي الآية 90 من سورة التوبة، وفي الآيات 13 و47 و74 و80 و97 من سورة يونس، والآيات 12 و40 و69 و77 و120 من سورة هود، وفي الآيات 16 و18 و19 و50 و58 و72 و73 و88 و96 من سورة يوسف، والآية التاسعة من سورة إبراهيم، وفي الآيتين 61 و67 من سورة الحجر، والآية السابعة من سورة الإسراء، والآية 43 من سورة مريم، وفي الآية 57 من سورة طه، والآية 27 من سورة «المؤمنون»، وفي الآيات 11 و13 و39 من سورة النور، والآية 41 من سورة الشعراء، وفي الآيات 8 و36 و84 من سورة النمل، والآية 20 من سورة القصص، وفي الآيات 31 و33 من سورة العنكبوت، وفي الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة الأحزاب، وفي الآيتين 37 و42 من سورة فاطر، وفي الآيتين 13 و20 من سورة يس، والآيتين 71 و73 من سورة الزمر، والآية 34 من سورة غافر، وفي الآية 53 من سورة الزخرف، والآية 21 من سورة ق، والآية 26 من سورة الذاريات، وفي الآية الثامنة من سورة المجادلة، والآية 12 من سورة الممتحنة، وفي الآيتين الثانية والثامنة من سورة عبس، والآية 22 من سورة الفجر.

82 - المخر

مخرت السفينة إذا جرت تشق الماء مع صوت، أو استقبلت الريح في جريها.

قال تعالى في الآية 14 من سورة النحل: ﴿وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾؛ وفي الآية 12 من سورة فاطر: ﴿وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

83 - المــرح

التبختر والاختيال. قال تعالى في الآية 75 من سورة غافر: «ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون».

84 - المــرور

قال تعالى في الآية 189 من سورة الأعراف: ﴿فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به﴾؛ وقال تعالى في الآية 38 من سورة هود: ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾؛ وفي الآية 72 من سورة الفرقان: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾؛ وقال تعالى في الآية 88 من سورة النمل: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾؛ وفي الآية 137 من سورة الصافات: «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين»؛ والآية 30 من سورة المطففين: «وإذا مروا بهم يتغامزون».

85 - المســح

الضرب والقطع. قال تعالى في الآية 33 من سورة ص: «ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق».

86 - المصاحــبة

قال تعالى في الآية 76 من سورة الكهف: «قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا».

87 - المضـــي

قال تعـالى في الآية 65 من سـورة الحجـر: «فـأسـر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون»؛ وفي الآية 60 من سـورة الكهف: «وإذ قـال مـوسى لفتـاه لا أبرح حتى أبلغ مـجمع البـحـرين أو أمضي حقبا»؛ والآية 67 من سورة يس: «ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون».

88 - المكــث

البقـاء. قال تعـالى في الآية 17 من سـورة الرعد: ﴿فـأمـا الزبد فيـذهب جفـاء وأمـا مـا ينفع النـاس فيـمكث في الأرض﴾؛ وورد ذكـر المكث في الآية الثالثة من سورة الكهف؛ وفي الآية العاشرة من سـورة طه؛ وفي الآية 22 من سورة النمل؛ وفي الآية 29 من سورة القصص؛ والآية 77 من سورة الزخرف.

89 - الملاقــاة

قال تعالى في الآيات 46 و223 و249 من سـورة البقرة: «الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون»، ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم مـلاقوه﴾، ﴿قال الذين يظنون أنـهم مـلاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيـرة بإذن الله﴾؛ وفي الآية 29 من سورة هود: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم﴾؛ والآية الثـامنة من سـورة الجـمـعـة: ﴿قل إن الموت الذي تفـرون منه فـإنه مـلاقيكم﴾؛ والآية السادسة من سورة الانشقـاق: «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه».

90 - المواقعــة

الدخول والوقوع. قال تعالى في الآية 53 من سورة الكهف: «ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا».

91 - المــور

التحرك جيئة وذهابا. قال تعالى في الآية التاسعة من سورة الطور «يوم تمور السماء مورا»؛ وفي الآية 16 من سورة الملك: «أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور».

92 - النــأي

البعد (الابتعاد). قال تعالى في الآية 26 من سورة الأنعام: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾؛ وفي الآية 83 من سورة الإسراء: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾؛ والآية 51 من سورة فصلت: «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض».

93 - النبــذ

الطرح والرمي والإبعاد والإلقاء؛ والانتباذ: التنحي والذهاب ناحية.

قال تعالى في الآيتين 100 و101 من سورة البقرة: «أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون»؛ وورد النبذ في الآيات: 187 من سورة آل عمران؛ وفي الآية 58 من

سورة الأنفال؛ وفي الآيتين 16 و22 من سورة مريم؛ وفي الآية 96 من سورة طه؛ والآية 40 من سورة القصص؛ والآية 145 من سورة الصافات؛ وفي الآية 40 من سورة الذاريات؛ وفي الآية 49 من سورة القلم؛ والآية الرابعة من سورة الهمزة.

94 - النشـر

نثر الشيء الرمي به متفرقا. قال تعالى في الآية 23 من سورة الفرقان: «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا»؛ وفي الآية 19 من سورة الإنسان: «ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا»؛ «إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت».

95 - النـزول

ورد ذكر النزول، بمختلف صيغه في 291 آية قرآنية. وتضمنت سورة البقرة 22 آية تشير إلى النزول. بدءا من الآية الرابعة، إذ قال تعالى: «والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون»، وفي الآية 22: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء﴾. وورد ذكر النزول في الآيات: 23 و41 و57 و59 و90 و91 و97 و99 و102 و105 و136 و159 و164 و170 و174 و176 و185 و213 و231 و285.

96 - النسـلان

الخروج بسرعة. قال تعالى في الآية 96 من سورة الأنبياء: «حتى إذا فتحت

يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون»؛ وفي الآية 51 من سورة يس: «ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون».

97 - النشـر

البسط (عكس الطي)، أو الإحياء والبعث. والانتشار: التفرّق.

قال تعالى في الآية 13 من سورة الإسراء: «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا»؛ وفي الآية 16 من سورة الكهف: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته﴾؛ والآية 21 من سورة الأنبياء: «أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون»؛ وورد ذكر النشر في الآيات 3 و40 و47 من سورة الفرقان؛ وفي الآية 20 من سورة الروم؛ وفي الآية 53 من سورة الأحزاب؛ والآية التاسعة من سورة فاطر؛ والآية 28 من سورة الشورى؛ وفي الآية 11 من سورة الزخرف؛ والآية 35 من سورة الدخان:؛ وفي الآيات الأولى والثانية والثالثة من سورة الطور؛ وفي الآية السابعة من سورة القمر؛ والآية العاشرة من سورة الجمعة؛ وفي الآية 15 من سورة الملك؛ وفي الآية 52 من سورة المدثر؛ وفي الآية الثالثة من سورة المرسلات؛ وفي الآية 22 من سورة عبس؛ والآية العاشرة من سورة التكوير.

98 - النضـخ

شدة فور الماء في جيشانه وانفجاره من ينبوعه (من أسفل إلى أعلى).

قال تعالى في الآية 66 من سورة الرحمن: «فيهما عينان نضاختان».

99 - النفـــش

النثـر والتطاير، أو الانتشـار. قال تعالى في الآية 78 من سـورة الأنبيـاء: ﴿وداود وسليمـان إذ يحكمـان في الحـرث إذ نفشت فيـه غنم القـوم﴾؛ وفي الآية الخامسة من سورة القارعة: «وتكون الجبال كالعهن المنفوش».

100 - النفـور

الخروج أو التفرق. قال تعالى في الآية 71 من سورة النساء: «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا»؛ وفي الآيات 38 و39 و41 و81 و122 من سورة التوبة: «يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير»، ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾، ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون﴾، ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾؛ وورد ذكر النفور في الآيتين 41 و46 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 60 من سورة الفرقان؛ والآية 42 من سورة فاطر؛ وفي الآية 21 من سورة الملك؛ وفي الآيتين 50 و51 من سورة المدثر.

101 - النكـس

الطأطأة في ذل. قال تعالى في الآية 65 من سورة الأنبيـاء: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾؛ وفي الآية من سورة السجدة: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم﴾.

102 - النكــوص

الإحجام. قال تعالى في الآية 48 من سورة الأنفال: ﴿فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾؛ وفي الآية 66 من سورة «المؤمنون»: «قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون».

•

103 - الهجــرة

قال تعالى في الآية 218 من سورة البقرة: «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم»؛ كما ورد ذكر الهجرة في الآية 195 من سورة آل عمران، وفي الآيات 34 و89 و97 و100 من سورة النساء، وفي الآيات 72 و74 و75 من سورة الأنفال، وفي الآيات 20 و100 و117 من سورة التوبة، وفي الآيتين 41 و110 من سورة النحل، والآية 46 من سورة مريم، وفي الآية 58 من سورة الحج، والآية 67 من سورة «المؤمنون»، والآية 22 من سورة النور، وفي الآية 30 من سورة الفرقان، والآية 26 من سورة العنكبوت، وفي الآيتين 6 و50 من سورة الأحزاب، وفي الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة الحشر، والآية العاشرة من سورة الممتحنة، والآية العاشرة من سورة المزمل.

104 - الهطــوع

الإقبال بالبصر. قال تعالى في الآية 43 من سورة إبراهيم: «مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء»؛ وفي الآية الثامنة من سورة القمر: «مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر»؛ والآية 36 من سورة المعارج: «فمال الذين كفروا قبلك مهطعين».

105 - الهـمّ

الإرادة والعـزم على الفعل. قـال تعـالى فـي الآيتين 122 و154 من سـورة آل عمران: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾، ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾؛ وفي الآية 113 من سـورة النسـاء: ﴿ولولا فـضل الله عليك ورحـمـتـه لهـمت طائفـة منهم أن يضلوك﴾؛ والآية 11 من سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾؛ وقـال تعـالى في الآيتين 13 و74 من سورة التوبة: ﴿ألا تقـاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول﴾، ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا﴾؛ وقـال تعـالى في الآية 24 من سـورة يوسف: ﴿ولقـد هـمت به وهم بهـا﴾؛ وفي الآية الخـامسـة من سـورة غـافـر: ﴿كـذبت قـبلهم قـوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾.

106 - الهـيام

هام المرء إذا ذهب على وجهه (بسبب العشق).

قـال تعـالى فـي الآية 225 من سـورة الشـعـراء : «ألم تـر أنهم فـي كل واد يهيمون».

107 - الوثـق

الشد والربط. قال تعالى في الآية الرابعة من سورة محمد: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق﴾؛ وفي الآية 26 من سورة الفجر: «ولا يوثق وثاقه أحد».

108 - **الـــورود**

الإتيـان. قـال تعـالى فـي الآية 98 من سـورة هود: ﴿فـأوردهم النـار وبئس الورد المورود»؛ وفـي الآية 19 من سـورة يوسـف: ﴿وجـاءت سـيـارة فـأرسلوا واردهم فـأدلى دلوه﴾؛ وفي الآيتين 71 و86 من سـورة مـريم: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾، «ونسـوق المجرمين إلى جهنم وردا»؛ وقـال تعـالى في الآيتين 98 و99 من سـورة الأنبيـاء: «إنكم ومـا تعـبـدون من دون الله حـصب جـهنم أنتم لهـا واردون. لو كـان هؤلاء آلهـة مـا وردوها وكل فـيـهـا خـالدون»؛ وفي الآية 23 من سورة القصص: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾.

109 - **الـــوطء**

الدوس بالقدم (ومن معانيه: الغزو والقتل).

قـال تعـالى فـي الآية 120 من سـورة التـوبة: ﴿ولا يطؤون مـوطئـا يغـيظ الكفـار﴾؛ وقـال تعـالى في الآية 27 من سـورة الأحـزاب: ﴿وأورثكم أرضـهـم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها﴾؛ وفي الآية 25 من سورة الفتح: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾.

110 - **الوقـــف**

الحـبس. قـال تعـالى في الآيتين 27 و30 من سـورة الأنعـام: ﴿ولو ترى إذ وقـفـوا على النار﴾، ﴿ولو ترى إذ وقـفـوا على ربهم﴾؛ وفي الآية 31 من سـورة سـبـأ: ﴿ولو ترى إذ الظالمون مـوقـوفـون عند ربهم يرجع بـعـضـهـم إلى بعض القول﴾؛ والآية 24 من سورة الصافات: «وقفوهم إنهم مسؤولون».

الفصـل الخـامس

الاتصال عبر حاسة اللمس

تكتسي حاسة اللمس أهميتها وتفردها، من كونها الحاسة التي تبدأ عملها منذ الولادة، وتستمر طيلة الحياة ولا يفقدها الإنسان إلا في حالات انعدام الوعي والغيبوبة. فحتى عندما يفقد الإنسان حاستي السمع والبصر، تظل حاسة اللمس وسيلة فعالة للتواصل مع الذات ومع الآخرين.

وعلى الرغم من أن تطور المجتمعات، قلّص من استخدام حاسة اللمس التي يلجأ فيها الإنسان إلى ملامسة الآخرين والأشياء قصد التحسّس والحصول على المعلومات، فإن حياة الإنسان الحميمة التي يمارسها في دائرته الخاصة مع أقربائه، مازالت تعتمد على الملامسة؛ كما أن ظاهرة تعلق الإنسان بالحيوانات الأليفة - خاصة في المجتمعات الغربية - عززت مركز التواصل اللمسي.

إن اللمس مرتبط بالاحتكاك الجسدي الناتج عن تزايد أعداد سكان الكرة الأرضية وتزاحمهم على العيش في مساحات ضيقة داخل المدن، الأمر الذي أدى

إلى تحول الاحتكاك الجسدي من فعل إرادي يقوم به الإنسان للتعرف إلى الأشياء وإلى الآخرين، إلى فعل اضطراري يصعب تجنبه في وسائل النقل المزدحمة وفي الشوارع والأسواق والتجمعات السياسية والرياضية والثقافية والمظاهرات، وحتى في أماكن تلقي العلم والاستشفاء وغيرها. كل ذلك، أدى إلى تطوير آليات (Mechanisms) دفاعية نفسية تجعل الإنسان يحافظ على خصوصيته و«غربته» في ظل الملامسة والاحتكاك الجسدي الذي لا يمكن تفاديه.

ونستطيع أن نزعم في هذه الدراسة، أن ما ورد في القرآن الكريم من ذكر للتواصل اللمسي وما ينتج عنه، يضيف الكثير لدارس الاتصال عبر حاسة اللمس ويزوده بخلفية تاريخية تعود لطبيعة الإنسان وسماته ومكوناته، وتنبهه إلى استخدامات عديدة لحاسة اللمس في الحياة الآخرة، لا يمكن التعرف إليها مسبقا إلا من خلال كتاب الله العزيز.

ولكي نسلط الأضواء على أهمية حاسة اللمس، كما وردت في القرآن الكريم، ارتأينا تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث متكاملة فيما بينها. ففي المبحث الأول، تطرقنا للذكر المباشر لحاسة اللمس التي غلب ورودها باللفظ الفصيح وهو «المس» بكل مدلولاته الحقيقية والمجازية كما جاءت في المعجم اللغوي العربي؛ وقد تبين في هذا المبحث الاستخدامات المتعددة لحاسة اللمس.

وتضمن المبحث الثاني، دراسة المسك، باعتباره حالة متقدمة من المس تدل على التشبث والاحتكاك المكثف الذي قد يترك أثرا واضحا على شكل الشيء المُمْسَك به.

أما المبحث الأخير، فخصصناه للعلاقة التي تربط الألم بحاسة اللمس. إذ إن الكثير من الآلام التي مصدرها من الخارج يحسها الإنسان ويشعر بها عبر جِلْده، لذا نجد أن معظم العذاب الأليم الذي سيناله الإنسان في الحياة الآخرة، سيتم عبر الجِلد أي عبر حاسة اللمس.

المبحث الأول

اللمـــــس

يعتبر اللمس أو المس من أهم الحواس الخمس التي يتواصل الإنسان عبرها منذ أن يرى النور، وتكون هذه الحاسة، في غاية الأهمية مباشرة بُعَيْد الولادة، إذ يحتاجها الرضيع للتواصل مع أمه، ويستخدمها، مع مرور الوقت، في تحسس الأجسام والتعرف إلى حالتي الحرارة والبرد، والحالات الأساسية الثلاث التي تكون عليها المادة، أي الصلابة والسيولة والغازية.

كما تكتسي حاسة اللمس أهمية بالغة لدى من يفتقدون لحاسة البصر، إذ تتطور لديهم القدرة على تمييز الأشكال عبر تحسس أسطحها. ويعتمد عليها فاقدو حاسة البصر في القراءة، وفقا لطريقة برايل الشهيرة، التي تقوم على سرعة إدراك الكلمات التي تكتب بأحرف بارزة عبر تمرير الأصابع فوقها.

لقد ورد الاتصال عبر حاسة اللمس في القرآن الكريم في أغلب الأحيان، ضمن التعبير العربي الأفصح، ألا وهو «المس». ونجد في المعجم اللغوي «لسان العرب» تحت مادة «مسس» ما يلي:

«مسِسْتُه، بالكسر، أمَسُّه مسّا ومسيسا: لَمسْتُه، هذه اللغة الفصيحة، ومَسَسْتُه، بالفتح، أمُسُّه، بالضم، لغة.. والمسُّ: مسك الشيء بيدك.. ويقال مسِسْتُ الشيء أمَسُّه مَسّا إذا لمسته بيدك، ثم استعير للأخذ والضرب لأنهما باليد، واستعير للجماع لأنه لمس، وللجنون كأن الجن مسته؛ يقال: به مسٌ من الجن.. وماسّ الشيءُ الشيءَ مماسة ومِساسا: لقيه بذاته. وتماس الجرمان: مسّ أحدهما الآخر». (ابن منظور، ج6 ص ص217-218) وقد وردت جميع هذه المعاني في القرآن الكريم.

إن اللمس باليد هو أبرز مظاهر التواصل عبر حاسة اللمس. ولم يرد ذكره صراحة في القرآن الكريم إلا في آية واحدة. فقد قال تعالى في الآية السابعة من سورة الأنعام: «ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين».

يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية:

«بين الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفار لو أنهم شاهدوا نزول كتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا محمد لم يؤمنوا به، بل حملوه على أنه سحر ومخرقة، والمراد من قوله ﴿في قرطاس﴾ أنه لو نزل الكتاب جملة واحدة، فرأوه ولمسوه وشاهدوه عيانا لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر..

المقصود أنهم إذا رأوه بقوا شاكين فيه، وقالوا: إنما سكرت أبصارنا، فإذا لمسوه بأيديهم فقد يقوى الإدراك البصري بالإدراك اللمسي، وبلغ الغاية في الظهور والقوة، ثم هؤلاء يبقون شاكين في أن ذلك الذي رأوه ولمسوه هل هو موجود أم لا، وذلك يدل على أنهم بلغوا في الجهالة إلى حد السفسطة». (ت. ر، ج12 م6)

ونستنتج من هذه الآية، القوة التواصلية لحاسة اللمس. إذ قدمت على بقية الحواس في تحقيق اليقين، على اعتبار أن من لم يعتد بها مغال وناكر

للحقائق الملموسة. وإذا كانت حاستا البصر والسمع قد تتعرضان للخداع الإدراكي، فإن حاسة اللمس تكون أقرب للواقع وللوعي. فاللمس لا يتم إلا بالاقتراب من الجسم الملموس، وبما أن الإنسان يدرك جسده كحقيقة لا يطالها الشك، فهو على استعداد للتيقن من كل ما يمكن أن يشكل امتدادا لجسده، أي كل ما يمكن لمسه بأحد أعضاء الجسد.

تشير الدراسات الحديثة حول التواصل باللمس، إلى أن الملامسة قد تكون من أبرز وسائل التعبير عن المودة والألفة (وفي المقابل قد تكون أبرز وسيلة للتعبير عن العداء في حالة العراك بين الخصمين). وفي الآية 97 من سورة طه إشارة إلى الدور الكبير الذي تقوم به الملامسة في التعبير عن التواصل الاجتماعي مع الآخرين، والحرمان من ملامسة الآخرين، حرمان من التواصل معهم. إذ قال تعالى عن سيدنا موسى عليه السلام وهو يخبر السامري بعقاب الله الذي أنزله عليه: «قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا».

وقد أورد ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «أما قوله ﴿فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه﴾ فهو إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، فجعل حظه في حياته أن يقول لا مِساس، أي سلبه الله الأنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوسا ووسواسا وتوحشا، فأصبح متباعدا عن مخالطة الناس، عائشا وحده لا يترك أحدا يقترب منه، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس، يخشى أن يمسه، أي لا تمسني ولا أمسك، أو أراد لا اقتراب مني، فإن المس يطلق على الاقتراب كقوله ﴿لا تمسوها بسوء﴾[هود: 64]، وهذا أنسب بصيغة المفاعلة، أي مقاربة بيننا، فكان يقول ذلك، وهذه حالة فظيعة أصبح بها سخرية». (ت. ع، ج16 ص175)

وتتجلى أهمية التواصل باللمس في ارتباطها بالطهارة. إذ قال تعالى في الآيات 77 و78 و79 من سورة الواقعة: «إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون». روى الإمام مالك، فقال: «حَدَّثَنِي يَحْيَى عَنْ مَالِك عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ أَنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ أَنْ لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إلا طَاهِرٍ». (ش. صخر، 1997)

وقال الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى ﴿في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون﴾:

«مصون من غير المقربين من الملائكة، لا يطلع عليه من سواهم، وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها: إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون هو اللوح. وإن جعلتها صفة للقرآن؛ فالمعنى لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس، يعني مس المكتوب منه». (ت. ز، ج4 ص457)

وأضاف الصابوني في صفوة التفاسير: «أي لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث، أو لا يمسه إلا من كان متوضئا طاهرا. قال القرطبي: المراد بالكتاب المصحف الذي بين أيدينا وهو الأظهر لقول ابن عمر «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر» ولكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم «وألا يمس القرآن إلا طاهر»». (ت. ص، ج3 ص315)

وورد لفظ «مس النار» بمعنى ملاقاتها والدخول فيها، في قوله تعالى في الآية 80 من سورة البقرة: «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون»؛ وكذا في الآية 24 من سورة آل عمران: «ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون»؛ وفي الآية 113 من سورة هود:

«ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون»؛ وقال تعالى في الآية 48 من سورة القمر: «يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر».

من بين المعاني الشائعة للمس في القرآن الكريم، نجد معنى الإصابة، عندما يقترن المس بما هو خير أو ما هو شر. وهكذا ورد ذكر المس مرتبطا بـ: البأساء – الحسنة – القرح – السوء – العذاب – الضر – الخير – الضراء والسراء – النصب – الشر.

قال تعالى في المس بالبأساء (وتعني البؤس والفقر)، في الآية 214 من سورة البقرة: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب».

وقال عن الحسنة في الآية 120 من سورة آل عمران: «إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط».

وورد في الآية 140 من سورة آل عمران عن المس بالقرح (جراحة يوم غزوة أحد ويوم بدر): «إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين»

وقال تعالى عن المس بالسوء في الآية 174 من سورة آل عمران: «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم»؛ وقال تعالى في الآيتين 73 و188 من سورة الأعراف: «وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من

ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم»، «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»؛ وفي الآية 64 من سورة هود: «ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب»؛ وقال تعالى في الآية 156 من سورة الشعراء: «ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم»؛ والآية 61 من سورة الزمر: «وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون».

واقترن المس بالعذاب في الآية 73 من سورة المائدة، إذ قال تعالى: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم»؛ وفي الآية 49 من سورة الأنعام: «والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون»؛ والآية 68 من سورة الأنفال: «لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم»؛ وقال تعالى في الآية 48 من سورة هود: «قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم»؛ وفي الآية 45 من سورة مريم: «يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا»؛ والآية 46 من سورة الأنبياء: «ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين»؛ والآية 18 من سورة يس: «قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم».

وورد ذكر المس بالضر والمس بالخير في الآية 17 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير»؛ وفي الآية 21 من سورة المعارج: «وإذا مسه الخير منوعا»؛ وكذلك المس بالضراء والسراء في الآية 95 من سورة الأعراف: «ثم

بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون»؛ وقال تعالى في الآيات 12 و21 و107 من سورة يونس: «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون»، «وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون»، «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم»؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة هود: «ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور»؛ وفي الآية 88 من سورة يوسف: «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين»؛ والآية 53 من سورة النحل: «وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون»؛ وقال تعالى في الآية 83 من سورة الأنبياء: «وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين»؛ وفي الآية 33 من سورة الروم: «وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون»؛ وقال تعالى في الآيتين 8 و49 من سورة الزمر: «وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار»، «فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون»؛ والآية 50 من سورة فصلت: «ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ».

وقال تعالى عن النصب واللغوب (أي التعب والإعياء من العمل الشديد) في الآية 48 من سورة الحجر: «لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين»؛ وفي الآية 35 من سورة فاطر: «الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب».

وورد ذكر المس بالشر في الآية 83 من سورة الإسراء، إذ قال تعالى: «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا»؛ وفي الآيتين 49 و51 من سورة فصلت: «لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط»، «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض»؛ والآية 20 من سورة المعارج: «إذا مسه الشر جزوعا».

والمس بالكبر يعني التقدم في السن والهرم، كما ورد في الآية 54 من سورة الحجر، إذ قال تعالى: «قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون».

وبما أن الجماع يشكل أقصى درجات التواصل والاحتكاك الجسدي بين الزوجين، فقد عبر عنه في القرآن الكريم بـ «المس»، أي إن الجماع لا يمكن أن يتم إلا عبر التماس الفعلي بين جسدي الزوجين.

وقد برز هذا المعنى واضحا في الآيتين 236 و237 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين. وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير»؛ كما ورد المس/الجماع في الآية السادسة من سورة المائدة، إذ قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو

على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون»؛ وقال تعالى في الآية 49 من سورة الأحزاب: «يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا»؛ وفي الآية الثالثة من سورة المجادلة: «والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير».

وورد ذكر عدم المس كتعبير عن العذرية، في قصة مريم ابنة عمران عليها السلام، إذ قال تعالى في الآية 47 من سورة آل عمران: «قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»؛ وقال تعالى في الآية 20 من سورة مريم: «قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا».

وقال تعالى في الآية 38 من سورة ق، ردا على اليهود الذين كانوا يقولون بمكة إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام - بدءا من الأحد - واستراح في اليوم السابع، أي السبت: «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب».

وقد فسر ابن عاشور هذه الآية بقوله: «معنى ﴿وما مسنا من لغوب﴾: ما أصابنا تعب. وحقيقة المسّ: اللمس، أي وضع اليد على شيء وضعا غير شديد بخلاف الدفع واللطم. فعبر عن نفي أقل الإصابة بنفي المسّ لنفي أضعف أحوال الإصابة.. واللغوب الإعياء من الجري والعمل الشديد». (ت. ع، ج26 ص271)

ووردت علاقة المس بالجنون في سياق الآية 275 من سورة البقرة، إذ قال

تعالى: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

يقول الإمام الرازي ضمن تفسيره لهذه الآية: «التخبط معناه الضرب على غير استواء، ويقال للرجل الذي يتصرف في أمر ولا يهتدي فيه؛ إنه يخبط خبط عشواء، وخبط البعير للأرض بأخفافه، وتخبطه الشيطان إذا مسه بخبل أو جنون لأنه كالضرب على غير الاستواء في الادهاش، وتسمى إصابة الشيطان بالجنون والخبل خبطة، ويقال: به خبطة من جنون، والمس الجنون، يقال: مس الرجل فهو ممسوس وبه مس، وأصله من المس باليد، كأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه، ثم سمى الجنون مسا، كما أن الشيطان يتخبطه ويطؤه برجله فيخبله، فسمي الجنون خبطة، فالتخبط بالرجل والمس باليد». (ت. ر. ج7 م4 ص96)

ثم يقدم الرازي عدة براهين على أن الشيطان ليست لديه القدرة على الصرع والقتل والإيذاء، إنما يقدر على الوسوسة: «إن الشيطان يمسه بوسوسته المؤذية التي يحدث عندها الصرع.. وإنما يحدث الصرع عند تلك الوسوسة لأن الله تعالى خلقه من ضعف الطباع، وغلبة السوداء عليه بحيث يخاف عند الوسوسة فلا يجترئ فيصرع عند تلك الوسوسة، كما يصرع الجبان من الموضع الخالي..». (ت. ر.ج7م4ص96–97)

وقد ورد المس بمعنى الوسوسة الشيطانية في الآية 201 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون»؛ وكذا في الآية 41 من سورة ص: «واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب».

وجاء المس بمعنى الاختبار، لأن الاختبار والتحقق من الأشياء يتم في أبسط أشكاله، باللمس باليد. قال تعالى في الآية الثامنة من سورة الجن: «وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا». وفي تفسير الرازي: «اللمس المس فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف يقال: لمسه والتمسه، ومثله الجس يقال: جسوه بأعينهم وتجسسوه، والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها». (ت. ر.ج 30م 15 ص158)

ومن بين مظاهر الاتصال غير اللفظي عبر حاسة اللمس، نجد المسح الذي يعتبر سلوكا حركيا يتم بلمس الأجسام والمرور على أسطحها.

وقد ورد ذكر المسح عند الحديث عن التيمم في سورتي النساء والمائدة. إذ قال تعالى في الآية 43 من سورة النساء: ﴿فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾؛ وفي الآية السادسة من سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾.

وقال تعالى في الآية 33 من سورة ص: «ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق».

فسر ابن عاشور المسح الوارد في هذه الآية، بقوله: «المسح حقيقته: إمرار اليد على الشيء لإزالة ما عليه من غبش أو ماء أو غبار وغير ذلك مما لا يراد بقاؤه على الشيء ويكون باليد وبخرقة أو ثوب، وقد يطلق المسح مجازا على معان منها: الضرب بالسيف يقال: مسحه بالسيف. ويقال: مسح السيف به. ولعل أصله كناية عن القتل بالسيف لأن السيف يمسح عنه الدم بعد الضرب به». (ت. ع، ج23 ص153)

وذكر الله تعالى في كتابه العزيز المعجزة التي منحها رسوله عيسى ابن

مريم عليه السلام، والمتمثلة في علاج أحد الأمراض الجلدية المستعصية وهو البرص، لما لهذا المرض من تأثير على تواصل الناس فيما بينهم بسبب المظهر الذي يتركه على الجسم وكذا اعتقاد الناس الخاطئ في انتقاله بواسطة العدوى، مما يؤدي إلى تحاشي المصاب بالبرص.

قال تعالى في الآية 49 من سورة آل عمران: «ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين»؛ وقال تعالى في الآية 110 من سورة المائدة: «إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين».

أوضح ابن عاشور الحكمة من تمكين سيدنا عيسى من علاج البرص، وجعله إحدى الآيات التي قدمها لبني إسرائيل، قائلا إن «العرب والعبرانيين واليونان يطلقون البرص على مرض آخر هو من مبادئ الجذام فكانوا يتشاءمون بالبرص إذا بدت أعراضه على واحد منهم. فأما العرب فكان ملوكهم لا يكلمون الأبراص إلا من وراء حجاب، كما وقع في قصة الحارث بن حلزة الشاعر مع الملك عمرو بن هند. وأما العبرانيون فهم أشد في ذلك. وقد اهتمت التوراة بأحكام البرص، وأطالت في بيانها، وكررته مرارا، ويظهر منها أنه مرض ينزل في الهواء ويلتصق بجدران المنازل، وقد وصفه الوحي لموسى ليعلِّمه الكهنة من بني إسرائيل ويعلمهم طريقة علاجه، ومن أحكامهم أن

المصاب يُعزل عن القوم ويجعل في محل خاص وأحكامه مفصلة في سفر اللاويين. ولهذا كان إعجاز المسيح بإبراء الأبرص أهم المعجزات فائدة عندهم دينا ودنيا». (ت. ع، ج3 ص ص101-102)

ويظهر الأثر البليغ للمرض الجلدي المعدي في التواصل بين الناس، من خلال قصة سيدنا أيوب عليه السلام إذ ابتلاه ربه بمرض الجدري، وطال عليه المرض فنفر منه الناس ونفروا من زوجته حتى لا تنقل لهم المرض، إلى أن شفاه الله. قال تعالى في الآية 42 من سورة ص: «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب».

يقول ابن كثير في قصة سيدنا أيوب مستندا إلى هذه الآية: «أي اضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أمر به. فأنبع الله له عينا باردة الماء، وأمره أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى، والسقم والمرض، الذي كان في جسده ظاهرا وباطنا، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالا تاما ومالا كثيرا». (ابن كثير، ص317)

المبحث الثاني

المسك

إذا كان المس أو اللمس هو مجرد اقتراب من الأشياء والأجسام حتى تصبح المسافة الفاصلة صفرا فيحدث التماس، فإن المسك يتعدى ذلك بخلق رابطة قوية ناتجة عن التشبث بأجزاء من الجسم المُمسَك. لذلك يمكن اعتبار المسك مرحلة متقدمة من المس. وعلى الصعيد التواصلي، للمس دلالة بارزة تتجسد في الاهتمام والسعي لإحداث رابطة لا يمكن الفكاك منها إلا ببذل الجهد والمقاومة أو تخلي المُمْسِك عن هذه الرابطة.

وهكذا نجد أن المَسْك قد استُعير - لغويا - للتعبير عن العديد من المفاهيم التي يلتقي معظمها مع التواصل عبر حاسة اللمس. فقد ورد في «لسان العرب»: «المَسْك، بالفتح وسكون السين: الجِلْد، وخص بعضهم به جلد السّخلة.. ثم كثر حتى صار كل جلد مسكا، والجمع مُسُكٌ ومُسُوكٌ... ومسك بالشيء وأمسك به وتمسّك وتماسك واستمسك ومَسَّك، كله: احتبس... أمسكت بالشيء وتمسكت به واستمسكت به وامتسكت كله بمعنى اعتصمت،

وكذلك مَسَّكت به تمسيكا... ورجل ذو مُسكة ومُسْكٍ أي رأي وعقل يُرجع إليه.. وفلان لا مسكة له أي لا عقل له.. وأمسك الشيء: حبسه.. ورجل مسيك ومُسَكَة أي بخيل. والمِسِّيك: البخيل». (ابن منظور، ج10 ص ص486-488) وهنا نجد أن استخدام لفظ المسك للتعبير عن الجلد، يبين لنا مدى ارتباطه بالتواصل عبر اللمس.

لقد ورد ذكر المسك في القرآن الكريم كصفة من صفات الله سبحانه وتعالى دون ذكر كيفية تحققها. إذ ورد ذكر المسك على سبيل المجاز.

قال تعالى في الآية 79 من سورة النحل: «ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون»؛ وكذا في الآية 19 من سورة الملك: «أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير».

يقول الرازي في تفسيره للآية الواردة في سورة النحل: «.. وأما قوله تعالى ﴿ما يمسكهن إلا الله﴾ فالمعنى: أن جسد الطير جسم ثقيل، والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه في الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه، فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى، ثم من الظاهر أن بقاءه في الجو معلقا فعله حاصل باختياره، فثبت أن خالق فعل العبد هو الله تعالى». (ت. ر. ج 20 ص 94)

ويضيف ابن عاشور: «الإمساك: الشد عن التفلّت.. والمراد هنا: ما يمسكهن عن السقوط إلى الأرض من دون إرادتها، وإمساك الله إياها خلقه الأجنحة لها والأذناب، وجعله الأجنحة والأذناب قابلة للبسط، وخلق عظامها أخف من عظام الدواب بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها ونهضت بأعصابها خفّت خفة شديدة فسبحت في الهواء فلا يصلح ثقلها لأن يخرق ما تحتها من الهواء إلا إذا قبضت من أجنحتها وقوست أعصاب أصلابها عند

إرادتها النزول إلى الأرض أو الانخفاض في الهواء. فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثم تقع متى شاءت أو عييت. فلولا أن الله خلقها على تلك الحالة لما استمسكت، فسُمّي ذلك إمساكا على وجه الاستعارة، وهو لطف بها». (ت. ع، ج13 ص189)

وفي سورتي الحج وفاطر ورد ذكر مسك الله تعالى للسماوات، وهو ما يبدو لنا الآن من خلال علم الفلك، في التوازن في حركة الأجرام السماوية ودورانها ضمن جاذبية وسرعة دقيقتين، وضمن مدارات محددة لا تحيد عنها إلا بإذن الله. وتتجلى معجزة الله سبحانه وتعالى، أكثر في كون حركة الدوران هاته لا تتم في حيز مكاني ثابت، بل تتم ضمن حركة تمدد الكون التي يمر فيها الجرم السماوي بكل نقطة مرة واحدة لا تتكرر كالمسافر في اتجاه واحد.

قال تعالى في الآية 65 من سورة الحج: «ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم»؛ وفي الآية 41 من سورة فاطر: «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا».

وورد المسك بمعنى الحبس والمنع والحرمان، في الآية الثانية من سورة فاطر، إذ قال تعالى: «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم»؛ وقال تعالى عن قدرته على الحرمان من الرزق، في الآية 21 من سورة الملك: «أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور». وورد المسك بمعنى المنع لدى الإنسان، في الآية 39 من سورة ص، إذ قال تعالى: «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» أي أعطِ من شئت وامنع من شئت؛ وقال تعالى في الآية 39 من سورة الزمر: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل

أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون».

وإمساك الروح يؤدي إلى عدم قدرة الكائن للعودة للحياة بعد موته، وقد تم التعبير عن هذا المعنى في الآية 42 من سورة الزمر، إذ قال تعالى: «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون». وفي «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور: «الإمساك: الشد باليد وعدم تسليم المشدود. والمعنى: فيبقي ولا يردّ النفْس التي قضى عليها بالموت، أي يمنعها أن ترجع إلى الحياة فإطلاق الإمساك على بقاء حالة الموت تمثيل لدوام تلك الحالة». (ت. ع، ج24 ص100)

ووردت الإشارة إلى المسك بمعناه الحقيقي عند ذكر الصيد بالجوارح، في الآية الرابعة من سورة المائدة، إذ قال تعالى: «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب».

تحدث القرآن الكريم عن تنظيم العلاقة الزوجية، فيما يتعلق باستمرارية الحياة الزوجية أو إنهائها بواسطة الطلاق. وقد ورد ذكر الإمساك كدلالة على إرجاع الرجل لزوجته بعد تطليقها الطلقة الأولى والثانية، إذ شبه بقاء الزوجين تحت سقف واحد بالإمساك.

ورد هذا المعنى في الآيتين 229 و231 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا الا يقيما حدود الله فإن خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون»، «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن

فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم». وقال تعالى في الآية الثانية من سورة الطلاق: «فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا». وجاء في تفسير قوله ﴿فإمساك بمعروف﴾: «المعنى أن المطلق على رأس أمره فإن كان راغبا في امراته فشأنه إمساكها أي مراجعتها.. والإمساك حقيقته قبض اليد على شيء مخافة أن يسقط أو يتفلت، وهو هنا استعارة لدوام المعاشرة». (ت. ع، ج2 ص ص386-387)

وورد ذكر الإمساك بمعنى استمرار العلاقة الزوجية، أي عكس التطليق، في الآية 37 من سورة الأحزاب، إذ قال تعالى: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا». وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة الممتحنة: «يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم». والمراد من قوله تعالى ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ «أي ولا تتمسكوا بعقود زوجاتكم الكافرات، فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة زوجية». (ت. ص، ج3 ص365)

واقترن إمساك المرأة بحبسها، إذا اقترفت الزنى، كما جاء في قوله تعالى في الآية 15 من سورة النساء: «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا»

ومن أبرز معاني المسك التي تشير على سبيل المجاز، إلى الاتصال عبر حاسة اللمس، معنى البخل. وقد استطرد ابن منظور في هذا المعنى، بقوله: «رجل مَسِيكٌ ومُسَكَةٌ أي بخيل. والمِسِّيك: البخيل، وكذلك المُسُكُ.. وفي حديث هند بنت عتبة: أن ابا سفيان رجل مَسِيكٌ أي بخيل يُمْسِك ما في يديه لا يعطيه أحدا وهو مثل البخيل وَزْنًا ومعنى. وقال أبو موسى: إنه مِسِّيكٌ، بالكسر والتشديد، بوزن الخِمِّير والسِّكِّير أي شديد الإمساك لماله.. ورجل مُسَكَة، مثل هُمَزَة، أي بخيل؛ ويقال: هو الذي لا يعلق بشيء فيتخلص منه ولا ينازله منازل فيُفلت». (ابن منظور، ج10، ص488) قال تعالى في الآية المائة من سورة الإسراء: «قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا». فسّر الإمام الطبري قوله تعالى ﴿إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾: «إذن لبخلتم به، فلم تجودوا بها على غيركم، خشية من الإنفاق والإقتار». (ت. ط، ج8 ص154)

وتضمن القرآن الكريم تعبير «الاستمساك بالعروة الوثقى» للدلالة على الحفاظ والتشبث بالدين. قال تعالى في الآية 256 من سورة البقرة: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم»؛ وفي الآية 22 من سورة لقمان: «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور»؛ وقال تعالى في الآية 43 من سورة الزخرف: «فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم». وقد فسّر ابن عاشور قوله تعالى

﴿ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ الوارد في سورة البقرة، بقوله: «الاستمساك بالعروة الوثقى تمثيلي، شبهت هيئة المؤمن في ثباته على الإيمان بهيئة من أمسك بعروة وثقى من حبل وهو راكب على صَعب أو في سفينة في هَول البحر، وهي هيئة معقولة شبهت بهيئة محسوسة». (ت. ع، ج2 ص503) وأوضح الزمخشري في تفسيره للآية 22 من سورة لقمان حال المستمسك بالعروة الوثقى، قائلا: «مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه». (ت. ز، ج3 ص484)

وقال تعالى، في سياق التمسك والحفاظ على الدين، في الآية 170 من سورة الأعراف: «والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين»؛ وفي الآية 21 من سورة الزخرف: «أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون».

ومن معاني الإمساك، ما ورد في الآية 59 من سورة النحل، إذ قال تعالى: «يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون». يقول الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية: «قال تعالى ﴿يتوارى من القوم من سوء﴾ أي يختفي ويتغيب من سوء ما بشر به، قال المفسرون: كان الرجل في الجاهلية إذا ظهر آثار الطلق بامرأته توارى واختفى عن القوم إلى أن يعلم ما يولد له فإن كان ذكرا ابتهج به، وإن كان أنثى حزن ولم يظهر للناس أياما يدبر فيها أنه ماذا يصنع بها؟ وهو قوله ﴿أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾ والمعنى: أيحبسه؟ والإمساك هاهنا بمعنى الحبس كقوله ﴿أمسك عليك زوجك﴾». (ت. ر.ج20 م10 ص58)

وورد ذكر الشدّ بمعنى الإمساك القوي المحكم في قوله تعالى ﴿ فشدوا الوثاق﴾ ، واستعير للتدعيم والمؤازرة، في قوله تعالى ﴿ اشدد به أزري﴾ و﴿سنشد عضدك﴾ و﴿وشددنا ملكه﴾

قال تعالى في الآية الرابعة من سورة محمد: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم»؛ وقال تعالى في الآيات 29 و30 و31 من سورة طه: «واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري»؛ وفي الآية 35 من سورة القصص: «قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون»؛ والآية 20 من سورة ص: «وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب».

فسر ابن عاشور المراد من شد العضض، بقوله: «الشد: الرباط، وشأن العامل بعضو إذا أراد أن يعمل به عملا متعبا للعضو أن يربط عليه لئلا يتفكك أو يعتريه كسر.. وجعل الأخ هنا بمنزلة الرباط الذي يشد به. والمراد: أنه يؤيده بفصاحته، فتعليقه بالشد ملحق بباب المجاز العقلي. وهذا كله تمثيل لحال إيضاح حجته بحال تقوية من يريد عملا عظيما أن يشد على يده وهو التأييد الذي شاع في معنى الإعانة والإمداد، وإلا فالتأييد أيضا مشتق من اليد. فأصل معنى (أيد) جعل يدا، فهو استعارة لإيجاد الإعانة». (ت. ع، ج20 ص ص53-54)

المبحث الثالث

الألـــم واللمـــس

إن الألم الجسـدي يرتبط ارتبـاطا وثيقـا بالجِلد ومن ثم بحاسـة اللمس. فالجلد يشكل المعبـر الرئيس للإحسـاس بالألم الـذي يصـدر من الخـارج، وهو لذلك أول من يتضرر، باعتباره الجدار الواقي للأعضاء الجسدية الداخلية.

وقد وردت العديد من الآيات القـرآنية التي تشيـر إلى علاقة الألم بحاسة اللمس، في الحيـاة الآخرة، من خلال وسـائل تعذيبيـة متنوعة كـالصلي والحرق والكي والغلي والشيّ والتعرض للهب للدخـان الكثيـف، كلها حـالات تعتمـد على النار التي تجسـد أقصى وسائل التعـذيب وإلحاق الألم بالجسـد البـشري، الذي تفقده حيويته وتقضي على الخلايا المكونة لـه. وهنا نجد أن مـلامسـة النار - سواء في الآخرة أو في الدنيا - أمر لا يطاق وغير مرغوب فيه.

وبالإضافة إلى الآيات التي ذكرت الأشكال التعذيبية التي ذكرناها للتو، هناك آيات أخرى تشير إلى العذاب الأليم الذي سيلحق بالمشركين والكفار والمنافقين في الدار الآخرة، باستخدام وسائل أخرى غير محددة تتضاف إلى النار.

أما في الحياة الدنيا فهناك نوع آخر من التعذيب الجسدي اللمسي، متمثل في العقاب بواسطة الجَلْد، كما ورد في حد الزنى.

أولا: الصـــلي

يعتبر الصلي من أبرز مظاهر الاتصال غير اللفظي عبر حاسة اللمس. فهو شديد الارتباط بالجِلد، حيث يتعرض هذا الأخير لدرجة مرتفعة من الحرارة أو النار، مما يؤثر على بقية أعضاء الجسم الخارجية والداخلية. وهذا السلوك اللمسي يمكن اعتباره شكلا من أشكال العذاب ومصدرا من أبرز مصادر الألم الحسي. ويترك الصلي أثرا تواصليا مباشرا، على صعيد المظهر الخارجي عندما تتشوه البشرة ويفقد الجسم جاذبيته وجماله؛ ويترك أثرا سلبيا على ردود الفعل التعبيرية الحركية (التعبيرات الوجهية والإيماءات) والصوتية، وقد يؤدي إلى فقدان العديد من الأعضاء الجسدية لوظائفها، ومن ثم إلى فقدان الحياة. وقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير صراحة للصلي.

وقد تضمن المعجم اللغوي «لسان العرب» تعريفا للعديد من أشكال الصلي، والتي وردت الإشارة إليها في القرآن الكريم.

إذ نجد من بين معاني الصلي: «صلى اللحم وغيره صليا: شواه، وصليته صليا مثال رميته رميا وأنا أصليه صليا إذا فعلت ذلك وأنت تريد أن تشويه، فإذا أرَدْت أنك تلقيه فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت أصليته، بالألف، إصلاء، وكذلك صَلَّيْتُه أُصَلِّيه تصلية.. صَلَيْتُ اللحم، بالتخفيف، على وجه الصلاح معناه شويته، فأما أصليته وصلّيته فعلى وجه الفساد والإحراق.. والصِّلاء، بالمد والكسر: الشواء لأنه يُصَلّى بالنار.. وصَلَى اللحم في النار

وأصلاه وصلاّه: ألقاه للإحراق.. وصَلِي بالنار وصَلِتَها صليا وصُليّا وصِليّا وصَلى وصِلاء واصطلى بها وتَصَلاّها: قاسى حرّها.. الاصطلاء افتعال من صلا النار والتسخّن بها.. وأصلاه النار: أدخله إياها وأثواه فيها، وصَلاه النار وفي النار وعلى النار صليا وصُليّا وصُلِيَ فلان النار تصلية.. وصَلِيت النار أي قاسيت حرها. اصلوها أي قاسوا حرها، وهي الصَّلا والصِّلاء.. ويقال: صَلَيْتُ الرجلَ نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت أصليته، بالألف، وصلّيته تصلية. والصِّلاء والصَّلى: اسم للوقود. وصَلّى يده بالنار: سخّنها.. واصطلى بها: استدفأ وصَلّى العصا على النار وتَصَلاّها: لوحها وأدارها على النار ليقومها ويليّنها». (ابن منظور، ج14 ص ص467-468)

تشير معظم الآيات القرآنية المتضمنة للصلي والنار التي وُعِد بها الناس في الدار الآخرة، إلى الدخول في النار ومن ثم التعرض لمفعولها على الأجساد من شيٍّ وإحراق. وفي هذا السياق، قال تعالى في الآيات 10 و30 و115 من سورة النساء: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا»، «ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا»، «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا»؛ وقال تعالى في الآية 29 من سورة إبراهيم: «جهنم يصلونها وبئس القرار»؛ وفي الآية 18 من سورة الإسراء: «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا»؛ وقال تعالى في الآية 63 من سورة الصافات: «إلا من هو صال الجحيم»؛ وفي الآية 56 من سورة ص: «جهنم يصلونها فبئس المهاد»؛ وقال تعالى في الآية الثامنة من سورة المجادلة: «ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم

والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير».

وقد وردت العديد من العبارات التي تدل على العذاب الجسدي الذي سيلحق بأصحاب النار، إذ لم يقتصر الصلى على مجرد تماس بين النار والجلود، بل هو فعل مستمر يشكل مصدرا دائما للألم.

قال تعالى في الآية 56 من سورة النساء: «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما». يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «هذا وعيد من الله جل ثناؤه للذين أقاموا على تكذيبهم بما أنزل الله على محمد من بني إسرائيل وغيرهم من سائر الكفار.. ﴿سوف نصليهم نارا﴾، يقول: سوف ننضجهم في نار يصلون فيها - أي يشوون فيها -، ﴿كلما نضجت جلودهم﴾، يقول: كلما انشوت بها جلودهم فاحترقت، ﴿بدلناهم جلودا غيرها﴾، يعني: غير الجلود التي نضجت فانشوت». (ت. ط، ج4 ص145)

ويستطرد في تبيان المراد من نضوج الجلود وتبديلها: «فإن سأل سائل فقال: وما معنى قوله جل ثناؤه: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾؟ وهل يجوز أن يبدلوا جلودا غير جلودهم التي كانت لهم في الدنيا، فيعذبوا فيها؟ فإن جاز ذلك عندك، فأجز أن يبدلوا أجساما وأرواحا غير أجسامهم وأرواحهم التي كانت لهم في الدنيا فتعذب! وإن أجزت ذلك، لزمك أن يكون المعذبون في الآخرة بالنار، غير الذين أوعدهم الله العقاب على كفرهم به ومعصيتهم إياه، وأن يكون الكفار قد ارتفع عنهم العذاب!

قيل: إن الناس اختلفوا في معنى ذلك.

فقال بعضهم: العذاب إنما يصل إلى الإنسان الذي هو غير الجلد واللحم،

وإنما يحرق الجلد ليصل إلى الإنسان ألم العذاب. وأما الجلد واللحم فلا يألمان.. وإذا كان ذلك كذلك، فغير مستحيل أن يُخلَق لكل كافر في النار في كل لحظة وساعة من الجلود ما لا يحصى عدده، ويحرق ذلك عليه، ليصل إلى نفسه ألم العذاب، إذ كانت الجلود لا تألم.. وقال آخرون: بل الجلود تألم، واللحم وسائر أجزاء جِرْم بني آدم. وإذا أحرق جلده أو غيره من أجزاء جسده، وصل ألم ذلك إلى جميعه. قالوا: ومعنى قوله: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾: بدلناهم جلودا غير محترقة. وذلك أنها تعاد جديدة، والأولى كانت قد احترقت، فأعيدت غير محترقة.. وقال آخرون: معنى قوله: ﴿كلما نضجت جلودهم﴾، سرابيلهم (ثيابهم)، بدلناهم سرابيل من قطران غيرها. فجعلت السرابيل من القطران لهم جلودا، كما يقال للشيء الخاص بالإنسان: «هو جِلدة ما بين عينيه ووجهه»، لخصوصه به. قالوا: فكذلك سرابيل القطران .. لما صارت لهم لباسا لا تفارق أجسامهم، جعلت لهم جلودا، فقيل: كلما اشتعل القطران في أجسامهم واحترق، بدلوا سرابيل من قطران آخر. قالوا: وأما جلود أهل الكفر من أهل النار، فإنها لا تحترق، لأن في احتراقها – إلى حال إعادتها – فناءها، وفي فنائها راحتها». (ت. ط، ج4 ص ص145-146)

وقال تعالى في الآية 64 من سورة يس: «اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون»؛ وفي الآية 59 من سورة ص: «هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار»؛ والآية 16 من سورة الطور: «اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون»؛ وقال تعالى في الآية 94 من سورة الواقعة: «وتصلية جحيم»؛ وفي الآية 31 من سورة الحاقة: «ثم الجحيم صلوه»؛ والآية 26 من سورة المدثر: «سأصليه سقر»؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة الانفطار: «يصلونها يوم الدين»؛ وفي الآية 16 من سورة المطففين: «ثم إنهم لصالوا الجحيم»؛ والآية 12 من سورة الانشقاق: «ويصلى سعيرا»؛

وقال تعالى في الآية 12 من سورة الأعلى: «الذي يصلى النار الكبرى»؛ وفي الآية الرابعة من سورة الغاشية: «تصلى نارا حامية»؛ والآية 15 من سورة الليل: «لا يصلاها إلا الأشقى»؛ والآية الثالثة من سورة المسد: «سيصلى نارا ذات لهب».

وورد ذكر الاصطلاء بالنار بمعنى التسخّن بها، في قصة سيدنا موسى عليه السلام في الآية 29 من سورة القصص، إذ قال تعالى: «فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون».

ثانيا: الحـــرق

الحرق هو تعريض الأجسام للنار قصد تغيير هيئتها. والتحريق: مبالغة في الحرق، أي حرقا متلفا، وهو ما ورد ذكره في قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام عندما تآمر عليه قومه وسعوا لإحراقه في النار. قال تعالى في الآيتين 68 و69 من سورة الأنبياء: «قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم»؛ وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة العنكبوت: «فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون».

يقول الإمام الرازي في سبب اختيار النار من بين الوسائل الأخرى لمعاقبة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام: «إنما اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أشد العقوبات، ولهذا قيل ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كنتم تنصرون آلهتكم نصرا شديدا، فاختاروا أشد العقوبات وهي الإحراق». (ت. ر. ج22 م11 ص189) ويقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿بردا وسلاما﴾: «المعنى: ذات برد وسلام،

فبولغ في ذلك، كأن ذاتها برد وسلام. والمراد: أبردي فيسلم منك إبراهيم. أو أبردي بردا غير ضار. وعن ابن عابس رضي الله عنه: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها. فإن قلت كيف بردت النار وهي نار؟ قلت: نزع الله عنها طابعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق، وأبقاها على الإضاءة والاشتعال كما كانت، والله على كل شيء قدير. ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرّها ويذيقه فيها عكس ذلك، كما يفعل بخزنة جهنم». (ت. ز، ج3 ص123)

وورد ذكر التعذيب بالحرق في الآية 181 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق»؛ وقال تعالى في الآية 50 من سورة الأنفال: «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق»؛ وفي الآيتين 9 و22 من سورة الحج: «ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق»، «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق»؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة البروج: «إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق».

ثالثا: بعض مظاهر التعذيب بالنار

يعتبر الكي من أبرز وسائل التعذيب باستخدام المحمّاة في النار. ويبدو الكي - في ظاهره - سلوكا لمسيا عاديا، سوى أن الجسم اللامس تكون درجة حرارته شديدة الارتفاع مقارنة بدرجة حرارة الجلد. وقد ورد ذكر الكي في الآيتين 34 و35 من سورة التوبة، إذ قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب

أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون».

يقول الإمام الرازي في سبب تخصيص الجباه والجُنوب والظهور:

«أحدها: أن المقصود من كسب الأموال حصول فرح في القلب يظهر أثره في الوجوه، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان، ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم، فلما طلبوا تزين هذه الأعضاء الثلاثة، لا جرم حصل الكي على الجباه والجُنوب والظهور. وثانيها: أن هذه الأعضاء الثلاثة مجوفة، قد حصل في داخلها آلات ضعيفة يعظم تألمها بسبب وصول أدنى أثر إليها بخلاف سائر الأعضاء. وثالثها: قال أبو بكر الوراق: خصت هذه المواضع بالذكر لأن صاحب المال إذا رأى الفقير بجنبه تباعد عنه وولى ظهره. ورابعها: أن المعنى أنهم يكوون على الجهات الأربع، إما من مقدمه فعلى الجبهة، وإما من خلفه فعلى الظهور، وإما من يمينه ويساره فعلى الجنبين. وخامسها: أن ألطف أعضاء الإنسان جبينه والعضو المتوسط في اللطافة والصلابة جنبه، والعضو الذي هو أصلب أعضاء الإنسان ظهره، فبين تعالى أن هذه الأقسام الثلاثة من أعضائه تصير مغمورة في الكيّ، والغرض منه التنبيه على أن ذلك الكي يحصل في تلك الأعضاء، وسادسها: أن كمال حال بدن الإنسان في جماله وقوته. أما الجمال فمحله الوجه، وأعز الأعضاء في الوجه الجبهة، فإذا وقع الكي في الجبهة، فقد زال الجمال بالكلية، وأما القوة فمحلها الظهر والجنبان، فإذا حصل الكي عليهما فقد زالت القوة عن البدن، فالحاصل: أن حصول الكيّ في هذه الأعضاء الثلاثة يوجب زوال الجمال وزوال القوة. والإنسان إنما طلب المال لحصول الجمال ولحصول القوة». (ت. ر.ج16 م8 ص50)

وورد ذكر وسيلة أخرى للتعذيب تتمثل في غلي الأجساد في الحميم. وهو الماء الشديد الحرارة، وتعريض الأجساد للدخان الكثيف، ويسمى اليحموم،

والصديد الذي يسيل منها، وهو الغساق.

قال تعالى في الآية 19 من سورة الحج: «هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم»؛ وفي الآيتين 57 و58 من سورة ص: «هذا فليذوقوه حميم وغساق. وآخر من شكله أزواج»؛ والآية 72 من سورة غافر: «في الحميم ثم في النار يسجرون»؛ والآية 48 من سورة الدخان: «ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم»؛ وقال تعالى في الآيات 42 و43 و93 من سورة الواقعة: «في سموم وحميم. وظل من يحموم»، «فنزل من حميم».

وتشوى بعض الأجساد في الآخرة عقابا لها على ما اقترفته من المعاصي والذنوب في الدنيا. والشيّ هو أول الآثار التي تنتج عن تعرض الجسد للهيب النار، فهو يسبق الإحراق الذي سبق ذكره.

قال تعالى في الآية 66 من سورة الأحزاب: «يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا». يقول ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: «التقليب: شدة القلب. والقلب: تغيير وضع الشيء على جهة غير الجهة التي كان عليها. والمعنى: يوم تُقلّب ملائكة العذاب وجوههم في النار بغير اختيار منهم، أو يجعل الله ذلك التقلّب في وجوههم لتنال النار جميع الوجه كما يقلب الشواء على المَشْوَى لينضج على سواء، ولو كان لفح النار مقتصرا على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة». (ت. ع، ج 21 ص ص336-337)

كما ورد ذكر الشيّ في الآيتين 15 و16 من سورة المعارج، إذ قال تعالى: «كلا إنها لظى. نزاعة للشوى». وقال تعالى في الآية 104 من سورة «المؤمنون»: «تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون». جاء في تفسير الفخر الرازي: «قال ابن عباس رضي الله عنهما أي تضرب وتأكل لحومهم وجلودهم، قال الزجاج:

اللفح والنفح واحد إلا أن اللفح أشد تأثيرا.. والكلوح أن تتقلص الشفتان وتتباعدا عن الأسنان، كما ترى الرؤوس المشوية، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته». (ت. ر.ج23 م12 ص124)

وقال تعالى عن اللهب في الآية 31 من سورة المرسلات: «لا ظليل ولا يغني من اللهب»؛ وفي الآيتين الأولى والثالثة من سورة المسد: «تبت يدا أبي لهب وتب»، «سيصلى نارا ذات لهب». قال الخازن في تفسيره لسبب ذكر عبد العزى بن عبد المطلب، عم النبي بكنيته أبي لهب: «.. أنه لما كان من أهل النار، ومآله إلى النار، والنار ذات لهب، وافقت حاله كنيته وكان جديرا بأن يذكر بها». (تفسير الخازن 317/4 - ت. ص، ج3 ص618)

ومن بين مظاهر التعذيب في الآخرة، قوله تعالى في الآية 12 من سورة الأنبياء: «فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون»؛ وقوله في الآية 46 من سورة غافر: «النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب»؛ وقال تعالى في الآية 20 من سورة البلد: «عليهم نار مؤصدة» أي نار مطبقة مغلقة أبوابها؛ وقال تعالى في الآيتين10 و11 من سورة القارعة: «وما أدراك ماهيه. نار حامية».

رابعا: العذاب الأليم

لقد تضمن القرآن الكريم الإشارة إلى العديد من أشكال العذاب المؤلمة التي ستلحق ببعض الناس في الدار الآخرة، يتخذ بعضها طابع العذاب المعنوي ينتج عنه الشعور بالإذلال والحزن والخوف والإرهاق، والبعض الآخر يتخذ طابعا حسيا يؤدي إلى الأنين والصراخ.. أي يؤدي إلى الألم الحقيقي

الذي لا يمكن تحمله. وقد اتفق المفسرون على أن المراد بالعذاب الأليم هو العذاب الموجع.

ورد ذكر العذاب الأليم في 66 آية، مرتبطا بالعقاب الذي وعد الله به بعض عباده في الآخرة.

وهكذا نجد عبارة عذاب أليم في الآيات 10 و104 و174 و178 من سورة البقرة، وفي الآيات 21 و77 و177 و188 من سورة آل عمران، وفي الآيات 18 و138 و161 و173 من سورة النساء، والآيات 36 و73 و94 من سورة المائدة، والآية 73 من سورة الأعراف، والآية 32 من سورة الأنفال، وفي الآيات 3 و34 و39 و61 و74 و79 و90 من سورة التوبة، وفي الآيات 4 و88 و97 من سورة يونس، والآيات 26 و48 و102 من سورة هود، والآية 25 من سورة يوسف، والآية 22 من سورة إبراهيم، والآية 50 من سورة الحجر، وفي الآيات 10 و63 و117 من سورة النحل، وفي الآيتين 19 و63 من سورة النور، والآية 37 من سورة الفرقان، والآية 201 من سورة الشعراء، والآية 23 من سورة العنكبوت، والآية السابعة من سورة لقمان، وفي الآية الثامنة من سورة الأحزاب.

كما ورد ذكر العذاب الأليم في الآية 18 من سورة يس، والآية 38 من سورة الصافات، وفي الآية 43 من سورة فصلت، وفي الآيتين 21 و42 من سورة الشورى، والآية 65 من سورة الزخرف، والآية 11 من سورة الدخان، وفي الآيتين 8 و11 من سورة الجاثية، والآيتين 24 و31 من سورة الأحقاف، وفي الآيات 16 و17 و25 من سورة الفتح، وفي الآية 37 من سورة الذاريات، والآية الرابعة من سورة المجادلة، والآية العاشرة من سورة الصف، والآية الخامسة من سورة التغابن، والآية 28 من سورة الملك، وفي الآية الأولى من سورة نوح، والآية 13 من سورة المزمل، والآية 31 من سورة الإنسان، والآية 24 من سورة الانشقاق.

خامسا: الجَلد

وأخيرا، هناك الجَلْد الذي يعتبر من وسائل التعذيب الجسدي المرتبطة بحاسة اللمس، الأقل وطأة من غيره من الوسائل السالفة الذكر.

وقد ورد الجلد كوسيلة عقابية دنيوية على جريمة الزنى، إذ قال تعالى في الآيتين الثانية والرابعة من سورة النور: «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين»، «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون».

يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾: «الجلد: الضرب بسير من جلد. مشتق من الجِلْد بكسر الجيم لأنه ضرب الجلد. أي البشرة.. قال في «الكشاف*»: «وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم». أي لا يكون الضرب يُطيّر الجلد حتى يظهر اللحم، فاختيار هذا اللفظ دون الضرب مقصود به الإشارة إلى هذا المعنى على طريقة الإدماج. واتفق فقهاء الأمصار على: أن ضرب الجلد بالسوط. أي بسَيْر من جلد. والسوط: هو ما يضرب به الراكب الفرس وهو جلد مضفور، وأن يكون السوط متوسط اللين، وأن يكون رفع يد الضارب متوسطا. ومحل الجلد هو الظهر عند مالك. وقال الشافعي: تضرب سائر الأعضاء ما عدا الوجه والفرج. وأجمعوا على ترك الضرب على المقاتل، ومنها الرأس في الحد. روى الطبري(**) أن عبد الله بن عمر حد جارية أحدثت فقال للجالد: أجلد رجليها وأسفلها». ((*) ت. ز، ج3 ص205؛ (**) ت. ط، ج9ص ص256-257؛ ت. ع، ج18 ص ص118-119)

الفصل السادس

الشم والذوق

يتطرق هذا الفصل لحاستين تعتمد كل منهما على الأخرى في أداء وظيفتها. أي حاسة الشم وحاسة الذوق. وقد أوضح الدكتور أحمد مدحت إسلام هذا الارتباط القوي بين الشم والذوق، قائلا:

«حاسة الشم حاسة رئيسة عند مختلف الكائنات، وهي تعتبر مكملة لحاسة التذوق، بل إن حاسة التذوق تعتمد على الشم كل الاعتماد. ونحن لا نعرف من الطعوم إلا أربعة أنواع هي: الحلو، والمر، والمالح، والحمضي. وهذه الأنواع الأربعة لا تكفي لوصف مئات الأنواع من الأطعمة وطعومها المختلفة التي نحس بها كل يوم، ولكن حاسة الشم تتولى استكمال إحساسنا بالطعم فهي المسؤولة عن 90٪ تقريبا من حاسة التذوق. ولعلنا جميعا نتذكر أننا لا نحس بطعم المأكولات عند إصابتنا بالزكام، وأننا كنا نسد أنوفنا ونحن صغار بمسكها بأصابع اليدين حتى لا نشعر بطعم «شربة» الدواء، وذلك كي نمنع مرور الهواء المحمل بأبخرة هذه «الشربة» على منطقة الشم فلا نحس

برائحتها وبالتالي لا نحس بطعمها». (لغة الكيمياء، ص75)

إن حاستي الشم والذوق ضروريتان للحياة والاستمرارية البيولوجية للإنسان، لارتباطهما الوثيق بتناول الطعام والشراب، ولضرورة استخدامهما لاختبار ما يصلح للجسد وما يضر به. ومن هنا تكمن أهميتهما التواصلية. فحاسة الشم تجعلنا نقترب من مصادر الروائح المفيدة والخالية من الأخطار، والابتعاد عن مصادر الروائح المؤذية والتي تكمن فيها أخطار حياتية أو نفسية. كما أن حاسة الشم تقوم بدور حاسم في ربط العلاقات وتقوية المشاعر العاطفية، التي تترتب عنها قرارات حاسمة في حياة الإنسان الأسرية والمهنية.

وبناء على إدراكنا للارتباط الوثيق بين حاستي الشم والذوق، ارتأينا أن يشمل هذا الفصل حديثا عن الغذاء الذي غالبا ما يتكون من شراب وطعام. ذلك أن القرآن الكريم قد تضمن العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى الشراب والطعام باعتبارهما من مقومات الحياة؛ وآيات أخر تعدّد الأنواع المختلفة للأطعمة والأشربة التي تحيلنا - من حين لآخر - إلى حاستي الشم أو الذوق، إما لاشتمالها على روائح مميزة أو لها مذاق خاص يضفي قدرا من الاستمتاع والبهجة في النفوس.

وهكذا جاءت مباحث الفصل الأربعة متضمنة لحاسة الشم كما وردت في القرآن الكريم، وحاسة الذوق، والشراب، والطعام. وقد سعينا للتمييز بين بعض الآيات التي تتطرق للحياة الدنيا، وتلك التي تتطرق للحياة الآخرة.

المبحث الأول

الشـــــــم

تعتبر حاسة الشم من الحواس الخمس المختصة في التواصل والتأثير العاطفي. «وتبلغ هذه الحاسة حدا من القوة عند كثير من الحيوانات، وهي تخطرها باقتراب الفريسة أو تنذرها بوقوع الخطر، وتعوض النقص في قوة الإبصار عند بعضها، كما في حالة الفيل، كما تستخدمها الخفافيش في اكتشاف الأشجار المحملة بالثمار أثناء طيرانها فوق قمم هذه الأشجار. وتختلف هذه الحاسة من كائن لآخر، فهي ضعيفة نسبيا عند الإنسان وقوية عند الحشرات.. وقد تصبح هي الحاسة الرئيسة عند الحيوان كما في حالة الكلاب التي تبلغ عندها قوة حاسة الشم حوالي ثلاثمائة مرة قدر قوتها عند الإنسان». (إسلام، 1985، ص64)

وتستخدم حاسة الشم في بعض الكائنات الحية - مثل بعض الحشرات - كوسيلة وحيدة للتواصل. «فقد تم اكتشاف عدد من وسائل الاتصال الكيميائية المعقدة التي تستخدمها بعض هذه الكائنات لتبادل المعلومات، وتبين

أن بعض الحشرات تقوم بإفراز بعض المواد الكيميائية في مناسبات معينة، وهي تفعل ذلك إما للتأثير المباشر في الأفراد المحيطة بها، وإما للتحكم في البيئة نفسها». (إسلام،1985، ص9) وقد تبين أن الحشرات تفرز ثلاثة أنواع من المواد الكيميائية من أجل التواصل عبر حاسة الشم: فهناك «مواد الأثر» وتستخدم للتعرف إلى المواقع باتباع أثر المادة التي ترسم طريق الوصول؛ والنوع الثاني، «مواد الإنذار» وتطلق عند الإحساس بالخطر إنذارا لبقية أفراد المجموعة؛ والنوع الثالث، يدعى «جاذبات الجنس» تفرزها إناث الحشرات لاستمالة الذكور. (إسلام، 1985، ص ص13-63)

أما لدى الإنسان، فإن الروائح المختلفة تثير فيه بعض الانفعالات والشعور بالانتشاء والابتهاج، عند استنشاق الروائح الذكية، أو الشعور بالاشمئزاز والتقزز، عند استنشاق الروائح الكريهة. وقد اتضح من خلال تشريح الدماغ البشري أن المناطق المتعلقة بحاسة الشم سابقة في تطورها للمناطق المختصة بالحواس الأخرى.

وتتم عملية الشم وفقا للمراحل التالية: «عندما يدخل الأنف تيار من الهواء، يقوم الأنف بتدفئة هذا الهواء حتى تصل درجة حرارته إلى ما يقرب من درجة حرارة الجسم، وتقوم بهذه المهمة مجموعة من الحواجز المغطاة بنسيج مخاطي غني بالشعيرات الدموية، وهي تقع في التجويف الأنفي فوق سقف الحلق. ويمر الهواء بعد ذلك فوق منطقة حساسة تتجمع فيها نهايات أعصاب الشم وتعرف عادة باسم منطقة الشم، وهناك تتلامس الأبخرة التي يحملها الهواء مع أطراف الأعصاب، التي تحس بطريقة ما بالجزيئات ذات الرائحة، فترسل نبضات خاصة إلى بصيلات الشم، ثم إلى المخ. وهناك تترجم هذه النبضات إلى الإحساس بالروائح التي نعرفها». (إسلام، 1985، ص65)

على الرغم من أن القرآن الكريم تضمن آيات قليلة تشير إلى الجانب التواصلي والانفعالي لحاسة الشم، مقارنة بالحواس الأخرى، إلا أن بعض تلك الآيات غنية بدلالاتها التواصلية، عندما تسبق حاسة الشم نظيراتها في إيصال المعلومات.

وفي هذا السياق وردت الآية 94 من سورة يوسف، عندما استبشر سيدنا يعقوب عليه السلام، وهو الذي أصبح كفيفا من جراء حزنه على ابنه، بقرب لقائه ابنه يوسف، معتمدا على حاسة الشم. إذ قال تعالى: «ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون».

يقول الإمام الرازي مستطردا في تفسير هذه الآية، خاصة أن المسافة التي تفصل يوسف عن أبيه طويلة وتفوق قدرة الأنف البشرية على الشم عبرها:

«اختلفوا في قدر المسافة فقيل: مسيرة ثمانية أيام، وقيل عشرة أيام، وقيل ثمانون فرسخا. واختلفوا في كيفية وصول تلك الرائحة إليه، فقال مجاهد: هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص... والتحقيق أن يقال: إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات لا وصول الرائحة إليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة فيكون معجزة ولابد من كونها معجزة لأحدهما والأقرب أنه ليعقوب عليه السلام حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام إلى ما لا ينبغي، فظهر أن الأمر كما ذكر فكان معجزة له. قال أهل المعاني: إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره إليه مع قرب احدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل ومعنى: لأجد ريح

يوسف أشم وعبر عنه بالوجود لأنه وجدان له بحاسة الشم». (ت. ر.ج18 م9 ص ص211-212)

وذكر الله في كتابه العزيز، من بين سمات النعيم والاستمتاع في الجنة، التمتع بالروائح الذكية التي تسعد مستنشقها، وقد ورد بعض المأكولات التي تشتهر بروائحها الزكية إضافة إلى طعمها اللذيذ، كالعسل والثمار، وورد ذكر الريحان وهو «شجر لورقه وقضبانه رائحة ذكية شديد الخضرة كانت الأمم تزين به مجالس الشراب». (ت. ع، ج27 ص317)، والكافور وهو «زيت يستخرج من شجرة تشبه الدِفلَى تنبت في بلاد الصين وجاوة يتكون فيها إذا طالت مدتها نحوا من مائتي سنة فيُغلّى حطبها ويستخرج منه زيت يسمى الكافور. وهو ثخِن قد يتصلب فيصير كالزُبْد وإذا يقع حطب شجرة الكافور في الماء صار نبيذا يتخمر فيصير مسكرا. والكافور أبيض اللون ذكي الرائحة منعش». (ت. ع، ج29 ص353) ويعد الكافور من أنفس أنواع الطِيب عند العرب وهو أحد الروائح الأولية السبع التي تتشكل منها جميع أنواع الروائح (رائحة الكافور - رائحة المسك - رائحة الزهور - رائحة النعناع - رائحة الاتير - رائحة نفاذة - رائحة عفنة)؛ وهناك الزنجبيل والرحيق والمسك.. كلها تمتاز بطيب رائحتها.

قال تعالى في الآية 15 من سورة محمد: «مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم»؛ وفي الآية 89 من سورة الواقعة: «فروح وريحان وجنة نعيم»؛ وقال تعالى في الآيتين 5 و17 من سورة الإنسان: «إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا»، «ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا».

وقال تعالى في الآيات 25 و26 و27 من سورة المطففين: «يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم».

أما أصحاب النار فتنتظرهم كل الروائح الكريهة التي مصدرها وقود النار وأجسادهم التي تشوى وتحترق فتفوح منها رائحة الجلد والصديد والحميم. أي إن حاسة الشم ستكون قناة مهمة لإدراك العذاب الذي ينتظر أصحاب النار.

قال تعالى في الآية 56 من سورة النساء: «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما»؛ وقال تعالى في الآيات 16 و17 و50 من سورة إبراهيم: «من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد. يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ»، «سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار»؛ وقال تعالى في الآية 16 من سورة المعارج: «نزاعة للشوى».

إن حاسة الشم لا تتم إلا من خلال توفر المادة على خاصيتين: قابلية المادة للتطاير في حدود معقولة، أي أن تكون لها بعض الأبخرة التي تستطيع أن تصل إلى أجهزة الشم؛ والقابلية للذوبان في الماء حتى تذوب جزيئاتها في طبقة الماء الرقيقة المحيطة بأطراف أعصاب الشم وتتفاعل معها. فوفقا للخاصية الأولى أي انتشار جزيئات المادة وانتقالها من مكان إلى مكان، فإن التواصل الشمي لا يتحقق إلا بوجود الهواء المتحرك الذي يساعد على هذا الانتشار أو التطاير، وهذا الهواء هو ما يدعى الريح أو الرياح. فضلا عن كون الهواء من أولى ضرورات الحياة، والأنف التي تختص في حاسة الشم هي المنفذ الرئيس لتنفس الهواء.

وقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى الرياح وتصريفها باعتبارها نعمة من نعم الله على عباده، والريح كقوة قادرة على التدمير وإلحاق الأذى بالناس والبيئة.

قال تعالى في الآية 164 من سورة البقرة: «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»؛ وفي الآية 117 من سورة آل عمران: «مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون»؛ والآية 22 من سورة يونس: «هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين»؛ وقال تعالى في الآية 57 من سورة الأعراف: «وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون»؛ وفي الآية 46 من سورة الأنفال: «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين»؛ والآية 18 من سورة إبراهيم: «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد»؛ وقال تعالى في الآية 22 من سورة الحجر: «وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين»؛ وفي الآية 69 من سورة الإسراء: «أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا»؛ والآية 45 من سورة الكهف: «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا».

وقال تعالى في الآية 81 من سورة الأنبياء: «ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين»؛ وفي الآية 31 من سورة الحج: «حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق»؛ والآية 48 من سورة الفرقان: «وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا»؛ والآية 63 من سورة النمل: «أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون»؛ وقال تعالى في الآيات 46 و48 و51 من سورة الروم: «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»، «الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون»، «ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون»؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة الأحزاب: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا»؛ وفي الاية 12 من سورة سبأ: «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير».

وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة فاطر: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور»؛ وفي الآية 36 من سورة ص: «فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب»؛ والآية 16 من سورة فصلت: «فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون»؛ وقال تعالى في الآية 33 من سورة الشورى: «إن يشأ يسكن الريح

فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الجاثية: «واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون»؛ والآية 24 من سورة الأحقاف: «فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم»؛ وقال تعالى في الآية 41 من سورة الذاريات: «وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم»؛ وفي الآية 19 من سورة القمر: «إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر»؛ والآية 12 من سورة الرحمن: «والحب ذو العصف والريحان».

وتضمن القرآن الكريم ذكر بعض أصناف الطعام التي تشتهر برائحتها النفاذة، والتي تؤثر في التواصل بين الناس عند تناولها، لأن رائحتها غير المستحبة، تفوح من الفم عند التحدث، ومن بين تلك الأطعمة، الثوم والبصل. قال تعالى في الآية 61 من سورة البقرة: «وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون».

وقد أورد الإمام مسلم في صحيحه في باب كراهية أكل الثوم وإتيان المساجد: «عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال في غزوة خيبر: من أكل من هذه الشجرة - يعني الثوم - فلا يأتينَّ المساجد». (المنذري، 2000، ص88)

وفي باب اعتزال المسجد من أكل البصل أو الكراث والثوم، أورد: «عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا، أو: ليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته». وانه أُتي بقِدْر فيه

خَضِرات من بُقول، فوجد لها ريحا، فسأل فأُخبر بما فيها من البقول، فقال: «قربوها». إلى بعض أصحابه، فلما رآه كره أكلها قال: «كل فإني أناجي من لا تناجي». (المنذري، 2000، ص88)

كما أورد في باب إخراج من وجد منه ريح البصل والثوم من المسجد: «عن معدان بن أبي طلحة: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب يوم الجمعة فذكر نبي الله ﷺ، وذكر أبا بكر رضي الله عنه... قال: اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، وإني إنما بعثتهم عليهم ليعدلوا، وليعلّموا الناس دينهم وسنّة نبيهم ﷺ، ويقسموا فيهم فيئَهم، ويرفعوا إليّ ما أشكل عليهم من أمرهم، ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين، لا أراهما إلا خبيثتين، هذا البصل والثوم، لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر به فأُخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليُمَتهما طبخا». (المنذري،2000، ص88–89) ويتضح من هذا الحديث مدى أهمية التواصل الشمي، عندما تتسبب الروائح في إزعاج الآخرين، الأمر الذي يستدعي التدخل لاستبعاد مصدرها.

وقد أوصى الرسول ﷺ المسلمين بضرورة التسوك لأنه يجنب الفم الروائح الكريهة. ذلك أن رائحة الفم الكريهة من بين الأمور التي تعرقل التواصل بين الناس وتنفرهم من الاقتراب ممن يتسم بهذه الصفة. لقد روى الإمام ابن ماجه في سننه، قائلا: «حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شُعَيْبٍ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاتِكَةِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ عَنِ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تَسَوَّكُوا فَإِنَّ السِّوَاكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ مَا جَاءَنِي جِبْرِيلُ إلا أَوْصَانِي بِالسِّوَاكِ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي ولولا أَنِّي أَخَافُ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَفَرَضْتُهُ لَهُمْ وَإِنِّي لأستاك حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أُحْفِيَ مَقَادِمَ فَمِي».

وفي سورتي البقرة والكهف تبيان لأهمية التواصل الشمي في التعرف إلى الطعام الجيد. ذلك أن الطعام الفاسد تفوح منه الروائح الكريهة نتيجة للتعفنات من جراء إصابته بالبكتيريا؛ كما أن الطعام الشهي يكشف عن نفسه من خلال المواد والتوابل المستخدمة فيه بروائحها النفاذة التي يختبرها الأنف.

قال تعالى في الآية 259 من سورة البقرة: «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير». وقوله تعالى ﴿لم يتسنه﴾ أي لم يفسد. وقال تعالى في الآية 19 من سورة الكهف: «وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا». ومن التفسيرات الواردة لقوله تعالى ﴿أزكى طعاما﴾: أحلّ وأطيب الطعام. (ت. ص، ج2 ص186)

المبحث الثاني

الـــــــــذوق

الذوق إحدى الحواس الخمس التي تزوّد الإنسان بالمعلومات والخبرة اللازمة لإدراك العالم من حوله والتعامل معه. وهو حاسة تقود إلى إدراك طعم الأشياء السائلة والصلبة، ما إذا كانت حلوة أو مرة أو حامضة أو مزيجاً بينها. كما تقود إلى إدراك الحرارة والبرودة.

وترتبط حاسة الذوق ارتباطا وثيقا بحاستي الشم واللمس. فمن خلال الشم، يتكون موقف أولي تجاه الأشياء مما يحفّز إلى اختبارها وتذوقها أو ينفّر منها. وإذ حفّزت حاسة الشم على التذوق، فإن هذا الأخير يتم بملامسة الشيء المختبر بواسطة اللسان لتبين طعمه أو درجة حرارته، أو بواسطة الملامسة بالجلد لمعرفة ما إذا كان باردا أو حارا.

ولكي نتعرف إلى الاتصال عبر حاسة الذوق من خلال القرآن الكريم، لا بأس من استعراض مفهوم الذوق كما ورد في المعجم اللغوي «لسان العرب»، إذ ورد في مادة «ذوق»:

«الذوق: مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقا وذَواقا ومَذاقا، فالذوّاق والمَذاق يكونان مصدرين ويكونان طَعْما، كما تقول ذَواقه ومذاقه طيّب؛ والمذاق: طعم الشيء. والذّواق: هو المأكول والمشروب.. وما ذقت ذَواقا أي شيئا، وتقول: ذُقت فلانا وذُقت ما عنده ذَواقا أي شيئا، وتقول: ذُقت فلانا وذُقت ما عنده أي خبرته، وكذلك ما نزل بالإنسان من مكروه فقد ذاقه. وجاء في الحديث: إن الله لا يحب الذّواقين والذّواقات؛ يعني السريعي النكاح السريعي الطلاق؛ قال: وتفسيره ألا يطمئن ولا تطمئن كلما تزوج أو تزوجت كَرِها ومدّا أعينهما إلى غيرهما. والذّوّاق: الملول.. واستذقت فلانا إذا خبرته فلم تَحْمَد مَخْبَرَته.. وتذوّقته أي ذقته شيئا بعد شيء. وأمر مستذاق أي مجرب معلوم. والذوق: يكون فيما يُكره ويحمد. قال الله تعالى: فأذاقها الله لباس الجوع والخوف؛ أي ابتلاها بسوء ما خُبِرت من عقاب الجوع والخوف. وفي الحديث: كانوا إذا خرجوا من عنده لا يتفرقون إلا عن ذواق؛ ضرب الذواق مثلا لما ينالون عنده من الخير أي لا يتفرقون إلا عن علم وأدب يتعلمونه، يقوم لأنفسهم وأرواحهم مقام الطعام والشراب لأجسامهم.. ابن الأعرابي في قوله: فذوقوا العذاب، قال: الذوق يكون بالفم وبغير الفم.. ويوم ما ذُقته طعاما أي ما ذقت فيه، وذاق العذاب والمكروه ونحو ذلك، وهو مثل.. وفي حديث أحد: أن أبا سفيان لما رأى حمزة، رضي الله عنه، مقتولا قال له: ذق عُقَقُ! أي ذق طعم مخالفتك لنا وتركك دينك الذي كنت عليه يا عاقَّ قومه؛ جعل إسلامه عقوقا، وهذا من المجاز أن يستعمل الذوق وهو ما يتعلق بالأجسام في المعاني كقوله تعالى: ذق إنك أنت العزيز الكريم». (ابن منظور، ج10ص ص111-112)

جاء ذكر التواصل عبر حاسة الذوق بمدلوله الحقيقي في قصة سيدنا آدم عليه السلام وزوجه عندما منعهما الله سبحانه وتعالى من الاقتراب من الشجرة فوسوس لهما الشيطان فذاقاها وأكلا منها. قال تعالى في الآية 22

من سورة الأعراف: «فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين». يقول ابن عاشور في معنى الذوق ضمن سياق هذه الآية: «الذوق إدراك طعم المأكولات أو المشروب باللسان، وهو يحصل عند ابتداء الأكل أو الشرب، ودلت هذه الآية على أن بُدُوّ سوءاتهما حصل عند أوّل إدراك طعم الشجرة، دلالة على سرعة ترتيب الأمر المحذور عند أول المخالفة». (ت. ع، ج8 ص48)

وورد ذكر الذوق في العديد من الآيات القرآنية مرتبطا بالعذاب في الحياة الآخرة. إذ يتعرض الكفار والمشركون والمنافقون لأصناف من العذاب بدءا من يوم القيامة والحساب إلى دخولهم النار، وما يلقونه من صنوف العذاب الجسدي كالسحب والحرق والضرب والكي وصب الحميم على الرؤوس وغيره.. وتذوق العذاب، بالمعنى الوارد في هذه الآيات، يعني الإحساس به عبر الجوارح مجتمعة ولا يقتصر فقط على الفم واللسان.

قال تعالى في الآيتين 106 و181 من سورة آل عمران: «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»، «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق»؛ وقال تعالى في الآية 56 من سورة النساء: «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما»؛ وفي الآية 30 من سورة الأنعام: «ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»؛ والآية 39 من سورة الأعراف: «وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون»؛ وقال تعالى في الآيتين 35 و50 من

سورة الأنفال: «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»، «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق»؛ وفي الآيتين 52 و70 من سورة يونس: «ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون»، «متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون»؛ وقال تعالى في الآيات 9 و22 و25 من سورة الحج: «ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق»، «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق»، «إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم»؛ والآية 19 من سورة الفرقان: «فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا».

وقال تعالى في الآيات 14 و20 و21 من سورة السجدة: «فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون»، «وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون. ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون»؛ وقال تعالى في الآيتين 12 و42 من سورة سبأ: «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير»، «فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون»؛ وفي الآية 38 من سورة الصافات: «إنكم لذائقو العذاب الأليم»؛ والآية الثامنة من سورة ص: «أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب»؛ وقال تعالى في

الآيات 16 و27 و50 من سورة فصلت: «فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون»، «فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون»، «ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ»؛ وفي الآية 34 من سورة الأحقاف: «ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»؛ وقال تعالى في الآيات 37 و39 و48 من سورة القمر: «ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر»، «فذوقوا عذابي ونذر»، «يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر».

وتتعدد أشكال العذاب في الآخرة، لتجتمع كلها في قدرتها على إلحاق الألم بالأجساد والنفوس، لذا فإن عبارتي «ذق» و«ذوقوا»، تبينان أن العذاب الكبير الذي سيتعرض له الإنسان يتم الإحساس به لحظة بلحظة حتى لا يكون مجرد تحصيل حاصل عندما يصل إلى ذروته.

قال تعالى في الآية 35 من سورة التوبة: «يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»؛ وقال تعالى في الآية 55 من سورة العنكبوت: «يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون»؛ وفي الآية 37 من سورة فاطر: «وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير»؛ والآية 31 من سورة الصافات: «فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون» أي فلزمنا وعيد الله بأنا ذائقون لعذابه لا محالة، لعلمه بحالنا واستحقاقنا

بها العقوبة (ت. ز، ج4ص39)؛ وقال تعالى في الآية 57 من سورة ص: «هذا فليذوقوه حميم وغساق»؛ وفي الآية 24 من سورة الزمر: «أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون»؛ وقال تعالى في الآيات 47 و48 و49 من سورة الدخان: «خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم. ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم. ذق إنك أنت العزيز الكريم»؛ وفي الآية 14 من سورة الذاريات: «ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون»؛ وقال تعالى في الآية 30 من سورة النبأ: «فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا». يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية:

«المعنى: سنزيدكم عذابا زيادة مستمرة في أزمنة المستقبل.. ولما كان المقصود الوعيد بزيادة العذاب في المستقبل جيء في أسلوب نفيه بحرف نفي المستقبل، وهو (لن) المفيد تأكيد النسبة المنفية وهي ما دل عليه مجموع النفي والاستثناء، فإن قيد تأبيد نفي الزيادة الذي يفيده حرف (لن) في جانب المستثنى منه يسري إلى إثبات زيادة العذاب في جانب المستثنى، فيكون معنى جملة الاستثناء: سنزيدكم عذابا أبدا، وهو معنى الخلود في العذاب. وفي هذا الأسلوب ابتداء مطمع بانتهاء مُؤْيِس وذلك أشد حزنا وغما بما يوهمهم أن ما ألقوا فيه هو منتهى التعذيب حتى إذا ولج ذلك أسماعهم فحزنوا له، أُتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشد، فكان ذلك حزنا فوق حزن، فهذا منوال هذا النظم وهو مؤذن بشدة الغضب.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي برزة الأسلمي وأبي هريرة: أن هذه الآية أشد ما نزل في أهل النار، وقد أسند هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عن أبي برزة الأسلمي. قال: «سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار؟ فقال: قول الله تعالى ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾». (ت. ع، ج30 ص38)

يخبرنا القرآن الكريم عن بعض أحوال أصحاب النار في الحياة الآخرة. ومنها قوله في الآية 24 من سورة النبأ: «لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا». يوضح الإمام الرازي كيفية تذوق البرد في سياق هذه الآية، قائلا:

«في قوله ﴿ بردا ﴾ وجهان: الأول، أنه البرد المعروف، والمراد أنهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أو ظل يمنع من نار، ولا يجدون شرابا يسكن عطشهم، ويزيل الحرقة عن بواطنهم، والحاصل أنهم لا يجدون هواء باردا، ولا ماء باردا؛ الثاني، البرد ها هنا النوم، وهو قول الأخفش والكسائي والفراء وقطرب والعتبي، قال الفراء: إنما سمي النوم بردا لأنه يبرد صاحبه، فإن العطشان ينام فيبرد بالنوم.. قال المبرد: ومن أمثال العرب: منع البرد البرد أي أصابني من البرد ما منعني من النوم، وأعلم أن القول الأول أولى لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب، والقائلون بالقول الثاني تمسكوا في إثباته بوجهين: الأول، أنه لا يقال ذقت البرد ويقال ذقت النوم؛ الثاني، أنهم يذوقون برد الزمهرير، فلا يصح أن يقال إنهم ما ذاقوا بردا، وهب أن ذلك البرد برد تأذوا به، ولكن كيف كان، فقد ذاقوا البرد. والجواب عن الأول، كما أن ذوق البرد مجاز فكذا ذوق النوم أيضا مجاز، ولأن المراد من قوله ﴿لا يذوقون فيها بردا ﴾ أي لا يستنشقون فيها نفسا باردا، ولا هواء باردا، والهواء المستنشق ممره الفم والأنف فجاز إطلاق لفظ الذوق عليه؛ والجواب عن الثاني، أنه لم يقل لا يذوقون فيها البرد بل قال لا يذوقون فيها بردا واحدا، وهو البرد الذي ينتفعون به ويستريحون إليه». (ت. ر. ج31 م 16 ص ص15-16)

اشتمل القرآن الكريم على أربع آيات يتحدثن عن حتمية تذوق الإنسان وجميع مخلوقات الله للموت لمرة واحدة على الأقل. والخبرة الناتجة عن الإحساس بالموت لا يمكن نقلها للآخرين في هذه الحياة الدنيا لأن من يموت

لا يستطيع أن يخبر الأحياء بما شعر به، ولايرجع حيا حتى يحكي للآخرين عن تجربته. لهذا فإن تذوق الموت يعتبر من اللحظات التواصلية الخاصة التي يختتم بها الإنسان إحساسه التذوقي أو البصري أو السمعي أو اللمسي أو الشمي، في الحياة الدنيا.

قال تعالى في الآية 185 من سورة آل عمران: «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»؛ وفي الآية 35 من سورة الأنبياء: «كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون»؛ والآية 57 من سورة العنكبوت: «كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون»؛ وقال تعالى في الآية 56 من سورة الدخان: «لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم».

يقدم الإمام الرازي ضمن تفسيره للآية 185 من سورة آل عمران رأيا فلسفيا يوضح بعض جوانب مسألة تذوق الموت، إذ يقول:

«زعمت الفلاسفة أن الموت واجب الحصول عند هذه الحياة الجسمانية، وذلك لأن هذه الحياة الجسمانية لا تحصل إلا بالرطوبة الغريزية والحرارة الغريزية، ثم إن الحرارة الغريزية تؤثر في تحليل الرطوبة الغريزية، ولا تزال تستمر هذه الحالة إلى أن تفنى الرطوبة الأصلية فتنطفي الحرارة الغريزية ويحصل الموت، فبهذا الطريق كان الموت ضروريا في هذه الحياة. قالوا وقوله ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ يدل على أن النفوس لا تموت بموت البدن، لأنه جعل النفس ذائقة الموت، والذائق لابد وأن يكون باقيا حال حصول الذوق، والمعنى أن كل نفس ذائقة موت البدن، وهذا يدل على أن النفس غير البدن، وعلى أن النفس لا تموت بموت البدن، وأيضا: لفظ النفس مختص بالأجسام، وفيه تنبيه على أن ضرورة الموت مختصة بالحياة الجسمانية، فأما الأرواح

المجردة فلا، وقد جاء في الروايات ما هو خلاف ذلك، فإنه روي عن ابن عباس أنه قال: لما نزل قوله تعالى ﴿كل من عليها فان﴾ قالت الملائكة مات أهل الأرض، ولما نزل قوله تعالى ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ قالت الملائكة متنا». (ت. ر.ج9 م5 ص130)

تشير بعض الآيات القرآنية إلى أن الله سبحانه وتعالى يذيق عباده الذين يكفرون به أو يعصونه في الحياة الدنيا أصنافا من العقاب، قبل أن يعذبهم في الآخرة. إذ يذيقهم السوء والجوع والخوف والضعف والخزي.

قال تعالى في الآية 14 من سورة الأنفال: «ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار»؛ وفي الآيتين 94 و112 من سورة النحل: «ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم»، «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون»؛ وقال تعالى في الآية 75 من سورة الإسراء: «إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا»؛ وفي الآية 26 من سورة الزمر: «فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون».

تضمن القرآن الكريم تعبير «وبال الأمر» مقترنا بالذوق. والوبال: الشِّدة والثِّقَل والمكروه. (ابن منظور، ج11 ص720) بمعنى: ذوق أو تذوق عاقبة الأمر المفعول.

قال تعالى في الآية 95 من سورة المائدة: «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله

عزيز ذو انتقام»؛ وفي الآية 15 من سورة الحشر: «كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم»؛ والآية الخامسة من سورة التغابن: «ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم»؛ والآية التاسعة من سورة الطلاق: «فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا».

وفي سياق معنى «وبال الأمر»، قال تعالى في الآية 41 من سورة الروم: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون». يفسر الزمخشري قوله تعالى ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ قائلا: «أما على التفسير الأول فظاهر، وهو أن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم عليه. وأما على الثاني فاللام مجاز، على معنى أن ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع، فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشوّ المعاصي في الأرض لأجل ذلك». (ت. ز، ج3 ص467)

وورد في سورة الأنعام أن الناس يذيقون بعضهم بعضا البأس عندما يتقاتلون ويتناحرون، إذ قال تعالى في الآية 65: «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون». وجاء في تفسير قوله تعالى ﴿أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾: «أي يجعلكم فرقا متحزبين يقاتل بعضكم بعضا قال البيضاوي: أي يخلطكم فرقا متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم* وقال ابن عباس: أي يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقا**، والكل متقارب والغرض منه الوعيد». (*البيضاوي/ص173؛ ** زاد المسير 59/3 ؛ت. ص، ج1 ص397).

وأورد الطبري حديثا قال فيه: «حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال،

حدثني حجاج، عن أبي بكر، عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية، قوله: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾، قال الحسن: ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يشهده عليهم: ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ، فسأل ربه ألا يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ولا يلبس أمته شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض كما أذاق بني إسرائيل، فهبط إليه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إنك سألت ربك أربعا فأعطاك اثنتين ومنعك اثنتين: لن يأتيهم عذاب من فوقهم ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم، فإنهما عذابان لكل أمة اجتمعت على تكذيب نبيها وردّ كتاب ربها ولكنهم يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض، وهذان عذابان لأهل الإقرار بالكتاب والتصديق بالأنبياء، ولكن يعذبون بذنوبهم..». (ت. ط، ج5 ص65)

وقال تعالى في الآية 148 من سورة الأنعام: «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون». والمقصود من قوله تعالى ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾: «حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم». (ت. ز، ج2 ص74)

وورد تعبير «إذاقة الرحمة» بمعنى الإنعام. أي إن الإنسان عندما تحل به رحمة ربه وتتجسد في شكل خيرات ونِعَم، يستمتع بتذوقها حقيقة إذا كانت مما يُشرب ويؤكل، أو مجازا إذا كانت في صيغة أخرى (كالصحة والمال).

قال تعالى في الآية 21 من سورة يونس: «وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون»؛ وفي الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة هود: «ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء

مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور»؛ وقال تعالى في الآيات 33 و36 و46 من سورة الروم: «وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون»، «وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون»، «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»؛ وفي الآية 50 من سورة فصلت: «ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ»؛ والآية 48 من سورة الشورى: «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور».

يقول الإمام الرازي في تفسير الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة هود:

«لفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم، فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران. فالدنيا في نفسها قليلة، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل، والإذاقة من ذلك المقدار خير قليل. ثم إنه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين، فهذه الإذاقة قليل من قليل، ومع ذلك فإن الإنسان لا طاقة له بتحملها ولا صبر له على الإتيان بالطريق الحسن معها». (ت. ر.ج17 م9ص199)

المبحث الثالث

الشـــــراب

ترتبط حاستا الشم والذوق بالشرب باعتباره من أهم السلوكات البيولوجية التي تؤمّن استمرارية الحياة. فبحكم حاجة الجسم الملحة للسوائل – وعلى رأسها الماء الذي يشكل أكثر من ثلاثة أرباع جسم الإنسان – يلجأ الإنسان إلى الشرب عدة مرات في اليوم. وحتى لا يتناول المرء ما يضر بصحته ويؤدي به إلى التهلكة، يختبر المشروبات من رائحتها ولونها ثم يقدم على تذوقها ليتخذ القرار النهائي بشرب ما يسد رمقه ويؤدي به إلى الارتواء.

من هذا المنطلق، يتبين أن الحديث عن الشرب والشراب، يندرج في صميم التواصل عبر حاستي الشم والذوق، خاصة عندما لا يقتصر الهدف من الشرب على تزويد الجسم بما يحتاجه من السوائل والقضاء على العطش، بل يتعداه إلى الاستمتاع بالمشروبات التي تحتوي على قدر كبير من اللذة في طعمها، والمشروبات التي تنشط الدماغ أو تخدره أو تؤدي إلى الانتشاء أو تهدئة الأعصاب.

لقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى عملية الشرب

كضرورة حياتية إذا افتقدها الإنسان يكون مصيره الموت، خاصة الماء مصداقا لقوله تعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[الأنبياء:30]. وتشير آيات أخرى إلى الشرب كوسيلة عقابية لأصحاب النار عندما يضطرون إلى شرب ما يضر ولا يُستساغ طعمه ورائحته ويصعب ابتلاعه لارتفاع درجة حرارته. كما أن الشرب هو من أبرز وسائل الاستمتاع عند أصحاب الجنة التي ينتفي فيها الإحساس بالجوع والعطش ليقتصر الهدف من الشرب على التمتع بالنِّعَم التي وعد الله بها عباده الصالحين.

ورد ذكر أهمية الشرب بصفة عامة، وشرب الماء بصفة خاصة، كشرط من أهم شروط الحياة، في الآية 187 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾. وقال تعالى في الآيتين 31 و160 من سورة الأعراف: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾، ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم﴾؛ وفي الآية الرابعة من سورة الرعد: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد﴾؛ والآية 22 من سورة الحجر: «وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين»؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة النحل: «هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون»؛ وفي الآية 26 من سورة مريم: ﴿فكلي واشربي وقري عينا﴾؛ وقال تعالى في الآية 79 و155 من سورة الشعراء: «والذي هو يطعمني ويسقين»، «قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم»؛ وفي الآيتين 48 و49 من سورة الفرقان: «وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً. لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا»؛ والآية 42 من سورة ص: «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب»؛ والآية 28 من سورة القمر: «ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر».

وفي الآية 249 من سورة البقرة ذكر لأهمية شرب الماء لحياة الإنسان، ومدى قدرته على تحمل العطش. ذلك أن النقص الحاد في الماء داخل الجسم يؤدي إلى تدهور في الصحة. قال تعالى: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾.

جاء في تفسير الفخر الرازي لقوله تعالى ﴿فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني﴾:

«قال أهل اللغة ﴿لم يطعمه﴾ أي لم يذقه، وهو من الطعم، وهو يقع على الطعام والشراب هذا ما قاله أهل اللغة، وعندي إنما اختير هذا اللفظ لوجهين من الفائدة (أحدهما) أن الإنسان إذا عطش جدا، ثم شرب الماء وأراد وصف ذلك الماء بالطيب واللذة قال: إن هذا الماء كأنه الجلاب، وكأنه عسل فيصفه بالطعوم اللذيذة، فقوله ﴿ومن لم يطعمه﴾ معناه أنه وإن بلغ به العطش إلى حيث يكون ذلك الماء في فمه كالموصوف بهذه الطعوم الطيبة فإنه يجب عليه الاحتراز عنه، وألا يشربه (والثاني) أن من جعل الماء في فمه وتمضمض به ثم أخرجه من الفم، فإنه يصدق عليه أنه ذاقه وطعمه، ولا يصدق عليه أنه شربه، فلو قال: ومن لم يشربه فإنه مني كان المنع مقصورا على الشرب، أما لما قال ﴿ومن لم يطعمه﴾ كان المنع حاصلا في الشرب، وفي المضمضة، ومعلوم أن هذا التكليف أشق، وأن الممنوع من شرب الماء إذا تمضمض به وجد نوع خفة وراحة». (ت. ر.ج6 م3 ص196)

ويضيف موضحا الحكمة من منع شرب الماء، قائلا: «قد ذكرنا أن المقصود من هذا الابتلاء أن يتميز الصديق عن الزنديق، والموافق عن المخالف، فلما ذكر الله تعالى أن الذين يكونون أهلا لهذا القتال هم الذين لا يشربون من هذا النهر، وأن كل من شرب منه فإنه لا يكون مأذونا في هذا القتال، وكان في قلبهم نفرة شديدة

عن ذلك القتال، لا جرم أقدموا على الشرب، فتميز الموافق عن المخالف، والصديق عن العدو، ويروى أن أصحاب طالوت لما هجموا على النهر بعد عطش شديد، وقع أكثرهم في النهر، وأكثروا الشرب، وأطاع قوم قليل منهم أمر الله تعالى، فلم يزيدوا على الاغتراف، وأما الذين شربوا وخالفوا أمر الله فاسودت شفاههم وغلبهم العطش ولم يرووا، وبقوا على شط النهر، وجبنوا عن لقاء العدو، وأما الذين أطاعوا أمر الله تعالى، فقوي قلبهم وصح إيمانهم، وعبروا النهر سالمين.. القليل الذي لم يشرب قيل: إنه أربعة آلاف، والمشهور وهو قول الحسن أنهم كانوا على عدد أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر وهم المؤمنون، والدليل عليه أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: أنتم اليوم على عدة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاز معه إلا مؤمن، قال البراء بن عازب: وكنا يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا». (ت. ر.ج6 م3 ص197-198)

ويعتبر الشرب من بين الوسائل التعذيبية في الحياة الآخرة لأصحاب النار، الذين وُعدوا بشرب الحميم. والحميم هو: «الماء الشديد الحرارة، ومنه الحَمة - بفتح الحاء - العين الجارية بالماء الحارّ الذي يستشفى به من أوجاع الأعضاء والدمل. وفي الحديث: «مَثَل العالم مثل الحَمَّة يأتيها البعداء ويتركها القرباء». وخصّ الشراب من الحميم من بين بقية أنواع العذاب المذكور من بعد للإشارة إلى أنهم يعطشون فلا يشربون إلا ماء يزيدهم حرارة على حرارة العطش». (ت. ع.ج6ص160)

وبالإضافة إلى الحميم، هناك الماء الصديد أي ما يسيل من أجساد أهل النار؛ والماء الذي يشبه المهل أي كعكر الزيت أو المعادن المنصهرة؛ والغساق وهو شكل من أشكال الصديد الذي يسيل من الأجساد.

قال تعالى في الآية 70 من سورة الأنعام: ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾؛ وفي الآية الرابعة من سورة

القيامة. إذ قال تعالى في الآية 29 من سورة الكهف: ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها﴾؛ وفي الآية 49 من سورة التوبة والآية 54 من سورة العنكبوت: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾.

أما الإحاطة في شقها الإيجابي فقد تمت الإشارة إليها في لفظة (الحفّ)، في الآية 32 من سورة الكهف، إذ قال تعالى: ﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل﴾.

وقد وردت الإحاطة بمعنى العذاب والهلاك بصفة عامة في قوله تعالى في الآية 81 من سورة البقرة: «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»؛ وقال تعالى في الآية 22 من سورة يونس: ﴿وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم﴾؛ وفي الآية 84 من سورة هود: ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾.

واقترنت الإحاطة بمفهومها الحقيقي والمجازي بالله سبحانه وتعالى. فـ «المحيط» هو أحد أسماء الله الحسنى. قال تعالى في الآية 19 من سورة البقرة: ﴿والله محيط بالكافرين﴾ يتساءل الإمام الرازي: «ما إحاطة الله بالكافرين. الجواب: إنه مجاز المعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به حقيقة ثم فيه ثلاثة أقوال. أحدها أنه عالم بهم قال تعالى ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ وثانيها: قدرته مستولية عليهم ﴿والله من ورائهم محيط﴾ وثالثها: يهلكهم من قوله تعالى ﴿إلا أن يحاط بكم﴾». (ت. ر.ج2 م1 ص89)

وقال تعالى في الآية 60 من سورة الإسراء: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾؛ وقال تعالى في الآية 21 من سورة الفتح: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾؛ وفي الآية 28 من سورة الجن: «ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا»؛ وقال تعالى في الآيتين 19 و20 من سورة البروج: «بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط».

ونستشف مفهوم الإقليمية - كما عرّفناها سابقا - في الآيات التالية:

قال تعالى في الآية 23 من سورة يوسف: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب﴾ فتغليق الأبواب شكل حصارا لسيدنا يوسف وجعل المكان الذي وُجِدا فيه محصورا؛ وفي الآية الثامنة من سورة الإسراء: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾ ويشبه قوله تعالى ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، وفي الآية 13 من سورة الإسراء: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ أي، كما قال الصابوني: «إن الإنسان مرهون بعمله مجزيّ به، وعمله ملازم له لزوم القلادة للعنق لا ينفك عنه أبدا». (ت. ص، ج2ص154)؛ وقال تعالى في الآية 29 من سورة الشعراء: «قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين» فالسجن تجسيد للإقليمية والحد من الحرية والقدرة على التحرك ضمن مساحة إقليمية كانت متاحة من قبل؛ وفي الآية 177 من سورة الصافات: «فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين»؛ والآية 21 من سورة ص: «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب»؛ وقال تعالى في الآية 75 من سورة الواقعة: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾. ومواقع النجوم هي مداراتها التي لا تحيد عنها ولا تقتحمها الأجرام السماوية الأخرى، إلا بإذن الخالق عز وجل؛ وقال تعالى في الآية 11 من سورة المجادلة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾؛ وفي الآية 15 من سورة الملك: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها﴾؛ والآية 20 من سورة نوح: ﴿لتسلكوا منها سبلا فجاجا﴾؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة المرسلات: «وإذا السماء فرجت»؛ وفي الآية 19 من سورة النبأ: ﴿وفتحت السماء فكانت أبوابا﴾؛ وقال تعالى في الآية 32 من سورة النبأ: «حدائق وأعنابا».

من بين أبرز المفاهيم المرتبطة، مجازا، بمفهوم الإقليمية، نجد مفهوم «ضيق الصدر» الذي ورد في بعض الآيات القرآنية. فضيق الصدر يتمثل في

الإحساس بالمساحات، إحساسا مقزما، أما الأفراد فيتم الإحساس بهم باعتبارهم مسببين للإزعاع. فالشخص الذي يضيق ذرعا بالآخرين، يسعى لإبعادهم عنه، وكأنهم يخترقون إقليميته ويحدون من حركته.

قال تعالى في الآية 125 من سورة الأنعام: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء﴾؛ وفي الآيتين 12 و77 من سورة هود: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾، ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا﴾؛ وقال تعالى في الآية 97 من سورة الحجر: «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون»؛ وفي الآية 127 من سورة النحل:﴿ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾؛ والآية 13 من سورة الشعراء: ﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾؛ وقال تعالى في الآية 70 من سورة النمل: «ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون؛ وفي الآية 33 من سورة العنكبوت: ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا﴾.

المبحث الرابع

الفصل بين الأماكن والأفراد

إن الفصل بين الأماكن والأفراد، سواء في الحقيقة أو المجاز، هو إحدى سمات الاتصال المسافي، إذ يهدف الفصل إلى إضفاء معنى البُعْد على العلاقة أو الموقف. فعندما ينفصل شخصان عن بعضهما أو يتم الفصل بين شخص وشيء أو بين مكانين أو أكثر، فذلك يعني الابتعاد لمسافة تكفي لتغيير طبيعة العلاقة من الارتباط إلى الانفصال أو القطيعة. كما يمكن التعبير عن تلك القطيعة بوضع فاصل أو جدار أو حجاب ملموس (وإن كان رفيعا)، أو بوضع فاصل أو جدار نفسي غير ملموس ولكنه يؤدي إلى نتائج ملموسة.

بالإضافة إلى التعبير عن القطيعة أو الانفصال، فإن الفصل بين الأماكن والأفراد قد يهدف - على الصعيد التواصلي - إلى التمييز بين الأشياء والأفراد. فالجُدُر التي تفصل بين المنازل أو بين الحجرات داخل كل منزل، تهدف إلى التمييز وتبيان حدود المِلْكية. كما أن تقسيم الأفراد إلى فرق ومجموعات يهدف إلى تمييز كل فرقة أو مجموعة عن غيرها.

أما على الصعيد النفسي، فإن الفرد قد يستعصم تجاه كل ما يؤدي به إلى الانحراف أو الخطر. فالعصمة تعني وضع سياج نفسي من القيم والمعتقدات والسلوك التي تحمي الإنسان من المؤثرات الداخلية التي تدفع صاحبها للانحراف (والشيطان محركها الرئيس)، والمؤثرات الخارجية القادمة من ثقافات مناهضة للثقافة السائدة. وقد يلجأ الفرد للكتمان وترك الأمور في السر، كشكل من أشكال الفصل بين ما يعرفه (الحقيقة) والعالم الخارجي، تفاديا للعواقب التي قد تنتج عن العلانية.

لقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى مختلف المفاهيم والمصطلحات المرتبطة بالفصل، مما يغني نظرتنا إلى التواصل عبر المسافة الحقيقية والمجازية.

1 - التفريق والفصل

ورد ذكر التفريق والفصل بين الأفراد والأماكن، والتفريق بين الأفراد - أي جعلهم فرقا - والانفصال بين شخصين رفيقين.. وذلك بالابتعاد أو التباعد الذي يمكن قياسه بالمسافة الطولية. ورد ذلك في سور البقرة والمائدة والكهف.

قال تعالى في الآيات 50 و100 و102 و249 من سورة البقرة: «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون»، «أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون»، ﴿يفرقون به بين المرء وزوجه﴾، ﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾.

وقال تعالى في الآية 25 من سورة المائدة: «قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين»؛ وفي الآية 78 من سورة الكهف: ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾.

وورد معنى الفصل والتفريق بين الناس والأماكن من قبل أناس آخرين، في الآية الثانية من سورة المائدة حيث أشير إليه بالصد، إذ قال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾.

قال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿أن صدوكم﴾: «اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك. فقرأه بعض أهل المدينة وعامة قرأة الكوفيين: ﴿أن صدوكم﴾ بفتح «الألف» من «أن» بمعنى: لا يجرمنكم بغض قوم بصدهم إياكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وكان بعض قرأة الحجاز والبصرة يقرأ ذلك: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم إن صدوكم﴾، بكسر «الألف» من «إن»، بمعنى: ولا يجرمنكم شنآن قوم إن هم أحدثوا لكم صدا عن المسجد الحرام أن تعتدوا...

والصواب من القول في ذلك عندي، أنهما قراءتان معروفتان مشهورتان في قراءة الأمصار، صحيح معنى كل واحدة منهما. وذلك أن النبي ﷺ صُدَّ عن البيت هو وأصحابه يوم الحديبية، وأنزلت عليه «سورة المائدة» بعد ذلك، فمن قرأ ﴿أن صدوكم﴾ بفتح «الألف» من «أن»، فمعناه: لا يحملنكم بغض قوم، أيها الناس، من أجل أن صدوكم يوم الحديبية عن المسجد الحرام، أن تعتدوا عليهم.

ومن قرأ: ﴿إن صدوكم﴾ بكسر «الألف»، فمعناه: لا يجرمنكم شنآن قوم إن صدوكم عن المسجد الحرام إذا أردتم دخوله. لأن الذين حاربوا رسول الله ﷺ وأصحابه من قريش يوم فتح مكة، قد حاولوا صدهم عن المسجد الحرام، قبل أن يكون ذلك من الصادين.

غير أن الأمر، وإن كان كما وصفت، فإن قراءة ذلك بفتح «الألف»، أبين معنى. لأن هذه السورة لا تَدَافُعَ بين أهل العلم في أنها نزلت بعد يوم الحديبية. وإذ كان ذلك كذلك، فالصد قد كان تقدم من المشركين، فنهى الله المؤمنين عن الاعتداء على الصادين من أجل صدهم إياهم عن المسجد

الحرام». (ت. ط، ج6 م4 ص ص404-405)

وقال تعالى في الآية 52 من سورة الكهف: «ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا». وفُسِّر قوله تعالى ﴿وجعلنا بينهم موبقا﴾: «أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكة لا يجتازها هؤلاء وهي النار». (ص. ت، ج2 ص195)؛ وقال تعالى في الآية 54 من سورة سبأ: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾؛ وفي الآية 158 من سورة الصافات: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾.

2 - الإحصار والعزل

قال الإمام الزمخشري في الإحصار: «يقال: أُحصر فلان، إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز. قال الله تعالى ﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾. وقال توبة بن حمير:

وما هجرُ ليلى أنْ تكون تباعدت ... عليك ولا أن أحْصَرَتْكَ شَغُولُ

وحُصر: إذا حبسه عدو عن المضي، أو سجن. ومنه قيل للحبس: الحصير. وللملك، الحصير، لأنه محجوب. هذا هو الأكثر في كلامهم، وهما بمعنى المنع في كل شيء، مثل صدّه وأصدّه. وكذلك قال الفراء وأبو عمرو الشيباني، وعليه قول أبي حنيفة رحمهم الله تعالى، كل منع عنده من عدو كان أو مرض أو غيرهما معتبر في إثبات حكم الإحصار». (ت. ز، ج1 ص237)

أما العزل، فقد أورد ابن منظور في «لسان العرب» تحت مادة «عزل»: «عَزَل الشيء يعزله عزْلا وعزّله فاعتزل وانعزل وتَعَزّل: نحاه جانبا فتنحى. وقوله تعالى: إنهم عن السمع لمعزولون؛ معناه أنهم لما رُمُوا بالنجوم مُنِعوا من السمع. واعتزل الشيء وتعزّله، ويتعديان بعَنْ: تنحى عنه.. وتعازل القوم:

انعزل بعضهم عن بعض. والعزلة: الانعزال نفسه، يقال: العزلة عبادة. وكنت بمعزل عن كذا وكذا أي كنت بموضع عزلة منه. واعتزلت القوم أي فارقتهم وتنحيت عنهم..». (ابن منظور، ج11 ص440)

لقد ورد ذكر الإحصار في الآيتين 196 و273 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾، ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض﴾؛ وقال تعالى في الآية 39 من سورة آل عمران: «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين». (حصورا: لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهن تعففا وزهدا) (مخلوف، 1956، ص37)؛ وفي الآية 90 من سورة النساء: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة التوبة: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم﴾؛ وفي الآية الثامنة من سورة الإسراء: «عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا».

وورد ذكر العزل في الآية 222 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾؛ وقال تعالى في الآية 91 من سورة النساء: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾؛ وفي الآية 42 من سورة هود: ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل﴾؛ والآية 16 من سورة الكهف: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 48 و49 من سورة مريم: «وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى الا أكون بدعاء ربي شقيا. فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون

الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا»؛ وفي الآية 212 من سورة الشعراء: «إنهم عن السمع لمعزولون»؛ والآية 51 من سورة الأحزاب: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾؛ والآية 21 من سورة الدخان: «وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون».

3 - الحجاب

الحجاب، في اللغة: الستر. «حجب الشيء يحجُبُه حجْبا وحِجابا وحَجّبَه: ستره. وقد احتجب وتحجّب إذا اكتنّ من وراء حجاب. وامرأة محجوبة: قد سُتِرَت بستر.. والحاجب: البواب، صفة غالبة، وجمعه حَجَبة وحُجّاب.. وحجبه: أي منعه من الدخول.. والحجاب: اسم ما احْتُجِب به، وكل ما حال بين شيئين: حِجاب، والجمع حُجُب لا غير. وقوله تعالى: ومن بيننا وبينك حِجاب، معناه: ومن بيننا وبينك حاجز في النِحْلَة والدين.. واحتجب المَلِك عن الناس، ومَلِك مُحَجَّب.. وكل شيء منع شيئا، فقد حجبه.. ». (ابن منظور، ج1 ص298)

قال تعالى في الآية 46 من سورة الأعراف: ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾؛ وفي الآية 45 من سورة الإسراء: «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا»؛ والآية 17 من سورة مريم: ﴿فاتخذت من دونهم حجابا﴾؛ وقال تعالى في الآية 53 من سورة الأحزاب: ﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾؛ وفي الآية 32 من سورة ص: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب»؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة فصلت: «وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون»؛ وفي الآية 51 من سورة الشورى: «وما كان لبشر

أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم»؛ والآية 15 من سورة المطففين: «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون».

4 - السد والجدار

ومن بين المصطلحات التي تعبر عن الفصل بين الأماكن والأشياء، تضمن القرآن الكريم ذكر «السد» الذي يفصل بين الأمكنة الشاسعة أو بين الأفراد، و«الجدار» الذي قد يفصل بين الأمكنة الشاسعة أو المنازل أو بين الحجرات داخل المنزل.

قال تعالى في الآيات 94 و95 و96 من سورة الكهف: «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا. قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما. آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا»؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة يس: «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 77 و82 من سورة الكهف: ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه﴾، ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما﴾؛ وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة الحجرات: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون»؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة الحشر: ﴿لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾.

5 - الطــــلاق

الطلاق في الشرع هو طلاق المرأة: أي بينونتها عن زوجها بحلّ عقدة النكاح. وهو يفيد التخلية والإرسال والابتعاد. وبالإضافة إلى تطليق النساء، فإن الطلاق في اللغة يعني المفارقة والابتعاد في أشياء أخرى. فقد ورد في «لسان العرب»: «طلّقت البلاد: فارقتها. وطلّقت القوم: تركتهم.. الطالق من الإبل: التي طُلِقت في المرعى، وقيل هي التي لا قيد عليها.. ويقال للإنسان إذا عتق طليق أي صار حرّا». (ابن منظور، ج10ص226) وقد ورد الطلاق في سور البقرة والأحزاب والطلاق والتحريم.

تضمنت سورة البقرة تسع آيات ورد فيها ذكر الطلاق. قال تعالى في الآيات 227 و228 و229 و230 و231 و232 و233: «وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم» ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾، وفي الآية 236: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، والآية 241: «وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين».

وقال تعالى في الآية 49 من سورة الأحزاب: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا

نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾؛ وقال تعالى في الآيات الأولى والثانية والسادسة من سورة الطلاق: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ ﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾، «أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى»؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة التحريم: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا».

6 - العصمة والاعتصام

العصمة والاعتصام كلمتان تدلان على الحماية والاحتماء مما قد يشكل خطرا. فالعصمة غالبا ما تكون بالاقتراب من العاصم للاحتماء به، وفي الوقت نفسه الابتعاد عن مصدر الخطر. وبينما يتمثل الجهد الأكبر عند العاصم في إبعاد مصدر الخطر عن المعصوم؛ يتطلب الاعتصام ممن تعرض للخطر، أن يسعى جاهدا للابتعاد عن مصدر الخطر. والعصمة في لغة العرب تعني: «المنع. وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عَصَمه يَعْصِمُه عَصْما: منعه ووقاه.. والعصمة الحفظ.. والعاصم: المانع الحامي. والاعتصام: الامتساك بالشيء.. وأَعْصَمَ الرجل بصاحبه إعْصاما إذا لزمه..». (ابن منظور، ج12 ص ص403-406)

قال تعالى في الآيتين 101 و103 من سورة آل عمران: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾، ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾؛ وفي الآيتين 146 و175 من سورة النساء: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا

واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين﴾، ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه﴾؛ وقال تعالى في الآية 67 من سورة المائدة: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾؛ وفي الآية 27 من سورة يونس: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم﴾؛ والآية 43 من سورة هود: ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾.

وقال تعالى في الآية 32 من سورة يوسف: ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾؛ وفي الآية 78 من سورة الحج: ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم﴾؛ والآية 17 من سورة الأحزاب: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة﴾؛ والآية 33 من سورة غافر: «يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد».

وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة الممتحنة: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾. وقد فُسِّر قوله تعالى ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾: «أي ولا تتمسكوا بعقود زوجاتكم الكافرات، فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة زوجية. قال القرطبي: المراد بالعصمة هنا النكاح، يقول: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فليست امرأته، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين». (ت. ص، ج3 ص365)

7 - الإسرار والعلانية

إن إبقاء السلوكات والمعلومات طي السر والكتمان، أو إظهارها علانية، يقترب في بعض جوانبه، من التواصل المسافي. فاللجوء إلى السر، يشبه

تقريب الأشياء والمعارف، قصد إخفائها. فالشخص الذي يخفي أشياء تحت ملابسه أو داخل جيوبه، أو يخفيها داخل حجرته أو منزله، يستغل مفهوم الإقليمية - الذي تحدثنا عنه في المبحث السابق - لكي يحتفظ بتلك الأشياء في السر؛ وكذا يفعل من يخبئ المعرفة في رأسه ولا يبوح بها للآخرين. أما العلانية، فتعني إظهار الأشياء والمعارف وجعلها في متناول المتلقين.

لقد ورد مفهوما الإسرار والعلانية في الآيتين 77 و274 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون»، ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 120 من سورة الأنعام: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾؛ وفي الآية الخامسة من سورة هود: ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾؛ والآية 22 من سورة الرعد: ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾؛ وقال تعالى في الآية 31 و38 من سورة إبراهيم: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية﴾، ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء﴾.

وقال تعالى في الآيات 19 و23 و75 من سورة النحل: «والله يعلم ما تسرون وما تعلنون»، ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾، ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا﴾؛ وفي الآيتين 25 و74 من سورة النمل: «ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون»، «وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون»؛ وقال تعالى في الآية 69 من سورة القصص: «وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون»؛ وفي الآية 20 من سورة لقمان: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ

عليكم نعـمـه ظاهرة وباطنة﴾؛ والآية 29 من سـورة فـاطـر: «إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور»؛ وقال تعالى في الآية 76 من سورة يس: «فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون»؛ وفي الآية الأولى من سورة الممتحنة: ﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾؛ والآية الرابعة من سورة التغابن: «يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور».

المبحث الخامس

الاتجاهات والتموضع

يعرف الإنسان، من خلال خبرته العامة، الاتجاهات الستة، وهي: الشمال والجنوب والشرق والغرب والأعلى والأسفل. وإذا لم يأخذ بالاتجاهات الجغرافية الأربعة، يمكنه الاعتماد على جسمه لتحديد اتجاهات ومواقع الأشياء والأفراد المحيطين به، انطلاقا من: اليمين والشمال (اليسار) والأمام والخلف والأعلى والأسفل (أو فوق وتحت). أما التموضع فيشار إليه غالبا، بوضع الأفراد والأشياء مكان ما في الوسط أو في أحد الأطراف.. في الواجهة أو في الخلف..

إلا أن خبرة الإنسان العامة بالاتجاهات والتموضع تظل نسبية، وقابلة لاحتمالات معاكسة، عند النظر إلى الأمور على المستوى الكوكبي أو الكوني. فما يمكن اعتباره يقع في الأعلى، قد يبدو للآخرين يقع في الأسفل. وبما أن الكوكب الذي نعيش فيه ذا شكل كروي، وكذا الكون الذي يضمنا، فضلا عن الحركة الدائمة التي تعرفها الأجرام الكونية، فإن الاتجاهات لا يمكن إدراكها

كثوابت. ففي كوكبنا الأرض، كل من عليها، يمكن أن يقع في الشرق وفي الغرب في آن معا، مقارنة بما يجاوره، كما يمكن أن يقع في الأعلى وفي الأسفل بحكم الحركة الدائرية للكرة الأرضية. وإذا كانت السماء بنجومها تبدو فوقنا، فهي كذلك تحتنا أي تحت الموقع الذي نقف عليه، ولكن في الطرف الآخر من الكرة الأرضية. وبصفة عامة يمكن القول إن الاتجاهات والتموضعات تقوم بدور هام في التواصل المسافي على سطح كوكبنا الأرض وفي علاقتنا ومعرفتنا بالأجرام السماوية في الفضاء. كما أن بعض الاتجاهات والمواضع ذات دلالة تفضيلية أضفيت عليها من قبل الحضارات والثقافات المتعاقبة والأديان.

وقد حفل القرآن الكريم بالإشارة إلى مختلف الاتجاهات وبعض التموضعات، مع تفضيل واهتمام خاص بجهتي المشرق والمغرب، وتفضيل لكل ما هو أعلى مقارنة بكل ما هو أسفل، وتفضيل لليمين على الشمال.

1 - المشرق والمغرب

ورد ذكر المشرق والمغرب بدءا من الآية 115 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب فأين ما تولوا فثم وجه الله﴾. وقد جاء في تفسير الرازي لهذه الآية:

«الآية من أقوى الدلائل على نفي التجسيم وإثبات التنزيه، وبيانه من وجهين (الأول) أنه تعالى قال ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ فبين أن هاتين الجهتين مملوكتان له وإنما كان كذلك لأن الجهة أمر ممتد في الوهم طولا وعرضا وعمقا وكل ما كان كذلك فهو منقسم، وكل منقسم فهو مؤلف مركب، وكل ما كان كذلك فلابد له من خالق موجد، وهذه الدلالة عامة في الجهات كلها،

أعني الفوق والتحت، فثبت بهذا أنه تعالى خالق الجهات كلها، والخالق متقدم على المخلوق لا محالة، فقد كان الباري تعالى قبل خلق العالم منزها عن الجهات والأحياز، فوجب أن يبقى بعد خلق العالم كذلك لا محالة لاستحالة انقلاب الحقائق والماهيات (الوجه الثاني) أنه تعالى قال ﴿فأين ما تولوا فثم وجه الله﴾ ولو كان الله تعالى جسما وله وجه جسماني لكان وجهه مختصا بجانب معين وجهة معينة فما كان يصدق قوله ﴿فأين ما تولوا فثم وجه الله﴾ فلما نص الله تعالى على ذلك علمنا أنه تعالى منزه عن الجسمية.. ». (ت. ر. ج4 م2 ص24)

وأضاف ابن عاشور في تبيان معنى المشرق والمغرب، قائلا: «المراد من ﴿المشرق والمغرب﴾ في الآية تعميم جهات الأرض لأنها تتقسم بالنسبة إلى مسير الشمس قسمين قسم يبتدئ من حيث تطلع الشمس وقسم ينتهي من حيث تغرب وهو تقسيم اعتباري كان مشهورا عند المتقدمين لأنه المبني على المشاهدة مناسب لجميع الناس والتقسيم الذاتي للأرض هو تقسيمها إلى شمالي وجنوبي لأنه تقسيم ينبني على اختلاف آثار الحركة الأرضية». (ت. ع، ج1 ص664)

كما ورد ذكر المشرق والمغرب في الآيات 142 و177 و258 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾، ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾، ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾.

وقال تعالى في الآية 137 من سورة الأعراف: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾؛ وفي الآية 17 من سورة الكهف: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾؛ والآية 16 من سورة مريم: «واذكر في الكتاب

مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا»؛ والآية 35 من سورة النور:﴿«الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 28 و60 من سورة الشعراء: «قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون»، «فأتبعوهم مشرقين»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الصافات: «رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق»؛ والآية 38 من سورة الزخرف: «حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين»؛ وقال تعالى في الآية 17 من سورة الرحمن: «رب المشرقين ورب المغربين»؛ وفي الآية 40 من سورة المعارج: «فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون»؛ والآية التاسعة من سورة المزمل: «رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا».

2 - التحت

ورد ذكر جهة «التحت» في كثير من الآيات القرآنية مرتبطا بأنهار الجنة. إذ نجد عبارة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وما شابهها في 40 آية. وقد فسر الإمام الطبري جهة التحت، قائلا:

«الجنات: جمع جنة، والجنة: البستان. وإنما عنى جلّ ذكره بذكر الجنة: ما في الجنة من أشجارها وثمارها وغروسها، دون أرضها - ولذلك قال عز ذكره: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾. لأنه معلوم أنه إنما أراد جل ثناؤه الخبرَ عن ماء أنهارها أنه جارٍ تحت أشجارها وغروسها وثمارها، لا أنه جارٍ تحت أرضها. لأن الماء إذا كان جاريا تحت الأرض، فلاحظ فيها لعيون مَنْ فوقها إلا بكشف الساتر بينها وبينه. على أن الذي تُوصف به أنهار الجنة، أنها جارية في غير أخاديد..

فإذا كان الأمر كذلك، في أن أنهارها جارية في غير أخاديد، فلا شك أن الذي أريد بالجنات: أشجار الجنات وغروسها وثمارها دون أرضها، إذ كانت أنهارُها تجري فوق أرضها وتحت غروسها وأشجارها، على ما ذكره مسروق. وذلك أولى بصفة الجنة من أن تكون أنهارها جارية تحت أرضها». (ت. ط، ج1م1ص ص205-206).

ويضيف ابن عاشور في توضيح المقصود بالتحت، قائلا: «وقوله: ﴿من تحتها﴾ يظهر أنه قيد كاشف قصد منه زيادة إحضار حالة جري الأنهار إذ الأنهار لا تكون في بعض الأحوال تجري من فوق فهذا الوصف جيء به لتصوير الحالة للسامع لقصد الترغيب وهذا من مقاصد البلغاء إذ ليس البليغ يقتصر على مجرد الإفهام..

والتحت اسم لجهة المكان الأسفل وهو ضد الأعلى، ولكل مكان علوٌّ وسفلٌ ولا يقتضي ذلك ارتفاع ما أضيف إليه التحت على التحت بل غاية مدلوله أنه بجهة سفله قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ فلا حاجة إلى تأويل الجنة هنا بالأشجار لتصحيح التحت ولا إلى غيره من التكلفات». (ت. ع، ج1 ص350)

قال تعالى في الآيتين 25 و266 من سورة البقرة: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار﴾؛ وورد ذكر جهة «التحت» في الآيات 15 و136 و195 و198 من سورة آل عمران؛ وفي الآيات 13 و57 و122 من سورة النساء؛ وفي الآيات 6 و12 و66 و85 و119 من سورة المائدة»؛ والآية 43 من سورة الأعراف؛ وفي الآيات 72 و89 و100 من سورة التوبة؛ والآية التاسعة من سورة يونس؛ وفي الآية 35 من سورة الرعد؛ والآية 23 من سورة إبراهيم؛ وفي الآية 31 من سورة النحل؛ وفي الآية 31 من سورة

الكهف؛ والآية 76 من سورة طه؛ وفي الآيتين 14 و23 من سورة الحج؛ وفي الآية العاشرة من سورة الفرقان؛ والآية 58 من سورة العنكبوت؛ والآية 20 من سورة الزمر؛ والآية 12 من سورة محمد؛ وفي الآيتين 5 و17 من سورة الفتح؛ وفي الآية 12 من سورة الحديد؛ والآية 22 من سورة المجادلة؛ والآية 12 من سورة الصف؛ وفي الآية التاسعة من سورة التغابن؛ وفي الآية 11 من سورة الطلاق؛ والآية الثامنة من سورة التحريم؛ وفي الآية 11 من سورة البروج؛ والآية الثامنة من سورة البينة.

وقد ورد ذكر جهة «التحت» باعتبارها إحدى الجهات التي تكون مصدرا للعذاب. إذ جاء في القرآن الكريم عبارة (تحت أقدامهم) أو (تحت أرجلهم) للإشارة إلى مصدر العذاب.

قال تعالى في الآية 66 من سورة المائدة: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾؛ وفي الآية 65 من سورة الأنعام: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾؛ والآية 55 من سورة العنكبوت: «يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون».

يقول ابن عاشور في تفسير المراد من التحت في الآية 66 من سورة المائدة: «معنى ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ تعميم جهات الرزق، أي لرزقوا من كل سبيل، فأكلوا بمعنى رزقوا.. وقيل: المراد بالمأكول من فوق ثمار الشجر، ومن تحت الحبوب والمقاثي، فيكون الأكل على حقيقته، أي لاستمر الخصب فيهم». (ت. ع، ج5 ص149) ثم يضيف في تفسيره للآية 65 من سورة الأنعام، موضحا المراد من (فوق) و(تحت): «العذاب الذي من فوق مثل الصواعق والريح، والذي من تحت الأرجل مثل الزلازل والخسف والطوفان». (ت. ع، ج6 ص147)

وقال تعالى في الآية 16 من سورة الزمر: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾. يقول الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾: «المراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب... فإن قيل الظلل ما على الإنسان فكيف سمى ما تحته بالظلل؟ والجواب من وجوه (الأول) أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر.. (الثاني) أن الذي يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات (والثالث) أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة. قال الحسن هم بين طبقتين من النار لا يدرون ما فوقهم أكثر مما تحتهم». (ت. ر. ج26 م13 ص258)

وفي سور الكهف ومريم وطه والفتح ذكر صريح لجهة التحت، إذ قال تعالى في الآية 82 من سورة الكهف: ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما﴾؛ وفي الآية 24 من سورة مريم: «فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا»؛ والآية السادسة من سورة طه: «له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى»؛ والآية 18 من سورة الفتح: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾.

وفي الآية 29 من سورة فصلت، تبيان للبعد التواصلي لجهة التحت، إذ اعتبرت تجسيدا للدونية والاحتقار. قال تعالى: «وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين».

وورد ذكر جهة التحت على سبيل المجاز في الآية العاشرة من سورة التحريم، إذ قال تعالى: «ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين». وقد فصّل ابن عاشور تفسير قوله تعالى ﴿تحت﴾، قائلا:

«التحتية هنا مجاز في معنى الصيانة والعصمة ومنه قول أنس بن مالك في الحديث المروي في «الموطأ» وفي «صحيح البخاري» عن أم حرام بنت ملحان: «وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت». ومن بدائع الأجوبة أن أحد الأمراء من الشيعة سأل أحد علماء السنة: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فأجابه: «الذي كانت ابنته تحتَه» فظن أنه فضل علياً إذ فهم أن الضمير المضاف إليه «ابنَة» ضميرَ رسول الله ﷺ وأن الضمير المضاف إليه (تحت) ضمير اسم الموصول، وإنما أراد السنّي العكس بأن يكون ضمير «ابنته» ضمير الموصول «تحته» ضمير رسول الله ﷺ، وذلك هو أبو بكر». (ت. ع، ج28 ص336)

3 - الفـوق

إن أصل لفظ (فوق) «اسم للمكان المعتلي على غيره فهو اسم مبهم فلذلك كان ملازما للإضافة لأنه تتميز جهته بالاسم الذي يضاف هو إليه فهو من أسماء الجهات الملازمة للإضافة لفظا أو تقديرا ويستعمل مجازا في المتجاوز غيره في صفة تجاوزا ظاهرا تشبيها بظهور الشيء المعتلي على غيره على ما هو معتل عليه، ففوق في مثله يستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة سواء كانت من المحامد أو من المذام يقال: فلان خسيس وفوق الخسيس.. وتقول: أعطى فلان فوق حقه أي زائدا على حقه.. ونظيره قول النبي ﷺ: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة» رواه مسلم، يحتمل أقل من شوكة في الأذى مثل نَخْبة النملة كما جاء في حديث آخر، أو ما هو أشد من الشوكة مثل الوخز بسكين وهذا من تصاريف لفظ فوق في الكلام.. ». (ت. ع، ج1 ص357)

وقد وردت الإشارة إلى جهة الفوق بمدلولها الحقيقي في الآيتين 63 و93 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾،

وفي الآية 212: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾؛ وقال تعالى في الآية 154 من سورة النساء: ﴿رفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ وفي الآية 66 من سورة المائدة: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾؛ والآية 65 من سورة الأنعام: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 41 و171 من سورة الأعراف: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾، ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾؛ وفي الآية 36 من سورة يوسف: ﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه﴾؛ والآية 26 من سورة إبراهيم: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار».

وتشير جهة الفوق المقترنة بجبل الطور في الآيات 63 و93 من سورة البقرة و154 من سورة النساء و171 من سورة الأعراف، إلى الطول والارتفاع، وليس إلى الفوق كما يبدو السقف أو السماء. ذلك أن الجبل أطول من الإنسان، ولكي ينظر هذا الأخير إلى قمته عليه أن يرفع نظره إلى أعلى. فالعلاقة هنا علاقة مقارنة في الطول وليست علاقة تراتب حيث يكون الجبل فوق الإنسان، كما يبدو القمر والنجوم.

وقال تعالى في الآيتين 26 و88 من سورة النحل: ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم﴾، ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب﴾؛ وفي الآيتين 19 من سورة الحج: ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾؛ والآية 17 من سورة المؤمنون: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾؛ وقال تعالى في الآية 40 من سورة النور: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾؛ وفي الآية 55 من سورة العنكبوت:

﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم﴾؛ والآية العاشرة من سورة الأحزاب: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 16 و20 من سورة الزمر: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾، ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة فصلت: ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها ﴾؛ والآية الخامسة من سورة الشورى: ﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن﴾؛ وقال تعالى في الآية 32 من سورة الزخرف: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾؛ وفي الآية 48 من سورة الدخان: «ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم»؛ والآية السادسة من سورة ق: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ﴾؛ وقال تعالى في الآية 19 من سورة الملك: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾؛ وفي الآية 17 من سورة الحاقة: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾؛ والآية 12 من سورة النبأ: «وبنينا فوقكم سبعا شدادا».

وورد ذكر جهة الفوق على سبيل المجاز مقترنا بالمولى عزّ وجل في الآيتين 18 و61 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾؛ وقال تعالى في الآية 50 من سورة النحل: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة الفتح: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾.

وجاء في الآية 127 من سورة الأعراف ذكر الفوقية بمعنى القهر والسلطان، في قوله تعالى في قصة فرعون: «وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون».

ووردت معاني مجازية أخرى للفوقية، كقوله تعالى في الآية 26 من سورة البقرة: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾. فالمراد

بقوله ﴿فما فوقها﴾ أي دونها في الحقارة والصغر؛ وقال تعالى في الآية 55 من سورة آل عمران: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾أي متفوقين عليهم؛ وقال تعالى في الآية 11 من سورة النساء: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ وقوله تعالى ﴿فوق اثنتين) أي أكثر من اثنتين؛ وقال تعالى في الآية 165 من سورة الأنعام: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي «خالف بين أحوالكم في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد». (ت. ص، ج1 ص432)؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة الأنفال: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ فوق الأعناق أي على الأعناق؛ وقال تعالى في الآية 76 من سورة يوسف: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ أي كل ذي علم هناك من هو أعلم منه؛ وقال تعالى في الآية الثانية من سورة الحجرات: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ فرفع الصوت فوق صوت النبي يقتضي زيادة شدته وحدته بحيث يصل إلى مدى أبعد فيطغى على صوت النبي وهذا يسبب تشويشا - بالمعنى التواصلي - ويدل على عدم الاحترام.

4 - الوراء والخلف والظهر

جاء في «لسان العرب» لابن منظور: «وراء بمعنى خلف، وقد يكون بمعنى قُدَّام، وهو من الأضداد». (ابن منظور، ج15ص390) أما الخَلْف فهو «ضد قدّام.. وخَلَفه يَخْلُفه: صار خلفه.. وجلستُ خلف فلان أي بعده. والخلف: الظهر.. والتخلف: التأخر. وفي حديث سعد: فخلّفنا فكنّا آخر الأربع أي أخّرنا ولم يقدّمنا.. ». (ابن منظور، ج9 ص ص82-83)

وقد ورد ذكر الوراء في القرآن الكريم، بمعنى الخلف (عكس قدّام) في سورتي النساء والانشقاق. إذ قال تعالى في الآية 102 من سورة النساء: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 16 و17 من سورة إبراهيم: «من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد. يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ»؛ وفي الآية العاشرة من سورة الجاثية: ﴿من ورائهم جهنم﴾؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة الانشقاق: «وأما من أوتي كتابه وراء ظهره».

وتضمنت بعض الآيات القرآنية ذكر الظهر باعتباره أحد الجهات الموضعية التي توجد لدى كل الكائنات التي تتخذ شكلا مميزا بحيث يمكن تمييز مختلف الأعضاء كالوجه والأطراف والبطن والظهر، في حالة الكائنات الحية، أو الواجهة والظهر، في حالة المنازل، على سبيل المثال.

قال تعالى في الآية 189 من سورة البقرة: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾؛ وفي الآية 31 من سورة الأنعام: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾؛ وقال تعالى في الآية 172 من سورة الأعراف: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾؛ وفي الآية 35 من سورة التوبة: ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾؛ والآية 39 من سورة الأنبياء: «لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون».

وورد الخلف بمعناه المجازي في صيغة (بين يدي وما خلف..) وتستخدم عبارة ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ في القرآن الكريم «كناية عمن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر». (ت. ص، ج1، ص65) وفي لسان العرب: «وقوله تعالى: يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم؛ قال

الزجاج: خلفهم ما قد وقع من أعمالهم وما بين أيديهم من أمر القيامة وجميع ما يكون. وقوله تعالى: وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم؛ ما بين أيديكم ما أسلفتم من ذنوبكم، وما خلفكم ما تستعملونه فيما تستقبلون، وقيل: ما بين أيديكم ما نزل بالأمم قبلكم من العذاب، وما خلفكم عذاب الآخرة». (ابن منظور، ج9ص82)

قال تعالى في الآيتين 66 و255 من سورة البقرة: «فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين»، ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾؛ وورد تعبير (بين اليد والخلف) في الآية 17 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 110 من سورة طه؛ والآية 28 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 9 و45 من سورة يس وفي الآيات 14 و25 و42 من سورة فصلت؛ والآية 21 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 27 من سورة الجن.

تضمنت بعض الآيات القرآنية عبارة (وراء الظهر) المستمدة من جهة الوراء، واستخدامها بكيفية مجازية. فعبارة ﴿وراء ظهورهم﴾ وما شاكلها «مثل يُضرَب للإعراض عن الشيء جملة، تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضا، لأن ما يُجْعَل وراء الظهر لا يُنْظَر إليه». (ت. ص، ج1 ص84)

قال تعالى في الآية 101 من سورة البقرة: «ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون». يوضح ابن عاشور المراد من وراء الظهر في هذه الآية، قائلا: «وقوله: ﴿وراء ظهورهم﴾ تمثيل للإعراض لأن من أعرض عن شيء تجاوزه فخلفه وراء ظهره وإضافة الوراء إلى الظهر لتأكيد بُعْد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك فجعل للظهر وراء وإن كان هو هنا بمعنى الوراء. فالإضافة كالبيانية وبهذا يُجاب عما نقله ابن عرفة عن الفقيه أبي العباس أحمد بن

عبلون أنه كان يقول: مقتضى هذا أنهم طرحوا كتاب الله أمامهم لأن الذي وراء الظهر هو الوجه وكما أن الظهر خلف للوجه كذلك الوجه وراء للظهر قال ابن عرفة: وأجيب بأن المراد أي بذكر الظهر تأكيد لمعنى وراء كقولهم من وراء وراء». (ت. ع، ج1 ص608)

وقال تعالى في الآية 187 من سورة آل عمران: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم﴾؛ وفي الآية 94 من سورة المائدة: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾؛ والآية 92 من سورة هود: «قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط».

وورد ذكر جهة الوراء ضمن مدلولاتها المجازية في الآية 91 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه﴾. وقد جاء في تفسير ابن عاشور لقوله تعالى ﴿بما وراءه﴾: «الوراء في الأصل اسم مكان للجهة التي خلف الشيء وهو عريق في الظرفية وليس أصله مصدرا. جعل الوراء مجازا أو كناية عن الغائب لأنه لا يبصره الشخص واستعمل أيضا مجازا عن المجاوز لأن الشيء إذا كان أمام السائر فهو صائر إليه فإذا صاروا وراءه فقد تجاوزه وتباعد عنه.. واستعمل أيضا بمعنى الطلب والتعقب تقول ورائي فلان بمعنى يتعقبني ويطلبني ومنه قول الله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [الكهف: 79] .. فالمراد بما وراءه في الآية بما عداه وتجاوزه أي بغيره.. ». (ت. ع، ج1 ص ص589-590)

وقال تعالى في الآية 24 من سورة النساء: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ فقوله تعالى ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي أحل لكم نكاح سواهن. ومثله قوله تعالى في الآية

السابعة من سورة المؤمنون: «فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون».

وقال تعالى في الآية 79 من سورة الكهف: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾؛ وفي الآية 13 من سورة الحديد: ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾ أي «فيقول لهم المؤمنون سخرية واستهزاء بهم: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك». (ت. ص، ج3 ص324)

وقال تعالى في الآية 27 من سورة الإنسان: «إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا» أي «ويتركون أمامهم يوما عسيرا شديدا، عظيم الأهوال والشدائد، وهو يوم القيامة». (ت. ص، ج3 ص497)

وفسّر ابن عاشور قوله تعالى في الآية 20 من سورة البروج: «والله من ورائهم محيط»، بقوله: «تمثيل لحال انتظار العذاب إياهم وهم في غفلة عنه بحال من أحاط به العدو من ورائه وهو لا يعلم حتى إذا رام الفرار والإفلات وجد العدو محيطا به». (ت. ع، ج30 ص225)

5 - الأعلى والأسفل

الأعلى إحدى الجهات التي تتسم، في القرآن الكريم، بصفة التفضيل والسمو، مقارنة بجهة الأسفل. فكثيرة هي الآيات التي تشير إلى أن الأعلى مرتبط بما هو عظيم، بينما الأسفل مرتبط بما هو وضيع. وفي اللغة العربية: «علا: عُلْو كل شيء وعِلْوه وعَلْوُه وعُلاوَتُه وعاليه وعاليتُه: أرفعه.. والعلاء: الرفعة.. والعُلُوُّ: العظمة والتجبّر.. والله عز وجل هو العَليّ المُتَعالي العالي الأعلى ذو العُلا والعَلا والمَعالي، تَعالى عما يقول الظالمون عُلُوّا كبيرا، وهو الأعلى سبحانه بمعنى العالي، وتفسير تعالى جلّ ونبا عن كل ثناء فهو أعظم وأجلّ وأعْلى مما يثنى عليه لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ قال الأزهري:

وتفسير هذه الصفات لله سبحانه يَقْرُب بعضها من بعض، فالعَلِيّ الشريف فعيل من عَلا يَعْلُو، وهو بمعنى العالي، وهو الذي ليس فوقه شيء. ويقال: هو الذي علا الخلق فقهرهم بقدرته. وأما المتعالي: فهو الذي جلّ عن إفك المفترين وتنزّه عن وساوس المتحيّرين، وقد يكون المتعالي بمعنى العالي. والأعلى: هو الله الذي هو أعلى من كل عال واسمه الأعلى أي صفته أعلى الصفات، والعَلاءّ: الشريف، وذو العُلا: صاحب الصفات العُلا، والعُلا: جمع العُليا أي جمع الصفة العليا والكلمة العليا، ويكون العُلا جمع الاسم الأعلى، وصفة الله العليا شهادة أن لا إله إلا الله، فهذه أعلى الصفات، ولا يوصف بها غير الله وحده لا شريك له، ولم يزل الله عَلِيّا عاليا متعاليا، تعالى الله عن إلحاد الملحدين، وهو العليّ العظيم». (ابن منظور، ج15 ص ص83–85)

وجاء في معنى جهة الأسفل: «السُّفْلُ والسِّفْلُ والسُّفُولُ والسَّفال والسُّفالة، بالضم: نقيض العُلْو والعِلْو والعُلُوّ والعَلاء والعُلاوة. والسُّفْلى: نقيض العُلْيا.. والسَّفَالة، بالفتح: النَّذالة.. وسَفِلة الناس وسِفْلَتُهم: أسافِلُهم وغوغاؤهم». (ابن منظور، ج11 ص337)

وقد وردت الإشارة إلى جهتي الأعلى والأسفل بمدلولهما الحقيقي والمجازي في الآية 139 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»؛ وفي الآية 145 من سورة النساء: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا»؛ والآية 190 من سورة الأعراف: «فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون»؛ وقال تعالى في الآية 42 من سورة الأنفال: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم﴾؛ وورد ذكر الأعلى والأسفل في الآية 40 من سورة التوبة؛ والآية 83 من سورة يونس؛ وفي الآية 82 من سورة هود؛ والآية التاسعة من سورة الرعد؛ والآية 74 من سورة الحجر؛ وفي الآيتين الأولى والثالثة من سورة

تضمن القرآن الكريم مقياسا واحدا من مقاييس المسافة المتداولة عند الناس، وهو الذراع الذي كان وما زال يعتمده العرب كأحد مقاييس المسافات. قال تعالى في الآية 32 من سورة الحاقة: «ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه». يقول ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: «.. والذرع: كيل طول الجسم بالذراع وهو مقدار من الطول مقدر بذراع الإنسان، وكانوا يقدرون بمقادير الأعضاء مثل الذراع، والأصبع، والأنملة، والقدم، وبالأبعاد التي بين الأعضاء مثل الشِبْر، والفِتْر، والرَتَب، والعَتَب، والبُصْم، والخُطوة». (ت.ع.ج29ص128)

وكما رأينا سابقا، فإن دنو المسافة غالبا ما يرتبط بما هو إيجابي، كدلالته الحميمية أو سهولة الحصول على الأشياء، وعلى صعيد الأسفار، غالبا ما يرتبط بسهولة الوصول إلى الجهة المقصودة. وفي سورة سبأ تبيان لمدى مزاجية الإنسان وبطرانه بالنعم عندما يملّ قرب المسافات ويبحث عن مباعدتها، وكأنه ملّ الراحة فيطلب المشقة افتراء وجحودا.

قال تعالى عن قوم سبأ في الآيتين 18 و19 من سورة سبأ: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين. فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾.

يقول الرازي في تفسير الآية الأولى: «أي بينهم وبين الشام فإنها هي البقعة المباركة. وقرى ظاهرة أي يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الأخرى... ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى.. وقوله ﴿وقدرنا فيها السير﴾ الأماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز، فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار. وكانوا يغدون إلى قرية ويروحون إلى أخرى ما أمكن في العفر تجاوزها، فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جادا حتى يقطعها،

وقوله ﴿سيروا فيها ليالي وأياما﴾ أي كان بينهم ليال وأيام معلومة، وقوله ﴿آمنين﴾ إشارة إلى كثرة العمارة، فإن خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون في مثل هذه الأماكن، وقيل بأن معنى قوله ﴿ليالي وأياما﴾ تسيرون فيه إن شئتم ليالي وإن شئتم أياما لعدم الخوف..». (ت. ر.ج25 م13 ص253)

ويقول الزمخشري في تفسير الآية الثانية: «قرئ: ﴿ربنا باعد بين أسفارنا﴾. و﴿بعّد﴾. و﴿يا ربنا﴾، على الدعاء، بطروا النعمة، وبشموا (سئموا) من طيب العيش، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المنّ والسلوى، وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهيه، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها فيتزودوا الأزواد، فجعل الله لهم الإجابة. وقرئ ربنا بعّد بين أسفارنا، وبعّد بين أسفارنا على النداء، وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به، كما تقول: سير فرسخان، وبوعد بين أسفارنا. وقرئ: ربنا باعد بين أسفارنا. وبين سفرنا. وبعد، برفع ربنا على الابتداء، والمعنى خلاف الأول، وهو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوّها لفرط تنعمهم وترفههم، كأنهم كانوا يتشاجون على ربهم ويتحازنون عليه». (ت. ز، ج3 ص560)

المبحث الثاني

القـرب والبعـد

إن السمـة البـارزة للاتصـال عبـر المسـافة تكمن فـي القـرب عندمـا تتقلص المسـافـة إلى أن تتـلاشى تمامـا فـيتـحـول شكل التـواصل إلى لمس، وفي البـعـد عندما تزداد المسـافة إلى أن نصل إلى مرحلة يصعـب معها الإدراك باستخدام القنوات الحـسـيـة الطـبـيـعـيـة حـتى يصل حـد الاسـتـحـالة، إلا باسـتـخـدام الامتدادات الاصطناعيـة للحواس (تكبيـر الصـوت وتكبيـر الصـورة أو بثهمـا وتلقيهما بوسـائل لاسلكية).

كمـا تتجلى الأهميـة التـواصليـة للقـرب والبـعـد في اشتمـال كل منهمـا على مدلولين متناقضين. فـالقـرب قد يعني الأمـان والود والموقف الإيجـابي تجاه الآخر إذا كان هـذا الأخيـر لا يشكل خطرا؛ وفي المقابل، قد يؤدي القـرب إلى التعـرض للخطر إذا اقـتـربنـا مما يهـدد أمننا وصـحـتنـا. فـالقـرب من صـديق يتناقض مع القـرب من عـدو. كمـا نجـد أن الابتـعـاد عن الخطر أمـر إيجـابي، والابتـعـاد عـمن تربطنا بهم عـلاقـة مودة ويمنحـوننا الأمـان، أمـر سلبي يجب تفاديه.

وقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تبين الحالات المختلفة التي يرد فيها القرب والبعد بمدلولاتهما التواصلية. إذ تشير بعض الآيات إلى دلالة الاقتراب والحالات التي تستدعي تجنبه، وعلاقة القربى التي تجمع بين الأفراد فتؤثر في المعاملات بينهم، وتشير آيات أخرى إلى المقربين ذوي الحظوة، والقريب الذي هو عكس البعيد، والأقرب، والأدنى، والقربان الذي يقدم من أجل التقرّب، والقرين الذي يلازم صاحبه، والجيرة التي تمثل تجسيدا مكانيا ثابتا لعلاقة الارتباط والتفاعل مع الآخر، بالإضافة إلى آيات آخر تفيد القرب. وتشير بعض الآيات إلى البعيد وجودا وارتباطا، والبعد، والهجر والاعتزال كشكل من أشكال الابتعاد، والنبذ، إضافة إلى آيات أخر تفيد البعد.

1 - القــرب

معظم الآيات القرآنية التي تضمنت لفظة القرب، وردت في صيغة النهي. أي النهي عن القرب لأسباب عقدية أو شرعية. وأول أمر بتجنب الاقتراب صدر للإنسان من لدن الخالق عز وجل، ذُكر في الآية 35 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين».

وقد فصّل ابن عاشور في التفسير اللغوي لقوله تعالى ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾، بقوله: «يعني به ولا تأكلا من الشجرة لأن قربانها إنما هو لقصد الأكل منها فالنهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل لأن القرب من الشيء ينشئ داعية وميلا إليه ففيه الحديث «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» وقال ابن العربي سمعت الشاشي في مجلس النظر يقول: (إذا قيل لا تقرب (بفتح الراء) كان معناه لا تتلبس بالفعل، وإذا قيل

بضم الراء كان معناه لا تدن منه). وهو غريب فإن قَرُب وقَرِب نحو كرم وسمع بمعنى دنا، فسواء ضممت الراء أو فتحتها في المضارع فالمراد النهي عن الدنو إلا أن الدنو بعضه مجازي وهو التلبس وبعضه حقيقي ولا يكون للمجازي وزن خاص في الأفعال وإلا لصار من المشترك لا من الحقيقة والمجاز، اللهم إلا أن يكون الاستعمال خص المجازي ببعض التصاريف فتكون تلك الزنة قرينة لفظية للمجاز وذلك حَسن وهو من محاسن فروق استعمال الألفاظ المترادفة في اللغة العربية..». (ت. ع.ج1ص417)

وقال تعالى في الآيتين 187 و222 من سورة البقرة: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾، ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾.

وقال تعالى في الآية 43 من سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ وفي الآيتين 151 و152 من سورة الأنعام: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾؛ والآية 19 من سورة الأعراف: «ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»؛ وقال تعالى في الآية 28 من سورة التوبة: ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾؛ وفي الآية 60 من سورة هود: «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون»؛ وقال تعالى في الآيتين 32 و34 من سورة الإسراء: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا»، «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾.

أما المدلول السلبي للاقتراب، فيتبين من خلال اقتراب الأجل الذي يضع حدا لحياة الإنسان مكرها، خاصة إذا لم يفعل ما يجنبه العذاب في الآخرة.

وهذا الاقتراب، وإن كان مرتبطا بالأجل (الزمن)، إلا أنه قد يحيل إلى الاقتراب المكاني للموت إذا جسدناه في ملك الموت المسؤول عن قبض الأرواح. ويتبين الاقتراب السلبي، كذلك، من خلال اقتراب يوم الحساب.

قال تعالى في الآية 185 من سورة الأعراف: «أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون»؛ وقال تعالى في الآية الأولى من سورة الأنبياء: «اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون».

وورد القرب في مدلوله الإيجابي الحقيقي والمجازي في الآية 24 من سورة الكهف، إذ قال تعالى: «إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا»؛ وقال تعالى في الآية 19 من سورة العلق: «كلا لا تطعه واسجد واقترب».

يقول الإمام الرازي في تفسيره لقوله تعالى ﴿واسجد واقترب﴾: «المراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك، وفي الحديث «أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد» وقال بعضهم المراد: اسجد يا محمد، واقترب يا أبا جهل منه حتى تبصر ما ينالك من أخذ الزبانية إياك، فكأنه تعالى أمره بالسجود ليزداد غيظ الكافر.. ثم قال عند ذلك ﴿واقترب﴾ منه يا أبا جهل وضع قدمك عليه، فإن الرجل ساجد مشغول بنفسه، وهذا تهكم به واستحقار شأنه..». (ت. ر.ج 32م 16 ص27)

2 - القربى

يقول ابن منظور في «لسان العرب»: «القرابة والقربى: الدُّنُوُّ في النَّسب، والقربى في الرحم، وهي في الأصل مصدر.. وما بينهما مقرَبة ومقرِبة

ومقرُبة أي قرابة. وأقارب الرجل، وأقربوه: عشيرته الأدنون.. وتقول: بيني وبينك قرابة، وقرب، وقربى، ومقرَبة ومقرُبة، وقُرْبَة، وقُرُبَة، بضم الراء، وهو قريبي، وذو قرابتي، وهم أقربائي، وأقاربي. والعامة تقول: هو قرابتي، وهم قراباتي.. ويقال: فلان ذو قرابتي، وذو قرابة مني، وذو مقربة، ذو قربى مني..». (ابن منظور، ج1ص ص665–666)

ويتضح من خلال تعريف علاقة القربى، مدى ارتباطها بالتواصل المسافي الحميم، إذ إن الأقربين هم من يتيح لهم وضعهم الحفاظ على مسافة قريبة من الشخص تصل إلى حد الاحتكاك الجسدي. وقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي توضح من خلال سياقها الأهمية التواصلية الإيجابية لعلاقة القربى.

قال تعالى في الآيات 83 و180 و215 من سورة البقرة: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى﴾، ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾، ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين﴾؛ وفي الآية 45 من سورة آل عمران: «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين».

وقال تعالى في الآيات 7 و8 و33 و36 و135 من سورة النساء: «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا. وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا»، ﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون﴾، ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى﴾، ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

الوالدين والأقربين﴾ وقال تعالى في الآية 106 من سورة المائدة: ﴿إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى﴾؛ والآية 41 من سورة الأنفال: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾.

وقال تعالى في الآية 90 من سورة النحل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾؛ وفي الآية 26 من سورة الإسراء: ﴿وآت ذا القربى حقه﴾؛ وفي الآية 22 من سورة النور: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى﴾؛ والآية 214 من سورة الشعراء: «وأنذر عشيرتك الأقربين»؛ والآية 38 من سورة الروم: ﴿فآت ذا القربى حقه﴾؛ وقال تعالى في الآية 18 من سورة فاطر: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾؛ وفي الآية 23 من سورة الشورى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾؛ والآية السابعة من سورة الحشر: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾؛ والآية 15 من سورة البلد: «يتيما ذا مقربة».

وقال تعالى في الآية 158 من سورة الصافات: «وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون». أي «جعل المشركون بين الله وبين الجن قرابة ونسبا، حيث قالوا إنه نكح من الجن فولدت له الملائكة ﴿سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا﴾ ثم زعموا أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله». (ت. ص، ج3ص45)

3 - المقـــربون

المقربون تعبير يشير إلى الحظوة التي تنالها مجموعة محدودة من لدن مَن هو أعلى منزلة منهم. وهو تعبير حقيقي ومجازي في آن معا، لأن المحظي

أحق بأن يتبوأ مكانا أقرب من غير المحظي، وهو أحق بالتقدير وبالموقف الإيجابي الذي أهله لهذه المنزلة الرفيعة.

يقول الله تعالى في الآية 172 من سورة النساء: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون﴾. قال الإمام الطبري عن الملائكة المقربين: «﴿المقربون﴾، الذين قرّبهم الله ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه». وروى عن الضحاك ما حدثه به جعفر بن محمد البزوري: «قال، حدثنا يعلى بن عبيد، عن الأجلح قال: قلت للضحاك: ما ﴿المقربون﴾؟ قال: أقربهم إلى السماء الثانية». (ت. ط، ج4 ص376)

ويضيف ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى ﴿المقربون﴾: «يحتمل أن يكون وصفا كاشفا، وأن يكون مقيدا، فيراد بهم الملقبون (بالكَروبيين) وهم سادة الملائكة: جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل. ووصفهم بالكَروبيين وصف قديم وقع في بيت نسب إلى أمية بن أبي الصلت. وقد قالوا: أنه وصف مشتق من كَرَب مرادف قَرُب، وزيد فيه صيغتا مبالغة، وهي زنة فعول وياء النسب. والذي أظنّ أن هذا اللفظ نقل إلى العربية من العبرانية بمعنى القرب، فلذلك عدل عنه القرآن وجاء بمرادفه الفصيح فقال: ﴿المقربون﴾». (ت. ع، ج4ص338)

وقد وصف الله سبحانه وتعالى عباده الذين سيدخلهم الجنة بالمقربين في الأيتين 11 و88 من سورة الواقعة: «أولئك المقربون»، «فأما إن كان من المقربين»؛ وفي الآيتين 21 و28 من سورة المطففين: «يشهده المقربون»، «عينا يشرب بها المقربون».

ووعد فرعون - كما ورد في سورتي الأعراف والشعراء - السحرة بأن يجعلكم من المقربين إليه المحظيين، إذا تمكنوا من التفوق على سيدنا موسى عليه السلام. إذ قال تعالى في الآية 114 من سورة الأعراف: «قال نعم وإنكم

لمن المقـربين»؛ وفـي الآية 42 من سـورة الشـعـراء: «قـال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين».

4 - القـــريب

القـريب من أسـمـاء الله الحسنى. وكيفـيـة تحقق قـربه من مـخلوقـاته، من الأمـور التي لا يعلمـهـا إلا هو سـبحـانه وتعـالى. قـال تعـالى في الآية 186 من سـورة البـقـرة: ﴿وإذا سـألك عـبـادي عني فـإني قـريب أجيب دعـوة الداع إذا دعان﴾؛ وقـال تعـالى في الآية 56 من سـورة الأعـراف: ﴿إن رحـمـة الله قـريب من المحسنين﴾.

وورد تأكيد قـرب الله من عباده على لسان سيدنا صالح عليه السـلام، في الآية 61 من سـورة هود، إذ قـال تعـالى: ﴿إن ربي قـريب مـجـيب﴾؛ وأمـر سبحـانه وتعـالى نبيه محمداً ﷺ أن يؤكد أن الله قريب سـميع الدعـاء، إذ قال تعـالى في الآية 50 من سـورة سـبـأ: «﴿وإن اهتـديت فـبـمـا يوحي إلي ربي إنه سميع قريب».

ولابن تيمـيـة رأي خـاص فـي مـفـهـوم قـرب الله من عـبـاده بيّنه في مـجـمـوع فـتـاويه، قـائلا: «ليس في القـرآن وصـف الرب تعـالـى بالقـرب من كل شيء أصـلا، بل قـربه الذي في القـرآن خـاص لا عـام؛ كـقـوله تعـالى: ﴿وإذا سـألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ فهو قريب ممن دعاه.

وكـذلك في «الصـحـيـحين» عن أبي مـوسى الأشـعـري أنهم كـانوا مـع النبي صلى الله عليه وسلم في سـفـر، فكانوا يرفـعـون أصـواتهم بالتكبير؛ فـقـال: «يا أيهـا النـاس؛ اربعوا على أنفسكم فـإنكم لا تدعـون أصـم ولا غـائبـا، إنما تدعـون سـميعـا قـريبـا، إن الذي تدعـونه أقرب إلى أحـدكم من عنق راحلتـه» فقـال: «إن

الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم» لم يقل إنه قريب إلى كل موجود، وكذلك قول صالح عليه السلام ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾[هود:61] هو كقول شعيب ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾[هود:90] ومعلوم أن قوله ﴿قريب مجيب﴾ مقرون بالتوبة والاستغفار، أراد به قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه، كما أنه رحيم ودود بهم، وقد قرن القريب بالمجيب. ومعلوم أنه لا يقال إنه مجيب لكل موجود. وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه، فكذلك قربه سبحانه وتعالى». (ابن تيمية، م5 ص493)

ووردت بعض الآيات التي تشير إلى الارتباط الوثيق بين قرب المسافة والوقت، وكذا بعض المدلولات المجازية لقرب المسافة.

ففي الآية 17 من سورة النساء ورد ذكر القرب بمعنى السرعة، إذ قال تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾؛ وقال تعالى في الآية 82 من سورة المائدة: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾؛ ويقول ابن عاشور في معنى ﴿القريب﴾ الوارد في الآية 42 من سورة التوبة، إذ قال تعالى: ﴿لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة﴾، «القريب: الكائن على مسافة قصيرة، وهو هنا مجاز في السهْل حصولُه. و﴿قاصدا﴾ أي وسطا في المسافة غير بعيد». (ت. ع.ج10 ص105)

وقال تعالى في الآية 31 من سورة الرعد:﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾؛ وفي سورتي سبأ وق إشارة صريحة لقرب المسافة، إذ قال تعالى في الآية 51 من سورة سبأ: «ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب»؛ وفي الآية 41 من سورة ق: «واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب».

وفي سور الأنبياء والحشر والمعارج إشارات ضمنية لقرب المسافة من خلال قرب الوقت، إذ قال تعالى في الآية 109 من سورة الأنبياء: «فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون»؛ وفي الآية 15 من سورة الحشر: «كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم»؛ والآية السابعة من سورة المعارج: «ونراه قريبا».

5 - الأقـرب

ورد ذكر القرب المكاني بصيغة (أفعل) التفضيل، مجازا في الآية 237 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾؛ وكذا في الآية 57 من سورة الإسراء: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾؛ وقال تعالى في الآية 13 من سورة الحج: ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾.

وذكر الله سبحانه وتعالى في سورتي ق والواقعة قربه من الإنسان، إذ قال تعالى في الآية 16 من سورة ق: «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»؛ وفي الآية 85 من سورة الواقعة: «ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون». وقد أورد ابن تيمية ضمن نقاشه لقرب الله الوارد في الآيتين المذكورتين، قائلا: «فالمراد به قربه إليه بالملائكة، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف، قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة..». (ابن تيمية، ج5 ص494)

وأضاف موضحا الاستخدام المجازي لقرب الله كما ورد في القرآن الكريم: «وطائفة من أهل السنة تفسر «القرب» في الآية والحديث بالعلم؛ لكونه هو المقصود، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده،

وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول: إنه قريب من كل شيء بمعنى العلم والقدرة؛ فإن هذا قد قاله بعض السلف.. وكثير من الخلف؛ لكن لم يقل واحد منهم إن نفس ذاته قريبة من كل شيء. وهذا المعنى يقر به جميع المسلمين؛ من يقول: إنه فوق العرش، ومن يقول إنه ليس فوق العرش.

وقد ذكر ابن حاتم باسناده عن عبد العزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون قال: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ يعلم وهو كذلك ما توسوس به أنفسنا منا؛ وهو بذلك أقرب إلينا من حبل الوريد، وكيف لا يكون كذلك وهو أعلم بما توسوس به أنفسنا منا، فكيف بحبل الوريد؟! وكذلك قال أبو عمرو الطلمنكي، قال: ومن سأل عن قوله: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ فاعلم أن ذلك كله على معنى العلم به والقدرة عليه، والدليل من ذلك صدر الآية؛ فقال الله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾، لأن الله لما كان عالما بوسوسته؛ كان أقرب إليه من حبل الوريد، وحبل الوريد لا يعلم ما توسوس به النفس». (ابن تيمية، ج5 ص ص500–501)

6 - الأدنـــى

تضمنت بعض الآيات القرآنية لفظة أدنى بمعنى أقرب في الحقيقة والمجاز، للتدليل على موقف أو سلوك إيجابي. إذ قال تعالى في الآية 282 من سورة البقرة: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾.

وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة النساء: «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا»؛ وفي الآية 108 من سورة المائدة: ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾؛ وقال تعالى في

الآيتين 51 و59 من سورة الأحزاب: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾، «يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما».

ووردت لفظة «أدنى» في الآية 169 من سورة الأعراف، بمعنى أحقر وأقل شأنا، إذ قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾.

7 - القربان

أورد ابن منظور في معنى لفظة «قربان»: «القُربان، بالضم: ما قُرِّب إلى الله عز وجل. وتقربت به، تقول منه: قرّبت لله قربانا. وتقرّب إلى الله بشيء أي طلب به القربة عنده تعالى.. وفي التنزيل العزيز: واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا. وقال في موضع آخر: إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار. وكان الرجل إذا قرّب قربانا، سجد لله، فتنزل النار فتأكل كل قربانه، فذلك علامة قبول القربان، وهي ذبائح كانوا يذبحونها.. وفي الحديث صفة هذه الأمة في التوراة: قربانهم دماؤهم. القربان مصدر قَرُبَ يقْرُب أي يتقربون إلى الله بإراقة دمائهم في الجهاد. وكان قربان الأمم السالفة ذبح البقر، والغنم، والإبل. وفي الحديث: الصلاة قربان كل تقي أي إن الأتقياء من الناس يتقربون بها إلى الله تعالى أي يطلبون القرب منه بها. وفي حديث الجمعة: من راح في الساعة الأولى، فكأنما قرّب بدنة أي كأنما أهدى ذلك إلى الله تعالى كما يُهدى القربان إلى بيت الله الحرام». (ابن منظور، ج1ص ص664-665)

لقد ورد ذكر القربان في الآية 183 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾؛ وفي الآية 27 من سورة المائدة: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾؛ وقال تعالى في الآية 99 من سورة التوبة: «ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم»؛ وفي الآية 37 من سورة سبأ: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾؛ والآية الثالثة من سورة الزمر: ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾.

8 - القــــرين

تفيد لفظة «القرين» - كما وردت في القرآن الكريم - المُصاحَبة التي تتجلى في تقليص المسافة التي تفصل بين اثنين لدرجة أن يتماسا أو يتداخلا أحدهما في الآخر. وقد أورد ابن منظور في قاموس «لسان العرب»:

«قارن الشيء الشيء مقارنة وقرانا: اقترن به وصاحبه.. والقرين: المصاحب. والقرينان: أبو بكر وطلحة رضي الله عنهما، لأن عثمان بن عبيد الله، أخا طلحة، أخذهما فقرنهما بحبل فلذلك سميا القرينين. وورد في الحديث: إن أبا بكر وعمر يقال لهما القرينان. وفي الحديث: ما من أحد إلا وُكِّل به قرينه أي مصاحبه من الملائكة والشياطين وكل إنسان، فإن معه قرينا منهما، فقرينه من الملائكة يأمره بالخير ويحثه عليه». (ابن منظور، ج13 ص336)

وقد ورد ذكر القرين في الآية 38 من سورة النساء، إذ قال تعالى: «والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا»؛ وقال تعالى في الآية 51 من سورة الصافات: «قال قائل منهم إني كان لي قرين»؛ وفي الآيتين 36 و38 من سورة الزخرف: «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين»، «حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين»؛ وقال تعالى في الآيتين 23 و27 من سورة ق: «وقال قرينه هذا ما لدي عتيد»، «قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد».

9 - الجيرة

إن مفهوم «الجار والجيرة» مبني على القرب المكاني. فالجار في السكن هو الذي يتواجد أقرب من غيره، ومسكنه يعتبر امتدادا طبيعيا لمساكن جيرانه. وتمتد الجيرة، مجازيا، لتعني الحماية والنجاة من الخطر المحدق، ولا شك أن للمعنيين الأخيرين جذور فيما يتوقع من الجار المكاني.

وقد تضمن القرآن الكريم بعض الآيات التي تبين الأهمية التواصلية للجار والجيرة.

قال تعالى في الآية 36 من سورة النساء: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب﴾؛ وفي الآية 48 من سورة الأنفال: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار﴾؛ والآية السادسة من سورة التوبة: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره﴾؛ وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة الرعد: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾؛ وفي الآية

التاسعة من سورة النحل: ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر﴾؛ والآية 88 من سورة المؤمنون: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه﴾؛ وقال تعالى في الآية 60 من سورة الأحزاب: «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا»؛ وفي الآية 31 من سورة الأحقاف: «يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم»؛ والآية 28 من سورة الملك: «قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم»؛ والآية 22 من سورة الجن: «قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا».

10 - ما يفيد القرب

وردت بعض الآيات القرآنية التي تدل على قرب المسافة، دون أن تتضمن لفظة «القرب». ففي سورة القصص وردت عبارة ﴿بجانب﴾ بمعنى بجوار، وكما رأينا في الفقرة السابقة، لا يكون الجوار إلا من خلال القرب المسافي. قال تعالى في الآيتين 44 و46 من سورة القصص: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين»، ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾.

وورد ذكر «التقرين» أي وضع اثنين في حبل، في الآية 49 من سورة إبراهيم، إذ قال تعالى: «وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد». قال الطبري: «مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد، وهي الوثاق من غلّ وسلسلة، واحده صَفَد، يقال منه: صفدته في الصَّفَد صَفْدا وصِفادا، والصفاد: القيد». (ت. ط، ج14 م7 ص484) وقال تعالى في الآية 53 من سورة الزخرف: «فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين».

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿ مقترنين ﴾: «إما مقترنين به من قولك: قرنته به فاقترن، وإما من: اقترنوا، بمعنى تقارنوا؛ لما وصف نفسه (فرعون) بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه، فوصفه بالضعف وقلة الأعضاد اعترض فقال: هلا إن كان صادقا ملكه ربه وسوّده وسوّره، وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره». (ت. ز، ج4 ص252)

وقال تعالى في الآية 182 من سورة الأعراف: «والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون». يستطرد الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿ سنستدرجهم ﴾، مما يبين لنا مدى الارتباط بين الاستدراج والتواصل المسافي:

«.. الاستدراج الاستفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال، درجة بعد درجة، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب طواه شيئا بعد الشيء ودرج القوم، مات بعضهم عقيب بعضهم، ويحتمل أن يكون اللفظ مأخوذاً من الدرج وهو لف الشيء وطيه جزءاً فجزءاً.

إذا عرفت هذا فالمعنى سنقربهم إلى ما يهلكهم، ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم بابا من أبواب النعمة والخير في الدنيا، فيزدادون بطرا وانهماكا في الفساد وتماديا في الغي، ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم أغفل ما يكون..». (ت. ر.ج15 م8 ص77)

وقال تعالى في الآية 29 من سورة الإسراء: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا». وتمثيل الشح والإمساك بغل اليد إلى العنق مبني على تخيل اليد مصدرا للبذل والعطاء، «فجاء التمثيل في الآية مبنيا على التصرف في ذلك المعنى بتمثيل الذي يشح بالمال

بالذي غُلّت يده إلى عنقه، أي شدت بالغُلّ، وهو القيد من السير يشد به يد الأسير..». (ت. ع، ج14 ص ص68-69)

11 - البعيد

البعيد عكس القريب، وهو في الأصل، متعلق بالمسافة، إلا أنه قد يستعار للتعبير عن معان أخرى ذات ارتباط بشساعة المسافات. وقد وردت لفظة «بعيد» في القرآن الكريم لتشير إلى امتداد المسافات وإلى الإكثار والمغالاة في الضلال والشقاق، ووردت بمعنى سلبي، عندما يصبح البعد ابتعادا عن جادة الصواب.

قال تعالى في الآية 30 من سورة آل عمران: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾. ذكر الصابوني في تفسير قوله تعالى ﴿ وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾: «أي وإن كان عمله سيئا تمنّى ألا يرى عمله، وأحب أن يكون بينه وبين عمله القبيح غاية في نهاية البعد أي مكانا بعيدا كما بين المشرق والمغرب». (ص.ت، ج1ص196) وقال تعالى في الآية 83 من سورة هود: «مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد». وقد فَسّر الإمام الزمخشري البعد الوارد في هذه الآية في ارتباط بالحجارة الواردة في الآية السابقة إذ قال تعالى ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة..﴾، بقوله: «قيل الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم.. بشيء بعيد. ويجوز أن يراد: وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحقا بالمرمى، فكأنها بمكان قريب منه». (ت. ز، ج2 ص401) وقال تعالى في الآية 89 من سورة هود: ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ أي «وما ديار الظالمين من قوم لوط بمكان

بعيد». (ص. ت، ج2 ض30) وقال تعالى في الآية 101 من سورة الأنبياء: ﴿أولئك عنها مبعدون﴾.

وورد ذكر الأمكنة البعيدة صراحة، في الآية 12 من سورة الفرقان، إذ قال تعالى: «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا»؛ وفي الآية 22 من سورة النمل: ﴿فمكث غير بعيد﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 52 و53 من سورة سبأ: «وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد. وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد»؛ وقال تعالى في الآية 44 من سورة فصلت: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾؛ وفي الآية 31 من سورة ق: «وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد».

وفي الآيات التالية وُصِف الضلال بكونه بعيدا. وشرحه ابن عاشور بقوله: «والضلال البعيد هو الكفر، ووصفه بالبعيد مجاز في شدة الضلال بتنزيله منزلة جنس ذي مسافة كان هذا الفرد منه بالغا غاية المسافة». (ت. ع، ج4 ص172)

قال تعالى في الآيات 60 و116 و136 و167 من سورة النساء: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾، ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾، ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾، «إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا»؛ وقال تعالى في الآيتين 3 و18 من سورة إبراهيم: «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد»، ﴿هو الضلال البعيد﴾؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة الحج: «يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد»؛ وفي الآية الثامنة من سورة سبأ: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾؛ والآية 18 من سورة الشورى: ﴿ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾.

ووردت لفظة «بعيد» مقترنة بلفظة «شقاق» في ثلاث آيات. «ووصف الشقاق بالبعيد مجاز عقلي أي بعيد صاحبه عن الوفاق». (ت. ع، ج2 ص126)

قال تعالى في الآية 176 من سورة البقرة: ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ يعتقد الإمام الطبري أن الله سبحانه وتعالى خاطب نبيه محمداً ﷺ في هذه الآية، قائلا: «إن هؤلاء الذين اختلفوا فيما أنزلت إليك يا محمد لفي منازعة ومفارقة للحق بعيدة من الرشد والصواب». (ت. ط. ج2 م2 ص98) كما ورد قوله تعالى ﴿شقاق بعيد﴾ في الآية 53 من سورة الحج: ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾؛ وفي الآية 52 من سورة الشورى: ﴿من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾.

وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة ق: «أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد». أي «ذلك رجوع بعيد غاية البعد، مستحيل حصوله». (ت. ص، ج3 ص242)

12 - البعد

تضمن القرآن الكريم الإشارة إلى البعد في لفظة «بعدا» المنصوبة للإشارة إلى معنى تشبيهي مأخوذ من البعد الحقيقي. يقول ابن عاشور في التفسير اللغوي لهذه اللفظة: «﴿بعدا﴾ مصدر (بعدَ) على مثال كَرُم وفَرح، منصوب على المفعولية المطلقة. وهو نائب عن الفعل كما هو الاستعمال في مقام الدعاء ونحوه، كالمدح والذم مثل: تَبّاً له، وسحقاً، وسَقْياً، ورَعْياً، وشكْراً. والبعد كناية عن التحقير بلازم كراهية الشيء، فلذلك يقال: بَعِد أو نحوه لمن فُقِدَ، إذا كان مكروها كما هنا.. والأكثر أن يقال (بعِد) بكسر العين في البعد المجازي بمعنى الهلاك والموت، و (بعُد) المضموم العين في البعد الحقيقي». (ت. ع، ج11 ص265)

وردت لفظة «بعد» في سورتي هود و«المؤمنون». إذ قال تعالى في الآيات 44 و60 و68 و95 من سورة هود: ﴿وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾، ﴿ألا بعدا لعاد قوم هود﴾، ﴿ألا بعدا لثمود﴾، ﴿ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 41 و44 من سورة «المؤمنون»: «فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين»، ﴿وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون﴾.

13 - الهجر والاعتزال

الهجر والاعتزال شكلان من أشكال الابتعاد المسافي الحقيقي والمجازي. وهجر النساء في المضاجع من قبل أزواجهن، دليل على الابتعاد المسافي الحقيقي بتفادي الاحتكاك الجسدي.

قال تعالى في الآية 34 من سورة النساء: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع﴾؛ وقال تعالى في الآية 46 من سورة مريم: ﴿لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا﴾؛ وفي الآية 67 من سورة «المؤمنون»: «مستكبرين به سامرا تهجرون»؛ والآية 30 من سورة الفرقان: «وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا»؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة المزمل: «واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا»؛ وفي الآية الخامسة من سورة المدثر: «والرجز فاهجر».

وقال تعالى عن الاعتزال في الآية 91 من سورة النساء: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾؛ وفي الآية 16 من سورة الكهف: «وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا».

14 - النبــذ

ورد في قاموس «لسان العرب» تحت مادة «نبذ»: «النبذ: طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك، ونَبَّذته، شدد للكثرة. ونبذت الشيء أيضا إذا رميته وأبعدته؛ ومنه الحديث: فنبذ خاتمه، فنبذ الناس خواتيمهم أي ألقاها من يده. وكل طرح: نبذ؛ نَبَذه يَنْبِذُه نَبْذا .. ونبذ الكتاب وراء ظهره: ألقاه: وفي التنزيل: فنبذوه وراء ظهورهم؛ وكذلك نبذ إليه القول.. وجلس نَبْذةً ونُبْذَةً أي ناحية. وانتبذ عن قومه: تنحى. وانتبذ فلان إلى ناحية أي تنحى ناحية؛ قال الله تعالى في قصة مريم: فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا. والمنتبذ: المتنحي ناحية.. وانتبذ فلان أي ذهب ناحية. وفي الحديث: أنه مر بقبر منتبذ عن القبور أي منفرد بعيد عنها». (ابن منظور، ج3 ص ص511-512)

وقد جاء ذكر النبذ والانتباذ في الآيتين 16 و22 من سورة مريم، إذ قال تعالى: «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا»، «فحملته فانتبذت به مكانا قصيا»؛ وفي الآية 96 من سورة طه: ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها﴾؛ والآية 40 من سورة القصص: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾؛ وقال تعالى في الآية 145 من سورة الصافات: «فنبذناه بالعراء وهو سقيم»؛ وفي الآية 40 من سورة الذاريات: «فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم»؛ والآية 49 من سورة القلم: «لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم».

15 - ما يفيد البعد

ووردت بعض الآيات التي تفيد البعد، وإن لم تذكره صراحة. كما جاء في سورتي النساء والمجادلة من ذكر للنشوز. ومنه قوله تعالى ﴿ انشزوا ﴾ وهو: «أمر من نَشَزَ إذا نهض من مكانه يقال: نَشَزَ يَنْشِزُ من باب قَعَد وضَرَب إذا ارتفع لأن النهوض ارتفاع من المكان الذي استقرّ فيه ومنه نشوز المرأة من

زوجها مجازا عن بعدها عن مضجعها». (ت. ع، ج28 ص35) قال تعالى في الآية 128 من سورة النساء: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾؛ وفي الآية 11 من سورة المجادلة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾.

وورد ذكر الإعراض والنأي - وقد تطرقنا لهما في الفصلين الأول والرابع - بمعنى الابتعاد في العديد من الآيات القرآنية، نذكر منها قوله تعالى في الآية 94 من سورة الحجر: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»؛ والآية 83 من سورة الإسراء والآية 51 من سورة فصلت: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾؛ والآية 29 من سورة النجم: «فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا».

وقال تعالى في الآية 27 من سورة الحج: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» وقد أورد الطبري في تفسيره لقوله تعالى ﴿من كل فج عميق﴾: «.. عن ابن عباس ﴿من كل فج عميق﴾ يعني: من مكان بعيد». (ت. ط. ج17 م9 ص136)

وورد ذكر «التفرق» بمعنى الانفصال والابتعاد عن نقطة تماس مركزية، أو الطلاق، في الآية 102 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾؛ وفي الآية 130 من سورة النساء: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾؛ والآية 67 من سورة يوسف: ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾؛ وقال تعالى في الآية 78 من سورة الكهف: ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾؛ وفي الآية 14 من سورة الروم: «ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون»؛ وقال تعالى في الآية الثانية من سورة الطلاق: ﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾؛ وفي الآية 28 من سورة القيامة: «وظن أنه الفراق».

المبحث الثالث

الإقليمية

يعتبر مصطلح الإقليمية أو المجال (Territoriality) من أبرز المصطلحات التي تبين مدى أهمية التواصل البشري عبر المسافة. وتعرّف الإقليمية في مفهومها العام: بالمساحة المحيطة بالشخص أو أي موجود آخر، وتدخل ضمن ملكيته ويعتبر اختراقها من لدن الآخرين شكلا من أشكال الاعتداء.

وتتدرج الإقليمية بدءا من الجلد البشري الذي يعتبر أهم جدار يسيّج جسم الإنسان ويحميه من الاعتداءات الخارجية، لذا نجد الجلد متضمنا للعديد من الدفاعات التي تحول دون الاختراقات الخارجية ودون انفلات أعضاء الجسم. وهناك الملابس التي تجسد الخصوصية وتحمي الجسم من أضرار الحرارة والبرودة، وتحميه من الملامسة المباشرة من قبل الآخرين لبعض أعضاء الجسم الحساسة، وكذا إخفاء بعض أعضاء الجسم التي يعتبر اطلاع الآخرين عليها من قبيل انتهاك الخصوصية. كما تشمل الخصوصية، الحد الأدنى من المساحة المحيطة بالشخص، التي تمكّن بعض أعضائه

الطرفية (اليد والرجل والرأس) من الحركة بحرية دون أن يصطدم بالآخرين أو بالأشياء، وتمكنه من أن يتخذ هيئة ملائمة (كالوقوف أو الجلوس أو الاتكاء أو الاستلقاء أو المشي أو الجري..) دون أن يتأذى أو يؤذي الآخرين. وتشمل الإقليمية وسيلة النقل التي يمتلكها الشخص، سواء كانت دابة أو آلة (دراجة، سيارة..)؛ والمكتب الذي يزاول فيه عمله (بما يشمل من كرسي وطاولة وملحقاتها..)، والحجرة التي تتضمن هذا المكتب، بحيث يتمكن من إقفالها والاحتفاظ بمفاتيحها؛ وقبل ذلك، هناك المنزل الذي هو أبرز سمات الإقليمية. ففيه يمكن التعبير عن الخصوصية بحرية كبيرة وتحقيق أكبر قدر من الراحة الجسدية والنفسية؛ وتمتد الإقليمية لتشمل المزرعة التي يمتلكها الشخص، والبلدة أو المدينة التي يقطن فيها، والدولة التي يحمل جنسيتها، والمجموعة الإقليمية التي ينتمي إليها. وكلما تدرجنا مما يُعَدّ ضمن الملكية الشخصية وصولا للفضاءات الكبرى التي ينتمي إليها الشخص، تقلصت الأهمية التواصلية للإقليمية.

وتتجلى الإقليمية، أحيانا، في القيود الحياتية التي تفرضها البيئة المحيطة، عندما تتعرض حياة الإنسان للخطر. فالقناع الذي يضعه الشخص في فمه وأنفه تفاديا لاستنشاق ما هو مضر بالصحة، يقلص الإقليمية إلى حدودها الدنيا؛ وكذا الملابس الخاصة التي يرتديها أفراد الوقاية المدنية (المطافي) والإنقاذ ورواد الفضاء والغطاسون وغيرهم، تحد من حرية الجسم في التفاعل مع البيئة المحيطة.

وقد اشتمل القرآن الكريم على العديد من الآيات القرآنية المتضمنة لتعابير تشير إلى الأهمية التواصلية للإقليمية. كالإشارة إلى الفضاء والبيئة حول الشخص؛ ومدى المساحات التي يمكنه أن يتحرك فيها بحرية؛ وكذا السعة والضيق وهما مفهومان ملتصقان بمفهوم الإقليمية؛ والحشر؛

والإحاطة؛ وضيق الصدر كتعبير مجازي مستمد من ضيق المساحة؛ إضافة إلى تعبيرات أخرى تشير إلى التواصل بالإقليمية.

ومن بين أبرز الألفاظ الواردة في القرآن للتدليل على الإقليمية لفظة «حَوْل». فهي تحيل إلى الأمكنة والمساحات المحيطة بالأشخاص والأشياء. وجاء في «لسان العرب»: «وهو حَوْلَه وحَوْلَيْه وحَواليْه وحَوالَه ولا تقل حَوالِيه، بكسر اللام.. والحَوْل اسم يجمع الحَوالى يقال حَوالَي الدار كأنها في الأصل حوالى.. قال الأزهري: يقال رأيت الناس حَوالَه وحَواليْه وحَوْلَه وحَوْلَيْه، فحَوالَه وُحْدانُ حَواليْه، وأما حَولَيْه فهي تثنية حَوْلَهُ.. وفي حديث الاستسقاء: اللهم حَوالَيْنا ولا علينا؛ يريد اللهم أنزل الغيث علينا في مواضع النبات لا في مواضع الأبنية، من قولهم رأيت الناس حواليه أي مُطِيفِين به من جوانبه؛ وأما قول امرئ القيس:

ألست ترى السُّمَّارَ والناس أحْوالي

فعلى أنه جعل كل جزء من الجِرْم المحيط بها حَوْلا، ذهب إلى المبالغة بذلك أي إنه لا مكان حَوْلَها إلا وهو مشغل بالسُّمَّار، فذلك أَذْهَبُ في تَعَذُّرِها عليه. واحْتَوَله القومُ: احْتَوَسُوا حواليه». (ابن منظور، ج11ص ص186-187)

قال تعالى في الآية 17 من سورة البقرة: «مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون»؛ وفي الآية 159 من سورة آل عمران: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾؛ والآية 92 من سورة الأنعام: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾؛ قال تعالى في الآيتين 101 و120 من سورة التوبة: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾، ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾؛ والآية الأولى من سورة

الإسراء: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾.

وقال تعالى في الآيتين 25 و34 من سورة الشعراء، محدثا عن فرعون: «قال لمن حوله ألا تستمعون»، «قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم»؛ وقال تعالى في الآية الثامنة من سورة النمل في قصة سيدنا إبراهيم ومحاولة إحراقه بالنار: ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾؛ وفي الآية 67 من سورة العنكبوت: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم﴾؛ والآية 75 من سورة الزمر: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾؛ وقال تعالى في الآية السابعة من سورة غافر: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾؛ وفي الآية السابعة من سورة الشورى: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها﴾؛ والآية 27 من سورة الأحقاف: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾.

تضمنت بعض الآيات القرآنية ظرف المكان «حَيْثُ» للتدليل على الإقليمية في شكلها الواسع وذلك بشساعة المساحة التي يحق للمرء أن يتحرك فيها بحرية. وقد أورد ابن منظور في «لسان العرب» تحت مادة «حيث»:

«حَيْثُ: ظرف مبهم من الأمكنة، مضموم، وبعض العرب يفتحه.. وقال أبو الهيثم: حَيْثُ ظرف من الظروف، يحتاج إلى اسم وخبر، وهي تجمع معنى ظرفين كقولك: حَيْثُ عبد الله قاعدٌ، زيدٌ قائمٌ؛ المعنى الموضع الذي فيه عبده الله قاعدٌ زيدٌ قائمٌ.. الجوهري: حَيْثُ كلمة تدل على المكان، لأنه ظرف من الأمكنة، بمنزلة حين في الأزمنة.. قال الأصمعي: ومما تخطئ فيه العامة والخاصة باب حِينَ وحَيْثُ، غَلِط فيه العلماءُ مثل أبي عبيدة وسيبويه. قال أبو حاتم: رأيت في كتاب سيبويه أشياء كثيرة يجعل حين حَيْثُ، وكذلك في كتاب أبي عبيدة بخطه، قال أبو حاتم: واعلم أن حِين وحَيْثُ ظرفان، فحين ظرف

من الزمـان، وحَيْثُ ظرف من المكان. ولكل واحـد منهمـا حد لا يجاوزه، والأكثر من الناس جعلوهما معا حَيْثُ، قال: والصواب أن تقول رأيتُك حيث كنتَ أي في الموضع الذي كنت فيه، واذهب حَيْثُ شئت أي إلى أي موضع شئت؛ وقال عز وجل: وكُلا من حيث شئتما. ويقال: رأيتك حين خرج الحاج أي في ذلك الوقت، فهذا ظرف من الزمان، ولا يجوز حيث خرج الحاج». (ابن منظور، ج2ص ص140–141)

وردت «حيث» في ست آيات من سورة البقرة للدلالة على المكان. قال تعالى في الآية 35: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾، وفي الآية 58: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾، والآية 144: ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾، وفي الآيتين 149 و150: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾، وفي الآية 191: ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 89 و91 من سورة النساء: ﴿فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾، ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾؛ وفي الآيتين 19 و161 من سورة الأعراف: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة﴾، ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم﴾؛ والآية الخامسة من سورة التوبة: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 56 من سورة يوسف: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء﴾؛ وفي الآية 36 من سورة ص: «فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب»؛ والآية 74 من سورة الزمر: «وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين».

وتضمن القرآن الكريم بعض الآيات التي تشير إلى سعة المساحات

والأمكنة وضيقها المرتبطين بمفهوم الإقليمية. فقد ذكر الله لعباده بأنه خلق لهم الأرض واسعة يمكنهم أن يسيروا فيها ويهاجروا إلى مختلف بقاعها ويعمروها بأعمال الخير.

قال تعالى في الآية 97 من سورة النساء: ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾؛ وفي الآية 56 من سورة العنكبوت: «يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون»؛ والآية العاشرة من سورة الزمر: ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة﴾.

وقال تعالى في الآية 47 من سورة الذاريات: «والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون». جاء في تفسير ابن عاشور: «الموسع: اسم فاعل من أوسع، إذا كان ذا وُسع، أي قدرة. وتصاريفه جائية من السّعة، وهي امتداد مساحة المكان ضد الضيق، واستعير معناها للوفرة في أشياء مثل الأفراد..». (ت. ع، ج27 ص36) وفي تفسير الإمام الرازي إيضاح إضافي، إذ يقول: «قوله تعالى: ﴿وإنا لموسعون﴾ فيه وجوه (أحدها) أنه من السعة أي أوسعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها كحلقة في فلاة، والبناء الواسع الفضاء عجيب فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤون لأنهم يحتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدارتها ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض، (ثانيها) قوله ﴿وإنا لموسعون﴾ أي لقادرون على أن نخلق أمثالها..». (ت. ر، ج28 م14 ص228)

تضمنت سورة التوبة، ذكراً للأهمية التواصلية للإقليمية، عندما يرتبط المكان بظرف نفسي وسلوكي صعب يتحول فيه الإحساس بالمكان المتسع إلى إحساس بضيق مكاني. قال تعالى في الآيتين 25 و118 من سورة التوبة: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض

بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾، «وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم».

وقال تعالى في الآية 13 من سورة الفرقان: «وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا». يقول الإمام الزمخشري في «تفسير الكشاف»: «لقد جمع الله على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق، حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصا، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج (الحديدة التي في أسفل الرمح) في الرمح، وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل: قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع». (ت. ز، ج3 ص260)

ويعتبر الحشر، شكلا من أشكال تقليص الإقليمية. حيث يصبح المجال الذي يتحرك فيه الشخص في ساحة الحشر، ضيقا. كما أن انتهاك المساحة المحيطة بالشخص يصبح من الأمور المعتادة.

لقد ورد ذكر الحشر في 44 آية، جلها تشير إلى الحشر يوم القيامة. إذ قال تعالى في الآية 203 من سورة البقرة: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾؛ وفي الآيتين 12 و158 من سورة آل عمران: «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد»، «ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون»؛ والآية 172 من سورة النساء: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾؛ وورد ذكر الحشر في الآية 96 من سورة المائدة؛ وفي الآيات 22 و38 و51 و72 و128 من سورة الأنعام؛ وفي الآيتين 24 و36 من سورة الأنفال:؛ وفي الآيتين 28 و45 من سورة يونس؛ والآية 25 من سورة الحجر؛ وفي الآية 97 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 47 من سورة الكهف؛ وفي الآيتين 68 و85 من سورة مريم؛ وفي الآيات 59 و102 و124 و125 من سورة طه؛

وفي الآية 79 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 17 و34 من سورة الفرقان؛ والآية 83 من سورة النمل؛ والآية 40 من سورة سبأ؛ والآية 22 من سورة الصافات؛ و في الآية 19 من سورة فصلت؛ وفي الآية السادسة من سورة الأحقاف؛ والآية 44 من سورة ق؛ وفي الآية التاسعة من سورة المجادلة؛ وفي الآية الثانية من سورة الحشر؛ والآية 24 من سورة الملك.

وورد ذكر الحشر في الدنيا في قوله تعالى في الآية 111 من سورة الأنعام: «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون»؛ وفي قصة فرعون، إذ قال تعالى مخبرا عن قوم فرعون في الآيتين 111 من سورة الأعراف و36 من سورة الشعراء: «قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين»؛ «قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين»؛ وقال تعالى في الآية 53 من سورة الشعراء: «فأرسل فرعون في المدائن حاشرين»؛ وفي الآية 23 من سورة النازعات: «فحشر فنادى»؛ وقال تعالى عن سيدنا سليمان عليه السلام، في الآية 17 من سورة النمل: «وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون»؛ وقال تعالى عن سيدنا داود عليه السلام الذي سخّر الله له الطير تسبّح معه، في الآية 19 من سورة ص: «والطير محشورة كل له أواب».

ونذكر من بين سمات الإقليمية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، الإحاطة بالأفراد والأشياء، والتي تعني وضع المحاط به ضمن سياج أو حدود يصعب الإفلات منها، مما يفرض عليه مساحة إقليمية إجبارية تحد من تحركه. وقد تكون الإحاطة ذات دلالة إيجابية عندما تعني الحماية من المؤثرات الخارجية، أو ذات دلالة سلبية عندما تعني الحصر من أجل إلحاق العذاب بالمحاط به.

وقد ورد مفهوم الإحاطة في شقه السلبي، كسمة من سمات النار يوم

القيامة. إذ قال تعالى في الآية 29 من سورة الكهف: ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها﴾؛ وفي الآية 49 من سورة التوبة والآية 54 من سورة العنكبوت: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾.

أما الإحاطة في شقها الإيجابي فقد تمت الإشارة إليها في لفظة (الحفّ)، في الآية 32 من سورة الكهف، إذ قال تعالى: ﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل﴾.

وقد وردت الإحاطة بمعنى العذاب والهلاك بصفة عامة في قوله تعالى في الآية 81 من سورة البقرة: «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»؛ وقال تعالى في الآية 22 من سورة يونس: ﴿وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم﴾؛ وفي الآية 84 من سورة هود: ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾.

واقترنت الإحاطة بمفهومها الحقيقي والمجازي بالله سبحانه وتعالى. فـ «المحيط» هو أحد أسماء الله الحسنى. قال تعالى في الآية 19 من سورة البقرة: ﴿والله محيط بالكافرين﴾ يتساءل الإمام الرازي: «ما إحاطة الله بالكافرين. الجواب: إنه مجاز المعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به حقيقة ثم فيه ثلاثة أقوال. أحدها أنه عالم بهم قال تعالى ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ وثانيها: قدرته مستولية عليهم ﴿والله من ورائهم محيط﴾ وثالثها: يهلكهم من قوله تعالى ﴿إلا أن يحاط بكم﴾». (ت. ر.ج2 م1 ص89)

وقال تعالى في الآية 60 من سورة الإسراء: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾؛ وقال تعالى في الآية 21 من سورة الفتح: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾؛ وفي الآية 28 من سورة الجن: «ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا»؛ وقال تعالى في الآيتين 19 و20 من سورة البروج: «بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط».

ونستشف مفهوم الإقليمية - كما عرّفناها سابقا - في الآيات التالية:

قال تعالى في الآية 23 من سورة يوسف: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب﴾ فتغليق الأبواب شكل حصارا لسيدنا يوسف وجعل المكان الذي وُجِدا فيه محصورا؛ وفي الآية الثامنة من سورة الإسراء: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾ ويشبه قوله تعالى ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، وفي الآية 13 من سورة الإسراء: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ أي، كما قال الصابوني: «إن الإنسان مرهون بعمله مجزيّ به، وعمله ملازم له لزوم القلادة للعنق لا ينفك عنه أبدا». (ت. ص، ج2ص154)؛ وقال تعالى في الآية 29 من سورة الشعراء: «قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين» فالسجن تجسيد للإقليمية والحد من الحرية والقدرة على التحرك ضمن مساحة إقليمية كانت متاحة من قبل؛ وفي الآية 177 من سورة الصافات: «فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين»؛ والآية 21 من سورة ص: «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب»؛ وقال تعالى في الآية 75 من سورة الواقعة: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾. ومواقع النجوم هي مداراتها التي لا تحيد عنها ولا تقتحمها الأجرام السماوية الأخرى، إلا بإذن الخالق عز وجل؛ وقال تعالى في الآية 11 من سورة المجادلة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾؛ وفي الآية 15 من سورة الملك: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها﴾؛ والآية 20 من سورة نوح: ﴿لتسلكوا منها سبلا فجاجا﴾؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة المرسلات: «وإذا السماء فرجت»؛ وفي الآية 19 من سورة النبأ: ﴿وفتحت السماء فكانت أبوابا﴾؛ وقال تعالى في الآية 32 من سورة النبأ: «حدائق وأعنابا».

من بين أبرز المفاهيم المرتبطة، مجازا، بمفهوم الإقليمية، نجد مفهوم «ضيق الصدر» الذي ورد في بعض الآيات القرآنية. فضيق الصدر يتمثل في

الإحساس بالمساحات، إحساسا مقزما، أما الأفراد فيتم الإحساس بهم باعتبارهم مسببين للإزعاع. فالشخص الذي يضيق ذرعا بالآخرين، يسعى لإبعادهم عنه، وكأنهم يخترقون إقليميته ويحدون من حركته.

قال تعالى في الآية 125 من سورة الأنعام: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء﴾؛ وفي الآيتين 12 و77 من سورة هود: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾، ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا﴾؛ وقال تعالى في الآية 97 من سورة الحجر: «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون»؛ وفي الآية 127 من سورة النحل:﴿ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾؛ والآية 13 من سورة الشعراء: ﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾؛ وقال تعالى في الآية 70 من سورة النمل: «ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون؛ وفي الآية 33 من سورة العنكبوت: ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا﴾.

المبحث الرابع

الفصل بين الأماكن والأفراد

إن الفصل بين الأماكن والأفراد، سواء في الحقيقة أو المجاز، هو إحدى سمات الاتصال المسافي، إذ يهدف الفصل إلى إضفاء معنى البُعْد على العلاقة أو الموقف. فعندما ينفصل شخصان عن بعضهما أو يتم الفصل بين شخص وشيء أو بين مكانين أو أكثر، فذلك يعني الابتعاد لمسافة تكفي لتغيير طبيعة العلاقة من الارتباط إلى الانفصال أو القطيعة. كما يمكن التعبير عن تلك القطيعة بوضع فاصل أو جدار أو حجاب ملموس (وإن كان رفيعا)، أو بوضع فاصل أو جدار نفسي غير ملموس ولكنه يؤدي إلى نتائج ملموسة.

بالإضافة إلى التعبير عن القطيعة أو الانفصال، فإن الفصل بين الأماكن والأفراد قد يهدف - على الصعيد التواصلي - إلى التمييز بين الأشياء والأفراد. فالجُدُر التي تفصل بين المنازل أو بين الحجرات داخل كل منزل، تهدف إلى التمييز وتبيان حدود المِلْكية. كما أن تقسيم الأفراد إلى فرق ومجموعات يهدف إلى تمييز كل فرقة أو مجموعة عن غيرها.

أما على الصعيد النفسي، فإن الفرد قد يستعصم تجاه كل ما يؤدي به إلى الانحراف أو الخطر. فالعصمة تعني وضع سياج نفسي من القيم والمعتقدات والسلوك التي تحمي الإنسان من المؤثرات الداخلية التي تدفع صاحبها للانحراف (والشيطان محركها الرئيس)، والمؤثرات الخارجية القادمة من ثقافات مناهضة للثقافة السائدة. وقد يلجأ الفرد للكتمان وترك الأمور في السر، كشكل من أشكال الفصل بين ما يعرفه (الحقيقة) والعالم الخارجي، تفاديا للعواقب التي قد تنتج عن العلانية.

لقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى مختلف المفاهيم والمصطلحات المرتبطة بالفصل، مما يغني نظرتنا إلى التواصل عبر المسافة الحقيقية والمجازية.

1 - التفـريق والفصـــل

ورد ذكر التفريق والفصل بين الأفراد والأماكن، والتفريق بين الأفراد - أي جعلهم فرقا - والانفصال بين شخصين رفيقين.. وذلك بالابتعاد أو التباعد الذي يمكن قياسه بالمسافة الطولية. ورد ذلك في سور البقرة والمائدة والكهف.

قال تعالى في الآيات 50 و100 و102 و249 من سورة البقرة: «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون»، «أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون»، ﴿يفرقون به بين المرء وزوجه﴾، ﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾.

وقال تعالى في الآية 25 من سورة المائدة: «قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين»؛ وفي الآية 78 من سورة الكهف: ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾.

وورد معنى الفصل والتفريق بين الناس والأماكن من قبل أناس آخرين، في الآية الثانية من سورة المائدة حيث أشير إليه بالصد، إذ قال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾.

قال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿أن صدوكم﴾: «اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك. فقرأه بعض أهل المدينة وعامة قرأة الكوفيين: ﴿أن صدوكم﴾ بفتح «الألف» من «أن» بمعنى: لا يجرمنكم بغض قوم بصدهم إياكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وكان بعض قرأة الحجاز والبصرة يقرأ ذلك: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم إن صدوكم﴾، بكسر «الألف» من «إن»، بمعنى: ولا يجرمنكم شنآن قوم إن هم أحدثوا لكم صدا عن المسجد الحرام أن تعتدوا...

والصواب من القول في ذلك عندي، أنهما قراءتان معروفتان مشهورتان في قراءة الأمصار، صحيح معنى كل واحدة منهما. وذلك أن النبي ﷺ صُدَّ عن البيت هو وأصحابه يوم الحديبية، وأنزلت عليه «سورة المائدة» بعد ذلك، فمن قرأ ﴿أن صدوكم﴾ بفتح «الألف» من «أن»، فمعناه: لا يحملنكم بغض قوم، أيها الناس، من أجل أن صدوكم يوم الحديبية عن المسجد الحرام، أن تعتدوا عليهم.

ومن قرأ: ﴿إن صدوكم﴾ بكسر «الألف»، فمعناه: لا يجرمنكم شنآن قوم إن صدوكم عن المسجد الحرام إذا أردتم دخوله. لأن الذين حاربوا رسول الله ﷺ وأصحابه من قريش يوم فتح مكة، قد حاولوا صدهم عن المسجد الحرام، قبل أن يكون ذلك من الصادين.

غير أن الأمر، وإن كان كما وصفت، فإن قراءة ذلك بفتح «الألف»، أبين معنى. لأن هذه السورة لا تَدَافُعَ بين أهل العلم في أنها نزلت بعد يوم الحديبية. وإذ كان ذلك كذلك، فالصد قد كان تقدم من المشركين، فنهى الله المؤمنين عن الاعتداء على الصادين من أجل صدهم إياهم عن المسجد

الحرام». (ت. ط، ج6 م4 ص ص404-405)

وقال تعالى في الآية 52 من سورة الكهف: «ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا». وفُسِّر قوله تعالى ﴿وجعلنا بينهم موبقا﴾: «أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكة لا يجتازها هؤلاء وهي النار». (ص. ت، ج2 ص195)؛ وقال تعالى في الآية 54 من سورة سبأ: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾؛ وفي الآية 158 من سورة الصافات: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾.

2 - الإحصار والعزل

قال الإمام الزمخشري في الإحصار: «يقال: أُحصر فلان، إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز. قال الله تعالى ﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾. وقال توبة بن حمير:

وما هجرُ ليلى أَنْ تكون تباعدت عليك ولا أن احْصَرَتْكَ شَغُولُ

وحُصر: إذا حبسه عدو عن المضي، أو سجن. ومنه قيل للحبس: الحصير. وللملك، الحصير، لأنه محجوب. هذا هو الأكثر في كلامهم، وهما بمعنى المنع في كل شيء، مثل صدّه وأصدّه. وكذلك قال الفراء وأبو عمرو الشيباني، وعليه قول أبي حنيفة رحمهم الله تعالى، كل منع عنده من عدو كان أو مرض أو غيرهما معتبر في إثبات حكم الإحصار». (ت. ز، ج1 ص237)

أما العزل، فقد أورد ابن منظور في «لسان العرب» تحت مادة «عزل»: «عَزَل الشيء يعزله عزْلا وعزّله فاعتزل وانعزل وتَعَزّل: نحاه جانبا فتنحى. وقوله تعالى: إنهم عن السمع لمعزولون؛ معناه أنهم لما رُمُوا بالنجوم مُنِعوا من السمع. واعتزل الشيء وتعزّله، ويتعديان بعَنْ: تنحى عنه.. وتعازل القوم:

انعزل بعضهم عن بعض. والعزلة: الانعزال نفسه، يقال: العزلة عبادة. وكنت بمعزل عن كذا وكذا أي كنت بموضع عزلة منه. واعتزلت القوم أي فارقتهم وتنحيت عنهم..». (ابن منظور، ج11 ص440)

لقد ورد ذكر الإحصار في الآيتين 196 و273 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾، ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض﴾؛ وقال تعالى في الآية 39 من سورة آل عمران: «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين». (حصورا: لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهن تعففا وزهدا) (مخلوف، 1956، ص37)؛ وفي الآية 90 من سورة النساء: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة التوبة: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم﴾؛ وفي الآية الثامنة من سورة الإسراء: «عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا».

وورد ذكر العزل في الآية 222 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾؛ وقال تعالى في الآية 91 من سورة النساء: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾؛ وفي الآية 42 من سورة هود: ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل﴾؛ والآية 16 من سورة الكهف: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 48 و49 من سورة مريم: «وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا. فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون

الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا»؛ وفي الآية 212 من سورة الشعراء: «إنهم عن السمع لمعزولون»؛ والآية 51 من سورة الأحزاب: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾؛ والآية 21 من سورة الدخان: «وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون».

3 - الحجاب

الحجاب، في اللغة: الستر. «حجب الشيء يحجُبُه حجْبا وحِجابا وحَجّبَه: ستره. وقد احتجب وتحجّب إذا اكتنّ من وراء حجاب. وامرأة محجوبة: قد سُتِرَت بستر.. والحاجب: البواب، صفة غالبة، وجمعه حَجَبة وحُجّاب.. وحجبه: أي منعه من الدخول.. والحجاب: اسم ما احْتُجِب به، وكل ما حال بين شيئين: حِجاب، والجمع حُجُب لا غير. وقوله تعالى: ومن بيننا وبينك حِجاب، معناه: ومن بيننا وبينك حاجز في النِحْلَة والدين.. واحتجب المَلِك عن الناس، ومَلِك مُحَجَّب.. وكل شيء منع شيئا، فقد حجبه.. ». (ابن منظور، ج1 ص298)

قال تعالى في الآية 46 من سورة الأعراف: ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾؛ وفي الآية 45 من سورة الإسراء: «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا»؛ والآية 17 من سورة مريم: ﴿فاتخذت من دونهم حجابا﴾؛ وقال تعالى في الآية 53 من سورة الأحزاب: ﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾؛ وفي الآية 32 من سورة ص: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب»؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة فصلت: «وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون»؛ وفي الآية 51 من سورة الشورى: «وما كان لبشر

أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم»؛ والآية 15 من سورة المطففين: «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون».

4 - السد والجدار

ومن بين المصطلحات التي تعبر عن الفصل بين الأماكن والأشياء، تضمن القرآن الكريم ذكر «السد» الذي يفصل بين الأمكنة الشاسعة أو بين الأفراد، و«الجدار» الذي قد يفصل بين الأمكنة الشاسعة أو المنازل أو بين الحجرات داخل المنزل.

قال تعالى في الآيات 94 و95 و96 من سورة الكهف: «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا. قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما. آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا»؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة يس: «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 77 و82 من سورة الكهف: ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه﴾، ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما﴾؛ وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة الحجرات: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون»؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة الحشر: ﴿لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾.

5 - الطـــلاق

الطلاق في الشرع هو طلاق المرأة: أي بينونتها عن زوجها بحلّ عقدة النكاح. وهو يفيد التخلية والإرسال والابتعاد. وبالإضافة إلى تطليق النساء، فإن الطلاق في اللغة يعني المفارقة والابتعاد في أشياء أخرى. فقد ورد في «لسان العرب»: «طلّقت البلاد: فارقتها. وطلّقت القوم: تركتهم.. الطالق من الإبل: التي طُلِقت في المرعى، وقيل هي التي لا قيد عليها.. ويقال للإنسان إذا عتق طليق أي صار حرّا». (ابن منظور، ج10ص226) وقد ورد الطلاق في سور البقرة والأحزاب والطلاق والتحريم.

تضمنت سورة البقرة تسع آيات ورد فيها ذكر الطلاق. قال تعالى في الآيات 227 و228 و229 و230 و231 و232 و233: «وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم» ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾، وفي الآية 236: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، والآية 241: «وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين».

وقال تعالى في الآية 49 من سورة الأحزاب: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا

نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾؛ وقال تعالى في الآيات الأولى والثانية والسادسة من سورة الطلاق: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ ﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾، «أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى»؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة التحريم: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا».

6 - العصمة والاعتصام

العصمة والاعتصام كلمتان تدلان على الحماية والاحتماء مما قد يشكل خطرا. فالعصمة غالبا ما تكون بالاقتراب من العاصم للاحتماء به، وفي الوقت نفسه الابتعاد عن مصدر الخطر. وبينما يتمثل الجهد الأكبر عند العاصم في إبعاد مصدر الخطر عن المعصوم؛ يتطلب الاعتصام ممن تعرض للخطر، أن يسعى جاهدا للابتعاد عن مصدر الخطر. والعصمة في لغة العرب تعني: «المنع. وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عَصَمه يَعْصِمُه عَصْما: منعه ووقاه.. والعصمة الحفظ.. والعاصم: المانع الحامي. والاعتصام: الامتساك بالشيء.. وأعْصَمَ الرجل بصاحبه إعْصاما إذا لزمه..». (ابن منظور، ج12 ص ص403-406)

قال تعالى في الآيتين 101 و103 من سورة آل عمران: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾، ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾؛ وفي الآيتين 146 و175 من سورة النساء: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا

واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين﴾، ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه﴾؛ وقال تعالى في الآية 67 من سورة المائدة: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾؛ وفي الآية 27 من سورة يونس: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم﴾؛ والآية 43 من سورة هود: ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾.

وقال تعالى في الآية 32 من سورة يوسف: ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾؛ وفي الآية 78 من سورة الحج: ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم﴾؛ والآية 17 من سورة الأحزاب: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة﴾؛ والآية 33 من سورة غافر: «يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد».

وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة الممتحنة: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾. وقد فُسِّر قوله تعالى ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾: «أي ولا تتمسكوا بعقود زوجاتكم الكافرات، فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة زوجية. قال القرطبي: المراد بالعصمة هنا النكاح، يقول: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فليست امرأته، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين». (ت. ص، ج3 ص365)

7 - الإسرار والعلانية

إن إبقاء السلوكات والمعلومات طي السر والكتمان، أو إظهارها علانية، يقترب في بعض جوانبه، من التواصل المسافي. فاللجوء إلى السر، يشبه

تقريب الأشياء والمعارف، قصد إخفائها. فالشخص الذي يخفي أشياء تحت ملابسه أو داخل جيوبه، أو يخفيها داخل حجرته أو منزله، يستغل مفهوم الإقليمية - الذي تحدثنا عنه في المبحث السابق - لكي يحتفظ بتلك الأشياء في السر؛ وكذا يفعل من يخبئ المعرفة في رأسه ولا يبوح بها للآخرين. أما العلانية، فتعني إظهار الأشياء والمعارف وجعلها في متناول المتلقين.

لقد ورد مفهوما الإسرار والعلانية في الآيتين 77 و274 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون»، ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 120 من سورة الأنعام: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾؛ وفي الآية الخامسة من سورة هود: ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾؛ والآية 22 من سورة الرعد: ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾؛ وقال تعالى في الآية 31 و38 من سورة إبراهيم: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية﴾، ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء﴾.

وقال تعالى في الآيات 19 و23 و75 من سورة النحل: «والله يعلم ما تسرون وما تعلنون»، ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾، ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا﴾؛ وفي الآيتين 25 و74 من سورة النمل: «ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون»، «وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون»؛ وقال تعالى في الآية 69 من سورة القصص: «وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون»؛ وفي الآية 20 من سورة لقمان: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ

عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾؛ والآية 29 من سورة فاطر: «إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور»؛ وقال تعالى في الآية 76 من سورة يس: «فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون»؛ وفي الآية الأولى من سورة الممتحنة: ﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾؛ والآية الرابعة من سورة التغابن: «يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور».

المبحث الخامس

الاتجاهات والتموضع

يعرف الإنسان، من خلال خبرته العامة، الاتجاهات الستة، وهي: الشمال والجنوب والشرق والغرب والأعلى والأسفل. وإذا لم يأخذ بالاتجاهات الجغرافية الأربعة، يمكنه الاعتماد على جسمه لتحديد اتجاهات ومواقع الأشياء والأفراد المحيطين به، انطلاقا من: اليمين والشمال (اليسار) والأمام والخلف والأعلى والأسفل (أو فوق وتحت). أما التموضع فيشار إليه غالبا، بوضع الأفراد والأشياء مكان ما في الوسط أو في أحد الأطراف.. في الواجهة أو في الخلف..

إلا أن خبرة الإنسان العامة بالاتجاهات والتموضع تظل نسبية، وقابلة لاحتمالات معاكسة، عند النظر إلى الأمور على المستوى الكوكبي أو الكوني. فما يمكن اعتباره يقع في الأعلى، قد يبدو للآخرين يقع في الأسفل. وبما أن الكوكب الذي نعيش فيه ذا شكل كروي، وكذا الكون الذي يضمنا، فضلا عن الحركة الدائمة التي تعرفها الأجرام الكونية، فإن الاتجاهات لا يمكن إدراكها

كثوابت. ففي كوكبنا الأرض، كل من عليها، يمكن أن يقع في الشرق وفي الغرب في آن معا، مقارنة بما يجاوره، كما يمكن أن يقع في الأعلى وفي الأسفل بحكم الحركة الدائرية للكرة الأرضية. وإذا كانت السماء بنجومها تبدو فوقنا، فهي كذلك تحتنا أي تحت الموقع الذي نقف عليه، ولكن في الطرف الآخر من الكرة الأرضية. وبصفة عامة يمكن القول إن الاتجاهات والتموضعات تقوم بدور هام في التواصل المسافي على سطح كوكبنا الأرض وفي علاقتنا ومعرفتنا بالأجرام السماوية في الفضاء. كما أن بعض الاتجاهات والمواضع ذات دلالة تفضيلية أضفيت عليها من قبل الحضارات والثقافات المتعاقبة والأديان.

وقد حفل القرآن الكريم بالإشارة إلى مختلف الاتجاهات وبعض التموضعات، مع تفضيل واهتمام خاص بجهتي المشرق والمغرب، وتفضيل لكل ما هو أعلى مقارنة بكل ما هو أسفل، وتفضيل لليمين على الشمال.

1 - المشرق والمغرب

ورد ذكر المشرق والمغرب بدءا من الآية 115 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب فأين ما تولوا فثم وجه الله﴾. وقد جاء في تفسير الرازي لهذه الآية:

«الآية من أقوى الدلائل على نفي التجسيم وإثبات التنزيه، وبيانه من وجهين (الأول) أنه تعالى قال ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ فبين أن هاتين الجهتين مملوكتان له وإنما كان كذلك لأن الجهة أمر ممتد في الوهم طولا وعرضا وعمقا وكل ما كان كذلك فهو منقسم، وكل منقسم فهو مؤلف مركب، وكل ما كان كذلك فلابد له من خالق موجد، وهذه الدلالة عامة في الجهات كلها،

أعني الفوق والتحت، فثبت بهذا أنه تعالى خالق الجهات كلها، والخالق متقدم على المخلوق لا محالة، فقد كان الباري تعالى قبل خلق العالم منزها عن الجهات والأحياز، فوجب أن يبقى بعد خلق العالم كذلك لا محالة لاستحالة انقلاب الحقائق والماهيات (الوجه الثاني) أنه تعالى قال ﴿فأين ما تولوا فثم وجه الله﴾ ولو كان الله تعالى جسما وله وجه جسماني لكان وجهه مختصا بجانب معين وجهة معينة فما كان يصدق قوله ﴿فأين ما تولوا فثم وجه الله﴾ فلما نص الله تعالى على ذلك علمنا أنه تعالى منزه عن الجسمية.. ». (ت. ر. ج4 م2 ص24)

وأضاف ابن عاشور في تبيان معنى المشرق والمغرب، قائلا: «المراد من ﴿المشرق والمغرب﴾ في الآية تعميم جهات الأرض لأنها تنقسم بالنسبة إلى مسير الشمس قسمين قسم يبتدئ من حيث تطلع الشمس وقسم ينتهي من حيث تغرب وهو تقسيم اعتباري كان مشهورا عند المتقدمين لأنه المبني على المشاهدة مناسب لجميع الناس والتقسيم الذاتي للأرض هو تقسيمها إلى شمالي وجنوبي لأنه تقسيم ينبني على اختلاف آثار الحركة الأرضية». (ت. ع، ج1 ص664)

كما ورد ذكر المشرق والمغرب في الآيات 142 و177 و258 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾، ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾، ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾.

وقال تعالى في الآية 137 من سورة الأعراف: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾؛ وفي الآية 17 من سورة الكهف: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾؛ والآية 16 من سورة مريم: «واذكر في الكتاب

مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا»؛ والآية 35 من سورة النور:﴿«الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 28 و60 من سورة الشعراء: «قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون»، «فأتبعوهم مشرقين»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الصافات: «رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق»؛ والآية 38 من سورة الزخرف: «حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين»؛ وقال تعالى في الآية 17 من سورة الرحمن: «رب المشرقين ورب المغربين»؛ وفي الآية 40 من سورة المعارج: «فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون»؛ والآية التاسعة من سورة المزمل: «رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا».

2 - التحت

ورد ذكر جهة «التحت» في كثير من الآيات القرآنية مرتبطا بأنهار الجنة. إذ نجد عبارة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وما شابهها في 40 آية. وقد فسر الإمام الطبري جهة التحت، قائلا:

«الجنات: جمع جنة، والجنة: البستان. وإنما عنى جلّ ذكره بذكر الجنة: ما في الجنة من أشجارها وثمارها وغروسها، دون أرضها - ولذلك قال عز ذكره: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾. لأنه معلوم أنه إنما أراد جل ثناؤه الخبرَ عن ماء أنهارها أنه جارٍ تحت أشجارها وغروسها وثمارها، لا أنه جارٍ تحت أرضها. لأن الماء إذا كان جاريا تحت الأرض، فلاحظ فيها لعيون مَنْ فوقها إلا بكشف الساتر بينها وبينه. على أن الذي تُوصف به أنهار الجنة، أنها جارية في غير أخاديد..

فإذا كان الأمر كذلك، في أن أنهارها جارية في غير أخاديد، فلا شك أن الذي أريد بالجنات: أشجار الجنات وغروسها وثمارها دون أرضها، إذ كانت أنهارُها تجري فوق أرضها وتحت غروسها وأشجارها، على ما ذكره مسروق. وذلك أولى بصفة الجنة من أن تكون أنهارها جارية تحت أرضها». (ت. ط، ج1م1ص ص205-206).

ويضيف ابن عاشور في توضيح المقصود بالتحت، قائلا: «وقوله: ﴿من تحتها﴾ يظهر أنه قيد كاشف قصد منه زيادة إحضار حالة جري الأنهار إذ الأنهار لا تكون في بعض الأحوال تجري من فوق فهذا الوصف جيء به لتصوير الحالة للسامع لقصد الترغيب وهذا من مقاصد البلغاء إذ ليس البليغ يقتصر على مجرد الإفهام..

والتحت اسم لجهة المكان الأسفل وهو ضد الأعلى، ولكل مكان علوٌّ وسفلٌ ولا يقتضي ذلك ارتفاع ما أضيف إليه التحت على التحت بل غاية مدلوله أنه بجهة سفله قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ فلا حاجة إلى تأويل الجنة هنا بالأشجار لتصحيح التحت ولا إلى غيره من التكلفات». (ت. ع، ج1 ص350)

قال تعالى في الآيتين 25 و266 من سورة البقرة: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار﴾؛ وورد ذكر جهة «التحت» في الآيات 15 و136 و195 و198 من سورة آل عمران؛ وفي الآيات 13 و57 و122 من سورة النساء؛ وفي الآيات 6 و12 و66 و85 و119 من سورة المائدة»؛ والآية 43 من سورة الأعراف؛ وفي الآيات 72 و89 و100 من سورة التوبة؛ والآية التاسعة من سورة يونس؛ وفي الآية 35 من سورة الرعد؛ والآية 23 من سورة إبراهيم؛ وفي الآية 31 من سورة النحل؛ وفي الآية 31 من سورة

الكهف؛ والآية 76 من سورة طه؛ وفي الآيتين 14 و23 من سورة الحج؛ وفي الآية العاشرة من سورة الفرقان؛ والآية 58 من سورة العنكبوت؛ والآية 20 من سورة الزمر؛ والآية 12 من سورة محمد؛ وفي الآيتين 5 و17 من سورة الفتح؛ وفي الآية 12 من سورة الحديد؛ والآية 22 من سورة المجادلة؛ والآية 12 من سورة الصف؛ وفي الآية التاسعة من سورة التغابن؛ وفي الآية 11 من سورة الطلاق؛ والآية الثامنة من سورة التحريم؛ وفي الآية 11 من سورة البروج؛ والآية الثامنة من سورة البينة.

وقد ورد ذكر جهة «التحت» باعتبارها إحدى الجهات التي تكون مصدرا للعذاب. إذ جاء في القرآن الكريم عبارة (تحت أقدامهم) أو (تحت أرجلهم) للإشارة إلى مصدر العذاب.

قال تعالى في الآية 66 من سورة المائدة: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾؛ وفي الآية 65 من سورة الأنعام: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾؛ والآية 55 من سورة العنكبوت: «يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون».

يقول ابن عاشور في تفسير المراد من التحت في الآية 66 من سورة المائدة: «معنى ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ تعميم جهات الرزق، أي لرزقوا من كل سبيل، فأكلوا بمعنى رزقوا.. وقيل: المراد بالمأكول من فوق ثمار الشجر، ومن تحت الحبوب والمقاثي، فيكون الأكل على حقيقته، أي لاستمر الخصب فيهم». (ت. ع، ج5 ص149) ثم يضيف في تفسيره للآية 65 من سورة الأنعام، موضحا المراد من (فوق) و(تحت): «العذاب الذي من فوق مثل الصواعق والريح، والذي من تحت الأرجل مثل الزلازل والخسف والطوفان». (ت. ع، ج6 ص147)

وقال تعالى في الآية 16 من سورة الزمر: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾. يقول الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾: «المراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب... فإن قيل الظلل ما على الإنسان فكيف سمى ما تحته بالظلل؟ والجواب من وجوه (الأول) أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر.. (الثاني) أن الذي يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات (والثالث) أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة. قال الحسن هم بين طبقتين من النار لا يدرون ما فوقهم أكثر مما تحتهم». (ت. ر. ج26 م13 ص258)

وفي سور الكهف ومريم وطه والفتح ذكر صريح لجهة التحت، إذ قال تعالى في الآية 82 من سورة الكهف: ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما﴾؛ وفي الآية 24 من سورة مريم: «فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا»؛ والآية السادسة من سورة طه: «له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى»؛ والآية 18 من سورة الفتح: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾.

وفي الآية 29 من سورة فصلت، تبيان للبعد التواصلي لجهة التحت، إذ اعتبرت تجسيدا للدونية والاحتقار. قال تعالى: «وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين».

وورد ذكر جهة التحت على سبيل المجاز في الآية العاشرة من سورة التحريم، إذ قال تعالى: «ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين». وقد فصّل ابن عاشور تفسير قوله تعالى ﴿تحت﴾، قائلا:

«التحتية هنا مجاز في معنى الصيانة والعصمة ومنه قول أنس بن مالك في الحديث المروي في «الموطأ» وفي «صحيح البخاري» عن أم حرام بنت ملحان: «وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت». ومن بدائع الأجوبة أن أحد الأمراء من الشيعة سأل أحد علماء السنة: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فأجابه: «الذي كانت ابنته تحتَه» فظن أنه فضل علياً إذ فهم أن الضمير المضاف إليه «ابنَة» ضميرَ رسول الله ﷺ وأن الضمير المضاف إليه (تحت) ضمير اسم الموصول، وإنما أراد السنّي العكس بأن يكون ضمير «ابنته» ضمير الموصول «تحته» ضمير رسول الله ﷺ، وذلك هو أبو بكر». (ت. ع، ج28 ص336)

3 - الفــوق

إن أصل لفظ (فوق) «اسم للمكان المعتلي على غيره فهو اسم مبهم فلذلك كان ملازما للإضافة لأنه تتميز جهته بالاسم الذي يضاف هو إليه فهو من أسماء الجهات الملازمة للإضافة لفظا أو تقديرا ويستعمل مجازا في المتجاوز غيره في صفة تجاوزا ظاهرا تشبيها بظهور الشيء المعتلي على غيره على ما هو معتل عليه، ففوق في مثله يستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة سواء كانت من المحامد أو من المذام يقال: فلان خسيس وفوق الخسيس.. وتقول: أعطى فلان فوق حقه أي زائدا على حقه.. ونظيره قول النبي ﷺ: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة» رواه مسلم، يحتمل أقل من شوكة في الأذى مثل نَخْبة النملة كما جاء في حديث آخر، أو ما هو أشد من الشوكة مثل الوخز بسكين وهذا من تصاريف لفظ فوق في الكلام.. ». (ت. ع، ج1 ص357)

وقد وردت الإشارة إلى جهة الفوق بمدلولها الحقيقي في الآيتين 63 و93 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾،

وفي الآية 212: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾؛ وقال تعالى في الآية 154 من سورة النساء: ﴿رفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ وفي الآية 66 من سورة المائدة: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾؛ والآية 65 من سورة الأنعام: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 41 و171 من سورة الأعراف: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾، ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾؛ وفي الآية 36 من سورة يوسف: ﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه﴾؛ والآية 26 من سورة إبراهيم: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار».

وتشير جهة الفوق المقترنة بجبل الطور في الآيات 63 و93 من سورة البقرة و154 من سورة النساء و171 من سورة الأعراف، إلى الطول والارتفاع، وليس إلى الفوق كما يبدو السقف أو السماء. ذلك أن الجبل أطول من الإنسان، ولكي ينظر هذا الأخير إلى قمته عليه أن يرفع نظره إلى أعلى. فالعلاقة هنا علاقة مقارنة في الطول وليست علاقة تراتب حيث يكون الجبل فوق الإنسان، كما يبدو القمر والنجوم.

وقال تعالى في الآيتين 26 و88 من سورة النحل: ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم﴾، ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب﴾؛ وفي الآيتين 19 من سورة الحج: ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾؛ والآية 17 من سورة المؤمنون: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾؛ وقال تعالى في الآية 40 من سورة النور: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾؛ وفي الآية 55 من سورة العنكبوت:

﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم﴾؛ والآية العاشرة من سورة الأحزاب: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 16 و20 من سورة الزمر: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾، ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة فصلت: ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها ﴾؛ والآية الخامسة من سورة الشورى: ﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن﴾؛ وقال تعالى في الآية 32 من سورة الزخرف: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾؛ وفي الآية 48 من سورة الدخان: «ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم»؛ والآية السادسة من سورة ق: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ﴾؛ وقال تعالى في الآية 19 من سورة الملك: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾؛ وفي الآية 17 من سورة الحاقة: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾؛ والآية 12 من سورة النبأ: «وبنينا فوقكم سبعا شدادا».

وورد ذكر جهة الفوق على سبيل المجاز مقترنا بالمولى عزّ وجل في الآيتين 18 و61 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾؛ وقال تعالى في الآية 50 من سورة النحل: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة الفتح: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾.

وجاء في الآية 127 من سورة الأعراف ذكر الفوقية بمعنى القهر والسلطان، في قوله تعالى في قصة فرعون: «وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون».

ووردت معاني مجازية أخرى للفوقية، كقوله تعالى في الآية 26 من سورة البقرة: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾. فالمراد

بقوله ﴿فما فوقها﴾ أي دونها في الحقارة والصغر؛ وقال تعالى في الآية 55 من سورة آل عمران: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾أي متفوقين عليهم؛ وقال تعالى في الآية 11 من سورة النساء: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ وقوله تعالى ﴿فوق اثنتين) أي أكثر من اثنتين؛ وقال تعالى في الآية 165 من سورة الأنعام: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي «خالف بين أحوالكم في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد». (ت. ص، ج1 ص432)؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة الأنفال: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ فوق الأعناق أي على الأعناق؛ وقال تعالى في الآية 76 من سورة يوسف: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ أي كل ذي علم هناك من هو أعلم منه؛ وقال تعالى في الآية الثانية من سورة الحجرات: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ فرفع الصوت فوق صوت النبي يقتضي زيادة شدته وحدته بحيث يصل إلى مدى أبعد فيطغى على صوت النبي وهذا يسبب تشويشا - بالمعنى التواصلي - ويدل على عدم الاحترام.

4 - الـوراء والخـلف والظـهر

جاء في «لسان العرب» لابن منظور: «وراء بمعنى خلف، وقد يكون بمعنى قُدَّام، وهو من الأضداد». (ابن منظور، ج15ص390) أما الخَلْف فهو «ضد قدّام.. وخَلَفه يَخْلُفه: صار خلفه.. وجلستُ خلف فلان أي بعده. والخلف: الظهر.. والتخلف: التأخر. وفي حديث سعد: فخلّفنا فكنّا آخر الأربع أي أخّرنا ولم يقدّمنا.. ». (ابن منظور، ج9 ص ص82-83)

وقد ورد ذكر الوراء في القرآن الكريم، بمعنى الخلف (عكس قدّام) في سورتي النساء والانشقاق. إذ قال تعالى في الآية 102 من سورة النساء: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 16 و17 من سورة إبراهيم: «من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد. يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ»؛ وفي الآية العاشرة من سورة الجاثية: ﴿من ورائهم جهنم﴾؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة الانشقاق: «وأما من أوتي كتابه وراء ظهره».

وتضمنت بعض الآيات القرآنية ذكر الظهر باعتباره أحد الجهات الموضعية التي توجد لدى كل الكائنات التي تتخذ شكلا مميزا بحيث يمكن تمييز مختلف الأعضاء كالوجه والأطراف والبطن والظهر، في حالة الكائنات الحية، أو الواجهة والظهر، في حالة المنازل، على سبيل المثال.

قال تعالى في الآية 189 من سورة البقرة: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾؛ وفي الآية 31 من سورة الأنعام: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾؛ وقال تعالى في الآية 172 من سورة الأعراف: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾؛ وفي الآية 35 من سورة التوبة: ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾؛ والآية 39 من سورة الأنبياء: «لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون».

وورد الخلف بمعناه المجازي في صيغة (بين يدي وما خلف..) وتستخدم عبارة ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ في القرآن الكريم «كناية عمن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر». (ت. ص، ج1، ص65) وفي لسان العرب: «وقوله تعالى: يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم؛ قال

الزجاج: خلفهم ما قد وقع من أعمالهم وما بين أيديهم من أمر القيامة وجميع ما يكون. وقوله تعالى: وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم؛ ما بين أيديكم ما أسلفتم من ذنوبكم، وما خلفكم ما تستعملونه فيما تستقبلون، وقيل: ما بين أيديكم ما نزل بالأمم قبلكم من العذاب، وما خلفكم عذاب الآخرة». (ابن منظور، ج9ص82)

قال تعالى في الآيتين 66 و255 من سورة البقرة: «فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين»، ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾؛ وورد تعبير (بين اليد والخلف) في الآية 17 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 110 من سورة طه؛ والآية 28 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 9 و45 من سورة يس وفي الآيات 14 و25 و42 من سورة فصلت؛ والآية 21 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 27 من سورة الجن.

تضمنت بعض الآيات القرآنية عبارة (وراء الظهر) المستمدة من جهة الوراء، واستخدامها بكيفية مجازية. فعبارة ﴿وراء ظهورهم﴾ وما شاكلها «مثل يُضرَب للإعراض عن الشيء جملة، تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضا، لأن ما يُجْعَل وراء الظهر لا يُنْظَر إليه». (ت. ص، ج1 ص84)

قال تعالى في الآية 101 من سورة البقرة: «ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون». يوضح ابن عاشور المراد من وراء الظهر في هذه الآية، قائلا: «وقوله: ﴿وراء ظهورهم﴾ تمثيل للإعراض لأن من أعرض عن شيء تجاوزه فخلفه وراء ظهره وإضافة الوراء إلى الظهر لتأكيد بُعْد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك فجعل للظهر وراء وإن كان هو هنا بمعنى الوراء. فالإضافة كالبيانية وبهذا يُجاب عما نقله ابن عرفة عن الفقيه أبي العباس أحمد بن

عبلون أنه كان يقول: مقتضى هذا أنهم طرحوا كتاب الله أمامهم لأن الذي وراء الظهر هو الوجه وكما أن الظهر خلف للوجه كذلك الوجه وراء للظهر قال ابن عرفة: وأجيب بأن المراد أي بذكر الظهر تأكيد لمعنى وراء كقولهم من وراء وراء». (ت. ع، ج1 ص608)

وقال تعالى في الآية 187 من سورة آل عمران: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم﴾؛ وفي الآية 94 من سورة المائدة: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾؛ والآية 92 من سورة هود: «قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط».

وورد ذكر جهة الوراء ضمن مدلولاتها المجازية في الآية 91 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه﴾. وقد جاء في تفسير ابن عاشور لقوله تعالى ﴿بما وراءه﴾: «الوراء في الأصل اسم مكان للجهة التي خلف الشيء وهو عريق في الظرفية وليس أصله مصدرا. جعل الوراء مجازا أو كناية عن الغائب لأنه لا يبصره الشخص واستعمل أيضا مجازا عن المجاوز لأن الشيء إذا كان أمام السائر فهو صائر إليه فإذا صاروا وراءه فقد تجاوزه وتباعد عنه.. واستعمل أيضا بمعنى الطلب والتعقب تقول ورائي فلان بمعنى يتعقبني ويطلبني ومنه قول الله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [الكهف: 79] .. فالمراد بما وراءه في الآية بما عداه وتجاوزه أي بغيره.. ». (ت. ع، ج1 ص ص589-590)

وقال تعالى في الآية 24 من سورة النساء: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ فقوله تعالى ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي أحل لكم نكاح سواهن. ومثله قوله تعالى في الآية

السابعة من سورة المؤمنون: «فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون».

وقال تعالى في الآية 79 من سورة الكهف: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾؛ وفي الآية 13 من سورة الحديد: ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾ أي «فيقول لهم المؤمنون سخرية واستهزاء بهم: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك». (ت. ص، ج3 ص324)

وقال تعالى في الآية 27 من سورة الإنسان: «إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا» أي «ويتركون أمامهم يوما عسيرا شديدا، عظيم الأهوال والشدائد، وهو يوم القيامة». (ت. ص، ج3 ص497)

وفسّر ابن عاشور قوله تعالى في الآية 20 من سورة البروج: «والله من ورائهم محيط»، بقوله: «تمثيل لحال انتظار العذاب إياهم وهم في غفلة عنه بحال من أحاط به العدو من ورائه وهو لا يعلم حتى إذا رام الفرار والإفلات وجد العدو محيطا به». (ت. ع، ج30 ص225)

5 - الأعلى والأسفل

الأعلى إحدى الجهات التي تتسم، في القرآن الكريم، بصفة التفضيل والسمو، مقارنة بجهة الأسفل. فكثيرة هي الآيات التي تشير إلى أن الأعلى مرتبط بما هو عظيم، بينما الأسفل مرتبط بما هو وضيع. وفي اللغة العربية: «علا: عُلْو كل شيء وعِلْوه وعَلْوُه وعُلاوَتُه وعاليه وعاليتُه: أرفعه.. والعلاء: الرفعة.. والعُلُوُّ: العظمة والتجبّر.. والله عز وجل هو العَليّ المُتَعالي العالي الأعلى ذو العُلا والعَلا والمَعالي، تَعالى عما يقول الظالمون عُلُوّا كبيرا، وهو الأعلى سبحانه بمعنى العالي، وتفسير تعالى جلّ ونبا عن كل ثناء فهو أعظم وأجلّ وأعْلى مما يثنى عليه لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ قال الأزهري:

وتفسير هذه الصفات لله سبحانه يَقْرُب بعضها من بعض، فالعَلِيّ الشريف فعيل من عَلا يَعْلُو، وهو بمعنى العالي، وهو الذي ليس فوقه شيء. ويقال: هو الذي علا الخلق فقهرهم بقدرته. وأما المتعالي: فهو الذي جلّ عن إفك المفترين وتنزّه عن وساوس المتحيّرين، وقد يكون المتعالي بمعنى العالي. والأعلى: هو الله الذي هو أعلى من كل عال واسمه الأعلى أي صفته أعلى الصفات، والعَلاءُ: الشريف، وذو العُلا: صاحب الصفات العُلا، والعُلا: جمع العُليا أي جمع الصفة العليا والكلمة العليا، ويكون العُلا جمع الاسم الأعلى، وصفة الله العليا شهادة أن لا إله إلا الله، فهذه أعلى الصفات، ولا يوصف بها غير الله وحده لا شريك له، ولم يزل الله عَلِيًا عاليا متعاليا، تعالى الله عن إلحاد الملحدين، وهو العليّ العظيم». (ابن منظور، ج15 ص ص83–85)

وجاء في معنى جهة الأسفل: «السُّفْلُ والسِّفْلُ والسُّفُولُ والسَّفال والسُّفالة، بالضم: نقيض العُلْو والعِلْو والعُلُوّ والعَلاء والعُلاوة. والسُّفْلى: نقيض العُلْيا.. والسَّفَالة، بالفتح: النَّذالة.. وسَفِلة الناس وسِفْلَتُهم: أسافِلهُم وغوغاؤهم». (ابن منظور، ج11 ص337)

وقد وردت الإشارة إلى جهتي الأعلى والأسفل بمدلولهما الحقيقي والمجازي في الآية 139 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»؛ وفي الآية 145 من سورة النساء: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا»؛ والآية 190 من سورة الأعراف: «فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون»؛ وقال تعالى في الآية 42 من سورة الأنفال: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم﴾؛ وورد ذكر الأعلى والأسفل في الآية 40 من سورة التوبة؛ والآية 83 من سورة يونس؛ وفي الآية 82 من سورة هود؛ والآية التاسعة من سورة الرعد؛ والآية 74 من سورة الحجر؛ وفي الآيتين الأولى والثالثة من سورة

النحل؛ وفي الآيات 4 و7 و43 من سورة الإسراء؛ والآية 57 من سورة مريم؛ وفي الآيات 4 و64 و68 و75 و114 من سورة طه؛ وفي الآية 62 من سورة الحج؛ والآيات 46 و92 و116 من سورة المؤمنون؛ وفي الآيتين 31 و63 من سورة النمل؛ وفي الآيات 4 و68 و83 من سورة القصص؛ والآية 40 من سورة الروم؛ والآية 30 من سورة لقمان؛ والآية 23 من سورة سبأ؛ وفي الآيتين 8 و98 من سورة الصافات؛ وفي الآيتين 69 و75 من سورة ص؛ والآية 67 من سورة الزمر؛ وفي الآية 12 من سورة غافر؛ والآية 29 من سورة فصلت؛ وفي الآية الرابعة من سورة الشورى؛ وفي الآية الرابعة من سورة الزخرف؛ وفي الآيتين 19 و31 من سورة الدخان؛ وفي الآية 35 من سورة محمد؛ والآية السابعة من سورة النجم:؛ وفي الآية 22 من سورة الحاقة؛ والآية 21 من سورة الإنسان؛ والآية 24 من سورة النازعات؛ وفي الآية الأولى من سورة الأعلى؛ وفي الآية العاشرة من سورة الغاشية؛ والآية 20 من سورة الليل؛ والآية الخامسة من سورة التين.

6 - اليمين والشمال

ويتجلى تفضيل الجهات، كذلك، عند الحديث عن جهتي اليمين والشمال. وهما ليسا بجهتين جغرافيتين، وإنما جهتان موضعيتان، فكل ما يقع بالجانب الأيمن لشيء أو شخص يعد يمينه سواء كان هذا الشيء أو الشخص في حالة سكون أو في حالة حركة، شريطة أن تشمل الحركة ما يقع بالجانب الأيمن؛ وكذا الحال فيما يتعلق بما يقع بالجانب الأيسر أو الشمال. ويلاحظ أنه كلما ورد ذكر اليمين والشمال في آية قرآنية واحدة تم تقديم اليمين على الشمال، وهذا مؤشر على التفضيل؛ كما ارتبطت جهة اليمين بأصحاب الجنة وارتبطت جهة الشمال بأصحاب النار. ومن آداب الطعام في الإسلام، أن يأكل المرء بيده اليمنى.

فقد روى مسلم «عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله». وروى «عن إياس بن سلمة بن الأكوع رضي الله عنهما: أن أباه حدّثه: أن رجلا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: كل بيمينك. قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت. ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه». (المنذري، 2000، ص393)

وقد ورد ذكر جهة اليمين وجهة الشمال (اليسار) في الآية 48 من سورة النحل، إذ قال تعالى: «أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون»؛ في الآية 71 من سورة الإسراء: «يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا»؛ والآية 18 من سورة الكهف: ﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾؛ والآية 52 من سورة مريم: «وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا»؛ وقال تعالى في الآيات 17 و22 و69 و80 من سورة طه: «وما تلك بيمينك يا موسى»، «واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى»، ﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا﴾، ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾؛ وفي الآيتين 29 و30 من سورة القصص: ﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا﴾ ﴿فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾.

وقال تعالى في الآية 48 من سورة العنكبوت: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون»؛ وفي الآية 15 من سورة سبأ: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 28 و93 من سورة الصافات: «قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين»،

«فراغ عليهم ضربا باليمين»؛ وفي الآية 17 من سورة ق: «إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد»؛ وقال تعالى في الآيات 8 و27 و41 و90 و91 من سورة الواقعة: «فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة»، «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين»، «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال»، «وأما إن كان من أصحاب اليمين. فسلام لك من أصحاب اليمين»؛ وقال تعالى في الآيات 19 و25 و45 من سورة الحاقة: «فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه»، «وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه»، «لأخذنا منه باليمين»؛ وفي الآية 37 من سورة المعارج: «عن اليمين وعن الشمال عزين»؛ والآية 39 من سورة المدثر: «إلا أصحاب اليمين»؛ والآية 18 من سورة البلد: «أولئك أصحاب الميمنة».

7 - القِبْلة

يرتبط مصطلح «القِبْلَة» في الدين الإسلامي ارتباطا وثيقا بالاتجاهات. وفي اللغة العربية، كما جاء في «لسان العرب» لابن منظور: «القِبْلَة: ناحية الصلاة. وقال اللحياني: القبلة وِجْهَة المسجد. وليس لفلان قِبلة أي جهة. ويقال: أين قِبْلَتُك أي أين جِهتك.. والقبلة: التي يُصلى نحوها. وفي حديث ابن عمر: ما بين المشرق والمغرب قِبْلة؛ أراد به المسافر إذا التبست عليه قبلته، فأما الحاضر فيجب عليه التحري والاجتهاد، وهذا إنما يصح لمن كانت القِبْلَة في جنوبه أو شماله، ويجوز أن يكون أراد به قبلة أهل المدينة ونواحيها فإن الكعبة جنوبها. والقِبْلَة في الأصل: الجهة». (ابن منظور، ج11 ص ص544-545)

وقد ورد ذكر القِبْلَة في سورتي البقرة ويونس، إذ قال تعالى في الآيات 143 و144 و145 و149 و150 من سورة البقرة: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت

عليهـا إلا لنعلم من يتـبع الرسـول﴾ ﴿قـد نرى تقلب وجـهك في السـمـاء فلنولينك قبلة ترضـاها﴾ ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتـاب بكل آية ما تبـعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتـابع قبلة بعض﴾، ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾؛ وقال تعالى في الآية 87 من سورة يونس: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة﴾.

8 - التلقـــاء

ورد لفظ «تلقاء» في آيتين من القرآن الكريم، بمعنى «تجاه». وقد أورده ابن منظور في «لسان العرب» قائلا: «جلس تِلقاءه أي حذاءه». (ابن منظور، ج15 ص254) وفي تفسير الطبري: «.. تلقاء أصحاب النار، يعني: حِيالَهم ووِجاههم». (ت. ط، ج8 م5 ص505) وفي «صفوة التفاسير» للصابوني ﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي «قصد بوجهه ناحية مدين وهي بلدة شعيب عليه السلام». (ت. ص، 2 ص430). وأورد ابن عاشور في تفسيره المزيد من الإيضاح، قائلا: «﴿تلقاء﴾: أصله مصدر على وزن التفعال بكسر التاء، وليس له نظير في كسر التاء إلا تمثال، وهو بمعنى اللقاء والمقاربة. وشاع إطلاق هذا المصدر على جهته فصار من ظروف المكان التي تنصب على الظرفية». (ت. ع، ج20 ص ص36-37)

قال تعالى في الآية 47 من سورة الأعراف: ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾؛ وفي الآية 22 من سورة القصص: «ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل».

9 - جـميع الاتجـاهـات

تضمنت بعض الآيات القرآنية إشارات للاتجاهات المختلفة، بحكم تعدد المؤثرات القادمة من جميع الاتجاهات، أو بحكم الموقع. ففي الآية 44 من سورة الأنبياء، يقول تعالى: «بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر افلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون». فأطراف الأرض هنا، تغطي جميع الاتجاهات، بحكم شكلها الكروي ودورانها الدائم.

وذكر الله تعالى في سورتي الأحزاب والرحمن «الأقطار»، بمعنى جميع الاتجاهات. إذ قال تعالى في الآية 14 من سورة الأحزاب: ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها﴾ وفي الآية 33 من الرحمن: «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان». وقد فسّر ابن عاشور قوله تعالى ﴿أقطار السماوات والأرض﴾، بقوله: «الأقطار: جمع قُطر بضم القاف وسكون الطاء وهو الناحية الواسعة من المكان الأوسع.. وذكر السماوات والأرض لتحقيق إحاطة الجهات كلها تحقيقا للتعجيز، أي فهذه السماوات والأرض أمامكم فإن استطعتم فاخرجوا من جهة منها فرارا من موقفكم هذا، وذلك أن تعدد الأمكنة يسهل الهروب من إحدى جهاتها». (ت. ع، ج27 ص241)

وورد في 20 آية قرآنية، ذكر المولى عز وجل ﴿السماوات والأرض وما بينهما﴾، للدلالة على جميع الاتجاهات، ذلك أن الأرض كروية والسماء محيطة بالأرض من جميع الاتجاهات، لذا فإن ما بينهما يقع في جميع الاتجاهات عند النظر إليه من الأرض.

قال تعالى في الآيتين 17 و18 من سورة المائدة: ﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾؛ وفي الآية 85 من سورة الحجر: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾؛ وكما ورد التعبير في الآية 65 من سورة

مريم؛ وفي الآية السادسة من سورة طه؛ وفي الآية 16 من سورة الأنبياء؛ والآية 59 من سورة الفرقان؛ وفي الآية 24 من سورة الشعراء؛ وفي الآية الثامنة من سورة الروم؛ والآية الرابعة من سورة السجدة؛ وفي الآية الخامسة من سورة الصافات؛ وفي الآيات 10 و27 و66 من سورة ص؛ والآية 85 من سورة الزخرف؛ وفي الآيتين 7 و38 من سورة الدخان؛ وفي الآية الثالثة من سورة الأحقاف؛ والآية 38 من سورة ق؛ والآية 37 من سورة النبأ.

وورد في سور فصلت والنجم والتكوير، ذكر «الأفق» بصيغة المفرد والجمع؛ والأفق هو: «الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها، والناحية من قبة السماء». (ت. ع، ج25 ص93) والأفق يظهر من جميع الاتجاهات عند النظر إليه من على سطح الأرض. فبحكم كروية الأرض واستدارة السماء حولها في شكل قبة، تبدو السماء وكأنها تلتقي بحافة الأرض التي هي أقصى نقطة في الانحناء يمكن مشاهدتها، فيتشكل الأفق عند نقطة الالتقاء.

قال تعالى في الآية 53 من سورة فصلت: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾؛ وقال تعالى في الآية السابعة من سورة النجم واصفا سيدنا جبريل عليه السلام: «وهو بالأفق الأعلى»؛ وكذا في الآية 23 من سورة التكوير، إذ قال تعالى: «ولقد رآه بالأفق المبين».

وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة العاديات: «فوسطن به جمعا». فالموقع الوسطي الذي تحتله العاديات (الخيل)، يجعلهن في موقع إحاطة من جميع الاتجاهات.

الفصل الثامن

المظهر

إن التكامل البديع بين قنوات الاتصال غير اللفظي يتجسد في الاتصال بالمظهر، الذي تتضافر فيه مجموعة من القنوات، وعلى رأسها الاتصال البصري وتعبيرات الوجه والهيئة وأوضاع الجسد والإيماءات وترتيب البيئة. فجميع الرسائل الاتصالية التي تصدر من هذه القنوات، تشكل مجتمعة المظهر العام الذي يبدو فيه الإنسان أو غيره من الكائنات.

وتكمن أهمية الاتصال عبر المظهر في كونه أسرع وسيلة لأخذ انطباع عام واتخاذ موقف سريع - وربما يكون مؤقتا أو يصبح دائما - يترتب عليه السلوكات اللاحقة. فعندما نلتقي بشخص لأول وهلة وضمن حيز زمني محدود، غالبا ما لا يتسنى لنا التعرف إلى فكره ومواقفه وعاداته وتقاليده ووضعه الاجتماعي والاقتصادي وعمره بالتحديد، إلا من خلال المعلومات التي نجمعها سريعا من خلال رؤية مظهره العام. وهذه الرؤية تمدنا بـ «انطباع النظرة الأولى» الذي يستمد معلوماته من الملامح الجسدية للشخص والملابس

التي يرتديها ومدى صحته الجسدية التي تظهر من هيئته وحيويته، وكذا إيماءاته التي قد تشير إلى أصوله الإثنية والثقافية.. وكل هذه المعلومات يتم استقاؤها في الثواني الأولى من اللقاء، ومن هنا تكرست فكرة الحب أو الكره من أول نظرة، التي لها ما يسندها - إلى حد كبير - من الشواهد العلمية.

وتعني القدرة على التواصل المظهري الفعال، على صعيدي الإرسال والاستقبال أو التلقي، إعطاء أهمية قصوى للإدراك البصري ولثقافة الصورة لتصبح المصدر الرئيس للمعلومات. وهذه هي السمة الأبرز للعصر الذي نعيشه، الذي أصبح يعجّ بالصور وتحولت فيه العديد من الأشياء التي كانت تُدرك بكيفية تجريدية ذهنية إلى أشكال تجسيدية تتخطى حواجز أمية الكتابة والقراءة.

لقد حاولنا في هذا الفصل التعرف إلى مدى أهمية المظهر ضمن الرسالة التواصلية التي جاء بها القرآن الكريم، وكيف صور لنا القرآن الكريم الماضي بأحداثه وحضاراته المتعاقبة، وكيف جسّد لنا المستقبل الذي يدخل في دائرة الغيب، وكيف بيّن لنا تعامل الطبيعة البشرية مع عناصر المظهر المختلفة، فكانت النتيجة منسجمة مع أهمية المظهر الذي قلنا بأنه متضمن للعديد من الاتصال غير اللفظي.

يتضمن حديثنا عن الاتصال بالمظهر في القرآن الكريم تسعة مباحث تشمل معظم ما يمكن إدراجه في الاتصال المظهري.

يتطرق المبحث الأول للشكل، ويهم المظهر الخارجي للجسم من حيث اعتبارات الجمال والقبح والملامح التي تميز كل إنسان عن غيره من البشر والمخلوقات الأخرى، بالإضافة إلى الجمال والحسن الشامل الذي وهبه الله للإنسان مقارنة بغيره من المخلوقات التي تعيش معه على الأرض.

وجاء المبحث الثاني بالملابس والثياب التي تكمل المظهر الخارجي للجسم، وأهميتها الوظيفية المتمثلة في وقاية الجسم من المؤثرات الخارجية الضارة، وأهميتها الجمالية المتمثلة في إشاعة السرور والبهجة فيمن يرتديها ومن يشاهدها. كما أخبرنا القرآن الكريم بصفات الثياب التي يرتديها ساكنو الجنة. وهناك وسائل الزينة المكملة للمظهر كالحلي والأدوات المستخدمة في إبراز المظهر الخارجي للجسم.

وتضمن المبحث الثالث ذكراً للألوان ودلالتها وأنواعها وأهميتها النفسية والاجتماعية والمفاضلة بينها.

أما المبحث الرابع، فتطرق للأنواع الثلاثة العاقلة التي تتصدر قائمة المخلوقات، نعني بها الملائكة والبشر والجن/الشياطين، مع تبيان خلقها وصفاتها الجسدية والعلاقات المظهرية التي تربط بينها.

وفي المبحث الخامس، سرد لأبرز الجمادات والظواهر الطبيعية مضاف إليها القطاع النباتي.

وتضمن المبحث السادس، تحديد الجنس من حيث الذكورة والأنوثة والتمييز والمفاضلة بينهما.

وتطرق المبحث السابع، لعلاقة العمر بالمظهر، عندما نستطيع التعرف إلى العمر التقريبي للإنسان من خلال ملاحظة مظهره الخارجي بمختلف مكوناته.

أما المبحث الثامن، فقد تضمن ظاهرتي الإظهار والإخفاء، باعتبارهما إيجاباً وسلباً فيما يتعلق بإدراك المظهر.

وأخيرا، تطرقنا لزينة الحياة الدنيا، كما وصفها القرآن الكريم، والتي لا تكتمل إلا بوجود النعم التي وهبها الله لخلقه، وأبرزها المال والبنون.

المبحث الأول

الشكـــــل

تعتبر السمات المميزة للشكل الخارجي لجسم الإنسان، من أهم المكونات الاتصالية للمظهر. فقد فُتِن الإنسان بالجسد البشري منذ البداية عندما تمكن من التعرف إلى جسده عبر حواسه الخمس، والتعرف إلى مظهره العام من خلال ملاحظة أجسام الآخرين، وذلك قبل أن يحصل على المرآة التي تعكس صورة مطابقة لما يقع أمامها. ويُذكر أن أول من قارن بين الأجساد وفاضل بينها، إبليس اللعين عندما اعتبر ذاته التي خلقت من نار أفضل من سيدنا آدم عليه السلام الذي خلق من طين. فقد أورد ابن كثير في «قصص الأنبياء»:

«قال الحسن البصري: قاس إبليس، وهو أول من قاس. وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس، رواهما ابن جرير. ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود». (ابن كثير، ص16)

ونجد من بين أبرز السمات المميزة للشكل الخارجي لجسم الانسان، الحجم من حيث الطول أو القصر، والبدانة أو النحافة، والترهل أو العضلات المفتولة؛ وهناك الآثار التي يتركها الزمن على الجسم (وخصوصا على البشرة)، والتي تميز شكل الإنسان حسب مراحل عمره، بدءا من الطفولة والصبا والشباب والنضج والكبر والهرم.

وتكمن الأهمية التواصلية للشكل، في المعتقدات التفضيلية التي تشكلت لدى بني البشر مع مرور الأزمان، باختلاف حضاراتهم وأماكن عيشهم. تلك المعتقدات التي ينبني عليها الذوق العام المحدد للجمال والقبح الجسديين. ولا شك أن مقياسيّ الجمال والقبح، تركا أثرهما البالغ في التواصل بين البشر وفي سلوكهم، منذ أن دفعت الرغبة الجامحة في الحصول على الجمال، هابيل لقتل أخيه قابيل من أجل الزواج من أختهما الجميلة.. وإلى يومنا هذا، فإن مقاييس الحكم على الشكل الخارجي لجسم الإنسان تؤثر في سلوك الناس ومواقفهم تجاه الآخرين.

وقد تطرق القرآن الكريم إلى بعض السمات العامة المميزة للشكل الخارجي لجسم الإنسان، وعلى رأسها الجمال العام، وبعض ملامح الجمال التي تميز وجه الإنسان، وتلك التي تنطبع عليه من جراء الحالة النفسية والإيمانية التي يعيشها؛ والدلالة التواصلية لطول الإنسان؛ ومظاهر القوة والضعف التي تبدو على الجسم.

يبتدئ الاهتمام بالشكل الخارجي للإنسان بالتفريق بين الجسم والجسد. إذ يكمن الاختلاف في الروح والحياة. فالأول عبارة عن أعضاء الإنسان التي تدب فيها الحياة، والثاني أعضاء بلا حياة أي الجثة.

قال تعالى في الآية 247 من سورة البقرة: ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت

سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾. وقد أورد الإمام الرازي في تفسيره لقوله تعالى ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾:

«قال بعضهم: المراد بالبسطة في الجسم طول القامة، وكان يفوق الناس برأسه ومنكبه، وإنما سمي طالوت لطوله، وقيل المراد من البسطة في الجسم الجمال، وكان أجمل بني إسرائيل، وقيل: المراد القوة، وهذا القول عندي أصح لأن المنتفع به في دفع الأعداء هو القوة والشدة، لا الطول والجمال». (ت. ر. ج6 م3 ص189) وقدم الرازي إضافة تبين مدى أهمية المظهر الخارجي للجسم في التواصل وتقييم الآخرين، إذ قدّم الله تعالى ذكر العلم على الجسم: «... أنه تعالى قدّم البسطة في العلم، على البسطة في الجسم، وهذا منه تعالى تنبيه على أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية». (ت. ر. ج6 م3 ص189)

وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة «المنافقون»: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة﴾. يقول الرازي في المراد من قوله تعالى ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾: «يعني عبد الله بن أبي، ومغيث بن قيس، وجد بن قيس، كانت لهم أجسام ومنظر، تعجبك أجسامهم لحسنها وجمالها، وكان عبد الله بن أبي جسيما صبيحا فصيحا». (ت. ر. ج30 م15 ص15)

أما الجسد فقد ورد ذكره في الآية 148 من سورة الأعراف عند الحديث عن العجل، في قوله تعالى ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلا جسدا﴾، وكذا في الآية 88 من سورة طه ﴿فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار﴾.

وقال تعالى في الآية الثامنة من سورة الأنبياء: «وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين»؛ وفي الآية 34 من سورة ص: «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب». يقول ابن عاشور في تفسير

المراد بالجسد: «الجسد: الجسم الذي لا حياة فيه، وهو يرادف الجثة. هذا قول المحققين من أيمة اللغة مثل أبي اسحاق الزجاج في تفسير قوله تعالى ﴿فأخرج لهم عجلا جسدا﴾ [طه:88].. قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنما هو الجثة.. ومنه قوله تعالى ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا﴾. قيل هو شق غلام لا روح فيه ولدته إحدى نسائه». (ت. ع، ج16 ص167) (ت. ع، ج17 ص15)

الجمال الشامل

إن من نعم الله على الإنسان، أن خلقه في هيئة يفوق جمالها جمال جميع الكائنات الحية المرئية. وقد كرّم الله سبحانه وتعالى الإنسان، جسدا وروحا، بقوله في الآية 75 من سورة ص: «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين». وقد ذكر الله تعالى في بعض القرآن الكريم، أنه خلق الإنسان في أحسن صورة تتكامل فيها عناصر الجمال، وتتفوق على أشكال جميع الكائنات الحية التي تعيش معه على ظهر الأرض.

قال تعالى في الآية 64 من سورة غافر: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ﴾؛ وفي الآية الثالثة من سورة التغابن: ﴿خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين الرابعة والخامسة من سورة التين: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين».

وضرب الله أمثلة لبعض مظاهر الجمال التي اشتمل عليها جسم الإنسان. إذ قال تعالى في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة البلد: «ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين».

إن الجمال البشري غالبا ما يرتبط في القرآن الكريم بجنس الأنوثة. فقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تؤكد الجمال الفائق لنساء الجنة (الحور). أما الجمال الذكوري فقد ارتبط بسيدنا يوسف عليه السلام، على الرغم من أنه ليس أجمل البشر، إذ يأتي ترتيبه الثاني في جمال الشكل بعد سيدنا آدم أبو البشر.

والمثير للاهتمام، على المستوى التواصلي، أن جمال سيدنا يوسف، قد تسبب له في العديد من المشاكل، كادت أن تودي بحياته عندما تآمر عليه إخوته وسعوا لقتله؛ وامرأة العزيز التي راودته عن نفسه فاستعصم، فكان مصيره السجن لبضع سنين. وأدى به الأمر أن يحجب وجهه عن الناظرات والناظرين. وقد سجل لنا القرآن الكريم أقصى تأثير يمكن أن يتركه جمال المظهر في المتلقين، في الآيتين 30 و31 من سورة يوسف، إذ قال تعالى: «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين. فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم».

أورد ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء» ضمن قصة سيدنا يوسف عليه السلام: « .. فأرسلت في طلبهن فجمعتهن في منزلها، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت في جملة ذلك شيئا مما يقطع بالسكاكين، كالأتْرُج ونحوه وآتت كل واحدة منهن سكينا، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام، وألبسته أحسن الثياب وهو في غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة..

وقد جاء في حديث الإسراء: «فمررت بيوسف وإذا هو أُعْطِيَ شطر الحسن». قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن

آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري. ولهذا يدخل أهل الجنة على طول آدم وحسنه. ويوسف كان على النصف من حسن آدم. ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق، وكانت إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقال غيره: كان في الغالب مبرقعا لئلا يراه الناس. ولهذا لما قام عذرن امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى، من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته». (ابن كثير، ص ص282-283)

أما الجمال الأنثوي، فقد ورد مرتبطا بحور الجنة، إذ قال عنهن سبحانه وتعالى في الآيات 58 و70 و72 و74 من سورة الرحمن: «كأنهن الياقوت والمرجان». «فيهن خيرات حسان»، «حور مقصورات في الخيام»، «لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان»؛ وقال تعالى في الآية 23 من سورة الواقعة: «كأمثال اللؤلؤ المكنون»

وفي الآية 33 من سورة النبأ تخصيص لبعض مظاهر الجمال الأنثوي. إذ قال تعالى: «وكواعب أترابا». «والكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي بلغت سن خمس عشرة سنة ونحوها. ووصفت بالكاعب لأنها تكَعَّب ثديُها، أي صار كالكعب، أي استدار ونتأ.. والأتراب: جمع تِرب بكسر فسكون: هو المساوي غيره في السِنّ ، وأكثر ما يطلق على الإناث.. يجوز أن يكون وصفهن بالأتراب بالنسبة بينهن في تساوي السن لزيادة الحسن، أي لا تفوت واحدة منهن غيرها، أي فلا تكون النفس إلى إحداهن أميل إلى الأخرى فتكون بعضهن أقل مسرة في نفس الرجل.

ويجوز أن يكون هذا الوصف بالنسبة بينهن وبين أزواجهن لأن ذلك أحب إلى الرجال في معتاد أهل الدنيا لأنه أوفق بطرح التكلف بين الزوجين، وذلك

أحلى المعاشرة». (ت. ع، ج30 ص ص39-40)

وتكمن أبرز السمات الجمالية لنساء الجنة في جمال أعينهن. قال تعالى في الآية 48 من سورة الصافات: «وعندهم قاصرات الطرف عين»؛ وفي الآية 54 من سورة الدخان: «كذلك وزوجناهم بحور عين»؛ والآية 20 من سورة الطور: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾؛ وقال تعالى في الآية 56 من سورة الرحمن: «فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان». يقول الرازي في معنى الحور العين:

«.. أما الحور، فقال الواحدي أصل الحور البياض والتحوير التبييض.. . وعين حوراء إذا اشتد بياضها واشتد سوادها، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينيها بياضا في لون الجسد.. وأما العين فجمع عيناء وهي التي تكون عظيمة العينين من النساء». (ت. ر. ج27 م14 ص254)

وورد ذكر طول القامة باعتباره سمة من سمات الجسد الإيجابية الدالة على القوة والشموخ والعظمة، في الآية 37 من سورة الإسراء. فارتفاع القامة يضفي على صاحبه، قدرا من الهيبة والمهابة من لدن الآخرين، ويمكنه من النظر إلى الآخرين من أعلى، بينما يضطرون إلى التطلع إليه بنظرهم، أي إن الطول قد يفسر على أنه إحدى سمات السمو والعلو. قال تعالى: «ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا». فالآية تدعو صراحة إلى النهي عن التطاول وادعاء السمو والعلو، «والكلام مستعمل في التغليظ بتنزيل الماشي الواطئ الأرض بشدة منزلة من يبتغي خرق وجه الأرض وتنزيله في تطاوله في مشيه إلى أعلى منزلة من يريد أن يبلغ طول الجبال». (ت. ع، ج14 ص83)

ولم يرد ذكر الشَعَر في القرآن الكريم إلا بكيفية غير مباشرة، في سورتي مريم والفتح. إذ قال تعالى في الآية الرابعة من سورة مريم: «قال رب إني

وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا». قال الإمام الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾: «شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشَعَرِ وفشوِّه فيه وأخذه منه كل مأخذ، باشتعال النار؛ ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس. وأخرج الشيب مميزا ولم يضف الرأس: اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة». (ت. ز، ج3 ص4)

وأضاف ابن عاشور: «شبه عموم الشّيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود، تشبيها مركبا تمثيليا قابلا لاعتبار التفريق في التشبيه، وهو أبدع أنواع المركب. فشبه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل ﴿اشتعل﴾.

وأسند الاشتعال إلى الرأس، وهو مكان الشعر الذي عمّه الشيب، لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعمّ اللحية غالبا، فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن..

والشيب: بياض الشَعَر. ويعرض للشعر البياض بسبب نقصان المادة التي تعطي اللون الأصلي للشعر، ونقصانها بسبب كبر السن غالبا، فلذلك كان الشيب علامة على الكبر، وقد يبيضّ الشَعَرُ من مرض». (ت. ع، ج16 ص10)

وقال تعالى في حلق شعر الرأس وتقصيره، في الآية 27 من سورة الفتح: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾. وروى الإمام مالك في الموطأ حديث رسول الله ﷺ عن كيفية التعامل مع شعر الشوارب واللحى: « .. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِإِحْفَاءِ الشَّوَارِبِ وَإِعْفَاءِ اللِّحَى». (ش. صخر، 1997)

رأينا في الفصل الثاني، أن القرآن الكريم تضمن العديد من الآيات التي تشير إلى تعبيرات الوجه، وخاصة تلك التي تخبر عن ملامح وجوه الناس في الحياة الآخرة. فقد تكون تلك الملامح تعبيرات لحظية تدل على الحالة النفسية والبدنية التي يمر بها كل فرد، وقد تكون ملامح دائمة تنطبع على الوجوه، كقوله تعالى عن سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم وأصحابه رضوان الله عليهم، في الآية 29 من سورة الفتح: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾. وقال تعالى في الآية 48 من سورة الأعراف: «ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون».

وقال تعالى في الآيتين 26 و27 من سورة يونس: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

وتتجسد السمات العامة لشكل الجسم البشري مجتمعة، في القوة البدنية وضعفها. فالقوة مرتبطة بمراحل الشباب والعنفوان والصحة البدنية، ومن ثم الجمال، الذي يذبل مع مرور الوقت ويتعرض الجسم للأمراض، فيضعف ويفقد جماليته شيئا فشيئا إلى أن يفقد حيويته فيموت.

قال تعالى عن ضعف الجسم البشري، على لسان سيدنا زكريا عليه السلام، في الآية الرابعة من سورة مريم: ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾. «والوهن: الضعف. وإسناده إلى العظم دون غيره مما شمله في جسده لأنه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه لأن العظم هو قوام البدن وهو

أصلب شيء فيه فلا يبلغه الوهن إلا وقد بلغ ما فوقه». (ت.ع، ج16 ص ص9–10)

وقال تعالى في الآية 26 من سورة القصص: «قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين»؛ وفي الآيات 9 و39 و54 من سورة الروم: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها﴾، ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾. ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾؛ وقال تعالى في الآية 11 من سورة الصافات: «فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب»؛ وفي الآية 82 من سورة غافر: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض﴾؛ والآية 15 من سورة فصلت: «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون»، والآية 27 من سورة النازعات: «أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها».

المبحث الثاني

اللبـــــاس

إن اللباس إحدى السمات المميزة للإنسان من بين الكائنات الحية الأخرى التي تعيش معه. فبالإضافة إلى الجلد الذي يشترك فيه الإنسان مع بقية الحيوانات - وله ما يمثله في عالم النباتات في شكل قشور ولحىً - إذ يشكل الوسيلة الأولى لحماية الأعضاء الداخلية للجسم، التجأ الإنسان إلى الاستعانة باللباس للحصول على مزيد من الحماية من البرد والحرارة. كما اكتسى اللباس أهمية بالغة لدى الإنسان، لستره عوراته قبل أن يهبط على سطح الأرض. وبالإضافة إلى ما سبق، فإن اللباس هو أبرز أداة يستخدمها الإنسان للتواصل عبر المظهر، بمختلف ثقافاته وحضاراته. فهو قد ينبئ عن الخلفية الإثنية والوطنية والمهنية والاقتصادية والاجتماعية لصاحبه، أي إنه من بين أبرز وسائل التعرف إلى المنزلة الاجتماعية. وقد ينبئ اللباس عن فصول السنة وحالة الطقس.

إن اهتمام الإنسان باللباس، عبر العصور، جعله يبدو وكأنه امتداد للجسد

- كالصوف والريش عند بعض الحيوانات - وأصبح اللباس أهم وسيلة للتزين وإبراز الجمال وتزويده بقيمة مضافة. فقد برع الإنسان في إضفاء جميع الألوان التي يعتقد في جماليتها على اللباس، كما أنه لم يكتف بوضع اللباس على الجسم، بل تفنن في تفصيله ليناسب الجسم بإخفائه بعض أعضاء الجسم وإبراز أخرى، دون إغفال المادة الخام التي يصنع منها اللباس. وأصبحت هذه العناصر الثلاثة (اللون - التفصيل - المادة الخام) مقاييس التفضيل بين اللباس، ومؤشرات تواصلية تنبئ عن هويَّة صاحبها.

جاء في «لسان العرب» لابن منظور تحت مادة (لبس): «اللُّبْسُ، بالضم: مصدر قولك لَبِسْتُ الثوب أَلْبَس، واللَّبْس، بالفتح: مصدر قولك لَبَسْت عليه الأمر أَلْبِسُ خلطْت. واللِّباس: ما يُلْبَس، وكذلك الْمَلْبَس واللِّبْسُ، بالكسر، مثله. [قال] ابن سيده: لَبِسَ الثوب يَلْبَسَهُ لُبْسا وأَلْبَسَهُ إياه، وأَلْبَس عليك ثوبك. وثوب لَبِيس إذا كثر لُبْسُه.. . ورجل لَبِيس: ذو لِباس.. ولَبُوسٌ: كثير اللِّباس.. واللَّبُوس: الثياب والسلاح.. ». (ابن منظور، ج6ص ص202-203)

وقد اشتمل القرآن الكريم على العديد من الآيات التي تشير إلى أهمية اللباس والثياب التي يرتديها الإنسان، وورد في بعض الآيات وصف للباس أهل الجنة وأهل النار، باعتباره إحدى وسائل الثواب والعقاب. فضلا عن الاستخدام المجازي للباس، مما يؤكد أهميته في حياة الناس واعتيادهم عليها.

تضمن القرآن الكريم أول ذكر لتعامل الإنسان مع اللباس. فقد وجد أول بشرين (آدم وحواء) بلباس يخفي عورتيهما. وذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن أول عقاب لحق بهما تمثّل في تجريدهما من لباسهما، فانكشفت عورتاهما، ولم يطيقا رؤية جسديهما عاريين، فسعيا لإخفائهما، مما يؤكد أهمية اللباس في التواصل المظهري.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة سيدنا آدم وحواء مع اللباس في سورة الأعراف، إذ قال تعالى في الآية 20 من سورة الأعراف: ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما﴾. يقول الرازي في تفسير هذه الآية: «السوءة فرج الرجل والمرأة، وذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان. قال ابن عباس رضي الله عنهما كأنهما قد ألبسا ثوبا يستر عورتيهما، فلما عصيا زال عنهما ذلك الثوب.. دلّت هذه الآية على أن كشف العورة من المنكرات وأنه لم يزل مستهجنا في الطباع مستقبحا في العقول». (ت. ر. ج14م7ص50)؛ وقال تعالى في الآية 22 ﴿فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾.

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾:

«حكاية لابتداء عمل الإنسان لستر نقائصه، وتحيُّلِه على تجنب ما يكرهه، وعلى تحسين حاله بحسب ما يُخيِّل إليه خيالُه، وهذا أول مظهر من مظاهر الحضارة أنشأه الله في عقلَي أصلَي البشر، فإنهما لما شعرا بسوءاتهما بكلا المعنيين، عرفا بعض جزئياتها، وهي العورة وحدث في نفوسهما الشعور بقبح بروزها، فشرعا يخفيانها عن أنظارهما استبشاعا وكراهية، وإذ قد شعرا بذلك بالإلهام الفطري، حيث لا ملقّن يلقنهما ذلك، ولا تعليم يعلمهما، تقرر في نفوس الناس أن كشف العورة قبيح في الفطرة، وأن سترها متعيّن، وهذا من حكم القوة الواهمة الذي قارن البشر في نشأته، فدلّ على أنه وَهْم فطري متأصل، فلذلك جاء دين الفطرة بتقرير ستر العورة، مشايعة لما استقر في نفوس البشر، وقد جعل الله للقوة الواهمة سلطانا على نفوس البشر في عصور طويلة، لأن في اتباعها عونا على تهذيب طباعه، ونزّع الجلافة الحيوانية من النوع، لأن الواهمة لا توجد في الحيوان..». (ت. ع، ج8 ص ص49–50)

وخير دليل على أهمية الفطرة البشرية على ستر العورة، ما كان من ردود فعل سيدنا آدم عليه السلام، الذي بالإضافة إلى محاولته وزوجه إخفاء عورتيهما، هرع استحياء من الله عز وجل، كما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي أورده ابن كثير. فقد «روى سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن يحيى بن ضمرة، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق، ستون ذراعا كثير الشعر مُوارى العورة، فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سوءته، فخرج من الجنة، فلقيته شجرة فأخذت بناصيته، فناداه ربه: أفرارا مني يا آدم؟ قال: بل حياء منك يا رب مما جئت به». (ابن كثير، ص29)

وقال تعالى في الآيتين 26 و27 ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى﴾ ﴿يا بني آدم لا يفتتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾.

جاء في تفسير الرازي للآية 26 من سورة الأعراف: «في نظم الآية وجهان: الوجه الأول: أنه تعالى لما بين أنه أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض، وجعل الأرض لهما مستقرا بين بعده أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في الدين والدنيا، ومن جملتها اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا. الوجه الثاني: أنه تعالى لما ذكر واقعة آدم في انكشاف العورة أنه كان يخصف الورق عليها، أتبعه بأن بيّن أنه خلق اللباس للخلق ليستروا بها عورتهم، ونبّه به على المنة العظيمة على الخلق بسبب أنه أقدرهم على الستر.

فإن قيل: ما معنى إنزال اللباس؟

قلنا: إنه تعالى أنزل المطر، وبالمطر تتكون الأشياء التي منها يحصل اللباس، فصار كأنه تعالى أنزل اللباس.. ». (ت. ر. ج14 م7 ص54)

ويتبين من القرآن الكريم، أن اللباس والحلي المصاحبة له، من أبرز الأشياء التي تلازم الإنسان في الجنة، وتعد من بين وسائل تحقيق السعادة التي وعد الله بها عباده الصالحين. فساكنو الجنة لا يحتاجون اللباس ليقيهم من الحرارة والبرد، فقد قال تعالى عنهم في الآية 13 من سورة الإنسان: «متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا»؛ بل ستكون - إضافة إلى ستر العورة - مصدرا جماليا يشيع البهجة في النفوس من حيث رؤية الألوان الخلابة والملمس الناعم.

قال تعالى في الآية 23 من سورة الحج: «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير»؛ وفي الآية 33 من سورة فاطر: «جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير»؛ والآية 53 من سورة الدخان: «يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين».

وورد الحديث عن لباس أهل الجنة ضمن لفظة «ثياب»، وفي «لسان العرب»: «الثَّوْبُ: اللِّباس، واحد الأثواب، والثياب، والجمع أثوب، وبعض العرب يهمزه فيقول أثؤب، لاستثقال الضمة على الواو.. ». (ابن منظور، ج1ص245).

قال تعالى في الآية31 من سورة الكهف: ﴿أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق﴾، وقال تعالى في الآيتين 12 و21 من سورة الإنسان: «وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا»، ﴿عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة﴾.

أما ثياب أهل النار، فقال تعالى عنها في الآية 19 من سورة الحج: ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار﴾. ومعنى قوله تعالى ﴿قطعت لهم

ثياب من نار﴾: «أي فصلت لهم ثياب من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبي: شبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قطعت﴾ خيطت وسويت، وذكر بلفظ الماضي لأن الموعود منه كالواقع المحقق». (ت. ص، ج2 ص386؛ القرطبي:26/12)

وورد ذكر الثياب باعتبارها من الأشياء المعتادة والملازمة لحياة الإنسان.

قال تعالى في الآية الخامسة من سورة هود: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم﴾؛ ومثله، قوله تعالى في الآية السابعة من سورة نوح: ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم﴾. قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿واستغشوا ثيابهم﴾: «تغطوا بها، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم، أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله. وقيل: لئلا يعرفهم». (ت. ز، ج4 ص604)؛ وقال تعالى في الآيتين 58 و60 من سورة النور: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم﴾، ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾؛ وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة المدثر: «وثيابك فطهر».

وقال تعالى في الآية 81 من سورة النحل: ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم﴾. وقد روى الإمام الطبري في تفسيره: « .. عن قتادة، قوله: ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر﴾ من القطن والكتان والصوف.. وقوله ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ يقول: ودروعا تقيكم بأسكم. والبأس: هو الحرب، والمعنى: تقيكم في بأسكم السلاح أن يصل إليكم.. حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة: ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ قال: هي

سرابيل من حديد». (ت. ط، ج14 م7 ص ص627-628)

وأشهر ما ورد ذكره من اللباس في القرآن قميص سيدنا يوسف، الذي أصبح مثلا جاريا. وقد ورد ذكر قميص يوسف في ست آيات من سورة يوسف. إذ قال تعالى في الآية 18: ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾، وقال تعالى في الآيات 25 و26 و27 و28: «واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم. قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم»، وقال تعالى في الآية 93 : «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين».

قال الإمام الرازي مفسرا قوله تعالى ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ الوارد في الآية 18:

«إنما جاءوا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين في مقالتهم. قيل: ذبحوا جديا ولطخوا ذلك القميص بدمه. قال القاضي: ولعل غرضهم في نزع قميصه عند إلقائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدا لصدقهم، لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعا في نفس القميص ولابد في المعصية من أن يقرّن بهذا الخذلان، فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الإيهام أقوى، فلما شاهد يعقوب القميص صحيحا علم كذبهم.. قال سعيد بن جبير: لما جاءوا على قميصه بدم كذب، وما كان متخرقا، قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه، وعن السد أنه قال: إن يعقوب عليه السلام قال إن هذا الذئب كان رحيما، فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟ وقيل: إنه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم: بل قتله اللصوص. فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى

قميصه أحوج منه إلى قتله؟ فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم.. وقال الشعبي: قصة يوسف كلها في قميصه، وذلك لأنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه، ولما شهد الشاهد قال ﴿إن كان قميصه قد من قبل﴾ ولما أُتي بقميصه إلى يعقوب عليه السلام فألقي على وجهه ارتد بصيراً». (ت. ر. ج18 م9 ص ص104-105)

ويدخل في باب اللباس، ومن ثم التواصل بواسطة المظهر، كل ما يندرج ضمن الزينة والتزين. وقد جاء في «لسان العرب» تحت مادة «زين»:

«الزَّيْنُ: خلاف الشَّيْن، وجمعه أزيان.. ويقال زانه الحسن يَزينه زَيْنا.. وتزينت الأرض بالنبات وازَّيَّنَتْ وازدانت ازديانا وتزيّنت وازيَنّت وازيأنّت وأَزْيَنَتْ أي حَسُنَتْ وبَهُجَتْ.. الزينة اسم جامع لكل شيء يُتَزَيَّن به.. ويوم الزينة: العيد.. وقوله عزّ وجل: ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها: معناه لا يبدين الزينة الباطنة كالمِخْنقة والخَلْخال والدُّمْلُج والسوار والذي يظهر هو الثياب والوجه. وقوله عز وجل: فخرج على قومه في زينته: قال الزجاج: جاء في التفسير أنه خرج هو وأصحابه وعليهم وعلى الخيل الأُرْجُوان، وقيل: كان عليهم وعلى خيلهم الدِّيباج الأحمر. وامرأة زائن: متزيّنة». (ابن منظور، ج13 ص ص201-202)

قال تعالى في الآيتين 31 و32 من سورة الأعراف: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾؛ وقال تعالى في الآية 31 من سورة النور: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم

يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾.

وبالإضافة إلى ذكر الزينة على وجه العموم، تضمنت بعض الآيات القرآنية بعض أدوات الزينة كالحلي المستخرجة من البحر وأشهرها اللؤلؤ والمرجان. وقد قال فيهما المولى عز وجل في الآيات 19 و20 و21 و22 من سورة الرحمن: «مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان».

وقال تعالى في الآية 14 من سورة النحل: ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾؛ وفي الآية 12 من سورة فاطر: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾.

وفي الآية 80 من سورة الأنبياء، إشارة إلى ما يلبس المرء من دروع وأدوات حربية، وذلك ما يطلق عليه في اللغة العربية «اللّبوس» وأصله «اسم لكل ما يُلبَس فهو فَعول بمعنى مفعول مثل رَسول. وغلب إطلاقه على ما يُلبس من لامة الحرب من الحديد، وهو الدرع فلا يطلق على الدرع لِباس ويطلق عليها لبوس كما يطلق لَبوس على الثياب. وقال ابن عطية: اللبوس في اللغة السلاح فمنه الرمح». (ت. ع، ج17 ص89) قال تعالى: «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون».

وتضمن القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى اللباس بمعناه المجازي. فقد تضمنت سور البقرة وآل عمران والأنعام آيات تشير إلى اللبس بمعنى الخلط. إذ قال تعالى في الآية 42 من سورة البقرة: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾؛ وفي الآية 71 من سورة آل عمران: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 82 و137 من سورة الأنعام:

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾، ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم﴾.

وقال تعالى في الآية 187 من سورة البقرة: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾.

يقول الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾:

«قد ذكرنا في تشبيه الزوجين باللباس وجوها (أحدها) أنه لما كان الرجل والمرأة يعتنقان، فيضم كل واحد منهما جسمه إلى جسم صاحبه حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه، سمي كل واحد منهما لباسا. قال الربيع: هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن، وقال ابن زيد: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، يريد أن كل واحد منهما يستر صاحبه عند الجماع عن أبصار الناس، (وثانيها) إنما سمي الزوجان لباسا ليستر كل واحد منهما صاحبه عما لا يحل، كما جاء في الخبر «من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه»، (وثالثها) أنه تعالى جعلها لباسا للرجل، من حيث إنه يخصها بنفسه، كما يخص لباسه بنفسه، ويراها أهلا لأن يلاقي كل بدنه كل بدنها كما يعمله في اللباس ،(ورابعها) يحتمل أن يكون المراد ستره بها عن جميع المفاسد التي تقع في البيت، لو لم تكن المرأة حاضرة، كما يستتر الإنسان بلباسه عن الحر والبرد وكثير من المضار، (وخامسها) وذكر الأصم أن المراد أن كل واحد منهما كان كاللباس الساتر للآخر في ذلك المحظور الذي يفعلونه، وهذا ضعيف لأنه تعالى أورد هذا الوصف عن طريق الإنعام علينا، فكيف يحمل على التستر بهن في المحظور». (ت. ر. ج5 م3 ص115)

كما ورد اللبس بمعنى الخلط في الآيتين 9 و65 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون»، ﴿قل هو

القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ﴾؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة ق: «أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد». وقد فُسر قوله تعالى ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾: «أي بل هم في خلط وشبهة وحيرة من البعث والنشور». (ت. ص، ج3 ص243)

قال تعالى في الآية 112 من سورة النحل: «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون». يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾:

«اللباس: حقيقته الشيء الذي يلبس. وإضافته إلى الجوع والخوف قرينة على أنه مستعار إلى ما يغشى من حالة إنسان ملازمة له كملازمة اللباس لابسَه.. ومن لطائف البلاغة جعل اللباس لباس شيئين، لأن تمام اللبسة أن يلبس المرء إزارا ودرعا.

ولما كان اللباس مستعارا لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف وملازمته أريد إفادة أن ذلك متمكن منهم ومستقر في إدراكهم استقرار الطعام في البطن إذ يُذاق في اللسان والحلق ويحسّ في الجوف والأمعاء. فاستعير له فعل الإذاقة تلميحا وجمعا بين الطعام واللباس، لأن غاية القرى والإكرام أن يُؤْدَب للضيف ويُخلع عليه خلعة من إزار وبرد، فكانت استعارتان تهكميتان». (ت. ع، ج13 ص247)

وقال تعالى في الآية 47 من سورة الفرقان وفي الآية العاشرة من سورة النبأ، مشبها الليل باللباس: ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباسا ﴾؛ «وجعلنا الليل لباسا». قال الطبري في تفسيره: «.. إنما قال جل ثناؤه ﴿ جعل لكم الليل لباسا ﴾ لأنه جعله لخلقه جنة يجتنون فيها ويسكنون، فصار لهم سترا

يستترون به، كما يستترون بالثياب التي يُكْسَوْنها». (ت. ط. ج19 م9 ص396)

وورد ذكر العري - الذي هو نقيض اللباس - في سورة طه، إذ قال تعالى في الآيتين 117 و118: «فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى». وذكر العري الذي يناقض اللباس، في هذه الآية، وذكر أن الإنسان يشقى في الدنيا من أجل الحصول على اللباس، كل ذلك يؤكد أهمية اللباس في حياة الإنسان، الأمر الذي جعل منه إحدى سمات بيئة الرفاهية في الجنة. قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾:

«الشبع والريّ والكسوة والكنّ: هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان، فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحو، ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها».
(ت. ز، ج3 ص ص89-90)

المبحث الثالث

الألـــــــوان

تشكل الألوان - بمختلف درجاتها ومسمياتها - أساس التواصل بالمظهر. فعلى الألوان، تعتمد الرؤية والتمييز بين الأشياء. إذ تقوم الرؤية على امتصاص الأشياء لتدرجات الألوان الموجودة في الضوء وعكس درجة اللون الذي تتوفر عليه، فإذا كانت الأشياء شفافة بحيث لا تعكس الأشعة الواقعة عليها فلن تتم الرؤية بالعين المجردة. كما أن الألوان تكتسي بعدا تواصليا هاما، عندما يضفي عليها الإنسان في مختلف الحضارات، قيمة إيجابية أو سلبية، ويصنفها على ضوء ذلك، مما يترتب عنه مواقف وسلوكات مؤثرة في الحياة. فلكل ثقافة وحضارة وعصر ألوانها المفضلة، التي يكثر تواجدها واستخدامها وارتباطها بمناسبات محددة، وألوان أخرى يتم تجنبها أو إضفاء قيم سلبية أو تشاؤمية عليها.

ونجد في اللغة العربية أن «اللون: هيئة كالسواد والحُمْرَة، ولَوَّنْتُه فتلون. ولون كل شيء: ما فصل بينه وبين غيره، والجمع ألوان، وقد تَلَوَّن ولَوَّنَ ولَوَّنه. والألوان: الضروب. واللون: النوع. وفلان متلوِّن إذا كان لا يثبت على خُلُق

واحد». (ابن منظور، ج13 ص393)

وقد تضمن القرآن الكريم ذكراً للألوان الأساسية الثلاثة وتسمى الألوان الإشعاعية أو الشمسية، وهي الأحمر والأخضر والأزرق، والتي تتشكل منها جميع الألوان الموجودة في الطبيعة بمختلف درجاتها، وتضمن اللون الأصفر وهو أحد الألوان الطباعية الأربعة (الساين وهو الأزرق الداكن - والماجنتا وهو الأرجواني أو الأحمر القاني - والأصفر - والأسود). بالإضافة إلى ذلك تضمنت العديد من الآيات القرآنية ذكرا للونين الأبيض والأسود اللذين يتم الحصول عليهما بدمج الألوان الإشعاعية الثلاثة، في حالة الأول، أو إزالة الألوان الإشعاعية الثلاثة، في حالة الثاني. ونجد في القرآن الكريم إضفاء لقيم إيجابية أو سلبية لبعض الألوان. فاللون الأبيض غالبا ما يرتبط بكل ما هو إيجابي، بينما يرتبط اللون الأسود بكل ما هو سلبي أو غامض أو عنيف. كما أن اللون المفضل في القرآن هو اللون الأخضر الذي يرتبط بالخير والسعادة والجنة، وهو رمز الحياة. وعلى الرغم من هذا التمييز والتراتبية في الألوان، فإن القرآن الكريم يشير إلى الألوان جميعا باعتبارها من نعم الله على عباده، وهبها لهم ليستمتعوا بها. لذا فإن التفضيل بين الألوان الوارد في القرآن الكريم يهدف إلى التواصل مع المتلقين الذين دأبوا على إضفاء قيم تفضيلية بين الألوان، ذلك أن وجود الألوان المختلفة ضروري للحياة، فكل لون يؤدي دورا هاما في إدراكنا للأشياء، وفي بعض وظائف الحياة الضرورية.

1 - اختلاف الألوان

اعتبر القرآن الكريم اختلاف الألوان من الآيات والنعم التي ضمّنها الله مخلوقاته في الأرض لينعم بها الإنسان. إذ قال تعالى في الآية 13 من سورة النحل: «وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون»؛

وقال تعالى في الآية 69 من سورة النحل: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾؛ وفي الآية 27 من سورة فاطر: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود».

يقول سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» لاختلاف الألوان: «هذه لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب، تبدأ بإنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان، ثم تنتقل إلى ألوان الجبال، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها، واللفتة إلى ألوان الصخور وتنوعها داخل اللون الواحد، تهز القلب هزا، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي بما يستحق النظر والالتفات، ثم ألوان الناس - وهي لا تقف عند حد - وكذلك ألوان الدواب والأنعام.. . ذات الألوان والأصباغ العجيبة، كلها معروضة للأنظار في هذا الكتاب الكوني، الجميل الصفحات، العجيب في التكوين والتلوين». (ت. ص، ج2، ص574)

أما ألوان البشر، فقد جعلها الله سبحانه وتعالى آية من آياته. فهي مختلفة ومتعددة بتعدد البيئات التي يعيش فيها الإنسان ومدى تأثيرها من حيث الطقس والغذاء ونمط العيش بصفة عامة، على ألوان البشرّة، وأهمية كل ذلك في تقسيم سكان الأرض إلى قبائل وشعوب، لتحقق الغنى بالتنوع، ويكون التواصل بين البشر - بمختلف ألوانهم - شكلا من أشكال التأمل في خلق الله وإدراكا لعظمته وسعيا لتكريس قيم التسامح التي أمر بها. قال تعالى في الآية 22 من سورة الروم: «ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين»؛ وقال في الآية 13 من سورة الحجرات: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير».

2 - الأبيض والأسود

لقد ورد ذكر اللونين الأبيض والأسود، بداية، في الآية 187 من سورة البقرة، عند الحديث عن زمني الإمساك والإفطار في شهر رمضان، إذ قال تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾.

وقد ورد حديثان شريفان في تفسير قوله تعالى ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾. فقد روى الإمام البخاري: «عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: لما نزلت : ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾. عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: إنما سواد الليل وبياض النهار». (البخاري، 1999، ص277)

وروى الإمام مسلم «عن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ قال: فكان الرجل إذا أراد الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأسود والخيط الأبيض، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رِئْيُهُما، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنما يعني بذلك الليل والنهار». (المنذري، 2000، ص180)

وجاء في تفضيل اللون الأبيض في الملابس، الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمام الترمذي، إذ قال: «.. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ وَفِي الْبَاب عَنْ سَمُرَةَ وَابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ قَالَ أَبو عِيسَى حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِبُّهُ أَهْلُ الْعِلْمِ وقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يُكَفَّنَ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي كَانَ يُصَلِّي فِيهَا و قَالَ أَحْمَدُ وَإِسْحَقُ أَحَبُّ الثِّيَابِ إِلَيْنَا أَنْ يُكَفَّنَ فِيهَا الْبَيَاضُ وَيُسْتَحَبُّ حُسْنُ الْكَفَنِ». (ش. صخر، 1997)

وتضمنت الآية 27 من سورة فاطر، ذكرا للونين الأبيض والأسود باعتبارهما أحد الألوان المنتشرة في الطبيعة بمختلف أشكالها، ومن ضمنها بعض الجبال ذات الصخور البيضاء أو التي يغطيها الجليد على الدوام، وتلك التي بها صخور شديدة السواد. قال تعالى: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود».

وورد التفضيل بين اللونين الأبيض والأسود في ذكر أحوال الناس يوم القيامة وما بعده. إذ يبدو الابيضاض على وجوه أهل الجنة والاسوداد على وجوه أهل النار.

قال تعالى في الآيتين 106 و107 من سورة آل عمران: «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون».

يقول ابن عاشور في تفسير الابيضاض والاسوداد الوارد في الآيتين السابقتين: «في تعريف هذا اليوم بحصول بياض وجوه وسواد وجوه فيه، تهويل لأمره، وتشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضّة، والوجوه المسودة: ترهيبا لفريق وترغيبا لفريق آخر. والأظهر أن عِلم السامعين بوقوع تبييض وجوه وتسويد وجوه في ذلك اليوم حاصل من قبل..

والبياض والسواد بياض وسواد حقيقيان يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة، وهما بياض وسواد خاصّان لأن هذا من أحوال الآخرة فلا داعي لصرفه عن حقيقته.. قدّم عند وصف اليوم ذكر البياض، الذي هو شعار أهل النعيم، تشريفا لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله ونعمته، ولأن رحمة الله سبقت غضبه، ولأن في ذكر سمة أهل النعيم، عقب وعيد بالعذاب، حسرة

عليهم، إذ يعلم السامع أنّ لهم عذابا عظيما في يوم فيه نعيم عظيم، ثمّ قُدِّم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلا بمساءتهم». (ت. ع، ج3ص ص184-185)

وفي المعنى والسياق نفسيهما، ورد قوله تعالى في الآية 60 من سورة الزمر: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين».

وورد ذكر اسوداد الوجوه كتعبير وجهي انفعالي يدل على السخط والحزن، كما قال تعالى في الآية 58 من سورة النحل: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم»؛ وقال تعالى في الآية 17 من سورة الزخرف: «وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم». وقد فسّر قوله تعالى ﴿ظل وجهه مسودا﴾: «أي صار وجهه متغيرا من الغم والحزن قال القرطبي: وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد، والعرب تقول لكل من لقي مكروها قد اسودّ وجهه». (ت. ص، ج2 ص131؛ القرطبي 116/10)

وجاء ذكر البياض كصفة من صفات خمر الجنة، إذ قال تعالى في الآية 46 من سورة الصافات: «بيضاء لذة للشاربين»؛ وورد كإحدى صفات نساء الجنة. قال تعالى في الآيتين 48 و49 من سورة الصافات: «وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون». وقوله تعالى ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ أي «لا تبتذله الأيدي ولا العيون، والعرب تشبّه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها». (ت. ص، ج3 ص33)

واقترن البياض في القرآن الكريم بإحدى المعجزات التي أتى بها سيدنا موسى عليه السلام، ألا وهي اليد التي يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء. قال تعالى في الآية 108 من سورة الأعراف: «ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين»؛ وفي الآية 22 من سورة طه: «واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير

سوء آية أخرى»؛ والآية 12 من سورة النمل: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾؛ والآية 32 من سورة القصص: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾.

قال الإمام الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾: «المعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة، يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال: ما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها، فإذا هي بيضاء بياضا نورانيا غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة*». (ت. ز، ج2 ص ص133–134) (*الأدمة: السُّمرة. والآدم من الناس: الأسمر. (ابن منظور، ج12 ص11))

وقد ورد ذكر البياض بمدلوله السلبي، في الآية 84 من سورة يوسف، حيث اقترن بشدة الحزن وفقدان البصر عندما يتحول سواد العين إلى بياض. قال تعالى عن سيدنا يعقوب عليه السلام: «وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم». جاء في تفسير الرازي لقوله تعالى ﴿وابيضت عيناه﴾:

«فيه وجهان: الوجه الأول: أنه لما قال يا أسفى على يوسف غلبه البكاء، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقوله (وابيضت عيناه من الحزن) كناية عن غلبة البكاء، والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسنا: ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل، فكان ما ذكرناه أولى.. والوجه الثاني: أن المراد هو العمى قال مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه

بقميص يوسف عليه السلام.. والقائلون بهذا التأويل قالوا: الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى، فالحزن كان سببا للعمى بهذه الواسطة، وإنما كان البكاء الدائم يوجب العمى، لأنه يورث كدورة في سوداء العين.. ». (ت. ر. ج18 م9 ص ص199-200)

3 - الأخضر

اللون الأخضر من أكثر الألوان الطبيعية انتشارا في بيئة الأرض. إذ نجده في معظم القطاع النباتي، وهو يرتبط لدى هذا الأخير باستمرارية الحياة. وقد ورد ذكر اللون الأخضر في القرآن الكريم لوصف النبات واللباس. فالآيات التي تصف النبات بالخضرة، تتحدث عن بيئة الدنيا؛ أما الآيات التي تصف اللباس بالخضرة فهي تتحدث عن بيئة الآخرة، وبصفة أخص، بيئة الجنة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد وردت الآية 64 من سورة الرحمن لتصف جنتين في الآخرة بأنهما شديدتا الخضرة الضاربة إلى السواد: «ومن دونهما جنتان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. مدهامتان». وفي الآية الخامسة من سورة الأعلى إشارة إلى تحول النبات من اللون الأخضر إلى الأسود، إذ قال تعالى: «فجعله غثاء أحوى».

قال تعالى في الآية 99 من سورة الأنعام: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا ﴾.

أوضح الإمام الرازي المراد من قوله تعالى ﴿فأخرجنا منه خضرا ﴾: «قال الزجاج: معنى خَضِر، كمعنى أخضر، يقال اخضر فهو أخضر وخضر، مثل اعور فهو أعور وعور. وقال الليث: الخضر في كتاب الله هو الزرع وفي الكلام كل نبات من الخضر، وأقول أنه تعالى حصر النبت في الآية المتقدمة في قسمين:

حيث قال: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ فالذي ينبت من الحب هو الزرع، وهو المراد بقوله ﴿فأخرجنا منه خضرا﴾ وهو الزرع.. وقال ابن عباس: يريد القمح والشعير والسلت والذرة والأرز، والمراد من هذا الخضر العود الأخضر الذي يخرج أولا ويكون السنبل في أعلاه وقوله ﴿نخرج منه حبا متراكما﴾ يعني يخرج من ذلك الخضر حبا متراكما بعضه على بعض في سنبلة واحدة، وذلك لأن الأصل هو ذلك العود الأخضر وتكون السنبلة مركبة عليه من فوقه وتكون الحبات متراكمة بعضها فوق بعض». (ت. ر. ج13 م7 ص113)

وقال تعالى في الآيتين 43 و46 من سورة يوسف: ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾، ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾؛ وفي الآية 63 من سورة الحج: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾؛ وقال تعالى في الآية 80 من سورة يس: «الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون».

أما ثياب الجنة فقد قال عنها تعالى في الآية 31 من سورة الكهف: ﴿ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق﴾؛ وفي الآية 21 من سورة الإنسان: ﴿عليهم ثياب سندس خضر﴾.

ووُصف فراش الجنة الذي يُجلَس عليه بالخضرة، كما جاء في قوله تعالى في الآية 76 من سورة الرحمن: «متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان». وقد أوضح ابن عاشور ضمن تفسيره لقوله تعالى ﴿متكئين على رفرف خضر﴾ أهمية اللون الأخضر، قائلا:

«الرفرف: ضرب من البسط، وهو اسم جمع رفرفة، وهي ما يبسط على الفراش ليُنام عليه، وهي تنسج على شبه الرياض ويغلب عليها اللون

الأخضر.. فوصفها في الآية بأنها ﴿خضر﴾ وصف كاشف لاستحضار اللون الأخضر لأنه يسر الناظر.

وكانت الثياب الخضر عزيزة وهي لباس الملوك والكبراء، قال النابغة:

يصونون أجسادا قديما نعيمُها   بخالصة الأردان خضر المناكب

وكانت الثياب المصبوغة بالألوان الثابتة التي لا يزيلها الغسل نادرة لقلة الأصباغ الثابتة ولا تكاد تعدو الأخضر والأحمر ويسمى الأرجواني. وأما المتداول من أصباغ الثياب عند العرب فهو ما صُبِغ بالورس والزعفران فيكون أصفر، وما عدا ذلك فإنما لونه لون ما ينسج منه من صوف الغنم أبيض أو أسود أو من وبر أو من كتان أبيض أو كان من شَعَر المعز الأسود». (ت. ع، ج27 ص ص254-255)

4 - الأصفــــر

اللون الأصفر من الألوان الصبغية (الطباعية) الرئيسة. وهو معروف لدى العرب القدامى إذ يحصلون عليه من الزعفران، وغيره. كما يكثر تواجده في الطبيعة، بدءا من أشعة الشمس مرورا بلون القشرة الأرضية في بعض الأماكن الشاسعة وخاصة الصحاري المغطاة بالرمال، وصولا إلى النباتات التي تصفرّ عندما تفقد القدرة على القيام بالتغذية عبر التمثيل الضوئي.

تستخدم العرب كلمة «الأصفر» للدلالة على اللونين الأصفر والأسود. إذ جاء في «لسان العرب»:

«الصُّفْرة من الألوان: معروفة تكون في الحيوان والنبات وغير ذلك مما يقبلها، وحكاها ابن الأعرابي في الماء أيضا. والصُّفرة أيضا: السواد، وقد اصفَرّ واصْفارّ وهو أصْفَر وصَفَّرَه غيره. وقال الفراء في قوله تعالى: كأنه

جمالات صفر، قال: الصفر سود الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مُشْرَب صفرة، ولذلك سمت العرب سود الإبل صُفرا، كما سمّوا الظباء أُدْما لما يعلوها من الظلمة في بياضها». (ابن منظور، ج4ص460)

وقد ورد اللون الأصفر في القرآن الكريم للدلالة على الحسن والجمال الذي يسرّ الناظر. وللدلالة على الذبول وفقدان الحياة لدى النباتات.

قال تعالى في الآية 69 من سورة البقرة: «قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين». اختلف المفسرون في معنى الصفرة الواردة في هذه الآية. قال الإمام الطبري في تفسيره:

«أحسب أن الذي قال في قوله ﴿ صفراء ﴾، يعني به سوداء، ذهب إلى قولهم في نعت الإبل السود: «هذه إبل صُفر، وهذه ناقة صفراء»، يُعْنَى بها سوداء. وإنما قيل ذلك في الإبل، لأن سوادها يضرب إلى الصفرة، ومنه قول الشاعر:

تلك خيلي منه وتلك ركابي، هنّ صفر، أولادها كالزبيب

يعني بقوله: «هن صفر»، هن سود. وذلك إن وصفت الإبل به، فليس مما توصف به البقر. مع أن العرب لا تصف السواد بالفقوع، وإنما تصف السواد - إذا وصفته بالشدة - بالحلوكة ونحوها، فتقول: «هو أسود حالك وحانك وحُلكوك، وأسود غِرْبيب ودَجوجي» - ولا تقول: هو أسود فاقع، وإنما تقول: «هو أصفر فاقع». فوصفه إياه بـ «الفقوع» من الدليل البين على خلاف التأويل الذي تأوّل قوله: ﴿ إنها بقرة صفراء فاقع» المتأول، بأن معناه سوداء شديدة السواد.. ﴿ فاقع لونها ﴾: يعني: خالص لونها. و«الفقوع» في الصفرة، نظير «النصوع» في البياض، وهو شدته وصفاؤه». (ت. ط، ج1 ص ص387-388)

ويضيف الزمخشري في معنى الفقوع الوارد في الآية: «الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وانصعه. يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس، كما يقال أسود حالك وحانك، وأبيض يقق ولهق. وأحمر قانٍ وذريخي. وأخضر ناضر ومدهامّ. واورق خطبانيّ وأرمك ردانيّ.. . وعن وهب: إذا نظرت إليها ﴿البقرة الواردة في الآية﴾ خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها والسرور لذة عند حصول نفع أو توقعه». (ت. ز، ج1 ص152)

وقال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿تسر الناظرين﴾: «أي تُدخل رؤيتها عليهم مسرة في نفوسهم، والمسرة لذة نفسية تنشأ عن الإحساس بالملائم أو عن اعتقاد حصوله ومما يوجبها التعجب من الشيء والإعجاب به. وهذا اللون من أحسن ألوان البقر فلذلك أسند فعل ﴿تسر﴾ إلى ضمير البقرة لا إلى ضمير اللون فلا يقتضي أن لون الأصفر مما يسر الناظرين مطلقا. والتعبير بالناظرين دون الناس ونحوه للإشارة إلى أن المسرة تدخل عليهم عند النظر إليها من باب استفادة التعليل من التعليل بالمشتق». (ت. ع، ج1 ص536)

وورد ذكر اللون الأصفر المقترن بذبول النباتات وموتها، في الآية 51 من سورة الروم، إذ قال تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا﴾؛ وفي الآية 21 من سورة الزمر: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما﴾؛ والآية 20 من سورة الحديد: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما﴾.

أما اللون الأصفر، باعتباره لونا محايدا، أي أحد الألوان دون دلالة إيجابية أو سلبية، فقد ورد في الآية 33 من سورة المرسلات، إذ قال تعالى: «كأنه جمالة صفر». وقد جاء في تفسير الفخر الرازي لهذه الآية: «.. أما قوله

صفر فالأكثرون على أن المراد منه سود تضرب إلى الصفرة، قال الفراء لا ترى أسود من الإبل إلا وهو مشوب صفرة، والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية لون النار كان أشبه بالجمل الأسود الذي يشوبه شيء من الصفرة. وزعم بعض العلماء أن المراد هو الصفرة لا السواد، لأن الشرر إنما يسمى شررا مادام يكون نارا، ومتى كان نارا كان أصفر، وإنما يصير أسود إذا انطفأ، وهناك لا يسمى شررا، وهذا القول عندي هو الصواب». (ت. ر. ج30 م15 ص278)

5 - الأزرق

تضمن القرآن الكريم آية واحدة تشير إلى اللون الأزرق، باعتباره أحد الألوان التي تعبر عن الخوف والتعاسة والحزن إذا بدت على عيني الإنسان، وهذا ما وعد الله به المجرمين. وتبين لنا هذه الآية والتفسيرات التي صاحبتها من لدن المفسرين، مدى إدراك العرب لزرقة العيون باعتبارها من عناصر القبح لا الجمال كما يروج الآن، خاصة في المجتمعات ذات الأصول القوقازية (الأوروبية).

قال تعالى في الآية 102 من سورة طه: «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا». استطرد الإمام الرازي في تفسير معنى الزرقة قائلا:

«اختلفوا في المراد بالزرقة على وجوه: (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعني زرق العيون سود الوجوه وهي زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك، فإن قيل أليس أن الله تعالى أخبر أنهم ﴿يحشرون عميا﴾ فكيف يكون أعمى وأزرق قلنا لعله يكون أعمى في حال وأزرق في حال (وثانيها) المراد من الزرقة العمى قال الكلبي زرقا أي عميا، قال الزجاج يخرجون بصراء في أول

مـرة ويعمـون في المحشـر. وسـواد العين إذا ذهب تزرقّ فـإن قيل كيف يكون أعمى، وقد قال تعالى ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ وشخوص البصر من الأعمى محال، وقد قال في حقهم ﴿إقرأ كتابك﴾ والأعمى كيف يقرأ (فالجواب) أن أحوالهم قد تختلف (وثالثها) قال أبو مسلم المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم والأزرق شاخص لأنه لضعف بصره يكون محدقا نحو الشيء يريدُ أن يتبينه وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ (ورابعها) زرقا عطاشا هكذا رواه ثعلب عن ابن الأعرابي قال لأنهم من شدة العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق ويدل على هذا التفسير قوله تعالى ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا﴾ (وخامسها) حكى ثعلب عن ابن الأعرابي قال طامعين فيما لا ينالونه». (ت. ر. ج22 م11 ص ص115-116)

6 - الأحمــــر

ورد ذكر اللون الأحمر في الآية 27 من سورة فاطر، إذ قال تعالى: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود».

وجاء في «لسان العرب» تحت لفظة «حمر» توضيح لدلالة بعض الألوان عند العرب:

«الحُمْرَة: من الألوان المتوسطة معروفة. لون الأحمر يكون في الحيوان والثياب وغير ذلك مما يقبله، وحكاه ابن الأعرابي في الماء أيضا.. ويقال: احْمَرّ الشيء احمرارا إذا لزم لونه فلم يتغير من حال إلى حال، واحْمارّ يَحْمارُّ احْميرارا إذا كان عرضا حادثا لا يثبت كقولك: جعل يَحْمارُّ مرة ويصْفارُّ

أخرى.. والأحمر من الأبدان: ما كان لونه الحمرة. [يقول] الأزهري في قولهم: أهلك النساء الأحمران، يعنون الذهب والزعفران، أي أهلكهن حب الحلي والطيب. [يقول] الجوهري: أهلك الرجال الأحمران: اللحم والخمر.. . يقال للذهب والزعفران الأصفران، وللماء واللبن الأبيضان، وللتمر والماء الأسودان.. والأحمر: الذهب، والأبيض: الفضة.. . والأحمر الأبيض: تطيرا بالأبرص؛ يقال أتاني كل أسود منهم وأحمر، ولا يقال أبيض؛ معناه جميع الناس عربهم وعجمهم.. . وفي الحديث: بُعثتُ إلى الأحمر والأسود. وفي حديث آخر عن أبي ذر: أنه سمع النبي ﷺ، يقول: أرسلت إلى الأحمر والأسود ونصرت بالرعب مسيرة شهر؛ قال شمر: يعني العرب والعجم والغالب على ألوان العرب السُّمرة والأُدْمَة وعلى ألوان العجم البياض والحمرة، وقيل: أراد الإنس والجن.. سمي الإنس الأحمر للدم الذي فيهم، وقيل أراد بالأحمر الأبيض مطلقا؛ والعرب تقول: امرأة حمراء أي بيضاء. سئل ثعلب: لم خصّ الأحمر دون الأبيض؟ قال: لأن العرب لا تقول رجل أبيض من بياض اللون، إنما الأبيض عندهم الطاهر النقي من العيوب، فإذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا أحمر.. والحمراء: العجم لبياضهم ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم، كانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبا على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم: إنهم الحمراء». (ابن منظور، ج4ص208-210)

المبحث الرابع

الأنـــــــــواع

تحدث القرآن الكريم عن ثلاثة أنواع من المخلوقات (الكائنات) الحية التي ألفها الإنسان ولها تأثير في حياته وتواصله بكيفية مباشرة أو غير مباشرة. فهناك صنف الحيوانات - ويندرج ضمنها الإنسان - وقد خلقها الله من تراب، والملائكة وهي أجسام نورانية، والشياطين والجن وقد خلقها الله من نار. ويهمنا في هذا المبحث، من هذه الأنواع الثلاثة، تبيان كيفية خلقها، والتمييز بين أشكالها ووظائفها، كما وردت في القرآن الكريم.

1 - الإنسان

إن أصل الإنسان من الأرض. فقد خلقه الله تعالى من بعض العناصر التي تتكون منها الأرض، لذلك وردت العديد من الآيات القرآنية التي تذكر أن الله خلق الإنسان من تراب، وبعضها يحصر نوع التراب الذي خلق منه الإنسان في الطين، والبعض الآخر يحصر نوع الطين في الصلصال المستخلص من طين

أسود يسمى الحمأ. ثم يعرض القرآن الكريم مراحل خلق الإنسان بدءا بعملية الإخصاب ومراحل تشكّل الجنين، وفترة الحمل وما يعتريها من متاعب، وولادته، وتدرجه في السن إلى أن يبلغ أرذل العمر فيموت.

ذكر الله تعالى في سور آل عمران والكهف والحج والروم وفاطر وغافر والنجم، أنه جل شأنه، خلق الإنسان من تراب الأرض، وفصّل بعض مراحل الخلق والتكوّن. قال تعالى في الآية 59 من سورة آل عمران: «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون»؛ وفي الآية 37 من سورة الكهف: «قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا»؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة الحج مبينا مسار وجود الإنسان في الدنيا: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا﴾؛ وقال تعالى في الآية 20 من سورة الروم: «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون»؛ وفي الآية 11 من سورة فاطر: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا﴾؛ والآية 67 من سورة غافر: ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى﴾؛ والآية 32 من سورة النجم: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾.

وورد تحديد نوعية التراب الذي خلق منه الإنسان في الآيتين 12 من سورة الأعراف و76 من سورة ص، إذ قال تعالى في قصة إبليس اللعين وسيدنا آدم أبو البشر: «قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»؛ وفي الآية 26 من سورة الحجر: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون»؛ والآية 12 من

سورة «المؤمنون»: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين»؛ وقال تعالى في الآية السابعة من سورة السجدة: «الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين»؛ والآية 14 من سورة الرحمن: «خلق الإنسان من صلصال كالفخار».

وفي آيات أخر مزيد من التفصيل عن مراحل خلق الإنسان في رحم أمه. قال تعالى في الآية الرابعة من سورة النحل: «خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين»؛ وقال تعالى في الآيات 12 و13 و14 من سورة «المؤمنون»: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»؛ وفي الآية 77 من سورة يس: «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين»؛ والآية 37 من سورة القيامة: «ألم يك نطفة من مني يمنى»؛ وقال تعالى في الآية الثانية من سورة الإنسان: «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا»؛ والآية 20 من سورة المرسلات: «ألم نخلقكم من ماء مهين»؛ وقال تعالى في الآيتين 19 و20 من سورة عبس: «من نطفة خلقه فقدره. ثم السبيل يسره»؛ وقال تعالى في الآيات الخامسة والسادسة والسابعة من سورة الطارق: «فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب»؛ وقال تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة العلق: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق».

وقد أورد ابن كثير في «قصص الأنبياء» حديثين عن خلق سيدنا آدم عليه السلام.

الحديث الأول رواه الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي وابن حبان في صحيحه: «قال الإمام أحمد: .. عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض،

فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك». (ابن كثير، ص43)

أما الحديث الثاني، فهو – كما يعتقد ابن كثير – مقتبس من سياقات بعض الأحاديث النبوية الشريفة، وبه بعض الإسرائيليات:

«ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: فبعث الله جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني وتشينني، فرجع ولم يأخذ، وقال: رب.. إنها عاذت بك فأعذتها.

فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل. فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلط، ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين.

فصعد به وقلّب التراب حتى عاد طينا لازبا. واللازب: هو الذي يلزق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿إني خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[ص: 71-72].

فخلقه الله بيده لئلا يتكبرإبليس عنه، فخلقه بشرا، فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعا إبليس، فكان يمر به فيضربه، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقول: ﴿من صلصال كالفخار﴾ [الرحمن: 14] ويقول: لأمر ما خلقت، ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف، لئن سلطت عليه لأهلكنه.

فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس، فقالت الملائكة: قل الحمد لله، فقال الحمد لله، فقال له الله: رحمك ربك، فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ [الأنبياء: 37].. ». (ابن كثير، ص ص43-44)

وذكر الله سبحانه وتعالى في سورتي لقمان والأحقاف المعاناة التي تواجهها الأم أثناء حملها ووضعها ورضاعتها لابنها خلال فترة تمتد لثلاثين شهرا. قال تعالى في الآية 14 من سورة لقمان: «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير»؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة الأحقاف: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾.

وقد خلق الله الإنسان فأحسن خلقه، كما قال جل شأنه في الآية الرابعة من سورة التين: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»؛ وقال تعالى في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة البلد: «ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين». ومع تقدم العمر، يفقد الإنسان حسنه ويعود ضعيفا كما بدأ ضعيفا، وهو محكوم عليه أن يكابد في حياته إلى أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى. قال تعالى في الآية 28 من سورة النساء: «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا»؛ وقال تعالى في الآيتين 67 و68 من سورة يس: «ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون. ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون»؛ وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة البلد: «لقد خلقنا الإنسان في كبد»؛

وفي الآيتين الرابعة والخامسة من سورة التين: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين».

تضمن القرآن الكريم ذكر نوع خاص من البشر خلقه الله مشوّها، شكلا وسلوكا، وهم قوم «يأجوج ومأجوج» الذين ورد ذكرهم في سورتي الكهف والأنبياء، وقد عُرفوا بفسادهم في الأرض.

قال تعالى في الآية 94 من سورة الكهف: ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾؛ وفي الآية 96 من سورة الأنبياء: «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون». وقد أفاض الإمام الطبري في ذكرهم وذكر صفاتهم.

فقد أورد ضمن حديثه عن ذي القرنين ويأجوج ومأجوج: «.. فلما فرغ منها عطف منها إلى الأمم التي وسط الأرض من الجن وسائر الناس، ويأجوج ومأجوج، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك نحو المشرق، قالت له أمة من الإنس صالحة: يا ذا القرنين، إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله، وكثير منهم مشابه للإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العشب، ويفترسون الدواب والوحوش كما تفترسها السباع، ويأكلون خشاش الأرض كلها من الحيات والعقارب، وكل ذي روح مما خلق الله في الأرض، وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقعهم، وننتظر أن يطلع علينا أوائلهم من بين هذين الجبلين.. . ثم انطلق يؤمهم حتى دفع إليهم توسط بلادهم، فوجدهم على مقدار واحد، ذكرهم وأنثاهم، مبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخالب في موضع الأظفار من أيدينا، وأضراس وأنياب كأضراس السباع وأنيابها وأحناك كأحناك الإبل قوة، تسمع لها حركة إذا أكلوا كحركة الجرّة من الإبل، أو كقظم الفحل المسنّ ، أو الفرس القوي، وهم هلب، عليهم من الشعر في أجسادهم ما يواريهم، وما يتقون به الحر والبرد

إذا أصابهم، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان، إحداهما وبرة ظهرها وبطنها، والأخرى زغبة ظهرها ربطنها، تسعانه إذا لبسهما، يلتحف إحداهما، ويفترش الأخرى، ويصيف في إحداهما، ويشتي في الأخرى، وليس منهم ذكر ولا أنثى إلا وقد عرف أجله الذي يموت فيه، ومنقطع عمره، وذلك أنه لا يموت ميت من ذكورهم حتى يخرج من صلبه ألف ولد، ولا تموت الأنثى حتى يخرج من رحمها ألف ولد، فإذا كان ذلك أيقن بالموت، وهم يرزقون التنين أيام الربيع، ويستمطرونه إذا تحينوه كما نستمطر الغيث لحينه، فيقذفون منه كل سنة بواحد، فيأكلونه عامهم كله إلى مثله من العام القابل، فيغنيهم على كثرتهم ونمائهم، فإذا أمطروا وأخصبوا وعاشوا وسمنوا، ورؤي أثره عليهم، فدرّت عليهم الإناث، وشَبِقت منهم الرجال الذكور، وإذا أخطأهم هَزَلوا وأجدبوا، وجفرت الذكور، وحالت الإناث، وتبين أثر ذلك عليهم، وهم يتداعون تداعي الحمام، ويعوُون عُواء الكلاب، ويتسافدون حيث التقوا تسافد البهائم». (ت. ط. ج16 م8 ص ص281-282)

كما روى الطبري حديثا نبويا شريفا عن صفة يأجوج ومأجوج. قال: «.. عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فتحفرونه غدا، فيعيده الله وهو كهيئته، يوم تركوه، حتى إذا جاء الوقت قال: إن شاء الله، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه، ويتحصن الناس في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فيرجع فيها كهيئة الدماء، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نَغَفا في أقفائهم فتقتلهم، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكَر من لحومهم». (ت. ط. ج16 م8 ص283)

2 - الملائكـــة

قال الإمام الطبري في أصل تسمية «الملائكة»:

«الملائكة جمع ملأك، غير أن أحدهم بغير الهمزة أكثر وأشهر في كلام العرب منه بالهمز. وذلك أنهم يقولون في واحدهم: مَلَك من الملائكة، فيحذفون الهمز منه، ويحركون اللام التي كانت مسكنة لو هُمز الاسم. وإنما يحركونها بالفتح، لأنهم ينقلون حركة الهمزة التي فيه بسقوطها إلى الحرف الساكن قبلها؛ فإذا جمعوا واحدهم، ردّوا الجمع إلى الأصل وهمزوا، فقالوا: ملائكة.. وأصل الملأك: الرسالة، كما قال عدي بن زيد العبادي:

أبلغ النعمان عني ملأكا إنه قد طال حبسي وانتظاري». (ت. ط، ج1 م1 ص ص234-235)

وقال ابن عاشور في ماهية الملائكة:

«الملائكة مخلوقات نورانية سماوية مجبولة على الخير قادرة على التشكل في خرق العادة لأن النور قابل للتشكل في كيفيات ولأن أجزاءه لا تتزاحم ونورها لا شعاع له فلذلك لا تضيء إذا اتصلت بالعالم الأرضي وإنما تتشكل إذا أراد الله أن يظهر بعضهم لبعض رسله وأنبيائه على وجه خرق العادة. قد جعل الله تعالى لها قوة التوجه إلى الأشياء التي يريد الله تكوينها فتتولى التدبير لها ولهذه التوجهات الملكية حيثيات ومراتب كثيرة تتعذر الإحاطة بها وهي مضادة لتوجهات الشياطين، فالخواطر الخيرية من توجهات الملائكة وعلاقتها بالنفوس البشرية وبعكسها خواطر الشر». (ت. ع، ج1 ص ص384-385)

ونستشف خصائص الملائكة وصفاتهم وقدرتهم على التشكل في هيئات البشر، من خلال سير معظم الأنبياء والرسل، كما وردت العديد من الآيات

القرآنية التي تثبت قدرة الملائكة على الطيران لامتلاكهم للأجنحة. وأبرز وصف لملك ورد في القرآن الكريم كان لسيدنا جبريل عليه السلام، إذ وُصِف في سورتي النجم والتكوير. إذ قال عنه تعالى في الآيات 5-14 من سورة النجم: «علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى»؛ وقال تعالى في الآيات 19 و20 و21 من سورة التكوير: «إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين».

وقد جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة أنه «جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه إذ كان النبي ﷺ أيامئذ بالمدينة وقد اعتاد الوحي وفارقته شدته، ولمراعاة هذه الحكمة كان جبريل يتمثل للنبي ﷺ في صورة إنسان وقد وصفه عمر في حديث بيان الإيمان والإسلام بقوله: إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد.. وأن النبي ﷺ قال لهم بعد مفارقته: يا عمر أتدري من السائل؟ قال عمر: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». (ت. ع، ج27 ص104)

وقال الخازن في تفسيره: «كان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جُبل عليها، فأراه نفسه مرتين مرة في الأرض، ومرة في السماء، فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى أي جانب المشرق حيث كان رسول الله ﷺ بحراء فطلع عليه جبريل من ناحية المشرق وفتح جناحيه فسدّ ما بين المشرق والمغرب، فخرّ رسول الله ﷺ مغشيا عليه، فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله ﴿ثم دنا

فتدلى﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على صورته الملكية التي خُلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ». (تفسير الخازن 213/ 4؛ صفوة، ج3ص273) وروى الإمام أحمد: «قال ابن مسعود: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منهما قد سدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم». (ت. ص، ج3 ص273)

لقد ورد ذكر الملائكة دون توضيح لطبيعتهم في الآيات 30 و31 و32 و33 و98 و161 و177 و285 من سورة البقرة؛ وفي الآيات 18 و80 و87 من سورة آل عمران؛ وفي الآية 136 من سورة النساء؛ والآية 27 من سورة الحجر؛ والآية 71 من سورة ص؛ والآية الرابعة من سورة التحريم.

وقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تبين طبيعة الملائكة والسلوكات والأعمال التي يقومون بها والأماكن التي يتواجدون بها.

قال تعالى في الآيات 34 و102 و210 و248 من سورة البقرة: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾، ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾، ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾، ﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة﴾؛ وقال تعالى في الآيات 39 و42 و45 و80 و87 و124 و125 من سورة آل عمران: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى﴾، «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين»، ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾، ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا﴾، «أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة

الله والملائكة والناس أجمعين»، «إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين».

وقال تعالى في الآية 97 من سورة النساء: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ وقال تعالى في الآيات 8 و9 و111 من سورة الأنعام: «وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون»، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾؛ وفي الآيتين 11 و20 من سورة الأعراف: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾، ﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾؛ وقال تعالى في الآيات 9 و12 و50 من سورة الأنفال: ﴿أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾، ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾، ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾.

وورد ذكر الملائكة في الآيتين 12 و31 من سورة هود؛ وفي الآيتين 13 و23 من سورة الرعد؛ والآيات 7 و8 و30 من سورة الحجر؛ وفي الآيتين 2 و49 من سورة النحل؛ وفي الآيات 40 و61 و92 و95 من سورة الإسراء؛ والآية 50 من سورة الكهف؛ وفي الآية 17 من سورة مريم؛ والآية 116 من سورة طه؛ والآية 103 من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 75 من سورة الحج؛ والآية 24 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيات 7 و21 و22 و25 من سورة الفرقان؛ وفي الآية 11 من سورة السجدة؛ وفي الآيات 9 و43 و56 من سورة الأحزاب؛ وفي الآية 40 من سورة سبأ؛ والآية الأولى من سورة فاطر؛ وفي الآية 150 من سورة الصافات؛ وفي الآية 73 من سورة ص؛ والآية 75 من سورة الزمر؛ وفي الآيتين 14 و30 من سورة فصلت؛ وفي الآية الخامسة من سورة الشورى؛ وفي الآيات 19 و53

و60 من سورة الزخرف؛ وفي الآية 27 من سورة محمد؛ والآية 28 من سورة الذاريات؛ وفي الآيتين 26 و27 من سورة النجم؛ وفي الآية السادسة من سورة التحريم؛ والآية 17 من سورة الحاقة؛ والآية الرابعة من سورة المعارج؛ وفي الآية 31 من سورة المدثر؛ وفي الآية 38 من سورة النبأ؛ والآية 22 من سورة الفجر؛ والآية الرابعة من سورة القدر.

3 - الشيطـــان

رأينا عند حديثنا عن الملائكة، أن الإمام الرازي ذكر أن الشياطين من مدبرات العالم السفلي، وهي نقيض الملائكة إذ تتكفل بأعمال الشر. وفي اللغة العربية، الشيطان هو: «كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب.. وتشيطن الرجل وشَيْطَن إذا صار كالشيطان وفعل فعله.. وقيل: الشيطان فَعْلان من شاط يشيط إذا هلك واحترق.. وقوله تعالى: طلعها كأنه رؤوس الشياطين؛ قال الزجاج: وجهه أن الشيء إذا استُقْبح شبِّه بالشياطين فيقال كأنه وجه شيطان وكأنه رأس شيطان، والشيطان لا يُرى، ولكنه يُسْتَشْعَر أنه أقبح ما يكون من الأشياء، ولو رُؤِيَ لرؤي في أقبح صورة.. والشيطان نونه أصلية.. ويقال أيضا: إنها زائدة، فإن جعلته فَيْعالا من قولهم تشيطن الرجل صرفته، وإن جعلته من شَيَط لم تصرفه لأنه فعلان؛ وفي النهاية: إن جعلت نون الشيطان أصلية كان من الشَّطْن البعد أي بَعُد عن الخير أو من الحبل الطويل كأنه طال في الشر، وإن جعلتها زائدة كان من شاط يشيط إذا هلك، أو من استشاط غضبا إذا احتدّ في غضبه والتهب، قال: والأول أصح». (ابن منظور، ج13 ص ص238-239)

وقد روى الإمام ابن ماجه في سننه، حديث الرسول ﷺ عن صفة الشيطان والتصاقه بالإنسان: «.. عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا

جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَزُورُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً مِنَ الْعِشَاءِ ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ فَقَامَ مَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْلِبُهَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ الَّذِي كَانَ عِنْدَ مَسْكَنِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ فَمَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنَ الأنصار فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَفَذَا فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ قَالا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا».

ورد ذكر الشيطان في 74 آية تتطرق لماهيتها وسلوكاتها وعلاقاتها بالإنسان.

قال تعالى في الآيات 14 و102 و168 و208 و268 و275 من سورة البقرة: «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون»، ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾، «يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين»، «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين»، ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾، ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾.

وورد ذكر الشيطان في الآيتين 155 و175 من سورة آل عمران؛ وفي الآيات 38 و60 و76 و83 و117 و119 و120 من سورة النساء؛ وفي الآيتين 90 و91 من سورة المائدة؛ وفي الآيات 43 و68 و71 و112 و121 و142 من سورة الأنعام؛ وقال

تعالى في الآيات 20 و22 و27 و30 175 و200 و201 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 11 و48 من سورة الأنفال؛ وفي الآيتين 5 و100 من سورة يوسف؛ والآية 22 من سورة إبراهيم؛ والآية 17 من سورة الحجر؛ وفي الآيتين 63 و98 من سورة النحل؛ وفي الآيات 27 و53 و64 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 63 من سورة الكهف؛ وفي الآيات 44 و45 و68 من سورة مريم؛ وفي الآية 120 من سورة طه؛ والآية 82 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 3 و52 من سورة الحج؛ والآية 97 من سورة المؤمنون؛ والآية 21 من سورة النور؛ والآية 29 من سورة الفرقان؛ وفي الآيتين 210 و221 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 24 من سورة النمل؛ والآية 15 من سورة القصص؛ وفي الآية 38 من سورة العنكبوت؛ والآية 21 من سورة لقمان؛ والآية السادسة من سورة فاطر؛ وفي الآية 60 من سورة يس؛ وفي الآيتين 7 و65 من سورة الصافات؛ وفي الآيتين 37 و41 من سورة ص؛ وفي الآية 36 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 36 و62 من سورة الزخرف؛ والآية 25 من سورة محمد؛ وفي الآيتين 10 و19 من سورة المجادلة؛ وفي الآية 16 من سورة الحشر؛ والآية الخامسة من سورة الملك؛ والآية 25 من سورة التكوير.

4 - إبليس

قال ابن عاشور عن إبليس: «إبليس اسم الشيطان الأول الذي هو مولد الشياطين، فكان إبليس لنوع الشياطين والجن بمنزلة آدم لنوع الإنسان. وإبليس اسم معرب من لغة غير عربية لم يعينها أهل اللغة، ولكن يدل لكونه معربا أن العرب منعوه من الصرف ولا سبب فيه سوى العلمية والعجمة ولهذا جعل الزجاج همزته أصلية، وقال وزنه على فعيل. وقال أبو عبيدة: هو اسم عربي مشتق من الإبلاس وهو البعد من الخير واليأس من الرحمة وهذا

اشـــتـقـــاق حـــسن لولا أنه يناكـد منعــه من الصـــرف.. ». (ت. ع، ج1 ص ص409-410)

وقد ورد ذكر إبليس وعصيانه لأوامر الله بالسجود لآدم، في الآية 34 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين»؛ وقال تعالى في الآيتين 11 و12 من سورة الأعراف: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»؛ وفي الآيات 32 و33 و39 من سورة الحجر: «قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون»، «قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين»؛ قال تعالى في الآية 61 من سورة الإسراء: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا»؛ وفي الآية 50 من سورة الكهف: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا»؛ والآية 116 من سورة طه: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى»؛ والآية 76 من سورة ص: «قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين».

5 - الجـــــن

من بين أهم الكائنات التي لها تأثير على حياة الناس وتفكيرهم، نجد الجن، على الرغم من أنه كائن غير مرئي. يقول ابن عاشور في تعريف الجن: «والجِنّ اسم لموجودات من المجردات التي لا أجسام لها ذات طبع ناري، ولها آثار خاصة في بعض تصرفات تؤثر في بعض الموجودات ما لا تؤثره القوى

العظيمة. وهي من جنس الشياطين لا يُدرى أمد وجود افرادها ولا كيفية بقاء نوعها. وقد أثبتها القرآن على الإجمال، وكان للعرب أحاديث في تخيلها. فهم يتخيلونها قادرة على التشكل بأشكال الموجودات كلها ويزعمون أنها إذا مست الإنسان آذته وقتلته. وأنها تختطف بعض الناس في الفيافي، وأن لها زَجَلا وأصواتا في الفيافي، ويزعمون أن الصدى هو من الجن». (ت. ع، ج6 ص245) ويضيف: «.. كان العرب يثبتون الجن وينسبون إليهم تصرفات، فلأجل ذلك كانوا يتقون الجن وينتسبون إليها ويتخذون لها المعاذات والرّقَى ويستجلبون رضاها بالقرابين وترك تسمية الله على بعض الذبائح. وكانوا يعتقدون أن الكاهن تأتيه الجن بالخبر من السماء، وأن الشاعر له شيطان يوحي إليه الشعر، ثم إذ أخذوا في تعليل هذه التصرفات وجمعوا بينها وبين معتقدهم في ألوهية الله تعالى تعللوا لذلك بأن للجن صلة بالله تعالى فلذلك قالوا: الملائكة بنات الله من أمهات سَرَوات الجن، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسبا﴾[الصافات: 158]... ومن أجل ذلك جعل كثير من قبائل العرب شيئا من عبادتهم للملائكة وللجن». (ت. ع، ج6 ص244)

قد ورد ذكر الجن في الآيات 100 و112 و128 و130 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: «وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون»، «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون»، «ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم»، «يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على

أنفسهم أنهم كانوا كافرين».

وجاء ذكر الجن في الآيات 38 و179 و184 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 119 من سورة هود؛ والآية 27 من سورة الحجر؛ وفي الآية 88 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 50 من سورة الكهف؛ وفي الآيتين 25 و70 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 10 و17 و39 من سورة النمل؛ وفي الآية 31 من سورة القصص؛ والآية 13 من سورة السجدة؛ وفي الآيات 8 و12 و13 و14 و41 من سورة سبأ؛ وفي الآية 158 من سورة الصافات؛ وفي الآيتين 25 و29 من سورة فصلت؛ وقال تعالى في الآيتين 18 و29 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 56 من سورة الذاريات؛ وفي الآيات 15 و33 و39 و74 من سورة الرحمن.

6 - الدواب

أصل اسم الدابة مشتق من الدبيب وهو المشي المتمهل. وقد أورد ابن منظور في «لسان العرب» تحت مادة «دبب»: «كل ماشٍ على الأرض: دابة ودبيب. والدابة: اسم لما دب من الحيوان، مميزة وغير مميزة. وفي التنزيل العزيز: والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه؛ ولما كان لما يَعْقِل، قيل: فمنهم؛ ولو كان لما لا يعقل، لقيل: فمنها، أو فمنهنّ، ثم قال: من يمشي على بطنه؛ وإن كان أصلها لما لا يعقل، لأنه لما خلط الجماعة، فقال منهم، جُعلت العبارة بمنْ؛ والمعنى: كل نفس دابة. وقوله، عز وجل: ما ترك على ظهرها من دابة؛ قيل من دابة من الإنس والجن، وكل ما يعقِل؛ وقيل إنما أراد العموم.. ولما قال الخوارج لِقَطَريّ: اخرج إلينا يا دابة، فأمرهم بالاستغفار، تلوا الآية حجة عليه. والدابة: التي تركب؛ قال: وقد غلب هذا الاسم على ما يُركب من الدواب، وهو يقع على المذكر والمؤنث، وحقيقته الصفة». (ابن منظور، ج1 ص ص369–370)

ورد ذكر الدواب في الآيتين 22 و55 من سورة الأنفال، إذ قال تعالى: «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون»، «إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون»؛ وقال تعالى في الآيتين 6 و56 من سورة هود: «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين»، ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾؛ وفي الآية 61 من سورة النحل: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾؛ وقال تعالى في الآية 45 من سورة النور: «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير»؛ وفي الآية 82 من سورة النمل: ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم﴾؛ والآية 60 من سورة العنكبوت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم﴾؛ وقال تعالى في الآية 45 من سورة فاطر: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾؛ وفي الآية 29 من سورة الشورى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة﴾؛ والآية الرابعة من سورة الجاثية: «وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون».

7 - الأنعام

يرد لفظ «الأنعام» في القرآن الكريم للدلالة على نوع خاص من الحيوانات، يقتصر على الإبل والبقر والغنم. وجاء في «لسان العرب» تحت مادة «نعم»: «النَّعَم: واحد الأنعام وهي المال الراعية؛ قال ابن سيده: النعم الإبل والشاء، يذكر ويؤنث.. . وقال ابن الأعرابي: النعم الإبل خاصة، والأنعام الإبل والبقر والغنم». (ابن منظور، ج12 ص585)

جاء ذكر الأنعام في 24 آية، بدءا من الآية الأولى في سورة المائدة، إذ قال

تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد»؛ وقال تعالى في الآيات 136 و138 و139 من سورة الأنعام: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا﴾، «وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون. وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم»؛ وفي الآيات 5 و6 و66 و80 من سورة النحل: «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون»، «وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين»، «والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين»؛ والآية 54 من سورة طه: «كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى».

وورد ذكر الأنعام في الآيات 28 و30 و34 من سورة الحج؛ وفي الآية 21 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 44 و49 من سورة الفرقان؛ وفي الآية 28 من سورة فاطر؛ والآية السادسة من سورة الزمر؛ والآية 79 من سورة غافر؛ وفي الآية 11 من سورة الشورى؛ وفي الآيتين 12 و13 من سورة الزخرف؛ وفي الآية 12 من سورة محمد؛ والآية 33 من سورة النازعات؛ والآية 32 من سورة عبس.

8 - البقــــر

تشكل البقر - من بين الأنعام الأخرى - حضورا بارزا في القصص القرآني. ففي قصة سيدنا إبراهيم الخليل والملائكة المرسلين لقوم سيدنا

لوط، ورد ذكر عجل ذبحه سيدنا إبراهيم إكراما لضيوفه. ونجد أمرا لقوم سيدنا موسى بذبح بقرة كشكل من أشكال العبادة والتقرب إلى الله؛ ثم لجوء بعضهم إلى عبادة العجل. ونجد ذكر البقر في قصة سيدنا يوسف، إذ حلم الملك بسبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف.

وتكمن أهمية ورود قصة قوم سيدنا موسى مع البقرة في الآيات من 67 إلى 71 من سورة البقرة، في أن الحديث والجدل دار في تحديد مظهر البقرة التي أُمروا بذبحها. إذ حُدد مظهرها من حيث سنها ولونها وسلامة بدنها.

ورد ذكر البقر في الآيات 51 و54 و67 و68 و69 و70 و71 و92 و93 من سورة البقرة؛ وفي الآيتين 144 و146 من سورة الأنعام؛ وفي الآيتين 148 و152 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 43 و46 من سورة يوسف؛ والآية 69 من سورة هود؛ والآية 88 من سورة طه؛ والآية 26 من سورة الذاريات.

9 - الغـــنم

ورد ذكر الغنم في القرآن الكريم، بمسمياته المختلفة. فهناك حديث عما تيسر من «الهدي» وهو «اسم الحيوان المتقرب به لله في الحج.. وأقل ما هو معروف.. من الهدي الغنم». (ت. ع، ج2 ص220) كما ورد ذكر الضأن والنعاج.

قال تعالى في الآية 196 من سورة البقرة: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾؛ وفي الآيتين 143 و146 من سورة الأنعام: «ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم

صادقين»، «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون»؛ وقال تعالى في الآية 18 من سورة طه: ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾؛ وفي الآية 78 من سورة الأنبياء: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم﴾: وقال تعالى في الآيتين 23 و24 من سورة ص: «إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب» ﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾.

10 - الإبـــل

ورد ذكر الإبل من حيث تصنيفها الجنسي إلى ذكر (جمل) وأنثى (ناقة) في الآية 144 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: «ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين». وفُسّر قوله تعالى ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾: «أي وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنين هما الجاموس [الثور] والبقرة». (ت. ص، ج1 ص425).

أما قصة ناقة سيدنا صالح، التي كانت معجزة أرسلها الله إلى قومه وكان ذبحهم لها سببا في هلاكهم، فقد وردت في الآيتين 73 و77 من سورة الأعراف: «وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم». ﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر

ربهم﴾؛ وفي الآية 64 من سورة هود: ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء﴾؛ والآية 59 من سورة الإسراء: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾؛ وقال تعالى في الآية 155 من سورة الشعراء: «قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم»؛ وفي الآية 27 من سورة القمر: «إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر»؛ والآية 13 من سورة الشمس: «فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها».

وفي سورة يوسف ذكر للإبل على المستوى الوظيفي، إذ تطلق العرب لفظ: «البعير» على الجمل المحمّل بالأشياء (أي إن البعير = جمل + حمولة). إذ قال تعالى في الآيتين 65 و72: ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير﴾، «قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم». وتطلق العرب لفظة «العير» على قافلة الجمال المحملة بالبضائع والركب، كما جاء في الآيات 70 و82 و94 من سورة يوسف: «فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون»، «واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون»، «ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون».

وورد ذكر «البُدْن» في سورة الحج «والبدن: جمع بَدنَة بالتحريك، وهي البعير العظيم البدن. وهو اسم مأخوذ من البدانة، وهي عظم الجثة والسمن». (ت.ع، ج15 ص190) وهي تذبح كهدي في الحج. قال تعالى في الآيتين 36 و37 من سورة الحج: «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين».

وأخيرا، ذكرت الإبل كآية من آيات الله في خلقه. إذ دعا الله عباده للتأمل والتفكر في كيفية خلق الإبل التي تتميز بسمات بديعة على مستوى الجسد الحجم ووظائف الأعضاء واستخداماتها في الحياة اليومية للناس. قال تعالى في الآية 17 من سورة الغاشية: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت». كما وصفت حالتها عند قيام الساعة. قال تعالى في الآية الرابعة من سورة التكوير: «وإذا العشار عطلت» أي «إذا النوق الحوامل تركت هملا بلا راع ولا طالب». (ت. ص، ج3 ص524)

11 - الخيل والحمير

اقترن ذكر الخيل والحمير والبغال في القرآن الكريم باستخداماتها المألوفة والتي تتجسد في اتخاذها وسائل نقل. كما تعتبر من أبرز السمات التكميلية للمظهر، إذ يعبر امتلاكها عن الغنى والثروة، في بعض المجتمعات العربية. كما اشتهرت الخيل – عبر التاريخ – باستخدامها في الآلة الحربية. وقد ورد فضلها في الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمام مالك في الموطأ، إذ قال: «.. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ الخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ». (ش. صخر، 1997) وذُكر الحمار مرتبطا بقبح الصوت وقلة الفهم.

قال تعالى في الآية 259 من سورة البقرة: ﴿وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾؛ وفي الآية 60 من الأنفال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾؛ وقال تعالى في الآية الثامنة من سورة النحل: «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون»؛ وفي الآية 19 من سورة لقمان: «واقصد في

مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير»؛ وقال تعالى في الآية 31 من سورة ص: «إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد» أي الخيل الواقفة على طرف الحافر، السريعة الجري (ت. ص، ج3ص58)؛ وقال تعالى في الآية السادسة من سورة الحشر: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾؛ وفي الآية الخامسة من سورة الجمعة: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾.

12 - الطـــير

ورد ذكر الطير في القرآن الكريم متضمنا للهيئة التي يكون عليها الطير وعلى رأسها القيام بفعل الطيران؛ وبعض سلوكاتها الاستعراضية كالاصطفاف جماعات في السماء، أو بحثها عن الغذاء، أو سلوكها الهجومي كما جاء في قصة الطير الأبابيل؛ وورد ذكر صنفين من الطير هما: الغراب والهدهد؛ وذكرت لغة الطير التي قُدِّر لسيدنا سليمان عليه السلام أن يفهمها؛ كما ذُكر لحم الطير كصنف من أصناف طعام أهل الجنة؛ وأخيرا، نجد اعتقاد الناس في الطير على سبيل التشاؤم والتفاؤل.

قال تعالى في الآية 260 من سورة البقرة: «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم»؛ وفي الآية 49 من سورة آل عمران: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾؛ والآية 110 من سورة المائدة: ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة

والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني﴾.

وقال تعالى في الآية 38 من سورة الأنعام: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 36 و41 من سورة يوسف: ﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه﴾، «يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان»

وقال تعالى عن الطير الصافات في الآية 41 من سورة النور: «ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون»؛ وفي الآية 19 من سورة الملك: «أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير».

وقال تعالى في الآية 31 من سورة الحج: «حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق»؛ وفي الآية 13 من سورة الإسراء: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾؛ وقال تعالى في الآية العاشرة من سورة سبأ: «ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد»؛ وفي الآية 19 من سورة ص: «والطير محشورة كل له أواب».

وقال تعالى عن الغراب الذي بعثه الله إلى هابيل ابن سيدنا آدم الذي قتل أخاه قابيل وعجز عن إخفاء فعلته، في الآية 31 من سورة المائدة: «فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين»؛ وقال تعالى

عن الهدهد في مجلس سيدنا سليمان عليه السلام، في الآية 20 من سورة النمل: «وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين».

وورد ذكر لغة الطير - وهي بالضرورة لغة غير لفظية - في الآية 16 من سورة النمل: «وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين».

وقال تعالى في الآيتين الثالثة والرابعة من سورة الفيل التي اقترنت بقصة أبرهة وجيشه الذي سعى لتدمير الكعبة : «وأرسل عليهم طيرا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل». وذكر تعالى لحم الطير باعتباره من أشهى أنواع الطعام، في الآية 21 من سورة الواقعة: «ولحم طير مما يشتهون».

أما التطير فقد ورد ذكره في الآية 131 من سورة الأعراف: «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون»؛ وفي الآية 19 من سورة يس: «قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون».

يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿ويطّيروا﴾ الوارد في سورة الأعراف: «أصله يتطيروا، وهو تَفَعّلُ، مشتق من اسم الطير، كأنهم صاغوه على وزن التفعل لما فيه من تكلف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير، أو هو مطاوعة سمي بها ما يحصل من الانفعال من إثر طيران الطير. وكان العرب إذا خرجوا في سفر لحاجة، نظروا إلى ما يلاقيهم أول سيرهم من طائر، فكانوا يزعمون أن في مروره علامات يُمن وعلامات شؤم، فالذي في طيرانه علامة يمن في اصطلاحهم يسمونه السانح، وهو الذي ينهض فيطير من جهة اليمين للسائر، والذي علامته الشؤم هو البارح وهو الذي يمر على اليسار، وإذا وجد السائر طيرا جاثما آثاره لينظر أي جهة يطير، وتسمى تلك الإثارة زجرا، فمن الطير ميمون ومنه مشؤوم والعرب يدعون للمسافر بقولهم «على الطائر الميمون»، ثم

غلب استعمال لفظ التطير في معنى التشاؤم خاصة، يقال الطيرة أيضا، كما في الحديث «لا طيرة وإنما الطيرة على من تطير» أي: الشؤم يقع على من يتشاءم، جعل الله ذلك عقوبة له في الدنيا لسوء ظنه بالله، وإنما غلب لفظ الطيرة على التشاؤم لأن للأثر الحاصل من دلالة الطيران على الشؤم دلالة أشد على النفس، لأن توقع الضر أدخل في النفوس من رجاء النفع. والمراد به في الآية أنهم يتشاءمون بموسى ومن معه فاستعمل التطير في التشاؤم بدون دلالة من الطير، لأن قوم فرعون لم يكونوا ممن يزجر الطير فيما علمنا من أحوال تاريخهم، ولكنهم زعموا أن دعوة موسى فيهم كانت سبب مصائب حلت بهم، فعبر عن ذلك بالتطير على طريقة التعبير العربي». (ت. ع، ج8 ص ص250-251)

13 - الحوت

الحوت هو أحد أصناف الكائنات القليلة التي ورد ذكرها في القرآن. إذ ورد ذكره كشكل من أشكال الطعام البشري، في سورتي الأعراف والكهف؛ وكحيوان مفترس، في سورتي الصافات والقلم.

قال تعالى في الآية 163 من سورة الأعراف: «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون»؛ وفي الآيتين 61 و63 من سورة الكهف: «فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا»، «قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا». وقال تعالى في الآية 142 من سورة الصافات: «فالتقمه الحوت وهو مليم»؛ وفي الآية 48 من سورة القلم: «فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم».

14 - الكــلب

ذكـر الكلب فـي القـرآن الكريم، كـأحـد الحـيـوانات ذات السلوك الطبـيـعي المميـز، على سـبيل التشـبيه، ممـا يبين بعض السـمـات الجسـدية للكلب، وذلك في الآية 176 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾.

ويبين القرآن الكريم أن الكلب أحـد الحيوانات الأليفـة التي ترافق الإنسان، من خـلال قصة الكلب الذي اشتهر برفقتـه لأهل الكهف الذين ذكرهم المولى عـز وجل فـي الآيتين 18 و22 من سـورة الكهف، إذ قـال تعـالى: ﴿ وتحـسبـهم أيقـاظا وهـم رقـود ونقلبهم ذات اليـمين وذات الشـمـال وكلبـهم باسط ذراعـيـه بالوصيـد ﴾، «سيـقـولون ثلاثة رابعـهم كلبهم ويقـولون خمـسـة سـادسـهم كلبهم رجمـا بالغيب ويقولون سبعـة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم مـا يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهـرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا».

وذُكِـر الكلب كـوسيلة للصـيـد في الآية الرابعـة من سـورة المائدة، إذ قـال تعالى: «يسـألونك ماذا أحل لـهم قل أحل لكم الطيبـات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمـونهن مما علمكم الله فكلوا ممـا أمسكن عليكم واذكـروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سـريع الحسـاب».

يشـرح الإمـام الزمـخشـري مـعنى «الجـوارح» و«مكلبين»، قـائلا: «الجـوارح: الكواسب من سـبـاع البهـائم والطير، كـالكلب والفـهد والنمـر والعقـاب والصـقـر والبـازي والشـاهين. والمكلب: مُـؤدِّب الجوارح ومضـريهـا بالصيـد لصـاحبـهـا، ورائضـهـا لذلك بمـا علم مـن الحيل وطرف التـأنيب والتثـقيف، واشـتقـاقـه من الكلب، لأن التـأديب أكـثـر مـا يكون في الكلاب فـاشـتـق من لفظه كـثـرته في جنسـه. أو لأن السـبع يسـمى كلبـا .. أو من الكلب الذي هـو بمعنى الضـراوة». (ت. ز، ج1 ص594)

15 - الحــشرات

تضـمن القـرآن الكريم ذكـر بعض أنواع الحشـرات المألوفـة لدى الإنسـان، كالبعوض والجـراد والقمل والنحل والذباب والنمل والعناكب. فالجـراد والقمل (والضفـادع) ذكـرت كآفات سلطت على الناس؛ وذكـر النحل كأحد الموجودات المفيدة للإنسـان، إذ تزوده بأفضل أنواع الطعام الا وهو العسل الذي فيه غذاء وشفاء للنـاس؛ وجاء ذكر الذباب للتمثيل والتدليل على الصِغر مع الإعجاز في الخلق؛ وذكـر النمل ككائنات اجتمـاعيـة تسعى للتعـايش مع الإنسـان، وضُرِب المثل ببيت العنكبوت الذي يتسم بالضعف والوهن.

قـال تعـالى في الآية 26 من سـورة البقـرة: ﴿ إن الله لا يسـتحيي أن يضـرب مثـلا مـا بعوضـة فمـا فـوقهـا ﴾؛ وفي الآية 133 من سـورة الأعـراف: «فـأرسلنا عليهم الطوفـان والجراد والقمل والضـفـادع والدم آيات مفصـلات فاستكبـروا وكانوا قـوما مجـرمين»؛ وقـال تعالى في الآية السـابعة من سورة القـمـر: «خشـعا أبصـارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر»؛

وقـال تعـالـى فـي الآيتين 68 و69 من سـورة الـنحل: «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخـذي من الجـبـال بيـوتـا ومن الشـجـر ومما يعـرشـون. ثم كلي من كل الثمرات فـاسلكي سـبل ربك ذللا يخرج من بطونهـا شـراب مـختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون».

وقــال تعــالى فـي الآية 73 من ســورة الحـج: «يا أيهــا النـاس ضــرب مــثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب»؛ وفي الآية 18 من سـورة النمل: «حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملـة يا أيهـا النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمـان وجنوده وهم لا يشعرون»؛ وقـال تعالى في الآية 41 من سورة العنكبـوت: «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت

اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون».

16 - الوحـــوش

أورد ابن منظور تحت مادة «وحش»: «الوَحْش: كل شيء من دواب البرّ مما لا يستأنس مؤنث، وهو وحشي، والجمع وحوش.. وكل شيء يستوحش عن الناس. فهو وحشيّ؛ وكل شيء لا يستأنس بالناس وحشيّ. قال بعضهم: إذا أقبل الليل استأنس كل وحشي واستوحش كل إنسيّ.. وفي حديث النجاشي: فنفخ في إحليل عمارة فاستوحش أي سُحِر حتى جنّ فصار يعدو مع الوحش في البرية حتى مات». (ابن منظور، ج6ص368)

وقد ورد في القرآن ذكر بعض الحيوانات التي ينطبق عليها تعريف الوحش، كالقرود والخنازير والذئاب والحُمُر.

قال تعالى في الآيتين 65 و173 من سورة البقرة: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين»، «إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾؛ وفي الآيات 3 و60 و103 من سورة المائدة: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾، ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير﴾، «ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون»؛ وقال تعالى في الآية 145 من سورة الأنعام: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس﴾؛ وفي الآية 166 من سورة الأعراف: «فلما عتوا عما نهوا

عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين»؛ وقال تعالى في الآيات 13 و14 و17 من سورة يوسف: «قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون»، ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾؛ وفي الآية 115 من سورة النحل: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 50 و51 من سورة المدثر: «كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة»؛ وفي الآية الخامسة من سورة التكوير: «وإذا الوحوش حشرت».

المبحث الخامس

النباتات والجمادات والظواهر الطبيعية

تحفل البيئة المحيطة بالإنسان، بالعديد من الكائنات الحية وغير الحية، التي يستطيع الإنسان أن يدركها ببصره ويصنفها ضمن مكونات المظهر، ويتفاعل معها. فبالإضافة إلى الكائنات التي تصنف ضمن الحيوانات والمخلوقات غير المرئية (الملائكة والجن والشياطين) التي تطرقنا إليها في المبحث السابق، تضمن القرآن الكريم ذكراً للنباتات، ممثلة في بعض أصنافها؛ والنجوم والكواكب والقمر التي غالبا ما يدركها الإنسان ببصره المجرد كأجرام بعيدة ذات تأثير في نمط حياته وثقافته ومعتقداته؛ والأرض التي يسكن الإنسان عليها، بما تشتمل عليه من جبال ومياه ويابسة؛ والسحاب والبرق والريح؛ والسماء التي تشكل المصدر الرئيس للسمو الوجداني والديني؛ والسمات المظهرية للوقت كالليل والنهار والفجر والضحى والشروق والغروب؛ وأخيرا تحدث القرآن الكريم عن بعض الأواني والأثاث المنزلي.

1 - النبــات

تضمـن القـرآن الكريم ذكـراً للنبـات في صيغتـه العامـة ليشمل الأشجار والحشـائش والثمـار وكل مـا يرتبـط بهـذا القطاع من الكائنات الحيـة؛ وورد الحديث عن الثمار للدلالة على ما يستفيد منه الإنسان من القطاع النباتي في غذائه؛ وذُكرت الجنان التي تكتظ بالنبـاتات (وعلى رأسـهـا الأشـجـار) المثمرة وغيـر المثمـرة؛ وبعض المنتـجـات الزراعـيـة، كـالبصل والثـوم والعدس والقـمـح والحبوب والفواكه كالرمان والعنب والتين والزيتون وثمار النخل.

جاء ذكـر النبات، بصفة عـامة، في الآية 24 من سورة يونس، إذ قـال تعالى: «إنما مـثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فـاختلط به نبـات الأرض مما يأكل الناس والأنعـام حتى إذا أخـذت الأرض زخـرفهـا وازينت وظن أهلهـا أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليـلا أو نهارا فجعلناها حصيـدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون»؛ وفي الآية 45 من سورة الكهف: «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فـأصبح هشـيـمـا تـذروه الرياح وكـان الله على كل شـيء مقـتـدرا»؛ والآية 63 من سـورة الحج: «ألم تـر أن الله أنزل من السمـاء مـاء فتصـبح الأرض مـخضـرة إن الله لطيف خبير».

وقـال تعالى عن الثمر في الآيات 22 و126 و155 من سـورة البقـرة: ﴿وأنزل من السـمـاء مـاء فـأخـرج به من الثـمـرات رزقـا لكم﴾، ﴿وإذ قـال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنـا وارزق أهله من الثمـرات﴾، «ولنبلونكم بشـيء من الخـوف والجـوع ونقص من الأمـوال والأنفس والثـمـرات وبشـر الصـابرين»؛ وورد ذكـر الثمرات في الآية الثالثة من سورة الرعد؛ وفي الآية 69 من سورة النحل؛ وفي الآيتين 34 و42 من سـورة الكهف؛ والآية 57 من سـورة القـصص؛ وفـي الآية 27 من سورة فاطر؛ والآية 35 من سورة يس.

ورد ذكـر «الجنـة» بمعناهـا العـام والخـاص في القـرآن الكـريم، 147 مـرة. (عبـد البـاقي، 1997، ص ص229) وجـاء في «لسـان العـرب» لابن منظور، أن «الجنة: البستان، ومنه الجنات، والعرب تسمي النخيل جنة.. والجنة: الحديقة ذات الشـجر والنخل، وجمعها جنان وفيها تخصيص، ويقال للنخل وغيرها. وقال أبو علي في التـذكرة: لا تكون الجنة في كلام العـرب إلا وفيهـا نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة.. والجنة هي دار النعيم في الدار الآخرة، من الاجتنان، وهو السـتر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها، قال: سميت بالجنة وهي المرّة الواحدة من مصدر جنّه جنّا إذا ستره، فكأنها سترة واحدة لشدة التفافها وإظلالها». (ابن منظور، ج13 ص99-100)

ومن أمثلة ذكر الجنة في القرآن الكريم، قوله تعالى في الآيتين 265 و266 من سورة البقرة: «ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير. أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون»؛ وفي الآيتين 195 و198 من سورة آل عمران: ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾؛ والآية العاشرة من سورة الفرقان: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار﴾؛ والآية 134 من سورة الشعراء: «وجنات وعيون»؛ والآية 25 من سورة الدخان: «كم تركوا من جنات وعيون»؛ والآية 15 من سورة محمد: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون

فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات﴾؛ وفي الآيتين 46 و48 من سورة الرحمن: «ولمن خاف مقام ربه جنتان»، «ذواتا أفنان»؛ وفي الآية 16 من سورة النبأ: «وجنات ألفافا».

وورد ذكر بعض المنتجات النباتية كالبقول والخضر والحبوب والفاكهة، في الآيتين 61 و261 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾، «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم»؛ وقال تعالى في الآيات 59 و99 و141 من سورة الأنعام: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين»، «وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون»، ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾

وورد ذكر المنتجات النباتية في الآيتين 11 و67 من سورة النحل؛ وفي الآيتين 32 و40 من سورة الكهف؛ والآية 27 من سورة السجدة؛ وفي الآيتين 26 و27 من سورة الدخان؛ وفي الآية 29 من سورة الفتح؛ والآية العاشرة من سورة ق؛ وفي الآيتين 20 و31 من سورة القمر؛ وفي الآيات 11 و52 و62 و68 من سورة الرحمن؛ وفي الآية 20 من سورة الواقعة؛ والآية الخامسة من سورة

الحشر؛ والآية السابعة من سورة الحاقة؛ وفي الآيتين 15 و32 من سورة النبأ؛ وفي الآيات 27 و28 و29 و30 و31 من سورة عبس؛ والآية الأولى من سورة التين.

2 - الشجر

تضمنت بعض الآيات القرآنية ذكرا للشجر باعتباره شكلاً من أشكال النبات، ووردت إشارات إلى الشجرة الشهيرة التي كانت سببا في طرد آدم وحواء من الجنة، وذكرت أسماء بعض الأشجار كالزقوم واليقطين.

قال تعالى في الآية 35 من سورة البقرة: «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»؛ وفي الآيات 19 و20 و22 من سورة الأعراف: «ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين »، «فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين».

قال ابن عاشور في نوع الشجرة المذكورة في الآيات السابقة: «اختلف أهل القصص في تعيين نوع هذه الشجرة. فعن علي وابن مسعود وسعيد بن جبير والسدي أنها الكرمة، وعن ابن عباس والحسن وجمهور المفسرين أنها الحنطة، وعن قتادة وابن جريج ونسبه ابن جريج إلى جمع من الصحابة أنها شجرة التين. ووقع في سفر التكوين من التوراة إبهامها وعبر عنها بشجرة

معرفة الخير والشر». (ت. ع، ج1 ص418)

وورد ذكر الشجر في الآيتين 24 و26 من سورة إبراهيم؛ وفي الآيتين 10 و68 من سورة النحل؛ والآية 20 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآية 60 من سورة النمل؛ والآية 27 من سورة لقمان؛ وفي الآيات 62 و64 و146 من سورة الصافات؛ وفي الآيتين 43 و44 من سورة الدخان؛ والآية 18 من سورة الفتح؛ وفي الآيتين 52 و72 من سورة الواقعة.

3 - النجوم والكواكب والقمر

تُعَرَّف النجوم والكواكب والأقمار في علم الفلك الحديث، وفقا لطبيعة تكوينها وأحجامها وعلاقة الارتباط بينها. فالنجوم أجسام غازية دائمة الانفجار والإشعاع وكبيرة الحجم ومتحركة ضمن حركة الكون المتمدد، وأشهر مثال لها هي الشمس؛ بينما الكواكب أجسام متجمدة في معظم طبقاتها وقشرتها، وتقل حجما عن النجوم وهي تابعة للنجوم أي تدور حولها في مدارات ثابتة، مما يدل على أنها انفصلت عن النجم ثم بردت فتجمدت (والبراكين التي تخرج من باطن الأرض دليل على التجمد)، كما أن الكواكب تدور حول النجم في مدار ثابت بحكم قوة الجذب الناتجة عن النجم وقوة الطرد الناتجة عن دوران الكوكب حول نفسه، وخير مثال للكواكب: الأرض؛ والقمر - بالضرورة - أصغر حجما من الكوكب الذي يدور حوله، وغالبا ما يتكون من معظم المواد التي يتكون منها الكوكب، وأبرز الأقمار التي عرفها الإنسان: قمر الأرض الذي يدور حولها ولا يدور حول نفسه.

وقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى الأجرام القريبة من الإنسان والتي تتوقف حياته عليها وهي الشمس والأرض والقمر؛

بالإضافة إلى إشارات عامة إلى النجوم والكواكب. ويلاحظ في بعض الآيات الإشارة إلى الكواكب بمعنى النجوم، كما جاء في قوله تعالى «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب»؛ أو الإشارة للنجوم بمعنى الكواكب، كما جاء في قوله تعالى «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» أو «فلا أقسم بمواقع النجوم».

ورد ذكر النجوم في الآية 97 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾؛ وفي الآيتين 12 و16 من سورة النحل: ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾، «وعلامات وبالنجم هم يهتدون»؛ وقال تعالى في الآية 88 من سورة الصافات: «فنظر نظرة في النجوم»؛ وفي الآية 49 من سورة الطور: «ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم»؛ والآية الأولى من سورة النجم: «والنجم إذا هوى»؛ وقال تعالى في الآية السادسة من سورة الرحمن: «والنجم والشجر يسجدان»؛ وفي الآية 75 من سورة الواقعة: «فلا أقسم بمواقع النجوم»؛ والآية الثامنة من سورة المرسلات: «فإذا النجوم طمست»؛ وقال تعالى في الآيات 2 و15 و16 من سورة التكوير: «وإذا النجوم انكدرت»، «فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس»؛ وفي الآية الثالثة من سورة الطارق: «النجم الثاقب».

وذكرت الكواكب في الآية 76 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: «فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين»؛ والآية الرابعة من سورة يوسف: «إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين»؛ وفي الآية 35 من سورة النور: ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري﴾؛ وقال تعالى في الآية السادسة من سورة الصافات: «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب»؛ وفي الآية الثانية من سورة الانفطار: «وإذا الكواكب انتثرت».

وورد ذكر الشمس والقمر في الآيات 77 و78 و96 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: «فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون»، «فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم»؛ وفي الآية 54 من سورة الأعراف: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾؛ والآية الخامسة من سورة يونس: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾؛ وورد ذكر الشمس والقمر في الآية الثانية من سورة الرعد؛ وفي الآية 33 من سورة الأنبياء؛ والآية 18 من سورة الحج؛ وفي الآية 61 من سورة الفرقان؛ والآية 24 من سورة النمل؛ والآية 13 من سورة فاطر؛ وفي الآية 40 من سورة يس؛ وفي الآية 16 من سورة نوح؛ والآية الأولى من سورة التكوير؛ والآية 18 من سورة الانشقاق.

4 - الأرض

لقد ورد ذكر الأرض في القرآن الكريم، في 461 موضعا، متفوقة بذلك على غيرها من الأجرام والسماء. وهذا يتناسب مع أهميتها والتصاقها بوجود الإنسان الذي خلق من ترابها.

ونذكر من بين الآيات التي أشارت لمظهر الأرض وعلاقتها بالعناصر التي توجد فوقها ووظيفتها وفائدتها لبني البشر، ما ورد في الايات 22 و61 و164 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا﴾، ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض﴾، «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي

تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»؛ وقال تعالى في الآية 190 من سورة آل عمران: «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب»؛ وفي الآية 59 من سورة الأنعام: «وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين»؛ والآية 54 من سورة الأعراف: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾.

ونجد المزيد من المعلومات عن الأرض في الآيتين 6 و24 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 3 و17 من سورة الرعد؛ وفي الآية 26 من سورة إبراهيم؛ وفي الآية 85 من سورة الحجر؛ والآية 15 من سورة النحل؛ وفي الآيات 7 و45 و47 من سورة الكهف؛ وفي الآية31 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 18 و63 من سورة الحج؛ والآية 60 من سورة النمل؛ والآية 57 من سورة القصص؛ والآية 24 من سورة الروم؛ وفي الآيتين 10 و27 من سورة لقمان؛ وفي الآية 27 من سورة السجدة؛ والآية 21 من سورة الزمر؛ وفي الآية 64 من سورة غافر؛ وفي الآية العاشرة من سورة الزخرف؛ والآية السادسة من سورة النبأ؛ وفي الآيتين 30 و31 من سورة النازعات؛ وفي الآية 26 من سورة عبس: وفي الآية 12 من سورة الطارق؛ والآية 20 من سورة الغاشية.

5 - الجبال والصخور

تضمن القرآن الكريم العديد من الإشارات إلى الجبال والصخور، باعتبارها تشكل أبرز ملامح الكرة الأرضية. فهي أول ما يبدو للناظر من بُعْد، سواء على سطح الأرض أو من على الفضاء الخارجي. كما أن الجبال هي

إحدى الآيات المظهرية على الأرض. فهي بارتفاعها وانغراسها عميقا في باطن الأرض تبدو كالأوتاد التي تشد الأرض وتحفظ توازنها. وتشكل الجبال أعلى القمم على سطح الأرض، وكل جبل ينغرس في عمق الأرض حوالي ثمانية أضعاف ارتفاعه فوقها. كما أن الجبال والصخور تمتاز بصلابتها وصلاحيتها لبناء المنازل القوية والفخمة التي تبرز المظهر الحضاري للإنسان.

لقد ورد ذكر الجبال والصخور والحجارة في عشرين آية. قال تعالى في الآية 81 من سورة النحل: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾؛ وفي الآية 50 من سورة الإسراء: «قل كونوا حجارة أو حديدا»؛ وقال تعالى في الآيات 10 و11 و47 و63 من سورة الكهف: ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾ ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا﴾، ﴿ويوم نسير الجبال﴾، ﴿قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 31 و52 من سورة الأنبياء: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾، «إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون»؛ وفي الآية 149 من سورة الشعراء: «وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين»؛ وقال تعالى في الآيتين 17 و25 من سورة العنكبوت: ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانا﴾، ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا﴾؛ وفي الآيتين 10 و13 من سورة سبأ: «ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه﴾، ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾؛ وقال تعالى في الآية 33 من سورة الذاريات: «لنرسل عليهم حجارة من طين»؛ وفي الآية السابعة من سورة النبأ: «والجبال أوتادا»؛ والآية 32 من سورة النازعات: «والجبال أرساها»؛ وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة التكوير: «وإذا الجبال سيرت»؛ وفي الآية 19 من سورة الغاشية: «وإلى الجبال كيف نصبت»؛ والآية التاسعة من سورة الفجر: «وثمود الذين جابوا الصخر بالواد»؛ والآية الثانية من سورة التين: «وطور سينين».

6 - البحـــــر

ورد ذكر البحر في 46 آية قرآنية، يتحدث معظمها عن البحار باعتبارها من أبرز مظاهر الأرض، إذ تمنحها تميزا مقارنة بالكواكب الأخرى المعروفة لدى الإنسان. ولفظ «البحر» في القرآن الكريم لا تقتصر دلالته على البحر كما يعرِّفه الجغرافيون الذين يميزون بين المحيط والبحر والبحيرة والنهر والوادي، وغيرها من أماكن تجمع المياه وجريانها. فالبحر في لغة القرآن الكريم، قد يعني البحر أو المحيط – حيث المياه المالحة – أو البحيرة أو النهر - حيث المياه العذبة.

وتتطرق بعض الآيات لبعض السمات المظهرية المكملة للبحر كالسفن التي تبحر فيه، ومحتوياته من كائنات حية وغير حية، إضافة إلى مظهره المهول عندما يبتعد المرء من اليابسة فلا يرى إلا السماء والأفق ويصعب الاهتداء للاتجاهات إلا بواسطة النجوم. ومن بين أبرز مظاهر البحر التي ذكرها القرآن الأمواج والرياح التي تهدد كل من يركب البحر.

قال تعالى في الآيتين 50 و164 من سورة البقرة: «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون»، ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾؛ وورد ذكر البحر في الآية 96 من سورة المائدة؛ وفي الآيات 59 و63 و97 و138 من سورة الأنعام؛ وفي الآيتين 138 و163 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 22 و90 من سورة يونس؛ والآية 32 من سورة إبراهيم؛ وفي الآية 14 من سورة النحل؛ وفي الآيات 66 و67 و70 من سورة الإسراء؛ وفي الآيات 60 و61 و63 و79 و109 من سورة الكهف؛ وفي الآية 77 من سورة طه؛ وفي الآية 65 من سورة الحج؛ والآية 40 من سورة النور؛ وفي الآية 53 من سورة الفرقان؛ وفي الآية 63 من سورة الشعراء؛ والآية 61 من سورة النمل؛ وفي الآية 41 من سورة

الروم؛ وفي الآيتين 27 و31 من سورة لقمان؛ وفي الآية 12 من سورة فاطر؛ وفي الآية 32 من سورة الشورى؛ والآية 24 من سورة الدخان؛ وفي الآية 12 من سورة الجاثية؛ وفي الآية السادسة من سورة الطور؛ وقال تعالى في الآيتين 19 و24 من سورة الرحمن؛ وفي الآية السادسة من سورة التكوير؛ وفي الآية الثالثة من سورة الانفطار.

7 - الماء

ارتبط ذكر الماء في القرآن الكريم، في معظم الآيات، بالماء العذب، خاصة ماء المطر. إذ تتحدث العديد من الآيات عن الماء الذي ينزل من السماء فيسيل أودية وأنهارا. وعندما نتحدث عن ماء المطر، فإننا نتحدث عن ماء يتخذ شكل قطرات تسقط متتابعة، مما يميزه عن سلوك الماء ومظهره عندما يصب دفعة واحدة أو اندفاعه في شكل مد وجزر أو عند سيلانه على الأسطح المنحدرة أو ركوده على الأسطح المحفورة.

وقد ورد ذكر الماء الشروب (ماء المطر) في الآيات 22 و74 و164 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾، ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾؛ ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة﴾؛ وكذا في الآية 43 من سورة النساء؛ وفي الآية السادسة من سورة المائدة؛ وفي الآية 99 من سورة الأنعام؛ وفي الآيتين 50 و57 من سورة الأعراف؛ والآية 11 من سورة الأنفال؛ وفي الآية 24 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 7 و43 و44 من سورة هود؛ وفي الآيات 4 و14 و17 من سورة الرعد؛ وفي الآيتين 16 و32 من سورة إبراهيم؛ والآية 22 من

سورة الحجر؛ وفي الآيتين 10 و65 من سورة النحل؛ وفي الآيتين41 و45 من سورة الكهف؛ والآية 53 من سورة طه؛ وفي الآية 30 من سورة الأنبياء؛ وفي الخامسة من سورة الحج؛ والآية 63 من سورة الحج؛ والآية 18 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 39 و45 من سورة النور؛ وفي الآيتين 48 و54 من سورة الفرقان؛ والآية 60 من سورة النمل؛ وفي الآية 23 من سورة القصص؛ وفي الآية 63 من سورة العنكبوت؛ والآية 24 من سورة الروم؛ وفي الآية العاشرة من سورة لقمان؛ وفي الآية 27 من سورة السجدة؛ والآية 27 من سورة فاطر؛ وفي الآية 21 من سورة الزمر؛ وفي الآية 39 من سورة فصلت؛ والآية 11 من سورة الزخرف؛ وفي الآية 15 من سورة محمد؛ وفي الآيات 11 و12 و28 من سورة القمر؛ وفي الآيتين 31 و68 من سورة الواقعة؛ والآية 30 من سورة الملك؛ وفي الآية 11 من سورة الحاقة؛ وفي الآية 16 من سورة الجن؛ والآية 27 من سورة المرسلات؛ وفي الآية 14 من سورة النبأ؛ وفي الآية 31 من سورة النازعات؛ والآية 25 من سورة عبس.

8 - السحاب

يعدّ السحاب من بين أبرز الظواهر الطبيعية التي تميز الكرة الأرضية، والتي لها دلالات تواصلية هامة لبني البشر، خاصة الذين يهتمون بالزراعة والذين ينشدون الماء الشروب من تساقط الأمطار. وهو وسيلة للتعرف إلى تقلبات الطقس واحتمالاته. كما أن السحاب من أهم السمات الجمالية التي تبدو لكل من ينظر إلى الفضاء الأعلى. فالسحاب يتسم بتشكيل جمالي بديع وتدرج في اللونين الأبيض والأسود، ويتسم بالحركة والتشكّل في هيئة جبال لما ينظر إليه من أعلى لأسفل (من على متن الطائرات). والسمة المظهرية الأخرى للسحاب، تكمن في الظل الناتج عن مروره تحت الشمس، وهو آية من

آيات الله التي جعلها للاعتبار والتفكر في نعم الله التي وهبها لعباده.

ومن بين أسماء السحاب التي وردت في القرآن الكريم: الغمام وهو الغيم الأبيض وإنما سمي غماما لأنه يغمّ السماء أي يسترها. (ابن منظور، ج12 ص444) ويطلق كذلك على السحاب الأبيض اسم المُزْن.

قال تعالى في الآيات 57 و164 و210 من سورة البقرة: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾، ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾، ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة الرعد: «هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال»؛ وفي الآية 160 من سورة الأعراف: ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾؛ وفي الآية 40 من سورة النور: ﴿يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾؛ وقال تعالى في الآية 25 من سورة الفرقان: «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا»؛ وفي الآية 88 من سورة النمل: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾؛ والآية 48 من سورة الروم: «الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون»؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة فاطر: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور»؛ وفي الآية 44 من سورة الطور: «وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم»؛ والآية 69 من سورة الواقعة: «أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون».

9 - البــــرق

البرق ظاهرة طبيعية مرتبطة بالسحاب، مصدره الكهرباء الساكنة الناتجة عن الاحتكاك، يدرك بالبصر كضوء خاطف. وقد عرّفه ابن عاشور، قائلا: «البرق لامع ناري مضيء يظهر في السحاب، والرعد والبرق ينشآن في السحاب من أثر كهربائي يكون في السحاب فإذا تكاثفت سحابتان في الجو إحداهما كهرباؤها أقوى من كهرباء الأخرى وتحاكّتا جذبت الأقوى منهما الأضعف فحدث بذلك انشقاق في الهواء بشدة وسرعة فحدث صوت قوي هو المسمى الرعد وهو فرقعة هوائية من فعل الكهرباء، ويحصل عند ذلك التقاء الكهرباءين وذلك يسبب انقداح البرق». (ت. ع، ج1 ص313)

ورد ذكر البرق في الآيتين 19 و20 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾؛ وفي الآية 12 من سورة الرعد: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا﴾؛ وقال تعالى في الآية 43 من سورة النور: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾؛ وفي الآية 24 من سورة الروم: ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا﴾؛ والآية السابعة من سورة القيامة: «فإذا برق البصر».

10 - الريح

يعتبر الريح من الظواهر الطبيعية ذات المظهر الحركي. فهي هواء متحرك، يؤدي إلى حركة الأشياء من حوله فيزحزحها من أماكنها أو يغير هيئتها، وإن كانت صلبة ثابتة بحيث يصعب زحزحتها، قد يلقي عليها أشياء أخرى تضفي عليها مظهرا مختلفا. ويميز القرآن، في غالب الأحيان – لغويا

ودلاليا - بين الرياح والريح. إذ ترتبط الرياح بالخير، فهي التي تحرك السحاب وتجعله يتشبع بجزيئات الماء، وتساعد على تلقيح النباتات، أو تقود إلى تلطيف حرارة الجو في شكل نسمات وهواء بارد. أما الريح فترتبط بالشر، لأنها هواء عاصف هائج يؤدي إلى اقتلاع الأشياء وتخريبها، وغالبا ما ترد في القرآن الكريم كشكل من أشكال العذاب الذي يرسله الله لعباده المفسدين.

وقد ورد ذكر الرياح والريح في الآية 164 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾؛ وفي الآية 117 من سورة آل عمران: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾؛ والآية 57 من سورة الأعراف: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء﴾؛ وقال تعالى في الآية 46 من سورة الأنفال: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾؛ وفي الآية 22 من سورة يونس: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان﴾؛ والآية 18 من سورة إبراهيم: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾.

وجاء ذكر الرياح والريح في الآية 22 من سورة الحجر؛ وفي الآية 69 من سورة الإسراء؛ والآية 45 من سورة الكهف؛ وفي الآية 81 من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 31 من سورة الحج؛ والآية 48 من سورة الفرقان؛ والآية 63 من سورة النمل؛ وفي الآيات 46 و48 و51 من سورة الروم؛ والآية التاسعة من سورة الأحزاب؛ وفي الآية 12 من سورة سبأ؛ والآية التاسعة من سورة فاطر؛ وفي

الآية 36 من سورة ص؛ وفي الآية 16 من سورة فصلت؛ وفي الآية 33 من سورة الشورى؛ وفي الآية التاسعة من سورة الجاثية؛ والآية 24 من سورة الأحقاف؛ وقال تعالى في الآية 41 من سورة الذاريات؛ وفي الآية 19 من سورة القمر؛ والآية السادسة من سورة الحاقة.

11 - السماء والسماوات

ورد ذكر السماء - بصيغتي المفرد والجمع - في 310 مواضع في القرآن الكريم. ونجد في اللغة العربية أن «سماء كل شيء: أعلاه، مذكر. والسماء: سقف كل شيء وكل بيت.. . والسموات السبع: أطباق الأرضين، وتجمع سماء وسماوات. وقال الزجاج: السماء في اللغة يقال لكل ما ارتفع وعلا قد سما يسمو. وكل سقف فهو سماء، ومن هذا قيل للسحاب السماء لأنها عالية، والسماء كل ما علاك فأظلك.. والسماء التي تظل الأرض أنثى عند العرب لأنها جمع سماءة.. والسماءة: أصلها سماوة، وإذا ذكرت السماء عنوا به السقف.. والسماء: المطر، مذكر». (ابن منظور، ج14 ص ص397-399)

أما السماوات، فقد ذكرت في القرآن الكريم بأنها سبع سماوات. ويبدو أن المراد منها، كما يعتقد ابن عاشور وبعض المفسرين: «الأجرام العلوية العظيمة وهي الكواكب السيارة المنتظمة مع الأرض في النظام الشمسي». (ت. ع، ج1ص379)

من بين الآيات التي تضمنت ذكر السماء والسماوات كموجودات تدرك بالبصر، قوله تعالى في الآيات 19 و22 و164 من سورة البقرة: «أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين»، «الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء

بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون»، «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»؛ وورد ذكر السماء والسماوات في الآية 190 من سورة آل عمران؛ وفي الآية 99 من سورة الأنعام؛ والآية 54 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 6 و24 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 2 و17 من سورة الرعد؛ والآية 24 من سورة إبراهيم؛ وفي الآيتين 16 و85 من سورة الحجر؛ وفي الآية العاشرة من سورة النحل؛ وفي الآيتين 40 و45 من سورة الكهف؛ وفي الآية 32 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 18 و63 من سورة الحج: والآية 17 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 35 و43 من سورة النور؛ وفي الآية 61 من سورة الفرقان؛ والآية 60 من سورة النمل؛ وفي الآية 24 من سورة الروم؛ وفي الآية العاشرة من سورة لقمان؛ والآية 27 من سورة فاطر؛ وفي الآية 21 من سورة الزمر؛ وفي الآية 64 من سورة غافر؛ وفي الآية 12 من سورة فصلت؛ والآية السادسة من سورة ق؛ والآية السابعة من سورة الذاريات؛ وفي الآية 37 من سورة الرحمن؛ والآية الخامسة من سورة الملك؛ وفي الآية 16 من سورة الحاقة؛ وفي الآية الثامنة من سورة المعارج؛ والآية 12 من سورة النبأ؛ وفي الآيات 27 و28 و29 من سورة النازعات؛ وفي الآية 11 من سورة التكوير؛ وفي الآيتين 1 و11 من سورة الطارق؛ وفي الآية 18 من سورة الغاشية.

12 - السمات المظهرية للأوقات

ينتج عن دوران الأرض حول نفسها أثناء دورانها حول الشمس، تعرض

بعض أجزائها لضوء الشمس فتكون مضيئة مشرقة عندما تكون بعض مناطق الأرض قريبة من الشمس، أو تبدو غير مشرقة عند بزوق الشمس أو عند الغروب لابتعاد الأرض عن الشمس، وهذا يطلق عليه: النهار. أما عندما تحجب بعض أجزاء الأرض عن الشمس، تصبح مظلمة كما هو الحال في الليل. وقد ورد ذكر النهار في 57 موضعاً والليل في 92 موضعاً. وداخل هذين التقسيمين (النهار والليل)، تضمن القرآن الكريم بعض الألفاظ التي تشير إلى مظاهر معينة تبدو عليها الأشياء على سطح الأرض، من جراء شدة سطوع الشمس أو خفوتها أو غيابها. فهناك الصبح والطلوع والضحى والغروب والعشاء.

قال تعالى في الآية 164 من سورة البقرة: «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»؛ وفي الآيتين 41 و190 من سورة آل عمران: ﴿واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار﴾، «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب»؛ وقال تعالى في الآيتين 52 و96 من سورة الأنعام: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾، ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا﴾؛ وفي الآية 16 من سورة يوسف: «وجاءوا أباهم عشاء يبكون»؛ وقال تعالى في الآيات 17 و28 و86 من سورة الكهف: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾، ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾، ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة﴾؛ وفي الآيتين 11 و62 من سورة مريم: «فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا»، ﴿ولهم رزقهم فيها

بكرة وعشيا ﴾؛ والآية 130 من سورة طه: «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى».

وقال تعالى في الآية 47 من سورة الفرقان: «وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا»؛ وفي الآية 18 من سورة الروم: «وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون»؛ والآية 37 من سورة يس: «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون»؛ وقال تعالى في الآيتين 18 و31 من سورة ص: «إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق»، «إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد»؛ وقال تعالى في الآيتين 46 و55 من سورة غافر: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾، «فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار»؛ وفي الآية 39 من سورة ق: «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب»؛ والآية العاشرة من سورة النبأ: «وجعلنا الليل لباسا»؛ وقال تعالى في الآيتين 29 و46 من سورة النازعات: «وأغطش ليلها وأخرج ضحاها»، «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها»؛ وفي الآيتين 17 و18 من سورة التكوير: «والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس»؛ وفي الآية 17 من سورة الانشقاق: «والليل وما وسق»؛ والآية الرابعة من سورة الشمس: «والليل إذا يغشاها»؛ وقال تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة الليل: «والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى»؛ وفي الآيتين الأولى والثانية من سورة الضحى: «والضحى. والليل إذا سجى».

المبحث السادس

الجـــنس (الذكورة والأنوثة)

يميز الدين الإسلامي – من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة – بين بني البشر وفقا لمعيار الجنس. فهناك العديد من الأحكام الشرعية الخاصة بالذكور وأخرى خاصة بالإناث. ويتبين من القرآن الكريم، أن التمييز بين الجنسين يرتكز إلى اختلاف في الطبيعة التكوينية البيولوجية والفسيولوجية التي منحها الله لكليهما وحسب الأدوار الحياتية المناطة به، ولا يرتكز إلى تفضيل جنس على الآخر لأن كليهما يشكلان: الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم وكرمه وجعله خليفة في الأرض.

وقد حارب الإسلام التمييز التفضيلي المطلق الذي درجت عليه بعض المجتمعات الإنسانية، وخاصة منها المجتمع العربي الجاهلي الذي وصل به حد التمييز السلبي في حق الأنثى أن يرفض وجودها قدر ما استطاع، فبرزت عادات كوأد البنات.

ونستشف من القرآن الكريم، العديد من التصنيفات الثنائية القائمة على

مبدأ الجنس (الذكر - الأنثى) كثنائي: الرجل-المرأة (الرجال-النساء)، والابن-البنت (البنين-البنات)؛ والثنائيات المندمجة، كثنائي: الوالدان، والزوجان. ويلاحظ، في كثير من الآيات القرآنية، تقديم الذكورة على الأنوثة عندما يردان في سياق واحد، ولربما ينسجم ذلك مع وجودهما في الحياة، إذ خلق الله سبحانه وتعالى سيدنا آدم أبو البشر ثم خلق حواء.

1 - الذكر والأنثى

ورد ذكر الذكورة والأنوثة بدءا من ذكر الأنثى في الآية 178 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم»؛ وفي الآية 36 من سورة آل عمران: «فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم».

يقول الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى (وليس الذكر كالأنثى ﴾:

«فيه قولان (الأول) أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى. وسبب هذا التفضيل من وجوه (أحدها) أن شرعهم أنه لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث (والثاني) أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان (والثالث) الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة (والرابع) أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى (والخامس) أن الذكر لا يلحقه التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى فهذه

الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى.

والقول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت الذكر مطلوبي وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة أن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه». (ت. ع. ج8 م4 ص30)

وورد ذكر الجنسين (الذكر والأنثى) في الآيات 11 و117 و124 و176 من سورة النساء؛ وفي الآية الثامنة من سورة الرعد؛ وفي الآيات 58 و59 و97 من سورة النحل؛ وفي الآية 40 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 33 من سورة النور؛ وفي الآية 165 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 11 من سورة فاطر؛ والآية 150 من سورة الصافات؛ وفي الآية 40 من سورة غافر؛ وفي الآية 47 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 49 و50 من سورة الشورى؛ وفي الآية 19 من سورة الزخرف:؛ والآية 13 من سورة الحجرات؛ وفي الآيات 21 و45 و46 من سورة النجم؛ وفي الآية 39 من سورة القيامة؛ والآية الثالثة من سورة الليل.

2 - الأزواج

أورد ابن منظور في «لسان العرب» تحت مادة زوج: «يقال للرجل والمرأة: زوجان.. والأصل في الزوج الصنف والنوع من كل شيء. وكل شيئين مقترنين، شكلين كانا أو نقيضين، فهما زوجان؛ وكل واحد منهما زوج.. وزوج المرأة بعلها. وزوج الرجل: امرأته؛ [قال] ابن سيده: والرجل زوج المرأة، وهي زوجه وزوجته، وأباها الأصمعي بالهاء.. قال بعض النحويين: أما الزوج فأهل الحجاز يضعونه للمذكر والمؤنث وضعا واحدا، تقول المرأة: هذا زوجي، ويقول

الرجل: هذه زوجي.. وبنو تميم يقولون: هي زوجته». (ابن منظور، ج2ص292)

وقد ورد ذكر الأزواج في الآيات 25 و35 و102 و232 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾، ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾، ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾، ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾؛ وقال تعالى في الآيات 1 و12 و20 و57 من سورة النساء: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾، ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد﴾، «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا»، «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا».

وقد ورد ذكر الأزواج في الآيتين 19 و189 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 24 من سورة التوبة؛ والآية 40 من سورة هود؛ وفي الآية 23 من سورة الرعد؛ وفي الآية 88 من سورة الحجر؛ والآية 72 من سورة النحل»؛ وفي الآيات 28 و37 و50 و52 من سورة الأحزاب؛ والآية السادسة من سورة الزمر؛ وفي الآية 11 من سورة الشورى؛ وفي الآية 12 من سورة الزخرف؛ وفي الآية 14 من سورة التغابن؛ وفي الآيتين الثالثة والخامسة من سورة التحريم؛ والآية الثامنة من سورة النبأ؛ وفي الآية السابعة من سورة التكوير.

3 - النساء

يطلق على أنثى البشر في اللغة العربية لفظ: «امرأة» (خاصة إذا كانت متزوجة أو راشدة)، وعلى المجموعة من الإناث لفظ : «نساء» أو «نسوة» أو «نسوان». وفي القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى النساء المتزوجات.

قال تعالى في الآيات 49 من سورة البقرة: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾، والآية 187 ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾، والآية 222 ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾، والآية 223 ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾، والآية 226 ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾، والآية 231 ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾، والآية 235 ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾، والآية 236 ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة﴾؛ وفي الآيتين 35 و61 من سورة آل عمران: «إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم»، «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين».

وأشهر سورة تطرقت للنساء وحملت اسمهن هي سورة النساء التي تضمنت 21 آية في الموضوع (الآيات:الأولى والثالثة والرابعة والسابعة و11 و15 و19 و22 و23 و24 و25 و32 و34 و42 و75 و98 و127 و128 و129 و130 و176)؛ وورد ذكر النساء في الآيات 81 و83 و127 و141 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 71 و72 من سورة هود؛ وفي الآيات 30 و50 و51 من سورة يوسف؛

والآية السادسة من سورة إبراهيم؛ وفي الآية 60 من سورة الحجر؛ وفي الآيتين الخامسة والثامنة من سورة مريم؛ وفي الآية الثانية من سورة الحج؛ والآية 31 من سورة النور؛ وفي الآيات 23 و55 و57 من سورة النمل؛ وفي الآيات 4 و9 و23 من سورة القصص»؛ وفي الآيات 30 و32 و33 و49 من سورة الأحزاب؛ والآية 32 من سورة العنكبوت؛ وفي الآية 25 من سورة غافر؛ والآية 25 من سورة الفتح؛ وفي الآيتين الثانية والثالثة؛ وفي الآيتين الأولى والرابعة من سورة الطلاق؛ وفي الآيتين 10 و11 من سورة التحريم.

4 - الرجال

ورد تمييز بين الرجال والنساء مبني على الاختلافات التكوينية الطبيعية بين الجنسين، واختلاف الأدوار في الحياة، في سورتي البقرة والنساء. إذ قال تعالى في الآيتين 228 و282 من سورة البقرة: «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم»، ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 32 و34 من سورة النساء: «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما»، ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾.

وكما ورد ذكر الرجال في مقارنة مع النساء، في الآية 75 من سورة النساء:

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾؛ وقال تعالى في الآية 25 من سورة الفتح: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾.

وورد ذكر الرجال في الآيتين 81 و155 من سورة الأعراف: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾، ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا﴾؛ وفي الآية 43 من سورة النحل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 31 من سورة النور: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾؛ وقال تعالى في الآية 55 من سورة النمل: ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾؛ وفي الآية 29 من سورة العنكبوت: ﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾.

5 - البنون والبنات

وتضمن القرآن الكريم تقسيما آخر بين الجنسين بناء على صغر السن، مقارنة بالوالدين. فلفظا البنين والبنات (أو الولد والبنت) يشيران إلى أناس في عمر أصغر من آبائهم.

وقد ورد ذكر البنين والبنات في الآيتين 100 و101 من سورة الأنعام: «وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم»؛ وفي الآية 21 من سورة يوسف: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه

ولدا ﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 78 و79 من سورة هود: «وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد. قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد»؛ وفي الآية 71 من سورة الحجر: «قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين»؛ والآية 57 من سورة النحل: «ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون»؛ وقال تعالى في الآيات 149 و150 و151 و152 و153 من سورة الصافات: «فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون. أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون. ألا إنهم من إفكهم ليقولون. ولد الله وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين»؛ وفي الآية 16 من سورة الزخرف: «أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين»؛ والآية 39 من سورة الطور: «أم له البنات ولكم البنون».

6 - الوالـــدان

يستخدم لفظ: «الوالدين» في اللغة العربية للتعبير عن الأب والأم معا، أي الوالد والوالدة. وقد ورد ذكر الوالدين في الآيات 83 و180 و215 و233 من سورة البقرة: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا﴾، ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين﴾، ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين﴾، ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها﴾؛ وورد ذكر الوالدين في الآيات 7 و33 و36 و135 من سورة النساء؛ وفي الآية 110 من سورة المائدة؛ وفي الآية 151 من سورة الأنعام؛ والآية 41 من سورة إبراهيم؛ و في الآية 23 من سورة الإسراء؛ وفي الآيتين 14 و32 من سورة

مريم؛ والآية 19 من سورة النمل؛ وفي الآية الثامنة من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 14 و33 من سورة لقمان؛ وفي الآية 15 من سورة الأحقاف؛ والآية 28 من سورة نوح؛ وفي الآية الثالثة من سورة البلد.

7 - الأبنـــاء

وورد ذكر الأبناء دون تمييز للجنس، في الآية 233 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير»؛ وفي الآية 61 من سورة آل عمران: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾؛ وورد ذكر الأبناء في الآيتين 75 و98 من سورة النساء؛ وفي الآية السادسة من سورة إبراهيم؛ والآية 31 من سورة النور؛ وفي الآية الرابعة من سورة القصص؛ والآية 25 من سورة غافر.

المبحث السابع

مراحل العمر والمظهر

يتشكل المظهر الجسدي للإنسان منذ اللحظات الأولى التي تتم فيها عملية الإخصاب، مرورا بمراحل الجنين التي وصفت في القرآن الكريم، إلى أن يولد فتبدأ مرحلة الرضاعة ثم الطفولة ثم الصبا ثم الشباب ثم النضج ثم الكهولة فأرذل العمر فيموت (هذا إذا لم يداهمه الموت أثناء هذه المراحل).

ويتضح من خلال الخبرة، أن معرفة أو تقدير عمر الإنسان، قد تكون مؤشرا لمعرفة الشكل الذي قد يبدو عليه وفقا للمرحلة العمرية: كما أن تحديد المرحلة العمرية قد يفيد في التنبؤ بالمعالم الرئيسة للشكل الجسدي وتقدير العمر بالسنين أو الشهور أو الأيام.

ولكي نبين العلاقة بين العمر والمظهر، قسمنا المراحل العمرية التي يمر بها الإنسان إلى: المرحلة الجنينية - الرضاعة والطفولة - الصبا - الشباب - الرشد - الكبر والشيخوخة. بالإضافة إلى المظهر الجسدي الذي يمكن أن نستشفه من علاقة الأبوة-البنوة، إذ إن الأب - بالضرورة - أكبر من ابنه ومن

ثم فإن ملامحه تظهره أكبر سنا من ابنه، سواء في تجاعيد البشرة أو لون الشّعر أو اللياقة البدنية أو الحجم (خاصة في المراحل العمرية الأولى للابن).

1 - المرحلة الجنينية

تبدأ مراحل تشكل الجنين بالنطفة (وهي قطرات مني الرجل التي تحمل الحيوانات المنوية) التي يلتحم أحد عناصرها بالبويضة فتتشكل العلقة (وهي قطعة من الدم المتجمد المرن)، فتصير العلقة مضغة (وهي قطعة من اللحم بقدر ما يمضغ مثله)، فتصير المضغة عظاما، فتُكسى العظام لحما.

وتستمر مرحلة النطفة لمدة أسبوع. وتتشكل النطفة خلال أربعين يوما لتصبح علقة في «شكل نملة كبيرة طولها من 12 إلى 14 مليمتراً، ثم يزداد تشكلها فتصير قطعة صغيرة من لحم هي المسماة (مضغة) طولها ثلاثة سنتيمترات تلوح فيها تشكلات الوجه والأنف خفيّة جدا كالخطوط، ثم يزداد التشكل يوما فيوما إلى أن يستكمل الجنين مدته». (ت. ع، ج17 ص144) ويتضح من الواقع، ومن خلال مدة الثلاثين شهرا المشتملة للحمل والرضاعة التي ذكرت في القرآن الكريم، أن المرحلة الجنينية تستمر حوالي تسعة أشهر (وتكون أقل من ذلك في حالة الأطفال الخدّج).

ورد ذكر حالة الإنسان في المرحلة الجنينية في الآية السادسة من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: «هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم»؛ وفي الآية الرابعة من سورة النحل: «خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين»؛ والآية 37 من سورة الكهف: «قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا». واشتملت الآية الخامسة من سورة الحج على كل مراحل العمر، بما فيها المرحلة

الجنينية، إذ قال الله تعالى فيها: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 13 و14 من سورة «المؤمنون»: «ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»؛ وفي الآية 14 من سورة لقمان: «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير»؛ والآية 11 من سورة فاطر: «والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير».

وقال تعالى في الآية 77 من سورة يس: «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين»؛ وفي الآية 67 من سورة غافر: ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة الأحقاف: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾؛ وفي الآيتين 45 و46 من سورة النجم: «وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى»؛ وقال تعالى في الآيتين 37 و38 من سورة القيامة: «ألم يك نطفة من منيّ يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى»؛ وفي الآية الثانية من سورة الإنسان: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾ وقال تعالى في الآيات 17 و18 و19 من سورة عبس: «قتل الإنسان ما أكفره. من أي شيء خلقه. من نطفة خلقه فقدره»؛ وفي الآيتين الأولى والثانية من سورة العلق: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق».

2 - الرضـــاعة والطفولة المبكـــرة

تتسم مرحلة الرضاعة – خلال السنتين الأوليين – بمظهر جسدي يغلب عليه طابع الضعف. إذ تكون أعضاء جسد الإنسان، في تلك المرحلة، صغيرة وضعيفة ولكنها فعالة في أداء وظائفها. أما هيئته فتكون قاصرة عن المشي أو الجري، وملامح وجهه تنم عن البراءة وقلة التعبيرات، خاصة المزيجة منها. كما أن تناول الطعام عبر الرضاعة، من بين السمات المرتبطة بتلك المرحلة. وأخيرا، يمكن ذكر البقاء على الفراش (المهد) لأوقات طويلة، قبل أن يتمكن الطفل من الحبو ومن ثم المشي فالجري.

لقد وردت الإشارة لمرحلة الرضاعة والطفولة المبكرة، في الآية 46 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: «ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين»؛ وقال تعالى في الآية 29 من سورة مريم: «فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا»؛ وفي الآية 18 من سورة الشعراء: «قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين»؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة القصص: «وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون»؛ وفي الآية 14 من سورة لقمان: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين﴾؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة الأحقاف: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾.

3 - الصبـــا

إن المرحلة الثالثة التي يمر بها الإنسان في حياته من حيث نموه ونضجه وسلوكه، هي مرحلة الصبا. وتتسم هذه المرحلة بالحيوية والنشاط واللعب

والاستعداد للتعلم. جاء في «لسان العرب» لابن منظور: «الصبي: الغلام، والجمع صبية وصبيان». (ابن منظور، ج14 ص450) والصبي هو من لم يتجاوز مرحلة البلوغ إلى الرشد.

وقد وصف الإنسان في هذه المرحلة في القرآن الكريم - خاصة الذَكَر - بالغلام والطفل والولد؛ أما فيما يتعلق بالإناث، فقد تمت الإشارة إلى «الموءودة» وهي الابنة التي كانت تدفن حية في أيام الجاهلية.

قال تعالى في الآية 40 من سورة آل عمران: ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾؛ وفي الآية 19 من سورة يوسف: ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام﴾؛ والآية 53 من سورة الحجر: «قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم»؛ وقال تعالى في الآيتين 74 و80 من سورة الكهف: ﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله﴾، «وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا»؛ وفي الآيات 7 و8 و12 و19 و20 من سورة مريم: «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا. قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا»، «يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا»، «قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا. قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا»؛ وقال تعالى في الآيتين 58 و59 من سورة النور: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾ ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا﴾؛ وفي الآية 101 من سورة الصافات: «فبشرناه بغلام حليم»؛ والآية 24 من سورة الطور: «ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون»؛ وقال تعالى في الآية 17 من سورة المزمل: «فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا»؛ وفي الآية 19 من سورة الإنسان: «ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا».

وقال تعالى في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة التكوير: «وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت». يحكي الإمام الرازي في تفسيره لآية الموءودة، قائلا: «كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد بقاء حياتها ألبسها جبة من صوف أو شعر لترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا بلغت قامتها ستة أشبار [حوالي 145 سم] فيقول لأمها طيبيها زينيها حتى أذهب بها إلى أقاربها وقد حفر لها بئرا في الصحراء فيبلغ بها إلى البئر فيقول لها أنظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوي البئر بالأرض». (ت. ر. ج31 م16 ص70)

4 - الشباب

إن مرحلة الشباب هي مرحلة الفتوة والحيوية التي تستمر إلى أن يبلغ الإنسان أشده – كما جاء في القرآن الكريم – فيدخل بعدها مرحلة الرشد.

قال تعالى في الآية 25 من سورة النساء: ﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾؛ وقال تعالى في الآيات 30 و36 و62 من سورة يوسف: ﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾، ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾، ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾؛ وقال تعالى في الآيات 10 و13 و60 و62 من سورة الكهف: ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾، ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾، ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾، ﴿فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا﴾؛ وقال تعالى في الآية 60 من سورة الأنبياء: «قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم»؛ وفي الآية 33 من سورة النور: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا﴾.

وقال تعالى في الآية 152 من سورة الأنعام: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾؛ وفي الآية 22 من سورة يوسف: «ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين».

أورد الإمام الرازي في تفسيره لقوله تعالى ﴿ولما بلغ أشده﴾: «قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ فلان أشده إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان.. وأما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس، ولما بلغ أشده قال ثلاثا وثلاثين سنة: هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لأن الأطباء قالوا إن الإنسان يحدث في أول الأمر ويتزايد كل يوم شيئا فشيئا إلى أن ينتهي إلى غاية الكمال، ثم يأخذ في التراجع والانتقاص إلى أن لا يبقى منه شيء، فكانت حالته شبيهة بحال القمر، فإنه يظهر هلالا ضعيفا ثم لا يزال يزداد إلى أن يصير بدرا تاما، ثم يتراجع إلى أن ينتهي إلى العدم والمحاق. (ت. ر. ج18 م9ص ص113-114)

5 - الرشد

أما مرحلة الرشد التي تحوم حول سن الأربعين (من منتصف الثلاثينات إلى منتصف الأربعينات)، وهي التي تجسد قمة الإنجاز على المستويين البدني والفكري، فقد قال عنها تعالى في الآية 15 من سورة الأحقاف: «ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين».

6 - الكبر والشيخوخة

تشكل مرحلة الشيخوخة، المنحدر النموّي الذي يمر به الإنسان في حياته، إذ يتبع هذه المرحلة الموت. ففي الكبر والشيخوخة تقل حيوية معظم أعضاء الجسم وتقل القوة البدنية وتتعطل بعض الأعضاء ويشيب الشَّعر، ويفقد بعض قدراته الذهنية وبعض قدراته الحسية كالسمع والبصر، ولربما فقد الإنسان القدرة على الحركة.

وقد ورد ذكر هذه المرحلة في الآية 78 من سورة يوسف، إذ قال تعالى: «قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين»؛ وفي الآية 39 من سورة إبراهيم: «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء»؛ وقال تعالى في الآية 54 من سورة الحجر: «قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون»؛ وفي الآية 70 من سورة النحل: «والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير»؛ وقال تعالى في الآيتين 23 و24 من سورة الإسراء: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا»؛ وفي الآية الرابعة من سورة مريم: «قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا»؛ والآية 60 من سورة النور: «والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم»؛ وقال تعالى في الآيتين 171 من سورة الشعراء و135 من سورة الصافات: «إلا عجوزا في الغابرين».

7 - الأبــوة والبنـــوة

تبدو علاقة العمر بالمظهر جلية، في رابطة الأبوة-البنوة، التي تقوم عليها حياة بني البشر واستمراريتهم. فبما أن الأب هو بالضرورة أكبر سنا من ابنه، وغالبا ما تجمع بينهما بعض الملامح الجسدية المشتركة، فإن الملاحِظ قد يتمكن مِن تحديد مَن هو الأب ومن هو الابن عند رؤيتهما معتمدا على أثر السنين الذي تتركه في كليهما.

وقد ورد ذكر الوالدين والأبناء في الآية 41 من سورة إبراهيم، إذ قال تعالى: «ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب»؛ وكذا في الآيتين 23 و24 من سورة الإسراء؛ وفي الآيات 14 و28 و32 من سورة مريم: والآية الرابعة من سورة القصص؛ والآية الثامنة من سورة العنكبوت؛ وفي الآية 33 من سورة لقمان؛ وفي الآية 55 من سورة الأحزاب؛ والآية 17 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 12 من سورة الممتحنة؛ وفي الآية 28 من سورة نوح؛ والآية الثالثة من سورة البلد.

المبحث الثامن

الإظهـــار والإخـــفاء

إن أصل المظهر نابع من كل ما هو ظاهر للعيان يُدرك عبر حاسة البصر، ونابع من السلوك الإظهاري الذي يرمي إلى إبراز الأشياء والسلوكات التي قد تكون خافية يصعب إدراكها. ومن هنا تبرز أهمية الإظهار والإبراز كسلوك تواصلي يمكّن المتلقي من الحصول على البيانات والمعلومات اللازمة لتكوين الاتجاهات واتخاذ المواقف ومن ثم إصدار الأحكام القيمية؛ وفي المقابل، يكون الإخفاء والكتمان ووضع الأشياء موضع السر، سلوكا تواصليا يهدف إلى حجب البيانات والمعلومات عن المتلقي، الأمر الذي قد يقوده إلى الإبقاء على موقف معين أو اتخاذ موقف جديد يتناقض وطبيعة الأشياء.

1 - الظهور والتظاهر

ورد ذكر الظهور والتظاهر في الآيتين 120 و151 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾، ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها

وما بطن﴾؛ وفي الآية 33 من سورة الأعراف: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 33 و48 من سورة التوبة: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾؛ وفي الآية 33 من سورة الرعد: ﴿قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 20 و22 من سورة الكهف: ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم﴾، ﴿فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا﴾.

وقال تعالى في الآية 31 من سورة النور: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾. جاء في تفسير الإمام الرازي المطوّل لهذه الآية، خاصة، قوله تعالى ﴿إلا ما ظهر منها﴾:

«اختلفوا في المراد من قوله ﴿إلا ما ظهر منها﴾ أما الذين حملوا الزينة على الخلقة، فقال القفال معنى الآية إلا ما يظهره الإنسان في العادة الجارية، وذلك في النساء الوجه والكفان، وفي الرجل الأطراف من الوجه واليدين والرجلين، فأمروا بستر ما لا تؤدي الضرورة إلى كشفه ورخص لهم في كشف ما اعتيد كشفه وأدت الضرورة إلى إظهاره إذ كانت شرائع الإسلام حنيفية سهلة سمحة، ولما كان ظهور الوجه والكفين كالضروري لا جرم اتفقوا على أنهما ليسا بعورة، أما القدم فليس ظهوره بضروري فلا جرم اختلفوا في أنه هل هو من العورة أم لا؟ فيه وجهان: الأصح أنه عورة كظهر القدم، وفي صوتها وجهان أصحهما أنه ليس بعورة لأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن يروين الأخبار للرجال، وأما الذين حملوا الزينة على ما عدا الخلقة فقالوا إنه سبحانه إنما ذكر الزينة لأنه لا خلاف أنه يحل النظر إليها حالما تكون

متصلة بأعضاء المرأة، فلما حرم الله سبحانه النظر إليها حال اتصالها ببدن المرأة كان ذلك مبالغة في حرمة النظر إلى أعضاء المرأة، وعلى هذا القول يحل النظر إلى زينة وجهها من الوشمة والغمرة وزينة بدنها من الخضاب والخواتيم وكذا الثياب، والسبب في تجويز النظر إليها أن تسترها فيه حرج لأن المرأة لابد لها من مناولة الأشياء بيديها والحاجة إلى كشف وجهها في الشهادة والمحاكمة والنكاح». (ت. ر. ج23 م12)

وورد ذكر الظهور والتظاهر في الآيتين 7 و41 من سورة الروم؛ وفي الآية 20 من سورة لقمان؛ والآية 18 من سورة سبأ؛ وفي الآية 26 من سورة غافر؛ والآية 33 من سورة الزخرف؛ وفي الآيتين 3 و13 من سورة الحديد؛ والآية التاسعة من سورة الصف؛ وفي الآية الثالثة من سورة التحريم؛ والآية 26 من سورة الجن.

2 - الكتمـــان

الكتمان، في اللغة، نقيض الإعلان، وهو إخفاء للأشياء والمعلومات. وهو سلوك له تأثير كبير في المظهر. فالذي يكتم أمرا ما يجعل ما يظهر منافيا للحقيقة.

وقد ورد ذكر الكتمان في تسع آيات من سورة البقرة، إذ قال تعالى في الآية 33: ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾، وفي الآية 42: «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون»، والآية 72: «وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون»، وفي الآية 140: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾، والآية 146: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما

يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون»، وفي الآية 159: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون»، والآية 174: «إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»، وفي الآية 228: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾، والآية 283: ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾.

وورد ذكر الكتمان في الآيات 71 و167 و187 من سورة آل عمران؛ وفي الآيتين 37 و42 من سورة النساء؛ وفي الآيات 61 و99 و106 من سورة المائدة؛ وفي الآية 110 من سورة الأنبياء؛ والآية 28 من سورة غافر.

3 - الإبداء / الإخفاء

وورد في معنى الإظهار لفظ «الإبداء» ونقيضه الإخفاء في العديد من الآيات القرآنية. إذ قال تعالى في الآيتين 271 و284 من سورة البقرة: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾، ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾؛ كما ورد في الآيات 29 و118 و154 من سورة آل عمران؛ والآية 149 من سورة النساء؛ وفي الآيتين 99 و101 من سورة المائدة؛ وفي الآيتين 28 و91 من سورة الأنعام؛ وفي الآيتين 22 و55 من سورة الأعراف؛ والآية الخامسة من سورة هود؛ وفي الآية 35 من سورة يوسف؛ والآية 121 من سورة طه؛ وفي الآية 31 من سورة النور؛ وفي الآية 54 من سورة الأحزاب؛ وفي الآيتين 47 و48 من سورة الزمر؛ وفي الآية 16 من سورة غافر؛ والآية 33 من سورة الجاثية.

4 - السـر والعلانيـة

ونستـشف التـواصل المظـهري من تعبـيـر «السـر والعـلانية» المستـخدم في القـرآن الكريم. فـالإسـرار يقـوم عـلى الإخـفـاء والإعـلان يقـوم على الإظهـار، خاصـة فيمـا يتعلق بالأشيـاء والسلوك. وقـد يختلف الإسـرار عن الإخفـاء من حيث الدرجة، ذلك أن السـر قـد يكون مـعلومـا في نطاق ضيـق، بينمـا يسـعى الإخفاء إلى ترك انطباع بعدم الوجود.

وقد ورد ذكر الإسـرار والإعلان في الآيات 77 و235 و274 من سـورة البقـرة، إذ قـال تعـالى: «أو لا يعلمـون أن الله يعلم مـا يسـرون ومـا يعلنون»، ﴿ولا جناح عليكم فيمـا عـرضتم به من خطبـة النسـاء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكـرونهن ولكن لا تواعدوهـن سـرا ﴾، «الذين ينفـقـون أمـوالهم بالليل والنهار سـرا وعـلانيـة فلهم أجـرهـم عند ربهم ولا خـوف عليـهم ولا هـم يحـزنون»؛ وفي الآية 52 من سـورة المائدة؛ وفـي الآيـة الثالثة من سـورة الأنعام؛ وفـي الآيـة 78 من سـورة التـوبة؛ والآيـة 54 من سـورة يونـس؛ وفـي الآيـة الخـامسـة من سـورة هـود؛ وفي الآية 77 من سورة يوسـف؛ والآيـة 22 من سـورة الرعد؛ والآيـة 31 من سـورة إبراهـيم: وفـي الآيات 19 و23 و75 من سـورة النـحل؛ وفـي الآيـة 62 من سـورة طه: والآيـة الثـالثـة من سـورة الأنبـيـاء؛ وفـي الآيـة السـادسـة من سـورة الفـرقـان؛ والآيـة 33 من سـورة سـبـأ؛ والآيـة 29 من سـورة فـاطـر؛ وفـي الآيـة 76 من سـورة يس؛ وفي الآية 26 من سـورة محـمـد؛ والآيـة التـاسـعـة من سـورة نوح؛ وفـي الآيـة الأولى من سـورة الممتحنة؛ وفي الآية الرابعة من سورة التغابن.

5 - حالات أخرى من الإظهار والإخفاء

ووردت بعض الحـالات الأخـرى من الإظهـار والإخـفـاء كـالبـروز والكشف

والحجب والتغشية والاستتار.

قال تعالى عن البروز في الآية 250 من سورة البقرة: «ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين»؛ وفي الآية 154 من سورة آل عمران: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾؛ والآية 81 من سورة النساء: ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ وقال تعالى في الآيتين 21 و48 من سورة إبراهيم: ﴿وبرزوا لله جميعا﴾، «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار»؛ وفي الآية 47 من سورة الكهف: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾؛ وقال تعالى في الآية 91 من سورة الشعراء: «وبرزت الجحيم للغاوين»؛ وفي الآية 16 من سورة غافر: «يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار»؛ والآية 36 من سورة النازعات: «وبرزت الجحيم لمن يرى»

أما الكشف بمعنى إزالة الغطاء، فقد ورد في الآية 44 من سورة النمل، إذ قال تعالى: ﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ﴾؛ وفي الآية 22 من سورة ق: «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد»؛ والآية 42 من سورة القلم: «يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون».

وورد ذكر الحجب في الآية 46 من سورة الأعراف: ﴿وبينهما حجاب﴾؛ وفي الآية 45 من سورة الإسراء: «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا»؛ والآية 17 من سورة مريم: ﴿ فاتخذت من دونهم حجابا ﴾؛ وقال تعالى في الآية 53 من سورة الأحزاب: ﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾؛ وفي الآية 32 من سورة ص: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب»؛ والآية

الخامسة من سورة فصلت: ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾؛ وقال تعالى في الآية 51 من سورة الشورى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب﴾؛ والآية 15 من سورة المطففين: «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون».

وورد ذكر الغشاوة والتغشية في الآية السابعة من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾؛ وفي الآية 154 من سورة آل عمران: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم﴾؛ والآية 54 من سورة الأعراف: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا﴾؛ وقال تعالى في الآية 11 من سورة الأنفال: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾؛ وفي الآية 27 من سورة يونس: ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما﴾؛ والآية الخامسة من سورة هود: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم﴾؛ وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة الرعد: ﴿يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾؛ وفي الآية 50 من سورة إبراهيم: «سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار»؛ والآية 78 من سورة طه: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 40 من سورة النور: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج﴾؛ وفي الآية 55 من سورة العنكبوت: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾؛ وفي الآية 32 من سورة لقمان: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين﴾؛ وقال تعالى في الآية 19 من سورة الأحزاب: ﴿أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾؛ وفي الآية التاسعة من سورة يس: «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 10 و11 من سورة الدخان: «فارتقب يوم تأتي السماء

بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم»؛ وفي الآية 23 من سورة الجاثية: ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾؛ والآية 20 من سورة محمد: ﴿ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 16 و54 من سورة النجم: «إذ يغشى السدرة ما يغشى»، «فغشاها ما غشى»؛ وفي الآية السابعة من سورة نوح: ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم﴾؛ وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة الشمس: «والليل إذا يغشاها»؛ وفي الآية الأولى من سورة الليل: «والليل إذا يغشى».

وأخيرا، ورد ذكر الاستتار في الآية 45 من سورة الإسراء: «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا»؛ وفي الآية 90 من سورة الكهف: «حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا»؛ والآية 22 من سورة فصلت: «وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون».

المبحث التاسع

زينة الحياة

خلق الله الإنسان ووهبه الكثير من الأشياء التي تحقق له السعادة في حياته الدنيا. فقد أنعم الله على الإنسان بنعم لا تحصى، وأبرزها نعمة الحياة والصحة ونعمة المال ونعمة البنين، بالإضافة إلى العديد من الممتلكات ذات الطابع المظهري التي قد تجلب السعادة إلى نفس الإنسان، مما يستحق الشكر والحمد لله الواهب لكل هذه النعم.

ونتطرق في هذا المبحث للنعم التي أنعم الله بها على الإنسان بصفة إجمالية، والأشياء الجمالية التي تزيّن الحياة وتضفي عليها قدرا من اللذة والمتعة، والمال الذي هو من أبرز وسائل امتلاك الأشياء، ثم البنون الذين تتحقق من خلالهم استمرارية الحياة ويتجسد فيهم الإحساس بالسعادة والإنجاز والسند عند العجز والحاجة.

1 - النعمة

النعمة هي «المنفعة المفعولة على وجه الإحسان إلى الغير». (ت. ر. ج،

3م2ص32) والنعم كلها تعود إلى الله سبحانه وتعالى فهو الذي يمنحها لعباده، ولا يمكن حصرها لأن «كل ما أودع فينا من المنافع واللذات التي ننتفع بها والجوارح والأعضاء التي نستعملها في جلب المنافع ودفع المضار وما خلق الله تعالى في العالم مما يلتذ به ويستدل على وجود الصانع وما وجد في العالم مما يحصل الانزجار برؤيته عن المعاصي مما لا يحصى عدده وكل ذلك منافع لأن المنفعة هي اللذة أو ما يكون وسيلة إلى اللذة وجميع ما خلق الله تعالى كذلك لأن كل ما يلتذ به نعمة وكل ما يلتذ به وهو وسيلة إلى دفع الضرر فهو كذلك والذي لا يكون جلبا للنفع الحاضر ولا دافعا للضرر الحاضر فهو صالح لأن يستدل به على الصانع الحكيم فيقع ذلك وسيلة إلى معرفته وطاعته وهما وسيلتان إلى اللذات الأبدية فثبت أن جميع مخلوقاته سبحانه نعم على العبيد». (ت. ر. ج، 3م2ص33)

وقد ورد ذكر النعم التي أنعم الله بها على الناس بصفة عامة، وبني إسرائيل بصفة خاصة، في الآية 40 من سورة البقرة: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾، وفي الآيتين 47 و122 «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين»، وفي الآية 211 «سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب»؛ كما ورد ذكر النعمة في الآيتين 171 و174 من سورة آل عمران؛ وفي الآية 20 من سورة المائدة؛ والآية 53 من سورة الأنفال؛ وفي الآية 34 من سورة إبراهيم؛ وفي الآيات 18 و53 و112 و114 من سورة النحل؛ والآية 19 من سورة النمل؛ وفي الآيتين 20 و24 من سورة لقمان؛ والآية 34 من سورة سبأ؛ وفي الآية الثامنة من سورة الزمر؛ والآية 51 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 18 و23 من سورة الزخرف؛ والآية 29 من سورة الطور؛ والآية 11 من سورة المزمل؛ وفي الآية 15 من سورة الفجر؛ وفي الآية 19 من سورة الليل؛ والآية 11 من سورة الضحى.

2 - الزينة

ترتبط الزينة ارتباطا وثيقا بالمظهر. فالتزين يعني إضفاء مظهر جمالي على الأشياء والناس. وعرّف الإمام الرازي الزينة بأنها: «عبارة عن الصحة والجمال واللباس والدواب وأثاث البيت، والمال وما يزيد على هذه الأشياء من الصامت والناطق». (ت. ر. ج17 م9 ص155) ويضيف ابن عاشور: «الزينة: ما يتزين به الناس، وما يحسن في أنظارهم من طرائف الدنيا، كالحلي والجواهر والمباني الضخمة». (ت. ع، ج11ص164)

وقد ورد ذكر الزينة في الآية 212 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾؛ وفي الآية 14 من سورة آل عمران: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب»؛ وورد ذكر الزينة في الآية 37 من سورة التوبة؛ وفي الآيتين 12 و88 من سورة يونس؛ وفي الآية 15 من سورة هود؛ والآية 71 من سورة النحل؛ وفي الآيتين 28 و46 من سورة الكهف؛ والآية الرابعة من سورة النمل؛ وفي الآيات 60 و61 و79 من سورة القصص؛ وفي الآيات 18 و32 و33 و34 و35 و71 من سورة الزخرف؛ والآية 36 من سورة محمد؛ وفي الآية 45 من سورة الواقعة؛ والآية 20 من سورة الحديد؛ والآية 17 من سورة المجادلة.

3 - الأواني والأثاث

تحدث القرآن الكريم عن بعض المحتويات المنزلية التي وعد الله بها الإنسان في بيئة الجنة، والتي تشبه من حيث النوع المحتويات المنزلية في بيئة الحياة الدنيا. ومعلوم أن الأواني والأثاث من بين الأدوات التي تستخدم لتلبية

بعض احتياجات الإنسان الحيوية. كما أنها تصنع وفقا لمواصفات جمالية تضفي على مظهرها طابعا تواصليا ثقافيا. فلكل ثقافة وحضارة نمطها المميز في صنع الأدوات المنزلية وصنع الأثاث وترتيبه، أخذا بعين الاعتبار البيئة المحيطة.

وقد ورد ذكر الأثاث والأواني المنزلية في الآية 47 من سورة الحجر، إذ قال تعالى: «ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين»؛ وفي الآية 31 من سورة الكهف: «أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا»؛ والآية 44 من سورة النمل: ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير﴾؛ والآية 56 من سورة يس: «هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون»؛ وقال تعالى في الآيتين 44 و45 من سورة الصافات: «على سرر متقابلين. يطاف عليهم بكأس من معين»؛ وفي الآيتين 34 و71 من سورة الزخرف: «ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون»، ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 20 و23 من سورة الطور: «متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين»، «يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم»؛ وفي الآيتين 15 و18 من سورة الواقعة: «على سرر موضونة»، «بأكواب وأباريق وكأس من معين»؛ وقال تعالى في الآيات 5 و13 و15 و16 و17 من سورة الإنسان: «إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا»، «متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا»، «ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قواريرا من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا»؛ وفي الآية 34 من سورة النبأ: «وكأسا دهاقا»؛ وقال تعالى في الآيتين 23 و35 من سورة

المطففين: «على الأرائك ينظرون»، «على الأرائك ينظرون»؛ وفي الآيات 13 و14 و15 و16 من سورة الغاشية: «فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة»؛ والآية السابعة من سورة الماعون: «ويمنعون الماعون».

4 - المال

ورد ذكر المال - وهو الأداة الأكثر فعالية للحصول على التزيُّن والاستمتاع بكل ما هو مادي - في الآيات 188 و262 و264 و273 و274 و279 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون»، «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس﴾، «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم. الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون».

وورد ذكر المال في الآيات 10 و116 و181 و186 من سورة آل عمران؛ وفي الآيات 2 و5 و6 و10 و29 و95 و135 و161 من سورة النساء؛ وفي الآيتين 50 و152 من سورة الأنعام؛ وفي الآيات 1 و28 و36 و72 من سورة الأنفال؛ وفي الآيات 20 و34 و41 و44 و55 و69 و74 و81 و85 و88 و91 و93 و103 و111 و121 سورة التوبة؛ وفي الآية 88 من سورة يونس؛ وفي الآيات 31 و68 و87 من سورة

هود؛ والآية 62 من سورة يوسف؛ وفي الآية 75 من سورة النحل؛ وفي الآيات 6 و31 و34 من سورة الإسراء؛ والآية 82 من سورة الكهف؛ والآية 77 من سورة مريم؛ وفي الآية 55 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآية الثامنة من سورة الفرقان؛ والآية 88 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 36 من سورة النمل؛ وفي الآيات 76 و78 و81 من سورة القصص»؛ والآية 27 من سورة الأحزاب؛ وفي الآيتين 35 و37 من سورة سبأ؛ وفي الآية 15 من سورة الحجرات؛ والآية 48 من سورة النجم؛ وفي الآية 20 من سورة الحديد؛ والآية 17 من سورة المجادلة؛ وفي الآيتين السابعة والثامنة من سورة الحشر؛ والآية 11 من سرة الصف؛ وفي الآية التاسعة من سورة «المنافقون»؛ والآية 15 من سورة التغابن؛ وفي الآية السابعة من سورة الطلاق؛ وفي الآية 14 من سورة القلم؛ وفي الآيتين 28 و29 من سورة الحاقة؛ والآية 24 من سورة المعارج؛ وفي الآيتين 12 و21 من سورة نوح؛ وفي الآية 12 من سورة المدثر؛ والآية 20 من سورة الفجر؛ وفي الآية السادسة من سورة البلد؛ وفي الآيتين 11 و18 من سورة الليل؛ والآية الثامنة من سورة الضحى؛ وفي الآيتين الثانية والثالثة من سورة الهمزة؛ وفي الآية الثانية من سورة المسد.

5 - البنـــون

وتكتمل متعة الحياة بالأبناء، الذين بالإضافة إلى الضرورة البيولوجية لوجودهم، يضفون مظهرا تفاخريا على من أنجبهم، خاصة في المجتمعات التي ترى في كثرة الأبناء نعمة وثروة لا تقدر بثمن. وقد قال تعالى في كتابه العزيز في الآية 46 من سورة الكهف: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾.

ورد ذكر الأبناء باعتبارهم نعمة من نعم الحياة، في الآيتين 10 و116 من سورة آل عمران»؛ وفي الآية 151 من سورة الأنعام؛ والآية 28 من سورة

الأنفال؛ وفي الآيتين 55 و69 من سورة التوبة؛ وفي الآيتين 6 و31 من سورة الإسراء؛ والآية 77 من سورة مريم؛ والآية 55 من سورة «المؤمنون»؛ والآية 88 من سورة الشعراء؛ وفي الآيتين 35 و37 من سورة سبأ؛ وفي الآية 20 من سورة الحديد؛ والآية 17 من سورة المجادلة؛ وفي الآية الثالثة من سورة الممتحنة؛ والآية التاسعة من سورة «المنافقون»؛ وفي الآيتين 14 و15 من سورة التغابن؛ وفي الآيتين 12 و21 من سورة نوح؛ والآية 13 من سورة المدثر.

الفصــل التاسـع

الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة

يشكل الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة، نقطة الامتزاج بين الاتصال اللفظي وغير اللفظي. وهي النقطة التي تقف عائقا أمام التعريف الدقيق والتمييز الواضح بين الرسائل اللفظية وغير اللفظية. كما تعطي امتيازا من حيث النطاق والسعة، للاتصال غير اللفظي، باعتبار أن كل ما هو لفظي يتضمن مظاهر غير لفظية، وليس العكس صحيحا.

وعندما نجرد أي لغة من الأصوات المميزة لأبجديتها والكيفية والظروف التي تنطق فيها هذه الأصوات، تتلاشى اللغة تماما، حتى وإن كانت مكتوبة، لأن الكتابة تتم وفق شروط غير لفظية تُدْرَك بحاسة البصر، وهي من أبرز قنوات الاتصال غير اللفظي. وهكذا يتضح أن انحياز الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة، لجانب الاتصال غير اللفظي على حساب الاتصال اللفظي، يكاد يجعل الاتصال غير اللفظي يقترب من معادلة الاتصال بمعناه الشامل والتماهي فيه.

لكن الحديث عن الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة، لا يقتصر فقط على نقطة التمازج بين اللفظي وغير اللفظي، بل يشمل رسائل واضحة تؤدي دورها الاتصالي بمعزل عن اللغة اللفظية، فتشكل لغة قائمة بذاتها. وأبرز هذه الرسائل الاتصالية، تصدر عن الإنسان والعديد من الكائنات الحية وغير الحية، في شكل أصوات دالة تعبر عن حاجات بيولوجية أو نفسية أو تعبر عن سلوك فسيولوجي أو فيزيائي، كالأصوات الناتجة عن التنفس أو التأوه والأنين أو الأصوات الناتجة عن حركات بعض أعضاء الجسم أو أصوات الريح والرعد وما شابهها.

لقد درج الباحثون على تناول الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة، والتي يصطلح عليها: Paralanguage، مقتصرين على دراسة الأصوات الصادرة عن الإنسان وغيره، وما يصاحب اللغة اللفظية نغمة الصوت ونمطه وطبقته وإيقاعه وشدته وارتفاعه والصمت الذي يتخلل الكلمات والجُمَل والفواصل الصوتية وغيرها(راجع، موسى، ص74–80).

لكننا، من خلال دراستنا للقرآن الكريم، سنوسع مفهوم الـParalanguage، ليشمل بعض السلوكات الاتصالية ذات الطابع الديني، والتي يقوم فيها الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة بدور بارز، كالدعاء والتوسل لله تعالى، وتلاوة القرآن الكريم وترتيله وتجويده؛ بالإضافة إلى التطرق لأصناف الحديث والقول التي تُوظّف فيها مجموعة محددة من المظاهر غير اللفظية للغة؛ ونكمل تصورنا الجديد لهذه القناة الاتصالية غير اللفظية، بتناول العلاقة العضوية الوطيدة بين حاسة السمع والصوت والمظاهر غير اللفظية للغة.

هكذا، يأتي هذا الفصل متضمنا لستة مباحث:

المبحث الأول يتناول الأصوات التي تحمل رسائل اتصالية مستقلة عن اللغة

اللفظية، مثل: الأفّ والتأوه والجأر والركز والزجر والزفير والشهيق والصخّ والصرّ والصراخ والصعق والصيحة والقرع واللهث والمُكاء والتصدية والنعق والنفث والنفخ والنقر والنهر (الانتهار).

ونخصص المبحث الثاني للدعاء والدعوة والنداء، موضحين أهميتها التواصلية ومبينين الفرق بينها.

وفي المبحث الثالث، نتناول أساليب قراءة القرآن، من تلاوة وترتيل وتزيين، وما يميزها من قراءة النصوص الأخرى.

ويتضمن المبحث الرابع أصناف الحديث والقول، وتشمل: الحديث، واللغو، والنجوى، والكلام، وأصناف القول (النفاق - زخرفة القول - اللين واليسر - اللمز - القول الثقيل - الخضوع بالقول).

ونتطرق في المبحث الخامس للسمع، كما جاء في القرآن الكريم، ويشمل: السمع، وصفة السميع، وفعل السمع، وفعل الاستماع والإصغاء، وعدم فعالية السمع، والصمم.

أما المبحث الأخير، فيتضمن المظاهر غير اللفظية للغة. وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات يشرن إلى: النطق، والصمت، والبكم، والكلام والتحكم في الصوت.

المبحث الأول

الصـــــوت

تعدّ الأصوات من أوائل الرسـائل التـواصلية التي وجدت في الكون. فمنذ أن خلق الله الكون، هنـاك أصوات تصـدر عن الكائنات الجـامـدة منهـا والحيـة، سواء نتيجـة للانفجـارات (بدءا بالانفجـار الكبير كمـا تخيله العلماء) والحـركة الدائبة التي هـي السـمة الرئيسـة لكل الكائنات. ومعلوم أن الصـوت لا ينتج إلا عن الحـركـة سـواء كـانت حـركـة الهـواء والغـازات الأخـرى أو الاحـتكاك بين الأجسـام الصلبـة، أو تحـريك الهـواء لبعض الأجـزاء الجسـدية كمـا يحـدث في حالة الصوت البشري الذي ينتج عن فعل الزفير.

وتكمن أهمـيـة الصـوت في اعتبـاره يحـمل لنـا الرسـائل التـواصليـة الصـادرة عن الطبيـعـة، كـأصـوات الرعـد والرياح والزلازل والبـراكين والأمـواج والسـيول والتهام النيران للأشياء. كما أن إصدار الأصوات، هو اللغة اللفظية للكثير من الكائنات الحية، خاصة المتطورة منها كالحيوانات الثديية، وعلى رأسها الطير، والحشـرات، والأسماك وجل الكائنات البحرية والبـرية التي تدب على الأرض.

وللأصوات أهمية قصوى في التواصل البشري، إذ يصدر البشر بدورهم أصواتا بدائية تعبر عن بعض حاجياتهم الحياتية، خاصة في مقتبل العمر قبل التمكن من اللغة اللفظية، كما يصدر الإنسان، في حياته العادية، العديد من الأصوات كالشهيق والزفير والشخير والصفير والصوت المصاحب للتثاؤب والأنين والتأوّه والأصوات المصاحبة للتمخط والزرط، وغيرها من الأصوات.

وقد تضمن القرآن الكريم ذكرا للعديد من الأصوات ذات الأبعاد التواصلية، فضلا عن الأصوات التي ستصدر بكيفية منفردة، والتي ترتبط بقيام الساعة كالنفخ في الصور.

1 - الأفّ

الأفّ كلمة قائمة على ومستمدة من فعل زفير الهواء من الرئتين عبر الفم، تعبيرا عن الضجر والاستياء. وقد ورد عنها في «لسان العرب»:

«افّ: كلمة تَضَجُّر وفيها عشرة أوجه: أُفَّ له وأُفِّ وأُفُّ وأُفٌّ وأُفٍّ.. وأُفِّي مُمالٌ وأُفَّى وأُفَّة وأُفْ خفيفة من أُفّ المشددة.. قال الفراء ولا تقل في أُفَّة إلا الرفع والنصب، وقال في قوله ولا تقل لهما أفّ: قرئ أُفٍّ، بالكسر بغير تنوين وأُفٌّ بالتنوين، فمن خفض ونوَّن ذهب إلى أنها صوت لا يعرف معناه إلا بالنطق به فخفضوه كما تخفض الأصوات ونوّنوه كما قالت العرب سمعت طاقٍ طاقٍ لصوت الضرب، ويقولون سمعت تغٍ تغٍ لصوت الضحك، والذين لم ينونوا وخفضوا قالوا أُفٍّ على ثلاثة أحرف، وأكثر الأصوات على حرفين مثل صَهٍ وتغٍ ومَهٍ، فذلك الذي يخفض وينون لأنه متحرك الأول.. وقال القتيبي في قوله عزّ وجل: ولا تقل لهما أفّ أي لا تستثقل شيئا من أمرهما وتَضِقْ صدرا به ولا تُغلِظ لهما، قال: والناس يقولون لما يكرهون ويستثقلون اف له،

وأصل هذا نفخك للشيء يسقط عليك من تراب أو رماد وللمكان تريد إماطة أذى عنه، فقيلت لكل مُستَثقَل.. وفي الحديث: فألقى طرف ثوبه على انفه وقال أُف أُف؛ قال ابن الأثير: معناه الاستقذار لما شمَّ، وقيل: معناه الاحتقار والاستقلال، وهو صوت إذا صوّتَ به الإنسان عُلِم أنه متضجر مُتَكَرِّهٌ». (ابن منظور، ج9 ص ص6-7)

وقد ورد لفظ الأفّ في ثلاث آيات قرآنية: في الآية 23 من سورة الإسراء، إذ قال تعالى: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما»؛ وقال تعالى في الآية 67 من سورة الأنبياء على لسان سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، إذ قال لقومه: «أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون»؛ وقال تعالى في الآية 17 من سورة الأحقاف: «والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين».

2 - التــأوّه

التأوه مشتق من الصوت: «آه» الذي يعبر به الإنسان في بعض الأحيان عن التوجع والإحساس بالألم. وقد جاء في تفسير «التحرير والتنوير» لابن عاشور: «﴿أواه﴾ فُسِّر بمعان ترجع إلى الشفقة إما على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وإما على الناس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم. ولفظ ﴿أواه﴾ مثال مبالغة: الذي يكثر قول أوّهْ بلغاته الثلاث عشرة التي عدها في «القاموس»، وأشهرها أوّهْ بفتح الهمزة وواو مفتوحة مشددة وهاء ساكنة. قال المرادي في «شرح التسهيل»: وهذه أشهر لغاتها. وهي اسم فعل مضارع بمعنى أتوجع لإنشاء التوجع، لكن الوصف بـ﴿أواه﴾ كناية عن الرأفة

ورقة القلب والتضرع حين يوصف به من ليس به وجع». (ت. ع، ج10 ص216)

وقد ورد لفظ ﴿أواه﴾ في سورتي التوبة وهود، كصفة من صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام، إذ قال تعالى في الآية 114 من سورة التوبة: «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم»؛ وفي الآية 75 من سورة هود: «إن إبراهيم لحليم أواه منيب».

3 - الجـــأر

أورد ابن منظور في «لسان العرب» تحت مادة «جأر»: «جار يجأر جأرا وجُؤَارا: رفع صوته مع تضرع واستغاثة. وفي التنزيل: إذا هم يجأرون؛ وقال ثعلب: هو رفع الصوت إليه بالدعاء. وجأر الرجل إلى الله عز وجل إذا تضرع بالدعاء. وفي الحديث: كأني أنظر إلى موسى له جُؤار إلى ربه بالتلبية؛ ومنه الحديث الآخر: لخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله. وقال قتادة في قوله: إذا هم يجأرون؛ قال إذا هم يجزعون، وقال السدّيّ: يصيحون، وقال مجاهد: يضرعون دعاء، وجأر القوم جؤارا: وهو أن يرفعوا أصواتهم بالدعاء متضرعين.. [قال] الجوهري: الجؤار مثل الخُوار، جأر الثور والبقرة يجأر جؤارا: صاحا، وخار يخور بمعنى واحد: رفعا صوتهما». (ابن منظور، ج4 ص112)

قال تعالى في الآية 53 من سورة النحل: «وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون»؛ وفي الآيتين 64 و65 من سورة «المؤمنون»: «حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون».

4 - الركــز

قـال تعالـى فـي الآية 98 من سـورة مـريم: «وكم أهلكنـا قبـلهم من قـرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا».

فسّـر الأمـام الطبـري الـركـز بـ «الصـوت الخـفـي». (ت. ط، ج16 م8 ص388) وأضـاف الزمـخـشـري: «الركـز: الصـوت الخـفـي. ومنه: ركـز الـرمـح إذا غـيب طرفه في الأرض. والركاز المال المدفون». (ت. ز، ج3 ص46)

5 - الزجـــر

الزجـر هو «المنع والنهي والانتـهـار. زجـره يزجُـرُه زجـرا وازدجـره فـانـزجـر وازدجـر.. وفي حـديث العـزل: كـأنه زجـر؛ أي نهى عنه، وحيث وقـع الزجـر في الحديث فإنمـا يراد به النهي. وزجـر السـبع والكلب وزجر به: نَهْنَهَهُ.. وزجـرت البعير حتى ثار ومضى وأزجره زجرا، وزجـرت فلانـا عن السـوء فانزجـر، وهو كالردع للإنسـان، وأمـا للبـعير فـهـو كـالحث بلفظ يكون زجـرا لـه. قـال الزجـاج: الزجر النهر، والزجر للطير وغيرهـا التيـمن بسنوحها والتشاؤم ببروحها، وإنما سمي الكاهن زاجرا لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضيّ في تلك الحـاجة برفع صوته وشدّه». (ابن منظور، ج4 ص ص318–319)

وقـد ورد ذكـر الزجـر فـي الآيتين 2 و19 من سـورة الصـافـات، إذ قـال تعـالـى: «فـالزاجـرات زجـرا»، «فـإنمـا هـي زجـرة واحـدة فـإذا هـم يـنظـرون»؛ وفـي الآيتين الرابعـة والتاسـعة من سـورة القـمـر: «ولقـد جـاءهم مـن الأنبـاء مـا فيـه مزدجـر»، «كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عـبدنا وقالوا مجنون وازدجـر»؛ وفـي الآية 13 من سورة النـازعـات: «فإنما هـي زجرة واحدة».

6 - الزفـيـر والشهيـق

الزفير والشـهيق سلوكان يجسدان عملية التنفس عبر استنشاق الهواء داخل الرئتين وإخراجه منهما. لكن عندما تزيد عملية التنفس عن معدلاتها الطبيعية ويصاحبها صوت مسموع، فإنها قد تعبر عن التوتر والخوف وبذل طاقة إضافية مصاحبة بإسراع في نبضات القلب. في هذه الحالة تتحول عملية التنفس العادية إلى حالة عاطفية أبرز سماتها الشهيق أي إخراج الأنفاس بدفع وشدّة بسبب ضغط التنفس، والزفير أي اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة لقوة الاحتياج إلى التنفس.

ورد ذكر الزفير والشهيق في الآية 106 من سورة هود، إذ قال تعالى: «فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق»؛ وفي الآية 100 من سورة الأنبياء: «لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون»؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة الفرقان: «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا»؛ وفي الآية السابعة من سورة الملك: «إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور».

إن الإخبار عن أصحاب النار، بأنهم يكثرون من الزفير والشهيق، يوضح هول العذاب الذي يلحق بهم. عذاب يكلف القلب والرئتين ما لا طاقة لهما به. وتزداد الصورة هولا، عندما يصبح الزفير والشهيق صفتين للنار، وكأنها ليست مجرد احتراق بل انفجارات دائمة ترهب من يرقبها، قبل أن يؤول إليها، فيختلط زفيره بزفيرها وشهيقه بشهيقها.

7 - الصاخــة

قال تعالى في الآية 33 من سورة عبس: «فإذا جاءت الصاخة». جاء في تفسير الفخر الرازي:

«قال المفسرون يعني صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة، قال الزجاج أصل الصخ في اللغة الطعن والصك، يقال صخ رأسه بحجر أي شدخه والغراب يصخ بمنقاره في دبر البعير أي يطعن، فمعنى الصاخة الصاكة بشدة صوتها للآذان، وذكر صاحب الكشاف(*) وجها آخر فقال يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازا لأن الناس يصخون لها أي يستمعون». (ت. ر. ج31 م16 ص64) (* ت. ز. ج4 ص692)

8 - الصـــرّ

وصفت الريح في بعض الآيات القرآنية، والتي أرسلها الله تعالى كعقاب لعباده، بأنها «صرصر». إذ قال تعالى في الآية 16 من سورة فصلت: «فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون»؛ وفي الآية 19 من سورة القمر: «إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر»؛ والآية السادسة من سورة الحاقة: «وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية».

وقال تعالى في خبر امرأة سيدنا إبراهيم عليه السلام في الآية 29 من سورة الذاريات: «فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم».

وقد أورد الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿في صرّة﴾: «حدثني علي، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قوله ﴿في صرّة﴾ يقول: في صيحة». (ت. ط، م11ص463) وأورد عن قتادة: «حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله ﴿فاقبلت امرأته في صرة﴾: أي أقبلت في رنة». (ت.. ط، م11 ص464) أي أقبلت ترنّ.

وفسّر الإمام الرازي «الصرصر» الوارد في الآية 16 من سورة فصلت،

بقوله: «في الصرصر قولان (أحدهما) أنها العاصفة التي تصرصر أي تصوت في هبوبها، وفي علة هذه التسمية وجوه (قيل) إن الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الاسم (وقيل) هو من صرير الباب، (وقيل) من الصرة والصيحة، ومنه قوله تعالى ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ (والقول الثاني) أنها الباردة التي تحرق ببردها كما تحرق النار بحرها، وأصلها من الصر وهو البرد قال تعالى ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرياح ثمان أربع منها عذاب العاصف والصرصر والعقيم والسموم، وأربع منها رحمة الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات». (ت. ر. ج27م14ص113)

9 - الصراخ

إن الصراخ باعتباره صوتاً مرتفعاً يصدر عن الإنسان وبعض الكائنات الحية، للتعبير عن الألم. وقد ورد ذكره في الآية 22 من سورة إبراهيم، إذ قال تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾؛ وقال تعالى في الآية 18 من سورة القصص: «فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين»؛ وفي الآية 37 من سورة فاطر: ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل﴾؛ والآية 43 من سورة يس: «وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون».

10 - الصعــق

أورد ابن منظور في «لسان العرب» تحت مادة «صعق»: «صَعِق الإنسان صَعْقا وصَعَقا، فهو صَعِقٌ: غُشِيَ عليه وذهب عقله من صوت يسمعه كالهدة الشديدة.. ومثل الصاعقة الصوت الشديد من الرعدة يسقط معها قطعة نار.. [قال] أبو زيد: الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد، والصاعقة صيحة العذاب. قال ابن بري: الصعقة الصوت الذي يكون عن الصاعقة، وبه قرأ الكسائي: فأخذتهم الصعقة؛ قال الراجز:

لا سحاب فراينا برقه   ثم تدلّى فسمعنا صعقه

الصعق: أن يغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه وربما مات منه.. قال عمرو بن بحر: الإنسان يكره صوت الصاعقة وإن كان على ثقة من السلامة من الإحراق، قال: والذي نشاهد اليوم الأمر عليه أنه متى قَرُب من الإنسان قَتَله؛ قال: ولعل ذلك إنما هو لأن الشيء إذا اشتد صدمه فسخ القوة، أو لعل الهواء الذي في الإنسان والمحيط به أنه يَحْمَى ويستحيل نارا قد شارك ذلك الصوت من النار، قال: وهم لا يجدون الصوت شديدا جيدا إلا ما خالط منه النار». (ابن منظور، ج10 ص ص198-199)

ورد ذكر الصعق والصواعق في الآيتين 19 و55 من سورة البقرة: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾، «وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون»؛ وفي الآية 143 من سورة الأعراف: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين»؛ وقال تعالى في الآية 13 من سورة الرعد: ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾؛

وفي الآية 68 من سورة الزمر: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 13 و17 من سورة فصلت: «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود»، «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون»؛ وفي الآية 45 من سورة الطور: «فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون».

11 - صوت الحمير

ورد ذكر صوت الحمير للتشبيه به في الآية 19 من سورة لقمان، إذ قال تعالى: «واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير». وقد أورد الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية، بدءا من قوله تعالى ﴿واغضض من صوتك﴾: «وانقص منه واقصر؛ من قولك: فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه ﴿أنكر الأصوات﴾ أوحشها، من قولك: شيء نكر، إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت. والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجردا وتفاديهم من اسمه: أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة: وقد عُدّ في مساوي الآداب: أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرجلة [اتعبه المشي برجله]، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة - وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا - مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان. فإن قلت: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع؟ قلت: ليس

المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده». (ت. ز، ج3 ص482-483)

12 - الصيحـــة

ذكر الله سبحانه وتعالى الصيحة في الآيتين 67 و94 من سورة هود: «وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين»، ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 73 و83 من سورة الحجر: «فأخذتهم الصيحة مشرقين»، «فأخذتهم الصيحة مصبحين»؛ وفي الآية 41 من سورة «المؤمنون»: «فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين»؛ والآية 40 من سورة العنكبوت: ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة﴾؛ وقال تعالى في الآيات 29 و49 و53 من سورة يس: «إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون»، «ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون»، «إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون»؛ وفي الآية 15 من سورة ص: «وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق»؛ وقال تعالى في الآية 42 من سورة ق: «يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج»؛ وفي الآية 31 من سورة القمر: «إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر»؛ والآية الرابعة من سورة «المنافقون»: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم﴾.

فسر الإمام الرازي الصيحة في الآية 68 من سورة هود، بقوله: «ذكروا في الصيحة وجهين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد الصاعقة؛ الثاني: الصيحة عظيمة هائلة سمعوها فماتوا أجمع منها فأصبحوا وهم موتى

جاثمين في دورهم ومساكنهم، وجثومهم سقوطهم على وجوههم، يقال إنه تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يصيح بهم تلك الصيحة التي ماتوا بها، ويجوز أن يكون الله تعالى خلقها، والصياح لا يكون إلا الصوت الحادث في حلق وفم وكذلك الصراخ، فإن كان من فعل الله تعالى فقد خلقه في حلق حيوان وإن كان فعل جبريل عليه السلام فقد حصل في فمه وحلقه، والدليل عليه أن صوت الرعد أعظم من كل صيحة ولا يسمى بذلك ولا بأنه صراخ.

فإن قيل: فما السبب في كون الصيحة موجبة للموت؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أن الصيحة العظيمة إنما تحدث عند سبب قوي يوجب تموج الهواء وذلك التموج الشديد ربما يتعدى إلى صماخ الإنسان فيمزق غشاء الدماغ فيورث الموت. والثاني: أنها شيء مهيب فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها والأعراض النفسانية إذا قويت أوجبت الموت، الثالث: أن الصيحة العظيمة إذا حدثت من السحاب فلابد وأن يصحبها برق شديد محرق، وذلك هو الصاعقة التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما». (ت. ر. ج18 ص ص22–23)

13 - القــرع

ذُكر القرع في القرآن الكريم في صيغة «القارعة»، وقد فسرها ابن عاشور بقوله: «القارعة: في الأصل وصف من القرع، وهو ضرب جسم بجسم آخر. يقال: قرع الباب إذا ضربه بيده بحلقة. ولما كان القرع يحدث صوتا مباغتا يكون مزعجا لأجل تلك البغتة صار القرع مجازا للمباغتة والمفاجأة، ومثله الطّرق. وصاغوا من هذا الوصف صيغة تأنيث إشارة إلى موصوف ملتزم الحذف اختصارا لكثرة الاستعمال، وهو ما يؤول بالحادثة أو الكائنة أو

النازلة، كما قالوا: داهية وكارثة، أي نازلة موصوفة بالإزعاج فإن بغت المصائب أشد وقعا على النفس. ومنه تسمية ساعة البعث بالقارعة». (ت. ع، ج12 ص188)

ورد ذكر القارعة في سورتي الرعد والحاقة، إضافة إلى سورة القارعة التي حملت الاسم وابتدرت آياتها الثلاث الأولى بذكر القرع.

قال تعالى في الآية 31 من سورة الرعد: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله﴾؛ وفي الآية الرابعة من سورة الحاقة: «كذبت ثمود وعاد بالقارعة»؛ وقال تعالى في الآيات الأولى والثانية والثالثة من سورة القارعة: «القارعة. ما القارعة. وما أدراك ما القارعة». وتم شرحها في الآيتين الرابعة والخامسة: «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش».

14 - اللــهث

اللهث هو «سرعة التنفس مع امتداد اللسان لضيق النفس». (ت. ع، ج8 ص354) وقد ورد ذكره في الآية 176 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: «ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون». وجاء في «لسان العرب» تحت مادة «لهث»: «لهث الكلب، بالفتح، ولَهِث يلْهَث فيهما لهثا: دلَع لسانه من شدة العطش والحر؛ وكذلك الطائر إذا أخرج لسانه من حر أو عطش. ولَهَث الرجل ولهِث يلهَث في اللغتين جميعا لهثا، فهو لهثان: أعيا». (ابن منظور، ج2 ص184)

15 - المكاء والتصدية

ورد ذكر المكاء والتصدية في الآية 35 من سورة الأنفال، إذ قال تعالى: «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون».

جاء في تفسير الإمام الرازي مستشهدا بما أورده الإمام الزمخشري في «تفسير الكشاف»:

«اعلم أنه تعالى لما قال في حق الكفار أنهم ما كانوا أولياء البيت، وهو أن صلاتهم عند البيت وتقربهم وعبادتهم إنما كان بالمكاء والتصدية، قال صاحب الكشاف: المكاء فعال بوزن النغاء والرغاء من مكا يمكو إذا صفر، والمكاء الصفير. ومنه المكّاء وهو طائر يألف الريف، وجمعه المكاكي سمي بذلك لكثرة مكائه. وأما التصدية فهي التصفيق يقال: صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه..

إذا عرفت هذا فنقول: قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون وقال مجاهد: كانوا يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف ويستهزئون به ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته، وقال مقاتل: كان إذا صلى الرسول في المسجد يقومون عن يمينه ويساره بالتصفير والتصفيق ليخلطوا عليه صلاته». (ت. ز، ج2 ص211) (ت. ر. ج15 م8 ص ص164-165)

16 - لغة الطير

قال تعالى في الآية 16 من سورة النمل: «وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين».

قدّم ابن عاشور شرحا وافيا للمقصود بمنطق الطير الوارد في هذه الآية،

يدل على عمق إدراكه للغة غير اللفظية:

«عِلم منطق الطير أوتيه سليمان من طريق الوحي بأن أطلعه الله على ما في تقاطيع وتخاليف صفير الطيور أو نعيقها من دلالة على ما في إدراكها وإرادتها. وفائدة هذا العلم أن الله جعله سبيلا له يهتدي به إلى تعرف أحوال عالمية يسبق الطير إلى إدراكها بما أودع فيه من القوى الكثيرة. وللطير دلالة في تخاطب أجناسها واستدعاء أصنافها والإنباء بما حولها ما فيه عون على تدبير ملكه وسياسة أمته، مثل استخدام نوع الهدهد في إبلاغ الأخبار وردها ونحو ذلك..

ودلالة أصوات الطير على ما في ضمائرها: بعضها مشهور كدلالة بعض أصواته على نداء الذكور لإناثها، ودلالة بعضها على اضطراب الخوف حين يمسكه ممسك أو يهاجمه كاسر، ووراء ذلك دلالات فيها تفصيل، فكل كيفية من تلك الدلالات الإجمالية تنطوي على تقاطيع خفية من كيفيات صوتية يخالف بعضها بعضا فيها دلالات على أحوال فيها تفضيل لما أجملته الأحوال المجملة، فتلك التقاطيع لا يهتدي إليها الناس ولا يطلع عليها إلا خالقها، وهذا قريب من دلالة مخارج الحروف وصفاتها في لغة من اللغات وفكّها وإدغامها واختلاف حركاتها على معان لا يهتدي إليها من يعرف تلك اللغة معرفة ضعيفة ولم يتقن دقائقها..

والاقتصار على منطق الطير إيجاز لأنه إذا علم منطق الطير وهي أبعد الحيوان عن الركون إلى الإنسان وأسرعها نفورا منه، علم أن منطق ما أكثر اختلاطا بالإنسان حاصل له بالأحرى.. وهذا العلم سماه العرب علم الحُكّل.. وعُبر عن أصوات الطير بلفظ ﴿منطق﴾ تشبيها له بنطق الإنسان من حيث هو ذو دلالة لسليمان على ما في ضمائر الطير، فحقيقة المنطق الصوت المشتمل على حروف تدل على معان». (ت. ع، ج19 ص ص235-236)

17 - النعــق

قال تعالى في الآية 171 من سورة البقرة: «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون».

جاء في «لسان العرب»: «النعيق: دعاء الراعي الشاء. يقال: انعق بضأنك أي ادعها.. ونعق الراعي بالغنم ينعِق، بالكسر، نعقا ونُعاقا ونَعيقا ونَعَقانا: صاح بها وزجرها، يكون ذلك في الضأن والمعز.. وفي الحديث: أنه قال لنساء عثمان بن مظعون لما مات: ابكين وإياكن ونعيق الشيطان، يعني الصياح والنوح.. وفي حديث المدينة: آخر من يحشر راعيان من مُزَيْنَة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما أي يصيحان. وقوله تعالى: ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء؛ قال الفراء: أضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالراعي ولم يقل كالغنم، والمعنى، والله أعلم، مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فأضاف التشبيه إلى الراعي والمعنى في المَرْعِيّ». (ابن منظور، ج10 ص356)

18 - النفـث

ورد ذكر النفث في الآية الرابعة من سورة الفلق، إذ قال تعالى: «ومن شر النفاثات في العقد». وقد فسّر الزمخشري ﴿ النفاثات ﴾ بقوله: «النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط وينفثن عليها ويرقين: والنفث النفخ من ريق». (ت. ز. ج4 ص816) وأضاف الرازي: «.. ومنهم من قال إنه النفخ فقط، ومنه قوله عليه السلام إن جبريل نفث في روعي». (ت. ز. ج32 م16 ص195)

19 - النفـــخ

جاء ذكر النفخ في الآية 49 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: ﴿ ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ﴾؛ وفي الآية 73 من سورة الأنعام: ﴿ يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾؛ والآية 29 من سورة الحجر: «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»؛ وورد ذكر النفخ في الآية 99 من سورة الكهف؛ وفي الآية 102 من سورة طه؛ وفي الآية 91 من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 101 من سورة «المؤمنون»؛ والآية 87 من سورة النمل؛ وفي الآية التاسعة من سورة السجدة؛ والآية 51 من سورة يس؛ والآية 72 من سورة ص؛ وفي الآية 68 من سورة الزمر؛ وفي الآية 20 من سورة ق؛ والآية 12 من سورة التحريم؛ وفي الآية 13 من سورة الحاقة: «فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة»؛ والآية 18 من سورة النبأ.

20 - النقـر والنقـير

النقر في اللغة: «ضرب الرحى والحجر وغيره بالمنقار. ونقره ينقره نقرا: ضربه.. والنقر: ضمّك الإبهام إلى طرف الوسطى ثم تَنْقُر فيسمع صاحبك صوت ذلك، وكذلك اللسان وفي حديث ابن عباس في قوله تعالى: ولا يظلمون نقيرا؛ وضع طرف إبهامه على باطن سبابته ثم نقرها وقال هذا التفسير». (ابن منظور، ج5ص ص227و229)

قال تعالى في الآيتين 53و124 من سورة النساء: «أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا»، «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا»؛ وقال تعالى في الآية الثامنة

من سورة المدثر: «فإذا نقر في الناقور». وقد فُسِّر النقر والناقور الواردين في هذه الآية: «أي فإذا نفخ في الصور، نفخة البعث والنشور، وعبر عن النفخ وعن الصور، بالنقر في الناقور، لبيان هول الأمر وشدته، فإن النقر في كلام العرب معناه الصوت وإذا اشتد الصوت أصبح مفزعا». (ص. ت، ج3 ص474)

21 - النهــر (الانتهــار)

قال ابن منظور في «لسان العرب»: «النهر: من الانتهار. ونهر الرجل ينْهَره نهرا وانتهره: زجره. وفي التهذيب: نهرته وانتهرته إذا استقبلته بكلام تزجره عن خبر». (ابن منظور، ج5 ص239)

وقد ورد ذكر الانتهار كسلوك تواصلي منهيّ عنه لمجانبته لقواعد الآداب، في الآية 23 من سورة الإسراء، إذ قال تعالى: «وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما»؛ وفي الآية العاشرة من سورة الضحى: «وأما السائل فلا تنهر»

المبحث الثاني

الدعاء والدعوة والنداء

نميز في هذا المبحث بين الدعاء باعتباره طلبا واستجداء غالبا ما يتوجه به العبد إلى ربه لينال رضاه ومغفرته ونجده في حالات الشدة، والدعوة التي تعني الحثّ أو محاولة الإقناع بالموافقة على أمر ما واتباعه، وقد تعني في بعض الأحيان المناداة.. وأخيرا، النداء الذي يهدف إلى إيصال رسالة معينة بصوت مسموع، بسبب بعد المسافة أو ضعف قدرة الطرف الآخر على تلقي الرسالة الصوتية.

1 - الدعاء

يختلف الدعاء عن بقية أصناف السلوك اللفظي، في احتوائه على كلمات ونبرة صوت تبين (دونية المنزلة الاجتماعية) للداعي مقارنة بمن يتوجه إليه بالدعاء. فالعبد عندما يتوجه بالدعاء إلى ربه، فهو يمجده ويذكره بصفاته ويستعطفه أملا في أن يقبل دعاءه. فالداعي يظهر تواضعه وضعفه من خلال

صوته وتعبيراته الوجهية وهيئته، وقد يردد كلمات الدعاء في نغمة تنم عن الحب والخشوع والتضرع لله.

وقد جاء في «لسان العرب» تحت مادة «دعا»: «قال الله تعالى: وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين؛ قال أبو اسحق: يقول ادعوا من استدعيتم طاعته ورجوتم معونته في الإتيان بسورة مثله، وقال الفراء: وادعوا شهداءكم من دون الله، يقول: آلهتكم، يقول استغيثوا بهم، وهو كقولك للرجل إذا لقيت العدو خاليا فادع المسلمين، ومعناه استغث بالمسلمين، فالدعاء هاهنا بمعنى الاستغاثة، وقد يكون الدعاء عبادة: إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، قوله بعد ذلك: فادعوهم فلسيتجيبوا لكم، يقول: ادعوهم في النوازل التي تنزل بكم إن كانوا آلهة كما تقولون يجيبوا دعاءكم، فإن دعوتموهم فلم يجيبوكم فأنتم كاذبون أنهم آلهة. وقال أبو اسحق في قوله: أجيب دعوة الداع إذا دعان؛ معنى الدعاء لله في ثلاثة أوجه: فضرب منها توحيده والثناء عليه كقولك: يا الله لا إله إلا أنت، وكقولك: ربنا لك الحمد، إذا قلته فقد دعوته بقولك ربنا، ثم أتيت بالثناء والتوحيد، ومثله قوله: وقال ربكم ادعوني أستجب لكن إن الذين يستكبرون عن عبادتي؛ فهذا ضرب من الدعاء، والضرب الثاني مسألة الله العفو والرحمة وما يقرِّب منه كقولك: اللهم اغفر لنا، والضرب الثالث مسألة الحظ من الدنيا كقولك: اللهم ارزقني مالا وولدا، وإنما سمي هذا جميعه دعاء لأن الإنسان يُصَدِّر في هذه الأشياء بقوله يا الله يا رب يا رحمن، فلذلك سمي دعاء. وفي حديث عرفة: أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وإنما سمي التهليل والتحميد والتمجيد دعاء لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه كالحديث الآخر: إذا شغل عبدي ثناؤه عليّ عن مسألتي أعطيته ما أعطي السائلين». (ابن منظور، ج14 ص257)

ورد ذكر الدعاء بمعانيه التي تجعله يندرج ضمن دراسة المظاهر غير اللفظية للغة، في العديد من الآيات القرآنية. ففي الآيات 23 و61 و68 و69 و70 و186 من سورة البقرة، قال تعالى: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين»، ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض﴾، ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾ ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾، ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾؛ وورد ذكر الدعاء في الآية 38 من سورة آل عمران؛ وفي الآية 117 من سورة النساء؛ وفي الآيات 40 و41 و52 و56 و63 و71 و108 من سورة الأنعام؛ وفي الآيات 5 و55 و56 و134 و180 و189 و194 و197 من سورة الأعراف؛ وفي الآيات 10 و12 و22 و38 و66 و89 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 13 و101 من سورة هود؛ والآية 14 من سورة الرعد؛ وفي الآيتين 39 و40 من سورة إبراهيم؛ وفي الآيتين 20 و86 من سورة النحل؛ وفي الآيات 11 و56 و57 و67 و110 من سورة الإسراء؛ وفي الآيتين 14 و28 من سورة الكهف؛ وفي الآيتين 4 و48 من سورة مريم؛ والآية 90 من سورة الأنبياء؛ والآيات 12 و62 و73 من سورة الحج؛ والآية 117 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيات 13 و14 و68 و77 من سورة الفرقان؛ وفي الآيتين 72 و213 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 62 من سورة النمل؛ والآية 88 من سورة القصص؛ وفي الآيتين 42 و65 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 30 و32 من سورة لقمان؛ والآية 16 من سورة السجدة؛ وفي الآيتين 13 و40 من سورة فاطر؛ والآية 125 من سورة الصافات؛ وفي الآيات 8 و38 و49 من سورة الزمر؛ وفي الآيات 12 و14 و20 و26 و49 و50 و60 و65 و66 و74 من سورة غافر؛ وفي الآيات 48 و49 و51 من سورة فصلت؛ والآية 86 من

سورة الزخرف؛ وفي الآيتين الرابعة والخامسة من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 28 من سورة الطور؛ وفي الآيات 18 و19 و20 من سورة الجن.

2 - الدعـــوة

الدعوة، في اللغة العربية، مشتقة من: «دعا الرجل دعوا ودُعاء: ناداه، والاسم الدعْوة. ودعوت فلانا أي صحت به واستدعيته. فأما قوله تعالى: يدعو لَمَنْ ضرّه أقرب من نفعه؛ فإن أبا إسحق ذهب إلى أن يدعو بمنزلة يقول.. وهو منّي دعوةَ الرجل ودعوةُ الرجل، أي قدر ما بيني وبينه، ذلك ينصب على أنه ظرف ويرفع على أنه اسم. ولبني فلان الدعوة على قومهم أي يُبْدأ بهم في الدعاء إلى أعطياتهم.. ودعاه إلى الأمير: ساقه. وقوله تعالى: داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا؛ معناه داعيا إلى توحيد الله وما يُقَرِّبُ منه.. والدُّعاة: قوم يدعُون إلى بيعة هُدًى أو ضلالة، واحدهم داعٍ. ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، أُدخلت الهاء فيه للمبالغة». (ابن منظور، ج14 ص ص258-259)

إن الدعوة، باعتبارها سلوكا تواصليا متعمَّدا يهدف إلى الإقناع أو الإخبار في أسوأ الفروض، تقوم على توظيف أكبر قدر من المهارات التواصلية، وعلى رأسها: استخدام الصوت، فيما يتعلق بمدى ارتفاعه وشدته نبرته وسرعة إيقاعه.. ليتلاءم مع السياق التواصلي.

وقد وردت الدعوة بمعنى الحثّ أو الأمر أو القول أو المناداة أو الانتساب، في الآيات 221 و260 و282 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾، ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا﴾،

﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾؛ كما ورد ذكر الدعوة في الآيات 23 و61 و104 و153 من سورة آل عمران؛ وفي الآيات 29 و37 و193 و198 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 25 و62 من سورة هود؛ وفي الآيتين 33 و108 من سورة يوسف؛ والآية 36 من سورة الرعد؛ وفي الآيات 9 و10 و22 و44 من سورة إبراهيم؛ والآية 125 من سورة النحل؛ وفي الآيتين 52 و71 من سورة الإسراء؛ والآية 57 من سورة الكهف؛ وفي الآية 91 من سورة الرحمن؛ وفي الآيتين 15 و45 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 13 و67 من سورة الحج؛ والآية 73 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيات 48 و51 و63 من سورة النور؛ والآية 80 من سورة النمل؛ وفي الآيات 25 و41 و64 و87 من سورة القصص؛ وفي الآيات 25 و33 و52 من سورة الروم؛ والآية 21 من سورة لقمان؛ وفي الآيات 5 و37 و46 و53 من سورة الأحزاب؛ وفي الآيات 6 و14 و18 من سورة فاطر؛ والآية 51 من سورة ص؛ وفي الآيات 10 و41 و42 و43 من سورة غافر؛ وفي الآيتين 5 و33 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 13 و15 من سورة الشورى؛ وفي الآية 55 من سورة الدخان؛ والآية 28 من سورة الجاثية؛ وفي الآيتين 31 و32 من سورة الأحقاف؛ وفي الآيتين 35 و38 من سورة محمد؛ والآية 16 من سورة الفتح؛ والآية 13 من سورة الطور؛ وفي الآيتين السادسة والثامنة من سورة القمر؛ والآية الثامنة من سورة الحديد؛ والآية السابعة من سورة الصف؛ وفي الآيتين 42 و43 من سورة القلم؛ وفي الآية 17 من سورة المعارج؛ وفي الآيات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة من سورة نوح؛ والآية 11 من سورة الانشقاق؛ وفي الآيتين 17 و18 من سورة العلق.

3 - النداء

يرتبط النداء ارتباطا وثيقا بالصوت. يقول ابن منظور في «لسان العرب»

تحت مادة «ندي»: «النِّداء والنُّداء: الصوت مثل الدُّعاء والرُّغاء، وقد ناداه ونادى به وناداه مناداة ونداء أي صاح به. وأنْدى الرجل إذا حسن صوته. وقوله عز وجل: يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد؛ قال الزجاج: معنى يوم التنادي يوم ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله.. والندى: بُعد الصوت. ورجل نَدِيٌّ الصوت: بعيده. والإنداء: بُعْد مدى الصوت. وندى الصوت: بُعْدُ مذهبه. والنِّداء، ممدود: الدعاء بأرفع الصوت، وقد ناديته نداء، وفلان أندى صوتا من فلان أي أبعد مذهبا وأرفع صوتا.. وفي التهذيب: قال: نادى: ظهر، وناديته: أعلمتُه، ونادى الشيء: رآه وعلمه». (ابن منظور، ج15 ص ص315-316)

ورد ذكر النداء والمناداة في الآيتين 39 و193 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى﴾، ﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم﴾؛ وفي الآية 58 من سورة المائدة؛ وفي الآيات 22 و43 و44 و46 و48 و50 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 42 و45 من سورة هود؛ وفي الآية 52 من سورة الكهف؛ وفي الآيات 3 و24 و52 من سورة مريم؛ والآية 11 من سورة طه؛ وفي الآيات 76 و87 و89 من سورة الأنبياء؛ والآية العاشرة من سورة الشعراء؛ وفي الآيات الثامنة والتاسعة والعاشرة من سورة النمل؛ وفي الآيات 30 و46 و62 و65 و74 من سورة القصص؛ والآية 29 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 75 و104 من سورة الصافات؛ وفي الآيتين 3 و41 من سورة ص؛ وفي الآيتين 10 و32 من سورة غافر؛ وفي الآيتين 51 و77 من سورة الزخرف؛ والآية الرابعة من سورة الحجرات؛ وي الآية 41 من سورة ق؛ وفي الآية 29 من سورة القمر؛ والآية 14 من سورة الحديد؛ وفي الآية التاسعة من سورة الجمعة؛ وفي الآيتين 21 و48 من سورة القلم؛ وفي الآيات 15 و16 و23 من سورة النازعات.

المبحث الثالث

التلاوة والترتيل

القرآن أفضل نص عرفته البشرية، بكل المقاييس. فهو الأبلغ والأفيد والأكثر تأثيرا في المتلقي. فهو الرسالة التواصلية الفعالة للإسلام التي لم ولن يشوبها أي تشويش - حسب المفاهيم التواصلية - أو إطناب أو تقادم. والقرآن هو كلام الله عز وجل، تخشع القلوب عند سماعه، وتفيض أعين المؤمنين بالدمع كلما شنف آذانهم. وتأثير القرآن المقروء على المتلقين، تعدى المؤمنين به إلى الكفار الذين كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم خشية أن يتأثروا به، وكان بعضهم يسترق السمع متخفيا حتى يستمتع ببلاغته وحلاوته، كما بلغ تأثير هذا القرآن الجن الذين قالوا إنهم سمعوا قرآنا عجبا.

لكل هذا، فإن المسلمين برعوا في قراءة القرآن الكريم مرتكزين إلى جمالية الأصوات وشحنات الطرب والخشوع النابعة من النص القرآني. وقد انفرد القرآن الكريم ببعض الألفاظ التي تدل على القراءة كالتلاوة والترتيل والتزيين والتجويد. وقد بين ابن منظور في معجمه «لسان العرب» دلالة بعض هذه الألفاظ وعلاقتها بقراءة القرآن.

ففي مادة «تلا» أورد ما يلي:

«تلوت القرآن تلاوة: قرأته، وعم به بعضهم كل كلام.. وقوله عز وجل: فالتاليات ذكرا؛ قيل: هم الملائكة، وجائز أن يكونوا الملائكة وغيرهم ممن يتلو ذكر الله تعالى. [قال] الليث: تلا يتلو تلاوة يعني قرأ قراءة. وقوله تعالى: الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته؛ معناه يتبعونه حق اتباعه ويعملون به حق عمله. وقوله عز وجل: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان؛ قال عطاء: على ما تُحَدِّث وتقُصّ، وقيل: ما تتكلم به كقولك فلان يتلو كتاب الله أي يقرؤه ويتكلم به». (ابن منظور، ج14 ص104)

وورد عن الترتيل: «رتَّل الكلام: أحسن تأليفه وأبانه وتمهل فيه. والترتيل في القراءة: الترسّل فيها والتبيين من غير بغي. وفي التنزيل العزيز: ورتل القرآن ترتيلا؛ قال أبو العباس: ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين والتمكين، أراد في قراءة القرآن؛ وقال مجاهد: الترتيل الترسل، قال: ورتلته ترتيلا بعضه على أثر بعض؛ وقال أبو منصور: ذهب به إلى قولهم ثغر رَتَلٌ إذا كان حسن التنضيد، وقال ابن عباس في قوله: ورتل القرآن ترتيلا؛ قال: بيّنه تبيينا؛ وقال أبو إسحق: والتبيين لا يتم بأن يعجل في القراءة، وإنما يتم التبيين بأن يبيّن جميع الحروف ويوفيها حقها من الإشباع؛ وقال الضحاك: انْبِذْه حرفا حرفا. وفي صفة قراءة النبي ﷺ: كان يرتل آية آية؛ ترتيل القراءة: التأني فيها والتمهُّل وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالثغر المُرَتَّل، وهو المشبّه بنور الأُقحوان، يقال رتل القراءة وترتّل فيها. وقوله عز وجل: ورتلناه ترتيلا، أي أنزلناه على الترتيل، وهو ضد العجلة والتمكُّن فيه؛ هذا قول الزجاج. وترتّل في الكلام: ترسّل، وهو يترتل في كلامه ويترسّل». (ابن منظور، ج11ص265)

وفي مادة «زين»: «في الحديث: زيّنوا القرآن بأصواتكم؛ [قال] ابن الأثير:

قيل هو مقلوب أي زينوا أصواتكم بالقرآن، والمعنى الهجوا بقراءته وتزيّنوا به، وليس ذلك على تطريب القول والتحزين كقوله: ليس منا من لم يتغن بالقرآن أي يلهج بتلاوته كما يلهج سائر الناس بالغناء والطرب، قال هكذا قال الهَرَوي والخطابي ومن تقدمهما، وقال آخرون: لا حاجة إلى القلب، وإنما معناه الحث على الترتيل الذي أمر به في قوله تعالى: ورتل القرآن ترتيلا؛ فكأن الزّينة للمرتل لا للقرآن.. فكذلك قوله: زينوا القرآن بأصواتكم، يدل على ما يزين من الترتيل والتدبر ومراعاة الإعراب، وقيل: أراد بالقرآن القراءة، وهو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا أي زينوا قراءتكم القرآن بأصواتكم، قال: ويشهد لصحة هذا وأن القلب لا وجه له حديث أبي موسى: أن النبي ﷺ، استمع إلى قراءته، فقال: لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود، فقال: لو علمت أنك تسمع لحَبَّرْتُه لك تحبيرا أي حسّنت قراءته وزيّنتها، ويؤيد ذلك تأييدا لا شبهة فيه حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ، قال: لكل شيء حِلية وحِلية القرآن حُسْنُ الصوت». (ابن منظور، ج13 ص202)

وفضل تلاوة القرآن وترتيله، ثابت من خلال السنة النبوية الشريفة. فقد روى أبو داود في السنن، قائلا: «حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ حَدَّثَنَا أَبَانُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَس قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأترجة رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ ولا رِيحَ لَهَا وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مَرٌّ وَلا رِيحَ لَهَا». (ش. صخر، 1997)

وروى ابن ماجه الحديثين الآتيين: «.. عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ يَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ»؛ «حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى أَنْبَأَنَا شَيْبَانُ

عَنْ فِرَاسٍ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الجَنَّةَ اقْرَأْ وَاصْعَدْ فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَه».

وقد ورد ذكر التلاوة والترتيل في سبع آيات من سورة البقرة، إذ قال تعالى في الآية 44: «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون»، وفي الآية 102: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾، والآية 113: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾، وفي الآية 121: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾، والآية 129: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك﴾، وفي الآية 151: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا﴾، والآية 252: «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين»؛ وورد ذكر التلاوة في الآيات 58 و78 و93 و101 و108 و113 و164 من سورة آل عمران؛ والآية 127 من سورة النساء؛ وفي الآية 27 من سورة المائدة؛ والآية 151 من سورة الأنعام؛ وفي الآية 175 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 2 و31 من سورة الأنفال؛ وفي الآيات 15 و16 و61 و71 من سورة يونس؛ والآية 17 من سورة هود؛ وفي الآية 30 من سورة الرعد؛ والآية 107 من سورة الإسراء؛ وفي الآيتين 27 و83 من سورة الكهف؛ وفي الآيتين 58 و73 من سورة مريم؛ وفي الآيتين 30 و72 من سورة الحج؛ وفي الآيتين 66 و105 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآية 32 من سورة الفرقان؛ والآية 69 من سورة الشعراء؛ والآية 92 من سورة النمل؛ وفي الآيات 3 و45 و53 و59 من سورة القصص؛ وفي الآيات 45 و48 و51 من سورة العنكبوت؛ والآية السابعة من سورة لقمان؛ والآية 34 من سورة الأحزاب؛ وفي الآية 43 من سبأ؛ وفي الآية 29 من سورة فاطر؛ وفي الآية الثالثة من سورة الصافات؛ والآية 71 من سورة الزمر؛ وفي

الآية 44 من سورة فصلت؛ وفي الآيات 6 و8 و25 و31 من سورة الجاثية؛ وفي الآية السابعة من سورة الأحقاف؛ والآية الثانية من سورة الجمعة؛ وفي الآية 11 من سورة الطلاق؛ وفي الآية 15 من سورة القلم؛ وفي الآيتين 4 و20 من سورة المزمل؛ وفي الآيتين 17 و18 من سورة القيامة؛ وفي الآية 13 من سورة المطففين؛ والآية الثانية من سورة البينة.

المبحث الرابع

أصـــناف الحـديث والقــول

تُقدَّم رسائل اللغة اللفظية للمتلقين وفقا لمقتضيات السياق التواصلي الزمانية والمكانية، لذلك قال العرب: «لكل مقام مقال». وإذا أخذنا الصوت باعتباره العنصر الأول في اللغة اللفظية، يمكن أن نصنف الرسائل اللفظية إلى رسائل تواصلية عادية تُستهلك في الحياة اليومية الهدف منها الإخبار والتعبير عن المواقف والعواطف والانفعالات، ورسائل إقناعية تهدف إلى التأثير على المتلقين، باستخدام طبقات الصوت المختلفة والكلمات المنتقاة والظرف المناسب.

وفي هذا السياق يمكن التطرق لما ورد في القرآن الكريم من ذكر للحديث، واللغو، والمناجاة، والكلام، وأصناف القول الأخرى التي تم التركيز عليها في سياق الآيات القرآنية.

1 - الحديث

يُفْهَم من لفظة: «حديث» التواصل اللغوي العادي الذي يتداوله الناس في

حياتهم اليومية؛ ويفهم منها أيضا، المحادثة (الحوار) بين شخصين أو أكثر؛ والحكي أو سرد القصص والأخبار؛ وكذا المحاضرة وإلقاء الدروس في حضرة الآخرين. وقد ورد في قاموس «لسان العرب»: «الحديث: ما يُحَدّثُ به المُحَدِّثُ تحديثا؛ وقد حدّثه الحديث وحَدَّثه به. [قال] الجوهري: المحادثة والتحادث والتحدُّث والتحديث: معروفات..

ورجل حَدِثٌ وحِدْثٌ وحِدِّيثٌ ومحدِّث، بمعنى واحد: كثير الحديث، حسن السياق له.. وفلان حِدْثُك أي مُحَدِّثُك، والقوم يتحادثون ويتحدثون، وتركت البلاد تَحَدَّثُ أي تسمع فيها دويا؛ حكاه ابن سيده عن ثعلب..

ويقال للرجل الصادق الظّنّ: مُحَدَّثٌ، بفتح الدال مشددة. وفي الحديث: قد كان في الأمم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد، فعمر بن الخطاب؛ جاء في الحديث: تفسيره أنهم المُلْهَمون؛ والمُلْهَم: هو الذي يُلْقَى في نفسه الشيء، فيخبر به حدسا وفِراسة، وهو نوع يخص الله به من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل عمر، كأنهم حُدِّثوا بشيء فقالوه». (ابن منظور، ج2 ص ص133-134)

وقد ورد ذكر الحديث في الآية 76 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون﴾؛ وقال تعالى في الآيات 78 و87 و140 من سورة النساء: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾، «الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا»، ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾؛ وفي الآية 68 من سورة الأنعام: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى

يخوضوا في حديث غيره﴾؛ والآية 185 من سورة الأعراف: «أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾؛ وقال تعالى في الآيات 6 و21 و101 و111 من سورة يوسف: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾، ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾، ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾، ﴿ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

فسّر الإمام الرازي قوله تعالى ﴿تأويل الأحاديث﴾ الوارد في سورة يوسف، بقوله: «فيه وجوه: الأول: المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلا لأنه يؤول أمره إلى ما رآه في المنام يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم. قالوا: إنه عليه السلام كان في علم التعبير غاية، والثاني: تأويل الأحاديث في كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين، كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله، وتأويل الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ، والثالث: الأحاديث جمع حديث، والحديث هو الحادث، وتأويلها مآلها، ومآل الحوادث إلى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته، والمراد من تأويل الأحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته». (ت. ر. ج18م9ص ص91-92)

كما ورد ذكر الحديث في الآية السادسة من سورة الكهف؛ وفي الآية التاسعة من سورة طه؛ وفي الآية الثانية من سورة الأنبياء؛ والآية 44 من سورة «المؤمنون»؛ والآية السادسة من سورة لقمان؛ وفي الآية 19 من سورة سبأ؛ والآية 23 من سورة الزمر؛ وورد في سور الذاريات الآية 24 والنازعات الآية 15 والبروج الآية 17 والغاشية الآية الأولى، تعبير: «هل أتاك حديث» بمعنى

هل أتاك نبأ أو خبر.. ؛ كما ورد ذكر الحديث في الآية 34 من سورة الطور؛ وفي الآية 59 من سورة النجم؛ والآية 81 من سورة الواقعة؛ وفي الآية 44 من سورة القلم؛ وفي الآية 50 من سورة المرسلات؛ والآية 11 من سورة الضحى؛ والآية الرابعة من سورة الزلزلة.

2 - اللغــــو

جاء في «لسان العرب» تحت مادة «لغا»: «اللّغْو واللّغا: السقط وما لا يُعْتَدُّ به من كلام وغيره ولا يُحْصل منه على فائدة ولا نفع.. وقوله عز وجل: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم؛ اللغو في الأيمان: ما لا يَعْقِدُ عليه القلب مثل قولك لا والله وبلى والله. قال الفراء: كأن قول عائشة إن اللغو ما يجري في الكلام على غير عقد، قال: وهو أشبه ما قيل فيه بكلام العرب. قال الشافعي: اللغو في لسان العرب الكلام غير المعقود عليه، وجماع اللغو هو الخطأ إذا كان اللجاج والغضب والعجلة.. يقال: لغا إذا تكلم بالمطّرَح من القول وما لا يعني، وألغى إذا أسقط.. وكلمة لاغية: فاحشة. وفي التنزيل العزيز: لا تسمع فيها لاغية؛ هو على النسب أي كلمة ذات لغو، وقيل أي كلمة قبيحة أو فاحشة، وقال قتادة أي باطلا ومأثما، وقال مجاهد: شتما.. واللغا: الصوت مثل الوغى. وقال الفراء في قوله تعالى: لا تسمعا لهذا القرآن والغوا فيه، قال كفار قريش: إذا تلا محمد القرآن فالغوا فيه أي الغطوا فيه، يُبَدَّل أو ينسى فتغلبوه. قال الكسائي: لغا في القول يلغي، وبعضهم يقول يلغو، ولغي يلغى، لغة، ولغا يلغو لغوا: تكلم. وفي الحديث: من قال يوم الجمعة والإمام يخطب لصاحبه صَهْ فقد لغا أي تكلم، وقال ابن شميل: فقد لغا أي فقد خاب. وألغيته أي خيبته. وفي الحديث: من مسّ الحصا فقد لغا أي تكلم، وقيل: عدل عن الصواب.. وفي التنزيل العزيز: إذا مروا باللغو؛ أي مروا بالباطل». (ابن منظور، ج15 ص ص250-251)

وبناء على هذه المعاني الواردة لكلمة لغو، نجد أن فعل اللغو يترك تأثيرا سلبيا على مسامع الناس ومزاجهم، إذا كان اللغو متضمنا لكلمات نابية أو قبيحة في لفظتها غير مستساغة، أو متضمنا لهرج ومرج. ومن هنا جاءت دعوة البلاغة العربية إلى تخير الألفاظ من حيث سلاستها وحسن وقعها على النفس. ويعدّ اللغو سلوكا اتصاليا سلبيا، عندما يصبح مصدرا للإزعاج بمعناه الفصيح والدارج.

ورد ذكر اللغو في الآية 225 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم»؛ وفي الآية 89 من سورة المائدة: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾؛ والآية 62 من سورة مريم: ﴿لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما﴾؛ وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة «المؤمنون»: «والذين هم عن اللغو معرضون»؛ وفي الآية 72 من سورة الفرقان: «والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما»؛ والآية 55 من سورة القصص: «وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين»؛ وقال تعالى في الآية 26 من سورة فصلت: «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»؛ وفي الآيتين 25 و26 من سورة الواقعة: «لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما»؛ وقال تعالى في الآية 35 من سورة النبأ: «لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا»؛ وفي الآية 11 من سورة الغاشية: «لا تسمع فيها لاغية».

3 - النجــوى

النجوى هو الحديث بصوت منخفض يتبادله اثنان على سبيل السرّ، عكس ما يحدث في بعض أشكال اللغو. وقد جاء في «لسان العرب» تحت مادة نجا:

«النجـوى والنَّجـيُّ: السـرّ. والنَّجـو: السـر بين اثنين، يقـال نَجَـوْته نجـوا أي سـاررته، وكذلك ناجيته، والاسم النجوى.. وفي حديث الدعـاء: اللهم بمحمد نبيك وبموسى نجيّك؛ هو المناجي المخاطِب للإنسان والمحدث له، وقد تناجيا مناجـاة وانتـجـاء. وفي الحـديث: لا يتناجى اثنان دون الثـالـث، وفي رواية: لا ينتـجي اثنان دون صـاحـبهـمـا أي لا يتسـارران منفردين عنه لأن ذلك يسوءُه. وفي حديث علي، كرم الله وجهه: دعـاه رسول الله ﷺ يوم الطائف فانتجاه فقال الناس: لقد طال نجواه! فقال: ما انتجيته ولكن الله انتجاه! أي أمرني أن أناجيه.. والنَجِيُّ: المتناجون. وفلان نجيُّ فلان أي يناجيه دون من سواه. وفي التنزيل العزيز: فلما استيأسـوا منه خلصوا نجيا؛ أي اعتزلوا متناجين، والجمع أنجيـة.. وفي التنزيل العزيز: لا خير في كثيـر من نجواهم؛ قال أبو اسحق: معنى النجوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة والاثنان، سرا كان أو ظاهرا: وقوله أنشده ثعلب:

يخرُجْنَ من نجيّه للشاطي

فسره فقـال: نجيه هنا صوته، وإنما يصف حاديا سَوَّاقا مُصَوِّتا». (ابن منظور، ج15 ص ص308-309)

والنجوى، كما وردت في القرآن والحديث، من السلوكات التواصلية المنهي عنها، كما يوضح ابن عاشور في تفسيره:

«النجوى مـصدر، هي المَسارّة في الحديث، وهي مشتقة من النجو، وهو المكان المسـتـتـر الذي المفـضِي إليـه ينجـو من طالبـه، ويطلق النجـوى على المتناجين.. شـأن المحـادثات والمحـاورات أن تكون جـهـرة، لأن الصـراحـة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلا في أحوال شاذة يناسبها إخفاء الحديث. فمن يناجي في غير تلك الأحوال رُمي بأن شأنه ذميم.. وقد

نهى الله المسلمين عن النجوى غير مرة، لأن التناجي من شأن المنافقين.. وقد ظهر من نهي النبي ﷺ أن يتناجى اثنان دون ثالث أن النجوى تبعث الريبة في مقاصد المتناجين، فعلمنا من ذلك أنها لا تغلب إلا على أهل الرَيب والشبهات، بحيث لا تصير دأبا إلا لأولئك، فمن أجل ذلك نفى الله الخير عن أكثر النجوى». (ت. ع، ج4 ص ص252-253) وقد روى الإمام مالك حديث رسول الله ﷺ، قائلا: «.. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِذَا كَانَ ثلاثة فلا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ». (ش. صخر، 1997)

ورد ذكر النجوى في الآية 114 من سورة النساء، إذ قال تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾؛ وفي الآية 78 من سورة التوبة: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾؛ وقال تعالى في الآية 47 من سورة الإسراء: ﴿نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى﴾؛ وفي الآية الثالثة من سورة الأنبياء: «لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون»؛ والآية 80 من سورة الزخرف: «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون».

وتضمنت سورة المجادلة ست آيات يتحدثن عن النجوى، إذ قال تعالى في الآيات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة: «ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم. ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير. يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى

واتقوا الله الذي إليه تحشرون. إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون»، وقال تعالى في الآيتين 12 و13: «يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم. أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون».

4 - الكـــلام

يوضح لنا قاموس اللغة العربية الكلام، بدءا من كلام الله عز وجلّ. فقد جاء في «لسان العرب» تحت مادة كلم:

«القرآن: كلام الله وكَلِم الله وكلماته وكلمته، وكلام الله لا يُحدّ ولا يُعدّ، وهو غير مخلوق تعالى الله عما يقول المفترون علوا كبيرا. وفي الحديث: أعوذ بكلمات الله التامات؛ قيل: هي القرآن؛ قال ابن الأثير: إنما وَصَف كلامه بالتمام لأنه لا يجوز أن يكون في شيء من كلامه نقص أو عيب كما يكون في كلام الناس، وقيل: معنى التمام هاهنا أنها تنفع المتعوذ بها وتحفظه من الآفات وتكفيه. وفي الحديث: سبحان الله عدد كلماته؛ كلمات الله أي كلامه، وهو صفته وصفاته لا تنحصر بالعدد، فذكر العدد هاهنا مجاز بمعنى المبالغة في الكثرة.. [قال] ابن سيده: الكلام القول، معروف، وقيل: الكلام ما كان مكتفيا بنفسه وهو الجملة، والقول ما لم يكن مكتفيا بنفسه، وهو الجزء من الجملة؛ قال سيبويه: اعلم أنّ قُلْت إنما وقعت في الكلام على أن يُحكى بها ما كان كلاما لا قولا، ومن أدلّ الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا القرآن كلام الله ولا يقولوا القرآن قول الله، وذلك أنّ هذا موضع ضيق متحجر لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فَعُبِّر

لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتا تامة مفيدة؛ قال أبو الحسن: ثم إنهم قد يتوسعون فيضعون كل واحد منهما موضع الآخر؛ ومما يدل على أن الكلام هو الجمل المتركبة في الحقيقة قول كثيِّر:

لو يسمعون كما سمعت كلامها خـرّوا لعـزّة رُكّعـا وسجـودا

فمعلوم أن الكلمة الواحدة لا تُشجي ولا تُحزن ولا تتملك قلب السامع، وإنما ذلك فيما طال من الكلام وأمتع سامعيه لعذوبة مُسْتَمَعِه ورقّة حواشيه». (ابن منظور، ج12 ص ص522-523)

وقد ورد ذكر فعل الكلام (أي الكلام كسلوك) في الآيات 118 و174 و253 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾، «إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»، ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 46 و77 من سورة آل عمران: «ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين»، ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله﴾؛ وفي الآية 164 من سورة النساء: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾؛ وقال تعالى في الآية 110 من سورة المائدة: ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا﴾؛ وفي الآية 111 من سورة الأنعام: «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون».

كما ورد ذكر الكلام في الآيتين 143 و148 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 105 من سورة هود؛ والآية 54 من سورة يوسف؛ وفي الآية 31 من سورة الرعد؛ وفي الآية 29 من سورة مريم؛ والآية 108 من سورة المؤمنون؛ وفي الآية 16 من سورة

النور؛ وفي الآية 82 من سورة النمل؛ والآية 35 من سورة الروم؛ والآية 65 من سورة يس؛ وفي الآية 51 من سورة الشورى؛ والآية 38 من سورة النبأ.

5 - أصناف القول

يعتبر الكذب من أبرز أصناف القول التي يمارسها بنو البشر. فمن السهل أن يقول الإنسان ما لا يفعل، لذا اكتسى السلوك غير اللفظي (المتجسد في معظم الأفعال) مصداقية أكثر من السلوك اللفظي (المتجسد في الأقوال).

وقد تضمن القرآن الكريم أنماطا للشخصية البشرية المتسمة بالكذب اللفظي، ألا وهم المنافقون الذين يقولون ما لا يشعرون ولا يفعلون. وقد وصفهم الله تعالى في الآية 167 من سورة آل عمران، بقوله: «وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون»؛ وقال تعالى عنهم في الآية 41 من سورة المائدة: «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم»؛ وفي الآية الثامنة من سورة التوبة: «كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون».

وفي الحديث الشريف، روى مسلم في باب: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا»: «عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كان فيه خَلّة منهنّ كان فيه خلة من نفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر». (المنذري، 2000، ص20)

ووردت إشارة في الآية 112 من سورة الأنعام إلى المحاولات التي يقوم بها الإنسان والجان على السواء لتنميق القول وتحسينه قصد التأثير في الآخرين، وذلك باستخدام جميع الأشكال البلاغية وتوظيف الصوت بإمكاناته المتعددة، فضلا عن إيراد البيانات والمعلومات والأفكار الكاذبة. قال تعالى: «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون».

فسّر ابن عاشور الزخرف الوارد في هذه الآية، بقوله: «الزخرف: الزينة، وسمي الذهب زخرفا لأنه يتزيّن به حليا، وإضافة الزخرف إلى القول من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي القول الزخرف، وهو من الوصف بالجامد الذي في معنى مشتق، إذ كان بمعنى الزيْن. وأفهم وصف القول بالزخرف أنه محتاج إلى التحسين والزخرفة، وإنما يحتاج القول إلى ذلك إذا كان غير مشتمل على ما يكسبه القبول في حدّ ذاته، وذلك أنه كان يفضي إلى ضُرّ يحتاج قائله إلى تزيينه وتحسينه لإخفاء ما فيه من الضر، خشية أن ينفر عنه من يسوله لهم، فذلك التزيين ترويج يستهوون به النفوس، كما تموّه للصبيان اللُّعب بالألوان والتذهيب». (ت. ع، ج7 ص ص8-9)

ومن بين أصناف القول الوارد ذكرها في القرآن الكريم، القول اللين والميسور الذي يهدف إلى ترغيب الناس والتأثير فيهم دون أن يثير حفيظتهم أو يشعرهم بالاستفزاز.

قال تعالى في الآية 159 من سورة آل عمران: «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم

وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين»؛ وفي الآيتين 43 و44 من سورة طه: «اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى»..

وجاء في تفسير لين القول: «اللين من شعار الدعوة إلى الحق، قال تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[النحل: 125] وقال: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ [آل عمران: 159]. ومن اللين في دعوة موسى لفرعون قوله تعالى: ﴿فقل هل لك أن تزكّى وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [النازعات:18، 19] وقوله: ﴿السلام على من اتبع الهدى﴾[الكهف: 47]، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى. فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه». (ت. ع، ج16 ص124)

وقال تعالى في الآية 28 من سورة الإسراء: «وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا». أورد الإمام الرازي في تفسير القول الميسور: «.. وفي تفسير القول الميسور وجوه: الأول: القول الميسور هو الرد بالطريق الأحسن. والثاني: القول الميسور اللين السهل قال الكسائي: يسرت أيسر له القول أي لينته له. والثالث: قال بعضهم: القول الميسور مثل قوله ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ قالوا: والميسور هو المعروف، لأن القول المتعارف لا يحتاج إلى تكلف والله أعلم». (ت. ر. ج20ص197)

وورد ذكر اللمز في سور التوبة والحجرات والهمزة. واللمز في اللغة العربية: «كالغمز في الوجه تلْمِزه بفيك بكلام خفي، قال وقوله تعالى: ومنهم من يلمزك في الصدقات؛ أي يحرك شفتيه». (ابن منظور، ج5 ص406)

قال تعالى في الآيتين 58 و79 من سورة التوبة: «ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون»، «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا

جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم»؛ وقال تعالى في الاية 11 من سورة الحجرات: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾؛ وفي الآية الأولى من سورة الهمزة: «ويل لكل همزة لمزة».

وقد فسّر ابن عاشور اللمز الوارد في سورة الحجرات، بقوله: «اللمز: ذكر ما يَعُده الذاكر عيبا لأحد مواجهة فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلا فهو وقاحة وكذب، وكان شائعا بين العرب في جاهليتهم قال تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ يعني نفرا من المشركين كان دأبهم لمز رسول الله ﷺ، ويكون بحالة من الإشارة والكلام بتحريك الشفتين بكلام خفيّ يعرِف منه المواجه به أنه يُذمّ أو يتوعد، أو يتنقص باحتمالات كثيرة، وهو غير النبز وغير الغيبة. وللمفسرين وكتب اللغة اضطراب في شرح معنى اللمز وهذا الذي ذكرته هو المنخول من ذلك». (ت.ع، ج26 ص ص206-207)

ومن بين أصناف القول الواردة في القرآن الكريم: القول الثقيل، الذي ورد في سورة المزمل، إذ قال تعالى في الآيتين الخامسة والسادسة: «إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلا». وقد أورد الإمام الرازي عشرة تفسيرات للقول الثقيل، نختصرها فيما يلي:

«ذكروا في تفسير الثقيل وجوها (أحدها) وهو المختار عندي أن المراد من كونه ثقيلا عظم قدره وجلالة خطره.. وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء ﴿قولا ثقيلا﴾ يعني كلاما عظيما.. (وثانيها) قالوا المراد بالقول الثقيل، القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين عامة، وعلى رسول الله خاصة.. (وثالثها) روي عن الحسن: أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة، وهو إشارة إلى كثرة منافعه. وكثرة الثواب في العمل به (ورابعها) المراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يثقل عند نزول الوحي إليه..

(وخامسها) قال الفراء: قولا ثقيلا، أي ليس بالخفيف ولا بالسفساف، لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى (وسادسها) قال الزجاج: معناه أنه قول متين في صحته وبيانه ونفعه، كما تقول هذا كلام رزين، وهذا قول له وزن إذا كنت تستجيده، وتعلم أنه وقع موقع الحكمة والبيان (وسابعها) قال أبو علي الفارسي، إنه ثقيل على المنافقين، من حيث إنه يهتك أسرارهم.. (وثامنها) أن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه ولا يزول، فجعل الثقيل كناية عن بقاء القرآن، على وجه الدهر.. (وتاسعها) أنه ثقيل، بمعنى أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده ومعانيه بالكلية، فالمتكلمون غاصوا في بحار مقولاته، والفقهاء أقبلوا على البحث عن أحكامه، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعاني، ثم لايزال كل متأخر يفوز منه فوائد ما وصل إليها المتقدمون.. (وعاشرها) أنه ثقيل، لكونه مشتملا على المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والفرق بين هذه الأقسام مما لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون، المحيطون بجميع العلوم العقلية والحكمية، فلما كان كذلك لا جرم كانت الإحاطة به ثقيلة على أكثر الخلق». (ت. ر. ج30 ص ص175-176)

وفي الآية 32 من سورة الأحزاب إشارة هامة إلى ضرورة ملاءمة القول للسياق أخذاً في الاعتبار طبيعة المتلقي، خاصة إذا كان للمتحدث سمات صوتية خاصة قد تحمل في طياتها رسائل تواصلية إغرائية غير متعمدة، كما هو الشأن مع أصوات النساء التي تطغى عليها الطبقة الصوتية الرقيقة (السوبرانو).

قال تعالى لنساء النبي ﷺ باعتبار خصوصيتهم مقارنة ببقية النساء: «يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا». أورد ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى ﴿فلا تخضعن بالقول﴾: «.. ابتدئ من ذلك بالتحذير من هيئة الكلام فإن

الناس متفاوتون في لينه، والنساء في كلامهن رقة طبيعية وقد يكون لبعضهن من اللطافة ولين النفس ما إذا انضمّ إلى لينها الجبليّ قُربت هيئته من هيئة التدلل لقلة اعتياد مثله إلا في تلك الحالة. فإذا بدا ذلك على بعض النساء ظنّ بعض من يُشافِهُها من الرجال أنها تتحبّب إليه، فربما اجترأت نفسه على الطمع في المغازلة فبدرت منه بادرة تكون منافية لحرمة المرأة.. والخضوع: حقيقته التذلل، وأطلق هنا على الرقة لمشابهتها التذلل». (ت. ع، ج21 ص ص240-241) لذلك، لا يتوقع من أمهات المؤمنين، وهن من أشرف النساء - وقد عُرف عن معظمهن التحدث إلى الرجال رواية الأحاديث النبوية الشريفة - إلا أن يكون حديثهن جادا خاليا من المؤثرات والمزاح الخفي الذي قد يساء تفسيره.

المبحث الخامس

الســـمــع

إن الارتباط الوظيفي بين حاسة السمع والصوت، يجعل ذكر أحدهما دليلاً على وجود الآخر. فحاسة السمع لا تعمل دون انتقال الأصوات من مصادرها إلى الأذن بواسطة الهواء أو السوائل، كما أن الأصوات لا يمكن التحقق من وجودها إذا لم يتم إدراكها عبر حاسة السمع، لذا فإن كل إشارة لأمر يتعلق بالسمع تحيلنا مباشرة أو غير مباشرة إلى الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة.

تأتي حاسة السمع بعد حاسة البصر على صعيد التواصل البشري، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار كمية المعرفة المتلقاة من هذه القناة التواصلية. كما أن للسمع بعض السمات التي تعطيه الأفضلية مقارنة بالبصر كالقدرة على تخطّي الحواجز التي لا يستطيع الضوء - المرتبط بالبصر- اختراقها. أي إننا يمكن أن نتوصل ببعض الرسائل الاتصالية السمعية التي تنبئنا بحدث ما قبل أن نتمكن من رؤية ما حدث، إلا أن هذه الإمكانية قد تنعكس في بعض الأحيان لأن عملية الإبصار تتم أسرع من عملية السماع، نتيجة الفرق الشاسع بين سرعة الضوء وسرعة الصوت.

وقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى السمع باعتباره حاسة من بين الحواس التي أنعم الله بها على مخلوقاته، ومن ضمنها الإنسان؛ والى صفة السمع التي هي من صفات المولى عز وجل و«السميع» أحد أسماء الله الحسنى، إذ تتجلى في ذاته كمال هذه الصفة؛ وهناك إشارات متعددة إلى أفعال السمع التي تبين مختلف السلوكات السمعية التي يقوم بها الإنسان؛ وكذا الإشارة إلى تعمد القيام بحاسة السمع مع تركيز الانتباه، ليتحول السمع من مجرد عارض غير متحكم فيه إلى استماع بمحض الإرادة؛ وتضمن القرآن الكريم إشارات إلى عدم فعالية حاسة السمع بسبب اللامبالاة أو بسبب ابتلاء من لدن الله سبحانه وتعالى لبعض عباده؛ وفي الأخير ورد ذكر الفقد الكلي لحاسة السمع حقيقة أو مجازا، وهو ما يدعى بالصمم.

1 - السمع

ورد ذكر السمع باعتباره إحدى الحواس البشرية، والتي تستخدم في إدراك الأصوات، في الآية 20 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير»؛ وفي الآية 46 من سورة الأنعام: ﴿ قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ﴾؛ والآية 31 من سورة يونس: ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ﴾؛ وقال تعالى في الآية 20 من سورة هود: ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾؛ وفي الآية 18 من سورة الحجر: «إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين»؛ وورد ذكر السمع في الآيتين 78 و108 من سورة النحل؛ وفي الآية 36 من سورة الإسراء؛ والآية 78 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 212 و223 من سورة الشعراء؛

والآية التاسعة من سورة السجدة؛ وفي الآيتين 20 و22 من سورة فصلت؛ وفي الآية 23 من سورة الجاثية؛ والآية 26 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 37 من سورة ق؛ وفي الآية 23 من سورة الملك؛ والآية الثانية من سورة الإنسان.

2 - السميع

«السميع»: أحد أبنية المبالغة لفعل السمع، ورد في القرآن الكريم للدلالة على ارتباط السمع المطلق بالخالق سبحانه وتعالى. فـ«السميع» من أسماء الله الحسنى التي ترد في القرآن الكريم لتصف الله عز وجل، على سبيل الحقيقة، وتصف غيره على سبيل المجاز.

وقد ارتبطت صفة السميع بالعلم، كما ورد في سبع آيات من سورة البقرة، إذ نجد قوله تعالى ﴿ السميع العليم ﴾ و﴿ الله سميع عليم ﴾ في الآيات: 127 و137 و181 و224 و227 و244 و256؛ وكذا في الآيات 34 و35 و121 من سورة آل عمران؛ وفي الآية 148 من سورة النساء؛ وفي الآية 76 من سورة المائدة؛ وفي الآيتين 13 و115 من سورة الأنعام؛ والآية 200 من سورة الأعراف؛ وفي الآيات 17 و42 و53 و61 من سورة الأنفال؛ والآية 103 من سورة التوبة؛ وفي الآية 65 من سورة يونس؛ والآية 34 من سورة يوسف؛ وفي الآية الرابعة من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 21 و60 من سورة النور؛ والآية 220 من سورة الشعراء؛ وفي الآيتين 5 و60 من سورة العنكبوت؛ وفي الآية 36 من سورة فصلت؛ والآية الأولى من سورة الحجرات.

كما وردت صفة السميع مقترنة بصفة البصر وسابقة لها في الآيتين 58 و134 من سورة النساء: ﴿ إن الله كان سميعا بصيرا ﴾، ﴿ وكان الله سميعا بصيرا ﴾؛ وقال تعالى الآية الأولى من سورة الإسراء: ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾؛ وكذا في الآيتين 61 و75 من سورة الحج؛ والآية 28 من سورة

لقمان؛ وفي الآيتين 20 و56 من سورة غافر؛ والآية 11 من سورة الشورى.

وارتبط السمع في الآية 50 من سورة سبأ بالقرب، إذ قال تعالى: «قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب».

وفي الآية 38 من سورة آل عمران، ارتبط السمع بالدعاء، قال تعالى: «هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء»؛ وكذا في الآية 39 من سورة إبراهيم: «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء».

3 - فعل السمع

ورد ذكر السمع باعتباره سلوكا يُعْزى لله سبحانه وتعالى في الآية 181 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾؛ وقال تعالى في الآية 46 من سورة طه: «قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى»؛ وفي الآية 80 من سورة الزخرف: «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون»؛ والآية الأولى من سورة المجادلة: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير».

وورد ذكر السمع كسلوك إحساسي يقوم به الإنسان والجان على حد سواء في العديد من الآيات القرآنية، بدءا بسورة البقرة التي اشتملت على ست آيات، إذ قال تعالى في الآية 75: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون»، وفي الآية 93: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا

قالوا سمعنا وعصينا ﴾، والآية 104: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب اليم»، وفي الآية 171: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع﴾، والآية 181: «فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم»، والآية 285: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾.

وورد ذكر السمع في الآيتين 186 و193 من سورة آل عمران؛ وفي الآيتين 46 و140 من سورة النساء؛ وفي الآيات 7 و83 و108 من سورة المائدة؛ وفي الآية 36 من سورة الأنعام؛ والآية 198 من سورة الأعراف؛ وفي الآيات 20 و21 و23 و31 من سورة الأنفال؛ وفي الآية السادسة من سورة التوبة؛ والآية 67 من سورة يونس؛ وفي الآية 31 من سورة يوسف؛ وفي الآية 65 من سورة النحل؛ والآية 26 من سورة الكهف؛ وفي الآيات 38 و42 و62 و98 من سورة مريم؛ والآية 108 من سورة طه؛ وفي الآيات 60 و100 و102 من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 46 من سورة الحج؛ والآية 24 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيات 12 و16 و51 من سورة النور؛ وفي الآيتين 12 و44 من سورة الفرقان؛ والآية 72 من سورة الشعراء؛ وفي الآيتين 80 و81 من سورة النمل؛ وفي الآيات 36 و55 و71 من سورة القصص؛ وفي الآيتين 23 و53 من سورة الروم؛ وفي الآية السابعة من سورة لقمان؛ وفي الآيتين 12 و26 من سورة السجدة؛ وفي الآيتين 14 و22 من سورة فاطر؛ والآية 25 من سورة يس؛ والآية السابعة من سورة ص؛ والآية 26 من سورة فصلت؛ وفي الآية الثامنة من سورة الجاثية؛ والآية 30 من سورة الأحقاف؛ وفي الآيتين 41 و42 من سورة ق؛ وفي الآية 25 من سورة الواقعة؛ والآية الرابعة من سورة «المنافقون»؛ والآية 16 من سورة التغابن؛ وفي الآيتين السابعة والعاشرة من سورة الملك؛ والآية 51 من سورة القلم؛ وفي الآيتين 1 و13 من سورة الجن؛ وفي الآية 35 من سورة النبأ؛ والآية 11 من سورة الغاشية.

4 - فعل الاستماع والإصغاء

يميز اللغويون بين فعلي: «سمع» و«استمع»، باعتبار أن الثاني نابع من الرغبة المسبقة في تلقي الرسائل التواصلية الصوتية، لذا يقوم المستمع بتركيز انتباهه تفاديا لأي شكل من أشكال التشويش التي تعوق العملية التواصلية. ومن مرادفات فعل استمع: «أصغى» و«تسمّع». وجاء في «لسان العرب»: «صغا إليه سمعي يصغو صُغُوا وصَغِيَ يَصْغى صغا: مال. وأصغى إليه رأسه وسمعه: أماله. وأصغيت إلى فلان إذا ملت بسمعك نحوه». (ابن منظور، ج14ص461) والميل هنا دلالة على الرغبة في الانتباه لالتقاط كل الرسائل الصوتية.

وقد ورد ذكر الاستماع في الآية 25 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: «ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين»؛ وفي الآية 204 من سورة الأعراف: «وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون»؛ كما ورد ذكر السمع في الآية 42 من سورة يونس؛ والآية 47 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 13 من سورة طه؛ والآية الثانية من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 73 من سورة الحج؛ وفي الآية 15 من سورة الشعراء؛ وقال تعالى في الآية الثامنة من سورة الصافات: «لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب». يفسر الإمام الزمخشري قوله تعالى ﴿لا يسمعون﴾، قائلا:

«قرئ بالتخفيف [لا يَسْمَعون] والتشديد [لا يَسَّمَّعون]، وأصله: يتسمعون. والتسمع: تطلب السماع. يقال: تسمع فسمع، أو فلم يسمع. عن ابن عباس رضي الله عنهما: هم يتسمعون ولا يسمعون، وبهذا ينصر التخفيف على التشديد.. إن قلت: أي فرق بين سمعت فلانا يتحدث، وسمعت إليه يتحدث،

وسمعت حديثه، وإلى حديثه؟ قلت: المعدّى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك». (ت. ز، ج4 ص ص34-35)

وورد ذكر السمع في الآية 18 من سورة الزمر؛ وفي الآية 29 من سورة الأحقاف؛ والآية 16 من سورة محمد؛ وفي الآية 38 من سورة الطور؛ والآية التاسعة من سورة الجن.

وورد ذكر الإصغاء في سورتي الأنعام والتحريم. إذ قال تعالى في الآية 113 من سورة الأنعام: «ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون»؛ وفي الآية الرابعة من سورة التحريم: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾.

ووصف الله سبحانه وتعالى الأذن التي تعقل عن الله وتتفع بما سمعت من كتاب الله ، كما قال قتادة (البحر المحيط/322/8) (ت. ص، ج3، ص436) بأنها أذن واعية. إذ قال تعالى في الآية 12 من سورة الحاقة: «لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية».

وقال تعالى في الذين يبالغون في السمع في الآيتين 41 و42 من سورة المائدة: ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾؛ وفي الآية 47 من سورة التوبة: «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين».

5 - عدم فعالية السمع

إن صحة أعضاء السمع وصلاحيتها الحسيّة، لا يعني بالضرورة، القدرة

على السماع، إذ إن السمع ظاهرة فسيولوجية-نفسية معقدة، تتطلب استعدادا نفسيا وانتباها، حتى يستطيع السامع التمييز بين الأصوات وتذكّرها.

وقد ذكر الله في كتابه العزيز، تعطيله لحواس الكفار، حتى لا يتمكنوا من الإدراك بها، مع صلاحيتها على المستوى الوظيفي. قال تعالى في الآية السابعة من سورة البقرة: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم».

أورد الصابوني في تفسير قوله تعالى ﴿وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾: «أي وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء، فلا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون، لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطاة بحجب كثيفة، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه. قال أبو الحيان: شبّه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحق، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغطّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، وذلك لأنها كانت - مع صحتها وقوة إدراكها - ممنوعة عن قبول الخير وسماعه، وتلمح نوره، وهذا بطريق الاستعارة». (ت. ص، ج1 ص33) (البحر المحيط، 51/1)

وأضاف ابن عاشور: «ليس الختم على القلوب والأسماع ولا الغشاوة على الأبصار هنا حقيقة كما توهمه بعض المفسرين فيما نقله ابن عطية، بل ذلك جارٍ على طريقة المجاز بأن جعل قلوبهم أي عقولهم في عدم نفوذ الإيمان والحق والإرشاد إليها، وجعل أسماعهم في استكاكها عن سماع الآيات والنذر، وجعل أعينهم في عدم الانتفاع بما ترى من المعجزات والدلائل الكونية، كأنها مختوم عليها ومغشى دونها إما على طريقة الاستعارة بتشبيه عدم حصول النفع المقصود منها بالختم والغشاوة ثم إطلاق لفظ الختم على وجه التبعية

ولفظ الغشاوة على وجه الأصلية وكلتاهما استعارة حقيقية إلا أن المشبه محقق عقلا لا حسا. ولك أن تجعل الختم والغشاوة تمثيلا بتشبيه هيئة وهمية متخيلة في قلوبهم أي إدراكهم من التصميم على الكفر وإمساكهم عن التأمل في الأدلة بهيئة الختم.. ». (ت. ع، ج1 ص251)

ووردت إشارات أخر لهذا المعنى في سور الأعراف والكهف وفصلت. إذ قال تعالى في الآيات 100 و179 و195 من سورة الأعراف: «أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون»، «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون»، «ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 57 و101 من سورة الكهف: «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا»، «الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا»؛ وفي الآية الرابعة من سورة فصلت: «بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون».

6 - الصمم

الصمم هو حالة انتفاء حاسة السمع. وقد ورد ذكره في القرآن على سبيل الحقيقة والمجاز.

إذ قال تعالى في الآية 18 من سورة البقرة: «صم بكم عمي فهم لا يرجعون»؛ وفي الآية 71 من سورة الأنعام: «وحسبوا الا تكون فتنة فعموا

وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون»؛ والآية 39 من سورة الأنعام: ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾؛ وقال تعالى في الآية 22 من سورة الأنفال: «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون»؛ وفي الآية 24 من سورة هود: «مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون»؛ والآية 97 من سورة الإسراء: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما﴾؛ وقال تعالى في الآية 45 من سورة الأنبياء: «قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون»؛ وفي الآية 73 من سورة الفرقان: «والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا»؛ والآية 80 من سورة النمل: «إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين»؛ وقال تعالى في الآية 52 من سورة الروم: «فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين»؛ وفي الآية 40 من سورة الزخرف: «أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين»؛ والآية 23 من سورة محمد: «أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم».

المبحث السادس

النطق والصمت والتحكم في الكلام

نتطرق في هذا المبحث لبعض المظاهر غير اللفظية الأخرى المصاحبة للغة اللفظية، كالقدرة على النطق التي هي أساس اللغة اللفظية وتستمد منها تسميتها. إذ إن العجز عن النطق أو نطق الأصوات المكونة للغة (الحروف) بكيفية غير دقيقة، يفقد اللغة وظيفتها التواصلية المتمثلة في إيصال المعنى الصحيح. ويفتح الباب أمام التأويلات الخاطئة وربما تصبح الرسالة التواصلية رهينة بقدرة المتلقي على وضع هذه الرسالة في سياقها الصحيح. كما أن المقابل للنطق السليم للأصوات اللغوية هو الصمت، الذي قد يكون جزءا من الحديث يتخلل الكلمات والجمل، أو بسبب غياب الرسالة التواصلية في تلك اللحظة، أو بسبب موقف من المتحدث حيث آثر الصمت، أو يريد المتحدث أن يعطي الفرصة للمستمع ليتسلم زمام الحديث، أو بسبب العجز الكلي عن النطق كما في حالة البكم.

ويقودنا الحديث عن النطق والصمت إلى التحكم في الصوت أثناء الكلام،

من حيث رفعه في حالة الجهر بالقول، أو خفضه في حالة الإسرار والحديث المتخافت. كما تبرز الدعوة إلى غض الصوت تماشيا مع آداب السلوك الإسلامي، الذي رأينا سابقا، أنه ينهى عن اللغو وإزعاج الآخرين.

1 - النطـق

يرتبط النطق، في اللغة، ارتباطا وثيقا بالصوت، إذ لا يستطيع النطق مَنْ لا قدرة له على إصدار الأصوات من الأعضاء الجسدية المستخدمة لهذا الغرض والتي تمتد من الرئتين إلى الشفتين عند الإنسان وبعض الحيوانات الأخرى. ونجد في قاموس «لسان العرب» تحت مادة «نطق»:

«نطق ينْطِق نُطْقا: تكلم. والمنطق: الكلام. والمِنْطِيق: البليغ.. وقد أنطقه الله واستنطقه أي كلمه وناطقة. وكتاب ناطق بيّن، على المثل: كأنه ينطق.. وكلام كل شيء: منطقه.. وقد يستعمل المنطق في غير الإنسان كقوله تعالى: علمنا منطق الطير.. وتناطق الرجلان: تقاولا؛ وناطَقَ كلٌّ واحد منهما صاحبه: قاوله؛ وقوله أنشده ابن الأعرابي:

كأن صوت حليها المُناطق تهزُّج الرياح بالعشارق

أراد تحرك حليها كأنه يناطق بعضه بعضا بصوته. وقولهم: ما له صامت ولا ناطق؛ فالناطق الحيوان والصامت ما سواه، وقيل: الصامت الذهب والفضة والجوهر، والناطق الحيوان من الرقيق وغيره، سمي ناطقا لصوته. وصوت كل شيء: منطقه ونطقه». (ابن منظور، ج10 ص354)

قال تعالى في الآيتين 27 و28 من سورة طه على لسان سيدنا موسى عليه السلام: «واحلل عقدة من لساني. يفقهوا قولي». وقد أورد ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء» شرحا لهاتين الآيتين في قصة سيدنا موسى: «قيل إنه أصابه

في لسانه لثغة، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل، فاختبره بوضع ثمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ الثمرة فصرف المَلَك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها. فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقية.

ولهذا قال فرعون، قبحه الله، فيما زعم أنه يعيب به الكليم: ﴿ولا يكاد يبين﴾ أي يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده». (ابن كثير، ص369)

وفسّر ابن عاشور العقدة الواردة في الآية، بقوله: «العقدة: موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر منه، وهي بزنة فُعْلة بمعنى مفعول كقُبْضة وغُرفة؛ أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة لعدم تصرف اللسان عند النطق بالكلمة وهي استعارة مصرحة، ويقال لها حُبْسة. يقال: عَقِد اللسان كفرح، فهو أعقد إذا كان لا يبين الكلام. واستعار لإزالتها فعل الحل المناسب العقدة على طريقة الاستعارة المكنية». (ت. ع، ج16 ص ص113-114)

وقد ورد ذكر النطق وعدم القدرة عليه، في الآيتين 63 و65 من سورة الأنبياء، إذ قال تعالى: «قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون»، «ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون»؛ وقال تعالى في الآية 62 من سورة «المؤمنون»: «ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون»؛ وفي الآية 13 من سورة الشعراء: «ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون»؛ والآية 85 من سورة النمل:

«ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون»؛ وقال تعالى في الآية 92 من سورة الصافات: «ما لكم لا تنطقون»؛ وفي الآية 21 من سورة فصلت: «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون»؛ والآية 29 من سورة الجاثية: «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون»؛ وقال تعالى في الآية 23 من سورة الذاريات: «فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون»؛ وفي الآية الثالثة من سورة النجم: «وما ينطق عن الهوى»؛ والآية 35 من سورة المرسلات: «هذا يوم لا ينطقون»؛ والآية 30 من سورة محمد: «ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم».

2 - الصمت

الصمت، في اللغة، السكوت. وقد تم التعبير عنه في القرآن الكريم ببعض المفردات الدالة على حالات بعينها، كالكتمان للمعلومات والمعرفة، والإخفاء، والخرص أي العجز عن النطق. وكما رأينا في حديثنا عن النطق، فإن انعدام النطق يعني، بالضرورة، الصمت على المستوى الصوتي. ولابد من الإشارة إلى أن الصمت لا يعني انتفاء التواصل، فقد قيل: «إن في الصمت كلاماً».

وورد في «لسان العرب» ما يفيد علاقة الصمت بتوقف الكلام أو عدم القدرة عليه: «يقال للرجل إذا اعتَقَلَ لسانه فلم يتكلم: أَصْمَتَ، فهو مُصْمِتٌ.. وفي حديث أسامة بن زيد، قال: لما ثَقُلَ رسول الله ﷺ هبطنا وهبط الناس، يعني إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ يوم أَصْمَتَ فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء، ثم يَصُبُّها عليَّ، أعرف أنه يدعو لي؛ قال الأزهري: قوله يوم أَصْمَتَ؛ معناه: ليس بيني وبينه أحد؛ قال أبو منصور: يحتمل أن تكون الرواية يوم أَصْمَتَ، يقال: أَصْمَتَ العليل، فهو مصمت إذا اعتقل لسانه. وفي

الحديث: أصمتت أُمامة بنت العاص أي اعتقل لسانها؛ قال: وهذا صحيح عندي، لأن في الحديث: يوم أَصْمَتَ فلا يتكلم. قال محمد بن المكرم، عفا الله عنه: وفي الحديث أيضا دليل أظهر من هذا، وهو قوله: يرفع يده إلى السماء، ثم يصُبُّها عليَّ، أعرف أنه يدعو لي؛ وإنما عَرَف أنه يدعو له بالإشارة لا بالكلام والعبارة، لكنه لم يصح عنه أنه ﷺ في مرضه اعتقل يوما فلم يتكلم، والله أعلم. وفي الحديث: أن امرأة من أحْمَسَ حَجَّتْ مُصْمِتة أي ساكتة لا تتكلم». (ابن منظور، ج2 ص55)

وقد تضمن القرآن الكريم الإشارة إلى بعض حالات الصمت، مثل كتمان الشهادة كما جاء في الآية 283 من سورة البقرة: ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾؛ وقال تعالى في الآيات 29 و77 و118 و154 من سورة آل عمران: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾، ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله﴾، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم اكبر﴾، ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾؛ وفي الآية 42 من سورة النساء: «يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا»؛ والآية 15 من سورة المائدة: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب﴾.

وقال تعالى في الآيتين 116 و148 من سورة الأنعام: «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون»، ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾؛ ومثله في الآية 66 من سورة يونس؛ وقال تعالى في الآية 77 من سورة يوسف: ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 10

و26 من سورة مريم: «قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا»، «فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا»؛ وفي الآية 110 من سورة الأنبياء: «إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون»؛ والآية 108 من سورة «المؤمنون»: «قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون»؛ وقال تعالى في الآية 33 من سورة سبأ: ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾؛ وفي الآية 65 من سورة يس: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾؛ والآية 20 من سورة الزخرف: «وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون»؛ والآية 38 من سورة النبأ: «يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا».

3 - البكم

بالرغم من أن البكم هو الحالة التي تفقد فيها أعضاء النطق وظيفتها المتمثلة في إنتاج الأصوات، فإنه قد يطلق مجازا على العجز الجزئي والمؤقت عن النطق، أو النطق بما لا يفيد، كما جاء في القرآن الكريم في سور البقرة والأنعام والأنفال والنحل والإسراء.

قال تعالى في الآيتين 18 و171 من سورة البقرة: «صم بكم عمي فهم لا يرجعون»، «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون»؛ وفي الآية 39 من سورة الأنعام: ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾؛ والآية 22 من سورة الأنفال: «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون»؛ وقال تعالى في الآية 76 من سورة النحل: «وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على

مولاه أين ما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم»؛ وفي الآية 97 من سورة الإسراء: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا﴾.

4 - الكلام والتحكم في الصوت

يتحكم الإنسان في صوته أثناء الكلام، عادة برفع الصوت أو خفضه مراعاة لظروف تلقي الرسالة الاتصاليه عند المتلقي، أو لإضفاء معنى إضافي على مضمون الرسالة.

والحالة المألوفة لرفع الصوت تعرف بـ «الجهر». وقد تم تعريفه في قاموس «لسان العرب» كما يلي:

«الجهر: العلانية. وفي حديث عمر: أنه كان مِجْهَرا أي صاحب جَهْرٍ ورَفْعٍ لصوته. يقال: جَهَرَ بالقول إذا رفع به صوته، فهو جَهِير، وأَجْهَرَ الشيء: عَلَنَ وبدا؛ وجهر بكلامه ودعائه وصوته وصلاته وقراءته يجهر جهرا وجهارا، وأجهر بقراءته لغة. وأجهر وجهْوَرَ: أعلن به وأظهره، ويُعديان بغير حرف، فيقال: جهر الكلام وأجهره أعلنه. وقال بعضهم: جَهَرَ أعلى الصوت. وأجهر: أعلن. وكل إعلان: جهر. وجهرتُ بالقول أجهَر به إذا أعلنته. ورجل جَهير الصوت أي عالي الصوت، وكذلك رجل جهوريٌّ الصوت رفيعه. والجهوريُّ: هو الصوت العالي. وفرس جهور: وهو الذي ليس بأجشٍّ الصوت ولا أَغَنَّ.. وفي الحديث: فإذا امرأة جهيرة؛ أي عالية الصوت.. وفي حديث العباس: أنه نادى بصوت له جهوريٌّ أي شديد عال.. والحروف المجهورة: ضد المهموسة، وهي تسعة عشر حرفا؛ قال سيبويه: معنى الجهر في الحروف أنها حروف أُشْبِعَ الاعتماد في موضعها حتى منع النَّفَس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت، غير أن الميم والنون من جملة المجهورة وقد يعتمد لها في

الفم والخياشيم فيصير فيها غنة فهذه صفة المجهورة ويجمعها قولك: «ظِلّ قو ربض إذ غزا جندٌ مُطيع». ». (ابن منظور، ج4 ص150)

وقد ورد ذكر الجهر بالقول كسلوك يقوم به الإنسان من أجل إسماع الآخرين، في الآية 148 من سورة النساء، إذ قال تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة الرعد: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾؛ والآية السابعة من سورة طه: «وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى»؛ وقال تعالى في الآية 110 من سورة الأنبياء: «إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون»؛ وفي الآية 13 من سورة الملك: «وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور»؛ والآية السابعة من سورة الأعلى: «إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى».

إن من بين آداب الدين الإسلامي، غض الصوت وعدم رفعه، خاصة في حضرة من هم أعلى منزلة. ففي سورة لقمان، دعوة للإنسان لكي يتأدب بأن لا يرفع صوته، طالما يسمعه الآخرون؛ وفي سورة الحجرات نهي للمؤمنين بألا يرفعوا أصواتهم في حضرة رسول الله الكريم عليه أفضل الصلاة.

إذ قال تعالى في الآية 19 من سورة لقمان: «واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير»؛ وفي الآيتين الثانية والثالثة من سورة الحجرات: «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم».

وقد ذكر الإمام الرازي في المراد بقوله تعالى ﴿ولا ترفعوا أصواتكم﴾ عدة وجوه: «(أحدها) أن يكون المراد حقيقته، وذلك لأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام، وهذا من مسألة حكمية وهي أن الصوت بالمخارج

ومن خشي قلبه ارتجف وتضعف حركته الدافعة فلا يخرج منه الصوت بقوة، ومن لم يخف ثبت قلبه وقوي، فرفع الهواء دليل عدم الخشية، (ثانيها) أن يكون المراد المنع من كثر الكلام لأن من يكثر الكلام يكون متكلما عن سكوت الغير فيكون في وقت سكوت الغير لصوته ارتفاع وإن كان خائفا إذا نظرت إلى حال غيره فلا ينبغي أن يكون لأحد عند النبي ﷺ كلام كثير بالنسبة إلى كلام النبي ﷺ لأن النبي عليه الصلاة والسلام مبلغ، فالمتكلم عنده إن أراد الإخبار لا يجوز، وإن استخبر النبي عليه السلام عما وجب عليه البيان، فهو لا يسكت عما يسأل وإن لم يسأل، وربما يكون في السؤال حقيدة برد جواب لا يسهل على المكلف الإتيان به فيبقى في ورطة العقاب، (ثالثها) أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم أي لا تجعلوا لكلامكم ارتفاعا على كلام النبي ﷺ في الخطاب كما يقول القائل لغيره أمرتك مرارا بكذا عندما يقول له صاحبه مرني بأمر مثله، فيكون أحد الكلامين أعلى وأرفع من الآخر، والأول أصح والكل يدخل في حكم المراد، لأن المنع من رفع الصوت لا يكون إلا للاحترام وإظهار الاحتشام، ومن بلغ احترامه إلى حيث تخفض الأصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لا يكثر عنده الكلام، ولا يرجع المتكلم معه في الخطاب».
(ت. ر. ج28 م14 ص ص113-114)

ويضيف ابن عاشور مستشهدا ببعض الأحاديث النبوية: «الرفع: مستعار لجهر الصوت جهرا متجاوزا لمعتاد الكلام، شبه جهر الصوت بإعلاء الجسم في أنه أشدّ بلوغا إلى الأسماع كما أن إعلاء الجسم أوضح له في الإبصار، على طريقة الاستعارة المكنية، أو شبه إلقاء الكلام بجهر قوي بإلقائه من مكان مرتفع كالمئذنة على طريقة الاستعارة التبعية.. . وموقع قوله: ﴿فوق صوت النبي﴾ موقع الحال من ﴿أصواتكم﴾، أي متجاوزة صوت النبي ﷺ، أي متجاوزة المعتاد في جهر الأصوات فإن النبي ﷺ يتكلم بجهر معتاد. ولا

مفهوم لهذا الظرف لأنه خارج مخرج الغالب، إذ ليس المراد أنه إذا رفع النبي ﷺ صوته فارفعوا أصواتكم بمقدار رفعه.

والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وبحضرته إذا كلم بعضكم بعضا.. ولقد تحصل من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله ﷺ إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتا عنده.

وفي صحيح البخاري: قال ابن مليكة «كاد الخَيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ». وهذا النهي مخصوص بغير المواضع التي يؤمر بالجهر فيها كالأذان وتكبير يوم العيد، وبغير ما أذِن فيه النبي ﷺ إذنا خاصا كقوله للعباس حين انهزم المسلمون يوم حنين «نادِ يا أصحاب السَّمُرة» وكان العباس جهير الصوت». (ت. ع، ج26 ص ص183-184)

كما ارتبط رفع الصوت واستخدامه في الحث والتحريض بما هو سلبي، في الآية 64 من سورة الإسراء، حيث يوظف إبليس صوته بجميع الإمكانيات المتوفرة من دعاء وغناء وغيره ليضل الناس. قال تعالى: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾.

أما خفض الصوت، فقد يكون ناتجا عن الخوف والخشوع الذي يصيب الإنسان يوم القيامة عندما يرى الأهوال وهو في حضرة خالقه، كما ورد في سورة طه، إذ قال تعالى في الآيتين 103 و108: «يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا»، «يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا»؛ أو يكون ناتجا عن الرغبة في الإسرار وإخفاء مضمون الحديث عن بقية المستمعين، كما أخبرنا القرآن الكريم عن أصحاب البستان الذين كانوا يخفون كلامهم حتى لا يسمعهم المساكين، إذ قال تعالى عنهم في الآية 23 من سورة القلم: «فانطلقوا وهم يتخافتون».

الفصل العاشر

ترتيب البيئة

المقصود بترتيب البيئة، هو جعل الأشياء - بعد خلقها أو صناعتها - تأخذ طابعا وظيفيا عندما تتجاور أو تتفاعل مع غيرها من الأشياء، بحيث يبدو ناتج هذا التجاور أو التفاعل، منسجما ومشكّلا لبيئة متوحّدة. فعندما خلق الله الكون، جعل لكل مكوناته خصائص مميزة، وأوجد علاقات ارتباط بين تلك المكونات. علاقات تبين عظمة الخالق وإبداعه المطلق، الذي ينفي أي صدفة أو عشوائية على هذه العلاقات.

وعندما نتأمل البيئة المحيطة بنا، والتي هي ضمن إدراكنا المحدود، يتبين لنا الانسجام البديع والارتباط العضوي بين مكونات الأرض التي نعيش فيها من هواء وماء ويابسة بتضاريسها المختلفة وكائنات حية نباتية وحيوانية؛ والنظام المحكم لعلاقة كوكبنا الأرض بالأجرام السماوية المحيطة به. وعندما يضيف الإنسان من إبداعه الخاص لهذه البيئة، فهو يسعى - في أفضل الحالات - لأن يتواءم ما يصنعه مع البيئة الطبيعية، وكثيرا ما يخفق في هذا المسعى فيضر بالبيئة ويدفع الثمن غاليا.

إن التعرف إلى الكيفية التي رُتِّبت بها البيئة الطبيعية، يفيد الإنسان كثيرا في إعادة ترتيب بعض مكوناتها، كما يفعل بالقطاعين النباتي والحيواني، ومثلما يفعل أحيانا بتضاريس الأرض عندما يبني السدود ويغير مجاري الأنهار ويشق الطرق بين الجبال والأنفاق داخلها، ويحول الصحاري إلى مروج خضراء. ويستفيد الإنسان من التعرف إلى البيئة الطبيعية في إيجاد البيئة الاصطناعية التي تطور حياته وتجعلها أكثر يسرا ومتعة، من خلال صنع الأدوات اللازمة للتحكم في البيئة، وتهيىء السكن الملائم وتشييد القرى والمدن بمرافقها وخدماتها المتعددة.

ويتضح جلياً، من خلال هذه الدراسة، أن القرآن الكريم قدم الكثير للإنسان من أجل فهم ترتيب البيئة، بدءا من خلق الكون بمجمله والتعريف بمكوناته ذات العلاقة بالإنسان في حياته الدنيا وفي حياته الآخرة، والوصف الشامل لبيئة الأرض والحث على السير في أرجائها والتأمل في مكوناتها وتنوع سكانها. والأهم من ذلك، أن يتعرف الإنسان إلى بيئة الحياة الآخرة الأبدية التي تنتظره.

يتضمن هذا الفصل تسعة مباحث تشمل مكونات البيئة بمفهومها الشامل:

يبدأ المبحث الأول بالتطرق لبيئة الأرض، باستعراض الآيات القرآنية التي تشير لخلقها ومحتوياتها وملكيتها وما ينتج عن دورانها من ليل ونهار وسعتها ورحابتها والاستقرار عليها وتعميرها وخيراتها (كالماء والجنان والبساتين والريح) والإفساد فيها وأخيرا زلزلتها وزوالها.

ويضم المبحث الثاني، حديثا عن الكائنات الحية ومدى تنوعها وانتشارها على الأرض.

أما المبحث الثالث، فيتعلق بكيفية ترتيب الجمادات على ظهر الأرض، مثل: الجبال والصخور والحجارة والمعادن.

ويتضمن المبحث الرابع، كيفية ترتيب السكن، بنوعيه الطبيعي والاصطناعي، ويشمل: الديار والبلاد والقرى والمدن والكهوف.

ونجد في المبحث الخامس، استعراضا لأماكن العبادة وخصوصية ترتيبها وتفضيلها على الأماكن الأخرى. فهناك المساجد بصفة عامة، والكعبة الشريفة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى والأماكن الأخرى المرتبطة بالعبادة كالمحاريب والمغارات والصوامع والبيع والصلوات.

ويتطرق المبحث السادس لترتيب السماء (والسماوات)، من حيث خلقه وهيئته ومحتوياته وملكيته والتعرف إلى بعض الأجرام السماوية (كالنجوم والشمس والقمر والكواكب وكرسي الرحمن وعرشه) والسماء باعتباره مصدرا للخيرات ومصدرا للعقاب.

ويتضمن المبحث السابع: ترتيب بيئة القيامة، بدءا من النفخ في الصور مرورا بالحشر والحساب وانتهاءً بلقاء المصير الأبدي.

ويتطرق المبحث الثامن لبيئة الجنة؛ والمبحث التاسع والأخير لبيئة النار، حيث يخبرنا القرآن الكريم عن بيئتين لا سبيل لمعرفتهما من خلال التجربة التي يعيشها الإنسان في حياته الدنيا.

المبحث الأول

الأرض

نتطرق في هذا المبحث للأرض باعتبارها كائنا خلقه الله واصطفاه، بأن جعل على سطحه الحياة الدنيا وفي قلبها الإنسان الذي حمل الأمانة والرسالات السماوية. لذا نجد أن الأرض بالرغم من أنها أحد الكواكب التسعة التي تدور حول الشمس، والتي بدورها - أي الشمس - أحد الأجرام السماوية بالغة الكثرة التي يعج بها الكون، إلا أنها حظيت باهتمام بالغ في القرآن الكريم. فهي غالبا ما تذكر بموازاة السماوات التي قد يكون المقصود منها بقية كواكب المجموعة الشمسية أو الفضاء المتضمن لبقية الأجرام. وأحد أبرز الأدلة على أهمية الأرض، كونها ذكرت في القرآن الكريم في 461 موضعا، متفوقة بذلك على كل الأجرام السماوية الأخرى.

وتكمن خصوصية الأرض، كذلك، في غزارة المعلومات المتوفرة عنها من خلال الكتب السماوية، وعلى رأسها القرآن، وكذا من خلال التراكم العلمي الذي أنتجه الإنسان منذ أن هبط على ظهر البسيطة. وعلى مستوى ترتيب

البيئة، فإن كوكب الأرض هو المكان الأكثر تميزا - حسب ما توصل إليه الإنسان من معرفة حتى الآن - من حيث المكونات الطبيعية، أو من حيث تدخل الإنسان والكائنات الحية الأخرى في التحكم في البيئات المتعددة التي أوجدت على الأرض بمرور الزمن وتعاقب العصور والحضارات.

ولكي نتعرف إلى كوكب الأرض وبيئته الطبيعية والاصطناعية، من خلال القرآن الكريم، سنشير إلى الآيات التي ذكرت خلق الله للأرض، وذكره لمحتوياتها وامتلاكه لها، والخيرات التي توجد بالأرض، وسعتها، واستقرار الإنسان عليها، وأخيرا، إمكانية زوالها.

1 - خلق الأرض

تضمن القرآن الكريم ثلاث كلمات يعبّرن عن إحداث الله سبحانه وتعالى للأرض، وهي: «خلق» مشتقة من الخلق، و«بديع» مشتقة من الإبداع، و«فاطر» مشتقة من الفطر.

فالخلق: «أصله الإيجاد على تقدير وتسوية ومنه خَلَق الأديم إذا هيأه ليقطعه ويخرزه.. وأطلق الخلق في القرآن وكلام الشريعة على إيجاد الأشياء المعدومة فهو إخراج الأشياء من العدم إلى الوجود إخراجا لا صنعة فيه للبشر فإن إيجاد البشر بصنعتهم أشياء إنما هو تصويرها بتركيب متفرق أجزائها وتقدير مقادير مطلوبة منها». (ت. ع، ج1 ص322)

والبديع: «مشتق من الإبداع وهو الإنشاء على غير مثال فهو عبارة عن إنشاء المنشآت على غير مثال سابق وذلك هو خلق أصول الأنواع وما يتولد من متولّداتها، فخلق السماوات إبداع وخلق الأرض إبداع وخلق آدم إبداع وخلق نظام التناسل إبداع». (ت. ع، ج1 ص668)

والفاطر: «المبدع والخالق. وأصله من الفطر وهو الشقّ. وعن ابن عباس: ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. وإجراء هذا الوصف على اسم الجلالة دون وصف آخر استدلال على عدم جدارة غيره لأن يُتَّخَذ وليّا». (ت. ع، ج6 ص38)

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى خلقه الأرض في الآيتين 29 و164 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾، «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»؛ وورد ذكر خلق الأرض في الآيتين 1 و73 من سورة الأنعام؛ والآية 36 من سورة التوبة؛ وفي الآيتين الثالثة والسادسة من سورة يونس؛ وفي الآية السابعة من سورة هود؛ وفي الآيتين 19 و32 من سورة إبراهيم؛ وفي الآية الثالثة من سورة النحل؛ والآية 99 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 51 من سورة الكهف؛ والآية الرابعة من سورة طه؛ والآية 16 من سورة الأنبياء؛ والآية 44 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 8 و22 من سورة الروم؛ وفي الآية 25 من سورة لقمان؛ والآية 40 من سورة فاطر؛ وفي الآية 81 من سورة يس؛ وفي الآية 38 من سورة الزمر؛ والآية 57 من سورة غافر؛ وفي الآيات 9 و10 و11 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة الزخرف؛ والآية 38 من سورة الدخان؛ والآية 22 من سورة الجاثية؛ وفي الآيات 3 و4 و33 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 38 من سورة ق؛ والآية الرابعة من سورة الحديد؛ وفي الآية الثالثة من سورة التغابن؛ وفي الآية 12 من سورة الطلاق.

والله بديع السماوات والأرض، كما قال في الآية 117 من سورة البقرة: «بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»؛ وفي الآية

101 من سورة الأنعام: «بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم».

وهو من فطر السماوات والأرض. قال تعالى في الآيتين 14 و79 من سورة الأنعام: ﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض﴾، «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين»؛ وكذا في الآية 101 من سورة يوسف؛ وفي الآية العاشرة من سورة إبراهيم؛ وفي الآيتين 30 و56 من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 46 من سورة الزمر؛ والآية 11 من سورة الشورى.

وبعد الآيات التي تطرقت لخلق الله سبحانه وتعالى للأرض، تضمن القرآن الكريم بعض الآيات التي تشير إلى تسوية الأرض وتهييئها لتصبح صالحة لإعمارها من لدن الإنسان. أي إن هذه الآيات تشير إلى بدايات ترتيب البيئة على الأرض. فقد وردت العديد من العبارات التي توضّح هذا الترتيب.

إذ قال تعالى في الآيتين 22 من سورة البقرة و48 من سورة الذاريات: «الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون»؛ «والأرض فرشناها فنعم الماهدون».

وقد أورد الإمام الرازي ضمن تفسيره للآية 22 من سورة البقرة، ما يوضح المقصود من فرش الأرض:

« .. الشرط الثاني: في كون الأرض فراشا لنا أن لا تكون في غاية الصلابة كالحجر، فإن النوم والمشي عليه مما يؤلم البدن، وأيضا فلو كانت الأرض من الذهب مثلا لتعذرت الزراعة عليها، ولا يمكن اتخاذ الأبنية منه لتعذر حفرها وتركيبها كما يراد؛ وألاّ تكون في غاية اللين، كالماء الذي تغوص فيه الرجل:

الشرط الثالث: ألاّ تكون في غاية اللطافة والشفافية فإن الشفاف لا يستقر النور عليه، وما كان كذلك فإنه لا يتسخن من الكواكب والشمس، فكان يبرد جدا فجعل الله كونه أغبر، ليستقر النور عليه فيتسخن فيصلح أن يكون غائصا في الماء فكان يجب أن تكون البحار محيطة بالأرض، ولو كانت كذلك لما كانت فراشا لنا، فقلب الله طبيعة الأرض وأخرج بعض جوانبها من الماء كالجزيرة البارزة حتى صلحت لأن تكون فراشا لنا، ومن الناس من زعم أن الشرط في كون الأرض فراشا ألاّ تكون كرة، واستدل بهذه الآية على أن الأرض ليست كرة، وهذا بعيد جدا، لأن الكرة إذا عظمت جدا كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الاستقرار عليه، والذي يزيده تقريرا أن الجبال أوتاد الأرض ثم يمكن الاستقرار عليها، فهذا أولى والله أعلم». (ت. ر. ج2 م1 ص ص114–115) وقد جعل الإمام الرازي الشرط الأول لكون الأرض فراشا، كونها ساكنة، وهو أمر تدحضه الحقائق العلمية التي لم تكن متوفرة في زمانه، أي إن الأرض متحركة وتدور حول الشمس.

ويضيف ابن عاشور في توضيح معنى فرش الأرض: «معنى جعل الأرض فراشا أنها كالفراش في التمكن من الاستقرار والاضطجاع عليها وهو أخص أحوال الاستقرار. والمعنى أنه جعلها متوسطة بين شدة الصخور بحيث تؤلم جلد الإنسان وبين رخاوة الحمأة بحيث يتزحزح الكائن فوقها ويسوخ فيها وتلك منة عظيمة». (ت. ع. ج1 ص326)

وفي السياق نفسه، ذكر الله تعالى أنه جعل الأرض كالمهد الذي يفترشه الرضيع مما يتطلبه من ملاءمة لتكوينه. إذ قال تعالى في الآية 53 من سورة طه: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا﴾؛ وفي الآية العاشرة من سورة الزخرف: «الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون»؛ والآية السادسة من سورة النبأ: «ألم نجعل الأرض

مهادا» أي «ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟». (ت. ص، ج3 ص507)

ومن بين الترتيبات التي تمت على الأرض، جعلها مبسوطة ممتدة حتى يتمكن الإنسان من السير عليها والاستقرار فوقها. قال تعالى في الآيتين 19 و20 من سورة نوح: «والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجا»؛ وفي الآيتين 30 و31 من سورة النازعات: «والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها». وقد أورد الصابوني في «صفوة التفاسير»، بعض الآراء في تفسير قوله تعالى ﴿ جعل لكم الأرض بساطا ﴾: «أي جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه. قال في التسهيل: شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها، وأخذ بعضهم من الآية أنها غير كروية، وفي ذلك نظر*. وقال الألوسي: وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحا، ثم إن اعتقاد الكرية أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كريتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطا أي تتقلبون عليها كالبساط**». (ت. ص، ج3 ص453)(*التسهيل لعلوم التنزيل151/4)(**روح المعاني76/29)

وقد هُيئت الأرض لكي تكون وعاء للأحياء على ظهرها والأموات في بطنها. قال تعالى في الآيات 25 و26 و27 من سورة المرسلات: «ألم نجعل الأرض كفاتا. أحياء وأمواتا. وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا». وقد أورد الزمخشري في «تفسير الكشاف»: «الكفات: من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه: وهو اسم ما يكفت، كقولهم: الضمام والجماع لما يضم ويجمع.. وبه انتصب ﴿ أحياء وأمواتا ﴾ كأنه قيل: كافتة أحياء وأمواتا. أو بفعل مضمر يدل عليه وهو تكفت. والمعنى: تكفت أحياء على ظهرها، وأمواتا في بطنها». (ت. ز، ج4 ص666)

2 - محـــتويات الأرض وملكيتهـــا

لقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تؤكد أن الأرض لله سبحانه وتعالى، بجميع ما تحتويه من موجودات، الأمر الذي يجب أخذه بعين الاعتبار عند التأمل والنظر في الكيفية التي رُتبت بها الموجودات على ظهر الأرض وفي باطنها. فالمِلْكِيَّة الحقيقية في هذا العالم لله وحده، وكل ما يتصرف به الإنسان على أساس أنه ملك له يجب أخذه على سبيل المجاز، مما يحتم اتباع أوامر المالك الحقيقي، ألا وهو الخالق عز وجل الذي بيّن للإنسان كيف يتصرف في روحه وجسده - وهما الأقرب إليه - بالإضافة إلى الأشياء من حوله التي يجب ألاّ يعيث فيها فسادا.

نستشف الإشارة إلى محتويات الأرض وملكيتها لله سبحانه وتعالى في الآيات 33 و107 و116 و255 و284 من سورة البقرة: «قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون»، ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض﴾، «وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون»، ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض﴾، ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾؛ وفي السياق نفسه، وردت الآيات 5 و29 و83 و109 و129 و180 و189 من سورة آل عمران؛ والآيات 126 و131 و132 و170 و171 من سورة النساء؛ والآيات 17 و18 و40 و120 من سورة المائدة؛ وفي الآيتين 12 و75 من سورة الأنعام؛ وفي الآيتين 158 و185 من سورة الأعراف؛ والآية 116 من سورة التوبة؛ والآيات 54 و55 و61 و66 و68 من سورة يونس؛ وفي الآية 123 من سورة هود؛ وفي الآية 105 من سورة يوسف؛ والآية 33 من سورة الرعد؛ وفي الآية الثانية من سورة إبراهيم؛ وفي الآية 52 من سورة النحل؛ والآية 55 من سورة

الإسراء؛ وفي الآية 26 من سورة الكهف؛ والآية 93 من سورة مريم؛ وفي الآية 19 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 64 و70 من سورة الحج؛ والآية 84 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 42 و64 من سورة النور؛ وفي الآيتين الثانية والسادسة من سورة الفرقان؛ وفي الآيتين 65 و75 من سورة النمل؛ والآية 52 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 26 و27 من سورة الروم؛ والآية 26 من سورة لقمان؛ وفي الآيات 1 و2 و3 و22 من سورة سبأ؛ والآية 38 من سورة فاطر؛ وفي الآيتين 44 و63 من سورة الزمر؛ والآيات 4 و12 و49 و53 من سورة الشورى؛ وفي الآية 85 من سورة الزخرف؛ وفي الآيتين 3 و27 من سورة الجاثية؛ وفي الآيات 4 و7 و14 من سورة الفتح؛ والآية 31 من سورة النجم؛ وفي الآيات الأولى والثانية والخامسة من سورة الحديد؛ وفي الآية الرابعة من سورة التغابن.

والله سبحانه وتعالى هو رب الأرض أي خالقها ومالكها ومدبر أمرها، كما جاء في الآية 16 من سورة الرعد، إذ قال تعالى: ﴿قل من رب السماوات والأرض قل الله﴾؛ وقال تعالى في الآية 102 من سورة الإسراء: «قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا»؛ وفي الآية 65 من سورة مريم: «رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا»؛ وكذا في الآية 24 من سورة الشعراء؛ وفي الآية الخامسة من سورة الصافات؛ وفي الآية 66 من سورة ص؛ والآية 82 من سورة الزخرف؛ وفي الآية السابعة من سورة الدخان؛ والآية 36 من سورة الجاثية؛ والآية 37 من سورة النبأ. وقال تعالى في الآية 84 من سورة الزخرف: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾؛ وفي الآية 37 من سورة الجاثية: «وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم».

3 - دوران الأرض والليـــل والنهـــار

يعدّ دوران الأرض حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة، من الحقائق العلمية الثابتة التي لا تقبل الجدل. ونتيجة لهذا الدوران تختفي جميع مناطق سطح الكرة الأرضية عن التعرض المباشر لأشعة الشمس لعدة ساعات ، مما ينتج عنه ظاهرة الليل والظلام؛ كما تتعرض هذه المناطق تعرضا مباشرا لأشعة الشمس مما ينتج عنه ظاهرة النهار، أو تعرضا غير مباشر فنكون أمام ظاهرة الظل.

ولا شك أن ظاهرتي الليل والنهار قد تركتا أثرا بالغا في ترتيب البشر لبيئتهم الحياتية اليومية، خاصة في مجالات تناول الغذاء والعمل وارتداء الملابس وارتياد الأماكن الخاصة والعامة (كالحدائق) والسفر والنوم.. وغيرها من الأنشطة البشرية.

لقد ورد ذكر الليل والنهار في العديد من الآيات القرآنية باعتبارهما من الآيات والنعم التي منّ الله بها على عباده: إذ النهار أصلح للعمل والليل للراحة والستر. ويلاحظ أن الليل يسبق النهار في سياق الآيات القرآنية عندما يردان مجتمعين، ما عدا في سورة الشمس، حيث ورد ذكر النهار في آية وأتبع بالليل في آية تالية. إلا أن الأسبقية في هذا المقام لا تكتسي أهمية فعلية، فبحكم أن الكرة الأرضية تدور دائما وأبدا عكس اتجاه عقارب الساعة، فإذا ابتدأنا بالليل أو بالنهار تكون النتيجة متماثلة، وقد قال تعالى ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار﴾.

قال تعالى في الآية 274 من سورة البقرة: «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»؛ وفي الآية 27 من سورة آل عمران: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 76 و96 من سورة الأنعام: «فلما جن عليه الليل

رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين». ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا﴾؛ وفي الآية 54 من سورة الأعراف: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا﴾؛ والآية 33 من سورة إبراهيم: «وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار»؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة النحل: ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾؛ وفي الآيات 12 و78 و79 من سورة الإسراء: «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا»، ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل﴾ ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾؛ والآية 130 من سورة طه: «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى».

ــ كما وردت الإشارة إلى دوران الأرض من خلال الليل والنهار في الآية 33 من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 61 من سورة الحج؛ والآية 80 من سورة «المؤمنون»؛ والآية 44 من سورة النور؛ وفي الآيتين 47 و62 من سورة الفرقان؛ وفي الآية 86 من سورة النمل؛ وفي الآيات 71 و72 و73 من سورة القصص؛ وفي الآية 23 من سورة الروم؛ والآية 29 من سورة لقمان؛ وفي الآية 33 من سورة سبأ؛ والآية 13 من سورة فاطر؛ وفي الآيتين 37 و40 من سورة يس؛ وفي الآية الخامسة من سورة الزمر؛ والآية 61 من سورة غافر؛ وفي الآية 37 من سورة فصلت؛ والآية السادسة من سورة الحديد؛ والآية السابعة من سورة الحاقة؛ والآية السابعة من سورة المزمل؛ وفي الآيتين 10 و11 من سورة النبأ؛ وفي الآية 17 من سورة التكوير؛ والآية 17 من سورة الانشقاق؛ وفي الآية الرابعة من سورة الفجر؛ وفي الآيتين الثالثة والرابعة من سورة الشمس؛ وفي الآيتين الأولى والثانية من سورة الليل.

أمـا الظل فـقـد ورد ذكـره في الآية 57 من سـورة الـبـقـرة، إذ قـال تعـالـى: «وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبـات مـا رزقناكم ومـا ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»؛ وفي الآية 48 من سـورة النحل: «أو لم يروا إلى مـا خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون»؛ وقال تعالى في الآية 24 من سورة القصص: «فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خيـر فقيـر»؛ وفي الآية 21 من سورة فاطر: «ولا الظل ولا الحرور».

4 - سعـة الأرض ورحابتهـا

وينسجم مع اشتمال الأرض على العديد من الخيرات، كونها واسعة رحبة تتسع لكل من عليها من البشر والحيوان والنبات والجماد. وبها مجالات تتيح للإنسان حرية الحركة والانتقال، الأمر الذي لا ينسجم مع التقسيم الحديث للدول والمناطق التي تحد من حرية تحرك العنصر البشري وهجرته. إن سعة الأرض تعني تعدد تضاريسها ومناخاتها وخيراتها التي ساهمت في تشكل الأعراق والقوميات البشرية والحضارات على مر العصور.

لقـد ورد ذكـر سـعـة الأرض ورحـابتـهـا فـي سـور النسـاء والتـوبة ويوسف والعنكبوت والزمر. إذ قال تعالى في الآيات 97 و100 و101 من سورة النساء: ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾، ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة﴾ ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾؛ وفي الآيتين 25 و118 من سورة التوبة: «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين»، «وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم

وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم»؛ وقال تعالى في الآية 21 من سورة يوسف: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾؛ وفي الآية 56 من سورة العنكبوت: «يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون»؛ والآية العاشرة من سورة الزمر: ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة﴾.

5 - الاستقرار على الأرض وتعميرها

إذا كانت الهجرة من بين السلوكات التي شجعت عليها سعة الأرض فأتاحت للإنسان وللعديد من الكائنات الحية إمكانية الانتقال من الموطن الأصلي بحثا عن بيئة أكثر ملاءمة، فإن الاستقرار في مجال بيئي محدد هو السمة الغالبة لدى سكان الأرض. فقد انتقى بعض سكان الأرض أماكن ملائمة من حيث التضاريس والمناخ والخيرات فاستوطنوا بها، واختار غيرهم أماكن مناقضة لا تصلح إلا لمن تكيّف عليها، لذا نجد أن سطح الأرض بما يشتمله من بحر (مياه وجليد) وبر (سهول وجبال ووديان)، وجد من يسكنه ويتكيف عليه من بشر وكائنات حية أخرى.

ولقد تضمنت بعض الآيات القرآنية إشارات تفيد استقرار الإنسان على الأرض وتعميرها. قال تعالى في الآيات 11 و36 و273 من سورة البقرة: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون»، ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾، ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض﴾؛ وفي الآيتين 137 و156 من سورة آل عمران: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين

كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾؛ والآية 165 من سورة الأنعام: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾؛ وورد ذكر الاستقرار على الأرض وتعميرها ضمن سياق الآيات 10 و24 و128 و129 و137 و168 و176 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 26 من سورة الأنفال؛ وفي الآية الثانية من سورة التوبة؛ والآية 14 من سورة يونس؛ وفي الآية 61 من سورة هود؛ وفي الآيات 21 و55 و56 من سورة يوسف»؛ والآية 36 من سورة النحل؛ وفي الآيات 76 و103 و104 من سورة الإسراء؛ والآية 84 من سورة الكهف؛ وفي الآيتين 57 و63 من سورة طه؛ والآية 105 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 41 و46 من سورة الحج؛ والآية 79 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 62 و69 من سورة النمل؛ وفي الآيتين الخامسة والسادسة من سورة القصص؛ والآية 20 من سورة العنكبوت؛ وفي الآية التاسعة من سورة الروم؛ وفي الآيتين 39 و44 من سورة فاطر؛ والآيات 21 و75 و82 من سورة غافر؛ وفي الآية العاشرة من سورة محمد؛ والآية 15 من سورة الملك.

5 - خيرات الأرض

إن اصطفاء الله سبحانه تعالى للأرض وجعلها منبعا ومنبتا للحياة، يتمثل في تهيئها على صعيد المناخ والتضاريس لتكون موائمة لتواجد الكائنات الحية ونموها، فضلا عن تزويدها بمختلف الخيرات الطبيعية وتمكين الإنسان منها. فقد خلق الله الأرض وجعل فيها الجبال والأنهار وزودها بمياه الأمطار والغطاء النباتي الذي يزينها ويوفر الغذاء ويمنح الحياة للكائنات الحية الأخرى وعلى رأسها الإنسان، بالإضافة إلى الثروات المعدنية التي ينتفع بها الإنسان.

وتكمن أهمية الأرض كمنبع للخيرات، في أن الله قد خلق الإنسان من ترابها، وكذا بقية الحيوانات التي تعيش على ظهرها، مما يعني أن الإنسان كذلك من خيرات الأرض.

وقد تضمن القرآن الكريم بعض الآيات القرآنية التي تعدد خيرات الأرض بتنوعها وغنائها وحسن ترتيبها لكي تجعل من حياة الإنسان على الأرض ممكنة وسهلة.

قال تعالى في الآيات 57 و61 و168 من سورة البقرة: «وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»، ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾، ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾؛ وقال تعالى في الآية 91 من سورة آل عمران: «إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين»؛ وفي الآية السادسة من سورة الأنعام: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾؛ والآية 31 من سورة يونس: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾.

وقال تعالى في الآيتين الثالثة والرابعة من سورة الرعد: «وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»؛ وفي الآيتين 19 و20 من سورة الحجر: «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي

وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين»؛ وقال تعالى في الآيات 13 و14 و15 من سورة النحل: «وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكّرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون»؛ وفي الآيتين السابعة والثامنة من سورة الكهف: «إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا. وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا»؛ والآية العاشرة من سورة الفرقان: «تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا»؛ وقال تعالى في الآية السابعة من سورة الشعراء: «أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم»؛ وفي الآية 24 من سورة سبأ: ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله﴾؛ والآية 17 من سورة نوح: «والله أنبتكم من الأرض نباتا».

وبالإضافة إلى الآيات التي تطرقت لخيرات الأرض على وجه الإجمال، وردت العديد من الآيات القرآنية التي ذكرت خيرات بعينها على وجه التخصيص، مبرزة أهميتها في حياة الإنسان، كالماء الذي جعل الله منه كل شيء حيا، وجعل له فوائد جمة؛ وهناك الجنان والبساتين التي تمنح الغذاء والهواء النقي والبيئة الجميلة التي تسر النفس؛ والريح التي تتعدد فوائدها، بدءا من تحريك السحاب المطر.

أ - الماء واستخداماته

يعتبر الماء من أبرز الموجودات التي تميز كوكب الأرض. فالماء هو سر الحياة على الأرض، الأمر الذي لا يتوفر لأي كوكب أو جرم سماوي حسب ما

توصل إليه العلم الحديث، وكل الاكتشافات الفضائية التي تشير إلى احتمال تواجد الماء في القمر أو المريخ، تؤكد أن كمية الماء الموجودة في الأرض لا مثيل لها. إذ تغطي المياه أكثر من ثلثي سطح الكرة الأرضية فتضفي عليه لونا أزرق، مما قاد المهتمين إلى نعت كوكب الأرض بالكوكب الأزرق(*) (*يرجع اللون الأزرق لكوكب الأرض، جزئياً إلى البحر وجزئياً إلى السماء الدنيا، ذلك أن الماء يمتص من الضوء الأحمر ما يزيد قليلاً على ما يمتصه من الضوء الأزرق. فينعكس هذا الأخير إلى الفضاء. وبالكيفية نفسها يبدو خط الرؤية قصيراً شفافاً تماماً خلال الهواء وكلما كان الشيء بعيداً بدا أكثر زرقة. ويحدث ذلك لأن الهواء يفرق الضوء الأزرق في كل مكان على نحو أفضل مما يفعل بالنسبة للضوء الأحمر. إذن فلون هذه الزرقة يأتي من الغلاف الجوي السميك للأرض والشفاف في الوقت ذاته (ساجان. 2000. ص 22)).

لقد جعل الله سبحانه وتعالى الماء أصل النعم في الأرض، فهو يدخل في تركيب معظم العناصر المكونة للأرض وكل الكائنات الحية بنسب كبيرة. فالماء، على سبيل المثال، يشكل حوالي 80٪ من جسم الإنسان.

يمكن النظر إلى الترتيب البيئي للماء في الأرض من ثلاث زوايا: من زاوية مصادر المياه وكيفية تشكل الأراضي التي تحتويها؛ أو من زاوية عذوبة المياه أو ملوحتها؛ أو من زاوية حركة المياه وجريانها أو استقرارها. ذلك أن هذا التقسيم ينعكس على تواجد المخلوقات التي تعيش في الماء وهي بالغة الكثرة، وعلى استخدام الماء في الشرب والزراعة والسفر والنقل والترفيه والسكن. فمن زاوية المصادر، نجد أنها تتدرج من العيون والينابيع التي تنبع من جوف الأرض والآبار التي تستخرج الماء من الطبقات العليا لقشرة الأرض، إلى الوديان والأنهر التي تجري بفضل الأمطار المتساقطة من السحب وهي عبارة عن دورة كاملة ناتجة عن تبخر مياه الخلجان والبحار والمحيطات التي تضم المخزون الأكبر من مياه

الأرض، بالإضافة إلى البحيرات التي غالبا ما تشكل مجمعا لمياه الأمطار ومنطلقا للأنهر نحو مصباتها في البحار والمحيطات. ومن زاوية العذوبة والملوحة، نجد أن مياه الأمطار والوديان والأنهار ومعظم العيون والآبار والبحيرات تتسم بعذوبتها وصلاحية استخدامها في الشرب، كما أن الأنهار تستخدم في السفر والنقل بواسطة مركبات ذات أحجام تتناسب مع كمية المياه وعمقها، وتعيش في البحيرات والوديان والأنهار كائنات لا يمكنها أن تعيش في المياه المالحة؛ بينما تتسم مياه الخلجان والبحار والمحيطات بملوحتها وكمياتها بالغة الضخامة وعمقها، الأمر الذي ينعكس على نوعية الكائنات الحية التي تعيش فيها ووسائل النقل المستخدمة فيها؛ ويمكن تمييز مياه الأرض من حيث حركتها بين الوديان والأنهار التي تجري في اتجاه واحد نحو مصباتها؛ والخلجان والبحار والمحيطات التي تكون مياهها شبه راكدة ولا تتحرك إلا بفعل جاذبية القمر التي تنتج عنها حركة المد والجزر وهي حركة لا تؤدي إلى تجدد المياه؛ وأخيرا، هناك مياه المحيطات المتجمدة التي لا تتحرك لتواجدها في حالة الصلابة من جراء البرودة الشديدة، وهذه الحالة تنعكس، كذلك، على نوعية الكائنات الحية التي تعيش في المناطق المتجمدة.

وتتضح لنا أهمية الماء في حياة كوكب الأرض من خلال العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى أهمية الماء ودوره في خلق الإنسان وكل ما هو حي، ودوره في استمرارية الحياة، ودوره في السفر والنقل.

قال تعالى في الآية 249 من سورة البقرة: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾؛ وفي الآية 63 من سورة الأنعام: «قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين»؛ وقال تعالى في الآيات 57 و64

و136 من سورة الأعراف: «وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون»، «فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين»، «فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين».

ونجد أمثلة أخرى في الآيات 22 و71 و73 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 37 و38 من سورة هود؛ وفي الآيتين 14 و17 من سورة الرعد؛ والآية 32 من سورة إبراهيم؛ والآية 65 من سورة النحل؛ وفي الآيات 66 و90 و91 من سورة الإسراء؛ والآيات 33 و41 و45 من سورة الكهف؛ وفي الآيات 39 و53 و77 و78 و97 من سورة طه؛ وفي الآيتين 5 و63 من سورة الحج؛ والآيات 18 و27 و28 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيات 39 و40 و45 من سورة النور؛ وفي الآيات 37 و48 و49 و53 من سورة الفرقان؛ وفي الآيتين 63 و119 من سورة الشعراء؛ والآيات 60 و61 و63 من سورة النمل؛ وفي الآيات 7 و23 و40 من سورة القصص؛ وفي الآيتين 63 و65 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 41 و46 من سورة الروم؛ والآيات 27 و31 و34 من سورة لقمان؛ والآية 27 من سورة السجدة؛ وفي الآيتين 12 و27 من سورة فاطر؛ وفي الآيتين 34 و41 من سورة يس؛ والآية 140 من سورة الصافات؛ وفي الآية 21 من سورة الزمر؛ وفي الآية 80 من سورة غافر؛ والآية 39 من سورة فصلت؛ وفي الآية 28 من سورة الشورى؛ وفي الآيتين 12 و51 من سورة الزخرف؛ والآية 25 من سورة الدخان؛ وفي الآية 12 من سورة الجاثية؛ والآية 40 من سورة الذاريات؛ والآية السادسة من سورة الطور؛ وفي الآيتين 12 و28 من سورة القمر؛ وفي الآيتين 19 و20 من سورة الرحمن؛ وفي الآيتين 68 و69 من سورة الواقعة؛ والآية 30 من سورة الملك؛ والآية 11 من سورة الحاقة؛ وفي الآية 12 ومن سورة نوح؛ وفي الآية 14 من سورة النبأ؛ والآية 25 من سورة عبس.

ب - الجنان والبساتين

تتجلى أبرز تأثيرات الماء في القطاع النباتي الأخضر على سطح الأرض، في الجنان والبساتين والمزارع التي تحفل بمختلف أنواع الأشجار والنباتات التي تزود الإنسان بالغذاء من خضر وفاكهة تجسد جزءا من استمتاع الإنسان على الأرض. على الرغم من أن جنان الأرض وبساتينها لا يمكن مقارنتها بتلك التي أعدها الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة.

لقد ذكر الله تعالى في سورة الكهف قصة إحدى جنان الأرض وكيفية ترتيبها وما حل بها، إذ قال تعالى في الآيات 32 و35 و39 و42: «واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا»، «ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا»، «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا»، «وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا»؛ وقال تعالى في الآية الثامنة من سورة الفرقان: «أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا»؛ وفي الآيات 57 و134 و147 و148 من سورة الشعراء: «فأخرجناهم من جنات وعيون»، «وجنات وعيون»، «في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم»؛ وقال تعالى في الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة ق: «ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد»؛ وفي الآيتين 15 و16 من سورة النبأ: «لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا»؛ وقال تعالى في الآيات 29 و30 و31 من سورة عبس: «وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا».

جـ - الريح

تتسم بيئة الأرض، كذلك، بالريح التي هي عبارة عن هواء متحرك بسرعة

قد تصل إلى مئات الأميال في الساعة فتحدث خرابا كبيرا في البيئتين الطبيعية والصناعية. وقد أرسل الله سبحانه وتعالى الريح إلى بعض الأقوام عقابا لهم فأوقعت بهم دمارا شاملا. كما أن الله جل شأنه يرسل الرياح - بسرعاتها المنخفضة - لتقود السحب من مكان إلى مكان فتمطر ليعم الخير؛ ويرسلها نسيما عليلا يلطف حرارة الجو على الناس والمخلوقات التي تعيش في مناطق تعاني من ارتفاع درجات الحرارة؛ فضلا عن أهمية الرياح في توجيه وسائل النقل البحرية ومساعدتها على الجري.

قال تعالى في الآية 117 من سورة آل عمران: «مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون»؛ وفي الآية 106 من سورة طه: «فيذرها قاعا صفصفا»؛ والآية 12 من سورة سبأ: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر﴾؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة فاطر: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور»؛ وفي الآية 16 من سورة فصلت: «فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 24 و25 من سورة الأحقاف: «فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين»؛ وفي الآيتين 19 و20 من سورة القمر: «إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر»؛ والآية الخامسة من سورة الجاثية: «واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون».

6 - الفســاد فـي الأرض

فسـر العلماء الفساد في الأرض الوارد في القرآن الكريم بفسـاد النفوس والاعتقـاد والأقوال والأفعال، الذي غـالبـا مـا يصـدر ممن زاغـوا عن الدين القويم فلم يتبعوا تعاليمه. وقد أوضح ابن عاشور معنى الفسـاد والإفساد في الأرض، قائلا:

«الإفسـاد فعل مـا به الفساد، والهمزة فيه للجعل أي جعل الأشياء فاسدة في الأرض. والفسـاد أصله اسـتحالة منفعة الشـيء النافع إلى مضـرة به أو بغيره، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملا على مضرة، وإن لم يكن فيه نفع من قبل يقـال فسد الشـيء بعد أن كان صـالحـا ويقـال فاسـد إذا وُجد فاسدا من أول وهلة، وكذلك يقـال أفسـد إذا عمـد إلى شيء صـالح فأزال صـلاحه، ويقال أفسد إذا أوجد فسادا من أول الأمر.. الإفساد في الأرض منه تصيير الأشيـاء الصـالحة مضـرة كالغش في الأطعمة، ومنه إزالة الأشيـاء النافـعة كـالحرق والقتل للبـرآء، ومنه إفسـاد الأنظمة كـالفتن والجـور، ومنـه إفسـاد المسـاعي كتكثيـر الجهل وتعليم الـدعارة وتحسين الكفـر ومناوأة الصـالحين المصلحين.. والمراد بـالأرض هذه الكرة الأرضية بمـا تحتوي عليـه من الأشيـاء القابلة لـلإفسـاد من الناس والحيوان والنبـات وسـائر الأنظمة والنـواميس التي وضعها الله تعالى لها». (ت. ع، ج1 ص ص280-281)

وإذا انطلقنا من آخـر مـا ذكـره ابن عـاشـور، نجـد أن الإفسـاد في الأرض يتضمن كل ما يضـر بالبيئـة على كوكب الأرض، بدءاً من الاستـهلاك المفـرط للغطاء النباتي، ممـا يضر بالتوازن البيئي ويؤدي إلى التصحـر، والقضـاء على الحيوانات النادرة وتلويث مصـادر المياه وتلويث الهواء وتهديد الحياة بالمخلّفات النووية المشـعة واستخدام السـلاح النووي الذي يقضـي على الأخضـر واليـابس والتسـبب في ثقب طبقـة الأوزون ممـا يهـدد مستقبل الحيـاة على الأرض.. وكل

ما تشكو منه الهيئات المدنية والحكومية المدافعة عن سلامة البيئة والداعية إلى الحفاظ عليها، يندرج ضمن الفساد والإفساد في الأرض.

لقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى الفساد والإفساد في الأرض، إذ قال تعالى في سبع آيات من سورة البقرة، بدءا من الآيتين 11 و12: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»، وفي الآية 27: « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون»، والآية 30: « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون»، وفي الآية 60: «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين»، وفي الآية 205: «وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد»، والآية 251: «فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين»؛ وقال تعالى في الآيات 32 و33 و64 من سورة المائدة: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾ ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾، ﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين﴾.

وورد ذكر فساد الأرض في ست آيات 56 و85 و100 و110 و127 و146 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 67 و73 من سورة الأنفال؛ وفي الآيات 23 و78

و83 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 85 و116 من سورة هود؛ والآية 73 من سورة يوسف؛ والآية الرابعة من سورة الإسراء؛ وفي الآية 94 من سورة الكهف؛ وفي الآية 71 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 152 و183 من سورة الشعراء؛ والآية 48 من سورة النمل؛ وفي الآيات 4 و19 و39 و77 و83 من سورة القصص؛ وفي الآيتين 36 و39 من سورة العنكبوت؛ والآية 43 من سورة فاطر؛ والآية 26 من سورة غافر؛ وفي الآية 15 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 29 و42 من سورة الشورى؛ والآية 22 من سورة محمد.

7 - زلزلة الأرض وزوالها

تُعرف الزلازل في وقتنا الحاضر، بأنها سلوك طبيعي ناتج عن تحرك الطبقات العليا للأرض وانزياحها، مما ينتج عنه هزات متفاوتة من حيث عنفها وقوتها التدميرية والتي غالبا ما تؤدي إلى هدم البنية التحتية، وينتج عنه تشقق في سطح الأرض. وقد جعل الله الزلزلة عقابا لبعض عباده مثلها كمثل الريح والصيحة، كما فعل بقوم لوط إذ خسف بهم الأرض.

قال تعالى في خسف الأرض، في الآية 45 من سورة النحل: «أفأمن ألذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون»؛ وفي الآية 68 من سورة الإسراء: «أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا»؛ والآية 81 من سورة القصص: «فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين»؛ وقال تعالى في الآية 40 من سورة العنكبوت: ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض﴾؛ وفي الآية التاسعة من سورة سبأ: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم

الأرض﴾؛ والآية 16 من سورة الملك: «أامنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور».

وقال تعالى عن زلزلة الأرض في الآيتين الأولى والثانية من سورة الزلزلة: «إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرض أثقالها».

ونستشف من الآيات اللاحقة في سور إبراهيم والأنبياء وسبأ وفاطر، أن الأرض مثلها كمثل بقية مخلوقات الله معرضة للزوال بإذنه، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلقها وجعلها تسبح في فلك محدد، إلى أن يأتي اليوم الذي تبدل فيه بغيرها، حيث حياة أخرى وبيئات أخر لها ترتيبها الخاص.

قال تعالى في الآية 48 من سورة إبراهيم: «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار»؛ وقال تعالى في الآية 44 من سورة الأنبياء: «بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون»؛ وفي الآية التاسعة من سورة سبأ: «أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب»؛ والآية 41 من سورة فاطر: «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا».

المبحث الثاني

الكـــائنات الحـــية

إن الكيفية التي خُلقت بها الكائنات الحية ورُتبت على سطح البسيطة، تعتبر آية من آيات الله جل شأنه لابد للإنسان أن يتأملها ويتخذها سبيلا لتقوية إيمانه. فالأوساط البيئية الثلاثة: الهواء والماء واليابسة، تعج بأعداد هائلة من المخلوقات الحية التي تتراوح بين الميكروبات المجهرية إلى الحيوانات الضخمة والأشجار العملاقة. وكل هذه المخلوقات تتواجد على سطح الأرض وفقا لنظام تكيّفي دقيق، يجعلها تتكاثر في أماكن محددة دون غيرها. فعلى سبيل المثال، هناك بعض الكائنات التي تعيش وتتكاثر في المياه المالحة وأخرى في المياه العذبة؛ والتي تعيش في البر منها ما يتكيف على البيئة الصحراوية، وأخرى على البيئة الغابوية، وأخرى على البيئة الجبلية أو السهلية.. وهكذا.

ونجد في القرآن الكريم بعض السور التي ذكرت بعض الكائنات الحية المألوفة لدى الإنسان ويساهم في إعادة ترتيبها، كما يفعل بالغطاء النباتي عند إقامة الحدائق والبساتين وتنسيقها، أو وضع بعض الحيوانات الأليفة في

حظائر والتحكم في تكاثرها عبر الرعي والتغذية المكثّفة والذبح، أو اصطياد الحيوانات غير الأليفة.

وهكذا، تضمنت سور البقرة والمائدة والأنعام والنحل والمؤمنون إشارات عديدة لبعض الكائنات الحية بشقيها النباتي والحيواني.

قال تعالى في الآيات 261 و265 و266 و267 من سورة البقرة: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾، «ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير. أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون. يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد».

فقد تضمنت هذه الآيات ذكرا لكيفية تكاثر الحبوب النباتية وهي من أهم مصادر الغذاء للإنسان، الذي درج منذ بدايات العصر الزراعي لاستخدام الأدوات والمخصبات الطبيعية والصناعية لاستنباتها بكثافة ضمن مساحات محددة حتى تكفي احتياجاته من الغذاء؛ كما تضمنت الإشارة إلى البساتين التي تقام على الأماكن المرتفعة (كالهضاب والتلال أو على سفوح الجبال، كما في جبل مرة بغرب السودان)؛ وذكر الله سبحانه وتعالى في الآية 266 بساتين النخيل والأعناب التي تتخللها الأنهار فترتوي منها فتثمر؛ وفي الآية الأخيرة إشارة إلى جميع الخيرات التي تنبت من الأرض فينتفع منها الإنسان.

وفي سورة المائدة وردت الإشارة لبعض الحيوانات التي يجب الحذر

والابتعاد عنها، إما لكونها لا يحل أكلها بسبب نجاستها كالخنازير، أو بسبب الكيفية التي ماتت بها والتي لا تتلاءم والشريعة الإسلامية.

قال تعالى في الآيتين 3 و60 من سورة المائدة: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾، ﴿وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل».

وقد ورد في الآية الثالثة، ذكر المنخنقة وهي الميتة بالخنق؛ والموقوذة: الميتة بالضرب؛ والمتردية: الميتة بالسقوط من علو؛ والنطيحة: الميتة بالنطح؛ وما أكل السبع: ما أكل منه فمات بجُرحه. (مخلوف، 1956، ص ص60-61) ويمكن للمرء أن يستشف بعض خصائص البيئات التي تعيش فيها هذه الحيوانات من خلال معرفتنا لسبب موتها.

وقال تعالى في الآيتين 99 و141 من سورة الأنعام: «وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون»، «وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين».

يقول الإمام الرازي في تفسيره المطول للآية 99 من سورة الأنعام:

«.. أما قوله ﴿فأخرجنا منه خضرا﴾ فقال الزجاج: معنى خضر، كمعنى أخضر، يقال أخضر فهو أخضر وخضر.. وقال الليث: الخضر في كتاب الله هو الزرع وفي الكلام كل نبات من الخضر، وأقول إنه تعالى حصر النبت في

الآية المتقدمة في قسمين: حيث قال ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ فالذي ينبت من الحب هو الزرع، والذي ينبت من النوى هو الشجر فاعتبر هذه القسمة أيضا في هذه الآية فابتدأ بذكر الزرع، وهو المراد بقوله ﴿فأخرجنا منه خضرا﴾ وهو الزرع، كما رويناه عن الليث. وقال ابن عباس: يريد القمح والشعير والسلت والذرة والأرز، والمراد من هذا الخضر العود الأخضر الذي يخرج أولا ويكون السنبل في أعلاه وقوله ﴿نخرج منه حبا متراكما﴾ يعني يخرج من ذلك الخضر حبا متراكما بعضه على بعض في سنبلة واحدة، وذلك لأن الأصل هو ذلك العود الأخضر وتكون السنبلة مركبة عليه من فوقه وتكون الحبات متراكبة بعضها فوق بعض، ويحصل فوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كأنها الإبر، والمقصود من تخليقها أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المتراكبة». (ت. ر. ج13 م7 ص113)

ويضيف: «ولما ذكر ما ينبت من الحب أتبعه بذكر ما ينبت من النوى، وهو القسم الثاني فقال ﴿ومن النخل من طلعها قنوان دانية﴾ وهنا مباحث: البحث الأول: أنه تعالى قدم ذكر الزرع على ذكر النخل، وهذا يدل على أن الزرع أفضل من النخل.. البحث الثاني: روى الواحدي عن أبي عبيدة أنه قال: أطلعت النخل إذا أخرجت طلعها وطلعها كيزانها قبل أن ينشق عن الاغريض، والاغريض يسمى طلعا أيضا. قال والطلع أول ما يرى من عذق النخل.. إذا عرفت تفسير اللفظ فنقول: قوله ﴿قنوان دانية﴾ قال ابن عباس: يريد العراجين التي قد تدلت من الطلع دانية ممن يجتنبها. وروي عنه أيضا أنه قال: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض.. ثم قال تعالى ﴿وجنات من أعناب والزيتون والرمان﴾.. اعلم أنه تعالى ذكر هاهنا أربعة أنواع من الأشجار: النخل والعنب والزيتون والرمان، وإنما قدم الزرع على الشجر لأن الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم على الفاكهة، وإنما قدم

النخل على سائر الفواكه لأن التمر يجري مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة في خواص كثيرة بحيث لا توجد تلك المشابهة في سائر أنواع النبات، ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من بقية طينة آدم» وإنما ذكر العنب عقيب النخل لأن العنب أشرف أنواع الفواكه، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعا به إلى آخر الحال..

واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفي بشرحها مجلدات، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الأقسام الأربعة التي هي أشرف أنواع النبات، واكتفى بذكرها تنبيها على البواقي، ولما ذكرها قال تعالى ﴿مشتبها وغير متشابه﴾..». (ت. ر. ج13 م7 ص ص114-116)

وقد تضمنت سورة النحل 12 آية كريمة تبين أبرز الكائنات الحية التي تزخر بها الأرض كالأنعام التي اعتمد عليها الإنسان منذ القدم في غذائه وفي حله وترحاله كوسائل للحرث والنقل والسفر، وفي صناعة الملابس والأمتعة؛ بالإضافة إلى النباتات المختلفة - التي ورد بعضها في السور السابقة - والكائنات البحرية التي تؤكل لحومها أو تستخدم بعض مكوناتها في الزينة؛ وكذا الكائنات الحية الطائرة التي تؤكل لحومها والنحل الذي ينتج العسل وهو من أجود أنواع الغذاء والشفاء للإنسان.

قال تعالى في الآيات 5-11: «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين. هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل

الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون»، وقال تعالى في الآية 14: «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»، وفي الآيتين 67 و68 من سورة النحل: «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون»، وقال تعالى في الآيتين 79 و80: «ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين».

وفي سورة «المؤمنون» استمرار لذكر بعض الكائنات الحية النباتية والحيوانية كالنخل والعنب والزيتون، والأنعام.

قال تعالى في الآيات 19 و20 و21 و22: «فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون. وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين. وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون. وعليها وعلى الفلك تحملون».

وقد أوضح ابن عاشور المراد من قوله تعالى ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ وهي شجرة الزيتون، إيضاحا يبين أهمية ترتيب البيئة بحيث تلائم كل كائن من الكائنات الحية الموجودة على الأرض.

«قوله: ﴿تخرج من طور سيناء﴾ يقتضي أن لها مزيد اختصاص بطور سيناء. وقد غمض وجه ذاك. والذي أراه أن الخروج مستعمل في معنى النشأة والتخلق كقوله تعالى: ﴿فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾[طه:53] وقوله: ﴿يخرج به زرعا مختلفا ألوانه﴾[الزمر:21]، وذلك أن حقيقة الخروج البروز من المكان ولما كان كل مخلوق يبرز بعد العدم وكان المكان لازما لكل

حادث شبه ظهور الشيء بعد أن كان معدوما بخروج الشيء من المكان الذي كان محجوبا به. وهي استعارة شائعة في القرآن.

فيظهر أن المعنى أن الله خلق أول شجر الزيتون في طور سيناء، وذلك أن الأجناس والأنواع الموجودة على الكرة الأرضية لابد لها من مواطن كان فيها ابتداء وجودها قبل وجودها في غيرها لأن بعض الأمكنة تكون أسعد لنشأة بعض الموجودات من بعض آخر لمناسبة بين طبيعة المكان وطبيعة الشيء الموجود فيه من حرارة أو برودة أو اعتدال، وكذلك فصول السنة كالربيع لبعض الحيوان والشتاء لبعض آخر والصيف لبعض غيرها فالله تعالى يوجد الموجودات في الأحوال المناسبة لها فالحيوان والنبات كله جار على هذا القانون.

ثم إن البشر إذا نقلوا حيوانا أو نباتا من أرض إلى أرض أو أرادوا الانتفاع به في فصل غير فصله ورأوا عدم صلاحية المكان أو الزمان المنقول إليهما يحتالون له بما يكمل نقصه من تدفئة في شدة برد أو تبريد بسبح في الماء في شدة الحر حتى لا يتعطل تناسل ذلك المنقول إلى غير مكانه، فكما أن بعض الحيوان أو النبات لا يعيش طويلا في بعض المناطق غير الملائمة لطباعه كالغزال في بلاد الثلوج فكذلك قد يكون بعض الأماكن من المنطقة الملائمة للحيوان أو النبات أصلح به من بعض جهات تلك المنطقة، فلعل جو طور سيناء لتوسطه بين المناطق المتطرفة حرا وبردا ولتوسط ارتفاعه بين النجود والسهول يكون أسعد بطبع فصيلة الزيتون كما قال تعالى: ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾[النور:35]، فالله تعالى هيأ لتكوينها حين أراد تكوينها ذلك المكان كما هيأ لتكوين آدم طينة خاصة فقال: ﴿خلق الإنسان من صلصال﴾[الرحمن: 14] ثم يكون الزيتون قد نقل من أول مكان ظهر فيه إلى أمكنة أخرى نقله إليها ساكنوها للانتفاع به فنجح في بعضها ولم ينجح في بعض». (ت. ع، ج18 ص ص29-30)

المبحث الثالث

الجمــــــادات

إن الأرض تتشكل من كم هائل من العناصر الجامدة يفوق عددها المائة، يشكل بعضها الجزء الأكبر من قشرة الأرض، وبعضها نادر الوجود أو لا يتواجد منفردا في الطبيعة. ومن بين هذه العناصر، ألِف الإنسان بعض المعادن الثمينة كالذهب والفضة، أو المفيدة في صناعة الآلات والأدوات كالحديد الذي شكل اكتشافه عصرا جديدا في تاريخ تطور البشرية. وعلى صعيد التضاريس، تتميز الأرض بجبالها التي يرتفع بعضها آلاف الأمتار فوق سطح البحر، ومكوناتها الصخرية، وكذا الحجارة الأصغر حجما من الجبال والصخور ولكنها تحمل قدرا كبيرا من صفاتها الفيزيائية والكيميائية. وقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى الجبال والصخور والحجارة باعتبارها من أبرز مكونات الأرض التي تعطيها شكلا مميزا، وبعض المعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس.

1 - الجـــبال

تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى الجبال باعتبارها أوتادا تثبت الأرض، وموجودات شاهقة يضرب بها المثل في العلو والضخامة والقوة ومصدراً للصخور والحجارة التي تبنى منها المنازل؛ وأشارت بعض الآيات إلى جبال بعينها كجبل الطور الذي شهد أحداثا هامة في تاريخ البشرية، وجبل الجودي الذي رست عليه سفينة سيدنا نوح عليه السلام.

لقد ورد ذكر الجبال باعتبارها إحدى مكونات البيئة الأرضية في الآية 260 من سورة إبراهيم، إذ قال تعالى: «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم»؛ وفي الآية 74 من سورة الأعراف: ﴿وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 42 و43 من سورة هود: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾؛ وفي الآية 31 من سورة الرعد: ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا﴾؛ والآية 46 من سورة إبراهيم: «وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال»؛ والآية 82 من سورة الحجر: «وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين».

وورد ذكر الجبال في الآيتين 68 و81 من سورة النحل؛ وفي الآية 37 من سورة الإسراء؛ والآية 79 من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 18 من سورة الحج؛ وفي الآية 43 من سورة النور؛ والآية 149 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 88 من سورة النمل؛ والآية العاشرة من سورة لقمان؛ وفي الآية 72 من سورة الأحزاب؛ والآية العاشرة من سورة سبأ؛ وفي الآية 27 من سورة فاطر؛ وفي الآية 18 من

سورة ص؛ وفي الآية السابعة من سورة ق؛ والآية 21 من سورة الحشر؛ وفي الآية 14 من سورة المزمل؛ والآية السابعة من سورة النبأ؛ وفي الآيتين 32 و33 من سورة النازعات؛ وفي الآية 19 من سورة الغاشية.

وقد ذُكر جبل الطور في سور البقرة والنساء والأعراف. وقد أورد الإمام الرازي في اسم الطور: «قيل إن الطور كل جبل قال العجاج:

دانى جناحيه من الطور فمر تقضي البازي إذا البازي كسر

أما الخليل فقال في كتابه إن الطور اسم جبل معلوم وهذا هو الأقرب لأن لام التعريف فيه تقتضي حمله على جبل معهود عرف كونه مسمى بهذا الاسم والمعهود هو الجبل الذي وقعت المناجاة عليه». (ت. ر. ج3 م2 ص116) ويضيف ابن عاشور: «الطور علم على جبل ببرية سيناء، ويقال إن الطور اسم جنس للجبال في لغة الكنعانيين نقل إلى العربية.. فإذا صح ذلك فإطلاقه على هذا الجبل علم بالغلبة في العبرية لأنهم وجدوا الكنعانيين يذكرونه فيقولون الطور يعنون الجبل كلمة لم يسبق لهم أن عرفوها فحسبوها علما له فسموه الطور». (ت. ع، ج1 ص524)

قال تعالى في الآيتين 63 و93 من سورة البقرة: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾؛ وفي الآية 154 من سورة النساء: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 143 و171 من سورة الأعراف: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرَّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين»، ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾. وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بجبل الطور، إذ قال في الآية الأولى من سورة الطور: «والطور».

أما جبل الجودي فقد ورد في الآية 44 من سورة هود التي يضرب بها المثل في قمة البلاغة والاختصار وتكثيف الكلام، إذ قال تعالى: «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين». وقد عرّف الرازي جبل الجودي ضمن تفسيره لقوله تعالى ﴿واستوت على الجودي﴾، قائلا: «المعنى واستوت السفينة على جبل بالجزيرة يقال له الجودي، وكان الجبل جبلا منخفضا، فكان استواء السفينة عليه دليلا على انقطاع مادة ذلك الماء وكان ذلك يوم عاشوراء». (ت. ر. ج17 م9 ص244) وقد حدد ابن عاشور موقع الجودي، مضيفا: «الجودي: اسم جبل بين العراق وأرمينيا، يقال له اليوم (أراراط). وحكمة إرسائها على جبل أن جانب الجبل أمكن لاستقرار السفينة عند نزول الراكبين لأنها تخف عندما ينزل معظمهم فإذا مالت استندت إلى جانب الجبل». (ت. ع، ج11 ص265)

2 - الصخـــر

ورد ذكر الصخر في الآية 63 من سورة الكهف، إذ قال تعالى: «قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا»؛ وفي الآية 16 من سورة لقمان: «يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير»؛ والآية التاسعة من سورة الفجر: «وثمود الذين جابوا الصخر بالواد».

3 - الحجـــارة

تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى الحجارة

باعتبارها من بين مكونات القشرة الأرضية، والتي تستخدم في بناء المنزل؛ كما أن الحجارة بحكم صلابتها، استُخدمت في معاقبة الأقوام التي أشركت بالله سبحانه وتعالى، وعوقب بها أبرهة وقومه عندما سعى لهدم الكعبة الشريفة؛ كما أن صلابة الحجارة أهّلتها لكي تكون مضربا للمثل في القسوة والشدة التي تبدو على قلوب بعض الناس.

قال تعالى في الآيات 60 و74 و264 من سورة البقرة: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾، «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون»، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا﴾؛ وقال تعالى في الآية 160 من سورة الأعراف: ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا﴾؛ وفي الآية 32 من سورة الأنفال: «وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»؛ والآية 82 من سورة هود: «فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود»؛ وقال تعالى في الآية 74 من سورة الحجر: «فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل»؛ وفي الآية 50 من سورة الإسراء: «قل كونوا حجارة أو حديدا».

وجاء في قصة قوم لوط عليه السلام الذين أهلكهم الله بالحجارة، في الآيات 32 و33 و34 و35 و36 و37 من سورة الذاريات: «قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين.

فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين. وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم»؛ وقال تعالى عن أبرهة وقومه في سورة الفيل: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول».

4 - المعادن

تضمن القرآن الكريم ذكرا للمعادن التي كانت معروفة لدى العرب حتى ظهور الإسلام، وهي الذهب والفضة ويُستخدمان في النقد والحلي، والحديد (وقد وردت سورة تحمل اسمه) والنحاس ويُستخدمان في صناعة السلاح والأواني والآلات والأدوات الأخرى.

قال تعالى في الآيتين 14 و91 من سورة آل عمران، عن الذهب والفضة: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾، «إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين»؛ وفي الآية 34 من سورة التوبة: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾.

وورد ذكر الحديد في الآية 50 من سورة الإسراء: «قل كونوا حجارة أو حديدا»؛ وفي الآية 96 من سورة الكهف: «آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا»؛ وقال تعالى في الآيتين 10 و11 من سورة سبأ: «ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدر في السرد

واعـملوا صـالحـا إني بما تعـملون بصـيـر»؛ وفي الآية 25 من سـورة الحديد:﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾.

أما النحاس، فقد ورد ذكره في الآية 35 من سورة الرحمن، إذ قال تعالى: «يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران». وقد فُسر النحاس باعتباره معدنا، أو دخانا. قال ابن عاشور في تفسيره: «النحاس: يطلق على الدخان الذي لا لهب معه. وبه فسر ابن عباس وسعيد بن جبير وتبعهما الخليل.

والمعنى: أن الدخان الذي لم تلحقهم مضرته والاختناق به بسبب شدة لهب الشواظ يضاف إلى ذلك الشواظ على حياله فلا يفلتون من الأمرين.

ويطلق النحاس على الصُّفْر وهو القِطر. وبه فسر مجاهد وقتادة، وروي عن ابن عباس أيضا. فالمعنى: أنه يصبّ عليهم الصّفر المُذاب». (ت. ع، ج27 ص242)

المبحث الرابع

السكن

إن البيئة التي يعدها الإنسان من أجل استقراره في بقعة محددة على سطح البسيطة، تعتبر من أبرز مظاهر البيئة التي يصنعها. فبالرغم من أن الإنسان بدأ حياته على الأرض متنقلا بحثا عن المشرب والمأكل والأمن، الا أنه غالبا ما فضل الاستقرار شبه الدائم في الأماكن التي تتوفر فيها حاجياته الثلاث المذكورة آنفا. ومن هذا المنطلق شيّد المنازل من مواد سهلة المعالجة إلا أنها قد لا تدوم طويلا فتنهار من جراء الرياح والأمطار والنار، ومع مرور الوقت شيدها من مواد صلبة وقوية تتناسب مع رغبته في الاستقرار الدائم بها فيما تبقّى من حياته. ثم أضفى عليها بعضا من فنه وإبداعه ليستمتع بجماليتها ولتعكس جانبا من روحه وقوته. وقاد هذا التطور - مدعما بغريزة الاجتماع - إلى بناء القرى والمدن التي صمد بعضها لآلاف السنين، شاهدا على حضارات خلت.

ويخبرنا القرآن الكريم أن الإنسان، منذ قديم الزمان، قرن استقراره على

الأرض، بتشييد المساكن والقرى والمدن، تعبيرا عن الملْكية والخصوصية، وبحثا عن الراحة الجسدية والنفسية، وحماية من الأخطار الطبيعية والبشرية التي تحدق به.

1 - الديـــار

إذا اعتبرنا الدار مساحة من الأرض مسيّجة ومبنية بحيث تضم داخلها أفراد أسرة أو مجموعة قليلة من الأسر، وهي من بين الوحدات الأساسية التي تتشكل منها القرى والمدن، فقد ورد ذكرها في القرآن باستخدام ألفاظ عديدة ك: الدار والمسكن والبيت والمقام والقصر والعرش والصرح والبرج والبنيان والمغارة والملجأ.

قال تعالى في الآيتين 84 و85 و189 و243 و246 من سورة البقرة: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم﴾، وفي الآية 189 ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾، وفي الآية 243 ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾، والآية 246 ﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾؛ وورد ذكر الديار في الآيتين 49 و154 من سورة آل عمران؛ وفي الآيات 15 و34 و66 و78 من سورة النساء؛ والآيات 74 و78 و91 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 5 و47 من سورة الأنفال؛ وفي الآيتين 24 و57 من سورة التوبة؛ والآية 87 من سورة يونس؛ وفي الآيات 65 و67 و73 و94 من سورة هود؛ والآيات 23 و31 و100 من سورة يوسف؛ وفي الآيات 13 و14 و37 و45 من سورة إبراهيم؛ والآية 82 من سورة

الحجر؛ وفي الآيتين 26 و80 من سورة النحل؛ وفي الآية الخامسة من سورة الإسراء؛ والآية 21 من سورة الكهف؛ والآية 128 من سورة طه؛ وفي الآيتين 40 و45 من سورة الحج:؛ وفي الآيات 27 و29 و36 و61 من سورة النور؛ والآيات 58 و128 و149 من سورة الشعراء؛ والآيات 18 و23 و38 و40 و41 و42 و44 و52 من سورة النمل؛ والآيات 12 و38 و81 من سورة القصص؛ وفي الآيات 29 و37 و38 و41 من سورة العنكبوت؛ والآية 26 من سورة السجدة؛ وفي الآيات 13 و27 و33 و34 و53 من سورة الأحزاب؛ والآية 15 من سورة سبأ؛ والآية 36 من سورة غافر؛ وفي الآيات 33 و34 و35 من سورة الزخرف؛ وفي الآية 26 من سورة الدخان؛ والآية 25 من سورة الأحقاف؛ والآية 36 من سورة الذاريات؛ وفي الآيات الثانية والثامنة والتاسعة من سورة الحشر؛ وفي الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة الممتحنة؛ وفي الآيتين الأولى والسادسة من سورة الطلاق.

2 - البلاد

من بين معاني «البلد» أو «البلدة» في اللغة العربية: «كل موضع أو قطعة مستحيزة، عامرة كانت أو غير عامرة. [قال] الأزهري: البلد كل موضع مستحيز من الأرض، عامر أو غير عامر، خال أو مسكون، فهو بلد والطائفة منها بلدة. وفي الحديث: أعوذ بك من ساكن البلد؛ البلد من الأرض: ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء، وأراد بساكنه الجن لأنهم سكان الأرض، والجمع بلاد وبُلدان.. قال بعضهم: البلد جنس المكان كالعراق والشام. والبلدة: الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق. والبلد: مكة تفخيما لها كالنجم للثريا، والعود للمندل. والبلد والبلدة: التراب. والبلد: ما لم يحفر من الأرض ولم يوقد فيه». (ابن منظور، ج3ص94).

لقد ورد ذكر البلدة والبلاد بمعناها العام في الآية 196 من سورة آل

عمران، إذ قال تعالى: «لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد»؛ وفي الآية 15 من سورة سبأ: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور»؛ والآية الرابعة من سورة غافر: «ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد»؛ وقال تعالى في الآيتين 11 و36 من سورة ق: «رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج»، «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص»؛ وفي الآيتين 8 و11 من سورة الفجر: «التي لم يخلق مثلها في البلاد»، «الذين طغوا في البلاد».

وورد ذكر «البلد» و«البلدة» مخصصا لمكة المكرمة في الآية 126 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير». فسّر ابن عاشور قوله تعالى ﴿بلدا﴾: «يطلق البلد على القرية المكونة من بيوت عدة لسكنى أهلها بها وهو إطلاق حقيقي هو أشهر من إطلاق البلد على الأرض المتسعة والظاهر أن دعوة إبراهيم المحكية في هذه الآية كانت قبل أن تتقرى مكة حيث لم يكن بها إلا بيت إسماعيل أو بيت أو بيتان آخران لأن إبراهيم ابتدأ عمارته ببناء البيت من حجر، ولأن إلهام الله إياه لذلك لإرادته تعالى مصيرها مهيع الحضارة لتلك الجهة إرهاصا لنبوة سيدنا محمد ﷺ، ويحتمل أن ذلك المكان كان مأهولا بسكان وقت مجيء إبراهيم وامرأته وابنه، والعرب يذكرون أنه كان في تلك الجهة عشائر من جرهم وقصورا والعمالقة والكركر في جهات أجياد وعرفات». (ت. ع، ج1 ص695)

وقال تعالى في الآية 35 من سورة إبراهيم: «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام»؛ وفي الآية 91 من سورة النمل:

«إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين»؛ وقال تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة البلد: «لا أقسم بهذا البلد. وأنت حل بهذا البلد»؛ وفي الآية الثالثة من سورة التين: «وهذا البلد الأمين».

3 - القريـــة

تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تذكر القرية والقرى، بمعنى أشمل من معنى القرية المتعارف عليه في وقتنا الحاضر وهو رديف تجمع سكاني بدوي محدود. وقد ورد في «لسان العرب» لابن منظور: «القَرْية والقِرْية، لغتان: المصر الجامع.. وجمعها قرًى.. وفي الحديث: أن نبيا من الأنبياء أمر بقرية النمل فأحرقت؛ هي مسكنها وبيتها.. والقرية من المساكن والأبنية والضياع وقد تطلق على المدن. وفي الحديث: أُمِرْتُ بقرية تأكل القرى؛ هي مدينة الرسول ﷺ، ومعنى أكلها القرى ما يُفتح على أيدي أهلها من المدن ويصيبون من غنائمها.. وقوله تعالى: وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها، بيت المقدس، وقيل: الشام، وكان بين سبأ والشام قرى متصلة فكانوا لا يحتاجون من وادي سبأ إلى الشام إلى زاد.. والنسب إلى قرية قرئي، في قول أبي عمرو، وقروي، في قول يونس. وقول بعضهم: ما رأيت قرويا أفصح من الحجاج إنما نسبه إلى القرية التي هي المصر». (ابن منظور، ج15 ص ص177-178)

قال تعالى في الآية 259 من سورة البقرة: ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾؛ وفي الآية 75 من سورة النساء: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾؛

والآية 123 من سورة الأنعام: «وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون»؛ وورد ذكر القرية في الآيات 4 و82 و88 و94 و96 و97 و98 و161 و163 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 98 من سورة يونس؛ وفي الآيات 100 و102 و117 من سورة هود؛ وفي الآيتين 82 و109 من سورة يوسف؛ وفي الآية الرابعة من سورة الحجر؛ والآية 112 من سورة النحل؛ وفي الآيتين 16 و58 من سورة الإسراء؛ وفي الآيتين 59 و77 من سورة الكهف؛ والآيات 6 و11 و74 و95 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 45 و48 من سورة الحج: والآية 40 من سورة الفرقان؛ والآية 208 من سورة الشعراء؛ وفي الآيتين 34 و56 من سورة النمل؛ وفي الآيتين 58 و59 من سورة القصص؛ وفي الآيتين 31 و34 من سورة العنكبوت؛ والآية 18 من سورة سبأ؛ والآية 13 من سورة يس؛ وفي الآية السابعة من سورة الشورى؛ وفي الآيتين 23 و31 من سورة الزخرف: والآية 27 من سورة الأحقاف؛ والآية 13 من سورة محمد؛ وفي الآيتين 7 و14 من سورة الحشر؛ والآية الثامنة من سورة الطلاق.

4 - المدينــة

جاء في قاموس «لسان العرب» تحت مادة «مدن»: «مَدَن بالمكان: أقام به، فعل مُمات. ومنه المدينة. وهي فعيلة، وتجمع على مدائن، بالهمز، ومُدْن ومُدُن بالتخفيف والتثقيل؛ وفيه قول آخر: أنه مَفْعِلة من دِنْتُ أي مُلِكْتُ.. وفلان مدّن المدائن: كما يقال مَصَّرَ الأمصار.. والمدينة: الحصن يبنى في أُصطُمّة الأرض، مشتق من ذلك. وكل أرض يبنى بها حصن في أصطمتها فهي مدينة، والنسبة إليها مديني، والجمع مدائن ومدن.. والمدينة اسم مدينة سيدنا رسول الله ﷺ، خاصة غلبت عليها تفخيما لها، شرّفها الله وصانها». (ابن منظور، ج13 ص402)

لقـد ورد ذكـر المدينـة والمدائن في بعض القـصص القـرآنيـة التي تطرقت لأقوام وحضـارات سـبقـت الإسـلام. قـال تعـالى في الآيتين 111 و123 من سورة الأعراف: «قـالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حـاشرين»، «قال فـرعون آمنتم به قـبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فـي المدينة لتـخـرجـوا منهـا أهلهـا فسوف تعلمون»؛ وفي الآية 30 من سورة يوسف: «وقال نسـوة في المدينة امرأة العزيز تراود فـتـاها عن نفسـه قـد شـغـفـها حبـا إنا لنراهـا فـي ضـلال مبين»؛ والآية 67 من سـورة الحـجـر: «وجـاء أهـل المدينة يستـبـشـرون»؛ كـمـا ورد ذكـر المدينة في الآيتين 19 و82 من سـورة الكهـف؛ وفي الآيتين 36 و53 من سـورة الشعـراء؛ وفي الآيات 15 و18 و20 من سورة القـصص؛ وفي الآية 60 من سورة الأحزاب؛ والآية 20 من سورة يس.

وورد ذكـر المدينة المنورة في الآيتين 101 و120 من سـورة التـوبة، إذ قـال تعالى: «وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعـذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم»، ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعـراب أن يتخلفـوا عن رسـول الله ولا يرغـبوا بأنفسهم عن نفسه﴾؛ وفي الآية الثـامنة من سورة «المنافقون»: «يقـولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعـز منهـا الأذل ولله العـزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون».

5 - الكـهف

على الرغم من أن الكهوف - باعتبـارها مكانا للسكن - ارتبطت في مخيلة الناس، بالإنسـان البـدائي الذي يعود لعصور قديمة، إلا أنها تظل أماكن آمنة يمكن اللجوء إليها عند الحـاجـة، في وقـتنا الحـاضـر أثناء الحـروب ومـواقف الشدة التي تستدعي الاختباء. والكهف - كمكان للسكن أو الإقامة - ورد في

القرآن مرتبطا بالفتية الذين خلدهم الذكر الحكيم في سورة الكهف. إذ مكثوا في كهفهم نياما ثلاثمائة وتسع سنين، فرارا من الفتنة في دينهم.

قال تعالى في الآيات 9 و10 و11 و16 و25 من سورة الكهف: «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا. إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا. فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا»، «وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا»، «ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا».

وقد بين الله سبحانه وتعالى الكيفية التي رتبت عليها البيئة التي قضوا فيها كل هذه المدة، في الآيات 17 و18 و19، إذ قال تعالى: «وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا. وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا».

المبحث الخامس

أماكن العبادة

تتمتع الأماكن المخصصة للعبادة بخصوصية وقداسة لا تتمتع بها بقية الأماكن. فهي تُشيّد بكيفية خاصة تُراعى فيها المساحة وكيفية استغلالها، ويُراعى التزيين الداخلي الذي يعكس جمالا ينسجم مع الطابع الروحي للعبادة، وكذا النظافة التي هي شرط من شروط العبادة. وقد عُرف بيت الله الحرام في مكة كأشهر مكان للعبادة على مر التاريخ البشري منذ أن أقامه سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام. وفي الديانات السماوية القديمة استخدم اليهود الصلوات كأماكن للتعبد واتخذ النصارى الصوامع والبيع والكنائس؛ واكتسى المسجد عند المسلمين شهرة بالغة، إذ يستخدم للعبادة وتلقي العلم.

وبالإضافة إلى الأماكن المخصصة للعبادة، فإن الإنسان قد يلجأ إلى الأماكن المعزولة للتعبد، خاصة في المغارات والكهوف. أما في الدين الإسلامي، حيث يعد التعبد سلوكا يوميا يمارسه الفرد، يستطيع المسلم أن يقيم شعائر الصلاة في أي مكان طاهر عندما يدركه الوقت، فقد روى الإمام

مسلم: «عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍ: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأُحِلَّتْ ليَ الغنائم، وجُعِلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بيَ النبيُّون». (المنذري، 2000، ص ص89–90) بينما تقام شعائر الحج في الأماكن المقدسة التي يؤمها المسلمون من كل بقاع الدنيا.

1 - المساجد

يعتبر المسجد الرمز الأبرز للإسلام في أي مكان يتواجد به المسلمون. فالمسجد هو صرح معماري يجتهد المسلمون في إبداعه وتزويده بالمآذن والمنارات الشاهقة والقباب التي زيّنتها خيرة الأنامل الماهرة، أي إن المسجد يجب أن يُبنى في اقوم هيئة وأبهى مظهر ليليق بكونه بيت الله، وعلى من يرتاده أن يراعي حرماته ويدخله في هيئة ومظهر يتماشى مع عظمة الوقوف أمام الله سبحانه وتعالى.

وقد روى الإمام البخاري حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه في سعي المسلمين الدؤوب منذ فجر الإسلام في الاجتهاد في بناء المساجد وتطويرها وتجميلها:

«عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنه، قال: إن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنيا باللَّبِن، وسقفه الجريد، وعُمُدُه خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئا، وزاد فيه عمر، وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ، باللبن والجريد، وأعاد عمده خشبا، ثم غيّره عثمان، فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالسّاج». (البخاري، 1999، ص94)

ورد ذكر المسجد في الآيتين 114 و187 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ﴾، ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 29 و31 من سورة الأعراف: «قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون»، ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾.

أورد الإمام الرازي في المقصود من الزينة في الآية السابقة: «قال ابن عباس: إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة. الرجال والنساء بالليل، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى، طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة، وقالوا: لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب، ومنهم من يقول: نفعل ذلك تفاؤلا حتى نتعرى عن الذنوب كما تعرينا عن الثياب، وكانت المرأة منهم تأخذ سترا تعلقه على حقويها، لتستتر به عن الحمس، وهم قريش، فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك، وكانوا يصلون في ثيابهم.. المراد من الزينة لبس الثياب، والدليل عليه: قوله تعالى ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ يعني الثياب، وأيضا فالزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات، ولذلك صار التزيين بأجود الثياب في الجمع والأعياد سنة.. ». (ت. ر. ج14 م7 ص64)

وقال تعالى في الآيات 17 و18 و107 و108 من سورة التوبة: «ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين»، «والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين»؛ وقال تعالى في الآية 21 من سورة الكهف: ﴿ قال

الذين غلبوا على امرهم لنتخذن عليهم مسجدا ﴾؛ وفي الآية 40 من سورة الحج: ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾؛ والآية 18 من سورة الجن: «وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا».

2 - الكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى

الكعبة والمسجد الحرام هما أقدس مكانين للعبادة في الدين الإسلامي. فالكعبة هي بيت الله الذي يحجه المسلمون من كل فجاج الأرض ليتعبدوا ويؤدوا شعائر فريضة الحج، ويطلق عليها: البيت. «والبيت عَلَم بالغلبة على الكعبة كما غلب النجم على الثريا.. والكعبة بيت بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده دون شريك فيأوي إليه من يدين بالتوحيد ويطوف به من يقصد تعظيم الله تعالى.. ومقام إبراهيم يطلق على الكعبة لأن إبراهيم كان يقوم عندها يعبد الله تعالى ويدعو إلى توحيده.. ويطلق مقام إبراهيم على الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنائه الكعبة ليرتفع لوضع الحجارة في أعلى الجدار.. والمصلى موضع الصلاة وصلاتهم يومئذ الدعاء والخضوع إلى الله تعالى، وكان إبراهيم قد وضع المسجد الحرام حول الكعبة ووضع الحجر». (ت. ع، ج1 ص ص689-692)

والمسجد الأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، بناه سيدنا سليمان عليه السلام، وهو المسجد المعروف ببيت المقدس الكائن بمدينة القدس بفلسطين. وسُمي الأقصى «أي الأبعد. والمراد بعده عن مكة، بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام، وهو وصف كاشف اقتضاه هنا زيادة التنبيه على معجزة هذا الإسراء وكونه خارقا للعادة لكونه قطع مسافة طويلة في بعض ليلة». (ت. ع، ج14 ص ص12-13)

ورد ذكر الكعبة والمسجد الحرام في عشر آيات من سورة البقرة، إذ قال تعالى في الآية 125: «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود»، وفي الآية 127: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»، والآية 144: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾، وفي الآيتين 149 و150: «ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون. ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون»، وفي الآية 158: «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم»، والآية 191: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾، وفي الآية 196: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾، وفي الآية 200: «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق»، والآية 217: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾.

وورد ذكر الكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى في الآيتين 96 و97 من سورة آل عمران؛ وفي الآيات 2 و95 و97 من سورة المائدة؛ وفي الآيتين 34 و35 من سورة الأنفال؛ وفي الآيات 7 و19 و28 من سورة التوبة؛ وقال تعالى في الآيتين الأولى والسابعة من سورة الإسراء: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير»، «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا»؛ وفي الآيات 25 و26 و29 و33 من سورة الحج؛ وفي الآيتين 25 و27 من سورة الفتح؛ وفي الآية الرابعة من سورة الطور؛ والآية الثالثة من سورة قريش.

3 - أماكن أخرى للعبادة

من بين الأماكن التي ارتبط اسمها بالعبادة، نجد المحراب الذي عُرف في الديانات السماوية القديمة والديانة الإسلامية، ويعرف اليوم في المساجد باسم «المنبر» الذي يخطب عليه خطيب الجمعة.

وقد جاء في قاموس «لسان العرب»: «المحراب: صدر البيت، وأكرم موضع فيه، والجمع محاريب، وهو أيضا الغرفة.. أنشد الأزهري قول امرئ القيس: كغزلان رمل في محاريب أقوال. قال: والمحراب عند العامة: الذي يقيمه الناس اليوم مقام الإمام في المسجد، وقال الزجاج في قوله تعالى وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب؛ قال: المحراب أرفع بيت في الدار، وأرفع مكان في المسجد.. وفي الحديث: أن النبي، ﷺ، بعث عروة بن مسعود رضي الله عنه، إلى قومه بالطائف، فأتاهم ودخل محرابا له، فأشرف عليهم عند الفجر، ثم أذّن للصلاة. قال: وهذا يدل على أنه غرفة يُرتقى إليها. والمحاريب: صدور المجالس، ومنه سمي محراب المسجد.. والمحراب: القِبْلة. ومحراب المسجد أيضا: صدره وأشرف موضع فيه. ومحاريب بني إسرائيل: مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها؛ وفي التهذيب: التي يجتمعون فيها للصلاة.. وقوله تعالى: فخرج على قومه من المحراب، قالوا: من المسجد..

وقيل: المحراب الموضع الذي ينفرد فيه الملك، فيتباعد عن الناس؛ قال الأزهري: وسُمي المحراب محرابا، لانفراد الإمام فيه، وبُعده من الناس.. وقال الفراء في قوله عز وجل: من محاريب وتماثيل؛ ذُكِر أنها صور الأنبياء والملائكة، كانت تصور في المساجد، ليراها الناس فيزدادوا عبادة». (ابن منظور، ج1 ص ص305-306)

وقد ورد ذكر المحراب في سورة آل عمران في الآيتين 37 و39، إذ قال تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا﴾، ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب﴾؛ وقال تعالى في الآية 11 من سورة مريم: «فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا»؛ وفي الآية 13 من سورة سبأ: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾؛ والآية 21 من سورة ص: «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب».

وتضمنت الآية 40 من سورة الحج أشهر الأماكن التي يتعبد فيها أصحاب الرسالات السماوية الثلاث، (اليهود والنصارى والمسلمون).

قال تعالى: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾.

وقد جاء في تعريف ابن عاشور للصوامع والبيع والصلوات والمساجد:

«الصوامع: جمع صومعة بوزن فوعلة، وهي بناء مستطيل مرتفع يصعد إليه بدرج وبأعلاه بيت، كان الرهبان يتخذونه للعبادة ليكونوا بعداء عن مشاغلة الناس إياهم، وكانوا يوقدون به المصابيح للإعانة على السهر للعبادة ولإضاءة الطريق للمارين. من أجل ذلك سُمّيت الصومعة المنارة..

والبِيَع: جمعة بِيْعة مكان عبادة النصارى ولا يعرف أصل اشتقاقها، ولعلها معرّبة عن لغة أخرى.

والصلوات: جمع صلاة وهي هنا مراد بها كنائس اليهود معرّبة عن كلمة (صلوثا). فلما عُربت جعلوا مكان المثلثة مثناة وجمعوها كذلك..

والمساجد: اسم لمحل السجود من كل موضع عبادة ليس من الأنواع الثلاثة المذكورة قبله وقت نزول هذه الآية فتكون الآية نزلت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة حين بنَوا مسجد قباء ومسجد المدينة». (ت. ع، ج17 ص201)

أما الغار وهو «مغارة في الجبل كالسَّرب، وقيل: الغار كالكهف في الجبل، والجمع الغيران؛ وقال اللحياني: هو شبه البيت فيه، وقال ثعلب: هو المنخفض في الجبل.. ». (ابن منظور، ج5ص35)، فقد اشتهر في الإسلام «غار حراء» الذي كان يتعبد فيه الرسول ﷺ. وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن بدء الوحي وقد ورد في الصحيحين: «قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حِراء، فيتحنث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء.. ». (البخاري، 1999، ص4)

وقد ورد ذكر الغار في الآية 40 من سورة التوبة، إذ قال تعالى: «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم». ويعرّفنا الإمام الزمخشري بالغار الوارد في هذه الآية، قائلا: «والغار: ثقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثا». (ت. ز، ج2 ص263)

المبحث السادس

ترتيب السماء

رأينا في المبحث الخامس من الفصل السابع أن لفظ السماء غالبا ما يدل في لغة القرآن، على الغلاف الجوي المحيط بالأرض أو كل ما يبدو فوق الواقف على سطح الكرة الأرضية، بينما لفظ السماوات يدل على كواكب المجموعة الشمسية. لكن إذا تأملنا في العديد من الآيات القرآنية، يتضح لنا أن لفظ السماء أو السماوات يدل على شيء أعظم لا ندرك بالتحديد هل هو المجرة التي ننتمي إليها أم هو الكون بأسره، أم هو شيء آخر يندرج ضمن علم الغيب. فعندما يقول تعالى في كتابه العزيز في الآية الخامسة من سورة السجدة: «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون»، فإن المسافة التي تبعد ألف سنة، لا شك أنها خارج نطاق الغلاف الجوي للأرض وربما خارج نطاق المجموعة الشمسية؛ أو عندما يقول ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾، نكون أمام سماء لا علم لنا به.

لذا عندما نتحدث عن ترتيب بيئة السماء كما وردت في القرآن، فإننا نتحدث عن موجود معرفتنا به لا ترقى إلى معرفتنا بالأرض التي خلقنا منها ونعيش فوقها وندفن فيها. ويكون السماء، في هذا السياق: كل ما يبعد عن الأرض سواء كان مدركا من لدنا أو لا تدركه حواسنا أو الآلات التي نصنعها من أجل استكشاف الكون.

فالكون المعلوم لدى علماء الفلك، حتى الآن، يبلغ نصف قطره 15 بليون سنة ضوئية (يقطع الضوء خلال سنة واحدة حوالي عشرة تريليونات سنة، والتريليون يساوي ألف بليون). ويتصور عالم الفيزياء أندريه ليندي وجود كون أضخم بكثير من كوننا هذا، ربما يمتد إلى اللانهاية، سواء في المكان أو الزمان. (ساجان، 2000، ص49) ولكن هذا التصور يتناقض مع حقيقة أن الكون مخلوق وليس أزلياً، التي أكدها القرآن الكريم والكتب السماوية التي سبقته.

وعلينا الآن، وفقا لاكتشافات الفضاء وعلم الفلك، أن نعيد النظر في تفسيرنا للسماء والسماوات، آخذين في الاعتبار الحجم الهائل للكون.

1 - خلق السماء والسماوات

إن أولى الترتيبات المتعلقة بوجود أي شيء أو بسلوكه المستقبلي، تتم عند خلقه. لذا فإن السمات العامة لسماء الدنيا أو للسماوات الأخرى أوجدها الله سبحانه وتعالى عند خلقها، وقد ذكر الله جل شأنه أن هذا الخلق تم في يومين.

فقد ورد ذكر خلق السماء والسماوات في الآيتين 29 و164 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم»، «إن في خلق السماوات

والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»

يقول ابن عاشور موضحا المراد من السماوات السبع في الآية 29 من سورة البقرة: «وقد عد الله تعالى في هذه الآية وغيرها السماوات سبعا وهو أعلم بها وبالمراد منها إلا أن الظاهر الذي دلت عليه القواعد العلمية أن المراد من السماوات الأجرام العلوية العظيمة وهي الكواكب السيارة المنتظمة مع الأرض في النظام الشمسي وتدل على ذلك أمور:

أحدها: أن السماوات ذكرت في غالب مواضع القرآن مع ذكر الأرض وذكر خلقها هنا مع ذكر الأرض فدل على أنها عوالم كالعالم الأرضي وهذا ثابت للسيارات.

ثانيها: أنها ذكرت مع الأرض من حيث إنها أدلة على بديع صنع الله تعالى فناسب أن يكون تفسيرها تلك الأجرام المشاهدة للناس المعروفة للأمم الدال نظام سيرها وباهر نورها على عظمة خالقها.

ثالثها: أنها وصفت بالسبع وقد كان علماء الهيئة [الفلك] يعرفون السيارات السبع من عهد الكلدانيين وتعاقب علماء الهيئة من ذلك العهد الذي نزل فيه القرآن فما اختلفوا في أنها سبع.

رابعها: أن هاته السيارات هي الكواكب المنضبط سيرها بنظام مرتبط مع نظام سير الشمس والأرض، ولذلك يعبر عنها علماء الهيئة المتأخرون بالنظام الشمسي فناسب أن تكون هي التي قرن خلقها بخلق الأرض. وبعضهم يفسر السماوات بالأفلاك وهو تفسير لا يصح لأن الأفلاك هي الطرق التي تسلكها

الكواكب السيارة في الفضاء، وهي خطوط فرضية لا ذوات لها في الخارج.

هذا وقد ذكر الله تعالى السماوات سبعا هنا وفي غير آية، وقد ذكر العرش والكرسي بما يدل على أنهما محيطان بالسماوات وجعل السماوات كلها في مقابلة الأرض.. والأرض في اصطلاحهم كوكب سيار، وفي اصطلاح القرآن لم تعد معها لأنها التي منها تنظر الكواكب وعُدّ عوضا عنها القمر وهو من توابع الأرض فعده معها عوض عن عد الأرض تقريبا لأفهام السامعين.

وأما الثوابت فهي عند علماء الهيئة شموس سابحة في شاسع الأبعاد عن الأرض وفي ذلك شكوك. ولعل الله لم يجعلها سماوات ذات نظام كنظام السيارات السبع فلم يعدها في السماوات أو أن الله إنما عد لنا السماوات التي هي مرتبطة بنظام أرضنا». (ت. ع، ج1 ص ص379-380) ولعل الجملة الأخيرة من كلام ابن عاشور هي أقرب إلى ما توصل إليه علم الفلك الحديث من كون المجموعة الشمسية التي نعيش فيها ما هي إلا نقطة في بحر الكون الشاسع.

وورد ذكر خلق السماوات في الآيتين 190 و191 من سورة آل عمران؛ وفي الآيتين 1 و73 من سورة الأنعام؛ وفي الآية 54 من سورة الأعراف؛ والآية 36 من سورة التوبة؛ وفي الآيتين الثالثة والسادسة من سورة يونس؛ والآية السابعة من سورة هود؛ وفي الآيتين 19 و32 من سورة إبراهيم؛ وفي الآية الثالثة من سورة النحل؛ والآية 99 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 51 من سورة الكهف؛ والآية الرابعة من سورة طه؛ والآية 16 من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 17 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآية 59 من سورة الفرقان؛ والآية 60 من سورة النمل؛ وفي الآيتين 44 و61 من العنكبوت؛ وفي الآيتين 8 و22 من سورة الروم؛ وفي الآيتين 10 و25 من سورة لقمان؛ والآية الرابعة من سورة السجدة؛ والآية 81 من سورة يس؛ وفي الآيتين 5 و38 من سورة الزمر؛ وفي الآية 57 من سورة غافر؛ والآية

29 من سورة الشورى؛ والآية التاسعة من سورة الزخرف؛ وفي الآية 38 من سورة الدخان؛ والآية 22 من سورة الجاثية؛ وفي الآيتين 3 و33 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 38 من سورة ق؛ والآية 36 من سورة الطور؛ وفي الآية الرابعة من سورة الحديد؛ وفي الآية الثالثة من سورة التغابن؛ والآية 12 من سورة الطلاق؛ وفي الآية الثالثة من سورة الملك؛ وفي الآية 15 من سورة نوح.

وفي سورتي البقرة والأنعام، ذكر لخلق الله جل شأنه للسماوات خلقا بديعا. قال تعالى في الآية 117 من سورة البقرة: «بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»؛ وفي الآية 101 من سورة الأنعام: ﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾.

وورد في بعض الآيات أن الله فطر السماوات - كما فطر الأرض - إذ قال تعالى في الآيتين 14 و79 من سورة الأنعام: ﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض﴾، «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين»؛ وفي الآية 101 من سورة يوسف: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض﴾؛ والآية العاشرة من سورة إبراهيم: ﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض﴾؛ وقال تعالى في الآية الأولى من سورة فاطر: ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض﴾؛ وفي الآية 46 من سورة الزمر: ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض﴾؛ والآية 11 من سورة الشورى: ﴿فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا﴾.

2 - هيئة السماء

إن الآيات التي تشير إلى الكيفية التي خلق الله بها السماء، توحي وكأننا

أمام شيء ملموس يشبه السقف الذي يبنيه الإنسان للمنزل أو أي مبنى آخر. وهذا ينسجم مع ما يدركه المتلقي الذي يرى السماء فوقه كقبة أو سقف مُحلّى ومرصع بعدد هائل من النجوم والأجرام السماوية، أي إن التعبير القرآني يتماشى مع فهم المتلقي قصد إيصال المعنى وتحقيق الأثر الإقناعي. وهناك احتمال أن تكون الأمور كما صفت ولكن لا تدركها حواس المتلقي، أي إن السماء مرفوعة ومزيّنة ببروج، وهي سقف وتُطوى يوم القيامة طي السجل للكتاب، كما ورد في القرآن الكريم؛ ولها أبواب ويعرج إليها الملائكة وينزلون منها.

يقول الله سبحانه وتعالى في كيفية بناء السماء، في الآية الثانية من سورة الرعد: «الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون»؛ وقال تعالى في الآيات 16 و17 و18 من سورة الحجر: «ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين».

يوضح ابن عاشور المقصود من البروج في الآيات السابقة، قائلا:

«أطلق البرج على بقعة معينة من سمت طائفة من النجوم غير السيارة (وتسمى النجوم الثوابت) متجمع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها لا تتغير فيما يُشاهد من الجو، فتلك الطائفة تكون بشكل واحد يشابه نقطا لو خططت بينها خطوط لخرج منها شِبه صورة حيوان أو آلة سموا باسمها تلك النجوم المشابهة لهيئتها وهي واقعة في خط سير الشمس.

وقد سماها الأقدمون من علماء التوقيت بما يرادف معنى الدار أو المكان. وسماها العرب بروجا ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سببا لوضع الاسم؛ تخيلوا أنها منازل للشمس لأنهم وقتوا بجهتها سمت موقع الشمس من

قبة الجو نهارا فيما يخيل للناظر أن الشمس تسير في شبه قوس الدائرة. وجعلوها اثني عشر مكانا بعدد شهور السنة تتغير وراء الشمس مدة معينة. ثم إذا انتقل موقع الأرض من مدارها كل شهر من السنة تتغير الجهة المقابلة لها. فبما كان لها من النظام تسنّى أن تجعل علامات لمواقيت حلول الفصول الأربعة وحلول الأشهر الاثني عشر، فهم ضبطوا لتلك العلامات حدودا وهمية عينوا مكانها في الليل من جهة موقع الشمس في النهار وأعادوا رصدها يوما فيوما، وكلما مضت مدة شهر من السنة ضبطوا للشهر الذي يليه علامات في الجهة المقابلة لموقع الشمس في تلك المدة. وهكذا، حتى رأوا بعد اثني عشر شهرا أنهم قد رجعوا إلى مقابلة الجهة التي بدأوا منها فجعلوا ذلك حولا كاملا. وتلك المسافة التي تخال الشمس قد اجتازتها في مدة السنة سموها دائرة البروج أو منطقة البروج. وللتمييز بين تلك الطوائف من النجوم جعلوا لها أسماء الأشياء التي شبهوها بها وأضافوا البرج إليها.. وأول من رسم هذه الرسوم الكلدانيون، ثم انتقل علمهم إلى بقية الأمم؛ ومنهم العرب فعرفوها وضبطوها وسموها بلغتهم.

ولذلك أقام القرآن الاستدلال بالبروج على عظيم قدرته وانفراده بالخلق لأنهم قد عرفوا دقائقها ونظامها الذي تهيأت به لأن تكون وسيلة ضبط المواقيت بحيث لا تُخلف ملاحظة راصدها. وما خلقها الله بتلك الحالة إلا ليجعلها صالحة لضبط المواقيت كما قال تعالى: ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾[يونس: 5]. ثم ارتقى في الاستدلال بكون هذه البروج العظيمة الصنع قد جعلت بأشكال تقع موقع الحسن في الأنظار فكانت زينة للناظرين يتمتعون بمشاهدتها في الليل فكانت الفوائد منها عديدة». (ت. ع، ج13 ص ص23-24)

وقال تعالى في الآيتين 30 و32 من سورة الأنبياء: «أو لم ير الذين كفروا أن

السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون»، «وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون»؛ وفي الآية 61 من سورة الفرقان: «تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا»؛ وقال تعالى في الآية 25 من سورة الروم: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾؛ وفي الآية 12 من سورة فصلت: «فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم»؛ وقال تعالى في الآيات 6-10 من سورة الصافات: «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب. دحورا ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب»؛ وفي الآية 64 من سورة غافر: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء﴾.

وتمت الإشارة إلى هيئة السماء في الآيتين 11 و12 من سورة فصلت؛ وفي الآية السادسة من سورة ق؛ وفي الآيتين 7 و47 من سورة الذاريات؛ وفي الآية الخامسة من سورة الطور؛ والآية السابعة من سورة الرحمن؛ وفي الآية 16 من سورة نوح؛ والآيات 27 و28 و29 من سورة النازعات؛ وفي الآيات الأولى والثانية والثالثة من سورة البروج؛ وفي الآية 18 من سورة الغاشية؛ والآية الخامسة من سورة الشمس.

وتتضح هيئة السماء باعتبارها مكانا يتضمن العديد من الأشياء وله حدود إقليمية وله أبواب تُغلق وتُفتح ويدخل ويخرج منها من قدّر الله له ذلك، في الآيات التالية:

قال تعالى في الآية 153 من سورة النساء: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾؛ وفي الآيتين 35 و125 من سورة الأنعام: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في

السماء فتأتيهم بآية﴾، ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء﴾؛ والآية 40 من سورة الأعراف: «إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين»؛ وقال تعالى في الآية 14 من سورة الحجر: «ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون»؛ وفي الآية 93 من سورة الإسراء: ﴿أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء﴾؛ والآية 104 من سورة الأنبياء: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 15 و31 من سورة الحج: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء﴾، ﴿حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير﴾؛ وفي الآية 33 من سورة الرحمن: «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان»؛ وقال تعالى في الآيتين 12 و19 من سورة النبأ: «وبنينا فوقكم سبعا شدادا»، «وفتحت السماء فكانت أبوابا».

3 - محتويات السماوات وملكيتها

لقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تؤكد أن لله كل ما في السماوات والأرض. ولا شك أن قدرات الإنسان تعجز عن إدراك محتويات السماوات لعدم إدراكه لحجم تلك السماوات وسعتها، وما تتضمنه إلا من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسيرة النبوية.

قال تعالى في الآيات 107 و116 و255 و284 من سورة البقرة: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض﴾، «وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون»، ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا

تأخـذه سنة ولا نـوم له مـا في السـمـاوات ومـا في الأرض﴾، ﴿لله مـا في السـمـاوات ومـا في الأرض﴾؛ وكـذا في الآيات 83 و109 و129 و180 و189 من سـورة آل عـمـران؛ وفي الآيات 126 و131 و132 و170 و171 من سـورة النسـاء؛ والآيات 17 و18 و40 و120 من سـورة المائدة؛ وفي الآيات 3 و12 و75 من سـورة الأنعـام؛ وفي الآيتين 158 و185 من سـورة الأعـراف؛ والآية 116 من سـورة التـوبة؛ وفي الآيات 55 و66 و68 من سـورة يونس؛ والآية 15 من سـورة الرعد؛ والآية الثـانيـة من سـورة إبراهيم؛ وفي الآيتين 49 و52 من سـورة النحل؛ وفي الآية 44 من سورة الإسـراء؛ والآية 93 من سورة مـريم؛ وفي الآية السـادسة من سـورة طه؛ والآية 19 من سـورة الأنبـيـاء؛ وفي الآيتين 18 و64 من سـورة الحج؛ وفي الآيات 41 و42 و64 من سورة النور؛ والآية الثـانية من سورة الفـرقان؛ وفي الآيات 18 و26 و27 من سـورة الروم؛ وفي الآية 26 من سـورة لقـمـان؛ والآية 40 من سـورة فـاطر؛ وفي الآية العـاشـرة من سـورة ص؛ وفي الآيتين 44 و63 من سـورة الزمـر؛ والآيات 4 و12 و49 و53 من سـورة الشـورى؛ وفي الآيتين 84 و85 من سـورة الزخـرف؛ وفي الآيتين 27 و37 من سـورة الجـاثيـة؛ والآية الرابعـة من سـورة الأحـقـاف؛ وفي الآيات 4 و7 و14 من سـورة الفـتح؛ وفي الآيتين 26 و31 من سـورة النـجم؛ وفي الآيات الأولى والثـانيـة والخـامسـة والعـاشـرة من سورة الحديد؛ وفي الآيتين 1 و24 من سورة الحشـر؛ والآية الأولى من سـورة الصف؛ والآية الأولى من سـورة الجـمـعـة؛ وفي الآية السـابـعـة؛ والآية الأولى من سـورة التغابن؛ والآية التاسعة من سورة البروج.

والله سبحانه وتعالى هو رب السماوات، كما قال جل شأنه في الآية 16 من سـورة الرعـد: «قل من رب السـمـاوات والأرض قل الله قل أفـاتخـذتم من دونه أوليـاء لا يملكون لأنفسهم نفعـا ولا ضـرا قل هل يستوي الأعـمى والبصـيـر أم هل تسـتوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شـركـاء خلقوا كـخلقـه فتشـابه الخلق

عليـهم قل الله خـالق كل شيء وهو الواحـد القـهـار»؛ وكـذا في الآية 102 من سورة الإسراء؛ والآية 65 من سورة مريم؛ وفي الآية 56 من سورة الأنبياء وفي الآية 86 من سـورة «المؤمنون»؛ والآيـة 24 من سـورة الشـعـراء؛ وفي الآيـة الخامسة من سورة الصافات؛ وفي الآية 66 من سورة ص؛ والآية 82 من سورة الزخـرف؛ وفي الآية السـابعـة من سـورة الدخـان؛ وفـي الآية 36 من سـورة الجاثية؛ والآية 37 من سورة النبأ.

4 - الأجـرام السماويـة

يشتمل السماء بمفهومه الواسع الذي ينطبق على الفضاء كما نعرفه الآن أو الكون المُلاحظ من لدن علماء الفلك، على كم هائل من الأجـرام السابحة التي ذكر الله سبحانه وتعالى بعضها في قوله ﴿كل في فلك يسبحون﴾. وإذا كانت السمة البارزة الأولى للأجرام السابحة في الكون، حركتها الدائمة في اتجاه تمدد الكون؛ فإن السمة الثانية تكمن في الحركة المنتظمة لبعض الأجرام السماوية في فلك أو مدارات لا يمكن تفسيرها وفقا لنظرية الانفجار الكبير والتي توحي بأن انفجارا غير مدّبر قد وقع، وكل ما يحدث إلى الآن من آثاره. والتفسير الصحيح لهذه الحركة المنتظمة يستمد من القرآن الكريم، الذي بين أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقال تعالى في الآية 65 من سورة الحج: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾؛ وقال تعالى في الآية 41 من سورة فاطر: «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا».

ويلاحظ أن ذكر الأجرام السماوية في القرآن الكريم ارتكز إلى إفهام السامعين؛ فقوله تعالى ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ يقترب من فهم

السامع الذي تبدو للنجوم في الفضاء وكأنها مصابيح تزين قبة السماء، بينما هي في الواقع من العظم بما لا يستوعبه إدراك الناس في ذلك الوقت، لذا نجد التركيز على بعض الأجرام المعروفة لدى الناس في زمن نزول القرآن، كالشمس والقمر وبعض الأنجم التي خبرها الناس واعتمدوا عليها في الاستدلال والتعرف إلى فصول السنة والاتجاهات الأربعة. فإذا كانت الشمس هي الجرم الأكثر أهمية للإنسان ومصدر حياته، فإن القمر - بالرغم من أنه تابع للأرض ولا يمكن مقارنته بالأجرام الأخرى التي يعج بها الكون وتفوقه حجما ونوعا - يتلو الشمس في أهميته كمصدر غير مباشر للضوء وحركته مصدر للتعرف إلى الوقت والحساب، ولحركته أثر كبير في الحياة البرية والبحرية.

قال تعالى عن الشمس والقمر والنجوم، في الآية 258 من سورة البقرة: ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾؛ وفي الآيتين 78 و97 من سورة الأنعام: «فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون»، «وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون»؛ والآية الخامسة من سورة يونس: «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون»؛ وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة يوسف: «إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين»؛ وفي الآية 16 من سورة النحل: «وعلامات وبالنجم هم يهتدون»؛ وقال تعالى في الآيات 17 و86 و90 من سورة الكهف: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه﴾، ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة﴾،

«حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستـرا»؛ وفي الآية 33 من سـورة الأنبيـاء: «وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون»؛ والآية 18 من سورة الحج: ﴿ألم تر أن الله يسـجد له من في السمـاوات ومن في الأرض والشمس والقمـر والنجوم﴾.

وثمة ذكر لبعض الأجرام السماوية في الآية 45 من سورة الفرقان؛ وفي الآية 24 من سورة النمل والآية 61 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 38 و39 من سورة يس؛ وفي الآية الخامسة من سورة الزمر؛ والآية 39 من سورة ق؛ وفي الآية الأولى من سورة النجم؛ في الآية الأولى من سورة القمر؛ وفي الآيتين الخامسة والسادسة من سورة الرحمن؛ وفي الآية 75 من سورة الواقعة؛ والآية 32 من سورة المدثر؛ والآية 13 من سورة النبأ؛ وفي الآية 20 من سورة التكوير؛ وفي الآيتين 18 و19 من سورة الانشقاق؛ وقال تعالى في الآيات الأولى والثانية والثالثة من سورة الطارق: «والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب»؛ وقال تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة الشمس: «والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها».

5 - العرش والكرسي وسدرة المنتهى

إن الحديث عن عرش الرحمن وكرسيه وسدرة المنتهى التي انتهى إليها إسراء رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات، يتطلب التسليم والاعتقاد بما ورد في الذكر الحكيم والسنة النبوية التي بينت بعض معالم هذه الموجودات دون البحث الدقيق عن حقيقتها لأنها تخرج عن نطاق الإدراك البشري. فالكتاب الكريم والسنة النبوية وآراء السلف الصالح، كلها تثبت وجود العرش والكرسي وسدرة المنتهى، دون أن ندرك مكان تواجدهما بالضبط. فهذه الموجودات،

ليست كبقية الموجودات المألوفة لدينا كالشمس والقمر والكواكب والنجوم التي نراها بالعين المجردة، وإن بعدت عنا.

فقد وردت بعض الآحاديث النبوية التي تشير إلى مكان العرش وسعته. ففي صحيح البخاري: «عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض». وفي صحيح مسلم: «عن جويرية بنت الحارث: أن النبي ﷺ دخل عليها وكانت تسبِّح بالحصى من صلاة الصبح إلى وقت الضحى فقال: لقد قلت بعد أربع كلمات لو وزنت بما قلتِه لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله رضى نفسه، سبحان الله مداد كلماته».

وفي الصحيحين: «عن أبي سعيد قال جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لُطم وجهه؛ فقال: يا محمد! رجل من أصحابك لطم وجهي. فقال النبي ﷺ: ادعوه فدعوه، فقال: لم لطمت وجهه؟ فقال: يا رسول الله إني مررت بالسوق وهو يقول: والذي اصطفى موسى على البشر! فقلت: يا خبيث! وعلى محمد؟ فأخذتني غضبة فلطمته. فقال النبي ﷺ: لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذا بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقته».

وجاء في صحيح البخاري: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة، وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة؛ هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها. قالوا يا رسول الله! أفلا نبشر الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة».

واستدل بعض العلماء على أن العرش على هيئة قبة، بالحديث الذي في سنن أبي داود: «عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله! جهدت الأنفس، وجاع العيال، وهلك المال، فادع الله لنا فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك؛ فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، وقال: ويحك! أتدري ما تقول؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك، إن الله على عرشه، وإن عرشه على سماواته وأرضه هكذا - وقال بأصابعه مثل القبة - وفي لفظ: وإن عرشه فوق سماواته، وسماواته فوق أرضه هكذا - وقال بأصابعه مثل القبة». (ابن تيمية، ج6 ص ص551-556)

وقد ورد ذكر العرش في الآية 54 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾؛ وفي الآية 129 من سورة التوبة: «فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم»؛ والآية الثالثة من سورة يونس: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾؛ وفي الآية السابعة من سورة هود: ﴿وكان عرشه على الماء﴾؛ وفي الآية الثانية من سورة الرعد: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش﴾؛ والآية 42 من سورة الإسراء: «قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا»؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة طه: «الرحمن على العرش استوى»؛ وفي الآية 22 من سورة الأنبياء: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون».

كما ورد ذكر العرش في الآيتين 86 و116 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآية 59 من سورة الفرقان؛ والآية 26 من سورة النمل؛ وفي الآية الرابعة من سورة السجدة؛ والآية 75 من سورة الزمر؛ وفي الآيتين 7 و15 من سورة غافر؛ وفي

الآية 82 من سورة الزخرف؛ والآية الرابعة من سورة الحديد؛ وفي الآية 17 من سورة الحاقة؛ وفي الآية 20 من سورة التكوير؛ والآية 15 من سورة البروج.

وورد ذكر كرسي الرحمن في الآية 255 من سورة البقرة (آية الكرسي)، إذ قال تعالى: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم».

وفي الحديث الشريف، روى الإمام أحمد في مسنده: «عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: آية الكرسي. ثم قال: يا أبا ذر! ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة».

أما سدرة المنتهى فقد ورد ذكرها في سورة النجم في الآيات 14 و15 و16 و54، إذ قال تعالى: «عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى»، «فغشاها ما غشى». وورد ذكرها في حديث الإسراء، الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ومما جاء فيه:

«.. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال محمد ﷺ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك، لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.. ». (المنذري، 2000، ص35)

6 - السماء كمصدر للخيرات

السماء، كما ورد في القرآن الكريم بصيغة المفرد، هو مصدر للكثير من الخيرات على الأرض وسكانها. وعلى رأس هذه الخيرات: أمطار الخير التي تهطل على الأرض فتنبت الزرع وتروي الظمأ، وهي المصدر الرئيس للنماء الذي يعم الأرض.

وقد وردت العديد من الآيات التي تشير إلى أن السماء تشكل مصدرا للخيرات، كما جاء في الآية 22 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾؛ وفي الآيتين 112 و114 من سورة المائدة: «إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين»، «قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين»؛ وقال تعالى في الآيتين 6 و99 من سورة الأنعام: ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدرارا﴾، ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾.

ووردت إشارات في الآية 96 من سورة الأعراف؛ والآية 11 من سورة الأنفال؛ وفي الآيتين 24 و31 من سورة يونس؛ وفي الآية 52 من سورة هود؛ والآية 17 من سورة الرعد؛ وفي الآية 22 من سورة الحجر؛ وفي الآيتين 65 و73 من سورة النحل؛ والآية 45 من سورة الكهف؛ وفي الآية 53 من سورة طه؛ وفي الآية 63 من سورة الحج؛ والآية 18 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآية 43 من سورة النور؛ وفي الآية 48 من سورة الفرقان؛ والآية 64 من سورة النمل؛ والآية 63 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 24 و48 من سورة الروم؛ وفي الآية 20 من سورة لقمان؛ والآية 24 من سورة سبأ؛ وفي الآيتين 3 و27 من سورة فاطر؛ وفي الآية 21 من سورة الزمر؛ والآية 13 من سورة غافر؛ وفي الآية 11 من

سورة الزخرف؛ وفي الآيتين 5 و13 من سورة الجاثية؛ والآية التاسعة من سورة ق؛ وفي الآية 22 من سورة الذاريات؛ والآية 11 من سورة القمر؛ والآية 11 من سورة نوح.

7 - السماء كمصدر للعقاب

ووردت بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى أن بعض أشكال العقاب التي يلحقها الله بساكني الأرض، مصدرها السماء؛ كما أن الاقتراب من السماوات واقتحامها قد يكون محفوفا بالمخاطر، كما ورد في الآيتين 19 و59 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين»، «فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون»؛ وكذا في الآية 162 من سورة الأعراف؛ وقال تعالى في الآية 32 من سورة الأنفال: «وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»؛ وفي الآيتين 44 و82 من سورة هود: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾، «فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود»؛ وفي السياق نفسه وردت الآية 92 من سورة الإسراء؛ والآية 40 من سورة الكهف؛ وفي الآيتين 4 و187 من سورة الشعراء؛ والآية 34 من سورة العنكبوت؛ والآية التاسعة من سورة سبأ؛ والآية العاشرة من سورة الدخان؛ والآية 44 من سورة الطور؛ وفي الآيتين 5 و17 من سورة الملك؛ والآية الثامنة من سورة الجن.

المبحث السابع

بيئــة القيامــة

إن بيئة يوم القيامة الذي لا ريب فيه، بيئة تتسم بالعديد من الأهوال والمصاعب التي ستواجه البشر، خاصة منهم من لم يعملوا في الدنيا، عملا يجنبهم أهوال ذلك اليوم. ومنذ أن خلق الله الإنسان وكلفه بعمارة الأرض وحمّله الرسالة، وعده بيوم القيامة الذي سيضع حدا للحياة الدنيا الزائلة وينقل البشر للحياة الآخرة الباقية. والاعتقاد في هذا اليوم وما يتضمنه من ترتيبات ومحاسبة، يعد من أركان الإيمان المفروضة على كل مسلم.

وقد أحصى الإمام الغزالي مائة اسم ووصف ليوم القيامة (الغزالي، ج4 ص ص549-550)، نستشف منها كل ما يحصل في ذاك اليوم، بدءاً من نفخ الصور إلى أن يُساق كلٌ إلى حياته الأبدية سواء في الجنة أو النار. ووصفه الغزالي بقوله: «يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم، يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجمدون فيه روح نسيم. قال كعب وقتادة: ﴿يوم يقوم

الناس لرب العالمين﴾ قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام. بل قال عبد الله بن عمرو، تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «كيف بكم إن جمعكم الله كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة ولا ينظر إليكم». (الغزالي، ج4 ص ص547-548)

يبتدأ يوم القيامة بالنفخ في الصور. «قال مقاتل: الصور هو القرن؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السماوات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السماوات والأرض أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله، وهو جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت. ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ ثانية فذلك قوله تعالى: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ على أرجلهم ينظرون إلى البعث». (الغزالي، ج4 ص545)

قال تعالى في الآية 73 من سورة الأنعام: ﴿يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾؛ وفي الآية 99 من سورة الكهف: ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾؛ والآية 102 من سورة طه: «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا»؛ وقال تعالى في الآية 101 من سورة المؤمنون: «فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون»؛ وفي الآية 87 من سورة النمل: «ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين»؛ والآية 51 من سورة يس: «ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون»؛ وقال تعالى في الآية 68 من سورة الزمر: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض

إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون»؛ وفي الآية 20 من سورة ق: «ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد»؛ والآية 13 من سورة الحاقة: «فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة»؛ والآية 18 من سورة النبأ: «يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا».

ونتيجة للنفخ في الصور إيذانا بيوم القيامة، فإن جميع أحوال الكون تتزعزع، خاصة تلك التي لها علاقة بالحياة الدنيا كالأرض وما عليها والسماء والشمس والقمر والنجوم والكواكب.

قال تعالى في الآية 44 من سورة ق: «يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير»؛ وفي الآية التاسعة من سورة الطور: «يوم تمور السماء مورا»؛ والآية السابعة من سورة القمر: «خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر»؛ وقال تعالى في الآية 37 من سورة الرحمن: «فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان»؛ وفي الآية الرابعة من سورة الواقعة: «إذا رجت الأرض رجا»؛ وقال تعالى في الآيتين 14 و16 من سورة الحاقة: «وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة»، «وانشقت السماء فهي يومئذ واهية»؛ وفي الآيتين 8 و43 من سورة المعارج: «يوم تكون السماء كالمهل»، «يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون»؛ وقال تعالى في الآيتين 14 و18 من سورة المزمل: «يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا»، «السماء منفطر به كان وعده مفعولا»؛ وفي الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة القيامة: «وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر»؛ وقال تعالى في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة المرسلات: «فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت»؛ وفي الآية 34 من سورة النازعات: «فإذا جاءت الطامة الكبرى».

وفي سورة التكوير (الآية 1-13) وصف شامل لأحوال الكون يوم القيامة، إذ

قال تعالى: «إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت. وإذا الجبال سيرت. وإذا العشار عطلت. وإذا الوحوش حشرت. وإذا البحار سجرت. وإذا النفوس زوجت. وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت»؛ وقال تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة الانفطار: «إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت»؛ وفي الآيتين الأولى والثالثة من سورة الانشقاق: «إذا السماء انشقت»، «وإذا الأرض مدت»؛ والآية 21 من سورة الفجر: «كلا إذا دكت الأرض دكا دكا»؛ وقال تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة الزلزلة: «إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرض أثقالها»؛ وفي الآية الرابعة من سورة القارعة: «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث».

روى الإمام مسلم في صحيحه في باب: في صفة الأرض يوم القيامة: «عن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: يحشر الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها عَلَم لأحد». (المنذري، 2000، ص585) وروى في باب: يحشر الناس حفاة عراة غرلا: «عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا. قلت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض». (المنذري، 2000، ص586) (غرلا جمع أغرل، وهو غير المختون) وفي باب: دنو الشمس من الخلق يوم القيامة، روى الإمام مسلم: «عن سُليم بن عامر قال: حدثني المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تُدْنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل. قال سُليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين. قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق: فمنهم

من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما. قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه». (المنذري، 2000، ص586)

وأورد الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين» صفة أرض المحشر وأهله، قائلا:

«.. ثم أنظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ولا ترى عليها ربوة يختفي الإنسان وراءها، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها. بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا.. ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم. قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾. قال ابن عباس: يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمد مدّ الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة، والسماوات تذهب شمسها وقمرها ونجومها». (الغزالي، ج4 ص ص545-546)

وقد تضمن القرآن الكريم العديد من الترتيبات الخاصة بقدوم الله سبحانه وتعالى ومحاسبته لعباده يوم القيامة.

قال تعالى في الآيتين 210 و212 من سورة البقرة: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾، ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾؛ وفي الآيتين 180 و185 من سورة آل عمران: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾، ﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار

وأدخل الجنة فقد فاز﴾؛ والآية 109 من سورة النساء: «ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا»؛ وقال تعالى في الآية 36 من سورة المائدة: «إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم»؛ وفي الآية 32 من سورة الأعراف: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾؛ والآية 28 من سورة ينس: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾؛ وقال تعالى في الآيات 60 و98 و103 من سورة هود: ﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾، «يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود»، ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾؛ وفي الآية 48 من سورة إبراهيم: «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار».

وقال تعالى في الآيتين 97 و104 من سورة الإسراء: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما﴾، ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾. وفي الآية 47 من سورة الكهف: «ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا»؛ والآية 40 من سورة مريم: «إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون»؛ وقال تعالى في الآيات 25 و34 من سورة الفرقان: «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا»، «الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا»؛ وفي الآيتين 42 و61 من سورة القصص: «وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين»، «أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين»؛ والايه 33 من سورة لقمان: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده﴾.

وورد المزيد من الوصف لما يحدث في يوم القيامة في الآيات 47 و60 و67 و69 و75 من سورة الزمر، إذ قال تعالى: «ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»، «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين»، «وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عن ما يشركون»، «وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون»، «وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين»؛ وفي الآية 13 من سورة الطور: «يوم يدعون إلى نار جهنم دعا»؛ والآية 17 من سورة الحاقة: «والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية»؛ وقال تعالى في الآيتين 10 و12 من سورة المعارج: «ولا يسأل حميم حميما»، «وصاحبته وأخيه»؛ وفي الآية 12 من سورة القيامة: «إلى ربك يومئذ المستقر»؛ والآية السابعة من سورة الإنسان: «يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا»؛ والآية 39 من سورة النبأ: «ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا».

المبحث الثامن

بيئــــة الجـــنة

يرجع الأصل اللغوي لكلمة «جَنَّة» إلى الستر الذي ينتج عن التفاف أشجار البستان فتحجب ما بداخله. وجاء في «لسان العرب»: «الجنة: البستان، ومنه الجنّات، والعرب تسمي النخيل جنّة.. والجنة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها جِنان، وفيها تخصيص، ويقال للنخل وغيرها. وقال أبو علي في التذكرة: لا تكون الجنّة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة ليست بجنة، وقد ورد ذكر الجنة في القرآن العزيز والحديث الكريم في غير موضع. والجنة: هي دار النعيم في الدار الآخرة، من الاجتنان، وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها، قال: وسميت بالجنة وهي المرّة الواحدة من مصدر جنّه جنّا إذا ستره، فكأنها سَتْرة واحدة لشدة التفافها وإظلالها». (ابن منظور، ج13 ص ص99-100)

وقد اقترن لفظ «الجنة» في الدين الإسلامي بالمكان الذي سيعيش فيه الذين عملوا عملا صالحا في الدنيا، بعد قيام الساعة والحساب. وتمثل بيئة

الجنة البيئة الجمالية المطلقة التي لا مثيل لها في الحياة الدنيا لا في الحقيقة ولا في الخيال. وفي حديث جبار الذي أخرجه أبو نعيم: «قال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: الا أحدثكم بغرف الجنة؟ قال: قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك، بأبينا أنت وأمنا قال: إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». (الغزالي، ج4 ص571)

وقد وردت العديد من الأحاديث النبوية التي تبين بعض الجوانب من بيئة الجنة. إذ روى الإمام مسلم في باب: في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها: «عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها. قال أبو حازم: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزُّرقي فقال: حدثني أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إن في الجنة شجرة، يسير الراكب الجواد المضَمّر السريع مائة عام ما يقطعها». (المنذري، 2000، ص591)

وروى في باب: في صفة خيام الجنة: «عن أبي موسى رضي الله عنه قال: في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن». وفي باب: في سوق الجنة، روى مسلم: «عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة، فتهبُّ ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا». (المنذري، 2000، ص591)

وأورد الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين» العديد من الأحاديث التي

تبين صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها. يقول الغزالي:

«تأمّل في صورة الجنة وتفكّر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك»، وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص»، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا، ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا»، وقال: «أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال - أو تحت جبال - المسك».. وقال أبو أمامة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم؛ أقبل أعرابي فقال: يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما هي؟» قال: السدر فإن لها شوكا، فقال: «قد قال الله تعالى ﴿في سدر مخضود﴾ يخضد شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تتفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر». (الغزالي، ص572)

1 - دخول الجنة

يتضح من خلال الأحاديث النبوية الشريفة السابقة، ومن خلال العديد من الآيات القرآنية، أن بيئة الجنة تتخذ طابع المكان المعلوم الذي له حدود وسور وأبواب وحراس لا يدخله إلا من أذن الله له وكتب له النعمة والسداد في الآخرة. كما أن الآيات التي تشير إلى دخول الجنة تؤكد، بدورها الطابع المكاني الخصوصي الذي ليس بمتاح للجميع. وكذا تلك التي تصف من سيدخل الجنة بـ «أصحاب الجنة» وصفة الملكية هنا تبرر الخصوصية بالأسوار والأبواب.

قــال تعــالى فـي الآيات 82 و111 و214 من ســورة البــقــرة: «والذين آمنوا وعملوا الصـالحات أولئك أصحاب الجنـة هم فيها خـالدون»، «وقالوا لن يدخل الجنـة إلا من كـان هودا أو نصـارى تلك أمـانيـهم قل هـاتوا برهـانكم إن كنتم صـادقين»، «أم حسـبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البـأسـاء والضـراء وزلزلوا حتى يقول الرسـول والذين آمنوا معـه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب»؛ وكذلك في الآيات 142 و185 و195 من سورة آل عمـران؛ وفي الآيات 13 و57 و122 و124 من سـورة النسـاء؛ وفي الآيتين 12 و65 من سـورة المائدة؛ والآيات 40 و42 و44 و46 و49 و50 من سـورة الأعـراف؛ وفي الآية 26 مـن ســورة يونس؛ وفي الآيـة 23 مـن ســورة هود؛ والآيـة 23 من سـورة الرعـد؛ وفي الآية 23 من سـورة إبراهـيم؛ وفي الآيتين 31 و32 من سـورة النحل؛ والآية 60 من سـورة مـريم؛ وفي الآيتين 14 و23 من سـورة الحج؛ والآية 24 من سـورة الفـرقـان؛ والآية 33 من سورة فـاطر؛ وفي الآية 26 من سورة يس وفي الآية 73 من سـورة الزمـر؛ وفي الآيتين 8 و40 من سـورة غـافـر؛ وفي الآية 70 من سـورة الزخرف؛ وفي الآيتين 14 و16 من سورة الأحقاف؛ وفي الآيتين6 و12 من سـورة مـحمـد؛ وفي الآيتين 5 و17 من سورة الفتح؛ والآية 22 من سـورة المجـادلة؛ وفي الآية 20 من سـورة الحشـر؛ والآية 12 من سـورة الصـف؛ والآية التـاسعـة من سـورة التغـابن؛ وفي الآية 11 من سـورة الطلاق؛ والآية الثـامنـة من سورة التحريم؛ والآية 30 من سورة الفجر.

2 - سعـــة الجـــنة

قال تعالى واصفا سعة الجنة في الآية 133 من سورة آل عمران: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضهـا السماوات والأرض أعدت للمتقين»؛ وفي الآية 21 من سورة الحديد: «سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض

السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

فصّل الإمام الرازي في إيضاح المقصود من عرض الجنة في سورة آل عمران، قائلا:

«.. فأما وصف الجنة بأن عرضها السماوات: فمعلوم أن ذلك ليس بحقيقة لأن نفس السماوات لا تكون عرضا للجنة، فالمراد كعرض السماوات والأرض وهاهنا أسئلة:

السؤال الأول: ما معنى أن عرضها مثل عرض السماوات والأرض وفيه وجوه: الأول: أن المراد لو جعلت السماوات والأرضون طبقا طبقا بحيث تكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحا مؤلفا من أجزاء لا تتجزأ، ثم وصل البعض بالبعض طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله. والثاني: أن الجنة التي يكون عرضها مثل عرض السماوات والأرض إنما تكون للرجل الواحد لأن الإنسان إنما يرغب فيما يصير ملكا، فلا بد وأن تكون الجنة المملوكة لكل واحد مقدارها هذا. الثالث: قال أبو مسلم: وفيه وجه آخر وهو أن الجنة لو عرضت بالسماوات والأرض على سبيل البيع لكانتا ثمنا للجنة.. الرابع: المقصود المبالغة في وصف سعة الجنة وذلك لأنه لا شيء عندنا أعرض منهما ونظيره قوله ﴿خالدين فيها مادامت السماوات والأرض﴾ فإن أطول الأشياء بقاء عندنا هو السماوات والأرض، فخوطبنا على وفق ما عرفناه، فكذا هاهنا.

السؤال الثاني: لم خص العرض بالذكر.

والجواب فيه وجهان: الأول: أنه لما كان العرض ذلك فالظاهر أن الطول يكون أعظم ونظيره قوله ﴿بطائنها من إستبرق﴾ وإنما ذكر البطائن لأن من

المعلوم أنها تكون أقل حالا من الظهارة، فإذا كانت البطانة هكذا فكيف الظهارة؟ فكذا هاهنا إذا كان العرض هكذا فكيف الطول؛ والثاني: قال القفال: ليس المراد بالعرض هاهنا ما هو خلاف الطول، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب: بلاد عريضة، ويقال هذه دعوى عريضة، أي واسعة عظيمة، والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق، وما ضاق عرضه دق، فجعل العرض كناية عن السعة.

السؤال الثالث: أنتم تقولون: الجنة في السماء فكيف يكون عرضها كعرض السماء؟

والجواب من وجهين: الأول: أن المراد من قولنا أنها فوق السماوات وتحت العرش، قال عليه السلام في صفة الفردوس «سقفها عرش الرحمن» وروى أن رسول هرقل سأل النبي ﷺ وقال إنك تدعو إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار. والمعنى والله أعلم أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم والليل في ضد ذلك الجانب، فكذا الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل، وسئل أنس بن مالك عن الجنة أفي الأرض أم في السماء؟ فقال وأي أرض وأي سماء تسع الجنة، قيل فأين هي؟ قال فوق السماوات السبع تحت العرش». (ت. ر. ج9م5ص ص6-7)

3 - أنهار الجنة

وردت العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى أن الجنة مملوءة بالأنهار التي تجري من تحتها والعيون العذبة التي تنبع من جوفها. ويعتبر «الكوثر» أشهر نهر في الجنة، إذ خص الله به سيدنا محمداً عليه أفضل الصلوات

والتسليم. وروى الإمام مسلم في صحيحه، في باب: ما في الدنيا من أنهار الجنة: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: سيحان وجيحان والفرات والنيل: كل من أنهار الجنة». (المنذري، 2000، ص ص591-592)

وقد أوردنا بعض هذه الآيات عند حديثنا عن دخول الجنة، ونورد آيات أخرى في هذا المقام.

قال تعالى في الآية 25 من سورة البقرة: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾؛ وفي الآيات 15 و136 و198 من سورة آل عمران: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾، «أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين»، «لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار»؛ وكذا في الآيتين 85 و119 من سورة المائدة؛ وفي الآية 43 من سورة الأعراف؛ وفي الآيات 72 و89 و100 من سورة التوبة، والآية التاسعة من سورة يونس؛ والآية 45 من سورة الحجر؛ والآية 31 من سورة الكهف؛ وفي الآية 76 من سورة طه؛ والآية العاشرة من سورة الفرقان؛ وفي الآية 58 من سورة العنكبوت؛ والآية 20 من سورة الزمر؛ وفي الآيتين 51 و52 من سورة الدخان؛ وفي الآية 15 من سورة محمد؛ والآية 15 من يورة الذاريات؛ وفي الآية 54 من سورة القمر؛ وفي الآية 12 من سورة الحديد؛ وفي الآيتين 6 و18 من سورة الإنسان؛ وفي الآية 41 من سورة المرسلات؛ والآية 28 من سورة المطففين؛ وفي الآية 11 من سورة البروج؛ وفي الآيتين 5 و12 من سورة الغاشية؛ والآية الثامنة من سورة البينة؛ والآية الأولى من سورة الكوثر.

4 - بيئة الرفاهـــية في الجـــنة

إن التعرّف إلى بيئـة الجنة وما تتضمنه من رفاهية وكل ما من شأنه أن يحقق السعادة المطلقة، يُعدّ أهم وسيلة لإغراء الإنسان وحثه على عبادة ربه باتباع الدين الذي بعث به رسوله الكريم. فالنفس البشرية جبلت على الترغيب والترهيب، لكي تقدم على اتخاذ المواقف وتطبيقها في أرض الواقع. والجنة، كما وُصفت في القرآن والسنة، هي غاية آمال كل إنسان يحكّم بصيرته.

لقد تضمنت السيرة النبوية العديد من الأحاديث الشريفة التي رويت عن الرسول ﷺ، والتي تصف بيئة الرفاهية التي وعد الله بها عباده المتقين؛ روى الإمام أحمد في مسنده، عن وصف الكوثر في الجنة: «.. عَن ابْن عُمَرَ قَالَ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَوْثَرُ نَهَرٌ فِي الجَنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَب وَالْمَاءُ يَجْرِي عَلَى اللُّؤْلُؤِ وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ». (ش. صخر، 1997)

وقد أورد الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين» بعض هذه الأحاديث، إذ يقول:

«روى أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة ونضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية بهية سليمة» قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله قال: «قولوا إن شاء الله تعالى».. وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟ قال: «إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت» وقال له رجل: إن الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال: «يا عبد الله إن دخلت الجنة فلك

فيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك». وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي، يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة». وقال رسول الله ﷺ: «إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخي تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا»، وقال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة جرد مرد جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع»، وقال رسول الله ﷺ: أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء وإنّ عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب». (الغزالي، ص 576)

لقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى الرفاهية التي تنتظر أصحاب الجنة، من نعيم وخلود، على وجه الإجمال. إذ قال تعالى في الآية 65 من سورة المائدة: «ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم»؛ وفي الآية 21 من سورة التوبة: «يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم»؛ والآية 108 من سورة هود: «وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ»؛ وكذا في الآيتين 22 و24 من سورة الرعد؛ وفي الآية 30 من سورة النحل؛ والآية 56 من سورة الحج؛ وفي الآية 11 من سورة «المؤمنون»؛ والآية 15 من سورة الفرقان؛ والآية 85 من سورة الشعراء؛ والآية الثامنة من سورة لقمان؛ وفي الآية 43 من سورة الصافات؛ والآية 17 من سورة الطور؛ وفي الآية 12 من سورة الواقعة؛ وفي الآية 34 من سورة القلم؛ والآية 38 من سورة المعارج؛ وفي الآية 13 من سورة الانفطار؛ والآية 22 من سورة المطففين.

وورد وصف البيئة المنعّمة للجنة على وجه التفصيل في العديد من الآيات القرآنية. إذ قال تعالى في الآية 47 من سورة الحجر: «ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين»؛ وقال تعالى في الآيتين 75 و76 من سورة الفرقان: «أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما. خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما»؛ وفي الآية 90 من سورة الشعراء: «وأزلفت الجنة للمتقين»؛ وقال تعالى في الآيات 55 و56 و57 من سورة يس: «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون»؛ وفي الآيات 39 و42 و44 و45 من سورة الصافات: «وما تجزون إلا ما كنتم تعملون»، «فواكه وهم مكرمون»، «على سرر متقابلين. يطاف عليهم بكأس من معين»؛ والآية 51 من سورة ص: «متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب»؛ وقال تعالى في الآية 74 من سورة الزمر: «وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين»؛ وفي الآيتين 31 و32 من سورة فصلت: «نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزلا من غفور رحيم»؛ والآية 22 من سورة الشورى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 72 و73 من سورة الزخرف: «وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون»؛ وفي الآيات 53 و55 و56 من سورة الدخان: «يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين»، «يدعون فيها بكل فاكهة آمنين. لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم»؛ وفي الآية 31 من سورة ق: «وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد».

وقال تعالى في الآيات 18 و20 و22 و23 من سورة الطور: «فاكهين بما

آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم»، «متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين»، «وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم»؛ ووصفت خيرات الجنة مفصلة في 12 آية من سورة الرحمن، إذ قال تعالى في الآيتين 10 و11 من سورة الرحمن: «فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان»، وفي الآية 46: «ولمن خاف مقام ربه جنتان»، والآية 48: «ذواتا أفنان»، والآية 50: «فيهما عينان تجريان»، وفي الآية 52: «فيهما من كل فاكهة زوجان»، والآية 54: «متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان»، والآية 62: «ومن دونهما جنتان»، والآية 64: «مدهامتان»، وفي الآية 66: «فيهما عينان نضاختان»، والآية 68: «فيهما فاكهة ونخل ورمان»، والآية 72: «حور مقصورات في الخيام»؛ وتضمنت سورة الواقعة 16 آية تصف بيئة الرفاهية في الجنة، إذ قال تعالى في الآيتين 15 و16: «على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين»، وفي الآية 18: «بأكواب وأباريق وكأس من معين»، والآية 20: «وفاكهة مما يتخيرون»، وفي الآيات 27-37: «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. في سدر مخضود. وطلح منضود. وظل ممدود. وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة. إنا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكارا. عربا أترابا»، والآية 89: «فروح وريحان وجنة نعيم».

وقال تعالى في الآية 23 من سورة الحاقة: «قطوفها دانية»؛ وفي الآية 35 من سورة المعارج: «أولئك في جنات مكرمون»؛ والآية 40 من سورة المدثر: «في جنات يتساءلون»؛ وقال تعالى في الآيات 12-15 و19-21 من سورة الإنسان: «وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا»، «ويطوف عليهم ولدان مخلدون

إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا»؛ وفي الآيتين 41 و42 من سورة المرسلات: «إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون»؛ والآية 24 من سورة المطففين: «تعرف في وجوههم نضرة النعيم»؛ وقال تعالى في الآيات 10 و11 و13–16 من سورة الغاشية: «في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية»، «فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة».

5 - جنة آدم

ورد ذكر الجنة التي أُهبط منها آدم وحواء إلى الأرض، في الآية 35 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»؛ وفي الآيات 19 و22 و27 من سورة الأعراف: «ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»، «فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين»، «يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون»؛ وقال تعالى في الآيتين 117 و121 من سورة طه: «فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى»، «فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى».

اختلف المفسرون في تحديد مكان الجنة التي سكنها آدم وزوجه، وقد بين

هذه الاختلافات الإمام الرازي عند تفسيره للآية 35 من سورة البقرة، إذ قال:

«اختلفوا في الجنة المذكورة في هذه الآية، هل كانت في الأرض أو في السماء؟ وبتقدير أنها كانت في السماء فهل هي الجنة التي هي دار الثواب أو جنة الخلد أو جنة أخرى؟ فقال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الأصفهاني: هذه الجنة كانت في الأرض، وحملا الإهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى (اهبطوا) واحتجا عليه بوجوه أحدها: أن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ ولما صح قوله ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ وثانيها: أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى ﴿وما هم عنها بمخرجين﴾ وثالثها: أن إبليس لما امتنع عن السجود لعن فما كان يقدر مع غضب الله على أن يصل إلى جنة الخلد، ورابعها: أن الجنة التي هي دار الثواب لا يفنى نعيمها لقوله تعالى ﴿أكلها دائم وظلها﴾ ولقوله تعالى ﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها﴾ إلى أن قال ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي غير مقطوع فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم عليه السلام لما فنيت لكنها تفنى لقوله تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ ولما خرج منها آدم عليه السلام لكنه خرج منها وانقطعت تلك الراحات، وخامسها: أنه لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتدئ الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف لأنه تعالى لا يعطي جزاء العاملين من ليس بعامل ولأنه لا يهمل عباده بل لا بد من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد، وسادسها: لا نزاع في أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام في الأرض ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله من السماء ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لكان ذلك أولى بالذكر لأن نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم فدل ذلك على أنه لم يحصل وذلك يوجب

أن المراد من الجنة التي قال الله تعالى له (اسكن أنت وزوجك الجنة) جنة أخرى غير جنة الخلد.

القول الثاني: وهو قول الجبائي: إن تلك الجنة كانت في السماء السابعة والدليل عليه قوله تعالى ﴿اهبطوا منها﴾، ثم إن الإهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى، والإهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض. القول الثالث وهو قول جمهور أصحابنا: إن هذه الجنة هي دار الثواب والدليل عليه أن الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيدان العموم لأن سكنى جميع الجنان محال فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق والجنة التي هي المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب فوجب صرف اللفظ إليها، والقول الرابع: إن الكل ممكن والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع والله أعلم». (ت. ر. ج.3 م2 ص ص4-5)

المبحث التاسع

بيئـــة النـــار

إذا كانت الجنة - كما رأينا في المبحث السابق - هي دار الثواب ووسيلة إغراء وترغيب، لا مثيل لها في حياة الإنسان إلا على سبيل المجاز، فإن النار باعتبارها دار العقاب قريبة من الإنسان ويمكنه أن يختبرها ليكتشف مدى العذاب الذي ستلحقه بجسده، علما بأن لا مقارنة بين نار الدنيا ونار الآخرة. فقد روى الإمام مسلم في صحيحه: «عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ناركم هذه التي يوقِد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم. قالوا: والله إن كانت كافية يا رسول الله، قال: فإنها فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءا، كلها مثل حرها». (المنذري، 2000، ص594) وقيل: «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا». (الغزالي، ج4 ص565) وقال رسول الله ﷺ: «أمر الله تعالى أن يُوقد على النار ألف عام حتى احمرّت، ثم أوقد عليه ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة». (الغزالي، ج4 ص565)

وقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى دخول الناس النار وخلود بعضهم فيها يتلقون شتى أصناف العذاب فيصبحوا وقودا لها بالإضافة إلى الحجارة.

1 - دخـول النـار

قضى الله سبحانه وتعالى أن يدخل النار كل عباده فينجي من يشاء منهم. إلا أن المكوث في النار مرتبط بأعمال الناس في الدنيا. إذ يتراوح المكوث بين لحظة زمنية متناهية في الصغر والخلود أبد الآبدين. ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «قال رسول الله ﷺ: يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون: اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس المجري، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يحبو حبوا، ومنهم من يزحف زحفا، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحْبون.. ». (الغزالي، ج4 ص558)

قال تعالى في الآيتين 119 و257 من سورة البقرة: «إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم»، ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾؛ وفي الآيتين 185 و192 من سورة آل عمران: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾، «ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار»؛ وقال تعالى في الآيات 10 و115 و140 من سورة النساء: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا»، «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا»، ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين

في جهنم جميعا ﴾؛ ووردت الإشارة إلى من يدخلون النار في الآيتين 10 و86 من سورة المائدة؛ وفي الآيات 18 و38 و44 و50 و145 و179 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 36 و37 من سورة الأنفال؛ والآيات 63 و68 و113 من سورة التوبة؛ وفي الآية 27 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 98 و107 من سورة هود؛ وفي الآيتين 25 و42 من سورة الرعد؛ والآية 43 من سورة الحجر؛ وفي الآيات 18 و39 و63 و97 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 106 من سورة الكهف؛ والآيات 71 و72 و86 من سورة مريم؛ وفي الآية 29 من سورة الأنبياء؛ والآية 51 من سورة الحج؛ وفي الآية 103 من سورة «المؤمنون»؛ والآية 11 من سورة الفرقان؛ وفي الآيتين 13 و20 من سورة السجدة؛ وفي الآية السادسة من سورة فاطر؛ والآيات 68 و97 و163 من سورة الصافات؛ في الآية 85 من سورة ص؛ وفي الآيتين 43 و60 من سورة غافر؛ وفي الآية 19 من سورة فصلت؛ والآية 74 من سورة الزخرف؛ والآية 47 من سورة الدخان»؛ وفي الآية 24 من سورة ق؛ والآية 19 من سورة الحديد؛ والآية 20 من سورة الحشر؛ وفي الآية العاشرة من سورة التغابن؛ وفي الآيات 6 و10 و11 من سورة الملك؛ وفي الآية 31 من سورة الحاقة؛ والآية 12 من سورة المزمل؛ وفي الآية 23 من سورة الجن؛ وفي الآيتين 26 و27 من سورة المدثر؛ والآية 14 من سورة الانفطار؛ والآية 16 من سورة المطففين؛ وفي الآية 12 من سورة الانشقاق؛ والآية العاشرة من سورة البروج؛ والآية الرابعة من سورة الغاشية؛ وفي الآية السادسة من سورة البينة؛ والآية الثالثة من سورة المسد.

2 - النــارالمــأوى

وورد في العديد من الآيات القرآنية إشارات إلى أن النار ستصبح مأوى لأصحابها.. أصحاب الشمال، فوصفها الخالق جل شأنه بأنها ﴿بئس المهاد﴾

و﴿بئس مثوى الظالمين﴾ و﴿بئس المصير﴾ و﴿ساءت مصيرا﴾ و﴿بئس القرار﴾ و﴿بئس مثوى المتكبرين﴾ و﴿للكافرين حصيرا﴾ و﴿للكافرين نزلا﴾ و﴿ساءت مستقرا ومقاما﴾ و﴿مثوى الكافرين﴾ وهي ﴿دار الخلد﴾.

قال تعالى في الآية 206 من سورة البقرة: «وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد»؛ وفي الآيات 12 و151 و162 و197 من سورة آل عمران: «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد»، «سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين»، «أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير»، «متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد»؛ وكذا في الآيتين 97 و121 من سورة النساء؛ وفي الآية 72 من سورة المائدة»؛ والآية 16 من سورة الأنفال؛ وفي الآيتين 73 و95 من سورة التوبة؛ والآية الثامنة من سورة يونس؛ والآية 18 من سورة الرعد؛ وفي الآية 29 من سورة إبراهيم؛ وفي الآية 29 من سورة النحل؛ والآية الثامنة من سورة الإسراء؛ وفي الآية 102 من سورة الكهف؛ وفي الآية 57 من سورة النور؛ والآية 66 من سورة الفرقان؛ وفي الآيتين 25 و68 من سورة العنكبوت؛ وفي الآية 56 من سورة ص؛ وفي الآيتين 32 و72 من سورة الزمر؛ وفي الآيتين 52 و76 من سورة غافر؛ وفي الآيتين 24 و28 من سورة فصلت؛ وفي الآية 34 من سورة الجاثية؛ والآية 56 من سورة الواقعة؛ والآية 15 من سورة الحديد؛ وفي الآية الثامنة من سورة المجادلة؛ وفي الآية التاسعة من سورة التحريم؛ والآية 39 من سورة النازعات.

3 - بيئة النار

لقد وردت بعض الإشارات التي تعتبر جزءا من مظاهر بيئة النار في الحياة الآخرة، في القرآن الكريم والسنة النبوية. فقد روى الإمام مسلم في

صحيحه: «عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». (المنذري، 2000، ص594) وروى «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وَجْبَة، فقال النبي ﷺ: أتدرون ما هذا. قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا. فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها». (المنذري، 2000، ص594) ويتبين من هذين الحديثين مدى كبر حجم النار ومدى سعتها.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، حديث رسول الله ﷺ عن جانب من بيئة النار: «حَدَّثَنَا يَحْيَى عَن ابْن عجلان عَنْ عَمْرو بْن شُعَيْب عَنْ أَبيه عَنْ جَدِّه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَر النَّاس يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَار حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولَسُ فَتَعْلُوَهُمْ نَارُ الأنيار يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَة الْخَبَال عُصَارَة أَهْل النَّار»؛ وروى، قائلا: «.. عَن ابْن عُمَرَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَعْظُمُ أَهْلُ النَّار فِي النَّار حَتَّى إِنَّ بَيْنَ شَحْمَة أُذُن أَحَدِهِمْ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِ مِائَة عَام وَإِنَّ غِلَظَ جِلْدِه سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُد». (ش. صخر، 1997)

كما أورد الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين» بعض الأحاديث التي تبين بيئة النار والترتيبات التي اشتملت عليها. إذ قال: «.. أنظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها، فقد قال النبي ﷺ: «إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعين ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يوقع ذلك كله»، وقال علي كرم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من جب الحزن - أو وادي الحزن -» قيل يا رسول الله وما وادي - أو جب - الحزن؟ قال: «واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله للقراء المرائين»، فهذه

سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها. وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض الأعلى: جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السير ثم الجحيم ثم الهاوية، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حدّ لعمقها». (الغزالي، ج4 ص564)

وقال تعالى في بيئة النار، في الآية 145 من سورة النساء: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا»؛ وفي الآية 41 من سورة الأعراف: «لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين» وقد فسرها الفخر الرازي بقوله: «المهاد جمع مهد، وهو الفراش، قال الأزهري: أصل المهد في اللغة الفرش، يقال للفراش مهاد لمواتاته، والغواشي جمع غاشية، وهي كل ما يغشاك، أي يجللك، وجهنم لا تنصرف لاجتماع التأنيث فيها والتعريف، وقيل اشتقاقها من الجهمة، وهي الغلظ، يقال: رجل جهنم الوجه غليظه، وسميت بهذا لغلظ أمرها في العذاب. قال المفسرون: المراد من هذه الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب، فلهم منها غطاء ووطاء، وفراش ولحاف». (ت. ر. ج14 م7 ص82)

وقال تعالى في الآيتين 49 و109 من سورة التوبة: «ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين»، «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين»؛ وفي الآية 106 من سورة هود: «فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق»؛ والآية 44 من سورة الحجر: «لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم»؛ وقال تعالى في الآية 68 من سورة مريم: «فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا»؛ وفي الآيتين 12 و13 من سورة الفرقان: «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا. وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك

ثبورا»؛ والآية 91 من سورة الشعراء: «وبرزت الجحيم للغاوين»؛ وقال تعالى في الآية 54 من سورة العنكبوت: «يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين»؛ وفي الآية 164 من سورة الصافات: «وما منا إلا له مقام معلوم»؛ وقال تعالى في الآيتين 16 و71 من سورة الزمر: «لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون»، ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾؛ وفي الآية 13 من سورة الحديد: «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب»؛ والآية 32 من سورة المرسلات: «إنها ترمي بشرر كالقصر»؛ وقال تعالى في الآية 36 من سورة النازعات: «وبرزت الجحيم لمن يرى»؛ وفي الآية 20 من سورة البلد: «عليهم نار مؤصدة» أي مطبقة مغلقة؛ والآية 14 من سورة الليل: «فأنذرتكم نارا تلظى» أي تتوقد وتتوهج من شدة حرارتها؛ وقال تعالى في الآية 11 من سورة القارعة: «نار حامية»؛ وفي الآيتين الثامنة والتاسعة: «إنها عليهم مؤصدة. في عمد ممددة».

ومن بين السمات المميزة للنار في الآخرة، كونها نار مسعّرة أي ملتهبة، كما ورد في قوله تعالى في الآية الآيات 10 و55 و169 من سورة النساء، إذ قال تعالى: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا»، «فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا»، «إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا»؛ وفي الآية الرابعة من سورة الحج: «كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير»؛ والآية 21 من سورة لقمان: «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أوَ لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير»؛ وقال تعالى في الآية 64 من سورة الأحزاب: «إن الله لعن الكافرين

وأعد لهم سعيرا»؛ وفي الآية 12 من سورة سبأ: «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير»؛ والآية 13 من سورة الفتح: «ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا»؛ وقال تعالى في الآيتين 24 و47 من سورة القمر: «فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر»، «إن المجرمين في ضلال وسعر».

4 - أصناف العذاب

تتعدد أصناف العذاب لتصل لحدها المطلق الذي لم يألفه الإنسان في حياته الدنيا. إذ لا يقتصر الأمر على كي الجلود بالنار وحرقها، بل يتعداه إلى المأكل والمشرب والملبس وتقييد الأرجل والأيدي بالسلاسل، وإحياء الجسم تارة بعد أخرى حتى يستمر العذاب إلى ما لا نهاية، بالإضافة إلى العذاب النفسي الناتج عن الاطلاع على النعيم الذي يعيشه أصحاب الجنة وما يخلفه من حسرة في نفوس أصحاب النار.

ففي الحديث الشريف، روى الإمام مسلم «عن النعمان بن البشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجَل، ما يرى أن أحدا أشدّ منه عذابا، وإنه لأهونهم عذابا». (المنذري، 2000، ص594) وروى «عن سمرة بن جندب رضي الله عنه: أن نبي الله ﷺ قال: منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته». (المنذري، 2000، ص595)

ومن بين الأمور التي ستضاعف العذاب الذي سيلحق بأصحاب النار،

تضخيم أجسامهم لإكثار الإحساس بالألم. فقد روى مسلم «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ضِرس الكافر - أو ناب الكافر - مثل أُحدٍ، وغِلَظُ جلده مسيرة ثلاث». (المنذري، 2000، ص595)

كما أورد الإمام الغزالي العديد من أصناف العذاب التي تلحق بأصحاب النار، قائلا:

«ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقوا فيه وهو الغساق: قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «لو أن دلوا من غساق جهنم ألقي في الدنيا لأنتن أهل الأرض».. وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم».. وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة، فيذكرون كما كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم، قال: فيدعون خزنة جهنم، ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ قال: «فيقولون أدعوا مالكا فيدعون فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك» قال: «فيجيبهم إنكم ماكثون.. ». (الغزالي، ص ص565-566)

ثم يضيف الغزالي: «فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم، فهي لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة! قال أبو هريرة: قال رسول

الله ﷺ: «من آتاه الله مالا لا يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أفرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه - يعني أشداقه - فيقول أنا مالك أنا كنزك».. وقال الرسول ﷺ: «إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا، وإن فيها عقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل به».. وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك». (الغزالي، ج4 ص567)

وقد قال تعالى في أصناف العذاب التي تلحق بأهل النار، في الآيتين 86 و201 من سورة البقرة: «أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون»، «ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»؛ وفي الآيات 18 و93 و151 و161 من سورة النساء: ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما﴾، «ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما»، «أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا»، ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما﴾؛ وورد ذكر بعض أصناف العذاب في الآية 70 من سورة الأنعام؛ وفي الآيتين 35 و81 من سورة التوبة وفي الآية 16 من سورة إبراهيم؛ والآية 29 من سورة الكهف؛ والآية 74 من سورة طه؛ وفي الآيتين 9 و21 من سورة الحج؛ وفي الآيتين 34 و65 من سورة الفرقان؛ وفي الآية 36 من سورة فاطر؛ والآيات 62 و64 و65 و66 من سورة

الصافات؛ وفي الآيتين 46 و49 من سورة غافر؛ والآية 56 من سورة الدخان؛ والآية العاشرة من سورة الجاثية؛ وفي الآية 20 من سورة الأحقاف؛ والآية 48 من سورة القمر؛ وفي الآيات 43 و93 و94 من سورة الواقعة؛ وفي الآية الرابعة من سورة الإنسان؛ وفي الآيتين 30 و31 من سورة المرسلات.

4 - وقـود النـار

قال تعالى في وقود نار الآخرة، في الآية 24 من سورة البقرة: «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين»؛ وفي الآية العاشرة من سورة آل عمران: «إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار»؛ وقال تعالى في الآية 98 من سورة الأنبياء: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون»؛ وفي الآية السادسة من سورة التحريم: «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»؛ وقال تعالى في الآية 15 من سورة الجن: «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا»؛ في الآية الخامسة من سورة البروج: «النار ذات الوقود»؛ والآية السادسة من سورة الهمزة: «نار الله الموقدة».

فسّر الإمام الرازي المراد من قوله تعالى في الآية 24 من سورة البقرة ﴿وقودها الناس والحجارة﴾، قائلا:

«.. ما معنى قوله ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ الجواب: أنها نار ممتازة من النيران بأنها لا تتقد إلا بالناس والحجارة، وذلك يدل على قوتها من وجهين. الأول: أن سائر النيران إذا أريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة

أوقدت أولا بوقود ثم يطرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماؤه، وتلك أعاذنا الله منها برحمته الواسعة توقد بنفس ما تحرق. والثاني: أنها لإفراط حرها تتقد في الحجر.. لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقودا؟ الجواب: لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث نحتوها أصناما وجعلوها لله أندادا وعبدوها من دونه قال تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ وهذه الآية مفسرة لها فقوله ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ في معنى الناس والحجارة وحصب جهنم في معنى وقودها ولما اعتقد الكفار في حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستدفعون المضار عن أنفسهم تمسكا بهم، وجعلها الله عذابهم فقرنهم بها محماة في نار جهنم إبلاغا وإغرابا في تحسرهم، ونحوه ما يفعله بالكافرين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدة وذخيرة فشحوا بها ومنعوها من الحقوق حيث يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، وقيل هي حجارة الكبريت، وهو تخصيص بغير دليل، بل فيه ما يدل على فساده، وذلك لأن الغرض هاهنا تعظيم صفة هذه النار والإيقاد بحجارة الكبريت أمر معتاد فلا يدل الإيقاد بها على قوة النار، أما لو حملناه على سائر الحجارة دل ذلك على عظم أمر النار فإن سائر الأحجار تطفأ بها النيران فكأنه قال تلك النيران بلغت لقوتها أن تتعلق في أول أمرها بالحجارة التي هي مطفئة لنيران الدنيا». (ت. ر. ج2 م1 ص134)

الفصل الحادي عشر

مفهـــوم الزمـــان

على الرغم من أن الزمان لا علاقة مباشرة له بالسلوك الجسدي، الذي يهيمن على قنوات الاتصال غير اللفظي، فإن فهم الإنسان له - أي الزمان - يدخل في صميم التواصل غير اللفظي. فالطريقة التي يدرك بها الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله ويتفاعل معه، تؤثر في معتقداته ومواقفه وسلوكاته اليومية. فكيف تعامل الإنسان مع الزمن خلال بعض مراحل مسيرته الطويلة مع الوجود؟

تبين الدراسات أن الأديان والمعتقدات المختلفة التي اعتنقها الناس، أثرت في فهمهم للزمان، وتصريفهم للوقت. فقد كتب روي بورتر عن فهم الناس للزمن نتيجة اعتناقهم للديانتين اليهودية والمسيحية، قائلا:

«رأت العقيدة اليهودية على نحو استثنائي فريد - ومن بعدها المسيحية - الله على أنه خالق الكون بأسره.. وهكذا لم يعد الزمان مؤلها. ولم تعد دورات الزمان هي التي تضع النموذج والمقياس للحياة والطبيعة. وأسقط الزمان

نفسه عن عرشه، فأصبح الآن مخلوقا خلقه الله.. والاعتقاد بأن الله هو الذي خلق الزمان أحدث ثورة في فهم الزمان نفسه. فلم يعد الزمان بلا نهاية، دورات متكررة من الحوادث، بل أصبح أحادي البعد مطردا، متتابعا، فريدا، لا رجعة له. وأضحى الزمان غائيا Teleological.. وأصبح من الممكن داخل إطار المسيحية واليهودية قيام مقياس للزمان المطلق، نظرا لإمكانية إحصاء السنين ابتداء من الخلق. وما التاريخ إلا تدبير الله يتحقق على مدى الزمان، أو قل مشيئة الله في العالم». (بورتر، 1992، ص ص18–19)

أما العرب، قبل الإسلام، فقد كان لهم فهمهم الخاص للزمان، تضمن العديد من الإشارات التي تفيد نسبية الزمان. وقد بيّن ابن منظور أحد ملامح هذه النسبية في أحد استطراداته، حيث يقول:

«قال الله عز وجل: الحج أشهر معلومات؛ قال الزجاج: معناه وقت الحج أشهر معلومات. وقال الفراء: الأشهر المعلومات من الحج شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وإنما جاز أن يقال أشهر وإنما هما شهران وعشرٌ من ثالث وذلك جائز في الأوقات. قال الله تعالى: واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين؛ وإنما يتعجل في يوم ونصف. وتقول العرب: له اليوم يومان مذ لم أرَهُ، وإنما هو يوم وبعض آخر؛ قال: وليس هذا بجائز في غير المواقيت لأن العرب قد تفعل الفعل في أقل من الساعة ثم يوقعونه على اليوم ويقولون: زرته العام، وإنما زاره في يوم منه». (ابن منظور، ج4 ص ص432–433)

وروى النسائي حديث الرسول ﷺ عن تفضيل بعض الأوقات، قائلا: «أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ مَنْصُور قَالَ أَنْبَأَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاس قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْد قَالَ حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِح قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو يَحْيَى سُلَيْمُ بْنُ عَامِر وَضَمْرَةُ بْنُ حَبِيب وَأَبُو طَلْحَةَ نُعَيْمُ بْنُ زِيَاد قَالُوا سَمِعْنَا أَبَا أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ

يَقُولُ سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ عَبَسَةَ يَقُولُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ مِنْ سَاعَةٍ أَقْرَبُ مِنَ الأخْرَى أَوْ هَلْ مِنْ سَاعَةٍ يُبْتَغَى ذِكْرُهَا قَالَ نَعَمْ إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرَ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ فَإِنَّ الصَّلاةَ مَحْضُورَةٌ مَشْهُودَةٌ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ وَهِيَ سَاعَةُ صَلاةِ الْكُفَّارِ فَدَعِ الصَّلاةَ حَتَّى تَرْتَفِعَ قِيدَ رُمْحٍ وَيَذْهَبَ شُعَاعُهَا ثُمَّ الصَّلاةُ مَحْضُورَةٌ مَشْهُودَةٌ حَتَّى تَعْتَدِلَ الشَّمْسُ اعْتِدَالَ الرُّمْحِ بِنِصْفِ النَّهَارِ فَإِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَتُسْجَرُ فَدَعِ الصَّلاةَ حَتَّى يَفِيءَ الْفَيْءُ ثُمَّ الصَّلاةُ مَحْضُورَةٌ مَشْهُودَةٌ حَتَّى تَغِيبَ الشَّمْسُ فَإِنَّهَا تَغِيبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَهِيَ صَلاةُ الْكُفَّارِ».

إذا تبين لنا من خلال الاقتباسات الثلاثة السابقة، بعض ملامح مفهوم الزمان قبل مجيء الإسلام، فما الجديد الذي أضافه الإسلام، لفهم الإنسان للزمان، وهو الدين الذي يتوجه بتعاليمه إلى كافة الناس إلى أن تقوم الساعة؟ هل الزمان أزلي أم مخلوق، مطلق أم نسبي؟ وهل تختلف وحدات قياس الوقت - كما وردت في القرآن الكريم - عن الوحدات التي نستخدمها الآن؟

هذه الأسئلة والعديد من الأسئلة الأخرى، حاولنا أن نلتمس لها أجوبة شافية من خلال تطرقنا للآيات القرآنية التي عبرت عن الوقت باستخدام مختلف الأدوات اللغوية والبلاغية.

يتضمن هذا الفصل تسعة مباحث: ففي المبحث الأول، تطرقنا لوحدات الزمان الصغرى والكبرى كما وردت في القرآن الكريم. وفي هذا الصدد، أحصينا أربعين وحدة قياس زمنية.

أما المبحث الثاني، فقد اشتمل على مفهوم اليوم، كما ورد في القرآن الكريم ومدى تطابقه مع الفهم الذي كان سائدا لدى العرب في شبه الجزيرة العربية.

وتضمن المبحث الثالث، ذكرا لأيام الأسبوع والشهور، والمفاضلة بين أيام الأسبوع السبعة، والمفاضلة بين الشهور الإثني عشر.

وفي المبحث الرابع، تطرقنا للآيات التي وردت بها إشارات للماضي والمستقبل، على وجه العموم.

ويتعمق المبحث الخامس قليلا، في مفهوم الزمان، من خلال الإدراك النسبي للوقت إما مسرعا أو مبطئا.

وتضمن المبحث السادس علاقة الانتظار والتربص بإدراك الوقت.

وتطرق المبحث السابع للصبر كشكل من أشكال التعامل مع الوقت وإدارته في الحالات الاستثنائية التي تترك آثارها سلبا أو إيجابا.

وفي المبحث الثامن، أوردنا الآيات التي تقسم الوقت إلى مرحلتين: الأولى مرحلة الحياة الدنيا، والثانية مرحلة الحياة الآخرة؛ مع اعتبار أن الأولى محدودة والثانية غير محدودة.

أما المبحث الأخير، فقد تضمن فكرة الخلود التي تستعصي على الإدراك البشري، عندما يُنظر إليها وفقا للخبرة المحدودة للإنسان في حياته الدنيا.

المبحث الأول

وحدات الزمن الصغرى والكبرى

يعتبر قياس ومعرفة الوقت من الأمور التي اهتم بها الإنسان منذ أن عرف أن بقاءه حيا على ظهر الأرض محدود في الزمان، وأن حصوله على الموارد الحيوية كالمشرب والمأكل، يرتبط كذلك بمرور الوقت وبفترات معينة، كما أن تناسله وتناسل العديد من الكائنات الحية التي تعيش معه، يرتبط بمرور الوقت. لذا نجد أن الإنسان قد سعى منذ بداياته لقياس الوقت معتمدا على الظواهر الطبيعية كالليل والنهار والظل ومواقع النجوم، وتطور هذا المسعى إلى أن وصلنا لقياس الوقت بمقاييس تتراوح بين الفيمتو والنانو ثانية - وهي وحدات زمنية يستحيل إدراكها بالحواس الطبيعية - والعصور التي قد تمتد لملايين السنين.

وعندما جاءت الرسالة المحمدية ونزل القرآن على البشرية، لم يكن الناس - خاصة في الجزيرة العربية التي شُرّفت بنزول القرآن - يستخدمون الوحدات الزمنية الأكثر تداولا في وقتنا الحاضر ونعني بها وحدات الثانية

والدقيقة والساعة (بمفهومها الحالي أي ما يعادل 60 دقيقة). لذا نجد أن لغة القرآن الكريم خاطبت الناس بما يفهمونه وعبّرت عن الوقت بوحدات مألوفة توصل المعنى إلى ذهن المتلقي. وفي هذا الصدد، نورد بعض الكلمات والعبارات التي جاءت في القرآن الكريم معبرة عن لحظات وفترات زمنية تتراوح بين الصغر والكبر، الأمر الذي يعطينا لمحة عن مفهوم الزمن في القرآن الكريم، ومن ثمة في المجتمع العربي والإسلامي الذي يتأثر بهذا القرآن ويتفاعل معه.

1 - الإبكار

الإبكار، في اللغة «هو مصدر بكر يبكر إذا خرج للأمر في أول النهار.. ومنه الباكورة لأول الثمر.. ثم سُمِّي ما بين طلوع الفجر إلى الضحى: إبكارا، كما سمي إصباحا». (ت. ر. ج8 م4 ص46)

وقد ورد ذكر الإبكار في الآية 41 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: «قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار»؛ وقال تعالى في الآيتين 11 و62 من سورة مريم: «فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا»، «لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا»؛ وفي الآية 55 من سورة غافر: «فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار».

2 - الأجل والأجل المسمى أو المعدود

الأجل في اللغة العربية: «غاية الوقت.. ومدة الشيء». (ابن منظور، ج11

ص11) وقد ورد في القرآن الكريم ضمن سياقات مختلفة، يعني بعضها الموت أو يوم القيامة أو موعد حلول الدين. فعلى سبيل المثال، ورد ذكر الأجل والأجل المسمى في الآية الثانية من سورة الأنعام. إذ قال تعالى: «هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون». وقد بيّن ابن عاشور الفرق بين الأجل والأجل المسمى في هذه الآية قائلا:

«المراد بالأجل الأول عمر كل إنسان، فإنه يعلمه الناس عند موت صاحبه، فيقولون: عاش كذا وكذا سنة، وهو وإن كان علمه لا يتحقق إلا عند انتهائه فما هو إلا علم حاصل لكثير من الناس بالمقايسة. والأجل المعلوم وإن كان قد انتهى فإنه في الأصل أجل ممتد.

والمراد بالأجل الثاني ما بين موت كل واحد وبين يوم البعث الذي يبعث فيه جميع الناس، فإنه لا يعلمه في الدنيا أحد ولا يعلمونه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾[يونس: 45]، وقال: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾[الروم: 55]».

ووردت آجال أخرى في الآية 135 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: «فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون» أي حد من الزمان هم واصلون إليه ولا بدّ وهو وقت الغرق (ت. ص، ج1ص468)؛ وقال تعالى في الآية 104 من سورة هود: «وما نؤخره إلا لأجل معدود» أي يوم القيامة؛ وفي الآية الثانية من سورة الرعد: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾؛ والآية العاشرة من سورة إبراهيم: «قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين» والمقصود بالأجل المسمى هنا الأعمار؛ وكذا في الآية الخامسة

من سورة الحجر؛ وفي الآيتين 5 و33 من سورة الحج: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ أي فترة الحمل، «لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق» أي لكم في الهدايا (ذبائح الحج) منافع كثيرة من الدَرّ والنسل والركوب إلى وقت نحرها (ص. ت، ج2ص289) فالأجل المسمى هنا يعادل أعمار الهدايا.

وقال تعالى في الآية 28 من سورة القصص: «قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل» مدة الأجلين كما وردا في الآيات السابقة لهذه الآية هما: ثماني أو عشر سنوات؛ وقال تعالى في الآية 53 من سورة العنكبوت: «ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون»؛ وفي الآية الثامنة من سورة الروم: ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾؛ والآية 29 من سورة لقمان: «ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير»؛ وقال تعالى في الآية 45 من سورة فاطر: «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا»؛ وفي الآية 42 من سورة الزمر: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾؛ والآية 67 من سورة غافر: «هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون»؛ وقال تعالى في الآية 14 من

سورة الشورى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾؛ وفي الآية الثالثة من سورة الأحقاف: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 10 و11 من سورة «المنافقون»: «وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين. ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون»؛ وفي الآيتين الثانية والرابعة من سورة الطلاق: ﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾ والأجل هنا: العدّة، «واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا»؛ وقال تعالى في الآية الرابعة من سورة نوح: «يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون».

3 - الآصـــال

ورد ذكر وقت الأصيل بصيغة جمع الجمع في الآية 205 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: «واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين»؛ وفي الآية 15 من سورة الرعد: «ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال». و«الآصال جمع أُصُلٍ والأُصُل جمع أصيل، والأصيل هو العشيُّ، وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس، قال أبو ذؤيب:

لعمري لأنت البيت أُكْرِمَ أهلَه وَأَقْعُدُ في أفيائه بالأصائل». (ت. ط، ج7 ص367)

4 - الأطـــوار

قال تعالى في الآية 14 من سورة نوح: «وقد خلقكم أطوارا». وقد عرّف ابن عـاشـور الأطوار، بقـوله: «الأطـوار: جـمـع طَور بفـتـح فـسكون، والطـور: التـارة، وهـي المرة مـن الأفـعـال أو من الزمـان، فـأريد مـن الأطوار هنا مـا يـحـصـل في المرات والأزمان من أحوال مختلفة، لأنه لا يقصد من تعدد المرات والأزمان إلا تعدد ما يحصل فيها، فهو تعدد بالنوع لا بالتكرار كقول النابغة:

فـإن افـاق لـقـد طـالـت عـمـايـتـه والمرء يُخلق طورا بعـد أطوار». (ت. ع، ج29 ص187)

ويضيف ابن عاشـور مفسـرا الآية: «وأما كون خلقكم أطوارا فـلأن الأطوار التي يعلمـونهـا دالة على رفـقـه بهم في ذلك التطور، فـهـذا تـعـريض بكفـرهم النعمة، ولأن الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته، فإن تطور الخلق من طور النطفـة إلى طور الجنين إلـى طور خروجه طفـلا إلى طور الصـبـا إلى طور بلوغ الأشد إلى طور الشيخوخة وطُروّ الموت على الحياة وطروّ البلِى على الأجسـاد بعد الموت، كل ذلك والذاتُ واحدة، فهـو دليل علـى تمكن الخـالق من كيفيات الخلق وتبديل في الأطوار». (ت. ع، ج29 ص186)

5 - الأمـــد

الأمـد، كـمـا أورده ابن منظور فـي «لسـان العـرب»: «الغـايـة كالمدى؛ يقـال: مـا أمـدك؟ أي منتـهـى عـمـرك.. قـال شـمـر: الأمـد منتـهـى الأجل، قـال: وللإنسـان أمدان: أحـدهمـا ابتداء خلقـه الذي يظهر عند مولده، والأمد الثـاني الموت؛ ومن الأول حديث الحـجـاج حين سـأل الحسن فـقـال له: مـا أمـدك؟ قـال: سنتـان من خلافـة عمـر؛ أراد أنه ولد لسنتين بقيتـا من خلافة عمـر، رضي الله عنه». (ابن

منظور، ج3 ص74) وقد ورد الأمد في القرآن الكريم بمعنى المدة أو الزمن، كما في الآية 12 من سورة الكهف، إذ قال تعالى: «ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا»؛ وفي الآية 16 من سورة الحديد: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون»؛ والآية 25 من سورة الجن: «قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا».

6 - الأني والآناء

ورد في «لسان العرب» تحت مادة «أني»:

«أنى الشيء يأْني أنْيا وإنًى وأنًى، وهو انيٌّ: حان وأدرك.. [قال] الفراء: يقال الم يَأْنِ وألم يَئِنْ والم يَنَلْ لك والم يُنِلْ لك، وأجودهن ما نزل به القرآن العزيز، يعني قوله: ألم يَأْنِ للذين آمنوا؛ وهو من أنى يأني وآنَ لك يئين. ويقال: أنى لك أن تفعل كذا ونال لك وأنال لك وآن لك، كل بمعنى واحد؛ قال الزجاج: ومعناها كلها حان لك يحين. وفي حديث الهجرة: هل أنى الرحيل أي حان وقته، وفي رواية: هل آن الرحيل أي قرب.. [قال] ابن الأنباري: الأنى من بلوغ الشيء منتهاه.. .

والأَنْيُ والإِنْيُ: الوهن أو الساعة من الليل، وقيل: الساعة منه أي ساعة كانت. وحكى الفارسي عن ثعلب: إنْوٌ، في هذا المعنى.. وقيل: الإِنَى النهار كله، والجمع آناء وأُنِيّ.. والإِنْيُ: واحد آناء الليل وهي ساعاته». (ابن منظور، ج14 ص ص48-49)

وتأتي كلمة «أنّى» في اللغة العربية والقرآن بمعنى: «كيف» أو «أين» أو «متى». وبهذا المعنى الأخير فسّر البعض أنّى التي وردت في الآية 223 من

سورة البقرة، إذ قال تعالى: «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين» أي «متى شئتم من ليل أو نهار». (ت. ر. ج6 ص79)

وورد قوله تعالى ﴿آناء الليل﴾ بمعنى ساعاته أو أثنائه، في الآية 113 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون»؛ وفي الآية 13 من سورة طه: «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى»؛ والآية التاسعة من سورة الزمر: «أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب».

وورد قوله تعالى ﴿ألم يأن﴾ بمعنى «أما حان»، في الآية 16 من سورة الحديد، إذ قال تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾.

7 - أيان

تستخدم كلمة «أيان» للاستفهام عن الزمان كـ«متى». وقد عرّفها ابن عاشور بقوله: «أيّان اسم يدل على السؤال عن الزمان وهو جامد غير متصرف مركب من (أي) الاستفهامية و(آنَ) وهو الوقت، ثم خففت (أي) وقلبت همزه (آن) ياء ليتأتى الإدغام، فصارت (أيّان) بمعنى أي زمان، ويتعين الزمان المسؤول عنه بما بعد (أيان)، ولذلك يتعين أن يكون اسم معنى لا اسم ذات، إذ لا يخبر بالزمان عن الذات، وأما استعمالها اسم شرط لعموم الأزمنة فذلك بالنقل من الاستفهام إلى الشرط كما نقلت (متى من الاستفهام إلى الشرطية». (ت. ع، ج8 ص375)

قال تعالى في الآية 187 من سورة الأعراف: «يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون»؛ وفي الآية 21 من سورة النحل: «أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون»؛ والآية 65 من سورة النمل: «قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون»؛ وقال تعالى في الآية 12 من سورة الذاريات: «يسألون أيان يوم الدين»؛ وفي الآية السادسة من سورة القيامة: «يسأل أيان يوم القيامة»؛ والآية 42 من سورة النازعات: «يسألونك عن الساعة أيان مرساها».

8 - البعيد

تستخدم كلمة «بعيد» في اللغة العربية للتعبير عن المسافة من حيث مدى طولها الذي يُدْرَك على أنه كبير نسبيا. وبالإضافة إلى هذا المعنى، فقد استخدمت في القرآن الكريم للدلالة على طول الزمان، مما ينسجم مع الارتباط الوثيق بين بعدي الزمان والمكان كما اقترحته النظرية النسبية، فأصبح من المسلمات العلمية.

قال تعالى في الآية 89 من سورة هود: «ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد» أي وما مكان قوم لوط منكم ببعيد، أو وما الفترة الزمنية التي عاشوا فيها ببعيدة عن زمانكم؛ وقال تعالى في الآية الثالثة من سورة ق: «أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد»؛ والآية السادسة من سورة المعارج: «إنهم يرونه بعيدا».

9 - البغت

البغت والبغتة والمباغتة، كلمات تعبر عن حدوث الأشياء في فترة زمنية قصيرة لم تكن متوقعة؛ وزمن المباغتة يعدّ بالثواني، لأنه لا يتعدى المدة الزمنية لبدء إدراك ما يحدث. وقد جاء في «لسان العرب»: «البَغْتُ والبغتة: الفجْأة، وهو أن يَفْجَأك الشيء.. قال يزيد بن ضبّة الثقفي:

ولكنهم ماتوا، ولم أدرِ، بغْتَة وأفظع شيء، حين يفجؤك، البغت

وقد بَغَتَه الأمر يبغتُه بغْتا: فَجِئَه. وباغته مباغتة وبِغَاتا: فجأه.. والمباغتة: المفاجأة». (ابن منظور، ج2 ص ص10-11)

ورد ذكر البغت في الآيات 31 و44 و47 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾، «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون»، «قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون»؛ وفي الآيتين 95 و187 من سورة الأعراف: «ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون»، ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾؛ وورد ذكر البغت في الآية 107 من سورة يوسف؛ وفي الآية 40 من سورة الأنبياء؛ والآية 55 من سورة الحج؛ والآية 202 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 53 من سورة العنكبوت؛ وفي الآية 55 من سورة الزمر؛ والآية 66 من سورة الزخرف؛ وفي الآية 18 من سورة محمد.

10 - التأخير

التأخير الوارد في سياق الآيات التالية، يشير إلى وقت ينضاف إلى الموعد

المحدد سلفا. وهذا الوقت غالبا ما يتم إدراكه بكيفية تختلف عن إدراك الوقت الأصلي. فهو إما أن يمر أبطأ إذا كان الموعد النهائي مرغوباً فيه، أو يمر أسرع إذا كان غير مرغوب فيه.

قال تعالى في الآية 34 من سورة الأعراف: «ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»؛ وفي الآية 49 من سورة يونس: «قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»؛ وورد ذكر الأجل في الآية 104 من سورة هود؛ وفي الآية العاشرة من سورة إبراهيم؛ والآية 61 من سورة النحل؛ والآية الخامسة من سورة الحجر؛ وفي الآية 62 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 30 من سورة سبأ؛ والآية 45 من سورة فاطر؛ وفي الآيتين 10 و11 من سورة «المنافقون»؛ وفي الآية الرابعة من سورة نوح؛ والآية 37 من سورة المدثر.

11 - التقدم/التقديم

التقديم عكس التأخير وهو يشير إلى وقت مستقطع من الموعد المحدد سلفا، يهدف إلى إسراع حدوث الأشياء. وغالبا ما يرد التقديم والتأخير معا في سياق الآيات.

قال تعالى في الآية 34 من سورة الأعراف: «ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»؛ وفي الآية 49 من سورة يونس: ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾؛ وقال تعالى في الآية 61 من سورة النحل: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾؛ وفي الآية 30 من سورة سبأ: «قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون»؛ والآية 37 من سورة المدثر: «لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر».

12 - الحقبة

ورد ذكر الحقبة الزمنية في الآية 60 من سورة الكهف، إذ قال تعالى: «وإذ قال موسى لفتاه لا ابرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا»؛ وفي الآية 23 من سورة النبأ: «لابثين فيها أحقابا». وقد عرّفها ابن منظور في «لسان العرب»، بقوله:

«الحقبة من الدهر: مدة لا وقت لها. والحِقبة، بالكسر: السنة؛ والجمع حقب وحقوب.. والحُقْبُ والحُقُبُ: ثمانون سنة، وقيل أكثر من ذلك؛ وجمع الحُقْب حِقاب.. وحكى الأزهري في الجمع أحقابا. والحُقُبُ: الدهر، والأحقاب: الدهور؛ وقيل: الحُقُبُ السنة، عن ثعلب. ومنهم من خصّص به لغة قيس خاصة. وقوله تعالى: أو أمضي حُقُبا؛ قيل: معناه سنة؛ وقيل معناه سنتين، وبسنين فسره ثعلب. قال الأزهري: وجاء في التفسير: أنه ثمانون سنة، فالحقب على تفسير ثعلب، يكون أقل من ثمانين سنة، لأن موسى عليه السلام، لم ينو أن يسير ثمانين سنة، ولا أكثر، وذلك أن بقية عمره في ذلك الوقت لا يحتمل ذلك.. وقال الفراء في قوله تعالى: لابثين فيها أحقابا؛ قال: الحقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوما، واليوم منها ألف سنة من عدد الدنيا، قال: وليس هذا مما يدل على غاية، كما يظن بعض الناس، وإنما يدل على الغاية التوقيت، خمسة أحقاب أو عشرة، والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقابا، كلما مضى حُقُب تبعه حقب». (ابن منظور، ج1 ص326)

13 - الحين

أورد الإمام الرازي معنى الحين، في سياق شرحه للآية 36 من سورة البقرة، إذ قال: «اختلفوا في معنى الحين بعد اتفاقهم على أنه اسم للزمان والأولى أن

يراد به الممتد من الزمان لأن الرجل يقول لصاحبه: ما رأيتك منذ حين إذ بعدت مشاهدته له ولا يقال ذلك مع قرب المشاهدة». (ت. ر. ج3 م2 ص20)

ومن بين معاني «حين» في قاموس اللغة العربية: «الحين: الدهر، وقيل: وقت من الدهر مبهم يصلح لجميع الأزمان كلها، طالت أو قصرت، يكون سنة أو أكثر من ذلك، وخص بعضهم به أربعين سنة أو سبع سنين أو سنتين أو ستة أشهر أو شهرين.. والحين: المدة، ومنه قوله تعالى: هل أتى على الإنسان حين من الدهر. [جاء في] التهذيب: الحين وقت من الزمان، تقول: حان أن يكون ذلك، وهو يحين، ويجمع على الأحيان، ثم تجمع الأحيان أحايين، وإذا باعدوا بين الوقتين باعدوا بإذ فقالوا: حينئذ.. وحان له أن يفعل كذا يحين حينا أي آن. وقوله تعالى: تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؛ قيل: كل سنة، وقيل كل ستة أشهر، وقيل: كل غُدوة وعشية. وقال الأزهري: وجميع من شاهدته من أهل اللغة يذهب إلى أن الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان، قال: فالمعنى في قوله عز وجل: تؤتي أكلها كل حين، أنه ينتفع بها في كل وقت ولا ينقطع نفعها البتة؛ قال: والدليل على أن الحين بمنزلة الوقت قول النابغة أنشده الأصمعي:

تناذرها الراقون من سوء سَمِّها تُطَلِّقه حينا، وحينا تراجع

المعنى: أن السم يخف ألمه وقتا ويعود وقتا.. وقوله تعالى: ولتعلمن نبأه بعد حين؛ أي بعد قيام القيامة، وفي المحكم أي بعد الموت؛ عن الزجاج. وقوله تعالى: فتول عنهم حتى حين؛ أي حتى تنقضي المدة التي أمهلوا فيها.. وربما أدخلوا عليه التاء وقالوا: لات حين بمعنى ليس حين. وفي التنزيل العزيز: ولات حين مناص». (ابن منظور، ج13 ص ص133-134)

قال تعالى في الآيتين 36 و177 من سورة البقرة: «فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين»، ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس

أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾؛ وفي الآيتين 101 و106 من سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها﴾، ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم﴾؛ وورد ذكر الحين في الآية 24 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 98 من سورة يونس؛ والآية الخامسة من سورة هود؛ وفي الآية 35 من سورة يوسف؛ والآية 25 من سورة إبراهيم؛ وفي الآيتين 6 و80 من سورة النحل؛ وفي الآيتين 39 و111 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 25 و54 من سورة المؤمنون؛ وفي الآية 58 من سورة النور؛ والآية 42 من سورة الفرقان؛ وفي الآية 218 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 15 من سورة القصص؛ وفي الآيتين 17 و18 من سورة الروم؛ وفي الآية 44 من سورة يس؛ والآيات 148 و174 و178 من سورة الصافات؛ وفي الآيتين 3 و88 من سورة ص؛ وفي الآيتين 42 و58 من سورة الزمر؛ والآية 43 من سورة الذاريات؛ وفي الآية 48 من سورة الطور؛ وفي الآية 84 من سورة الواقعة؛ والآية الأولى من سورة الإنسان.

14 - الدهر

الدهر هو الزمان المستمر المتعاقب ليله ونهاره. (ت. ع، ج25 ص378) وفي القاموس: «الدهر: الأمد الممدود، وقيل: الدهر ألف سنة.. والدهر: الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا». (ابن منظور، ج4 ص292)

وقد ورد ذكر الدهر في سورتي الجاثية والإنسان. إذ قال تعالى في الآية 24 من سورة المدثر: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون»؛ وفي الآية الأولى من سورة الإنسان: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا».

15 - الـدوام

الدوم والدوام والديمومة كلها مفردات تعني الاستمرارية والبقاء في الزمان؛ وقد تعني التأني في الفعل أثناء مرور الوقت.

قال تعالى في الآية 75 من سورة آل عمران: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما﴾؛ وفي الآيات 24 و96 و117 من سورة المائدة: «قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون»، «أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي إليه تحشرون»، ﴿وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 107 و108 من سورة هود: «خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ»؛ وفي الآية 35 من سورة الرعد: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها﴾؛ وقال تعالى في الآية 31 من سورة مريم: «وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا»؛ وفي الآية 23 من سورة المعارج: «الذين هم على صلاتهم دائمون».

16 - الساعـــة

لقد اختلف مفهوم الساعة في زمن نزول القرآن الكريم، عنه في زمننا المعاصر. فبينما نعتبر الساعة من بين وحدات الزمن الصغرى – ولكنها ليست الأصغر، إذ إن هناك ما هو أصغر منها كالدقيقة والثانية والنانوثانية والفيمتوثانية – نجد في المقابل، أن الساعة كانت أصغر وحدة لقياس الوقت في زمن نزول القرآن. وهذا ما يتضح في بعض التفاسير القرآنية التي تطرقت لمعنى

ساعة. فقد قال القرطبي: «سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها». (القرطبي 412/6؛ أورده: ت. ص، ج1 ص386) وأورد الزمخشري في «الكشاف»: «وقال ﴿ساعة﴾ لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس. يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة، يريد أقصر وقت وأقربه». (ت. ز، ج2 ص98) وقال الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ الوارد في الآية 34 من سورة الأعراف: «المراد أنه لا يتأخر عن ذلك الأجل المعين لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة إلا أنه تعالى ذكر الساعة لأن هذا اللفظ أقل اسماء الأوقات». (ت. ر. ج14 م7 ص72) وفي السياق نفسه قال الصابوني - على الرغم من أنه من المفسرين المعاصرين: «والساعة مثل في غاية القلة من الزمان». (ت. ص، ج1 ص444)

وعندما نقول إن الساعة كانت أصغر وحدة لقياس الوقت عند العرب في زمن نزول القرآن، هذا لا يعني أنهم يقصدون الساعة التي تتضمن 60 دقيقة، بل يقصدون وحدة أقل بكثير - ولربما كان مقصودهم الثانية. ويؤكد هذا الزعم اقتران الساعة بالمباغتة، كما وصفت الساعة العَلَم أي القيامة.

وقد تضمن القرآن الكريم لفظ «ساعة» بدون تعريف للدلالة على وحدة قياس الوقت التي كانت متعارفة لدى الناس، وذلك في سور الأعراف ويونس والنحل وسبأ والأحقاف. إذ قال تعالى في الآية 34 من سورة الأعراف: «ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»؛ وفي الآيات 45 و48 و49 من سورة يونس: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار﴾، «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»؛ وقال تعالى في الآية 61 من سورة النحل: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾؛ وفي الآية 30 من سورة سبأ: «قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون»؛ والآية 35 من سورة

الأحقاف: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾.

وورد لفظ «ساعة» بمعنى لحظة زمن معينة، في الآية 117 من سورة التوبة، إذ قال تعالى: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم». وقد فسّرها الإمام الرازي بقوله: «المراد بساعة العسرة قولان: القول الأول: أنها مختصة بغزوة تبوك، والمراد منها الزمان الذي صعب الأمر عليهم جدا في ذلك السفر.. . والقول الثاني: قال أبو مسلم: يجوز أن يكون المراد بساعة العسرة جميع الأحوال والأوقات الشديدة على الرسول وعلى المؤمنين، فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها.. والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول عليه السلام في الأوقات الشديدة والأحوال الصعبة، وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم». (ت. ر. ج16 م8 ص ص220–221)

أما «الساعة» المعرّفة التي أصبحت عَلَما بالغلبة على ساعة البعث والحشر أو ساعة الموت، فقد ورد ذكرها في العديد من الآيات القرآنية. قال تعالى في الآيتين 31 و40 من سورة الأنعام: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾، «قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين». وقد ذكر الرازي في تفسيره لمعنى ﴿الساعة﴾ في الآية الأولى:

«المراد بالساعة القيامة، وفي تسمية القيامة بهذا الاسم وجوه: الأول: أن يوم القيامة يسمى الساعة لسرعة الحساب فيه كأنه قيل: ما هي إلا ساعة الحساب. الثاني: الساعة هي الوقت الذي تقوم القيامة [فيه و] سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تعالى. الا ترى أنه تعالى قال ﴿بغتة﴾ والبغت والبغتة هو الفجأة والمعنى: أن الساعة لا تجيء إلا دفعة لأنه لا يعلم أحد متى يكون مجيئها». (ت. ر. ج12 م6 ص208)

وقال تعالى في الآية 187 من سورة الأعراف: «يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون»؛ وورد ذكر الساعة في الآية 107 من سورة يوسف؛ والآية 85 من سورة الحجر؛ وفي الآية 77 من سورة النحل؛ وفي الآيتين 21 و36 من سورة الكهف؛ والآية 75 من سورة مريم؛ وفي الآية 15 من سورة طه؛ وفي الآية 49 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيات 1 و7 و55 من سورة الحج؛ وفي الآية 11 من سورة الفرقان؛ والآيات 12 و14 و55 من سورة الروم؛ وفي الآية 34 من سورة لقمان؛ والآية 63 من سورة الأحزاب؛ والآية الثالثة من سورة سبأ؛ وفي الآيتين 46 و59 من سورة غافر؛ وفي الآيتين 47 و50 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 17 و18 من سورة الشورى؛ والآيات 61 و66 و85 من سورة الزخرف؛ وفي الآيتين 27 و32 من سورة الجاثية؛ والآية 18 من سورة محمد؛ وفي الآيتين 1 و46 من سورة القمر؛ وفي الآيات 42-45 من سورة النازعات.

17 - السَّحَر

ورد في «لسان العرب» تحت مادة «سحر»: «السَّحْر والسَحَر: آخر الليل قُبيل الصبح، والجمع أسحار. والسُّحْرَة: السَّحَر، وقيل أعلى السحر، وقيل: هو من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر». (ابن منظور، ج4ص350)

قال تعالى عن وقت السحر في الآية 17 من سورة آل عمران: «الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار»؛ وفي الآية 18 من سورة الذاريات: «وبالأسحار هم يستغفرون»؛ والآية 34 من سورة القمر: «إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر».

18 - السـنـة

تعتبر السنة من وحدات القياس المتوسطة، والتي تعتمد عليها الشعوب في معرفة الأعمار والتأريخ للأحداث. وتُعرّف السنة بإكمال الكرة الأرضية لدورة كاملة حول الشمس تستغرق 365 يوما، أو366 يوما بعد كل أربع سنوات (السنة الكبيسة)، وتسمى هذه السنة: السنة الشمسية، أما السنة القمرية، التي تعتمد شهورها على دوران القمر حول الأرض، فتقل أحد عشر يوما عن نظيرتها الشمسية، وهي التي يعتمدها التأريخ الهجري. إذن، فالسنة هي مقدار من الزمان يكفي لكي يعود الفصل السنوي ويعود الظل للمكان نفسه الذي كان عليه.

وقد تضمنت اللغة العربية والقرآن الكريم مرادفين آخرين للسنة، وهما: «العام» و«الحول» ويرمز هذا الأخير إلى اكتمال الدورة وعودة الفصول، ومن ثم عودة السلوكات الطبيعية المرتبطة بها، خاصة في مجال ممارسة الطقوس والشعائر الدينية والعادات وغيرها من السلوكات البشرية، ونمو النباتات، وتكاثر الحيوانات.

ورد ذكر السنة كوحدة لقياس الوقت، في الآية 96 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾؛ وفي الآية 26 من سورة المائدة: «قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين»؛ والآية 130 من سورة الأعراف: «ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون»؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة يونس: «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون».

كما ورد ذكر السنة في الآيات 42 و47 و48 من سورة يوسف؛ والآية 12 من سورة الإسراء؛ وفي الآيتين 11 و25 من سورة الكهف؛ وفي الآية 40 من سورة طه؛

والآية 112 من سورة «المؤمنون»؛ وفي الآيتين 18 و205 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 14 من سورة العنكبوت؛ والآية الرابعة من سورة الروم؛ والآية الخامسة من سورة السجدة؛ وفي الآية 15 من سورة الأحقاف؛ والآية الرابعة من سورة المعارج.

وورد ذكر العام في الآية 259 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام﴾؛ وفي الآيات 28 و37 و126 من سورة التوبة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾، ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله﴾، «أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون»؛ وقال تعالى في الآية 49 من سورة يوسف: «ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون»؛ وفي الآية 14 من سورة العنكبوت: «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون»؛ والآية 14 من سورة لقمان: «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير».

أما الحول، فقد ورد في سورة البقرة في الآيتين 233 و240، إذ قال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾، ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول﴾. وقد عرّفه ابن عاشور، بقوله: «الحول في كلام العرب: العام، وهو مشتق من تحول دورة القمر أو الشمس في فلكه من مبدأ مصطلح عليه، إلى أن يرجع السمت الذي ابتدأ منه، فتلك المدة التي ما بين المبدأ والمرجع تسمى حولا. وحول العرب قمري وكذلك أقره الإسلام». (ت. ع، ج2 ص410)

وقد ذكر ابن عاشور توضيحا هاما يبين مفهوم السنة عند العرب، في سياق تفسيره للآية 233 من سورة البقرة: «.. ووصف الحولين بكاملين تأكيد لرفع توهم أن يكون المراد حولا وبعض الثاني؛ لأن إطلاق التثنية والجمع في الأزمان والأسنان، على بعض المدلول، إطلاق شائع عند العرب، فيقولون: هو ابن سنتين ويريدون سنة وبعض الثانية». (ت.ع، ج2 ص410)

19 - الشتاء والصيف

ورد ذكر فصلي الشتاء والصيف (ومدتهما حسب التقويم الشمسي ثلاثة أشهر لكل منهما، يمتد الأول من 22 ديسمبر إلى 21 مارس؛ والثاني من 22 يونيو إلى 21 سبتمبر) في سورة قريش، إذ قال تعالى في الآيتين الأولى والثانية: «لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف».

20 - الصبح

الصبح في اللغة العربية: «أول النهار. والصبح: الفجر. والصباح: نقيض المساء، والجمع أصباح، وهو الصبيحة والصباح والإصباح والمُصْبَح.. وحكى اللحياني: تقول العرب إذا تطيروا من الإنسان وغيره: صباح الله لا صباحك! قال: وإن شئت نصبت.. وأصبح القوم: دخلوا في الصباح، كما يقال: أمسوا دخلوا في المساء؛ وفي الحديث: أصْبِحوا بالصبح فإنه أعظم للأجر أي صلوها عند طلوع الصبح؛ يقال أصبح الرجل إذا دخل في الصبح؛ وفي التنزيل: وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل؛ وقال سيبويه: أصبحنا وأمسينا أي صرنا في حين ذاك، وأما صبّحنا ومسّينا فمعناه أتيناه صبحا ومساء؛ وقال أبو عدنان: الفرق بين صَبَحْنا وصَبّحْنا أنه يقال صبَحنا بلد كذا

وكذا وصبّحنا فلانا.. وقول الله، عز من قائل: فأخذتهم الصيحة مصبحين أي أخذتهم الهلكة وقت دخولهم في الصبح.. وصبّح القوم: أتاهم غُدْوَةً». (ابن منظور، ج2 ص502)

وورد ذكر الصبح في الآية 96 من سورة الأنعام، إذ قال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا﴾؛ وفي الآية 81 من سورة هود: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 66 و83 من سورة الحجر: «وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين»، «فأخذتهم الصيحة مصبحين»؛ وفي الآية 17 من سورة الروم: «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون»؛ وقال تعالى في الآيتين 137 و177 من سورة الصافات: «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين»، «فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين»؛ وفي الآيتين 17 و21 من سورة القلم: «إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين»، «فتنادوا مصبحين»؛ وقال تعالى في الآية 34 من سورة المدثر: «والصبح إذا أسفر»؛ وفي الآية 18 من سورة التكوير: «والصبح إذا تنفس»؛ والآية الثالثة من سورة العاديات: «فالمغيرات صبحا».

21 - الضحى

ورد ذكر وقت الضحى – وهو أحد أوقات النهار – في الآية 98 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: «أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون»؛ وقد أقسم تعالى بالضحى في الآية الأولى من الشمس: «والشمس وضحاها»؛ وفي الآية الأولى من سورة الضحى: «والضحى».

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره للفظة ﴿ضحاها﴾ الواردة في سورة الشمس: «ضحاها: ضوؤها إذا أشرقت وقام سلطانها؛ ولذلك قيل: وقت الضحى،

كأن وجهه شمس الضحى. وقيل الضحوة ارتفاع النهار. والضُحى فوق ذلك. والضَحاء بالفتح والمد: إذا امتد النهار وقرب أن ينتصف». (ت. ز، ج4 ص746)

كما ذكر الرازي عدة تفاسير لـ﴿ ضحاها ﴾: «ذكر المفسرون في ضحاها ثلاثة أقوال، قال مجاهد والكلبي ضوؤها، وقال قتادة هو النهار كله، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة، وقال مقاتل هو حر الشمس، وتقرير ذلك بحسب اللغة أن نقول، قال الليث: الضحو ارتفاع النهار، والضحى فويق ذلك، والضحاء ممدودا امتد النهار، وقرب أن ينتصف. وقال أبو الهيثم: الضح نقيض الظل وهو نور الشمس على وجه الأرض وأصله الضحّي، فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فقلبوها وقالوا ضح، فالضحى هو ضوء الشمس ونورها ثم سمي به الوقت الذي تشرق فيه الشمس على ما في قوله تعالى ﴿ إلا عشية أو ضحاها ﴾ فمن قال من المفسرين في ضحاها ضوؤها فهو على الأصل، وكذا من قال هو النهار كله، لأن جميع النهار هو من نور الشمس، ومن قال في الضحى إنه حر الشمس فلأن حرها ونورها متلازمان.. وهذا أضعف الأقوال، واعلم أنه تعالى إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح، فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر أثر الصبح في المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة، فصارت الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها». (ت. ع. ج31م16ص190)

وقدم ابن عاشور تعريفا أكثر تحديدا للضحى، قائلا: «الضحى: وقت ارتفاع الشمس عن أفق مشرقها، وظهور شعاعها، وهو الوقت الذي ترتفع فيه الشمس متجاوزة مشرقها بمقدار ما يخيل للناظر أنه طول رُمح». (ت. ع، ج30 ص323)

22 - العـــدة

العِدّة في اللغة والشرع الإسلامي ثلاثة قروء (والقرء: الحيض). وفي القاموس: «عدة المرأة: أيام قروئها. وعدتها أيضا: أيام إحدادها على بعلها وإمساكها عن الزينة شهورا كان أو أقراء أو وضع حمل حملته من زوجها. قد اعتدّت المرأة عِدتها من وفاة زوجها أو طلاقه إياها، وجمع عدتها عِدَد وأصل ذلك كله من العدّ؛ وقد انقضت عدّتها. وفي الحديث: لم تكن للمطلقة عدة فأنزل الله تعالى العدة للطلاق. وعدة المرأة المطلقة والمتوفى زوجها: هي ما تعده من أيام أقرائها أو أيام حملها أو أربعة أشهر وعشر ليال». (ابن منظور، ج3 ص284)

ورد ذكر العدة في الآيتين الأولى والرابعة من سورة الطلاق، إذ قال تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة﴾، ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر﴾.

23 - العشـاء والعـشي

يتضح الفرق بين العشاء والعشي - لغويا - كما يلي: «العشاء: أول الظلام من الليل، وقيل: هو من صلاة المغرب إلى العتمة. والعشاءان: المغرب والعتمة؛ قال الأزهري: يقال لصلاتي المغرب والعشاء العشاءان، والأصل العشاء فغلبت على المغرب.. وقال ابن شميل: العشاء حين يصلي الناس العتمة.. قال الأزهري: صلاة العشاء هي التي بعد صلاة المغرب، ووقتها حين يغيب الشفق.. وأما العشي فقال أبو الهيثم: إذا زالت الشمس دُعي ذلك الوقت العشي، فتحول الظل شرقيا وتحولت الشمس غربية؛ قال الأزهري: وصلاة

العِشي هما الظهر والعصر. وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه: صلى بنا رسول الله ﷺ، إحدى صلاتي العشي، وأكبر ظني أنها العصر.. وقال الأزهري: يقع العشي على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها، كل ذلك عشي، فإذا غابت الشمس فهو العشاء، وقيل: العشي من زوال الشمس إلى الصباح.. . وقال الليث: العشي، بغير هاء، آخر النهار، فإذا قلت عشية فهو ليوم واحد». (ابن منظور، ج15 ص60)

قال تعالى في الآية 41 من سورة آل عمران: «قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار»؛ وفي الآية 52 من سورة الأنعام: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾؛ والآية 16 من سورة يوسف: «وجاءوا أباهم عشاء يبكون»؛ وقال تعالى في الآية 28 من سورة الكهف: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾؛ وفي الآيتين 11 و62 من سورة مريم: «فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا»، «لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا»؛ وقال تعالى في الآية 58 من سورة النور: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء﴾؛ وفي الآية 18 من سورة الروم: «وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 18 و31 من سورة ص: «إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق»، «إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد»؛ وفي الآيتين 46 و55 من سورة غافر: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾، «فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار»؛ والآية 46 من سورة النازعات: «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها».

24 - العصر

العصر من الأشياء التي أقسم بها الله سبحانه وتعالى. إذ قال تعالى في سورة العصر: «والعصر. إن الإنسان لفي خسر».

وقد أورد ابن عاشور عدة معانٍ للعصر ضمن سياق تفسيرة لسورة العصر، قائلا:

«للعصر معان يتعين أن يكون المراد منها لا يعدو أن يكون حالة دالة على صفة من صفات الأفعال الربانية، يتيعين إما إضافته إلى ما يُقدر، أو بالقرينة، أو بالعهد، وأيّا ما كان المراد منه هنا فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكٌر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة مثل الصلاة المخصوصة أو عصر معين مبارك.

وأشهر إطلاق لفظ العصر أنه علَم بالغلبة لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثله بعد القَدْر الذي كان عليه عند زوال الشمس. وذلك وقت اصفرار الشمس، والعصر مبدأ العشيّ. ويعقبه الأصيل والاحمرار وهو ما قبل غروب الشمس.. ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جيل من الناس، أو مَلِك أو نبي، أو دين، ويعيّن بالإضافة.. ويجوز أن يراد عصر الإسلام كله وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم.. ويجوز أن يفسر العصر في هذه الآية بالزمان كله». (ت. ع، ج30 ص ص465-466)

25 - العمر

تستخدم كلمة العمر لتحديد الوقت الذي عاشه الإنسان أو الكائن منذ ولادته أو وجوده إلى لحظة آنية، أو لحظة وفاته أو زواله.

وقد ورد ذكر عمر الإنسان في الآية 70 من سورة النحل، إذ قال تعالى: ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾؛ وفي الآية 44 من سورة الأنبياء: ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 11 و37 من سورة فاطر: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾، ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم﴾؛ وفي الآية 68 من سورة يس: «ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون».

26 - عما قليل

يشير تعبير (عمّا قليل) إلى فترة زمنية وجيزة تلي وقت التحدث. وقد ورد في الآية 40 من سورة «المؤمنون»، إذ قال تعالى: «قال عما قليل ليصبحن نادمين». ومعنى الآية: «أن إصباحهم نادمين يتجاوز زمنا قليلا: أي من زمان التكلم وهو تجاوز مجازي بحرف (عن) مستعار لمعنى (بعد) استعارة تبعية. و﴿ما﴾ زائدة للتوكيد. و﴿قليل﴾ صفة لموصوف محذوف دل عليه السياق أو فعل الإصباح الذي هو من أفعال الزمن فوعد الله هذا الرسول نصرا عاجلا». (ت. ع، ج18 ص48)

27 - الغدوة

يُراد من الغدوة فترة صباحية، تلي صلاة الفجر إلى شروق الشمس. وفي القاموس: «الغُدْوة، بالضم: البُكْرَة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. وغدوة، من يوم بعينه، غير مُجراة: علم للوقت. والغداة: كالغدوة، وجمعها غَدَوات». (ابن منظور، ج15 ص116)

قال تعالى في الآية 15 من سورة الرعد: «ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال؛ وفي الآية 52 من سورة الأنعام: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾؛ والآية 205 من سورة الأعراف: «واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين»؛ وقال تعالى في الآية 28 من سورة الكهف: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾؛ وفي الآية 36 من سورة النور: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال»؛ والآية 46 من سورة غافر: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾.

28 - الغســـق

ورد ذكر الغسق والغاسق في سورتي الإسراء والفلق. قال تعالى في الآية 78 من سورة الإسراء: «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا»؛ وفي الآية الثالثة من سورة الفلق: «ومن شر غاسق إذا وقب».

والغسق، كوحدة لقياس الوقت، مرتبط بالليل. ومن بين معانيه التي وردت في «لسان العرب»: «غسق الليل يَغْسِق غَسْقا وغَسَقا وغَسَقانا وأغْسَقَ؛ عن ثعلب: انصبّ وأظلم؛ ومنه قول ابن الرقيات:

إن هذا الليل قد غسقا   واشتكيت الهمّ والأرقا

وغَسَقُ الليل: ظلمته، وقيل أول ظلمته، وقيل غسقه إذا غاب الشفق. وأغسق المؤذن أي أخّر المغرب إلى غسق الليل.. وقوله تعالى: ومن شر غاسق إذا وقب؛ قيل: الغاسق هذا الليل إذا دخل في كل شيء.. وفي حديث عمر: لا تفطروا حتى يغسق الليل على الضّراب أي حتى يغشى الليل بظلمته الجبال

الصغار. والغاسق: الليل؛ إذا غاب الشفق أقبل الغسق». (ابن منظور، ج10 ص ص288-289)

29 - الفجـــر

ورد ذكر الفجر في الآية 187 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾؛ وفي الآية 78 من سورة الإسراء: «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا»؛ وقال تعالى في الآية 58 من سورة النور التي تتضمن ثلاث وحدات لقياس الزمن، وهي: الفجر والظهيرة والعشاء: «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم»؛ وقال تعالى في الآية الأولى من سورة الفجر، حيث أقسم بالفجر: «والفجر»؛ وفي الآية الخامسة من سورة القدر: «سلام هي حتى مطلع الفجر».

وقد عرّف ابن عاشور الفجر الوارد في القرآن وفسّره، بقوله:

«﴿الفجر﴾: اسم لوقت ابتداء الضياء في أقصى المشرق من أوائل شعاع الشمس حين يتزحزح الإظلام عن أول خط يلوح للناظر من الخطوط الفرضية المعروفة في تخطيط الكرة الأرضية في الجغرافيا ثم يمتد فيضيء الأفق ثم تظهر الشمس عند الشروق وهو مظهر عظيم من مظاهر القدرة الإلهية وبديع الصنع.

فالفجر ابتداء ظهور النور بعد ما تأخذ ظلمة الليل في الانصرام وهو وقت مبارك للناس إذ عنده تنتهي الحالة الداعية إلى النوم الذي هو شبيه الموت». (ت. ع، ج30 ص276)

30 - الفلــق

الفلق مقترن بالصباح، وفيه قال تعالى في الآية 96 من سورة الأنعام: «فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم»؛ وفي الآية الأولى من سورة الفلق: «قل أعوذ برب الفلق». وورد في قاموس «لسان العرب» تحت مادة «فلق»: «فَلَقَ الله الفجر: أبداه أوضحه. وقوله تعالى: فالق الإصباح؛ قال الزجاج: جائز أن يكون معناه خالق الإصباح وجائز أن يكون معناه شاق الإصباح.. والفَلَق، بالتحريك: ما انفلق من عمود الصبح، وقيل: هو الصبح بعينه، وقيل: هو الفجر، وكلٌّ راجع إلى معنى الشق. قال الله تعالى: قل أعوذ برب الفلق؛ قال الفراء: الفلق الصبح. يقال: هو أبين من فلق الصبح وفرق الصبح. وقال الزجاج: الفلق بيان الصبح.. وفي الحديث: أنه كان يرى الرؤيا فتأتي مثل فلق الصبح؛ هو بالتحريك ضوؤه وإنارته. والفَلْقُ، بالتسكين: الشق». (ابن منظور، ج10 ص310)

31 - القــرء

ورد في «لسان العرب» تحت مادة قرأ: «القَرْءُ والقُرْءُ: الحيض، والطهر ضد. وذلك أن القرء الوقت، فقد يكون للحيض والطهر. قال أبو عبيد: القرء يصلح للحيض والطهر. قال: وأظنه من أقرأت النجوم إذا غابت. والجمع: أقراء.. [وقال] أبو عبيد: الأقراء: الحيض، والأقراء: الأطهار، وقد أقرأت

المرأة، في الأمرين جميعا، وأصله من دنو وقت الشيء. قال الشافعي رضي الله عنه: القرء اسم للوقت فلما كان الحيض يجيء لوقت، والطهر يجيء لوقت جاز أن يكون الأقراء حيضا وأطهارا». (ابن منظور، ج1ص ص130–131)

وقال تعالى في الآية 228 من سورة البقرة: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾.

32- القـــرن

القرن في لغة القرآن لا يتطابق مع مفهومنا المعاصر للقرن (أي مائة سنة). فهو «الأمة والجيل. ويطلق على الزمان الذي تعيش فيه الأمة، شاع تقديره بمائة عام». (ت. ع، ج16 ص90) ويُفهم من الآيات التي تتحدث عن القرون، أن المقصود هو الأمم أو الشعوب والحضارات السالفة، التي يمكن اعتبار تعاقبها مقياسا للوقت وأداة لإدراك الزمن الممتد عبر التاريخ البشري.

وقد ورد ذكر القرن في الآية 98 من سورة مريم، إذ قال تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾؛ وفي الآيتين 51 و128 من سورة طه: «قال فما بال القرون الأولى»، ﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 31 و42 من سورة «المؤمنون»: «ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين»، «ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين»؛ وفي الآية 38 من سورة الفرقان: «وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا»؛ وقال تعالى في الآية 45 من سورة القصص: ﴿ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر﴾؛ وفي الآية 31 من سورة يس: «ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون»؛ والآية 36 من سورة ق: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص».

33 - القـــريب

وردت كلمـة «قـريب» في العـديد من الآيات القـرآنيـة، للدلالة على القـرب النسبي للزمن. ويلاحظ من سياق الآيات التـاليـة، أن القرب قد يعني لحظات أو سـاعـات، وقد يطول إلى موعـد قيـام السـاعة، التي لا يعرف وقتهـا إلا الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى في الآية 214 من سورة البقرة: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾؛ وفي الآيتين 64 و81 من سـورة هود: «ويا قـوم هـذه ناقـة الله لكم آية فـذروهـا تأكل في أرض الله ولا تمسـوهـا بسـوء فـيـأخـذكم عـذاب قـريب»، ﴿إن مـوعـدهم الصبـح أليس الصبـح بقـريب﴾؛ كمـا ورد ذكـر الوقت القـريب في الآية الأولى من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 18 و27 من سورة الفتح؛ وفي الآية 13 من سورة الصف؛ وفي الآية العاشـرة من سورة «المنافقون»؛ وفي الآية السابعـة من سورة المعارج؛ والآية 25 من سورة الجن.

34 - الكبـر

الكِبَرُ: كثـرة سني العمـر. والإنسـان الذي بلغـه الكبـر هو الإنسـان المعمّـر - بتعبيـرنا المعاصـر؛ وهو الذي بلغ الحدود العليا في العمر السـائدة في مجتمع وعصر محددين، والتي غالبا ما تصاحب بقلة النشاط واختلال نظام الجسم.

ورد ذكر الكبر في الآية 266 من سورة البقـرة، إذ قال تعالـى: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجـري من تحتـهـا الأنهـار له فـيـهـا من كل الثمـرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفـاء﴾؛ وفي الآية 40 من سورة آل عمران: «قـال رب أنى يكون لـي غـلام وقـد بلغني الكبـر وامـرأتي عـاقـر قـال كـذلك الله يفعل مـا يشـاء»؛ والآية 39 من سـورة إبراهيم: «الحمـد لله الذي وهب لي على

الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء»؛ وقال تعالى في الآية 54 من سورة الحجر: «قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون»؛ وفي الآية 23 من سورة الإسراء: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما»؛ والآية الثامنة من سورة مريم: «قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا».

35 - الكتاب الموقوت

ورد تعبير «الكتاب الموقوت» في الآية 103 من سورة النساء مقرونا بالصلاة، إذ قال تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾. أي إن الصلاة تقام في أوقات محددة أثناء اليوم. ونسبة إلى ثبات هذه الأوقات، يمكن اتخاذها مقياسا للزمن، كالقول، على سبيل المثال: إن الأشياء حدثت عند صلاة الفجر أو الظهر أو العصر أو عند صلاة الجمعة أو العيد..

36 - اللبث

اللَّبْث واللَّبَاث يفيد: المُكْث. ولَبِثَ بمعنى مَكَثَ. وقد يفيد الإبطاء والتأخر. وقد ورد ذكره في الآية 16 من سورة يونس، إذ قال تعالى: «قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون»؛ وفي الآية 69 من سورة هود: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ»؛ والآية 76 من سورة الإسراء: «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا»؛ وقال تعالى في الآيتين 12 و26 من سورة الكهف: ﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين

أحصى لما لبثوا أمدا»، «قل الله أعلم بما لبثوا ﴾؛ وفي الآية 14 من سورة سبأ: ﴿فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾.

37 - لمح البصر

تضمن القرآن الكريم تعبير «لمح البصر» لقياس سرعة حدوث الأشياء التي تستغرق أجزاء من الثانية. أي للتعبير عن أصغر الوحدات الزمنية المدركة من لدن الإنسان. فلمح البصر، من السلوكات التي تحدث بسرعة عالية فتستغرق وقتا في غاية الضآلة. ويعدّ هذا أقرب إلى فهم المتلقي الذي لم يألف التكنولوجيا التي تساعد على إدراك سرعات أكبر بكثير.

وقد ورد تعبير لمح البصر في سورتي النحل والقمر، إذ قال تعالى في الآية 77 من سورة النحل: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير»؛ وفي الآية 50 من سورة القمر: «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر».

38 - ما دام

ورد تعبير «ما دام» في الآيات التالية للدلالة على استمرارية الوقت.

قال تعالى في الآية 75 من سورة آل عمران: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ﴾؛ وفي الآيات 24 و96 و117 من سورة المائدة: ﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها﴾، ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما ﴾، ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن

اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 107 و108 من سورة هود: «خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ»؛ وفي الآية 31 من سورة مريم: «وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا».

وقد أوضح ابن عاشور المراد من هذا التعبير، في سياق تفسيره للآية 75 من سورة آل عمران، قائلا: «و(ما) من قوله: ﴿إلا ما دمت عليه قائما﴾ حرف مصدري يصير الفعل بعده في تأويل مصدر، ويكثر أن يقدر معها اسم زمان ملتزم حذفه يدل عليه سياق الكلام فحينئذ يقال ما ظرفية مصدرية. وليست الظرفية مدلولها بالأصالة ولا هي نائبة عن الظرف، ولكنها مستفادة من موقع (ما) في سياق كلام يؤذن بالزمان، ويكثر ذلك في دخول (ما) على الفعل المتصرف من مادة دَام ومرادفها.

و(دام) في هذه الآية كذلك فالمعنى: لا يؤدّه إليك إلا في مدة دوام قيامك عليه أي إلحاحك عليه. والدوام حقيقته استمرار الفعل وهو هنا مجاز في طول المدة، لتعذر المعنى الحقيقي مع وجود أداة الاستثناء، لأنه إذا انتهى العمر لم يحصل الإلحاح بعد الموت. (ت. ع، ج3 ص133)

39 - المدّ

المدّ كلمة تعني الجذب والمط، عندما نتحدث ضمن بعد المسافة/المكان؛ وتعني المماطلة والإمهال والتطويل، عندما نتحدث ضمن بعد الزمان. وقد ورد ذكر المدّ الزماني في الآيتين 75 و79 من سورة مريم، إذ قال تعالى: «قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب

وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا»، «كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا».

40 - المـدة

من بين معاني المدّة المرتبطة بالزمان: «الغاية في الزمان.. ويقال: لهذه الأمة مدة أي غاية في بقائها. ويقال: مدّ الله في عُمُرك أي جعل لعمرك مدة طويلة. ومُدّ في عمره: نُسِئَ». (ابن منظور، ج3 ص399)

قال تعالى في الآية الرابعة من سورة التوبة: «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين» أي «أدوه إليهم تاما كاملا. قال ابن عباس: بقي لحي من كنانة من عهدتهم تسعة أشهر فأتم إليهم عهدهم». (ت. ر. ج15 م8 ص232)

المبحث الثاني

مفهــــوم اليــوم

يطرح مفهوم اليوم - باعتباره وحدة لقياس الوقت - في القرآن الكريم وكذا في اللغة العربية، العديد من القضايا التي تهم البعد الاتصالي للزمن. ومن بين هذه القضايا نجد نسبية الزمن، واختلاف الثقافات في إدراك الزمن، والاختلاف في تحديد وحدات القياس. فمنذ البداية، نجد أن اليوم كما يُعرّف في القاموس اللغوي العربي، ليس هو اليوم الذي يتضمن 24 ساعة ، والذي نتخذه الآن لقياس الأسبوع والشهر والسنة. كما أن بعض الآيات القرآنية تتحدث عن يوم مقداره ألف سنة أو 50 ألف سنة مما نعد.

وبالإضافة إلى قياس الوقت، نجد أن القرآن الكريم اهتم بيوم محدد أهم من جميع الأيام المعرفة والنكرة. هذا اليوم هو يوم القيامة الذي يشكل الفيصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة الأبدية. وقد تعددت أوصاف هذا اليوم، وذُكرت العديد من الأحداث التي ستتم فيه، الأمر الذي يجعله دائم الحضور في سلوكات المسلمين ومخيلتهم، وباثا للرهبة والخوف في نفوس المؤمنين منهم.

وقبل أن نتطرق لمفهوم اليوم في القرآن الكريم، لابد من إيراد التعريف الموسّع لليوم في اللغة العربية، وذلك من خلال قاموس «لسان العرب»:

«اليوم: معروف مقداره من طلوع الشمس إلى غروبها، والجمع أيام، لا يكسَّر إلا على ذلك.. وقوله عز وجل: وذكرهم بأيام الله؛ المعنى ذكرهم بنعم الله التي أنعم فيها عليهم وبنقم الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود.. وقال مجاهد في قوله: لا يرجون أيام الله، قال: نعمه.. وقال شمر في قولهم:

يوماه: يوم ندى، ويوم طِعان

ويوماه: يوم نعم ويوم بؤس، فاليوم هاهنا بمعنى الدهر أي هو دهره كذلك.. وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن قول العرب اليَوْم اليَوْم، فقال: يريدون اليَوْم اليَومَ، ثم خففوا الواو فقالوا اليوم اليوم، وقالوا أنا اليوم أفعل كذا، لا يريدون يوماً بعينه ولكنهم يريدون الوقت الحاضر؛ حكاه سيبويه؛ ومنه قوله عز وجل: اليوم أكملت لكم دينكم؛ وقيل: معنى اليوم أكملت لكم دينكم أي فرضت ما تحتاجون إليه في دينكم، وذلك حسن جائز، فأما أن يكون دين الله في وقت من الأوقات غير كامل فلا. وقالوا: اليوم يومك، يريدون التشنيع وتعظيم الأمر. وفي حديث عمر، رضي الله عنه: السائبة والصدقة ليومها أي ليوم القيامة، يعني يراد بهما ثواب ذلك اليوم. وفي حديث عبد الملك: قال للحجاج سِرْ إلى العراق غِرار النوم طويل اليوم؛ يقال ذلك لمن جدّ في عمله يومه، وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً؛ ومنه الحديث: تلك أيام الهرج أي وقته، ولا يختص بالنهار دون الليل. واليوم الأَيْوَم: آخر يوم في الشهر. ويوم أيوم.. طويل شديد هائل.. واليوم: الكون. يقال: نعم الأخ فلان في اليوم إذا نزل بنا أي في الكائنة من الكون إذا حدثت.. وتقول العرب لليوم الشديد: يوم ذو أيام ويوم ذو أياييم، لطول شره على أهله.. [قال] ابن السكيت: العرب تقول الأيام

في معنى الوقائع، يقال: هو عالم بأيام العرب، يريد وقائعها.. وقال شمر: جاءت الأيام بمعنى الوقائع والنعم. وقال: إنما خصوا الأيام دون ذكر الليالي في الوقائع لأن حروبهم كانت نهارا، وإذا كانت ليلا ذكروها كقوله:

ليلة العرقوب، حتى غامرت جعفر يُدعى ورهط ابن شَكَل

وأما قول عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوال

فإنه يريد أيام الوقائع التي نصروا فيها على أعدائهم». (ابن منظور، ج12ص ص649-651)

لقد ورد ذكر اليوم في القرآن الكريم في 473 موضعا، مما يبين انه أهم وحدات قياس الوقت المألوفة لدى المتلقين للخطاب القرآني.

1 - الليل والنهار

اتخذ الإنسان الليل والنهار كوحدات لقياس الوقت، حيث يتقاسمان ساعات اليوم بينهما بالتساوي أو تترجح كفة أحدهما على الآخر ببضع ساعات وفقا لحركة الأرض حول الشمس واختلاف الفصول. ولا تقتصر علاقة الليل والنهار باليوم، فقط في اعتبارهما مكوناه الوحيدان، بل في الارتباط اللغوي الوثيق بين لفظ «النهار» و«اليوم».

إذ نجد في القاموس اللغوي، تحت مادة «ليل»: «الليل: عقيب النهار ومبدؤه من غروب الشمس. [وفي] التهذيب: الليل ضد النهار والليل ظلام والنهار ضياء، فإذا أفردت أحدهما من الآخر قلت ليلة ويوم.. [قال] أبو الهيثم: النهار اسم وهو ضد الليل، والنهار اسم لكل يوم، والليل اسم لكل ليلة، لا يقال نهار ونهاران ولا ليل وليلان، إنما واحد النهار يوم تثنيته يومان وجمعه أيام، وضد

اليوم ليلة وجمعها ليال.. قال: وربما وضعت العرب النهار في موضع اليوم فيجمعونه حينئذ نُهُر؛ وقال دريد بن الصمة:

وغارة اليوم والليـل فلتة   تداركتها وحدي بسيد عمرد

فقال: بين اليوم والليل، وكأن حقه بين اليوم والليلة لأن الليلة ضد اليوم واليوم ضد الليلة، وإنما الليل ضد النهار كأنه قال بين النهار وبين الليل، والعرب تستجيز في كلامها: تعالى النهارُ، في معنى تعالى اليوم». (ابن منظور، ج11 ص607)

ورد ذكر الليل والنهار في الآيات 51 و164 و187 و274 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون»، «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»، ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾، «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

وجاء ذكر الليل والنهار في الآيات 27 و113 و190 من سورة آل عمران؛ والآيات 13 و60 و76 و96 من سورة الأنعام؛ وفي الآيات 54 و97 و142 من سورة الأعراف؛ والآيات 6 و24 و67 من سورة يونس؛ وفي الآية 114 من سورة هود؛ وفي الآيتين الثالثة والعاشرة من سورة الرعد؛ والآية 33 من سورة إبراهيم؛ وفي الآيات 1 و12 و78 و79 من سورة الإسراء؛ وفي الآية 130 من سورة طه؛ والآيات 20 و33 و42 من سورة الأنبياء؛ وفي الآية 61 من سورة الحج؛ والآية 44 من سورة النور؛ والآية 86 من سورة النمل؛ وفي الآيات 71 و72 و73 من

سورة القصص»؛ والآية 23 من سورة الروم؛ وقال تعالى في الآية 29 من سورة لقمان؛ وفي الآية 13 من سورة فاطر؛ والآية 138 من سورة الصافات؛ وفي الآيتين الخامسة والتاسعة من سورة الزمر؛ وفي الآية 61 من سورة غافر؛ والآية 38 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 3 و23 من سورة الدخان؛ وفي الآية الخامسة من سورة الجاثية؛ والآية 40 من سورة ق؛ وفي الآية 17 من سورة الذاريات؛ وفي الآية 49 من سورة الطور؛ والآية السادسة من سورة الحديد؛ وفي الآية الخامسة من سورة نوح؛ والآيات 2 و3 و4 و6 و7 و20 من سورة المزمل؛ والآية 33 من سورة المدثر؛ وفي الآية 26 من سورة الإنسان؛ وفي الآيتين 10 و11 من سورة النبأ؛ والآية 29 من سورة النازعات؛ وفي الآية 17 من سورة التكوير؛ وفي الآيتين الثانية والرابعة من سورة الفجر؛ وفي الآيتين الثالثة والرابعة من سورة الشمس؛ وفي الآيتين الأولى والثانية من سورة الليل؛ والآية الثانية من سورة الضحى؛ والآيات الأولى والثانية والثالثة والخامسة من سورة القدر.

2 - يوم القيامة

إن أشهر يوم ورد ذكره في القرآن الكريم، هو يوم القيامة.. وقد أصبح هذا اليوم الأكثر شهرة في ذاكرة الإسلام ومخيلة المسلمين، وركنا رئيسا في حساباتهم التي تتبني عليها سلوكاتهم اليومية. ولأهمية هذا اليوم الجلل، ورد ذكره ووصفه بعدة أسماء وأوصاف تبين ما سيحدث فيه. فهو يوم القيامة واليوم الآخر ويوم البعث ويوم الحشر ويوم الدين ويوم الحساب .. وكما ذكرنا في الفصل السابق، فهناك حوالي مائة اسم ونعت لهذا اليوم.

ويكتسي يوم القيامة أهمية كبرى في دراسة مفهوم الزمن في القرآن الكريم. فهو يوم ليس كالأيام التي نعيشها على سطح الأرض. إذ إن كل

الدلائل تشير إلى أن البيئة التي يمر فيها هذا اليوم تختلف كليا عن بيئتنا ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾. ويتبين من السنة النبوية أن يوم القيامة أطول من الأيام التي عرفناها نتيجة جهود علماء الفلك حتى الآن. ففي المجموعة الشمسية، نجد أن اليوم في كوكب عطارد - وهو أقرب كواكب المجموعة الشمسية - يعادل 88 يوما من أيام الأرض. على أن يوم القيامة، الذي يوصف بأن الشمس تكون فيه قريبة من رؤوس العباد، أطول من ذلك بكثير.

وقد أوفى الإمام الغزالي في وصفه لطول يوم القيامة، بقوله:

«يقفون ثلاثمائة عام.. قال كعب وقتادة: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[المطففين: 6] قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام. بل قال عبد الله بن عمرو، تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «كيف بكم إنه جمعكم الله كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة ولا ينظر إليكم». وقال الحسن: ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة.. فتأمل في طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر.

واعلم أن من طال انتظاره في الدينا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة، قال رسول الله ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال: والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدينا». (الغزالي، ج4 ص ص547-548)

ويتضح من الحديث النبوي الأخير الذي أورده الغزالي، مدى نسبية إدراك الزمن. إذ يرتبط هذا الإدراك بالحالة النفسية والجسدية (البيولوجية-الفسيولوجية) التي يكون عليها الإنسان. فالكافر سوف يحس

بيوم القيامة وكأنه أكثر من ثلاثمائة سنة أو خمسين الف سنة، بينما يحس به المؤمن كما يحس وهو يؤدي صلاته التي قد لا تتعدى عشر دقائق يقضيها دون آلام نفسية أو جسدية.

إن طول يوم القيامة، والذي لا تعرف سيرورته هل يبدأ بشروق ويستمر حتى مغيب أم تظل فيه الإضاءة ثابتة، يجد تبريره في كثرة الأعمال التي تنجز فيه وعلى رأسها محاسبة الناس كلهم منفردين على ما فعلوه في الدنيا محاسبة دقيقة، تتبين ملامحها من قوله تعالى في الآيات التالية:

قال تعالى في الآية 113 من سورة البقرة: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون»؛ وفي الآية 141 من سورة النساء: ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾؛ والآية 124 من سورة النحل: «إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون»؛ وقال تعالى في الآية 13 من سورة الإسراء: «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا»؛ وفي الآية 47 من سورة الأنبياء: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين»؛ وقال تعالى في الآيتين 17 و69 من سورة الحج: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد»، «الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون»؛ وفي الآية 25 من سورة السجدة: «إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون»؛ والآية 17 من سورة الجاثية: «وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم

القيامة فيما كانوا فيه يختلفون».

وتكمن أهمية يوم القيامة في الرهبة التي يثيرها في نفوس من يؤمنون به. تلك الرهبة الناتجة عن عدم توفر المعرفة بميقاته إلا لله سبحانه وتعالى. وقد سعى الإنسان جاهدا لمعرفة هذا اليوم دون جدوى، إذ قال تعالى في الآية 187 من سورة الأنعام: «يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون»؛ وفي الآية 63 من سورة الأحزاب: «يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا»؛ وقال تعالى في الآية السادسة من سورة القيامة: «يسأل أيان يوم القيامة»؛ وفي الآيات 42 و43 و44 من سورة النازعات: «يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها».

وقد وردت بعض الآيات القرآنية التي تذكر الناس بيوم القيامة وتشير إلى أن أعمالهم وبعضاً مما يصيبهم سيستمر إلى أن يأتي يوم القيامة الذي يجب أخذه في الاعتبار وتوقعه في أي لحظة.

قال تعالى في الآية 55 من سورة آل عمران: «إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما ما كنتم فيه تختلفون»؛ وفي الآيتين 14 و64 من سورة المائدة: «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون»، ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾؛ وكذا في الآية 167 من سورة الأعراف؛ وفي الآيتين 71 و72 من سورة القصص؛ وفي الآية 26 من سورة الجاثية؛ والآية

الخامسة من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 39 من سورة القلم.

وقد ورد ذكر ﴿يوم القيامة﴾ صراحة في سبعين آية قرآنية، وهي:

البقرة: 85 و113 و174 و212؛ وآل عمران: 55 و77 و161 و180 و185 و194؛ والنساء: 87 و109 و141 و159؛ والمائدة: 14 و36 و64؛ والأنعام: 12؛ والأعراف: 32 و167 و172؛ ويونس: 60 و93؛ وهود: 60 و98 و99؛ والنحل: 25 و27 و92 و124؛ والإسراء: 13 و58 و62 و97؛ والكهف: 105؛ ومريم: 95؛ وطه: 100 و101 و124؛ والأنبياء: 47؛ والحج: 9 و17 و69؛ و«المؤمنون»: 16؛ والفرقان: 69؛ والقصص: 41 و42 و61 و71 و72؛ والعنكبوت: 13 و25؛ والسجدة: 25؛ وفاطر: 14؛ والزمر: 15 و24 و31 و47 و60 و67؛ وفصلت: 40؛ والشورى: 45؛ والجاثية: 17 و26؛ والأحقاف: 5؛ والمجادلة: 7؛ والممتحنة: 3؛ والقلم: 39؛ والقيامة: 1 و6.

وورد ذكر يوم القيامة باسم: «اليوم الآخر»؛ في العديد من الآيات القرآنية. إذ قال تعالى في الآيات 8 و62 و126 و177 و264 من سورة البقرة: «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين»، «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»؛ ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾، ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾؛ كما ورد في سورة آل عمران الآية: 114؛ والنساء: 38 و39 و59 و162؛ والمائدة: 69 والتوبة: 18 و19 و44 و45 و99؛ والنور: 2؛ والأحزاب: 21؛ والمجادلة: 22؛ والممتحنة: 6؛ والطلاق: 2.

ويوم القيامة هو «يوم الحساب»، كما جاء في قوله تعالى في الآية 41 من سورة إبراهيم: «ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب»؛ وفي الآيات 16 و26 و53 من سورة ص: «وقالوا ربنا عجل لنا قطّنا قبل يوم الحساب»، ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾، «هذا ما توعدون ليوم الحساب»؛ وفي الآيتين 17 و27 من سورة غافر: «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب»، «وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب».

وورد ذكر يوم القيامة باسم: «يوم الحشر» في الآيتين 22 و128 من سورة الأنعام: «ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون»، ﴿ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾؛ وفي الآية 28 من سورة يونس: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾؛ والآية 47 من سورة الكهف: «ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا»؛ وقال تعالى في الآية 85 من سورة مريم: «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا»؛ وفي الآية 17 من سورة الفرقان: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾ والآية 83 من سورة النمل: «ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون»؛ وقال تعالى في الآية 40 من سورة سبأ: «ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون»؛ وفي الآية 19 من سورة فصلت: «ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون».

وقال تعالى عن يوم القيامة بأنه «يوم الدين» أي يوم الجزاء والعقاب، كما ورد في الآية 35 من سورة الحجر: «وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين»؛ وفي الآية 82 من سورة الشعراء: «والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين»؛ وكذا في الآية 20 من سورة الصافات؛ وفي الآية 78 من سورة ص؛ والآية 12

من سورة الذاريات؛ والآية 56 من سورة الواقعة؛ وفي الآية 26 من سورة المعارج؛ وفي الآية 46 من سورة المدثر؛ والآيات 15 و17 و18 من سورة الانفطار؛ والآية 11 من سورة المطففين.

وتشير عبارة «يومئذ» (أي يوم إذ كذا.. ». إلى يوم القيامة في جميع الآيات التي وردت فيها هذه العبارة، ما عدا في الآية 167 من سورة آل عمران، إذ قال تعالى: «وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون» فالإشارة هنا إلى يوم غزوة أحد.

وقد وردت عبارة «يومئذ» بمعنى يوم القيامة في 66 آية، بدءا من قوله تعالى في الآية 42 من سورة النساء: «يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا»؛ وكذا سورة الأنعام: 16؛ والأعراف: 8؛ والأنفال: 16؛ وإبراهيم: 49؛ والنحل: 87؛ والكهف: 99 و100؛ و طه: 102 و108 و109؛ والحج: 56؛ و«المؤمنون»: 101؛ والنور: 25؛ والفرقان: 22 و24 و26؛ والنمل: 89؛ والقصص: 66؛ والروم: 4 و14 و43 و57؛ والصافات: 33؛ وغافر: 9؛ والشورى: 47؛ والزخرف: 67؛ والجاثية: 27؛ والطور: 11؛ والرحمن: 39؛ والحاقة: 15 و16 و17 و18؛ والمدثر: 9؛ والقيامة: 10 و12 و13 و22 و24 و30؛ والمرسلات: 15 و19 و24 و28 و34 و37 و40 و45 و47 و49؛ والنازعات: 8؛ وعبس: 37 و38 و40؛ والانفطار: 19؛ والمطففين: 10 و15؛ والغاشية: 2 و8؛ والفجر: 23 و25؛ والزلزلة: 4 و6؛ والعاديات: 11؛ والتكاثر: 8؛ وهود: 66؛ والمعارج: 70.

وقد تضمن القرآن الكريم تعبيرات أخرى عديدة، تشير إلى يوم القيامة وتنعته بمختلف الأحداث التي تواكبه، بدءا من النفخ في الصور وتغيّر أحوال

الكون مرورا بالحشر والحساب وصولا إلى دخول أصحاب الجنة وأصحاب النار مثواهم الأخير.

ونورد هنا بعض الآيات حسب ترتيب سور القرآن الكريم، بدءا من قوله تعالى في الآيات 48 و123 و281 من سورة البقرة: «واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون»، «واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون»، «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»؛ وقال تعالى في الآيات 9 و25 و30 من سورة آل عمران: «ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد»، «فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»، ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا﴾؛ وفي الآية 109 من سورة المائدة: «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب»؛ والآية 158 من سورة الأنعام: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾؛ وقال تعالى في الآية 53 من سورة الأعراف: ﴿يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾؛ وفي الآية 77 من سورة التوبة: «فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون»؛ والآية 15 من سورة يونس: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾.

واشتملت سورة هود على ست آيات، إذ قال تعالى في الآية الثالثة: ﴿وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾، وفي الآية الثامنة: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم﴾، والآية 26: «أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم»،

وفي الآية 84: ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾، والآية 103: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾، والآية 105: «يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد»؛ وفي الآيات 31 و42 و44 من سورة إبراهيم: «قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال»، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾، ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾؛ والآية 38 من سورة الحجر: «إلى يوم الوقت المعلوم»؛ وقال تعالى في الآيتين 63 و111 من سورة النحل: «تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم»، ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾؛ وفي الآيتين 52 و71 من سورة الإسراء: «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا»، ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم﴾؛ والآية 52 من سورة الكهف: «ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا»؛ وقال تعالى في الآيات 37 و38 و39 من سورة مريم: «فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم. أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين. وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون»؛ وفي الآيتين 103 و104 من سورة الأنبياء: «لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون. يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين»؛ والآية الثانية من سورة الحج: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾؛ والآية 111 من سورة «المؤمنون»: «إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون».

وقال تعالى في الآيتين 24 و64 من سورة النور: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون»، ﴿ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا﴾؛ وفي الآيتين 14 و25 من سورة الفرقان: «لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا»، «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا»؛ وقال تعالى في الآيتين 88 و135 من سورة الشعراء: «يوم لا ينفع مال ولا بنون»، «إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم»؛ وفي الآية 87 من سورة النمل: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض﴾؛ وقال تعالى في الآيات 62 و65 و74 من سورة القصص: «ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون»، «ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين»، «ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون»؛ وفي الآيتين 28 و29 من سورة السجدة: «ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين. قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون»؛ وقال تعالى في الآيتين 44 و66 من سورة الأحزاب: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾، ﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾؛ وفي الآية 42 من سورة سبأ: ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا﴾؛ وقال تعالى في الآيات 54 و55 و59 و64 و65 من سورة يس: «فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون. إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون»، «وامتازوا اليوم أيها المجرمون»، «اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون. اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون»؛ وفي الآيتين 21 و26 من سورة الصافات: «هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون»، «بل هم اليوم مستسلمون»؛ والآية 81 من سورة ص: «إلى يوم الوقت المعلوم».

وتضمنت سورة غافر ست آيات، بدءا من الآيتين 15 و16، إذ قال تعالى: «رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق. يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله

الواحد القهار»، وفي الآية 18: «وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع»، وفي الآيتين 32 و33: «ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد»، والآية 51: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»؛ وفي الآية السابعة: «وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير»؛ والآيات 39 و65 و68 من سورة الزخرف: «ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون»، «فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم»، «يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون»؛ وقال تعالى في الآيات 10 و16 و40 و41 من سورة الدخان: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين»، «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون»، «إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين. يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون»؛ وفي الآيات 28 و34 و35 من سورة الجاثية: «وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون»، «وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين. ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون»؛ والآيات 20 و21 و34 من سورة الأحقاف: «ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون. واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه الا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم»، ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا﴾.

وقال تعالى في الآيات 20 و22 و30 و41 و42 من سورة ق: «ونفخ في الصور

ذلك يوم الوعيد»، «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد»، «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد»، «واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب. يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج»؛ وفي الآيتين 13 و60 من سورة الذاريات: «يوم هم على النار يفتنون»، «فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون»؛ والآيات 9 و13 و45 و46 من سورة الطور: «يوم تمور السماء مورا»، «يوم يدعون إلى نار جهنم دعا»، «فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون. يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون»؛ وقال تعالى في الآيات 6 و8 و48 من سورة القمر: «فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر»، «مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر»، «يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر»؛ وفي الآية 50 من سورة الواقعة: «لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم»؛ والآيات 12 و13 و15 من سورة الحديد: «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب»، «فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير»؛ وقال تعالى في الآية التاسعة من سورة التغابن: «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم»؛ وفي الآيتين السابعة والثامنة من سورة التحريم: «يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون. يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي

والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير»؛ والآية 35 من سورة الحاقة: «فليس له اليوم ها هنا حميم»

وقال تعالى في الآيات 8 و42 و43 و44 من سورة المعارج: «يوم تكون السماء كالمهل»، «فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون. يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون»؛ وفي الآيتين 14 و17 من سورة المزمل: «يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا. فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا»؛ وفي الآيات 7 و10 و11 من سورة الإنسان: «يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا»، «إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا. فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا»؛ والآيات 11 و12 و13 و14 و35 و38 من سورة المرسلات: «وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل»، «هذا يوم لا ينطقون»، «هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين»؛ وقال تعالى في الآيات 17 و18 و38 و39 و40 من سورة النبأ: «إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا»، «يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا»؛ وفي الآيات 6 و35 و46 من سورة النازعات: «يوم ترجف الراجفة»، «يوم يتذكر الإنسان ما سعى»، «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها»؛ والآية 34 من سورة عبس: «يوم يفر المرء من أخيه»؛ وقال تعالى في الآيات 5 و6 و34 من سورة المطففين: «ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين»، «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون»؛ وفي الآيتين الأولى والثانية من سورة البروج:

«والسماء ذات البروج. واليوم الموعود»؛ والآية التاسعة من سورة الطارق: «يوم تبلى السرائر»؛ والآية الرابعة من سورة القارعة: «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث».

3 - اليوم ودلالة الحاضر

تفيد كلمة «اليوم» معنى الحاضر أو الآن عندما تستخدم في سياق وحدات الزمن الثلاث الرئيسة (الماضي - الحاضر - والمستقبل) والتي يُعبّر عنها، بكيفية مبسطة، باستخدام كلمات: الأمس واليوم والغد. وقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى مفهوم اليوم بمعنى الحاضر المرتبط بلحظة الحديث، فمنها بعض الآيات التي تشير إلى يوم القيامة، وقد وردت سابقا، وبعضها يشير إلى حاضر كان يوما ما في تاريخ بعض الأمم والشعوب التي حكى القرآن قصصا عنها.

وقد بيّن ابن عاشور المقصود من «اليوم» في هذا السياق، عند تفسيرة للآية الثالثة من سورة المائدة:

«.. فـ﴿ اليوم ﴾ يجوز أن يراد به اليوم الحاضر، وهو يوم نزول الآية.. و﴿ اليوم ﴾ يجوز أن يراد به يوم معين، جدير بالامتنان بزمانه، ويجوز أن يجعل (اليوم) بمعنى الآن، أي زمان الحال، الصادق بطائفة من الزمان، رَسخ اليأس، في خلالها، في قلوب أهل الشرك بعد أن خامر نفوسهم التردد في ذلك، فإن العرب يطلقون (اليوم) على زمن الحال، و(الأمس) على الماضي، و(الغد) على المستقبل. قال زهير:

واعْلَم عِلم اليوم والأمس قبلَه ولكنني عن علم ما في غد عَمي

يريد باليوم زمان الحال، وبالأمس ما مضى، وبالغد ما يستقبل، ومنه قول

زياد الأعجم:

رايتُك امس خيرَ بني مَعَدّ   وانت اليوم خير منك امسِ

وانت غدا تزيد الخير خيرا   كذاك تزيد سادة عبد شمس». (ت. ع، ج5 ص29)

قال تعالى في الآية 249 من سورة البقرة: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾؛ وفي الآيتين الثالثة والخامسة من سورة المائدة: ﴿وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾، ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾؛ والآية 48 من سورة الأنفال: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾؛ وقال تعالى في الآية 43 من سورة هود: ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾؛ وفي الآيتين 54 و92 من سورة يوسف: «وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين»، ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾؛ وقال تعالى في الآية 26 من سورة مريم: «فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا»؛ وفي الآية 29 من سورة غافر: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض﴾؛ والآية 24 من سورة القلم: «أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين».

4 - اليوم ونسبية الزمـــان

تتجلى نسبية الزمان المرتبطة بوحدة القياس: اليوم، في ثلاثة أمور وردت في القرآن الكريم:

الأمر الأول: خلق الله سبحانه وتعالى للسماوات والأرض في ستة أيام، والسؤال المطروح فيما إذا كانت تلك الأيام تنتمي ليومنا (الذي يستغرق 24 ساعة) أم ليوم آخر يزيد أو ينقص عن يومنا.

الأمر الثاني: عروج الملائكة والروح إلى الله تعالى في يوم يعادل آلاف السنين من أيامنا.

والأمر الثالث: نسبية الإحساس بمرور الوقت، وهي قضية ذكرها القرآن الكريم قبل أن تبرهن النظرية النسبية العامة لأينشتاين على صحتها.

أ - عدد الأيام التي استغرقها خلق السماوات والأرض:

تشير العديد من الآيات القرآنية إلى أن الله جلت قدرته، خلق السماوات والأرض في ستة أيام: الأرض في أربعة أيام؛ والسماوات في يومين.

قال تعالى في الآية 54 من سورة الأعراف: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾؛ وفي الآية الثالثة من سورة يونس: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾؛ والآية السابعة من سورة هود: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾؛ وقال تعالى في الآية 59 من سورة الفرقان: ﴿الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾؛ وفي الآية الرابعة من سورة السجدة: ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾؛ والآيات 9 و10 و12 من سورة فصلت: «قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام

سواء للسائلين»، ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾؛ وقال تعالى في الآية 38 من سورة ق: «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب»؛ وفي الآية الرابعة من سورة الحديد: ﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾.

لقد ناقش الإمام الرازي مسألة خلق السماوات والأرض في شكل أسئلة وأجوبة، إذ يقول:

«.. والسؤال الثالث: فهل هذه الأيام كأيام الدنيا أو كما رُوي عن ابن عباس أنه قال: إنها ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم منها ألف سنة مما تعدون؟

والجواب: قال القاضي: الظاهر في ذلك أنه تعريف لعباده مدة خلقه لهما، ولا يجوز أن يكون ذلك تعريفا، إلا والمدة هذه الأيام المعلومة.

ولقائل أن يقول: لما وقع التعريف بالأيام المذكورة في التوراة والانجيل، وكان المذكور هناك أيام الآخرة لا أيام الدنيا، لم يكن ذلك قادحا في صحة التعريف.

السؤال الرابع: هذه الأيام إنما تتقدر بحسب طلوع الشمس وغروبها، وهذا المعنى مفقود قبل خلقها، فكيف يعقل هذا التعريف؟

والجواب: التعريف يحصل لما أنه لو وقع حدوث السماوات والأرض في مدة، لو حصل هناك أفلاك دائرة وشمس وقمر، لكانت تلك المدة مساوية لستة أيام.

ولقائل أن يقول: فهذا يقتضي حصول مدة قبل خلق العالم، يحصل فيها حدوث العالم، وذلك يوجب قدم المدة.

وجوابه: أن تلك المدة غير موجودة بل هي مفروضة موهومة، والدليل عليه أن تلك المدة المعنية حادثة، وحدوثها لا يحتاج إلى مدة أخرى، وإلا لزم إثبات أزمنة لا نهاية لها وذلك محال، فكل ما يقولونه في حدوث المدة فنحن نقوله في حدوث العالم.

السؤال الخامس: أن اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته، وقد يراد به النهار وحده. فالمراد بهذه الآية أيهما؟

والجواب: الغالب في اللغة أنه يراد باليوم: اليوم بليلته». (ت. ر. ج17 م9 ص ص13-14)

وقدم الإمام الرازي، في سياق تفسيره للآيات: 9 و10 و12 من سورة فصلت، توضيحا مقنعا لما قد يبدو تناقضا لمن يقرأ قراءة متسرعة، قوله تعالى ﴿خلق الأرض في يومين﴾ وقوله ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾:

«.. ولما ذكر الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التدبير قال بعده ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ وهنا سؤلان:

السؤال الأول: أنه تعالى ذكر أنه خلق الأرض في يومين، وذكر أنه أصلح هذه الأنواع الثلاثة في أربعة أيام أخر، وذكر أنه خلق السماوات في يومين، فيكون المجموع ثمانية أيام، لكنه ذكر في سائر الآيات أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام فلزم التناقض، وأعلم أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾ مع اليومين الأولين، وهذا كقول القائل سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وسرت إلى الكوفة في خمسة عشر يوما يريد كلتا المسافتين، ويقول الرجل للرجل أعطيتك ألفا في شهر وألوفا في شهرين فيدخل الألف في الألوف والشهر في الشهرين.

السؤال الثاني: أنه ذكر أنه خلق الأرض في يومين، فلو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط، فلم ترك هذا التصريح، وذكر ذلك الكلام المجمل؟ (والجواب) أن قوله ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ فيه فائدة على ما إذا قال خلقت هذه الثلاثة في

يومين، وذلك لأنه لو قال خلقت هذه الأشياء في يومين لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الأعمال لأنه قد يقال عملت هذا العمل في يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل، أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء، ثم قال بعده ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ دل ذلك على أن هذه الأيام الأربعة صارت مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ولا نقصان». (ت. ر. ج27 م14 ص104)

ب - عروج الملائكة والروح:

قال تعالى في الآية 47 من سورة الحج: «ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون»؛ وفي الآية الخامسة من سورة السجدة: «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون»؛ الآية الرابعة من سورة المعارج: «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة».

لقد تعددت آراء المفسرين حول طبيعة اليوم المذكور في الآيات السابقة. فهناك من يعتبره يوما من أيام القيامة يمتد زمنيا لما يعادل عشرات الآلاف من الساعات؛ والبعض الآخر يرى بأنه يوم عادي من حيث امتداده الزمني ولكن تحدث فيه أفعال مكثفة تعادل ما نفعله في ألف سنة. ولا بأس أن نستعرض وجهات نظر مختلفة في هذا السياق.

أورد الإمام الزمخشري عند تفسيره للآية 47 من سورة الحج: «والله عز وعلا لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين، وهو سبحانه حليم لا يعجل، ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أن يوما واحدا عنده كألف سنة عندكم. وقيل: معناه كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه

في طول ألف سنة من سنيكم؛ لأن أيام الشدائد مستطالة. أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدة عذابه كألف سنة من سني العذاب». (ت. ز، ج3 ص159)

ويضيف في تفسيره للآية الخامسة من سورة السجدة: «.. يكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدة: ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها، ثم يدبر أيضا ليوم آخر، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو ردّه مع جبريل، وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة؛ لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائه سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد. وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله؛ أي يصير إليه ليحكم فيه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ وهو يوم القيامة». (ت. ز، ج3 ص493)

ويقدم الإمام الرازي عدة تفسيرات لليوم الوارد في الآية الخامسة من سورة السجدة: «.. وقوله تعالى ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ فيه وجوه: (أحدها) أن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو في يوم، فإن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة، ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة، فهو مقدار ألف سنة، (ثانيها) هو أن ذلك إشارة إلى امتداد نفذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ يعني ﴿يدبر الأمر﴾ في زمان يوم منه ألف سنة، فكم يكون شهر منه، وكم تكون سنة منه، وكم يكون دهر منه، وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين

ألف سنة لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر، فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفا لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون في الخمسين أكثر وتبين فائدتها في موضعها إن شاء الله». (ت. ر. ج25م13ص173)

ويكمل الرازي فكرته، عند تفسيره للآية الرابعة من سورة المعارج:

«الأكثرون على أن قوله ﴿في يوم﴾ من صلة قوله تعرج، أي يحصل العروج في مثل هذا اليوم، وقال مقاتل بل هذا من صلة قوله ﴿بعذاب واقع﴾ وعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير والتقدير: سأل سائل بعذاب واقع، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وعلى التقدير الأول، فذلك اليوم، إما أن يكون في الآخرة أو في الدنيا، وعلى تقدير أن يكون في الآخرة، فذلك الطول إما أن يكون واقعا، وإما أن يكون مقدرا فهذه هي الوجوه التي تجملها هذه الآية، ونحن نذكر تفصيلها (القول الأول هو أن معنى الآية أن ذلك العروج يقع في يوم من أيام الآخرة طوله خمسون ألف سنة، وهو يوم القيامة، وهذا قول الحسن: قال وليس يعني أن مقدار طوله هذا فقط، إذ لو كان كذلك لحصلت له غاية ولفنيت الجنة والنار، عند تلك الغاية وهو غير جائز، بل المراد أن موقفهم للحساب، حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا.. واعلم أن هذا الطول إنما يكون في حق الكافر، أما في حق المؤمن فلا.. (القول الثاني) هو أن هذه المدة واقعة في الآخرة، لكن على سبيل التقدير لا على سبيل التحقق، والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة أعقل الخلق وأذكاهم لبقي فيه خمسين ألف سنة ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاء والحكمة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا، وأيضا الملائكة يعرجون إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبقي في ذلك الصعود خمسين ألف سنة ثم إنهم يصعدون إليها في ساعة قليلة، وهذا قول وهب وجماعة من المفسرين، (القول الثالث) وهو قول أبي مسلم إن هذا اليوم

هو يوم الدنيا كلها من أول ما خلق الله إلى آخر الفناء، فبين تعالى أنه لابد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم، وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة، ثم لا يلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوما، لأنا لا ندري كم مضى وكم بقي، (القول الرابع) تقدير الآية: سأل بعذاب واقع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يحتمل أن يكون المراد منه استطالة ذلك اليوم لشدته على الكفار، ويحتمل أن يكون المراد تقدير مدته، وعلى هذا فليس المراد تقدير العذاب بهذا المقدار، بل المراد التنبيه على طول مدة العذاب، ويحتمل أيضا أن العذاب الذي سأله ذلك السائل يكون مقدرا بهذه المدة، ثم إنه تعالى ينقله إلى نوع آخر من العذاب بعد ذلك، فإن قيل روى ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن هذه الآية، وعن قوله ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ فقال أيام سماها الله تعالى هو أعلم بها كيف تكون، وأكره أن أقول فيها ما لا أعلم، فإن قيل: فما قولكم في التوفيق بين هاتين الآيتين؟ قلنا قال وهب في الجواب عن هذا ما بين أسفل العالم إلى أعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة، ومن أعلى السماء الدنيا إلى الأرض مسيرة ألف سنة، لأن عرض كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة أخرى، فقوله تعالى ﴿في يوم﴾ يريد من أيام الدنيا وهو مقدار ألف سنة لو صعدوا فيه إلى السماء الدنيا، ومقدار ألف سنة لو صعدوا إلى أعالي العرش». (ت. ر. ج3 م15 ص ص124-125)

ويتفق ابن عاشور، إلى حد كبير، مع آراء الرازي، مع إضافة توضيح معنى رقم «الألف» عند العرب:

«اليوم من قوله ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ هو اليوم الذي جاء ذكره في آية سورة الحج [47].. ومعنى تقديره بألف سنة: أنه تحصل فيه من تصرفات الله في كائنات السماء والأرض ما لو كان من عمل الناس لكان

حصول مثله في ألف سنة، فلك أن تقدر ذلك بكثرة التصرفات، أو بقطع المسافات، وقد فُرضت في ذلك عدة احتمالات. والمقصود: التنبيه على عظم القدرة وسعة ملكوت الله وتدبيره. ويظهر أن هذا اليوم هو يوم الساعة، أي ساعة اضمحلال العالم الدنيوي، وليس اليوم المذكور هنا هو يوم القيامة المذكور في سورة المعارج قاله ابن عباس. ولم يعيِّن واحدا منهما، وليس من غرض القرّاء تعيين أحد اليومين ولكن حصول العبرة بإهمالهما.. .

و﴿ألف﴾ عند العرب منتهى أسماء العدد وما زاد على ذلك من المعدودات يعبر عنه بأعداد أخرى مع عدد الألف كما يقولون خمسة آلاف، ومائة ألف، وألف ألف.

و﴿ألف﴾ يجوز أن يستعمل كناية عن الكثرة الشديدة كما يقال: زرتُك ألف مرة، وقوله تعالى: ﴿يود أحدهم لو يعمَّر ألف سنة﴾[البقرة: 96] وهو هنا بتقدير كاف التشبيه أو كلمة نَحْوَ، أي كان مقداره كألف سنة أو نحو ألف سنة.. ويجوز أن يكون ﴿ألف﴾ مستعملا في صريح معناه. وقوله ﴿مما تعدون﴾، أي: مما تحسبون في أعدادكم، و﴿ما﴾ مصدرية أو موصولية وهو وصف لـ﴿ألف سنة﴾. وهذا الوصف لا يقتضي كون اسم ﴿ألف﴾ مستعملا في صريح معناه لأنه يجوز أن يكون إيضاحا للتشبيه فهو قريب من ذكر وجه الشبه مع التشبيه، وقد يترجح أن هذا الوصف لما كان في معنى الموصوف صار بمنزلة التأكيد اللفظي لمدلوله فكان رافعا لاحتمال المجاز في العدد». (ت. ع، ج21 ص ص148-149)

جـ - نسبية الإحساس بمرور الوقت:

رأينا، عند حديثنا عن يوم القيامة، أن أصحاب الجنة لا يشعرون بطول

ذلك اليوم لأنهم في وضع نفسي وجسدي مريح يشعرهم بالسعادة فيمر الوقت مسرعا؛ بينما يعاني أصحاب النار من طول ذلك اليوم، بل يدركونه أطول مما هو في الواقع. وقد تضمن القرآن الكريم بعض الحالات التي أدرك فيها الإنسان الوقت بكيفية نسبية، حيث تقلص الإحساس بالوقت لدرجة لافتة للنظر، كما حدث لأصحاب الكهف الذين ظلوا فيه ثلاثمائة وتسعة سنين، ولما سئلوا قالوا ﴿لبثنا يوما أو بعض يوم﴾.

قال تعالى في الآية 19 من سورة الكهف: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾؛ وفي الآيتين 103 و104 من سورة طه: «يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما»؛ وقال تعالى في الآيتين 113 و114 من سورة «المؤمنون»: «قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين. قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون».

5 - اليوم المعلوم

تضمن القرآن الكريم بعض الآيات التي تشير إلى أيام محددة، شهدت أحداثاً معلومة، وأياما أخرى تقام فيها شعائر دينية أو تنجز فيها مهام بعينها.

وفي هذا المقام، قال تعالى في الآيات 80 و184 و196 و203 من سورة البقرة: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ والمقصود بالأيام المعدودة هنا: مدة عبادة اليهود للعجل أو سبعة أيام، ﴿أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي أيام شهر رمضان، ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري

المسجد الحرام﴾، ﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ أي أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر؛ وقال تعالى في الآية 41 من سورة الأنفال: ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾ أي يوم غزوة بدر الكبرى؛ وفي الآية الثالثة من سورة التوبة: ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر﴾.

وقال تعالى في الآية 65 من سورة هود: «فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب» أي أيام الخميس والجمعة والسبت؛ وفي الآية 80 من سورة النحل: «والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين» والمقصود بيوم الظعن: وقت السفر؛ وقال تعالى في الآيتين 15 و33 من سورة مريم: «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا»، «والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا»؛ وفي الآية 59 من سورة طه: «قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى» أي يوم العيد؛ والآية 28 من سورة الحج: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ أي أيام الحج؛ وقال تعالى في الآيات 38 و155 و189 من سورة الشعراء: «فجمع السحرة لميقات يوم معلوم»، «قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم»، «فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم»؛ وفي الآية 30 من سورة غافر: «وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب»؛ وقال تعالى في الآية 19 من سورة القمر: «إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر»؛ وفي الآية 14 من سورة البلد: «أو إطعام في يوم ذي مسغبة» أي يوم المجاعة.

المبحث الثالث

أيـــام الأســـبوع والشهـــور

رأينا في المبحث السابق، أن اليوم يعتبر وحدة قياس رئيسة عند العرب، وقد ورد ذكره أكثر من غيره من وحدات قياس الوقت في القرآن الكريم. إلا أن هناك وحدات أخرى ذات طابع تجميعي للأيام، ونقصد بها: الأسبوع والشهر. فالأسبوع: حصيلة سبعة أيام متتالية، والشهر حصيلة معدل ثلاثين يوما متتابعا أو حوالي أربعة أسابيع.

وتعريف الأسبوع في القاموس هو: «السُّبُوعُ والأُسْبُوعُ من الأيام: تمام سبعة أيام. قال الليث: الأيام التي يدور عليها الزمان في كل سبعة منها جمعة تسمى الأسبوع ويجمع أسابيع، ومن العرب من يقول سبوع في الأيام والطواف، بلا ألف، مأخوذة من عدد السَّبْع، والكلام الفصيح الأسبوع». (ابن منظور، ج8 ص146)

أما الشهر فهو: «القمر، سمي بذلك لشهرته وظهوره، وقيل: إذا ظهر وقارب الكمال. [قال] الليث: الشهر والأشهُر عدد والشهور جماعة. [وقال] ابن سيده: والشهر العدد المعروف من الأيام، سمي بذلك لأنه يُشَهّر بالقمر وفيه

علامة ابتدائه وانتهائه؛ وقال الزجاج: سمي الشهر شهرا لشهرته وبيانه؛ وقال أبو العباس: إنما سمي شهرا لشهرته وذلك أن الناس يَشْهَرُون دخوله وخروجه.. والعرب تقول: رأيت الشهر أي رأيت هلاله؛ وقال ذو الرمة: يرى الشهر قبل الناس وهو نحيل». (ابن منظور، ج4 ص432)

ويذكر ابن عاشور قصة تسمية العرب لأسماء الأسبوع التي نعرفها الآن، قائلا:

«أيام الأسبوع عند العرب في القديم هي: أوَّلُ، أهونُ، جُبَار، دُبار، مُؤنِس، عَروبة، شِيار. ثم أحدثوا أسماء لهذه الأيام هي: الأحد، الاثنين، الثُّلاثاء، الإِرْبعاء، الخميس، عَروبة أو الجمعة - في قول بعضهم - السَّبْت. وأصل السبت: القطع، سمي سبتا عند الإسرائيليين لأنهم يقطعون فيه العمل، وشاع ذلك الاسم عند العرب. وسمّوا الأيام الأربعة بعده بأسماء مشتقة من أسماء العدد على ترتيبها وليس في التوراة ذكر لأسماء الأيام. وفي سفر التكوين منها «ذُكرت أيام بدء الخلق بأعدادها أولٌ وثانٍ» الخ، وأن الله لم يخلق شيئا في اليوم الذي بعد اليوم السادس. وسمته التوراة سَبْتا، قال السهيلي: قيل أول من سمى يوم عروبة الجمعة كعب بن لؤي جدُّ أبي قُصي. وكان قريش يجتمعون فيه إلى كعب قال: وفي قول بعضهم: لم يسم يوم عروبة يوم الجمعة إلا مذ جاء الإسلام». (ت. ع، ج28 ص ص198–199)

لقد تضمن القرآن الكريم ذكر اسمي يومين من أيام الأسبوع، وهما: الجمعة، وهو يوم مبارك عند المسلمين؛ والسبت، وهو يوم مبارك ويوم راحة عند اليهود.

فورد ذكر يوم السبت في سور البقرة والنساء والأعراف والنحل. إذ قال تعالى في الآية 65 من سورة البقرة: «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين»؛ وفي الآيتين 47 و154 من سورة النساء:

«يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا»، «ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا»؛ وقال تعالى في الآية 163 من سورة الأعراف: «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون»؛ وفي الآية 124 من سورة النحل: «إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة في ما كانوا فيه يختلفون».

أما يوم الجمعة؛ فقد خصه الله سبحانه وتعالى بسورة حملت اسمه، وورد ذكره في الآية التاسعة، إذ قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون».

وقد ذكر الرسول ﷺ فضل يوم الجمعة، في الحديث الشريف الذي رواه ابن ماجه: « .. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ ملائكةٌ يَكْتُبُونَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ مَنَازِلِهِمُ الأول فالأول فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ وَاسْتَمَعُوا الْخُطْبَةَ فَالْمُهَجِّرُ إِلَى الصلاة كَالْمُهْدِي بَدَنَةً ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ كَمُهْدِي بَقَرَةٍ ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ كَمُهْدِي كَبْشٍ حَتَّى ذَكَرَ الدَّجَاجَةَ وَالْبَيْضَةَ زَادَ سَهْلٌ فِي حَدِيثِهِ فَمَنْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَجِيءُ بِحَقٍّ إِلَى الصلاة». (ش. صخر، 1997) وروى الترمذي: « .. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إلا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ». (ش. صخر، 1997)

وقد بيّن ابن عاشور فضل يوم الجمعة، بقوله: «جعل الله الجمعة للمسلمين عيد الأسبوع فشرع لهم اجتماع أهل البلد في المسجد وسماع الخطبة ليعلموا ما يهمهم في إقامة شؤون دينهم وإصلاحهم.

قال القفّال: ما جعل الله الناس أشرف العالم السفلي لم يُخْفِ عظم المنة وجلالة قدر موهبته لهم فأمرهم بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله به عليهم. ولكل أهل ملة معروفة يوم من الأسبوع معظم، فلليهود يوم السبت وللنصارى الأحد وللمسلمين يوم الجمعة. وقد قال النبي ﷺ: «نحن الآخِرون»، أي آخر الدنيا السابقون يوم القيامة (يوم القيامة يتعلق بـ «السابقون»). بيدَ أنهم (أي اليهود والنصارى) أوتوا الكتاب من قبلنا ثم كان هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه، فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد».. وقول النبي ﷺ: «والنصارى بعد غد»، إشارة إلى ما عمله النصارى بعد المسيح وبعد الحواريين من تعويض يوم السبت بيوم الأحد لأنهم زعموا أن يوم الأحد فيه قام عيسى من قبره. فعوضوا الأحد عن يوم السبت بأمر من قُسطنطين سلطان الروم في سنة 321 المسيحي. وصار دينا لهم بأمر أحبارهم». (ت. ع، ج28 ص199)

وقد ورد ذكر الشهر في ثماني آيات من سورة البقرة، إذ قال تعالى في الآية 185: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾، وفي الآية 189: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾، الآية 194: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾، وفي الآية 197: ﴿الحج أشهر معلومات﴾، والآية 217: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾، وفي الآية 226: «للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم»، والآية 228: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة

قروء﴾، والآية 234: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾.

كما ورد ذكر الشهر في الآية 92 من سورة النساء؛ وفي الآيتين 2 و97 من سورة المائدة؛ والآيات 2 و5 و36 من سورة التوبة؛ وفي الآية 12 من سورة سبأ؛ والآية 15 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية الرابعة من سورة المجادلة؛ والآية الثالثة من سورة القدر.

ويعتبر أبرز أشهر عند المسلمين - كما يتبين من اعتقادهم وسلوكاتهم - شهر رمضان والأشهر الحرم التي ذكرها الله في كتابه العزيز، وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب. وإذا أخذناها مجتمعة، نجدها مقترنة بركنين من أركان العبادات الإسلامية: الصوم والحج.

والشهر الوحيد الذي ذكر باسمه في القران الكريم، هو شهر رمضان المبارك. وقد أوضح الإمام الرازي المقصود من كلمة «رمضان»، قائلا:

«اختلفوا في رمضان على وجوه (أحدها) قال مجاهد: إنه اسم الله تعالى، ومعنى قول القائل: شهر رمضان أي شهر الله وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا جاء رمضان وذهب رمضان ولكن قولوا: جاء شهر رمضان وذهب شهر رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى». القول الثاني: أنه اسم للشهر كرجب وشعبان، ثم اختلفوا في اشتقاقه على وجوه (الأول) ما نقل عن الخليل أنه من الرمضاء بسكون الميم، وهو مطر يأتي قبل الخريف يطهر وجه الأرض عن الغبار والمعنى فيه أنه كما يغسل ذلك المطروحة الأرض ويطهرها فكذلك شهر رمضان يغسل أبدان هذه الأمة من الذنوب ويطهر قلوبهم (الثاني) أنه مأخوذ من الرمض وهو حر الحجارة من شدة حر الشمس، والاسم الرمضاء، فسمي هذا الشهر بهذا الاسم إما لارتماضهم في هذا الشهر من حر الجوع أو مقاساة شدته، كما سموه تابعا لأنه كان يتعبهم أي

يزعجهم لشدته عليهم، وقيل: لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام ومض الحر، وقيل: سمي بهذا الاسم لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما سمي رمضان لأنه يرمض ذنوب عباد الله» (الثالث) أن هذا الاسم مأخوذ من قولهم: رمضت النصل أرمضه رمضا إذا دفعته بين حجرين ليرق، ونصل رميض ومرموض، فسمي هذا الشهر: رمضان، لأنهم كانوا يرمضون فيه أسلحتهم ليقضوا منها أوطارهم، وهذا القول يحكى عن الأزهري (الرابع) لو صح قولهم: إن رمضان اسم الله تعالى، وهذا الشهر أيضا سمي بهذا الاسم، فالمعنى أن الذنوب تتلاشى في جنب رحمة الله حتى كأنها احترقت، وهذا الشهر أيضا رمضان بمعنى أن الذنوب تحترق في جنب بركته». (ت. ر. ج5 م3 ص ص90-91)

المبحث الرابع

الماضي والمستقبل

إن الحديث عن الماضي أو المستقبل دون تحديد تواريخ معينة، موجود في اللغات البشرية، ومن بينها اللغة العربية، التي تستخدم العديد من الأدوات اللغوية للإحالة إلى أحداث مضت وأخرى آتية، تجرّ معها ذاكرة المتلقي وخياله إلى ماض سحيق أو قريب وإلى مستقبل لا يعرف مداه على وجه التحديد. وهذا ما نجده في الرسائل الاتصالية القرآنية التي تتضمن قصصا عن أقوام وحضارات وحقب غابرة، لا يمكن تحديد مداها الزمني إلا بالمقايسة أو باستخدام الوسائل العلمية الحديثة؛ أما ما يُحكى في القرآن الكريم عن المستقبل، فلا سبيل لمعرفة الأوقات المحددة لحدوثه. وهذا الغموض - إن صح التعبير - في التعامل مع الوقت، له دلالة تواصلية عميقة تكمن في الطبيعة الإعجازية-الإقناعية للنصوص القرآنية. فقد أشار القرآن الكريم إلى العديد من الأحداث التي جرت في التاريخ، والتي لم يبق لها أثر مادي أو فكري موثق؛ وبما أن تلك الأحداث كانت فريدة من نوعها، والمصدر الوحيد للإخبار بها كان هو القرآن، لذا فهي تترك أثرا كبيرا في المتلقي المُعْتَبِر؛ وكذا الأمر فيما يتعلق

بالمستقبل، خاصة ما سيحدث في الحياة الآخرة.

وقد ورد في لغة القرآن العديد من الكلمات التي تحيل إلى الماضي، سواء البعيد أو القريب؛ وأخرى تحيل إلى المستقبل، سواء كان متوقعا في الحياة الدنيا أو في الآخرة.

أولا: الماضي

1 - القَبْلُ

تشير كلمة «قَبْلُ» الواردة في الآيات التالية، إلى الزمان الماضي ، بدءا من لحظة القول، دون تحديد للفترة الزمنية المشار إليها، اللهم إلا إذا كانت تشير إلى حدث معلوم في الزمان والمكان. وتقود هذه الصيغة في التعبير عن الماضي إلى جعل المتلقي يتعامل مع التاريخ ضمن حيّز متسع ومفتوح ومرن يتحكم فيه حسب استعداده الإدراكي، واستعداده للتأثر.

لقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تتضمن إشارات للماضي باستخدام كلمة «قبل»، نذكر منها ما ورد في ست آيات من سورة البقرة، بدءا من الآية الرابعة، إذ قال تعالى: «والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون»، وفي الآية 21: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون»، والآية 89: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»، والآية 91: «وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين»، وفي الآية 118: «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم

مـثل قـولهم تشـابهت قلوبهم قـد بينا الآيات لقـوم يوقنـون»، والآية 214: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضـراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصـر الله ألا إن نصر الله قريب»

وورد ذكر القبل في الآيتين 137 و144 من سورة آل عمران؛ وفي الآيتين 57 و75 من سـورة المائدة؛ والآية السـادسة من سـورة الأنعام؛ وفي الآيات 38 و155 و173 من سـورة الأعـراف؛ وفي الآيات 30 و70 و107 من سـورة التـوبة؛ والآيات 13 و16 و39 و91 من سـورة يـونس؛ وفـي الآيات 17 و49 و109 و116 من سـورة هـود؛ وفي الآيات 6 و30 و38 من سـورة الرعـد؛ وفـي الآيتين 10 و27 من سـورة الحجـر؛ والآيات 33 و35 و43 من سـورة النحل؛ وفـي الآيتين 58 و77 من سـورة الإسراء؛ وفي الآية 55 من سورة الكهف؛ وفي الآيات 9 و23 و67 و74 من سورة مـريم؛ والآيات 90 و114 و115 و134 من سـورة طه؛ وفـي الآيات 4 و6 و25 و41 و51 و76 من سـورة الأنبيـاء؛ وفي الآيتين 42 و52 من سورة الحج؛ والآية 83 من سورة المؤمنون؛ وفي الآية 34 من سورة النور؛ وفي الآية 20 من سورة الفرقان؛ والآية 49 من سـورة الشـعـراء؛ والآية 68 من سـورة النمل؛ وفي الآيات 46 و48 و52 و53 و78 من سورة القصص؛ والآية 18 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيات 4 و42 و47 و49 من سـورة الروم؛ وفي الآيتين 3 و26 من سورة السجدة؛ والآية 62 من سورة الأحزاب؛ والآيات 44 و45 و53 من سورة سبأ؛ وفي الآيتين 4 و25 من سـورة فـاطـر؛ والآية 31 من سـورة يس؛ والآية 71 من سـورة الصـافـات؛ وفي الآيتين 3 و12 من سـورة ص؛ وفـي الآيتين 25 و54 من سـورة الـزمـر؛ والآيات 5 و21 و34 و74 و78 و82 من سـورة غـافـر؛ وفـي الآيات 25 و43 و48 من سـورة فصلت؛ والآيات 21 و23 و45 من سورة الزخرف؛ وفي الآيتين 17 و37 من سورة الدخـان؛ وفـي الآيتين 4 و18 من سـورة الأحـقـاف؛ والآية العـاشـرة من سـورة

محمد؛ والآية 23 من سورة الفتح؛ وفي الآيتين 12 و36 من سورة ق؛ وفي الآيات 16 و46 و52 من سورة الذاريات؛ وفي الآيتين 26 و28 من سورة الطور؛ والآية التاسعة من سورة القمر؛ وفي الآيتين 56 و74 من سورة الرحمن؛ وفي الآية 45 من سورة الواقعة؛ والآية 16 من سورة الحديد؛ وفي الآية الخامسة من سورة المجادلة؛ وفي الآيتين 9 و15 من سورة الحشر؛ والآية الثانية من سورة الجمعة؛ والآية الخامسة من سورة التغابن؛ وفي الآية 18 من سورة الملك؛ والآية التاسعة من سورة الحاقة.

2 - الخلوّ

يقول ابن منظور في «لسان العرب» تحت مادة «خلا»: «خلا الشيء خلوًّا: مضى. وقوله تعالى: وإن من أمة إلا خلا فيها نزير؛ أي مضى وأرسل. والقرون الخالية: هم المواضي. ويقال: خلا قرن فقرن أي مضى. وفي حديث جابر: تزوجت امرأة قد خلا منها أي كبرت ومضى معظم عمرها؛ ومنه الحديث: فلما خلا سنّي ونثرت له ذا بطني؛ تريد أنها كبرت وأولدت له». (ابن منظور، ج14 ص242)

وقد ورد ذكر الخلو في الآيتين 134 و141 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون»، وفي الآية 214: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾؛ كما ورد ذكر الخلو في الآيتين 137 و144 من سورة آل عمران؛ والآية 75 من سورة المائدة؛ والآية 38 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 102 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 6 و30 من سورة الرعد؛ والآية 13 من سورة الحجر؛ وفي الآية 34 من سورة النور؛ وفي الآيتين 38 و62 من سورة الأحزاب؛ والآية 24 من سورة فاطر؛ والآية 85 من

سورة غافر؛ وفي الآية 25 من سورة فصلت؛ والآيات 17 و18 و21 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 23 من سورة الفتح؛ والآية 24 من سورة الحاقة.

3 - السلف

السلف من الكلمات التي تدل على الماضي، وخاصة ما مضى من البشر الذين لهم علاقة قُربى بالإنسان الحاضر، وكذا الأعمال الماضية. وفي اللغة العربية: «سَلَف يَسْلُفُ سَلَفا وسُلُوفا: تقدم.. والسَّالِف: المتقدم. والسلف والسليف والسُّلْفَة: الجماعة المتقدمون. وقوله عز وجل: فجعلناهم سَلَفا ومثلا للآخرين، ويُقرأ: سُلُفا وسُلَفا؛ قال الزجاج: سُلُفا جمع سليف أي جمعا قد مضى، ومن قرأ سُلَفا فهو جمع سُلْفة أي عُصبة قد مضت. والتسليف: التقديم؛ وقال الفراء: يقول جعلناهم سلفا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون، وقرأ يحيى بن وثّاب: سُلُفا مضمومة مثقلة، قال: وزعم القاسم أنه سمع واحدها سَلِيفا، قال: وقرئ سُلَفا كأن واحدته سُلْفة أي قطعة من الناس مثل أمة. [قال] الليث: الأمم السالفة الماضية أمام الغابرة وتجمع سوالف؛ وأنشد في ذلك:

ولاقتْ مناياها القرون السوالف ... كذلك تلقاها القرون الخوالف

[وقال] الجوهري: سَلَفَ يَسْلُفُ سَلَفا مقال طلب يطلب طلبا أي مضى. والقوم السُّلاف: المتقدمون. وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون، والجمع أسلاف وسُلاف». (ابن منظور، ج9 ص158)

قال تعالى في الآية 275 من سورة البقرة: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾؛ وكذا في الآيتين 22 و23 من سورة النساء؛ والآية 95 من سورة المائدة؛ وفي 38 من سورة الأنفال؛ والآية 30 من سورة يونس؛ وفي الآية 56 من سورة الزخرف؛ والآية 24 من سورة الحاقة.

4 - السَّبْــق

يرتبط السبق ارتباطا وثيقا بالزمان، عندما نتحدث عن تراتب الأحداث بناء على حدوثها عبر الزمان. ففعل سبق ومشتقاته (كاستبق) تفيد التعاقب الزمني، إذ يحضر هذا المعنى في التعريف المعجمي للسبق. فقد ورد في «لسان العرفان» تحت مادة «سبق»: «السَّبْق: القُدْمة في الجري وفي كل شيء؛ تقول: له في كل أمر سُبْقةٌ وسابقةٌ وسَبْقٌ، والجمع الأسباق والسَّوابق. والسَّبْق: مصدر سَبَقَ. وقد سَبَقَه يَسْبِقُه سَبْقا: تقدمه. وفي الحديث: أنا سابق العرب، يعني إلى الإسلام، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وسلمان سابق الفرس». (ابن منظور، ج10 ص151)

وقد ورد ذكر السبق الزمني بمعنى الحدوث أولا أو قبل الغير، في الآية 80 من سورة الأعراف، إذ قال تعالى: «ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين»؛ وقال تعالى في الآيتين 59 و68 من سورة الأنفال: «ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون»، «لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم»؛ وورد السبق الزمني في الآية 100 من سورة التوبة؛ والآية 19 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 40 و110 من سورة هود؛ وفي الآيتين 99 و129 من سورة طه؛ وفي الآيتين 27 و101 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 27 و61 من سورة المؤمنون؛ وفي الآيتين 28 و39 من سورة العنكبوت؛ وفي الآية 32 من سورة فاطر؛ والآية 171 من سورة الصافات؛ وفي الآية 45 من سورة فصلت؛ وفي الآية 14 من سورة الشورى؛ والآية 11 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية العاشرة من سورة الواقعة؛ وفي الآية العاشرة من سورة الحشر.

5 - الأولــون

وردت كلمة «أول» في القرآن الكريم بمعنى: «سابق» في الزمان. وغالبا ما

ينسب هذا السبق إلى الأقوام المُخْبَر عنهم أو الأجداد أو النصوص الدينية التي نزلت على الرسل السابقين.

قال تعالى في الآية 25 من سورة الأنعام: ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾؛ وفي الآية 31 من سورة الأنفال: «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين»؛ والآية 24 من سورة النحل: «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين»؛ وقال تعالى في الآية 59 من سورة الإسراء: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾؛ وورد ذكر الأولين في الآيتين 51 و133 من سورة طه؛ والآية الخامسة من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 24 و68 و81 من سورة المؤمنون»؛ والآيات 26 و51 و184 و196 من سورة الشعراء؛ والآية 36 من سورة القصص؛ وفي الآية 33 من سورة الأحزاب؛ وفي الآية 79 من سورة يس؛ والآيات 17 و126 و168 من سورة الصافات؛ وفي الآية 21 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين السادسة والثامنة من سورة الزخرف؛ والآية الثامنة من سورة الدخان؛ والآية 15 من سورة ق؛ وفي الآيتين 50 و56 من سورة النجم؛ وفي الآيات 13 و39 و48 و62 من سورة الواقعة؛ والآية الثالثة من سورة الحديد؛ وفي الآية 15 من سورة القلم؛ وفي الآيتين 16 و17 من سورة المرسلات؛ وفي الآية 13 من سورة المطففين؛ والآية 17 من سورة الأعلى.

6 - الأمس

الأمس من ظروف الزمان التي غالبا ما تُبنى على الكسر عندما ترد غير معرفة، وقد ورد في القرآن الكريم بمعنى اليوم السابق، وبمعنى الماضي على سبيل الإطلاق. وقد عرّفه ابن عاشور في سياق شرحه للآية 24 من سورة يونس، بقوله:

«الأمس: اليوم الذي قبل يومك. واللام فيه مزيدة لتملية اللفظ مثل التي في كلمة الآن. والمراد بالأمس في الآية مطلق الزمن الذي مضى لأن أمس يستعمل بمعنى ما مضى من الزمان، كما يستعمل الغد في معنى المستقبل واليوم في معنى الحال. وجمعها قول زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عَمِ» (ت.ع، ج11 ص62)

وقد ورد ذكر الأمس في سورتي يونس والقصص. إذ قال تعالى في الآية 24 من سورة يونس: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس﴾؛ وقال تعالى في الآيات 18 و19 و82 من سورة القصص: «فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لَغَوِيٌّ مبين. فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين»، «وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون».

7 - ما يفيد الماضي

ونورد فيما يلي بعض الصيغ التعبيرية التي تدل على الماضي.

ففي الآية 44 من سورة آل عمران، تمت الإشارة للماضي باستخدام عبارة: «ما كنت». قال تعالى: «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون»؛ وفي الآية 94 من سورة

الأنعام نجد جملة ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾؛ وقال تعالى في الآية 176 من سورة الأعراف: ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾؛ وفي الآية 95 من سورة يوسف تمت الإشارة إلى الماضي باستخدام كلمة ﴿القديم﴾: «قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم»؛ وقريب من ذلك قوله تعالى في الآية 24 من سورة الحجر: «ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين»؛ وقال تعالى في الآية 44 من سورة المؤمنون: «ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون»؛ وفي الآية 76 من سورة الشعراء: «أنتم وآباؤكم الأقدمون»؛ والآية 43 من سورة سبأ: «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين»؛ وفي الآية 16 من سورة محمد، وردت كلمة ﴿آنفا﴾ بمعنى سابقا: «ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم»؛ وقال تعالى في الآية الثانية من سورة الفتح: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما»

ثانيا: المستقبل

1 - البَعْدُ

تفيد كلمة «بَعْدُ» الزمان المستقبل عندما ترد ظرفا للزمان. وقد يرد هذا الاستقبال في سياق الحديث عما حدث في الماضي، بمعنى التوالي أي الحدوث أو الورود عقب شيء أو حدث ما. وفي القاموس اللغوي: «بَعْدُ: ضد قبل. يبنى مفردا ويعرب مضافا؛ قال الليث: بعد كلمة دالة على الشيء الأخير، تقول: هذا بعد هذا، منصوب. وحكى سيبويه أنهم يقولون من بَعْدٍ

فينكرونه، وافعل هذا بَعْداً. وقال الجوهري: بعد نقيض قبل، وهما اسمان يكونان ظرفين إذا أضيفا، وأصلهما الإضافة، فمتى حذفت المضاف إليه لعلم المخاطب بنيتهما على الضم ليعلم أنه مبني إذا كان الضم لا يدخلهما إعرابا، لأنهما لا يصلح وقوعهما موقع الفاعل ولا موقع المبتدأ ولا الخبر؛ وقوله تعالى: لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ أي من قبل الأشياء وبعدها.. [وقال] أبو عبيد: يقال لقيته بُعَيْداتِ بَيْنٍ إذا لقيته بعد حين؛ وقيل: بُعَيْداتِ بَيْنٍ أي بُعَيْد فراق، وذلك إذا كان الرجل يمسك عن إتيان صاحبه الزمان، ثم يأتيه ثم يمسك عنه نحو ذلك أيضا، ثم يأتيه؛ قال: وهو من ظروف الزمان التي لا تتمكن ولا تستعمل إلا ظرفا». (ابن منظور، ج3 ص ص92-93)

وقد وردت كلمة «بعد» للدلالة على التعاقب الزمني المستقبلي، في الآيات 52 و87 و92 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون»، ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل﴾، «ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون»؛ وورد ذكر البعد في الآية 65 من سورة آل عمران؛ وفي الآيتين 115 و153 من سورة النساء؛ وفي الآيتين 148 و150 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 75 من سورة يونس؛ وفي الآية 17 من سورة الإسراء؛ والآية 59 من سورة مريم؛ والآية 11 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 43 و58 من سورة القصص؛ وفي الآية الثالثة من سورة الروم؛ والآية 31 من سورة غافر؛ وفي الآية 14 من سورة الشورى؛ والآية العاشرة من سورة الحشر؛ والآية السادسة من سورة الصف.

2 - سوف

ترتبط كلمة «سوف» ارتباطا وثيقا بالزمن المستقبل. وقد قال عنها ابن منظور في «لسان العرب»: «سوف: كلمة معناها التنفيس والتأخير؛ قال

سيبويه: سوف كلمة تنفيس فيما لم يكن بعد، ألا ترى أنك تقول سَوَّفْتُه إذا قلت له مرة بعد مَرة سوف أفعل؟.. والتسويف: التأخير من قولك سوف أفعل. وفي الحديث: أن النبي ﷺ لعن المسوفة من النساء وهي التي لا تجيب زوجها إذا دعاها إلى فراشه وتُدافِعُه فيما يريد منها وتقول سوف أفعل». (ابن منظور، ج9 ص164) ويضيف ابن عاشور في سياق تفسيره للآية 30 من سورة النساء:

«سوف حرف يدخل على المضارع فيمحّضه للزمن المستقبل، وهو مرادف للسين على الأصح، وقال بعض النحاة: (سوف) تدل على مستقبل بعيد وسمّاه: التسويف، وليس في الاستعمال ما يشهد لهذا». (ت. ع، ج4 ص102)

لقد وردت كلمة «سوف» في ست آيات من سورة النساء، إذ قال تعالى في الآية 30: ﴿ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا﴾، وفي الآية 56: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا﴾، والآية 74: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾، والآية 114: «لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما»، وفي الآية 146: ﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما﴾، والآية 152: «والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما»؛ ووردت سوف في الآيتين 14 و54 من سورة المائدة؛ والآيات 5 و67 و135 من سورة الأنعام؛ وفي الآيتين 123 و143 من سورة الأعراف؛ والآية 28 من سورة التوبة؛ وفي الآيتين 39 و93 من سورة هود؛ والآية 98 من سورة يوسف؛ وفي الآيتين 3 و96 من سورة الحجر؛ وفي الآية 55 من سورة النحل؛ والآية 87 من سورة الكهف؛ وفي الآيتين 59 و66 من سورة مريم؛ وفي الآيتين 42 و77 من سورة الفرقان؛ والآية 49 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 66 من

سورة العنكبوت؛ والآية 34 من سورة الروم؛ وفي الآيات 170 و175 و179 من سورة الصافات؛ والآية 39 من سورة الزمر؛ والآية 70 من سورة غافر؛ وفي الآيتين 44 و89 من سورة الزخرف؛ والآية 40 من سورة النجم؛ وفي الآيتين 8 و11 من سورة الانشقاق؛ وفي الآية 21 من سورة الليل؛ وفي الآية الخامسة من سورة الضحى؛ وفي الآيتين الثالثة والرابعة.

3 - السين

يستخدم حرف السين الذي غالبا ما يلحق بأول الكلمة، كحرف للتنفيس والدلالة على الزمن المستقبل، «أي إنها تدخل على المضارع فتمحّضه للاستقبال، سواء كان استقبالا قريبا أو بعيدا، وهي مرادفة سوف، وقيل: إن سوف أوسع زمانا. وتفيدان في مقام الوعد تحقيقَ الوعد وكذلك التوعّد». (ت. ع، ج4 ص43)

وقد ورد حرف السين مع أربعة أحرف تفيد المضارعة، وهي الهمزة والتاء والنون والياء.

قال تعالى في الآيات 58 و137 و142 و235 من سورة البقرة: ﴿سنزيد المحسنين﴾، ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾، ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾، ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾؛ وفي الآيات 12 و144 و145 و151 و180 و181 و من سورة آل عمران: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم﴾، ﴿سيجزي الله الشاكرين﴾، ﴿سنجزي الشاكرين﴾، ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾، ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾، ﴿سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾؛ وورد حرف السين في سبع آيات من سورة النساء، إذ قال تعالى في الآية

العاشرة: ﴿سيصلون سعيرا﴾، وفي الآية 57: ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، والآية 91: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾، وفي الآية 122: ﴿سندخلهم جنات﴾، والآية 162: ﴿سنؤتيهم أجرا عظيما﴾، وفي الآية 172: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾، والآية 175: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾؛ وتضمنت سورة الأنعام سبع آيات، بدءا من الآية 93: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾، والآية 120: ﴿سيجزون بما كانوا يقترفون﴾، والآية 124: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾، وفي الآية 138: ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾، والآية 139: ﴿سيجزيهم وصفهم﴾، وفي الآية 148: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾، والآية 157: ﴿سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾؛ وورد في سورة الأعراف تسع آيات، إذ قال تعالى في الآية 127: ﴿قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾، وفي الآية 145: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾، والآية 146: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾، وفي الآية 152: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا﴾، 156: ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾، 161: ﴿سنزيد المحسنين﴾، 169: ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾، 180: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾، و182: «والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون».

كما ورد حرف السين الدال على الزمن المستقبل في الآيتين 12 و36 من سورة الأنفال؛ وفي الآيات 42 و59 و71 و90 و94 و95 و99 و101 و105 من سورة التوبة؛ وفي الآيتين 31 و81 من سورة يونس؛ وفي الآية 48 من سورة هود؛

والآية 61 من سورة يوسف؛ والآية 42 من سورة الرعد؛ وفي الآية 51 من سورة الإسراء؛ والآيات 22 و69 و75 و78 و83 و88 و96 من سورة الكهف؛ وفي الآيات 47 و79 و82 من سورة مريم؛ وفي الآية 21 من سورة طه؛ والآية 37 من سورة الأنبياء؛ والآية 89 من سورة المؤمنون؛ وفي الآية السادسة من سورة الشعراء؛ والآية 62 من سورة الفرقان؛ والآية 227 من سورة الشعراء؛ وفي الآيتين 27 و93 من سورة النمل؛ وفي الآيتين 27 و35 من سورة القصص؛ وفي الآيتين الثانية والثالثة من سورة الروم؛ وفي الآيتين 99 و102 من سورة الصافات؛ والآية 51 من سورة الزمر؛ وفي الآيتين 44 و60 من سورة غافر؛ والآية 53 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 19 و27 من سورة الزخرف؛ والآية 11 من سورة الأحقاف؛ وفي الآيات 5 و26 و32 من سورة محمد؛ وفي الآيات 10 و11 و15 و16 من سورة الفتح؛ وفي الآيتين 26 و45 من سورة القمر؛ والآية 31 من سورة الرحمن؛ وفي الآية السابعة من سورة الطلاق؛ وفي الآيتين 17 و29 من سورة الملك؛ والآيات 5 و16 و44 من سورة القلم؛ وفي الآية 24 من سورة الجن؛ وفي الآيتين 5 و20 من سورة المزمل؛ وفي الآيتين 17 و26 من سورة المدثر؛ وفي الآيتين الرابعة والخامسة من سورة النبأ؛ وفي الآيتين السادسة والعاشرة من سورة الأعلى؛ وفي الآيات 7 و10 و17 من سورة الليل؛ وفي الآية 18 من سورة العلق؛ والآية الثالثة من سورة المسد.

4 - الغـد

جاء في لسان العرب تحت مادة «غدا»: «غَدٌ: أصله غدو، حذفوا الواو بلا عوض، ويدخل فيه الألف واللام للتعريف.. وفي حديث عبد المطلب والفيل:

لا يَغْلِبَنّ صليبُهُم، ومِحالُهم، غَدْوا، محالك.

الغَدْوُ: أصل الغد، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه ولم يُستعمل تاما إلا في الشعر، ولم يُرد عبد المطلب الغدَ بعينه، وإنما أراد القريب من الزمان. والغد: ثاني يومك، محذوف اللام، وربما كُنِيَ به عن الزمن الأخير. وفي التنزيل العزيز: سيعلمون غدا من الكذاب الأشِر؛ يعني يوم القيامة، وقيل: عَنَى يوم الفتح». (ابن منظور، ج15 ص117)

وقد ورد ذكر الغد، في الآية 12 من سورة يوسف، إذ قال تعالى على لسان إخوة سيدنا يوسف عليه السلام: «أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون»؛ وفي الآية 23 من سورة الكهف: «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا»؛ وقال تعالى في الآية 34 من سورة لقمان: ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير»؛ وفي الآية 26 من سورة القمر: «سيعلمون غدا من الكذاب الأشر»؛ والآية 18 من سورة الحشر: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾.

5 - ما يفيد المستقبل

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، وردت بعض الآيات التي تفيد المستقبل من خلال سياقها العام، نذكر منها على سبيل المثال، ما ورد في الآية 28 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون»؛ وفي الآية 134 من سورة الأنعام: «إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين»؛ وقال تعالى في الآيتين 24 و99 من سورة الحجر: ﴿ولقد علمنا المستأخرين﴾، «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»؛ وفي الآية 21 من سورة النحل: «أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون»؛ وقال تعالى في الآيتين 39 و52 من سورة طه: ﴿أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له﴾، «قال علمها عند ربي في

كتاب لا يضل ربي ولا ينسى»؛ وفي الآية 48 من سورة الحج: «وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير»؛ وقال تعالى في الآيات 59 و108 و119 و129 من سورة الصافات: «إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين»، «وتركنا عليه في الآخرين»، «وتركنا عليهما في الآخرين»، «وتركنا عليه في الآخرين»؛ وفي الآية 35 من سورة الدخان: «إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين»؛ والآية الثانية من سورة الفتح: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾؛ وقال تعالى في الآيتين 14 و40 من سورة الواقعة: «وقليل من الآخرين»، «وثلة من الآخرين»؛ وفي الآيات السادسة والسابعة والثامنة من سورة التكاثر: «لترون الجحيم. ثم لترونها عين اليقين. ثم لتسألن يومئذ عن النعيم».

المبحث الخامس

الإسراع والإبطاء

تعتبر السرعة من الظواهر الفيزيائية المرتبطة بالحركة في المكان والزمان. إذ تقاس السرعة بحساب المسافة التي يتحرك فيها الجسم مقسومة على الزمن المستغرق. والإسراع والتسارع ظاهرتان تنتجان عن ازدياد السرعة بمرور الوقت، وعكسهما الإبطاء والتباطؤ، أي نقص السرعة بمرور الوقت. وينتج عن ظاهرتي الإسراع والإبطاء، إدراك نسبي للوقت. فقد يشعر الإنسان بأن الوقت يمر مسرعا أو بطيئا وفقا للحالة النفسية التي يوجد عليها؛ وعندما يتعجل الإنسان، فهو يسعى لكي يمر الوقت أسرع مما هو عليه حتى يصل إلى اللحظة المنتظرة؛ أو يُواجَه بضيق الوقت فيزيد من معدل حركته لتتلاءم مع الوقت المحدد. أما ظاهرة الإبطاء فتتجلى في وجود متسع من الوقت يفوق حجم الأعمال التي يجب إنجازها، مما يؤدي إلى تخفيض السرعة؛ أو الالتجاء للاستعداد النفسي لتحمل الفراغ الحركي والعملي عندما يزيد الوقت عما هو مطلوب.

1 - الاستعجــال

ورد في «لسان العرب» تحت مادة «عجل»: «العَجَلُ والعَجَلة: السرعة خلاف البطء.. والاستعجال والإعْجال والتعجُّل واحد: بمعنى الاستحثاث وطلب العجلة. وأعْجَله وعَجّله تعجيلا إذا استحثّه.. واسْتَعْجَل الرجلَ: حثّه وأمره أن يعْجَل في الأمر. ومرّ يسْتَعْجِل أي مرّ طالبا ذلك من نفسه مُتَكلِّفا إياه.. وقوله تعالى: وما أعجلك على قومك؛ أي كيف سبقتهم. يقال: أعجلني فعَجَلْتُ له. واستعجلته أي تقدمته فحملته على العجلة. واستعجلته: طلبت عجلته.. وعاجله بذنبه إذا أخذه به ولم يمهله. والعجلان: شعبان لسرعة نفاذ أيامه؛ قال ابن سيده: وهذا القول ليس بقوي لأن شعبان إن كان في زمن طول الأيام فأيامه طِوال وإن كان في زمن قِصَر الأيام فأيامه قصار، وهذا الذي انتقده ابن سيده ليس بشيء لأن شعبان قد ثبت في الأذهان أنه شهر قصير سريع الانقضاء في أي زمان كان لأن الصوم يَفْجَأُ في آخره فلذلك سُمّي العجلان، والله أعلم. وقوس عجلى: سريعة السهم؛ حكاه أبو حنيفة. والعاجل والعاجلة: نقيض الآجل والآجلة عامٌ في كل شيء. قوله عز وجل: من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء؛ العاجلة: الدنيا، والآجلة الآخرة، وعَجِلَه: سبقه. وأعجله: استعجله. وفي التنزيل العزيز: أعجلتم أمر ربكم؛ أي أسبقتم.. وأما قوله عز وجل: ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم.. والمعنى: لو يعجل الله للناس الشر تعجيلا مثل استعجالهم، وقيل: معناه لو عجل الله للناس الشر إذا دعوًا به على أنفسهم عند الغضب وعلى أهليهم وأولادهم واستعجلوا به كما يستعجلون بالخير فيسألونه الخير والرحمة لقضى إليهم أجلهم أي ماتوا». (ابن منظور، ج11 ص ص425-426)

وقد ورد ذكر العجل والاستعجال المرتبط بالوقت في أوضاع عديدة، كما جاء في الآية 203 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿واذكروا الله في أيام

معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾؛ وفي الآيتين 57 و58 من سورة الأنعام: «قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين. قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين»؛ والآية 150 من سورة الأعراف: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم﴾؛ وورد ذكر الاستعجال في الآيات 11 و50 و51 من سورة يونس؛ وفي الآية السادسة من سورة الرعد؛ والآية الأولى من سورة النحل؛ وفي الآيتين 11 و18 من سورة الإسراء؛ والآية 58 من سورة الكهف؛ والآية 84 من سورة مريم؛ وفي الآيات 83 و84 و114 من سورة طه؛ وفي الآية 37 من سورة الأنبياء؛ والآية 47 من سورة الحج؛ وفي الآية 204 من سورة الشعراء؛ وفي الآيتين 46 و72 من سورة النمل؛ والآيات 4 و53 و54 من سورة العنكبوت؛ وفي الآية 176 من سورة الصافات؛ والآية 16 من سورة ص؛ وفي الآية 18 من سورة الشورى؛ وفي الآيتين 24 و35 من سورة الأحقاف؛ والآية 20 من سورة الفتح؛ وفي الآيتين 14 و59 من سورة الذاريات؛ وفي الآيتين 16 و20 من سورة القيامة؛ والآية 27 من سورة الإنسان.

2 - السرعة

لقد ورد ذكر السرعة والمسارعة، بمعنى إنجاز أكبر قدر من الأعمال أو القيام بأكبر قدر من السلوكات في أقل زمن ممكن، في العديد من الآيات القرآنية.

قال تعالى في الآية 202 من سورة البقرة: «أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب»؛ وفي الآيات 19 و114 و133 و176 و199 من سورة آل عمران: ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾، «يؤمنون بالله

واليـوم الآخـر ويأمـرون بـالمعـروف وينهـون عن المنكر ويسـارعـون في الخـيـرات وأولئك من الصـالحين»، «وسـارعـوا إلـى مـغـفـرة من ربكم وجنـة عـرضـهـا السماوات والأرض أعدت للمتقين»، ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لـن يضـروا الله شيـئـا﴾، «وإن من أهل الكتـاب لمن يؤمن بالله ومـا أنزل إليكم ومـا أنزل إليهم خـاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليـلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب».

كـمـا ورد ذكـر السـرعـة والمسـارعـة في الآيات 4 و41 و52 و62 من سـورة المائدة؛ وفـي الآيتين 62 و165 من ســورة الأنعــام؛ وفي الآية 167 من ســورة الأعراف؛ والآية 21 من سورة يونس؛ والآية 41 من سورة الرعد؛ وفي الآية 51 من سـورة إبراهيم؛ والآية 90 من سـورة الأنبيـاء؛ وفي الآية 39 من سورة النور؛ وفي الآية 17 من سـورة غـافـر؛ والآية 44 من سـورة ق؛ وفي الآية 43 من سـورة المعارج؛ وفي الآيتين 56 و61 من سورة المؤمنون.

3 - الاستبـــاق

الاسـتبـاق يعني المسـارعـة إلى إنجـاز الأشـيـاء، أو التبـاري مع طرف آخـر لإنجاز عمل مـا في زمن أقل من زمنه أو الوصول (في حالة الجري والمسابقة) إلى مكان محدد قبل أن يصل إليه الطرف الآخر المنافس.

قال تعالى في الآية 148 من سورة البقرة: «ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيـرات أين مـا تكونوا يـأت بكم الله جـمـيـعـا إن الله علـى كل شيء قـدير». والصـلاة من بين الخيـرات التي دعـا الله سبحـانه إلى المسـارعـة في تأديتهـا، وقد أورد الإمام الرازي 22 حجة تبين أهمية المسارعة، نذكر منها سبعاً:

يقول الرازي: «أمـا قوله ﴿فاستبـقوا الخيـرات﴾ فمعنـاه الأمر بالبدار إلى

الطاعة في وقتها، وأعلم أن أداء الصلاة في أول الوقت عند الشافعي رضي الله عنه أفضل، خلافا لأبي حنيفة، واحتج الشافعي بوجوه: (أولها) أن الصلاة خير لقوله ﷺ «الصلاة خير موضوع» وإذا كان كذلك وجب أن يكون تقديمه أفضل لقوله تعالى ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ وظاهر الأمر للوجوب، فإذا لم يتحقق فلا أقل من الندب (وثانيها) قوله ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ ومعناه إلى ما يوجب المغفرة والصلاة مما يوجب المغفرة فوجب أن تكون المسابقة إليها مندوبة (وثالثها) قوله تعالى ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ ولا شك أن المراد منه السابقون في الطاعات، ولا شك أن الصلاة من الطاعات.. . (ورابعها) قوله تعالى ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ والمعنى: وسارعوا إلى ما يوجب المغفرة، ولا شك أن الصلاة كذلك، فالمسارعة بها مأمورة (وخامسها) أنه مدح الأنبياء المتقدمين بقوله تعالى (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) ولا شك أن الصلاة من الخيرات.. (وسادسها) أنه تعالى ذم إبليس في ترك المسارعة فقال ﴿ما منعك أن تسجد إذ أمرتك﴾ وهذا يدل على أن ترك المسارعة موجب للذم (وسابعها) قوله تعالى ﴿حافظوا على الصلوات﴾ والمحافظة لا تحصل إلا بالتعجيل، ليأمن الفوت بالنسيان وسائر الأشغال.. ». (ت. ع. ج4م 2 ص ص147–148)

وقال تعالى في الآية 48 من سورة المائدة: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾؛ وفي الآيتين 17 و25 من سورة يوسف: «قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين»، ﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر﴾. يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿ذهبنا نستبق﴾: «أي نتسابق.. والمعنى: نتسابق في العدو أو في الرمي». (ت. ز، ج2 ص433) وفي تفسير قوله تعالى

﴿واستبقا الباب﴾: «وتسابقا إلى الباب على حذف الجار وإيصال الفعل، كقوله ﴿واختار موسى قومه﴾ على تضمين «استبقا» معنى «ابتدار» نفر منها يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج». (ت. ز، ج2 ص441)

وقال تعالى في الآية 66 من سورة يس: «ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون»؛ وفي الآية 21 من سورة الحديد: «سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

4 - التمهل

التمهل، في اللغة، عكس الاستعجال، أي التعامل مع الوقت بارتياح تام، إما بسبب وفرة الوقت، أو بسبب قلة ما يُنْجَز. وعندما يتحول التمهل إلى شعور وحالة نفسية، ينعكس ذلك على الأعمال المنجزة والسلوكات المُمَارسة، من حيث الإتقان والتجويد، خاصة إذا كانت طبيعة تلك الأعمال والسلوكات تتنافى مع الاستعجال. وقد ورد في «لسان العرب» تحت مادة «مهل»: «المَهْل والمَهَل والمُهْلة، كله: السكينة والتُّؤَدة والرفق. وأمهله: أنظره ورفق به ولم يعجل عليه. ومَهّله تمهيلا: أجّله. والاستمهال: الاستنظار. وتمهّل في عمله: اتَّأدَ. وكلُّ ترفُّق تمهّل. ورُزِق مَهْلا: رَكِب الذنوب والخطايا فمُهِّل ولم يُعَجّل. ومَهَلَت الغنمُ إذا رعت بالليل أو بالنهار على مهلها». (ابن منظور، ج11 ص633)

جاء ذكر المهل والتمهّل في الآية 106 من سورة الإسراء، إذ قال تعالى: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا» وقوله ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾ أي «لتقرأه على الناس على تُؤَدة، فترتله وتبينه، ولا

تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك» (ت. ط، ج15 م8 ص162)؛ وفي الآية 11 من سورة المزمل: «وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا»؛ والآية 17 من سورة الطارق: «فمهل الكافرين أمهلهم رويدا».

5 - السهـــو

السهو يعني النسيان. وفي القاموس اللغوي: «نسيان الشيء والغفلة عنه وذهاب القلب عنه إلى غيره.. وفي المثل: إن الموصين بنو سهوان.. أي إن الذين يوصون بنو من يسهو عن الحاجة فأنت لا تُوَصَّى لأنك لا تسهو.. وقال الجوهري: معناه أنك لا تحتاج إلى أن توصّي إلا من كان غافلا ساهيا». (ابن منظور، ج14 ص406). أما علاقة السهو بالزمن، فتكمن في أنه حالة يتقلص فيها إحساس الإنسان بالوقت، فيمر دون أن يشعر به.

وقد ورد ذكر السهو في سورتي الذاريات والماعون. إذ قال تعالى في الآية 11 من سورة الذاريات: «الذين هم في غمرة ساهون»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الماعون: «الذين هم عن صلاتهم ساهون».

المبحث السادس

الانتظار والتربص والمكوث

يندرج الانتظار، والحالات المشابهة له، ضمن قدرات الإنسان على إدراك الوقت تحت ظروف نفسية وبيولوجية متنوعة، مما ينعكس سلبا أو إيجابا على التقدير الكمي للوقت الذي يستغرقه الإنسان منتظرا لموعد ما أو متربصا أو مترقبا أو لابثا أو ماكثا. وعندما نتأمل في كلمة «الانتظار» نجد أنها تحمل في طياتها الأهمية والأولوية التي تُعطى لعنصر الزمن، إذ يصبح هذا الأخير أثناء فترة الانتظار محط ملاحظة ومراقبة، كأن يصرف المُنتَظِر حواسه تجاه أداة قياس الوقت علها تسرع أو تبطئ - حسب طبيعة المُنتَظَر - أي إن إدراك الوقت في حالات الانتظار، يتسم بالنسبية، بل ربما بعدم الدقة، إذ يُدْرَك أكثر أو أقل مما هو في الواقع عند الحالات العادية.

والإنسان بصفة عامة والمسلم بصفة خاصة، كما نستشف من القرآن الكريم، يجب أن يعيش حالات انتظار وتربص دائمة، طالما هو في الحياة الدنيا. فعليه أن ينتظر الموت ويترقبه في كل لحظة؛ وعليه (أن يعمل لدنياه

كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا). وعلى الإنسان أن ينتظر الشر وينتظر الخير (اليسر والعسر). ويجب الاّ تغيب عن مخيّلته وذاكرته ساعة القيامة والحشر والحساب والنار والجنة. أي إن استمرارية حياة الإنسان تسيطر عليها نوبات الانتظار والتربص والمكوث والمواعيد الآجلة والعاجلة إلى أن يستقر في حياته الأبدية التي تتلاشى فيها أهمية الزمن، حيث لا أثر له على وجود الإنسان وعلى حالته الجسدية. ولا شك أن حالة الانتظار والتربص التي يعيشها الإنسان المسلم، تنعكس إيجابا أو سلبا على سلوكاته اليومية، وفقا لارتفاع معنويته وانخفاضها.

1 - الانتظار

يُشْتَقُّ معنى الانتظار في اللغة العربية من النظر، لذا نجد في القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي ترد بها كلمة «ينظرون» بمعنى «ينتظرون». ومن بين ما ورد في «لسان العرب» تحت مادة نظر:

«النَّظَرُ: الانتظار. يقال نظرتُ فلانا وانتظرته بمعنى واحد، فإذا قلت انتظرت فلم يجاوِزْك فعلك فمعناه وقفت وتمهلت. ومنه قوله تعالى: انظرونا نقتبس من نوركم، قرئ: اُنْظُرونا، بضم الألف، فمعناه انتظرونا، ومن قرأ أَنْظِرُونا فمعناه أخّرونا؛ وقال الزجاج: قيل معنى أنظِرُونا انتظرونا أيضا؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم:

أبا هند فلا تعْجَلْ علينا، وأَنْظِرنا نُخَبِّرْكَ اليقينا

وقال الفراء: تقول العرب أنظرني أي انتظرني قليلا، ويقول المتكلم لمن يُعْجِلُه: أَنْظِرني أبتلع ريقي أي أمهلني.. العرب لا تقول نظرتُ إلى الشيء بمعنى انتظرته، إنما تقول نظرت فلانا أي انتظرته؛ ومنه قول الحطيئة:

وقـد نظرتـكم أبناء صـادرة   للوِرْدِ، طال بهـا حَـوْزي وتَنْسـاسي». (ابن منظور، ج5 ص ص216-217)

ورد معنى الانتظار في العديد من الآيات القرآنية. إذ قال تعالى في الآيات 104 و162 و210 و280 من سـورة البـقـرة: «يا أيهـا الذين آمنوا لا تقـولـوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم»، «خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هـم ينظرون»، «هل ينظـرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغـمـام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور»، «وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميـسـرة وأن تصـدقوا خيـر لكم إن كنتم تعلمـون»؛ وفي الآية 88 من سـورة آل عمران: «خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون».

وود ذكر الانتظـار في الآيتين 8 و158 من سـورة الأنـعـام؛ والآيات 14 و15 و53 و71 و129 و185 من سورة الأعـراف؛ والآيات 20 و71 و102 من سورة يونس؛ وفي الآيتين 55 و122 من سـورة هـود؛ والآيات 8 و36 و37 من سـورة الحـجـر؛ وفي الآيتين 33 و85 من سـورة النحل؛ والآية 40 من سـورة الأنبـيـاء؛ والآية 203 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 29 من سورة السجدة؛ وفي الآيتين 23 و53 من سورة الأحـزاب؛ وفي الآية 43 من سـورة فـاطر؛ والآية 49 من سـورة يس؛ وفي الآيات 15 و79 و80 و81 من سـورة ص؛ وفي الآية 66 من سورة الـزخـرف؛ والآية 29 من سورة الدخان؛ وفي الآية 18 من سورة محمد؛ وفي الآية 13 من سورة الحديد.

2 - التربـص

تضـمنت بعض الآيات القرآنيـة كلمـة «تربّص» بمعنى الانتظار، كما هو وارد في القـامـوس العـربي: «التّـربّص: الانتظار. رَبَصَ بـالشيء رَبْصـا وتَـرَبَّصَ به: انتظر به خـيـرا أو شـرا، وتربّص به الشـيء: كـذلك. [قـال] الليث: التـربّص بالشيء أن تنتظـر به يوما ما، والفـعل تربّصْت به، وفي التنزيل: هل يتـربصـون

بنا إلا إحدى الحسنيين؛ أي إلا الظفر وإلا الشهادة، ونحن نتربص بكم أحد الشرين: عذابا من الله أو قتلا بأيدينا، فبين ما ننتظره وتنتظرونه فرق كبير. وفي الحديث: إنما يريد أن يتربص بكم الدوائر؛ التربص: المُكْثُ والانتظار. ولي على هذا الأمر رُبْصة أي تلبّث. [قال] ابن السكيت: يقال أقامت المرأة رُبْصَتَها في بيت زوجها وهو الوقت الذي جُعِل لزوجها إذا عُنِّنَ عنها، قال: فإن أتاها وإلا فُرِّقَ بينهما. والمتربص: المحتكر. ولي في متاعي رُبْصة أي لي فيه تربص؛ قال ابن بري: تربَّصَ فعل يتعدى بإسقاط حرف الجر كقول الشاعر:

تربّص بها ريب المنون لعلها تُطَلَّقُ يوما، أو يموت حليلها». (ابن منظور، ج7ص40)

ورد ذكر التربص في الآيات 226 و228 و234 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم»، ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾، ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾؛ وفي الآية 141 من سورة النساء: ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾؛ وكذا في الآيات 24 و52 و98 من سورة التوبة؛ وفي الآية 135 من سورة طه؛ والآية 25 من سورة المؤمنون؛ وفي الآيتين 30 ، 31 من سورة الطور؛والآية 14 من سورة الحديد.

3 - الترقب

يرد لفظا «الترقب» و«الارتقاب» في القرآن الكريم بمعنى الانتظار، مع إيلاء قدر من الأهمية لحاسة البصر التي ربما يستخدمها الرقيب أكثر من غيرها. ونجد في قاموس لسان العرب: «الترقّب: الانتظار، وكذلك الارتقاب. وقوله تعالى: ولم ترقب قولي؛ معناه لم تنتظر قولي. والترقّب: تَنَظُّرُ وتوقُّع شيء. ورقيب الجيش: طليعتهم. ورقيب الرجل: خَلَفُه من ولده أو عشيرته.

والرقيب: المنتظِر». (ابن منظور، ج1ص ص424-425)

قال تعالى في الآية العاشرة من سورة التوبة: «لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون»؛ وفي الآية 93 من سورة هود: ﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾؛ والآية 94 من سورة طه: «قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي»؛ وقال تعالى في الآيتين 18 و21 من سورة القصص: ﴿فأصبح في المدينة خائفا يترقب﴾، ﴿فخرج منها خائفا يترقب﴾؛ وفي الآيتين 10 و59 من سورة الدخان: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين»، «فارتقب إنهم مرتقبون»؛ والآية 27 من سورة القمر: «إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر».

4 - المكث

يقول ابن منظور في «لسان العرب» تحت مادة: «مكث»:

«المُكْث: الأناة واللّبَثُ والانتظار؛ مَكَث يَمْكُثُ، ومَكُثَ مَكْثا ومُكْثا ومُكوثا ومَكاثا ومَكاثة ومِكِّيثَى؛ عن كراع واللحياني، يمدّ ويقصر. وتَمَكَّثَ: مكث. والمَكِيث: الرزين الذي لا يعجل في أمره، وهم المُكَثَاء والمَكِيثون، ورجل مَكيث أي رزين.. والماكث: المنتظر، وإن لم يكن مكيثا في الرزانة. وقول الله عز وجل: فمكث غير بعيد؛ قال الفراء: قرأها الناس بالضم، وقرأها عاصم بالفتح: فمَكَثَ؛ ومعنى غير بعيد أي غير طويل، من الإقامة. قال أبو منصور: اللغة العالية مَكُثَ، وهو نادر؛ ومَكَث جائزة وهو القياس. قال: وتمكّث إذا انتظر أمرا وأقام عليه، فهو مُتَمَكِّث منتظر. وتمكّث: تلبّث. والمُكْثُ: الإقامة مع الانتظار والتلبّث في المكان، والاسم المُكْث والمِكْث، بضم الميم وكسرها». (ابن منظور، ج2 ص191)

وقد ورد ذكر المكث في الآية 17 من سورة الرعد، إذ قال تعالى: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾؛ وفي الآيتين الثانية والثالثة من سورة الكهف: «قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا. ماكثين فيه أبدا»؛ والآية العاشرة من سورة طه: «إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى»؛ وقال تعالى في الآية 22 من سورة النمل: ﴿فمكث غير بعيد﴾؛ وفي الآية 29 من سورة القصص: ﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا﴾؛ والآية 77 من سورة الزخرف: «ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون».

5 - اللبث

يقترب معنى اللبث من معنى المكث الذي تعرضنا له في الفقرة السابقة. ويقترن معنى اللبث في اللغة، بالإبطاء والتأخر، ومن هنا يأتي الارتباط بمفهوم الانتظار. فالذي يمكث في مكان ما لفترة زمنية محددة أو يلبث فيه، هو منتظر بطبيعته، خاصة إذا كان المُكْث أو اللّبْث نتيجة اضطرار أو حصل في ظروف غير مواتية. كما يبرز البعد الانتظاري في اللبث من خلال المدة الزمنية المستغرقة سواء كانت طويلة أو قصيرة، وطبيعة النشاط الذي تم خلالها.

وقد ورد ذكر اللبث في سياق العديد من الآيات القرآنية. إذ قال تعالى في الآية 259 من سورة البقرة: ﴿قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام﴾؛ وفي الآيتين 16 و45 من سورة يونس: «قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون»، ﴿ويوم

يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار﴾؛ والآية 69 من سورة هود: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ»؛ وقال تعالى في الآية 42 من سورة يوسف: «وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين»؛ كما ورد ذكر اللبث في الآيتين 52 و76 من سورة الإسراء؛ وفي الآيات 12 و19 و25 و26 من سورة الكهف؛ والآيات 40 و103 و104 من سورة طه؛ وفي الآيات 112 و113 و114 من سورة المؤمنون؛ والآية 18 من سورة الشعراء؛ وفي الآية 14 من سورة العنكبوت؛ وفي الآيتين 55 و56 من سورة الروم؛ والآية 14 من سورة الأحزاب؛ وفي الآية 14 من سورة سبأ؛ وفي الآيتين 143 و144 من سورة الصافات؛ وفي الآية 35 من سورة الأحقاف؛ وفي الآية 23 من سورة النبأ؛ والآية 46 من سورة النازعات.

6 - الوعـد

ليس للوعد - باعتباره التزاماً في الحاضر نحو أمر في المستقبل - علاقة مباشرة بالانتظار، وإنما هناك علاقة واضحة بين الموعد أو الميعاد والانتظار. فعندما يتم التواعد، تدخل الأطراف المتواعدة في دوامة الانتظار إلى أن يحين الموعد. وتتحدد درجة الانتظار بقصر المسافة الزمنية التي تفصل اللحظة عن الموعد، وبطولها. فهناك علاقة طردية بين قلق الانتظار وقِصَر المدة الزمنية إذا كان المتوقع من الموعد ذو تأثير كبير (إيجابا أو سلبا)؛ وهناك علاقة طردية بين قلق الانتظار وطول المدة الزمنية إذا كان المتوقع من الموعد ذا تأثير سلبي كبير ولا سبيل للفرار منه.

ونستشف علاقة الوعد، وحالاته المتعددة، بالانتظار، في سياق الآيات القرآنية التالية:

قال تعالى في الآية 42 من سورة الأنفال: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾؛ وفي الآيتين 22 و47 من سورة إبراهيم: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾، «فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام»؛ والآية 43 من سورة الحجر: «وإن جهنم لموعدهم أجمعين»؛ وقال تعالى في الآية الخامسة من سورة الإسراء: «فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا»؛ وفي الآيات 48 و59 و98 من سورة الكهف: «وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألَّن نجعل لكم موعدا»، «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا»، «قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاء وكان وعد ربي حقا»؛ وفي الآية 61 من سورة مريم: «جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا»؛ وكذا في الآيات 58 و59 و86 و87 و97 من سورة طه؛ وفي الآيات 9 و38 و97 و109 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 47 و72 من سورة الحج؛ وفي الآية 36 من سورة المؤمنون؛ والآية 206 من سورة الشعراء؛ والآية 71 من سورة النمل؛ والآية 61 من سورة القصص؛ والآية السادسة من سورة الروم؛ وفي الآيتين 29 و30 من سورة السجدة؛ وفي الآية 29 من سورة سبأ؛ والآية 48 من سورة يس؛ وقال تعالى في الآية 53 من سورة ص؛ وفي الآية 20 من سورة الزمر؛ والآية 77 من سورة غافر؛ وفي الآية 30 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 42 و83 من سورة الزخرف؛ وفي الآيتين 16 و17 من سورة الأحقاف؛ والآية 20 من سورة الفتح؛ والآية 32 من سورة ق؛ وفي الآيات 5 و22 و60 من سورة الذاريات؛ وفي الآية 25 من سورة الملك؛ والآية 25 من سورة الجن؛ وفي الآية 18 من سورة المزمل؛ والآية السابعة من سورة المرسلات.

المبحث السابع

الصبر

إن المفهوم الشائع للصبر، يتمثل في القدرة على ضبط النفس وتحمل ما يجيش بها من أفكار وما يقع على الجسد من أفعال وما يمكن أن يقوم به من سلوكات، وذلك أثناء مرور الوقت. ويقاس الصبر، في هذا المقام، بطول المدة الزمنية المستغرقة ويتناسب معها تناسبا طرديا: فكلما زادت المدة الزمنية، زادت أهمية الصبر، خاصة إذا تزامن ذلك مع ابتلاء شديد في الشر أو في الخير.

ويتضح من خلال النظر في طبيعة الإنسان، كما وصفها القرآن الكريم، أن الصبر من السمات التي لا تتوفر بالفطرة لدى الإنسان، بل يحتاج إلى مراس وترويض للنفس حتى يقدر على ممارسة الصبر. إذ قال تعالى في الآية 11 من سورة الإسراء: «ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا»؛ وفي الآية 37 من سورة الأنبياء: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾؛ وفي الآيات 19 و20 و21 من سورة المعارج: «إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا».

وللصبر، في اللغة العربية، مدلولات عديدة، نذكر منها ما له علاقة بمفهوم الزمن وإدراكه.

ورد في «لسان العرب»، تحت مادة «صبر»: «في أسماء الله تعالى: الصَّبُور تعالى وتقدّس، هو الذي لا يُعاجِل العُصاة بالانتقام، وهو من أبنية المبالغة، ومعناه قريب من معنى الحليم، والفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها في صفة الحليم.. والصَّبْرُ: نقيض الجَزَع، صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرا، فهو صابر وصَبّار وصبير وصبور، والأنثى صَبُور أيضا، بغير هاء، وجمعه صُبُرٌ. [قال] الجوهري: الصبر حبس النفس عند الجزع، وقد صبر فلان عند المصيبة يصبر صبرا، وصَبَرْتُه أنا: حَبَسْته. قال الله تعالى: واصبِر نفسك مع الذين يدعون ربهم. والتصبّر: تكلف الصبر.. وفي الحديث عن النبي ﷺ، أن الله تعالى قال: إني أنا الصبور؛ قال أبو اسحق: الصبور في صفة الله عز وجل الحليم. وفي الحديث: لا أحد أصبر على أذى يسمَعُه من الله عز وجل؛ أي أشد حلما على فاعل ذلك وترك المعاقبة عليه. وقوله تعالى: وتواصوا بالصبر؛ معناه: وتواصوا بالصبر على طاعة الله والصبر على الدخول في معاصيه. والصبر: الجراءة؛ ومنه قوله عز وجل: فما أصبرهم على النار؛ أي ما أجرأهم على أعمال أهل النار. قال أبو عمرو: سألت الحليحي عن الصبر فقال: ثلاثة أنواع: الصبر على طاعة الجبار، والصبر على معاصي الجبار، والصبر على الصبر على طاعته وترك معصيته. وقال ابن الأعرابي: قال عُمر: أفضل الصبر التصبر. وقوله: فصبر جميل؛ أي صبري صبر جميل. وقوله عز وجل: اصبروا وصابروا؛ أي اصبروا واثبتوا على دينكم، وصابروا أي صابروا أعداءكم في الجهاد. وقوله عز وجل: استعينوا بالصبر؛ أي بالثبات على ما أنتم عليه من الإيمان. وشهر الصبر: شهر الصوم. وفي حديث الصوم: صُمْ شهر الصبر؛ هو شهر رمضان. وأصل

الصبر الحبس، وسمي الصوم صبرا لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والنكاح».

ورد ذكر الصبر بمختلف معانيه، ذات العلاقة بتدبير الوقت، في 93 آية قرآنية. إذ قال تعالى في ثماني آيات من سورة البقرة، بدءا من الآية 45: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»، وفي الآية 61: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ والآية 153: «يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين»، والآية 155: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين»، وفي الآية 185: «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار»، والآية 188: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون»، وفي الآيتين 249 و250: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ «ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين»؛ وتضمنت سورة آل عمران سبع آيات: قال تعالى في الآية 17: «الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار»، وفي الآية 120: «إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط»، والآية 125: «بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين»، وفي الآية 142: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله

الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين»، والآية 146: «وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين»، وفي الآية 187: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾، والآية 200: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

وقال تعالى في الآية 25 من سورة النساء: «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم ﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾؛ وفي الآية 34 من سورة الأنعام: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾؛ وقال تعالى في الآيات 87 و126 و128 و137 من سورة الأعراف: «وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»، «وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين»، ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾، ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾؛ وفي الآيات 46 و65 و66 من سورة الأنفال: «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين»، «يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين»؛ والآية 109 من سورة

يونس: «واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»؛ وقال تعالى في الآيات 11 و49 و115 من سورة هود: «إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير»، «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين»، «واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»؛ وفي الآيات 18 و83 و90 من سورة يوسف: «وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»، «قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم»، «قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

وقال تعالى في الآيتين 22 و24 من سورة الرعد: «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار»، «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»؛ وفي الآيات 5 و12 و21 من سورة إبراهيم: «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»، «وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون»، «وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص»؛ وقال تعالى في الآيات 42 و96 و110 و126 و127 من سورة النحل: «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون»، «ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»، «ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم»،

«وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون»؛ ورد في سورة الكهف ثماني آيات، بدءا من الآية 28، إذ قال تعالى: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا»، وفي الآيات 67 و68 و69: «قال إنك لن تستطيع معي صبرا. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا. قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا»، والآية 72: «قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا»، وفي الآية 75: «قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا»، والآية 78: «قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا»، والآية 82: «وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا»؛ والآية 65 من سورة مريم: «رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا»؛ وقال تعالى في الآيتين 130 و132 من سورة طه: «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى»، «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى»؛ وفي الآية 85 من سورة الأنبياء: «وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين»؛ والآية 35 من سورة الحج: «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون».

وقال تعالى في الآية 111 من سورة المؤمنون: «إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون»؛ وفي الآيات 20 و42 و75 من سورة الفرقان: «وما أرسلنا

قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا»، «إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا»، «أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما»؛ وقال تعالى في الآيتين 54 و80 من سورة القصص: «أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون»، «وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون»؛ وفي الآية 59 من سورة العنكبوت: «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون»؛ والآية 60 من سورة الروم: «فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون»؛ وقال تعالى في الآيتين 17 و31 من سورة لقمان: «يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور»، «ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»؛ وفي الآية 24 من سورة السجدة: «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون»؛ والآية 35 من سورة الأحزاب: «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما»؛ وقال تعالى في الآية 19 من سورة سبأ: «فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»؛ وفي الآية 102 من سورة الصافات: «فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين»؛ وقال تعالى في الآيات 6 و17 و44 من

سورة ص: «وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد»، «اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب»، «وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب»؛ وفي الآية العاشرة من سورة الزمر: «قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب».

وقال تعالى في الآيتين 55 و77 من سورة غافر: «فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار»، «فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون»؛ وفي الآيتين 24 و35 من سورة فصلت: «فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين»، «وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم»؛ وقال تعالى في الآيتين 33 و43 من سورة الشورى: «إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»، «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور»؛ وفي الآية 35 من سورة الأحقاف: «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون»؛ والآية 31 من سورة محمد: «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم»؛ وقال تعالى في الآية 39 من سورة ق: «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب»؛ وفي الآية الخامسة من سورة الحجرات: «ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم»؛ وقال تعالى في الآيتين 16 و48 من سورة الطور: «اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون»، «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم»؛ وفي الآية 27 من سورة القمر: «إنا

مـرسلو الناقـة فـتنة لهم فـارتقـبـهم واصطبـر»؛ والآية 48 من سـورة القلم: «فـاصبـر لحكم ربك ولا تكن كـصـاحب الحـوت إذ نادى وهو مكظوم»؛ وقـال تعالى في الآية الخـامسة من سورة المعارج: «فاصبـر صبرا جميلا»؛ وفي الآية العاشرة من سورة المزمل: «واصبر على ما يقولون واهجرهم هـجرا جميـلا»؛ والآية السـابعة من سـورة المدثر: «ولـربك فـاصبـر»؛ وقـال تعـالى في الآيتين 12 و24 من سـورة الإنسـان: «وجـزاهم بما صبـروا جنة وحـريرا»، «فـاصبـر لحكم ربك ولا تطع منهم آثمـا أو كفورا»؛ وفي الآية 17 من سـورة البلد: «ثم كان من الذين آمنوا وتواصـوا بالصبـر وتـواصـوا بالمـرحمـة»؛ والآية الثـالثـة من سـورة العـصـر: «إلا الذين آمنوا وعـملوا الصـالحـات وتـواصـوا بـالحق وتـواصـوا بالصبر».

المبحث الثامن

الدنيا والآخرة

ينقسم الوجود الزمني للكائن البشري إلى جزأين: الجزء الأول: الحياة الدنيا، ويبدأ منذ تكونه في الرحم ثم ولادته وحياته ومماته إلى أن تقوم الساعة. وإذا كانت الفترة الزمنية ما بين تكوّنه ومماته يسهل حسابها، فإن الفترة ما بين مماته وقيام الساعة تبقى في علم الغيب، بالرغم من أنها كذلك فترة محدودة سيأتي أوانها لا محالة. إذن، من أبرز سمات الجزء الأول، محدودية المدة وقصرها مهما طالت. أما الجزء الثاني: الحياة الآخرة، فيبدأ مع قيام الساعة ويستمر إلى ما لا نهاية. وهذه السمة الأخيرة تبدو مستعصية على الإدراك البشري المحدود، خاصة عندما يقارنها بما أَلِف في حياته الدنيا. إذ يتسم هذا الجزء من الوجود بزوال ظاهرة الموت التي تضع حدا للحياة، وتختفي فيه الآثار التي يتركها مرور الزمن على الحالتين الجسدية-الفسيولوجية والنفسية على الإنسان، من مرض وإعاقة وهرم.

إن الاختلاف النوعي والزمني بين الحياتين، يجعل المقارنة بينهما غير متكافئة، ويحتمل أن تكون الأولى جسرا للعبور إلى الثانية، يجب عبوره

باقتدار وكفاءة، لانعدام فرص الاستدراك في الثانية. كما أن المقارنة تصبح مستحيلة بين ما هو نسبي محدد (الحياة الدنيا) وما هو مطلق لا نهائي (الحياة الآخرة)؛ لذا نجد أن القرآن الكريم والسنة النبوية حفلا بالتقليل من شأن الحياة الدنيا والحث على الاهتمام بالحياة الآخرة والعمل لها بكل جد وصبر ومثابرة. وليس بمستغرب، أن تتسم الحياة الدنيا باضطرابها وامتزاج السعادة فيها بالتعاسة والفرح بالحزن.. فقِصَر زمنها يمارس ضغطا على الإنسان، ويتهدده الموت في كل لحظة.

وهكذا نجد أن معظم الآيات القرآنية ذات الصلة بالحياتين الدنيا والآخرة، إما أن تشير إلى الحياة الآخرة فتصفها وتحث على الاستعداد لها وتحذر منها، أو تشير إلى الحياة الدنيا متبوعة بالحياة الآخرة من باب تفضيل الثانية على الأولى؛ وقليلة هي الآيات التي أشارت إلى الحياة الدنيا دون الإشارة للحياة الآخرة.

تستمد كل من الحياة الدنيا والحياة الآخرة اسميهما من أفعال الاشتقاق التي استمدت منها. فالدنيا مستمدة من فعل «دنا: دنا الشيء من الشيء دنوا ودناوة: قَرُبَ.. واستدناه: طلب منه الدّنوّ.. وقال الليث: الدنو غير مهموز مصدر دنا يدنو فهو دان، وسُميت الدنيا لدُنُوّها، ولأنها دَنَتْ وتأخّرت الآخرة، وكذلك السماء الدنيا هي القُربى إلينا، والنسبة إلى الدنيا دنياوي، ويقال دُنْيَوي ودُنْيِيٌّ». (ابن منظور، ج14 ص ص271–272)

1 - الدنيـــا

لقد ورد ذكر الدنيا، دون الآخرة صراحة، في الآية 85 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك

منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عن ما تعملون﴾؛ وفي الآيتين 32 و51 من سورة الأعراف: «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون»، «الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون»؛ وفي الآية 18 من سورة الإسراء سميت الدنيا بـ «العاجلة»: قال تعالى ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها﴾؛ وقال تعالى في الآية 33 من سورة لقمان: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾؛ وفي الآية الخامسة من سورة فاطر: «يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور»؛ والآية العاشرة من سورة الزمر: ﴿قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾؛ وقال تعالى في الآية 24 من سورة الجاثية: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾؛ وفي الآية 20 من سورة الأحقاف: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾.

2 - الآخـــرة

وورد ذكر الآخرة – وهو اسم من بين الأسماء المتعددة للحياة ما بعد قيام الساعة – ورد ذكرها غير مقترنة بالدنيا، في العديد من الآيات القرآنية، بدءا من الآيات 4 و94 و102 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون»، «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين»، ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو

كانوا يعلمون﴾؛ وكذا في الآيات 77 و85 و148 و152 و153 و176 من سورة آل عمران؛ والآية الخامسة من سورة المائدة؛ وفي الآيات 92 و113 و150 من سورة الأنعام؛ وفي الآيات 45 و147 و169 من سورة الأعراف؛ والآية 29 من سورة التوبة؛ والآيات 16 و19 و22 من سورة هود؛ وفي الآيات 37 و57 و109 من سورة يوسف؛ وفي الآيات 22 و60 و109 من سورة النحل؛ والآيات 7 و10 و19 و21 و45 و72 و104 من سورة الإسراء؛ وفي الآيتين 40 و127 من سورة طه؛ والآية 74 من سورة المؤمنون؛ وفي الآيات 3 و4 و5 و66 من سورة النمل؛ وفي الآية 83 من سورة القصص؛ وفي الآيتين 20 و36 من سورة العنكبوت؛ وفي الآية 16 من سورة الروم؛ والآية الرابعة من سورة لقمان؛ والآية 29 من سورة الأحزاب؛ وفي الآيات 1 و8 و21 من سورة سبأ؛ والآية 45 من سورة الزمر؛ وفي الآية 52 من سورة غافر؛ وفي الآية السابعة من سورة فصلت؛ والآية 27 من سورة النجم؛ وفي الآية 13 من سورة الممتحنة؛ والآية 33 من سورة القلم؛ والآية 53 من سورة المدثر؛ وفي الآية 21 من سورة القيامة؛ والآية 17 من سورة الأعلى.

3 - الدنيا والآخرة

إن جل الآيات التي تقرن بين ذكر الحياة الدنيا والحياة الأخرى - وهي، أي الآيات، كثيرة - إما أن تفضل الآخرة على الدنيا؛ أو تتبع الدنيا بالآخرة في سياق تهديدي، باعتبار أن الأولى دار مقدمات والثانية دار نتائج؛ أو يتم فيها التنفير من الدنيا والتقليل من شأنها، والترغيب في الآخرة والإغراء بما تتضمنه من ثواب لا مثيل له.

وقد ورد ذكر الحياتين الدنيا والآخرة في سياق واحد، في سبع آيات من سورة البقرة، بدءا من الآية 86، إذ قال تعالى: «أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون»، وفي الآية 114: «ومن أظلم

ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم»، والآية 130: «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين»، وفي الآيتين 200 و201: «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، وفي الآية 217: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، والآية 220: «في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم»؛ ووردا في الآيات 22 و45 و56 من سورة آل عمران؛ وفي الآيات 74 و77 و134 من سورة النساء؛ وفي الآيتين 33 و41 من سورة المائدة؛ والآية 32 من سورة الأنعام؛ وفي الآية 156 من سورة الأعراف؛ وفي الآية 67 من سورة الأنفال؛ وفي الآيات 38 و69 و74 من سورة التوبة؛ والآية 64 من سورة يونس؛ والآية 101 من سورة يوسف؛ وفي الآيتين 26 و34 من سورة الرعد؛ وفي الآيتين 3 و27 من سورة إبراهيم؛ والآيات 30 و41 و107 و122 من سورة النحل؛ وفي الآيتين 11 و15 من سورة الحج؛ والآية 33 من سورة المؤمنون؛ وفي الآيات 14 و19 و23 من سورة النور؛ وفي الآيتين 70 و77 من سورة القصص؛ والآيات 25 و27 و64 من سورة العنكبوت؛ والآية السابعة من سورة الروم؛ والآية 57 من سورة الأحزاب؛ والآية 26 من سورة الزمر؛ وفي الآيات 39 و43 و51 من سورة غافر؛ وفي الآيتين 16 و31 من سورة فصلت؛ والآية 20 من سورة الشورى؛ والآية 25 من سورة النجم؛ وفي الآية 20 من سورة الحديد؛ والآية الثالثة من سورة الحشر؛ وفي الآية 25 من سورة النازعات.

المبحث التاسع

ديمومة الوقت ولا نهائيته

إن خبرة الإنسان وقدراته الإدراكية، تتعامل مع الزمان كبعد متناهٍ، يبتدئ من نقطة محددة ويستمر إلى أجل محدد، ضمن نطاق الإدراك والمعايشة؛ أو أجل طويل يمكن حسابه وتخيّله. أما أن يستمر تدفق الزمان إلى ما لا نهاية، فهذا ما يصعب إدراكه وفقا للقدرات الإدراكية البشرية، لأن إدراك الزمان اللانهائي يتطلب ديمومة عمره ولا نهائيته، وهذا ما يتنافى مع طبيعة الإنسان في الحياة الدنيا. وتبقى هذه الإمكانية في حالة الحياة الآخرة التي وعد الله بها الإنسان، وأكدها في القرآن باستخدام لفظتي: «الخلود» و«الأبد». ويبقى السؤال: هل تحاشى الإنسان التعابير والاستخدامات اللغوية التي تشير إلى ديمومة الوقت ولانهائيته في حياته الدنيا؟ وإذا صح أنه استخدمها، فهل استخدمها بحمولتها الدلالية الحقيقية أم المجازية/النسبية؟ ربما نلتمس إجابة شافية عند استعراضنا لتعريفي الخلود والأبد في القاموس اللغوي العربي.

1 - الخـــلود

أورد ابن منظور في «لسـان العـرب» تحت مـادة «خلد»: «الخُلْد: دوام البقـاء في دار لا يخــرج منهــا. خَلَدَ يَخْلُدُ خُلْدا وخلودا: بقي وأقــام. ودار الخلد: الآخرة لبقـاء أهلها فيها. وخَلّده الله وأخلده تخليدا؛ وقد أخْلَد الله أهل دار الخُلد فيها وخلّدهم، وأهل الجنة خالدون مخلّدون آخر الأبد، وأخلد الله أهل الجنة إخلادا، وقوله تعالى: أيحسب أن ماله أخلده؛ اي يعمل عمل من لا يظن مع يساره أنه يموت.. وخلد بالمكان يخلد خلودا، وأخلد: اقام، ومن ذلك؛ قول زهير:

لِمَن الديار غَشيِتَها بالغَـرْقَد، كالوحي في حجر المسيل المُخْلِد؟

والمخلد من الرجـال: الذي أسن ولم يَشِب كـأنه مُـخَلّد لذلك، وخَلَد يَخْلِد ويخلُد خَلْدا وخلودا: أبطأ عنه الشيب كـأنما خلق لِيَـخْلُد. [وفي] التـهـذيب: ويقـال للرجل إذا بقي سـواد رأسه ولحيته على الكبـر: إنه لمخلد، ويقـال للرجل إذا لم تسـقط أسـنانه من الهـرم: إنه لمخلد.. والخـوالد: الجبـال والحـجـارة والصخور لطول بقائها بعد دروس الأطلال». (ابن منظور، ج3 ص164)

يتضح من هذا التعريف أن العرب قد تضفي معنى الخلود على طول البقاء، خاصة عندما يطول ذلك البقاء أكثر من المعدل المعتاد أو يتجاوز عمر المراقِب.

لقد ورد ذكر الخلود في ثماني آيات من سورة البقرة: قال تعالى في الآية 25: ﴿ولهم فيـها أزواج مطهـرة وهم فيهـا خـالدون﴾، وفي الآية 39: «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»، وفي الآيتين 81 و82: «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خـالدون. والذين آمنوا وعـملوا الصـالحـات أولئك أصـحـاب الجنة هم فيـهـا

خالدون»، والآية 162: «خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون»، وفي الآية 217: ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، والآية 257: «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»، والآية 275: ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

وورد ذكر الخلود في الآيات 15 و88 و107 و116 و136 و198 من سورة آل عمران؛ وفي الآيات 13 و14 و57 و93 و122 و169 من سورة النساء؛ والآيات 80 و85 و119 من سورة المائدة؛ والآية 128 من سورة الأنعام؛ وفي الآيات 20 و36 و42 من سورة الأعراف؛ والآيات 17 و21 و22 و63 و68 و72 و89 و100 من سورة التوبة؛ وفي الآيات 26 و27 و52 من سورة يونس؛ والآيات 23 و107 و108 من سورة هود؛ والآية 23 من سورة إبراهيم؛ والآية 29 من سورة النحل؛ وفي الآية 108 من سورة الكهف؛ والآيات 76 و101 و120 من سورة طه؛ وفي الآيات 8 و34 و99 و102 من سورة الأنبياء؛ وفي الآيتين 11 و103 من سورة المؤمنون؛ والآيات 15 و16 و69 و76 من سورة الفرقان؛ والآية 129 من سورة الشعراء؛ والآية 58 من سورة العنكبوت؛ في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة لقمان؛ وفي الآية 14 من سورة السجدة؛ والآية 65 من سورة الأحزاب؛ وفي الآيات 40 و72 و73 من سورة الزمر؛ وفي الآية 76 من سورة غافر؛ والآية 28 من سورة فصلت؛ وفي الآيتين 71 و74 من سورة الزخرف؛ وفي الآية 14 من سورة الأحقاف؛ والآية 15 من سورة محمد؛ والآية الخامسة من سورة الفتح؛ وفي الآية 34 من سورة ق؛ والآية 12 من سورة الحديد؛ وفي الآيتين 17 و22 من سورة المجادلة؛ وفي الآية 17 من سورة الحشر؛ وفي الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة التغابن؛ وفي الآية 11 من سورة الطلاق؛ والآية 23 من سورة الجن؛ وفي الآية 19 من سورة الإنسان؛ وفي الآيتين السادسة والثامنة من سورة

البينة؛ والآية الثالثة من سورة الهُمَزة.

لقد ورد مفهوم الخلود في السنة النبوية، كنقيض للموت. أي إن الموت هو الذي يحول دون استمرارية البقاء ولا نهائيته. فقد روى الإمام أحمد في مسنده: «.. عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ لا مَوْتَ يَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ لا مَوْتَ فَازْدَادَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ وَازْدَادَ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ».

2 - الأبــد

تشير لفظة «الأبد» إلى ديمومة الوقت ولا نهائيته، ولكن هذا لا ينفي الاستخدامات النسبية للأبد، عندما يتم قصره على الآماد الطويلة، وهذا ما نستشفه من مدلولات لفظة: «الأبد»، كما وردت في «لسان العرب»:

«الأبد: الدهر، والجمع آباد وأُبود؛ وفي حديث الحج قال سراقة بن مالك: أرأيت متعتنا هذه ألعامنا أم للأبد؟ فقال: بل هي للأبد؛ وفي رواية: ألعامنا هذا أم لأبدٍ؟ فقال: بل لأبدِ أبدٍ؛ وفي أخرى: بل هي لأبدِ الأبد أي هي لآخر الدهر. وأبدٌ أبيد: كقولهم دهر دهير.. وقالوا في المثل: طال الأبد على لُبَد؛ يضرب ذلك لكل ما قدُمَ. والأبد: الدائم. والتأبيد: التخليد. وأبَدَ بالمكان يأبِد، بالكسر، أبواد: أقام به ولم يبرحه.. وأبَدَت البهيمة تأبُد وتأبد أي توحشت.. والأوابد والأُبَّدُ: الوحش، الذكر آبد والأنثى آبدة، وقيل: سميت بذلك لبقائها على الأبد؛ قال الأصمعي: لم يمت وحشي حتف أنفه قط إنما موته عن آفة وكذلك الحية فيما زعموا». (ابن منظور، ج3 ص68)

وفقاً لهذا التعريف فإن مفهوم الأبد تم اختزاله في الاستخدام اللغوي

العربي ليتلاءم مع بعض الظواهر والموجدات التي ألفها الإنسان، معتقدا في بقائها الدائم طالما أنها تتفوق عليه في قدرتها على البقاء ومقاومة الزمن. ويبقى استيعاب المفهوم الحقيقي للخلود والأبد، رهينا بمرور الإنسان إلى الحياة الآخرة القائمة على مبدأي التأبيد والخلود.

ورد ذكر الأبد في الآية 95 من سورة البقرة، إذ قال تعالى: «ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين»؛ وفي الآيتين 57 و122 من سورة النساء: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا﴾، والآية 169 «إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا»؛ وورد ذكر الأبد في الآيتين 24 و119 من سورة المائدة؛ وفي الآيات 22 و83 و84 و100 و108 من سورة التوبة؛ والآيات 3 و20 و35 و57 من سورة الكهف؛ وفي الآيات 4 و17 و21 من سورة النور؛ وفي الآيتين 53 و65 من سورة الأحزاب؛ والآية 12 من سورة الفتح؛ والآية 11 من سورة الحشر؛ وفي الآية الرابعة من سورة الممتحنة؛ وفي الآية السابعة من سورة الجمعة؛ والآية التاسعة من سورة التغابن؛ وفي الآية 11 من سورة الطلاق؛ وفي الآية 23 من سورة الجن؛ والآية الثامنة من سورة البينة.

خـــاتمة

لقد سعينا في هذه الدراسة إلى استكشاف الملامح العامة للاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، منطلقين من نظرة شمولية لمجال الاتصال غير اللفظي، قصد إبراز الجوانب التي يمكن بها أن ندعم هذا العلم من خلال القرآن الكريم. وبالرغم من أن موضوع الدراسة، يفترض أن القارئ ملمّ بأسس علم الاتصال غير اللفظي، إلا أننا فضلنا أن نمهد الطريق لكل القراء المختصين وغير المختصين، بتقديم المختصر المفيد في التعرف إلى الاتصال غير اللفظي. وهكذا، انطلقنا من التعريف لنقف عند الحدود التي تفصل هذا العلم عن غيره من العلوم. وبعد أن استعرضنا أبرز التعاريف التي قدمت من لدن المهتمين، تبنينا تعريفا موسعا، علّه يضيف شيئا جديدا لهذا العلم ويساهم في تأصيله. فمن وجهة نظرنا، أن الاتصال غير اللفظي: «هو الرسائل التواصلية الموجودة في الكون الذي نعيشه، ونتلقاها عبر حواسنا الخمس، ويتم تداولها عبر قنوات متعددة، وتشمل كل الرسائل التواصلية حتى تلك التي تتداخل مع اللغة اللفظية والتي تعتبر من ضمن بنيتها. وتتجلى

رسائل الاتصال غير اللفظي عبر سلوك العين، وتعبيرات الوجه، والإيماءات، وحركات الجسد، وهيئة الجسد وأوضاعه، والشم، واللمس، والذوق، والمسافة، والمظهر، والمنتجات الصناعية، والصوت، والوقت ومفهوم الزمن، وترتيب البيئة الطبيعية والاصطناعية».

ولعل أبرز ما قدمه تمهيد هذه الدراسة، المبحث الخاص بفسيولوجيا الاتصال غير اللفظي، الذي بحث في المنابع البيولوجية والفسيولوجية للسلوك غير اللفظي، مما يساعد على فهم هذا الأخير، فهما علميا دقيقا، ومن ثم فتح الباب أمام إمكانية التحكم فيه بتعديله وتطويره. هذا، بالإضافة إلى المباحث التي تطرقت إلى أساليب الدراسة العلمية للسلوك غير اللفظي؛ وقنوات الاتصال غير اللفظي، والتي تعتبر كل واحدة منها لغة اتصال قائمة بذاتها أو متكاملة مع غيرها؛ كما استعرضنا بعض وظائف الاتصال غير اللفظي التي يصعب حصرها؛ وأوردنا، في الأخير، أمثلة لتطبيقات هذا العلم في الحياة اليومية. ولا شك أن وظائف الاتصال غير اللفظي وتطبيقاته، تقدمان تبريرا كافيا لبحثنا عن ملامح الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم.

لقد اتضح، جليا، من خلال هذه الدراسة، أن القرآن الكريم غني بما يمكن تصنيفه ضمن الاتصال غير اللفظي؛ بل أكثر من ذلك، فإن القرآن الكريم يغني هذا العلم، بالعديد من المفاهيم والمواضيع التي تستحق الدراسة، ويزوده بأمثلة، لا يمكن للباحثين جمعها، من خلال أبحاثهم الميدانية، إما لكون بعض السلوكات غير اللفظية قد حدثت في العصور الماضية غير المؤرخة، أو لأنها ستحدث في المستقبل الذي يتوقف وضع الإنسان فيه على الحاضر، ونعني به الوضع في الحياة الآخرة.

فخلال استعراضنا لقنوات الاتصال غير اللفظي في أحد عشر فصلا، تبين أن القرآن الكريم، حافل بالأمثلة الكفيلة بإثبات أن قناة الاتصال غير

اللفظي التي هي قيد الدرس، يمكن فهمها من خلال القرآن الكريم، بمعزل عن الدراسات الحديثة. وفي بعض الأحيان، يزودنا القرآن الكريم بنواة لمعجم عن مفردات قناة اتصالية غير لفظية بعينها، كما هو الشأن بالنسبة للاتصال بالهيئة وأوضاع الجسم، الذي تضمن، بالإضافة إلى المواضيع الرئيسة، أكثر من 110 مفردات وردت في القرآن الكريم، لها علاقة بهذه القناة. وهذا يضع القرآن الكريم، في قائمة مصادر دراسة الاتصال غير اللفظي عبر قناة الهيئة وأوضاع الجسد. والأمر نفسه ينطبق على قناة العين، التي تضمنت أكثر من 35 مفردة في المبحث المتعلق بسلوك العين. ومفهوم الزمان الذي اشتمل على أكثر من 40 وحدة لقياس الوقت. ومعظم هذه المفردات والمفاهيم، يتسم بالأصالة والجدة، مما يشكل إضافات نوعية لعلم الاتصال غير اللفظي.

وإذا أطللنا على كل قناة اتصالية غير لفظية على حدة، سنجد على الأقل آية قرآنية واحدة، تندرج في صميم الاتصال غير اللفظي، وتجسد أهمية الاتصال عبر هذه القناة.

ففي الاتصال بالعين، يكفينا أن نذكر مثالا واحدا، وهو قوله تعالى في الآية 19 من سورة الأحزاب: «أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا».

أما عن التعبيرات الوجهية، فيكفي ذكر قوله تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة عبس: «عبس وتولى. أن جاءه الأعمى».

وقال تعالى، مؤكدا أهمية لغة الإيماء والإشارة، مما يرفعها لدرجة اللغة اللفظية، في الآية 41 من سورة آل عمران: «قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار».

ويكفي الاتكاء - باعتباره أحد الأوضاع التي يتخذها الجسم - أن يكون أحد النعم التي وهبها الله لأصحاب الجنة، لتتضح أهمية الاتصال بالهيئة في القرآن الكريم. قال تعالى في الآية 31 من سورة الكهف: «أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا».

ونذكر في الاتصال باللمس، قوله تعالى في الآية السابعة من سورة الأنعام: «ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين».

أما عن الاتصال غير اللفظي عبر حاستي الشم والذوق، فقد قال تعالى في الآيات 25 و26 و27 من سورة المطففين: «يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم»؛ وفي الآية 15 من سورة محمد: «مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم».

ومن أمثلة الدلالة التواصلية للمسافة والاتجاهات، نذكر قوله تعالى في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة النجم: «ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى»؛ وفي الآية 17 من سورة الكهف: «وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا».

وجاء في الفصل المتعلق بالاتصال بالمظهر، قوله تعالى في الآية الرابعة من سورة المنافقون: «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون».

ويزودنا القرآن الكريم بإحدى أبرز آداب التواصل بالصوت، في الآيتين الثانية والثالثة من سورة الحجرات، إذ قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم».

وذكر الله سبحانه وتعالى جوانب من ترتيب قوم سيدنا صالح لبيئتهم السكنية، إذ قال تعالى في الآية 74 من سورة الأعراف: «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين».

ونورد في الأخير، آية تبين مدى نسبية الزمان، كما جاء في الآية الرابعة من سورة المعارج: «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة».

هذه الأمثلة التي أوردنا، هي غيض من فيض. فقد أسفرت دراستنا للاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، عن اكتشاف منجم يحتوي المئات من المواضيع التي يصلح كل واحد منها لكي يكون موضوعا لدراسة مستقلة حول إحدى مظاهر الاتصال غير اللفظي.

يتبين للمطلع على هذه الدراسة، أنها اشتملت على العديد من الإجابات عن التساؤلات التي أثيرت في المقدمة، خاصة فيما يتعلق بحجم تواجد الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم. فقد اتضح أن جميع قنوات الاتصال غير اللفظي التي تم تصنيفها في الفصول الأحد عشر، لا تفتقر إلى الاستشهادات من كتاب الله، على الرغم من التفاوت بين الفصول في عدد الآيات المستشهد بها، ويتراوح بين 205 آية و1543 آية. فقد تضمن الفصل المتعلق بالاتصال بالعين: 899 آية؛ والتعبيرات الوجهية: 258 آيات؛ والإيماء:

587 آية؛ والهيئة وأوضاع الجسم: 1261 آية؛ والاتصال باللمس: 205 آيات؛ والشم والذوق: 240 آية؛ والاتصال بالمسافة: 582 آية؛ والمظهر: 1175 آية؛ والصوت والمظاهر غير اللفظية للغة: 637 آية؛ وترتيب البيئة: 1510 آيات؛ ومفهوم الزمن: 1543 آية. وبلغ المجموع الكلي لهذه الآيات: 8897 آية قرآنية.

وبما أن الدراسة قد وظّفت 4480 آية من آيات المصحف الشريف البالغ عددها 6236 آية (بنسبة 72٪)، فإن العدد المتبقي من 8897، وهو 4417 – هو حصيلة لبعض الآيات القرآنية التي ورد ذكرها أكثر من مرة. وتفيدنا هذه المعلومة، في التعرف إلى مدى الترابط والتكامل بين قنوات الاتصال غير اللفظي في إيصال الرسائل الاتصالية الفعالة.

فمن بين الأمثلة العديدة التي يمكن ذكرها في هذا الصدد، بعض الآيات القرآنية التي يمكن الاستشهاد بها في أكثر من قناة اتصالية غير لفظية واحدة، أو ضمن أكثر من موضوع داخل القناة الواحدة.

قال تعالى في الآية 61 من سورة البقرة: «وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون».

نجد في هذه الآية إشارة إلى الطعام بمختلف أصنافه كالبقول والقثّة التي تشبه الخيار والثوم والعدس والبصل، والطعام يندرج ضمن الاتصال بالشم والذوق؛ وهناك إشارة إلى ترتيب بيئة الأرض التي تُنبِت هذه الأطعمة؛ كما تندرج الأرض ضمن المكونات المظهرية للكون؛ ويندرج الهبوط ضمن الهيئة والأوضاع التي يتخذها الجسم؛ وتتضاف إليه هيئة الذلة والمسكنة، التي يمكن

كذلك معالجتها ضمن المظهر؛ وأخيرا، هناك الغضب الذي هو أحد المشاعر التي يتم التعبير عنها - بكيفية رئيسة - عبر الوجه (بالرغم من أن ورودها في سياق هذه الآية لا يمكن حمله على الحقيقة لأنه مرتبط بالخالق جل وعلا).

وتشكل الآية 18 من سورة الكهف، مثالا بليغا بما تصفه من أوضاع الجسم المختلفة، والتواصل بالعين، والتعبير عن المشاعر. قال تعالى: «وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا». فمن بين الأوضاع الجسدية التي تذكرها الآية، وضع الاستلقاء والرقاد، وبسط الذراعين، والتولي والفرار؛ وهناك الإشارة إلى اتجاهي اليمين والشمال؛ وذكر الكلب، كأحد أنواع الكائنات الحية التي تشكل المظهر العام للأرض؛ والاطلاع يتم عبر حاسة البصر؛ والرعب يظهر من الفرار ويبدو على ملامح الوجه وتعبيراته.

لقد تبين لنا، بما يدع مجالا للشك، خلال فصول الدراسة الأحد عشر، أن الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، يستولي على حصة الأسد ضمن سياق عملية الاتصال بمفهومها الشامل، وهو الأمر الذي أكدته الدراسات الحديثة التي - كما أشرنا في الفصل التمهيدي - برهنت على أن حصة الاتصال غير اللفظي قد تصل إلى 92٪ من عملية الاتصال ، خاصة فيما يتعلق بالحصول على المعرفة من العالم المحيط بنا.

فلا غرو أن يكون أقصى ما يتمناه الإنسان - على الرغم من صعوبة مناله - هو رؤية الله سبحانه وتعالى، كما فعل سيدنا موسى عليه السلام. ويكفي أن تنزل سورة عبس عتابا لرسول الله ﷺ على تعبيره الوجهي العابس وتوليه الذي لم يكن يتبع من رغبة في التقليل من شأن الغير أو احتقاره؛ ليتبين لنا مدى أهمية الاتصال غير اللفظي في حياة الإنسان. والمثال الأبرز في أهمية

الاتصال غير اللفظي ورقيّه لدرجة الاتصال اللفظي، نجده في صيام سيدنا زكريا عليه السلام عن الكلام لمدة ثلاثة أيام، والاكتفاء باستخدام لغة الإيماء.

ونجد في القرآن الكريم ذكرا لجميع الأوضاع التي يتخذها الجسم أثناء الحركة أو السكون، بجزئياتها الدقيقة التي يندر أن نجدها في أي نص آخر، وينفرد القرآن الكريم بذكر بعض الأوضاع التي يتخذها الجسم، ذات الطابع التعبدي، والمرتبطة بفريضتي الصلاة والحج. تكمن أهمية الاتصال عبر حاسة اللمس، في القرآن الكريم، في استعارته للتعبير عن المعاشرة الزوجية؛ وكذلك في اتخاذه أحد أبرز وسائل التعذيب لأصحاب النار. ولا تقل حاستا الشم والذوق أهمية عن حاسة اللمس، سواء في الاستمتاع بالروائح الذكية وما لذ وطاب، أو بتلقي شتى ضروب العذاب من استنشاق الروائح الكريهة والاضطرار لتناول ما يستساغ ولا يطاق كشرب الحميم وأكل شجرة الزقوم.

ويقدم لنا القرآن الكريم العديد من المعلومات والأفكار التي يمكن أن توسع إدراكنا لأهمية التواصل بالمسافة. فالله سبحانه وتعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، وهو - جلّ وعلا - في الوقت نفسه خارج نطاق التحييز، ولا يمكن الإشارة إلى مكان تواجده في جهة من الجهات؛ وهناك الجنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض، ولا شك أن طولها أكبر من ذلك.. كل هذه الأمور تستعصي على إدراكنا المحدود للمسافات والأمكنة. ويؤكد القرآن الكريم أهمية الإقليمية، ويستعرض كل الاتجاهات الكائنة في الوجود.

أما المظهر، فالقرآن الكريم غني بعناصره ودلالاته. إذ نجد العديد من الآيات القرآنية التي تذكر الألوان المشهورة كالأخضر والأصفر والأبيض والأسود والأزرق والأحمر، تفاضل بينها. ويؤكد القرآن الكريم أهمية الملابس في حياة الإنسان عندما يستخدمها لستر عوراته ولكي تحميه من المؤثرات الخارجية الضارة، وكذلك لكي يستمتع بمنظرها ويمتع به الآخرين.

ونجد في ذكر العديد من الأصوات ضمن سياقات مختلفة، أدلة قوية على أهمية التواصل عبر الصوت، خاصة عندما يذكر القرآن الكريم أن نهاية حياتنا الدنيا، التي نكابد فيها من المهد إلى اللحد، تتوقف على نفخة أولى من المَلَك إسرافيل في الصور فيقضى علينا، ونفخة ثانية تقودنا إلى أرض المحشر. وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تظهر الطابع التواصلي للمظاهر غير اللفظية للغة.

ويمتاز ترتيب البيئة المستشف من القرآن الكريم بتعدد مستوياته. فهو ينطلق من البيئة اللصيقة بالإنسان كالسكن الذي يأوي إليه، إلى الحي فالقرية أو المدينة إلى البلد الذي ينتمي إليه، ومن ثم الأرض التي يعيش فوقها ويسير عليها، وما تتضمنه من تضاريس وقطاعين نباتي وحيواني وجمادات أخرى؛ وينتقل إلى مستوى ترتيب بيئة السماء بما تتضمنه من أجرام مرتبة ترتيبا بديعا يضمن لها حركة دائمة لا تحيد عنها إلا بإذنه تعالى؛ وينتقل بنا القرآن إلى مستوى ترتيب بعض الموجودات غير المرئية والتي لا سبيل لإدراكها في الحياة الدنيا كالعرش والكرسي والجنة والنار.

أما مفهوم الزمان وكيفية إدراكه، فالقرآن يقدم لعلم الاتصال غير اللفظي، العديد من المفاهيم والأفكار التي تغنيه، عبر الحديث عن مفهوم اليوم وعلاقته بنسبية الوقت؛ واختلاف إدراك الزمان وفقا للحالة الجسدية والنفسية للمتلقي. ويقدم لنا أمثلة عديدة عن الثنائيات المرتبطة بالوقت، كالماضي والمستقبل؛ والإسراع والإبطاء؛ والدنيا والآخرة. والأهم من ذلك، يتضمن القرآن الكريم إشارات عديدة للزمان المطلق من خلال مفهوم الخلود والأبد.

يتميز الاتصال غير اللفظي المستنبط من القرآن الكريم، عن غيره الذي توصلت إليه الدراسات الحديثة، بأن القرآن الكريم صادر عن الله سبحانه

وتعالى المتصف بالكمال في العلم والمعرفة والإحاطة والتواصل المطلق. فالقرآن الكريم هو منتهى الصدق في القول، ويقدم للإنسان من المعرفة المتكاملة، ما لا يمكن أن يجده في مصدر أو نص آخر، خاصة عند الحديث عن الماضي البعيد غير المؤرخ، أو المستقبل غير المنظور. كما يتطرق الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، للحياة الملموسة التي يحياها الإنسان لحظة بلحظة، وللجانب الخفي من الحياة بما يتضمنه من كائنات وآليات تتحكم في وجود الإنسان وسلوكه. ومن أبرز سمات الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، شمولية نظرته لعملية الاتصال، بحيث يزود الدارس لعلم الاتصال غير اللفظي، بالعديد من الإشارات والأفكار التي تفتح الباب أمامه واسعا لإجراء المزيد من البحث العلمي التطبيقي.

وهكذا، يمكن لنا أن نعتبر القرآن الكريم، أهم نص يؤرخ للعديد من السلوكات غير اللفظية، ويعرّف بالقنوات غير اللفظية منذ أن خلق الله الكون إلى أن يرثه. فقد أخبرنا القرآن الكريم ببعض مظاهر التواصل غير اللفظي عند خلقه للسماوات والأرض، وأثناء الأحداث التي رافقت خلق آدم، متضمنة سلوكات الملائكة وإبليس وآدم وحواء. وحدثنا القرآن الكريم عن بعض السمات التواصلية غير اللفظية لبعض الحضارات والأقوام التي عاشت وبادت في الماضي البعيد؛ كقوم نوح وعاد وثمود وآل فرعون، ومملكة سبأ وبني إسرائيل، والمنافقين الذين عاصروا الرسول (ص).. وقصص العديد من الرسل والأنبياء، فضلا عن الطبيعة البشرية، كما خلقها الله سبحانه وتعالى.

من بين الأمور التي شغلت بال المهتمين بدراسة الاتصال غير اللفظي، الطبيعة الوجودية للسلوك غير اللفظي: هل هو فطري أم مكتسب؟، وهناك ارتباط بين طبيعة السلوك غير اللفظي ومدى انتشاره، أي مدى عالميته أو إقليميته.

لقد بينت الدراسات الحديثة عن الاتصال غير اللفظي، أن التعبيرات الوجهية عن العواطف الرئيسة، ذات طبيعة فطرية، تولد مع الإنسان، ولا تختلف باختلاف الثقافات والإثنيات. وهذا ما يبدو جليا في القرآن الكريم، الذي تشير آياته إلى الضحك والفرح والبكاء والخوف والاشمئزاز والاندهاش والغضب، والعديد من التعبيرات الوجهية الأخرى، باعتبارها تصدر عن الإنسان للتعبير عن انفعالات وعواطف معينة يشترك فيها جميع الناس، ويتم إدراكها وفهمها من لدن كافة الناس، بغض النظر عن الحقب الزمنية التي عاشوا فيها أو الحضارات التي انتموا إليها.

ويضفي القرآن الكريم على بعض السلوكات غير اللفظية طابع العالمية، من حيث وقت ظهورها ودلالتها التي لم تتغير إلى الآن. فقد ثبّت القرآن الكريم، ترميز التعبير عن الندم بِعَضِّ الأنامل، وبعض السلوكات الإيمائية للعين كالغمز، أو التعبير عن الذل والخضوع بطأطأة الرأس، أو التعبير عن الاحترام والخضوع بالسجود.

ووفقا للطابع العالمي لرسالة القرآن وتوجهها للإنسان حثيما كان، فلابد من اعتبار جلّ السلوكات غير اللفظية التي وردت في القرآن ذات طابع عالمي، ويمكن إدراكها من لدن كافة الناس.

إن القراءة الشاملة لهذه الدراسة، تبين أن الفرضيات التي صاغها الباحث في المقدمة، قد تحققت إلى حد كبير، بل أكثر من ذلك، فقد أوردت الدراسة كمّا معتبرا من المادة المرتبطة بالاتصال غير اللفظي، والتي لم يتوقع الباحث أن يجدها. لهذا، فإننا ندعو الباحثين المهتمين بالاتصال غير اللفظي وغيرهم، باعتبار هذه الدراسة حافزا لإجراء المزيد من الدراسات التفصيلية المتعمقة في الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، انطلاقا من قناة اتصالية غير لفظية واحدة أو من موضوع محدد ضمن تلك القناة، أو دراسة

التكامل بين قنوات الاتصال غير اللفظي، أو إجراء مقارنات بين ما ورد في القرآن الكريم وما أفرزته نتائج الدراسات الحديثة.

لقد خلص الباحث، من خلال إنجازه لهذه الدراسة، إلى أن:

- أي محاولة لفهم الاتصال البشري في المجتمعات الإسلامية والعزبية، فهما صحيحا، لابد لها من الاستئناس بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الفكري الإسلامي والعربي. فهذه المجتمعات تجرّ خلفها تراثا عقديا وفكريا وسلوكيا لا ينفك يتفاعل مع حاضرها. فمعظم السلوك التواصلي الديني مازال يحافظ على أشكاله الأولى التي ظهرت منذ أن جاء الإسلام. فما زال المسلمون يصلون ويحجون ويسبحون ويلقون تحية الإسلام بكيفية لا تختلف كثيرا عما كان يفعل أسلافهم.

- القرآن الكريم هو المنجم الرئيس الذي لا ينضب لدراسة الاتصال البشري، وهو المنطلق الأول لتأصيل علم الاتصال حتى يتمكن العالم من فهم المجتمعات الإسلامية والعربية ويتواصل معها بكيفية فعّالة. والأهم من ذلك:

- القرآن الكريم، يجسّد رسالة اتصالية بالغة التأثير، حماها الله من كل الصعوبات وعناصر التشويش التي تتعرض لها الرسائل الاتصالية الأخرى. فالقرآن الكريم محفوظ من التحريف؛ كما أن عملية إرساله وتلقيه مفروضة على كل مسلم، على الأقل أثناء أداء الصلوات. والواقع يؤكد أن معظم المسلمين - العرب منهم على وجه الخصوص - يستخدمون العديد من عباراته في لغتهم المتداولة. وللقرآن الكريم - باعتباره رسالة اتصالية - وقع مؤثر في أسماع الذين يتلقونه، لذا فهو لا يُملّ، ويحتاج الإنسان لتلقيه بكيفية مستمرة طوال حياته قصد استيعاب بعض ما يتضمنه، ليغذي به روحه ويبعد عنها الكدر ويبقيها على طريق التقوى والخشوع لله سبحانه وتعالى.

انطلاقا من هذا، نشجع الباحثين على إنجاز المزيد من الدراسات حول الاتصال في القرآن الكريم، ضمن مشروع طموح لتأصيل علم الاتصال. وتشمل هذه الدعوة أصحاب الدراسات الإعلامية والدراسات الإسلامية والمنحدرين من التخصصات الأخرى، باعتبار أن الاتصال علم شمولي يستوعب العديد مما توصل إليه البحث العلمي في العلوم الإنسانية والعلوم البحتة.

وقبل الختم، يقرّ الباحث أن الجهد المتواضع الذي بذله في إنجاز هذه الدراسة، لا يمكن أن يخلو من نقص، مثله كمثل كل الجهود البشرية. لذلك، فإنه سيسعى باستمرار لتصحيح الأخطاء وتطوير هذه الدراسة لتتعزز قيمتها العلمية.

بسم الله الرحمن الرحيم «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» صدق الله مولانا العظيم.

المصـــادر والمراجـــع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

1 - ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام - مجموع فتاوي ابن تيمية - الرباط: مكتبة المعارف - المجلدان الخامس والسادس - بدون تاريخ.

2 - ابن عاشور، محمد الطاهر - تفسير التحرير والتنوير (المعروف بتفسير ابن عاشور) - ثلاثون جزءا - بيروت: مؤسسة التاريخ، الطبعة الأولى 2000.

3 - ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر - قصص الأنبياء - بيروت: مكتبة الوحدة العربية، الطبعة الأولى 1983.

4 - ابن منظور الإفريقي المصري، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم - لسان العرب - بيروت: دار صادر - 15 مجلدا - الطبعة الأولى 1300هـ.

5 - إسلام، أحمد مدحت - لغة الكيمياء عند الكائنات الحية - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة «عالم المعرفة»، العدد 93، سبتمبر 1985.

6 - البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم - مختصر صحيح البخاري (المسمى: التجريد الصريح) - ضبطه وشرحه: مصطفى ديب البغا - دمشق: اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة السابعة 1999.

7 - بوربلي، الكسندر - أسرار النوم (ترجمة: أحمد عبد العزيز سلامة) - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة «عالم المعرفة»، العدد 163، يوليو 1992.

8 - جولمان، دانييل - الذكاء العاطفي - ترجمة ليلى الجبالي - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة «عالم المعرفة»، العدد 262، أكتوبر 2000.

9 - الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد - تفسير الكشاف عن

حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - أربعة أجزاء - بيروت: دار الكتب العلمية - 1995.

10 - ساغان، كارل - الكون (ترجمة: نافع أيوب لبّس) - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة «عالم المعرفة»، العدد 178، أكتوبر 1993.

11 - ساغان، كارل - كوكب الأرض: نقطة زرقاء باهتة. رؤية لمستقبل الإنسان في الفضاء (ترجمة: شهرت العالم) - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة «عالم المعرفة»، العدد 254، فبراير 2000.

12 - الصابوني، محمد علي - صفوة التفاسير - ثلاثة مجلدات - بيروت: دار القلم العربي - الطبعة الأولى 1979.

13 - صخر لبرامج الحاسب - موسوعة الحديث الشريف - قرص مدمج - القاهرة، الإصدار 1-2، 1995-1997.

14 - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير - تفسير الطبري (المسمى جامع البيان في تأويل القرآن) - ثلاثون جزءاً (12 مجلدا) - بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة 1999.

14 - عبد الباقي، محمد فؤاد - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - بيروت: دار الفكر - الطبعة الرابعة 1997.

15 - عبد الرحمن، سوسن أحمد - ذكر السمع قبل البصر في آيات خلق الإنسان في القرآن - صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن: العدد 7853 - الاثنين 2000/5/29.

16 - الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد - إحياء علوم الدين - خمسة أجزاء - بيروت: دار الكتب العلمية - بدون تاريخ.

17 - الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري - تفسير الفخر الرازي (المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب) - 34 جزءا (17 مجلدا) - بيروت: دار الفكر، 1995.

18 - موسى، محمد الأمين - الاتصال غير اللفظي - الرباط، 1996.

19 - المنذري، الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي - مختصر صحيح مسلم - تحقيق: مصطفى ديب البغا - دمشق: اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الثالثة 2000.

20 - وجيه، حسن محمد - مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة «عالم المعرفة» - العدد 190، أكتوبر 1994، خاصة الفصول: السابع، والتاسع، والثاني عشر، والثالث عشر، والسادس عشر،

والسابع عشر.
21 - ويلسون، جلين - سيكولوجية فنون الأداء - (ترجمة شاكر عبد الحميد) - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة «عالم المعرفة» - العدد 258، يونيو 2000.

ثانياً : باللغة الإنجليزية

22 - Adler, Ronald B. and Rodman, George. 1988 - Understanding Human Communication - New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc. - Third Edition.

9 - Andersen, Peter A. 2000 - Nonverbal Communication: Forms and Functions - Mayfield Publishing Co., 1999 - http://acjournal.org/holdings/vol3/lss3/reviews6.html.

23 - Argyle, Michael. 1972 - The Psychology of Interpersonal Behavior - Harmondsworth: Penguin Books.

24 ------ 1975 - Bodily Communication - London: Methuem Co., LTD, 1975 .

25 ------ 1980 - Verbal and Nonverbal Communication - In: John Corner and Jermy Hawthorn (Ed.) - Communication Studies: An Introductory Reader - London: Edward Arnold (Publishers) - 1980.

26 ------ 1983a - The Psychology of Interpersonal Behavior - Harmondsworth: Penguin Books LTD, 1983.

27 ------ 1983b - Non-verbal Communication in Human Social Interaction - In: Hedy Brown and Richard Stevens (Eds.) - Social Behavior and Experience: Multiple Perspective - Mill Road: The Open University Pess.

28 - Benford, Steve, Brown, Chris, and Koleva, Boriana. 2000 - Mixed Reality Boundaries for Virtual Performane - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/interactive/mreality.html.

29 - Benyon, David. 2000 - Beyond Navigation as Metaphor - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/metaphor.html.

30 - Bloch, S., Orthous, P., and Santibanez, H. G. 1987 - Effector Patterns of Basic Emotions: A Psycolophysiological Method for Training Actors - Jouran of Social and

Biological Structure, 10 .

31 - Bremmer, Jan and Roodenburg, Herman. 1991 (Eds.)- A Cultural History of Gesture - Ithaca, New York: Cornell University Press.

32 - Brenner, Robert C. 1999 - Body Language in Business: How to Sell Using Your Body.

33 - Buck, Ross - Nonverbal Communication: Spontaneous and Symbolc Aspects - In: "American Behavioral Scientist" (Volume31, No.3, January/February 1988).

34 - Capper, Simon. 2000 - Nonverbal Communication and the Second Language :earner: Some Pedagogic Considerations - http://langue.hyper.chubu.ac.jp/jalt/pub/tlt/00/ay/capper.html.

35 - Christensen, G. Jay. 1998 - Nonverbal Communication Helps us Live - http://www.csun.edu/~vcecn006/nonver.htm.

36 - Cytowic, Richard E. 1993 - The Man Who Tasted Shaped - New York: G. P. Putman's Sons - In: Givens - Limbic System.

37 - de Antonio, Angélica, Carrazoni, Gustavo, Aguado, Guadalupe, and Segova, Javier. 2000 - Nonverbal Communication and Believable Interaction in Virtual Environments - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/interactive/nonverbal.html.

38 - Druckman, Daniel, Rozelle, Richard M. and Baxter, James C. 1982 - Nonverbal Communication: Survey, Theory, and Research - (Sage Library of Social Research, Volume139) - London: Sage Publications, Inc.

39 - Dunn, Laurel J. 2000 - Nonverbal Communication: Information Conveyed Through the Use of Body Language - http://crearinghouse.music.edu/manscripts/70.asp.

40 - Ekman, Paul and Friesen, Wallace V. 1969 - The Repertoire of Nonverbal Behavior: Categories, Origins, and Coding - Seiotica.

41 - Ekman and Friesen - Measuring Facial Movement with the Facial Action Coding System - In: Scherer and Ekman - .....

42 - Fidelman, Carolyn. 2000 - Extending the Language Curriculum with Anabling

Technologies: Nonverbal Communication and Interactive Video - http://face-to-face.org/article1/calico1.htm
43 - Forsberg, Mattias, Hook, Kristina, and Svensson, Martin. 2000 - Design Principle for Social Navigation Tools - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/socialnavi.html.
44 - Gahagan, Judy. 1984 - Social Interaction and its Management - London and New York: Methuem.
45 - Gibbon, Dafydd. 2000 - Introduction to Nonverbal Communication - http://coral.lili.uni-bielefeld.de/classes/winter97/phonMM/phonmm/node38.html.
46 - Givens, David B. 2000a - Human Brain - http://members.aol.com/ninverbal3/human.htm.
47 ------ 2000b - Nonverbal Brain - http://members.aol.com/ninverbal2/nvbrain.htm.
48 ------ 2000c - Aquatic Brain & Spinal Cord - http://members.aol.com/ninverbal2/aquatic.htm.
49 ------ 2000d - Amphibian Brain - http://members.aol.com/ninverbal2/amphibia.htm.
50 ------ 2000e - Reptilian Brain - http://members.aol.com/ninverbal3/reptile.htm.
51 ------ 2000f - Mammalian Brain - http://members.aol.com/ninverbal3/mammal.htm.
52 ------ 2000g - Primate Brain - http://members.aol.com/ninverbal3/primate.htm.
53 ------ 2000h - Limbic System - http://members.aol.com/ninverbal3/limbic.htm.
54 ------ 2000i - Amygdala - http://members.aol.com/ninverbal2/amygdala.htm#AMYGDALA.
55 ------ 2000j - Kinesics - http://members.aol.com/doder1/kinesics1.htm.
56 ------ 2001 - Nonverbal Communication - http://members.aol.com/ninverbal2/nvcom.htm.
57 - Gostand, Reba. 1980 - Vernal and Non-verbal Communication: Drama and Translation - In: Ortum Zuber (Ed.) - The Language of Theatre: Problems in the Translation and Transposition of Drama - Oxford: Pergamon Press.

58 - Guyton, Arthur C. 1996 - Textbook of Medical Physiology - Philadelphia: W. B. Saunders - 9th Edition - In: Givens - Limbic System .

- Hall, Edward. 1966 - The Hidden Dimension - Gaden Sity and New York: Doubeday.

59 - Hargie, Owen, Saunders, Christine, and Dickson, David. 1981 - Social Skills in Interpersonal Communication - Wocester: Billings LTD.

60 - Harper, G. R., Wies, A. N., & Matarazzo. 1978 - Nonvernal Communication: The State of the art - New York: Wiley.

61 - Harrison, Randall P. 1972 - Nonverbal Behavior: An Approach to Human Communication - In: Richard W. Budd and Brent D. Ruben - Approaches to Human Communication - New Jersey: Spartan Books.

62 - Helm, Ted. 2001 - An Overviev of Nonverbal Communication in Impersonal Relationships - http://hamp.hahmshire.edu/~enhF94/kinesics.html.

63 - Hook, Kristina, and Svensson, Martin. 2000 - Evaluating Adaptive Navigation Support - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/adaptiveeval.html.

64 - Kaplan, Robbie Miller. 2000 - Eights tips for using Nonverbal Communication to Make a Positive Impression - http://www.job-resources.com/0005tim.htm.

65 - Kendon, Adam. 1981 - Nonveerbal Comunication, Interaction and Gesture - New York: Mounton Publishers.

66 - ___ 1990 - Conducting Interaction: Patterns of Behavior in Focused Encounters - Cambridge: Cambridge University Press.

67 - King, Donnell. 1997 - Nonverbal Communication - http://www2.pstcc.cc.tn.us/~dking/nvcom.htm.

68 - Knapp, Mark L. 1972 - Nonverbal Communication in Huan Interaction - New York: Holt, Richard and Winston Co.

69 -Knapp, Mark L. and Miller, Gerald R. 1985 - Handbook of Interpersonal Communication - Beverly Hills: Sage Publications, Inc.,

70 - Lane, Derek R. 2000 - Function and Impact of Nonverbal Communication in a

Computer Mediated Communication Context: An Investigation of Defining Issues - http://www.uky.edu/~drlane/techno/nvcmc.htm.

71 - Leathers, Dale. 1997 - Successful Nonverbal Communication: Principles and Applications - Allyn & Bacon.

72 - Lloyd, Peter, Mayes, Andrew, Manstead, ASR., Meudell, PR., and wagner, PR. 1984 - Introduction to Psychology: An Integrated Approach - London:Fontana Press

73 - Maldano, Jorge Luis. 1987 - Narcissim and Unconcious Communication - In: "International Journal of Psycho-analysis" (Volume68, No.37).

74 - Marti, Patrizia and Siena, U. 2000 - An Experiential Modality of Exploring Physical and Virtual Spaces - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/expmodality.html.

75 - Martin, J. Torres, A., and Segovia, J. 2000 - AFation Market For Avatars - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/parea/fation.html.

76 - Masterson, John T. 1997 - Nonverbal Comunication in Text Based Virtual Realitied -

77 - McCall, Rod and Benyon, David. 2000 - A software Tool for Evaluating Navigation - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/navigation/softtool.html.

78 - Mehrabian, Albert . 1981- Silent Messages - Belmant: Wadsworth, Inc., Second Edition.

79 - Menges, Joyce. 1996 - Feeling Between the Lines - http://www.december.com/cmc/mag/1996/mength.html

80 - Morris, Desmond, Collet, Peter, Marsh, Peter, and O'Shaughnessy, Marie. 1979 - Gestures: Thier Origins and Distribution - London: Triad/Granada Publishing LTD.

81 - Noller, Patricia. 1984 - Nonveerbal Comunication and Marital Interaction - New York: Pergamon Press.

82 - Negotiation Teqniques: Nonverbal Communication - http://www>acq.osd.mil/dp/cpf/pgv1_0/pgv5c5.html.

83 - Nonverbal Expectancy Violations Model - http://uts.cc.utexas.edu/~adgrad/nvevm.html - 2000.

84 - Nonverbal Patients - http://www.ddhealthinfo.org/ggrc/doc2.asp?parentID=3199 - 2000.

85 - Online Women Business Center - Marketing YourSelf: Non-Verbal Communication - http://www.onlinembc.org/DOCS/market/mk_appear_nonverbal.html - 1997.

86 - Other Components of NVC Theory - http://uts.cc.utexas.edu/~adgrad/othercomponents.html - 2000.

87 - Patterson, Miles L. 1983 - Nonverbal Behavior: A Functional Perspective - New York: Spring Verlag.

88 ------ 1990 - Functions of Non-verbal Behavior in Social Interaction - In: Masterson - op. cite.

89 - Pennycook, Alastair. June 1985 - Actions Speak Louder Than Words: Paralanguage Communication and Education - In: "Tesol Quarterly" (Volume 19, No.2).

90 - Poyatos, Fernando. 1982 - New Perspective for an Integrative Research of Nonverbal Systems - In: Mary Richie Key (Ed.) - Nonverbal Communication Today: Current Research - Berlin: Walter de Gruter and Co.

91 ------ 1983 - New Perspective in Nonveerbal Comunication: Studies in Cultural Inthropology, Social Psychology, Linguistics, Literature and Semiotics - Oxford: Pergamon Press.

92 - Reber, Arthur S. 1985 - The Penguin Dictionaty of Psychology - London: Penguin Group.

93 - Research on the Relative Importance of NVC - http://uts.cc.utexas.edu/~adgrad/importance.html - 2000.

94 - Richmond, Virginia P. and McCrosky, James C. - Nonverbal Behavior in Interpersonal Relations - Third Edition, Allyn & Bacon, 1995.

95 - Rozelle, Richard M., Druckman, Danial, and Baxter, James C. 1981 - Nonverbal Behavior in Perspective - In: Raymond Williams (Eds) - Contact Human Communication and its History - London: Thomas and Hudson LTD.

96 - Scherer, Klaus R. and Ekman, Paul. 1982 - Handbook of Methods in Nonverbal Behavior Research - (Eds) - London: Cambridge University Press.

97 - Schubert, Glendon. 1982 - Nonverbal Communication as Political Behavior - In: Mary RichieKey (Ed.) - Nonverbal Communication Today: Current Research - Berlin: Walter de Gruter and Co.
98 - Strauss, Wolgang, Fleischmann, Monika, Novak, Jasminko, and Thomsen, Mette. 2000 - Towards Extended Performance: Reconsidering the Concept of a Multi User Environment - http://www.i3net.org/ser_pub/annualconf/abstracts/interactive/extperformance.html.
99 - Ritts, Vicki and Stien, James R.

المحتويات

المقدمة ٩
الفصل التمهيدي: التعريف بعلم الاتصال غير اللفظي ٢٧
- المبحث الأول: ما المقصود بالاتصال غير اللفظي؟ ٣١
- المبحث الثاني: فسيولوجيا الاتصال غير اللفظي ٤٣
- المبحث الثالث: الدراسة العلمية للاتصال غير اللفظي ٥٧
- المبحث الرابع: قنوات الاتصال غير اللفظي ٧٣
- المبحث الخامس: وظائف الاتصال غير اللفظي ٨٩
- المبحث السادس: تطبيقات الاتصال غير اللفظي ٩٩
الفصل الأول: الاتصال بالعين في القرآن الكريم ١١٥
- المبحث الأول: العين في القرآن الكريم ١٢١
- المبحث الثاني: البصير ١٣١
- المبحث الثالث: علم الغيب ١٣٩
- المبحث الرابع: الشهادة ١٤٧
- المبحث الخامس: البصر والأبصار والإبصار ١٥٥
- المبحث السادس: النظر ١٦٥
- المبحث السابع: الرؤية ١٧٩
- المبحث الثامن: الإعراض والتولّي ٢٠١
- المبحث التاسع: سلوك العين والسياق التواصلي ٢١٣

- المبحث العاشر: العمى ٢٣٥
الفصل الثاني: التعبيرات الوجهية ٢٤٣
- المبحث الأول: الوجه ٢٤٧
- المبحث الثاني: ملامح الوجه ٢٦١
- المبحث الثالث: التعبيرات الوجهية ٢٧١
- المبحث الرابع: الوجه والتعبير عن العواطف ٢٨٥
الفصل الثالث: الإيماء ٢٩٩
- المبحث الأول: البعد التواصلي لليد ٣٠٣
- المبحث الثاني: الإيماءات ٣١٥
- المبحث الثالث: التسبيح ٣٣٥
- المبحث الرابع: التحية ٣٤١
الفصل الرابع: الهيئة وأوضاع الجسد ٣٤٩
- المبحث الأول: القيام أو الوقوف ٣٥٥
- المبحث الثاني: الجلوس ٣٦٣
- المبحث الثالث: الاستلقاء والنوم ٣٧٥
- المبحث الرابع: المشي ٣٨١
- المبحث الخامس: الجري ٣٩١
- المبحث السادس: الصلاة ٤٠١
- المبحث السابع: الهبوط والصعود ٤١٧
- المبحث الثامن: البعث والحشر ٤٢٥
- المبحث التاسع: الوضع والحركة والهيئة ٤٣٧
الفصل الخامس: الاتصال عبر حاسة اللمس ٤٧٧
- المبحث الأول: اللمس ٤٨١
- المبحث الثاني: المسك ٤٩٥
- المبحث الثالث: الألم واللمس ٥٠٣
الفصل السادس: الشم والذوق ٥١٥
- المبحث الأول: الشم ٥١٩
- المبحث الثاني: الذوق ٥٢٩
- المبحث الثالث: الشراب ٥٤١
- المبحث الرابع: الطعام ٥٤٩
الفصل السابع: المسافة والاتجاهات ٥٦٣
- المبحث الأول: دلالة المسافة ٥٦٩

- المبحث الثاني: القرب والبعد ٥٧٩
- المبحث الثالث: الإقليمية ٦٠١
- المبحث الرابع: الفصل بين الأماكن والأفراد ٦١٣
- المبحث الخامس: الاتجاهات والتموضع ٦٢٥
الفصل الثامن: المظهر ٦٤٧
- المبحث الأول: الشكل ٦٥٣
- المبحث الثاني: اللباس ٦٦٣
- المبحث الثالث: الألوان ٦٧٥
- المبحث الرابع: الأنواع ٦٩١
- المبحث الخامس: النباتات والجمادات والظواهر الطبيعية ٧٢٣
- المبحث السادس: الجنس (الذكورة والأنوثة) ٧٤٣
- المبحث السابع: مراحل العمر والمظهر ٧٥٣
- المبحث الثامن: الإظهار والإخفاء ٧٦٣
- المبحث التاسع: زينة الحياة ٧٧١
الفصل التاسع: الصوت والمظاهر غير اللفظية للغة ٧٧٩
- المبحث الأول: الصوت ٧٨٥
- المبحث الثاني: الدعاء والدعوة والنداء ٨٠٣
- المبحث الثالث: التلاوة والترتيل ٨٠٩
- المبحث الرابع: أصناف الحديث والقول ٨١٥
- المبحث الخامس: السمع ٨٣١
- المبحث السادس: النطق والصمت والتحكم في الكلام ٨٤١
الفصل العاشر: ترتيب البيئة ٨٥١
- المبحث الأول: الأرض ٨٥٧
- المبحث الثاني: الكائنات الحية ٨٨١
- المبحث الثالث: الجمادات ٨٨٩
- المبحث الرابع: السكن ٨٩٧
- المبحث الخامس: أماكن العبادة ٩٠٥
- المبحث السادس: ترتيب السماء ٩١٣
- المبحث السابع: بيئة القيامة ٩٣١
- المبحث الثامن: بيئة الجنة ٩٣٩
- المبحث التاسع: بيئة النار ٩٥٣

الفصل الحادي عشر: مفهوم الزمان ٩٦٥
- المبحث الأول: وحدات الزمن الصغرى والكبرى ٩٧١
- المبحث الثاني: مفهوم اليوم ١٠٠٧
- المبحث الثالث: أيام الأسبوع والشهور ١٠٣٧
- المبحث الرابع: الماضي والمستقبل ١٠٤٣
- المبحث الخامس: الإسراع والإبطاء ١٠٥٩
- المبحث السادس: الانتظار والتربص والمكوث ١٠٦٧
- المبحث السابع: الصبر ١٠٧٥
- المبحث الثامن: الدنيا والآخرة ١٠٨٥
- المبحث التاسع: ديمومة الوقت ولانهائيته ١٠٩٠
الخاتمة ١٠٩٥
قائمة المصادر والمراجع ١١٠٨

ISBN 994804067-8
9789948040675

ISBN 994804196-8
9789948041962